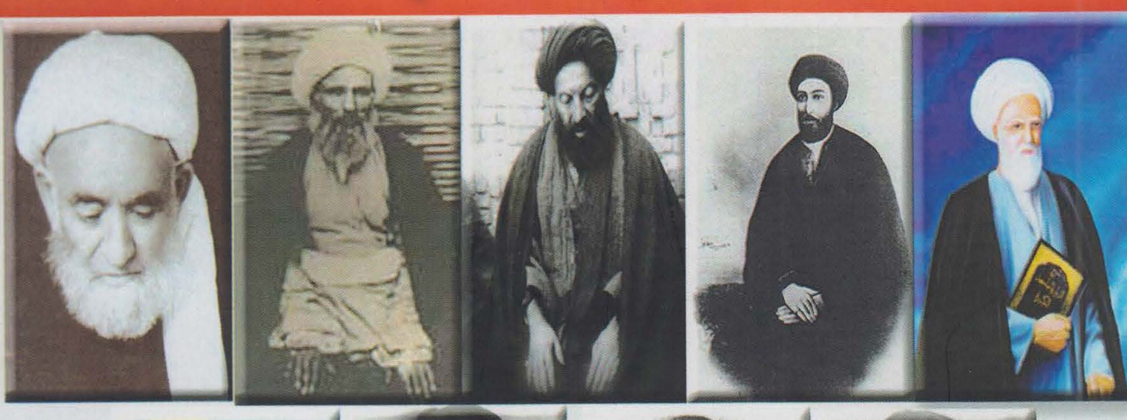
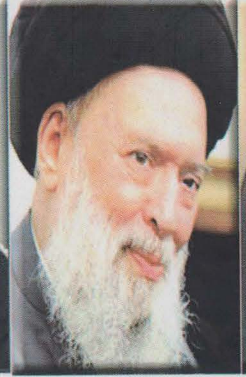
العنف حين يأتي من الداخل

علي المحرقي

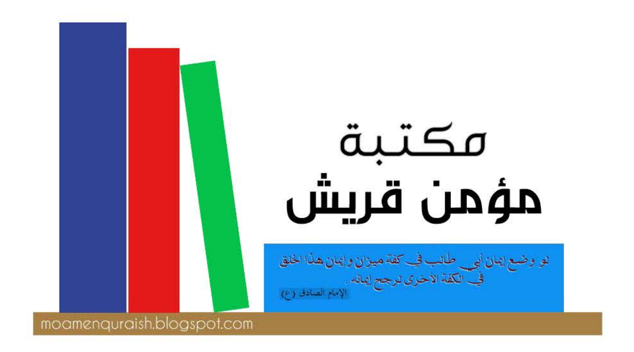







العنف

حين يأتي من الداخل



مقدمة

يعالج الكتاب في صفحاته المختلفة ثلاث قضايا جوهرية ومتشابكة بعضها ببعض، وهي :

١. تكفير المسلم.
٢. تقبل الآخر المختلف مع توجهاتي الفكرية.
٣. نقد الذات والاعتراف بالخطأ من الداخل.

هذه هي أهم المحاور التي تدور حولها فصول الكتاب، وهي التي تجمع العناوين كلها. فمن خلال التعصب للرأي، ومن خلال النظرة الأحادية وعدم الانفتاح على الآخر يتولد العداء والشدّة والغلظة مع كل من لا يوافقني في آرائي، ويأخذ بما أؤمن به، وأصبح أنا المحور والأساس في كل المتبنيات والأطر الفكرية بشتى صورها، الدينية والعقائدية والاجتماعية والفكرية، عندها يصدق عليّ لا أريكم إلا ما أرى، ولا أحتمل أدنى احتمال وبأقل نسبة من الصواب والحق للآخرين عداي، ومن ثم كل من يخالفني أصطدم معه، وأدعو لإقصائه. وتشتد العداوة والمحاربة والتحذير شيئا فشيئا، حتى تصل إلى حد التفسيق والتضليل ومن ثم إلى أقصى درجات العنف، وهو التكفير، مع من؟ مع إخواني وأبناء ملتي ومذهبي ومن يوافقونني في الأهداف والغايات، ولكنّهم اختلفوا معي في بعض المفاهيم والوسائل والنظرات، والتي انطلقت من الاجتهاد وإعمال الفكر والعقل التي يدعو لها الإسلام والشرع الحنيف، وأصول الدين والأئمة المعصومين (ع).

ونلاحظ هنا أنّ من يقود هذه الحملة التي تنطلق في اتجاه العنف والغلظة مع المختلفين من أبناء المذهب هم العلماء والمعممون وأبناء الحوزات الدينية، ويتكلمون في عنفهم هذا اللامشروع باسم الدين، وروايات النبي (ص) والأئمة المعصومين (ع)، ومن ثم يتشبع العوام بهذه الأقوال والنداءات والبيانات التي تخرج من أقلام العلماء لتكون حجة وغاية للعنف، حتى وصل الأمر ببعض العلماء أن دعا للقتل مباشرة أو تلميحا لبعض الذين اختلفوا معهم.

ربما ستسأل: هل من المعقول والمتصور أنّ عندنا من العلماء في التاريخ الشيعي من دعا وأفتى بتكفير العلماء من اقرانه؟ وهل هذا وارد؟ مع أنّ مذهبنا مذهب يدعو للسلم والتعايش والمحبة، ونحن أبناء السلم واللين والرفق، فضلا عن دعوة الإسلام والشريعة للين والرفق والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، هذا مع المخالفين من أبناء الملل الأخرى فكيف بأبناء المذهب الشيعي؟!

أجيب: للأسف نعم هذا ما ستجده في هذا الكتاب في صفحاته الطويلة الممتدة، فهناك عشرات الفتاوى والآراء التي خرجت من علماء أدّت إلى التكفير والتضليل والتفسيق لعلماء من المذهب، وراحت أسماء كثيرة من العلماء المصلحين ضحية لهذه الفتاوى والكتابات والتحريض المغلف بالدين والفتاوى، وصاروا يعانون الأمرين من العلماء ومن الحوزات الدينية ومن العوام، وباتوا يتجرعون الغصص والويلات، كل هذا بسبب رأي اجتهد فيه، لا تجد فيه خروجا من الدين ولا من المذهب، كأن يجتهد في مسألة الشهادة الثالثة فيوصله اجتهاده إلى أنها لا تجوز في الصلاة، أو أنّها من الغلاة، أو يجتهد آخر فيرى بأنّ ضرب القامة محرم شرعا، ويجتهد بعضهم ويعمل عقله وأدواته الاستنباطية فيرى بأنّ مسألة ضرب الزهراء (ع) أو الهجوم عليه يحتاج إلى إعادة نظر ودراسة .. وغيرها من مسائل عديدة، أهذا يستدعي من العلماء والعوام والحوزات التكفير والتضليل والتفسيق والإقصاء والنبذ لصاحب هذه الآراء؟ مع أنّنا نقول ونعلن على المنابر بأنّ الدين قد دعا للتفكير والاجتهاد، وأنّ مذهبنا قائم على الدليل، وكان الإمام الصادق (ع) يحاور ويجادل ويجالس أبناء كل المذاهب بكل رحابة صدر، ويتبادل معهم الحوار والجدال العلمي، ولا يتأفف أو يثور للآراء المخالفة، أو يكفر قائلها.

لعلّ من أخطر الأمور التي تؤدي إلى تمزق المجتمع، وتعمل على إضعافه، وإشاعة الهوان فيه، واختلاف أبنائه، وابعاده عن بؤرة الدين الحق هو مسألة التضليل والتكفير بوجه المؤمنين والمسارعة في ذلك بغير وجه حق .. والغريب أنّنا نرفع لواء النقد والتخطئة ونتبع أسلوب الاستهزاء للتيار السلفي، وإمامه الإمام ابن تيمية على أنّه يعمل على الدعوة للتكفير، والمسارعة في ذلك بحق المخالفين، وأبناء المذاهب الأخرى، وفي الوقت ذاته نحن نتبع الأسلوب عينه، ولكن ليس مع أبناء المذاهب الأخرى من المخالفين، بل مع أبناء المذهب الشيعي نفسه، وهو الأولى بالتطبيق، والدعوة للتعايش وتفهم اختلافي معه، واختلافه معي. وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين (ع):" من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم".

وهذا ما لا نجده في كثير من الأمثلة على مر التاريخ الشيعي في منهجيته في التعامل مع من يختلف معه، فنحن ندين العنف والتكفير والإقصاء مع المخالف، متى ما كان الأمر يعنينا ويشير من طرف خفي إلى أصحاب المذاهب الأخرى في تعاملها معنا حين ندعو للوحدة، وعدم تكفير الشيعة، وفي الوقت ذاته تجد عشرات الأمثلة للشيعي حين يختلف مع الشيعي لأدنى منطلقات الاختلاف التي يغلفها الاجتهاد المقبول، والرأي الحصيف، في الداخل، وكيف يتحول هذا الاختلاف إلى شقاق وتمزق وعنف وتشابك

وقتل وتكفير وعدم التورع عن حرمات المؤمنين، الدم والعرض والنفس والمال .. إي والله، كل هذا وأكثر منه ستجده أيها القارئ في هذا الكتاب.

" لا يجيز أحد من فقهائنا قتل أحد من المسلمين، بل هو كبيرة من الكبائر يستحق فاعلها أشد العقوبة، فلا أجر له ولا ثواب، بل عذاب اليم، وكذلك دم الشيعي عند إخواننا أهل السنه. وإن تكفير أهل القبلة أمر مردود على صاحبه، ومرفوض كتاباً وسنة .. قال تعالى في كتابه الكريم: " يا أيّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ..." (النساء:٩٤) . قال الواحدي في (أسباب النزول ص١١٥) : أخبرنا أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار قال : حدثنا محمد بن عباد قال : حدثنا سفيان عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال : لحق المسلمون رجلا في غنيمة له، فقال : السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فنزلت هذه الآية: " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا " تلك الغنيمة. رواه البخاري عن علي بن عبد الله، ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن سفيان .

وأيضاً ذكر الواحدي : عن ابن عباس قال : مر رجل من سليم على نفر من أصحاب رسول الله (ص) ومعه غنم فسلم عليهم، فقالوا : ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فقاموا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله (ص) فأنزل الله تعالى : " يا أيّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا " انتهى . وفي (الدر المنثور/ للسيوطي ج٢ ص ٢٠١) : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله :" ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا " قال : حرّم الله على المؤمنين أن يقولوا لمن يشهد أن لا إله إلا الله لست مؤمنا كما حرّم عليهم الميته فهو آمن على ماله ودمه فلا تردوا عليه قوله.

وفي (أحكام القرآن/ للجصاص ج٢ ص٣٦١) قال : قال النبي (ص): (إياكم والظن فإنه أكذب الحديث) . وقال تعالى: " ولا تقف ما ليس لك به علم " وقال: " إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ " ، ومعلوم أنه لم يرد حقيقة العلم بضمائرهنّ واعتقادهنّ وانما أراد ما ظهر من إيمانهنّ من القول، وقال تعالى: " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا " وذلك عموم في جميع الكفار، وقال النبي (ص) لأسامة بن زيد حيث قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله فقال: إنما قالها متعوذا، قال : هلا شققت عن قلبه. (انتهى) .

وفي (فقه السنة/ لسيد سابق ج٢ ص٥٩٦) : وفي ميدان الحرب والقتال إذا أجرى المقاتل كلمة السلام على لسانه وجب الكف عن قتاله، يقول الله تعالى : " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا " . انتهى .

نقول: فما بالك بالذي يشهد الشهادتين؟! ويؤمن بالمعاد؟! ويأتي بما أوجب الله تعالى عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها من فروع الدين؟! هل يحق لأحد ممن يدّعي الإسلام أن يكفره أو يقاتله أو يعتدي على ماله ويسبي ذراريه (وهو ما يفتي به علماء الوهابية بحق من خالفهم من المسلمين ويخصون بالذكر اتباع أهل البيت (ع) يبتغون بذلك عرض الحياة الدنيا كما هو الواقع الذي تحكي عنه الآية السابقة، فبئس ما يصنعون) . وقد ورد في السنة الشريفة من الأحاديث والمواقف الدالة على النهي الشديد عن تكفير أهل القبلة وأهل الشهادتين وقتالهم، نذكر جملة منها :

قال النبي (ص) : (لا تكفّروا أهل ملتكم وإن عملوا الكبائر). وقال (ص) : (لا تكفروا أحدا من أهل القبلة بذنب وإن عملوا الكبائر). نقول: نعم إنّ الكبائر توجب العقاب لا الكفر .وقال (ص) : (بني الاسلام على خصال : شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسول الله (ص) والإقرار بما جاء من عند الله ، والجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين ... فلا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك) . وقال (ص) : (بني الإسلام على ثلاث ... أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك). عن ابن عمر : إن رسول الله (ص) قال : (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) . وعن أبي ذر : أنه سمع رسول الله (ص) يقول : (لا يرمي رجل رجلا بالفسق أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) . وقال (ص) : (من كفر أخاه فقد باء بها أحدهما). وقال (ص) : (أيّما رجل مسلم كفر رجلا مسلما فإن كان كافرا وإلا كان هو الكافر) . وقال (ص) : (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله). وقال (ص) : (كفوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنب، فمن أكفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب) .

هذه الأحاديث مبثوثة في (جامع الأصول : ١ و ١٠ و ١١)، كما أنّها مجموعة بأسرها في (كنز العمال/ للمتقي الهندي : ج١٠). وفي البخاري (ص ١٢٢٦ ح ٦٩٣٨ باب ما جاء في المتأولين) عن الزهري : أخبرني محمود بن الربيع قال سمعت عتبان بن مالك يقول : غدا عليّ رسول الله (ص)، فقال رجل : أين مالك بن الدخشن ؟ فقال رجل منا : ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال النبي (ص) : (ألا تقولوه : يقول لا إله الا الله يبتغي بذلك وجه الله) قال : بلى، قال : (فإنّه لا يوافى عبد يوم القيامة به، إلا حرّم الله عليه النار) . وفي البخاري أيضا : عن ابن ظبيان : سمعت أسامة بن زيد بن حارثة قال : بعثنا

رسول الله (ص) إلى الحرقة من جهينة، قال فصحبنا القوم فهزمناهم، قال : ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال : فلمّا غشّيناه قال : لا إله إلا الله، فكفّ عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبي (ص) قال : فقال لي : (يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله) ؟ قال : يا رسول الله إنما كان متعوذا، قال : (أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله) . قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم (ص١٢١٥ ح٦٨٧٢ باب قوله تعالى : ومن أحياها...) .

وفيه أيضاً، عن الزهري قال: حدثنا عطاء بن يزيد : أنّ عبيد الله بن عدي حدّثه : أنّ المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زهرة، حدّثه . وكان شهد بدرا مع النبي (ص) . أنّه قال : يا رسول الله إن لقيت كافرا فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة وقال : أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله (ص) : (لا تقتله) قال : يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها، أقتله ؟ قال : (لا تقتله فإن قتلته فإنّه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال). (راجع صحيح البخاري ص ١٢١٤ ح٦٨٦٥ باب قوله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا ...). وتجدر الملاحظة هنا إلى أن البخاري قد أجرى على الكافر الناطق بالشهادتين صفة الإيمان وأدرج الحديث المذكور في باب (ومن يقتل مؤمنا...)، فتنبه !!

وفي البخاري (كتاب الزكاة ص ٤٧) ومسلم (٧ / ١٧١ ح ١٠٦٤) وأحمد في المسند (٤ / ١٠ ح ١١٠٠٨) و عن أبي يعلي في مسنده (٣٩٠ . ٣٩١ ح ١١٦٣) لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم (ص) بقوله أعدل، ثارت ثورة من كان في المجلس منهم خالد بن الوليد قال : يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله (ص) : (فلعله يكون يصلي) فقال : إنّه ربّ مصلّ يقول بلسانه ماليس في قلبه، فقال رسول الله (ص) : (إنّي لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم) (انتهى) . وفي هذه الأحاديث نجد الدلالة واضحة في النهي عن تكفير أهل القبلة وأهل الشهادتين كذلك والنهي عن رمي الناس بالكفر أو الشرك لأدنى ذنب أو خلاف .

ومن أقوال العلماء في النهي عن تكفير أهل القبلة والناطقين بالشهادتين : قال ابن حزم عندما تكلم فيمن يكفر ولا يكفر : " وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفر ولا يفسّق مسلم بقول قال في اعتقاد، أو فتيا، وإنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحق فإنّه مأجور على كل حال إن أصاب فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد . قال: وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي . وهو قول كل من عرفنا له قولا في هذه المسألة من الصحابة (رضي الله عنهم) لا نعلم منهم خلافا في ذلك أصلا". (الفصل بين الملل والنحل ٢٤٧/٣). وفي (اليواقيت والجواهر/

للشعراني ص٥٨) : " قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي : إن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جدا، وكل من كان في قلبه إيمان ليستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر" (انتهى) . وفي المصدر ذاته : " وكان أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري (من أجلاء أصحاب الإمام الاشعري) يقول : لما حضرت الشيخ أبا موسى الأشعري الوفاة بداري في بغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتهم له، فقال : اشهدوا على أنني لا أكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، لأني رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم".

وقال القاضي الإيجي (المواقف ٣٩٢ . ٣٩٤) : " جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة". وفي (شرح المقاصد/ للتفتازاني ٥/٢٢٧ . ٢٢٨) قال : " إنّ مخالف الحق من أهل القبلة ليس بكافر مالم يخالف ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد . وقال : وفي المنتقى عن أبي حنيفة أنّه لم يكفر واحدا من أهل القبلة وعليه أكثر الفقهاء" . وفي (رد المحتار/ لابن عابدين ٤ : ٢٣٧) قال :" نعم يقع في كلام أهل المذهب تكفير كثير، لكن ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون، بل من غيرهم ولا عبرة بغير الفقهاء، والمنقول عن المجتهدين ما ذكرنا" (انتهى) .

بل إنّنا نجد أنه قد جاء عن ابن تيمية في أوائل (رسالة الاستغاثة/ وهي الرسالة ١٢ص من مجموعة الرسائل الكبرى) ما هذا لفظه : " ثم اتفق أهل السنة والجماعة على أنّه (ص) يشفع في أهل الكبائر، وإنّه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد". (انتهى) . ولا تظن أن ابن تيمية يريد بأهل التوحيد أمرا غامضا معقدا أكثر مما هو وارد في الروايات الواردة عن النبي (ص) السالفة الذكر من النطق بالشهادتين والاتيان بالفرائض وعدم جحدها . قال الامام الشافعي (كتاب الأم ٧ / ٢٦٦ . ٢٩٧) : " فأعلم رسول الله أنّه سبحانه فرض أن يقاتلهم حتى يظهروا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها". وعن القاضي عياض (البحار للمجلسي ٦٧ / ٢٤٣) : " اختصاص عصم النفس والمال بمن قال : لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة الى الايمان، أو أنّ المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحّد، وهم كانوا أوّل من دعي الى الإسلام وقوتل عليه، فأمّا غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقوله لا إله إلا الله إذا كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده، ولذلك جاء في الحديث الآخر : وأنّي رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة". (انتهى) .

وبعد هذا لم نجد عند الوهابيين ما ينهضون به لتكفير المسلمين ومنهم أتباع أهل البيت (ع) من دليل راجح سوى شبهات احتطبوها هنا وهناك من قشور

فهم سقيم للشريعة المقدسة فانكبوا على المسلمين يكفّرونهم لمجرد التوسل بالأولياء أو لمجرد زيارة قبورهم أو الدعاء عند أضرحتهم الشريفة وأمثال هذه الأمور التي بيّن موارد جوازها علماء المسلمين من جميع المذاهب الإسلامية، عدا المخالفين في ذلك لأدلة الجواز الواردة في القرآن والسنة كالوهابيين مثلا . بما لا مزيد عليه" (هذا ما جاء في موقع " الأبحاث العقائدية" والذي يشرف عليه السيّد السيستاني).

لاحظ هنا كيف أنّ الموقع يشدد في النكير والنقد على الوهابية، لأنّهم يكفرون المسلمين لمجرد التوسل بالأولياء وزيارة القبور والدعاء عند الأضرحة، فماذا يقول للذين كفروا المشروطة من أتباع المستبدة، والمستبدة الذين كفروا المشروطة ؟! مع أنّه مجرد اختلاف في التوجهات السياسية عند مطلع القرن العشرين، وقد أدّى إلى ما أدّى إليه من عنف وإقصاء وتكفير وحرب طاحنة بين المؤمنين وعلماء الدين في العراق، وبين الشيعي والشيعي. أهذا التكفير جائز أم مدان ومرفوض ومحرم شرعا ؟!! .

وماذا سيقول الموقع وكثير من الكتابات الشيعية التي تستنكر التكفير وتنبذه وترفضه حين ينطلق من السلفية اتجاه الشيعة، ماذا سيقول في فتوى النائيني بتكفير كل من يخرج بالثورة على شاه إيران ؟! يقول النائيني : " لا يخفى على كافة المسلمين أنّ أي شخص يحارب الحكومة الإيرانية هو كمن حارب رسول الله في يوم بدر وحنين، وهو بمنزلة أولئك الذين قال الله تعالى عنهم في كتابه المجيد :" يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره المشركون" <u>وجزاء المشرك القتل في الدنيا</u> والعذاب في يوم القيامة. وعلى هذا، فاللازم إبلاغ هؤلاء بلزوم عدم التعرّض للساحة المحمدية الرافعة للواء الإسلام. وكل من يتصرف بخلاف ذلك سوف <u>يعدّ من الكفار</u> الساعين إلى محو واضمحلال هذا الدين المبين، <u>ويجب تكفيره</u> طبقا لأحكام وأدلة القرآن" (محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي، عبد الهادي الحائري وآخرون، ط١/٢٠١٢م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ، ص ٨٥). الشيخ النائيني يكفر ويحكم بالكفر على كل من تسول له نفسه بالخروج على رضا شاه، ويفتي بأنّه في حكم الشرع كمن يحارب رسول الله، هذا في الوقت الذي نكتب عشرات الكتب، ونطعن في عقيدة أهل السنة في حرمة الخروج على الحاكم بأي مبرر، وإن صنع ما صنع، ونستهزئ بهذه الفكرة والعقيدة، ونحن هنا نجد واحدا من كبار مراجع الشيعة يفتي بالفتوى نفسها، ولا يختلف عنها قيد أنملة. وسيجد القارئ تفاصيل أكثر في الكتاب حول فتوى النائيني.

أنا أعرف أنّ هذا الكلام سيسبب حساسية، وسيؤلم الكثيرين، ولكن لابد أن نعالج أخطاءنا، ونعترف بعيوبنا، ونحاول أن ننتقل للمنهج الأصح، وللسياسة الحقة في اتباع طريق الاختلاف، ولن يكون ذلك إلا بعد أن نقر

أن هناك عنفا قد حدث، ومازال يحدث إلى يومنا هذا مع كل من يختلف معنا، في التفكير والمنهجية والأسلوب والرؤى، في الدين والفكر والسياسة والمعتقد. كنا نقرأ ونسمع، أما اليوم فبتنا نشاهد ونرى رؤيا العين، وأمام ناظرنا نرى نفوسا يعتدى عليها، وتهان كرامتها، وتلقى من العنف ما تلقى، وعرضها ينتهك، وتلوكها الألسن، وتتمرغ سمعتها في الوحل، أمام مسمع ومنظر من العلماء والجميع، دون أن يحرك أحد ساكنا أو يعترض ..لا لشيء، وإنّما لأنّ لها رأيا وخطا ومنهجا يختلف مع السائد العام، ومع توجهات العوام، وبقية العلماء.

هذه المأساة، وهذه الطامة يقرّ بها العلماء جميعهم، الصغار منهم والكبار، وكثير منهم اكتوى بنارها، وصار العلماء يخافون من العوام، ويحسبون لهم ألف حساب، كل ذلك خوفا من العنف الذي سوف يتلقونه من العوام، والوسط الشيعي الداخلي، فترى العالم لا يقر أشياء كثيرة في المجتمع يراها أمام ناظريه، ولا يؤمن ولا يؤيد مظاهر عديدة، وعقائد لا حصر لها، ومع ذلك لا يتكلم، ويلوذ بالصمت، ويطبق فاه، مكتفيا بنقد ذلك بين الخواص، وفي المجالس الخاصة، وعلى خوف ووجل.

والقريبون من الحوزات الدينية يعرفون هذه الحقيقة، والعلماء ومن يدخل هذا السلك الديني تجده يحسب ألف حساب إلى الجماهير ، ويراعي كل المراعاة غضبة العوام ، ويتوجس من التسقيط قبل أن يقدم على أي عمل أو قول يخالف ما يؤمن به الناس ، أو يصطدم مع الأعراف والتقاليد الموروثة ، ويحاول قدر ما يستطيع أن لا يثير غضبة الناس ويحاول إرضاء العوام للأسف ، وإن كان على حساب الحقيقة والشرع، ولدينا نماذج ونصوص كثيرة تعد بالعشرات، وشواهد مكتوبة لتجارب خاضها مجموعة من العلماء الأجلاء، والمفكرين الإسلاميين، نكتفي ببعضها على سبيل الشاهد والمثال، أقدم إلى القارئ بعضها مثبتة بالنص والمصدر، دون أي تعليق مني، وسأتركها في متناول القارئ الحصيف يقلبها على مهل:

١. الشيخ محمد جواد مغنية :

" وقد عاصرت ثلاثة مراجع كبار من أهل الفتيا والتقليد، الأول كان في النجف الأشرف، وهو الشيخ محمد رضا آل ياسين، والثاني في قم، وهو السيد صدر الدين الصدر، والثالث في لبنان، وهو السيد محسن الأمين، وقد أفتوا جميعا بالطهارة، وأسرّوا بذلك إلى من يثقون به ، ولم يعلنوا خوفاً من المهوشين، على أن آل ياسين كان أجرأ الجميع . وأنا على يقين بأن كثيراً من فقهاء اليوم والأمس يقولون بالطهارة، ولكنهم يخشون أهل الجهل ، والله أحق أن يخشوه " فقه الإمام جعفر الصادق ج١/٣٠.

٢. " وقيل : إن **محمد تقي المجلسي** كان يذهب إلى حلية شرب التبغ ، بل كان يرى أن استعماله لا يبطل الصوم ، وكان يستعمله في حال صومه صوماً مستحباً ، وأما عندما يكون صائماً صوماً واجباً ، فإنه كان يتجنب شرب التبغ حذراً من العوام " مجلة المنهاج ع٤٩/ ص٢٩٩.

٣. الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي :

" إن الإسراف في رعاية أذواق العامة، والتكتم على الآراء الحقة، وتلبيس الحقيقة وعدم تثقيف الناس عليها، يفضي إلى ترك عقل الأمة فريسة للخرافات والأوهام، فتتغلب الأمية الثقافية في حياتها، ويتعرض وعيها للتزوير. وعادة ما تسود هذه الحالة حين يدخل مسار الفكر مرحلة التقية، خشية ثورة الناس، وإثارة حنقهم وغضبهم، إذا ما سمعوا أو قرؤوا أو شاهدوا ما لم تعرفه حياتهم الساكنة. فيحتجب صوت الإصلاح ، وربما يلجأ البعض إلى آن يبدي ويعلن مالا يعتقد، ويزدوج خطابه فيتحدث في المحافل العامة بغير ما يقوله في حلقات البحث العلمي، أو يكتب ويقدّم لهم الفكرة التي تجاري أذواقهم، وتأمن سخطهم، وتضمن رضاهم. فيما يظل متستراً على قناعاته ورؤاه الخاصة بعيداً عنهم " جدل التراث والمعاصرة/٧٤.

٤. السد هبة الدين الشهرستاني :

" وأما في القرون الأخيرة ، فالسيطرة أضحت للرأي العام على رأي الأعلام، فصار العالم والفقيه يتكلم من خوفه بين الطلاب غير ما يتلطف به بين العوام والعكس، ويختار في كتبه الاستدلالية غير ما يفتي به في الرسائل العملية، ويستعمل في بيان الفتوى فنوناً من السياسة والمجاملة خوفاً من هياج العوام . هذه الحالة تهدد الدين بانقراض معالمه واضمحلال أصوله، لأن جهّال الأمم يميلون من قلة علمهم ونقص استعدادهم وضعف طبعهم إلى الخرافات وبدع الأقوام والمنكرات. فإذا سكت العلماء، ولم يزجروهم ، أو ساعدوهم على مشتهياتهم، غلبت زوائد الدين على أصوله، وبدعه على حقائقه، حتى يمسي ذلك الدين شريعة وثنية همجية تهزأ بها الأمم" مجلة العلم، السنة الثانية(١٩١١م) ص ٢٦٦.

٥. الشهيد مطهري:

" آفة المجتمع: المجتمع يشبه الفرد في كثير من الحالات، ومن ذلك الإصابة بالآفات، وطبيعي أن تكون آفة المجتمع خاصة بالمجتمع، ولكل مجتمع آفته الخاصة به. إن الآفة التي أصابت مجتمعنا الديني بالشلل وأقعدته عن العمل هي "الإصابة بالعوام" وهي أشد بلاء من الإصابة بالسيول أو الزلازل أو لسع العقارب والحيات. إن أصل هذه الآفة هو نظامنا المالي. إن منظومتنا

الدينية على أثر إصابتها بهذه الآفة، لا تستطيع أن تكون طليعة فتتحرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلة بالمعنى الصحيح للهداية، إنها مضطرة إلى التحرك وراء القافلة. إن من سمات العامّة أنهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه، بل يتمسكون به دون تمييز بين حق وباطل، إنهم يعتبرون كل جديد بدعة وإتباعا للأهواء. لا يعرفون قوانين الطبيعة ومقتضيات الفطرة، لذلك فإنهم يخافون كل جديد من هذا المنظور، ويحافظون على الوضع القديم دائما.

فمجتمعنا الديني المصاب بآفة العامة لا مندوحة له عندما يريد أن يتحدث في مسألة اجتماعية من الخوض في مسائل سطحية ثانويّة، مبتعدا عن الجذور العميقة التي يتعامل معها بطريقة تدل مع الأسف على تأخره، وعلى نقضه الإسلام، مما يكون سلاحا بيد أعداء الإسلام. إنه لمدعاة للأسى حقاً أن نجد هذه الآفة تقيد الأيدي والأرجل، ولولا ذلك لاستبان بكل وضوح أن الإسلام جديد في كل عصر وزمان حقاً ، "لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه" ولعرف أن أعرق النظم الاجتماعية في عصرنا هذا ليس قادراً على منافسة الإسلام.

ليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في موضع الإثبات، لأن ذلك ينسجم مع طبيعة العامة. إن من سمات غلبة العامة من الناس هي منشأ رواج الرياء، والمجاملة، والتظاهر، وكتمان الحقائق، والاهتمام بالمظاهر، وشيوع الألقاب والمقامات، والتطلع إلى المراكز العليا في مجتمعنا الديني مما لا نظير له في العالم. إن غلبة العوام هي التي تدمي قلوب أحرارنا وطلاب الإصلاح فينا .

لقد ارتأى المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، مؤسس الحوزة العلمية في قم، أن يطلب من عدد من الطلبة تعلم اللغات الأجنبية وبعض العلوم كمقدمات، لكي يستطيعوا عرض الإسلام على الطبقات المثقفة الجديدة، وفي البلدان الأجنبية، ولكن ما انتشر هذا الخبر حتى جاءت جماعات من العامة وأشباه العامة من طهران إلى قم، وقالوا أن هذه الأموال التي يدفعها الناس باسم سهم الإمام، لا يقصد بها أن تصرف لتعلم الطلبة لغة الكفار، وإنهم سوف يفعلون كذا وكذا، إذا نفذ الاقتراح. فلما رأى المرحوم أن ذلك سيكون سببا لانهيار الحوزة العلمية من أساسها، ألغى فكرته مؤقتا. وبعد ذلك بسنوات في عهد زعامة المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني، عقد عدد كبير من علماء النجف الأشرف وفضلائها المبرزين، وبعضهم اليوم من مراجع التقليد اجتماعا تبادلوا فيه وجهات النظر، واتفقوا على إعادة النظر في برنامج الدروس التي يدرسها الطلاب، آخذين حاجات المسلمين الآنيّة بنظر الاعتبار، وبالأخص تلك المسائل التي هي جزء

من أصول عقائد المسلمين فيدخلونها في البرنامج لتدريس الطلاب، وكان الهدف هو إخراج الحوزة العلمية في النجف من نطاق الاقتصار على الفقه والرسائل العلمية. ورفعت هذه النتائج إلى المرحوم لإقرارها، غير أن المرحوم ، وقد سبق له أن تلقى درسه مما جرى مع المرحوم آية الله الحائري ومن أمثال ذلك، أرسل يقول: ما دمت حيا لا يحق لأحد أن يغيّر من تركيب هذه الحوزة. وأضاف: إن سهم الإمام، الذي يوزّع على الطلاب، يجب أن يكون من أجل الفقه والأصول دون غيرهما. ومن البديهي أن ذلك كان درساً لا ينسى للفضلاء الذين هم رؤساء الحوزة العلمية في النجف الآن.

لماذا خرجت حوزتنا العلمية من شكل جامعة دينية إلى شكل كليّة فقهية؟ لماذا عندما يبرز علماؤنا وفضلاؤنا ويشتهرون يخفون ما عندهم من العلوم، غير الفقه والأصول، وينكرونها؟ لماذا يكثر العاطلون والمتطفلون في هذا الوسط المقدّس، بحيث أن الزعيم الديني إذا أراد، أن يسقي نبتة ورد، يضطرّ إلى سقي الأشواك والنباتات الطفيلية الكثيرة؟ لماذا يطغي السكوت والسكون والتغافل في محيطنا الديني، على المنطق والحركة والحياة؟ لماذا ضعفت فيما بيننا حرية الفكر والعقيدة؟ لماذا لا ينظم منهاج تدريس طلاب العلوم الدينية تنظيما يتفق ومتطلبات العصر؟ لماذا نرى طلاب العلوم الدينية بدلا من أن يكونوا سباقين في الطليعة والهادين لمسيرة المجتمع، يعرجون خلف القافلة؟ لماذا؟ لماذا؟!." الاجتهاد في الإسلام أو المشكلة الأساس في جماعة علماء الدين /ص٥٣.

٦. الشهيد الصدر :

" إن مشكلة علماء السنة هي أنهم توظفوا عند الدولة، فهم عنها ساكتون، ومشكلتنا نحن أنَّ وارداتنا من عامة الناس، فنسكت عنهم قليلاً" محمد باقر الصدر، السيرة والمسيرة، ج٢/١٠١.

٧. الشيخ أحمد عبد الله أبو زيد العاملي:

" وهذا الكلام يجري كذلك في الاتجاه المعاكس، أي أن الفقهاء قد يسكتون عن أمور يرونها محرمة مراعاة لبازار الناس، من قبيل الموارد التي ينهج فيها الناس في ممارسة بعض الشعائر مناهج لا يرتضيها الشرع وباعتراف العلماء أنفسهم، أو أنها تحولهم عن الهدف المنشود ولو كانت مباحة بالاصطلاح الفقهي، ومع ذلك يسكتون" المصدر نفسه ص ٤٥٤.

٨. الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء:

" كان من العادات السيئة في النجف الأشرف والتي لا تزال تتزايد وتتسع منذ السنين المتطاولة والأحقاب هو ما يتظاهر به دهماء الشيعة في النجف وغيرها، في العشرة الأولى من هذا الشهر ويسمونها فرحة الزهراء، وعيد عمر، زاعمين أن قتل الخليفة كان في اليوم التاسع منه، مع اتفاق مؤرخي الفريقين أنه كان في أخريات ذي الحجة، وكان أثر هذا الزعم الباطل لا يتجاوز إظهار الفرح والسرور، وإنشاء مدايح الأئمة (ع)، ثم بلغ إلى شتم الخلفاء وسبهم وإعلان مثالبهم، مما لا يرضى به عقلاء الشيعة، وعلماؤها بل لا يرضى به الله ورسوله ولا الأئمة الطاهرون (سلام الله عليهم).

ثم تفاقم الأمر حتى بلغ إلى حد شبه الجنون من إيذاء بعضهم لبعض بالضرب والإهانة وخصوصاً لأهل العلم وأرباب العمائم وذوي التقى، عند مرورهم في الشارع والأسواق، من الضرب بالخرق، والقشور، والحجارة، وربما أصابت رؤوس المؤمنين أو عيونهم، ولذا كان الكثير من ذوي الصون والعزة، يحتجبون في بيوتهم طول تلك الأيام العشرة. لا يخرجون حتى لقضاء أهم مصالحهم. ثم زاد البلاء في هذه السنوات بكثرة استعمال المفرقعات الهائلة التي تدوي أصواتها كالمدافع، وكان أكثر ضربها في الصحن الشريف فكانت ساحة الصحن لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً من تلك الزعقات والصواعق التي تصم الآذان بأصواتها، وتعمي العيون بدخانها، سيما في أوقات الصلوات وإقامة الجماعات.

أما يوم التاسع فيحدث في الصحن الشريف من المنكرات، والفظايع، ما لا يستطيع القلم حصره، ولا اللسان ذكره، ولا تقام فيه جماعة، وربما يلجأ بعض المؤمنين فراراً إلى داخل الحرم فيهجمون عليه ويستخرجونه بالشنعة والتشهير.

مضت الأحقاب والسنون على هذه الشؤون والشجون ولا آمر بالمعروف ولا نهي عن منكر، وكنت من مدة سبع سنوات أهمّ كل سنة أن أقوم بإصلاح هذا الفساد، ورتق هذا الفتق، وعلاج هذا المرض الاجتماعي القاتل، فكان العقلاء وذوو الرأي يمنعونني ويثبطونني قائلين: إنك لا تطاع في هذا، وإن الأمر قد بلغ عند العوام والسواد إلى حد الفريضة بل أهم منها، وكانوا يحذرونني من الوهن الفظيع، والسقوط العميق مؤيدين دعواهم هذه بإحجام من مضى من العلماء الأعاظم وأساطين الدين ممن كان أبعد صوتاً، وأعظم صيتاً، عن المنع عن هذه المنكرات التي كانت تجري على رؤوسهم وبمرأى ومسمع، كل ذلك علماً منهم بعدم التأثير " عقود حياتي/٢٩٨

أمام هذه الآفة التي تنخر وتنهش في الجسد الشيعي من الداخل ماذا يصنع المؤمن، ماذا يصنع متى ما وجد شيئا أمامه في المجتمع وهو على قناعة تامة بأنّه على خلاف معتقده وتفكيره، وأنّه يخالف الشرع، ولا يرتضيه الإمام المعصوم؟! ماذا يفعل متى ما وجد العوام يمارسون سلوكا لا يرتضيه وهو على إيمان راسخ بأنّه محرم ولا يتوافق مع التشيع والدين ؟! أيلجأ إلى المداراة والتقية ومسايرة النّاس والعوام ويحافظ على مكانته وهيبته وسمعته، أم يلجأ إلى المصارحة والوضوح ومكاشفة النّاس بقناعاته وليكن ما يكون، فالشرع هو المقدم على كل شيء، ورضا الله هو الأساس والأهم عنده، وليقل الناس بعدها ما يقولون ؟!! هذا هو المحور، وهذا هو لب الموضوع كله، ومدار الكتاب برمته، من أوله لآخره، ففريق من العلماء لجأوا لمداراة الناس، ولرضاهم وللإبقاء على السمعة والمكانة، عملا بقاعدة ما كل ما يعرف يقال، فبقيت مكانتهم على ما هي عليه عند الناس والمجتمع، وعلا ذكرهم، وصارت لهم الوجاهة والسمعة والصيت والتبجيل والاحترام ، ولم يتعرضوا لأي لون من ألوان الأذى والعنف، أما الفريق الثاني، فصارح وكاشف وأعلن عن رأيه وقناعاته دون محاباة ولا خوف أو وجل من أحد، فنظره السماء، ورضا المعصوم (ع)، والتوافق والانسجام مع النفس والقناعات الداخلية، رضي النّاس أم سخطوا، فكان مآلهم تحت أقدام العوام، والحرب الضروس، والصفعات والغيبة والتسقيط والتشهير من كل مكان، حتى مات الكثير منهم بغصته، وألمه وحسرته، منزويا في بيته، مرجوما بأفواه العوام والسوقة، بجانب العلماء، المؤيد منهم، والساكت خوفا من غضبة العوام. الكتاب بجميع صفحاته يؤرخ لهؤلاء العلماء الذين لقوا من العلماء والعوام العنف والقسوة والتسقيط والتكفير والمهانة، يذكر ذلك كله بتفصيل وبيان موسع ليكون القارئ على بينة بأدق التفاصيل. يؤرخ لمعاناة أحمد الإحسائي، وكاظم الرشتي، وفضل الله، ومحسن الأمين، وموسى الصدر، ومحمد باقر الصدر، والخالصي، وعلي شريعتي، وعشرات الأسماء التي تناثرت وتوزعت على الخريطة الشيعية الداخلية، وماتت بغصة، وتجرعت الآلام.

هذه الحيرة والمأساة باح بها أحد القراء المؤمنين للشيخ حيدر حب الله، فتوجه إليه بالسؤال طالبا الإجابة، وكانت إجابة الشيخ شافية ووافية وتعبر بدقة عمّا يختلج في نفوس كثير من المؤمنين السالكين هذا الطريق الوعر، مبينا رأيه ووجهة نظره بكل وضوح وصراحة، مسلطا الضوء على أبعاد المسألة، فكأنّه يقدم برنامجا عمليا لأي مصلح، وكيف يتعامل مع المجتمع، بما يتلاءم مع قناعاته ومبادئه. ولم أقرأ لأحد من العلماء والمفكرين من قبل هذا المستوى من الشفافية والوضوح، والنص طويل جدا لكنه من الأهمية بمكان، لذا سأورده كاملا:

" السؤال: حين يحار المرء بين بيان ما يعتقده صوابا والتصريح به وبين مجاراة من حوله - ولو يسيرا وفيما هو ممكن- بقصد الأخذ بأيديهم بدل الوقوع في مواجهة، نتيجتها رفضك من البداية، خاصة داخل البيت الشيعي، معتقدا أنّه أسلوب دعوة وخطاب على قدر عقولهم (ولعله يمكن تسميته بالتقية المداراتية المرحلية المؤقتة)، كما هو حاصل من بعض الشيعة تجاه إخوتهم المسلمين السنّة، حين تكون في مثل هذا الموقع ماذا تختار؟ ما السبيل الشرعي الصحيح؟ لك محبتي ودعائي.

● هذا السؤال ليس جديدا، بل هو القلق الذي كان يعيشه الكثيرون من الذين حوصروا داخل مجتمعاتهم. ما الذي ينبغي فعله في الحالات السيئة لا في الوضع الطبيعي؟ هل أستمر في قول ما أراه الحق والصواب، فيكثر أعدائي وخصومي، أم أمارس المداراة والمجاملات فأعيش بانتظار تغيّر الأمور التي يفترض أنّها تنتظرني كإنسان عامل لتتغيّر؟! هل أنتظر حتى يصبح لي نفوذ فأشرع بالتغيير، أم أشرع بالتغيير لكي أوفق ليكون لمشروعي نفوذ ؟!

أسئلة - وصدّقني أخي العزيز- محيّرة جدا في الواقع العملي، وكلا طرفيها شهدنا له تطبيقات مأساوية. كثيرون انتظروا الظروف فماتوا دون عمل ولم تأت الظروف، وكثيرون حاربوا الظروف فأماتتهم في حسرة وكمد، فرحلوا دون نتيجة! معاناة بين قطبي العمل والنتيجة، بين قطبي الجدوى والعبثية، معاناة يعيشها الداعية والمصلح والناقد والعالم والعامل ما شئت فعبّر، ولكل خيار من الخيارين حججه الدينية والعقلانية. بالنسبة لي لا أجد أنّ هناك جوابا مطلقا لهذه التساؤلات، بل القضية متغيرة بنفسها، تبعا للمعطيات الزمنية، لكنّني - ومن فحوى تجربتي الشخصية وتجربة الكثيرين ممن رأيت في حياتي، ومن فحوى قراءتي المتواضعة للواقع - أجد أنّ مرحلتنا لم تعد تتحمل المداراة والسكوت، إلا في حالات محدودة جدا.

أعتقد أنّ إرضاء الواقع والجمهور والعامّة من النّاس لا فائدة منه. إنّني أعمل ما فيه قناعتي، وأريد أن يعرفني الناس كما أنا، لا كما يحبون أن يروني، فلست بحاجة لجمهور يهتف لي وهو في الحقيقة يهتف لشخص آخر تخيلوه مكاني ولست أنا هو، لا أريد جمهورا كبيرا يهتف لغيري وهو يهتف لي، بل أريد جمهورا قليلا يهتف لي بحق. إنّ الكاتب أو العالم أو المثقف أو غير ذلك ليسوا مرشحي انتخابات حتّى يهتموا بعدد الأصوات وعدد الناخبين لهم، وليس فوزهم بعدد الأصوات. ما يهم هو أن يقال الحق حتى لو رفضه كل الناس، وحتى لو رفضوك لأجله. ما فائدة أن يكثر معجبو مشروعك ولا يكون بينهم منتم حقيقي للمشروع ؟! هؤلاء لن تجدهم إلا مصفقين حيث لا تضحية وحيث لا عمل. أغلب أولئك الكبار

الذين غيّروا التاريخ فكّروا بهذه الطريقة في البداية، ونحن نحترمهم الآن لأنّهم نجحوا وصاروا قوّة واقعية، ولو عشنا لحظات عسرهم ومصابهم وشدّتهم لما كنا معهم، راجعوا ما حصل معهم في تلك اللحظات، وكيف تعامل الآخرون - وحتى الحريصون عليهم -معهم، هل كانوا أقوياء أم ضعفاء بالحساب المادي ؟! هل كان محمد باقر الصدر قويا بالحساب المادي وهو يفدى كالكبش الذي جرّ إلى مذبحه جرا والكل ينظر إليه دون كلمة أو تعليق؟! هل هناك مصيبة ومأساة أعظم من هذه؟! لكنها مرت ونسيت وساد منطق: قتل سيدنا يزيد سيدنا الحسين(ع)! هذه هي الحياة، وهذا هو منطقها، وهذا معنى مقولة الحسين عليه السلام: " الدين لعق على ألسنتهم".

ينتظرك الناس لتكسب المعركة ليقفوا معك، لكنّهم لن يشاركوا فيها - ولو للحظة واحدة -دون ضمانات في الربح، ودون ضمانات في عدم الخسارة، وكأنّه توجد معارك في الحياة من هذا النوع ! وكأنّ الكبار الذين ربحوا جولاتهم لم يخسروا في البدايات ولم يكن لمواقفهم خصوم !. لسنا مع المتهورين لكن إذا مشينا خلف الدبلوماسيين فليدلونا على مكان حققوا فيه منجزا على هذا الصعيد. فالخميني والصدر وشريعتي ومطهري و .. كلهم إما طردوا أو هوجموا أو كفروا أو فسّقوا أو حورب أنصارهم أو شقوا الصفوف، ونحن الآن نتنعم بجهادهم ثم نلعن نهجهم الأول الذي أوصلنا إلى ما وصلنا إليه ؟!

ألم يقرؤوا معاناة مطهري وما لاقاه حتى فرّ إلى طهران؟ ألم يقرؤوا معاناة الصدر الذي رحل والغصة في حلقه ألما وحزنا؟! إذا لم نعتبر هؤلاء من التكريسيين لأنّنا نحسن الظن بهم، فلا أقل أنّهم لا يؤمنون بالتغيير حقيقة، ولا يرون في واقعنا أي مشكلة! وهذا خلاف نظري نحترم وجهة نظرهم فيه، لكنّنا نختلف معهم. يحدثونك عن العالم المثقف الذي قرأ كذا وكذا من الكتب، والمطلع على الفكر الشرقي والغربي، وأنا أصدق ذلك رغم كوني بطيء التصديق بالقصص والحكايا، وقد رأيت بعيني نماذج من هؤلاء، لكن ما حاجتي لهذا العالم المثقف عندما يكون ما يظهر منه (وما هو إثباته وليس ثبوته حسب اصطلاح الأصوليين) لا يزيد عن أي عالم تقليدي لا يقوم بنشاط يذكر؟ بالنسبة لي كمتدين عادي ما أهمية ثقافته لنفسه؟ بالنسبة لي ما يعنيني هو أين ثقافته؟ وأين هي انعكاساتها الفكرية والخطابية والتربوية والعلمية والثقافية والعملية؟ إنّ ثقافته شأن له، أما ما هو شأني فهو أن أراها.

أحد العلماء المشايخ الكرام الذين أجلهم وأحترمهم جدا، وهو من أساتذة البحث الخارج في مدينة قم، موسوعة مذهلة في الثقافة، وناقد لا حدود لنقده لوضعنا القائم، مع منهج محافظ وحريص في الوقت عينه، أقر

وأخضع وأعترف له بذلك، لكنّه حبيس بيته لا يفعل أي شيء على الإطلاق، وحتى لو قمت بمبادرة تجاهه لتخرجه فلن يقبل أبدا، ماذا تعنيني ثقافته؟ فبدل هذا الجلوس، لماذا لا أراه في ساحات الفكر اليوم، وفي الرد على انتقادات اللادينيين، وفي الحضور والتثقيف الحوزوي لشبابنا كي نقيم جيلا واعيا؟! مفارقات غريبة، والأغرب أنّها تظهر في المناخ الديني الذي لا يؤمن بقيمة الدنيا، ويؤمن بقيمة الامتثال للتكليف، ويؤمن بالتضحية والتفاني والإخلاص وغير ذلك، ويحارب المنفعية الغربية الوصولية المنافقة ..

قد تقول بعد هذا كله: هل تقصدون شيخنا أن نستفزّ الواقع ونحطم القيد ونهاجم بالنقد كل المقدسات الوهمية؟

وأجيب: كلا، ما هذا قصدت، إنّما أقصد أن نقول ما نراه الحق بهدوء ودون خوف، فعندما تسأل تجيب بالحق، وعندما تكتب تفصح عن الحق ولا تكتمه، وتقول قولا غير مستفزّ بأسلوبه وطريقته، وتعالج ما تراه في مجتمعاتنا وفكرنا باطلا وخطأ ضمن معايير الأولويات في الموضوعات المطروحة كما تراها أنت، فمن صارت له حساسية من العلم والبحث الهادئ فهذا شأنه، وهذه مشكلته، وعلينا أن نروضه على أن لا ننسجم مع طريقته وحساسيته المفرطة، بل نحن ننسجم مع الحق. ولا نسكت عن هذا الحق لأنّ زيدا ينزعج وقد يمارس ضغوطا، أو عن ذاك الحق لأنّ عمروا ينزعج وقد ينفعل، أو عن ذاك الحق لأنّ بكرا لا يناسبه وهكذا.

وإذا كانت لبعضنا ظروف ضاغطة في هذا الملف أو ذاك، فلننوع أدوارنا فيشتغل كل واحد منا على الموضوعات التي لا تضعه في ظروف قاسية وسلبية وحرجة، فيما يشتغل الآخر على الموضوعات الأخرى وهكذا. نعم أنا ضدّ الاستفزاز بمفهومه العقلائي، وضدّ أن نتكلم بطريقة تثير النّاس، وضدّ تصفية الحسابات الشخصية، وضدّ إرباك الساحة بالعنف اللفظي والتهجم على الأشخاص، وأنا أقبل بالتمييز بين وسائل النشر والإعلام، فليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما ينشر على الورق يقال في الفضائيات، هذه كلها من حيث المبدأ أمور مقبولة، أما إذا كانت الطريقة الهادئة والموضوعية والعلمية تثير البعض (فيثوّر النّاس) لأنّهم غير منسجمين مع الفكرة التي نراها نحن حقا، فهذه مشكلتهم هم، ولا يصح أن نسكت عن مشروعنا لأنّهم يعانون مشكلة، بل علينا أن نروضهم على أن يعتادوا على ذلك، وعلى أن يعتادوا على الإقرار بوجود من يختلف معهم في الرأي حتى في أكثر القضايا عاطفية.

فلو بحثت في رواية وحللتها سنديا ومضمونيا بالطريقة العلمية الهادئة، وأثارهم ذلك فهذه مشكلتهم لا مشكلتي، وإذا طرحت نظرية فقهية فأثارت الآخرين ولم يعجبهم مضمونها فهذه مشكلتهم، لا سيما عندما يكون ما

يستفزّهم هو قائلها وليس مقولها، وعليهم أن يعتادوا على سماع هذه الأفكار، ومسؤوليتنا خلق مناخ الاختلاف الصحّي وتعدد الآراء، وإذا انزعجوا منها فمن حقهم الرد العلمي والأخلاقي بأي طريقة كانا. وأنتم لو راقبتم المسارات الزمنية سوف تجدون أنّ كثيرا من الأمور كان محرما طرحه قبل خمسة عقود من الزمان، وجاء من كسر القيد هنا وهناك، وحصلت الفوضى، ثم اعتادوا، ففي البداية المفاهيم الجديدة تحدث بلبلة، ليس في الدين فحسب، بل في كل العلوم هناك يسار ويمين، فمن يطرح الآن بعض محرمات ما قبل خمسين سنة لا يواجه مشكلة، لأنّ هناك من عبّد الطريق قبله وفرض قواعد وتوازنات، وارجعوا إلى قائمة المحرمات قبل عقود وقارنوا.

طبعا، قناعتي هذه ليست قانونا إطلاقيا عبر الزمان والمكان، بل هي قناعة تتصل باللحظة الحاضرة من تاريخنا في أغلب الموضوعات وليس كلها. هذا ما أراه الأفضل، وإنّني أؤاخذ الكثير من الإصلاحيين ودعاة الوعي والبصيرة، لا سيّما الأخوة الثوريين من تيارات عدّة، على سكوتهم، أو عدم تغطيتهم لمن يفصح ويتكلم، لا سيّما إذا كان منطلقا في بعض الأحيان القليلة من معايير انتخابية وحسابات سياسية، وأرى أنّ الحق والدين تتبعهما السياسة ولا يتبعانها.

إنّني أعتقد أنّ الفكر الإسلامي يسير - تحت ضربات التيارات السلفية والتقليدية من جهة، والتيارات النقدية المفرطة من جهة ثانية - نحو مكان مخيف، وإنّ سكوتنا عن الاثنين معا سنسأل عنه يوم القيامة، وأنا أخشى من أن نكون متجهين إما نحو حقبة إخبارية سلفية انغلاقية جديدة، أو نحو فراغ ديني وتلاشي إيماني عام، ربما لو سكتنا عنهما سنظل عقودا من الزمن تحت وطأتهما. المهم أن نقول الحق، ونعمل بالطرق العقلائية والهادئة، لا بالطرق النفاقية أو الملتوية، ولا بمنهج المجاملات، ولا بأسلوب العنف والمهاترات، ولا بالتراشق الإعلامي العام. والله الموفق والمعين " (إضاءات في الفكر والدين والاجتماع، حيدر حب الله، مؤسسة البحوث المعاصرة،ج٣، ص٤٥٠).

في الموقف من مفردة التكفير والتفسيق، وتكفير المسلم وتفسيقه نلاحظ الشيخ جعفر السبحاني يشدد على حرمة تكفير المسلم وتضليله، وذلك لأدنى سبب، وعلى الأخص في الاختلاف في الأمور المتعلقة بالأصول، والتي هي مورد في الحضور ما بين المسلمين على شتى مذاهبهم، وأنّ الحل في ذلك هو اللجوء للحوار العلمي والمناقشة الموضوعية، ونبذ التعصب والاتهامات، إبقاء على الصفاء والمودة بين المسلمين .. يقول:

" وعلى هذا الأساس ينبغي للمسلمين أن يحفظوا في جميع المراحل أخوتهم الإسلامية، ولا يسمحوا بأن يصير الاختلاف في الأمور المتعلقة بالأصول سببا للنزاع، وربما لتفسيق أو تكفير فرقة لأخرى، وأن يكتفوا في الاختلافات الفكرية والعقيدية بالحوار العلمي والمناقشة الموضوعية، ويتجنبوا إقحام التعصب غير المنطقي، والاتهام والتحريف في هذا المجال إبقاء على الصفاء والمودة بين المسلمين" (العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ص ٢٦٣).

إذا كانت هذه الدعوة موجهة إلى علماء وأصحاب المذاهب الأخرى من الطوائف غير الشيعة، أليس الأولى بها الشيعة أنفسهم، العلماء والعوام منهم في منهجية وأسلوب التعامل مع اختلافاتهم ؟! أليس الأولى بهذا الإرشاد المؤمن على حسب اصطلاحات الفقهاء من المسلم، ففي الوقت الذي ندعو فيه المسلمين لتجنب الاتهام بالكفر والفسق للشيعي ولكل من يختلف معهم، كان الأولى توجيه هذه الدعوة أولا ومعايشتها وتطبيقها على أرض الواقع الشيعي من الداخل، وأن ندعو أنفسنا لتكون مصداقا لهذا المبدأ، ونبراسا للغير، فما الفائدة من دعوة الآخرين لعدم تفسيق وتكفير الشيعي بسبب الاختلاف في الأصول، وفي الوقت ذاته نجد أنّ العالم الشيعي يفسق العالم الشيعي بسبب اختلافه معه في مسألة جزئية في فرع من الفروع ؟! أليس هذه أولى بالإصلاح والدعوة والنظر والمعالجة ؟! وما جدوى أن ندعو الآخرين ونحن نعمل على خلاف ما ندعو له، أولا لأتجنب تفسيق وتضليل وتكفير أبناء مذهبي وعلماء الطائفة لمجرد الاجتهاد المشروع ، ومن ثم أتوجه للآخرين وأدعوهم لعدم تكفير العالم الشيعي أو العوام من الشيعة.

أألوم علماء وعوام المذاهب الأخرى متى ما حكمت على السيّد محسن الأمين بالكفر والضلال والزندقة وأنا سبقتهم في ذلك، وهناك من العلماء والعوام العشرات والمئات التي حاربته وفسقته وبصقت عليه وأهانته وحكمت عليه بالضلال والفسق، لم ؟ لأنّه رأى باجتهاده وإعمال أدواته الاجتهادية الأصولية بأنّ ضرب الرؤوس بالسيوف في عاشوراء محرم ؟!!

أأدعو علماء المذاهب الأخرى لعدم تكفير السيد فضل الله، وحرمة تفسيقه، لأنه مسلم موحد، وقد اختلف معكم فقط في الأصول، وفي الوقت نفسه تخرج عشرات البيانات والفتاوى في تكفيره وتفسيقه وتضليله وإخراجه من الدين والمذهب ؟؟!!. وهكذا قس على بقية من تمّ تكفيرهم أو تفسيقهم أو الحكم عليهم بالضلال. أنا أرى أننا أشداء على بعضنا، ولكن رحماء حين نأتي للآخر وندعوه للألفة والوحدة وتقبلنا وحرمة تكفيرنا وتفسيقنا. وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب عشرات الأمثلة لتفسيق وتضليل علماء ومؤمنين من الشيعة على يد علماء ومؤمنين من الشيعة، أهناك طامة أعظم من هذه الطامة، ومصيبة آلم من هذه المصيبة ؟!.

في سبيل إصلاح البيت الشيعي من الداخل، وفي سبيل معالجة هذا المرض الوبيل، مرض العنف الفكري، والغلظة في تعاملنا لبعضنا حين نختلف، ولتحقيق النزوح نحو تقبل بعضنا البعض، وعدم التسرع في التضليل والتكفير والتفسيق لأدنى سبب، ولأقل اختلاف مشروع، وللحفاظ على حرمة المؤمن وعرضه وسمعته، وحتى لا نقف أمام الله غدا للحساب، فحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة الكعبة، ونحن قد علمنا ورأينا وشاهدنا مؤمنين كثر هتكت أعراضهم واستبيحت حرماتهم واغتيبوا ظلما وعدوانا ..

.. في سبيل ذلك كله أرى أنّه لابد من الاتفاق عل النقاط التالية:

١. يجب التريث في نسبة الأقوال أو الكلمات أو المفاهيم لأصحابها، ويجب التريث في تفسير نصوص الناس المكتوبة أو المقروءة أو المنشورة أو المقولة أو المذاعة صوتيا وتصويريا، بل يجب التأكد من صحّة هذه النسبة، فليس كل ما يتداول على شبكة الأنترنت أو وسائل التواصل الاجتماعي على أنواعها بالذي يصح، بل لابدّ -لا سيّما في المواقف التي تصدر عن الشخصيات الكبيرة، أو في الظروف الحساسة - من الرجوع إليها شخصيا أو إلى نصوصها المباشرة في كتبها أو استفتاءاتها الثابتة النسبة لها أو إلى مكتبها الرسمي المعبّر عنها في هذا المجال أو ذاك، لا إلى كل وكيل أو متول لشأن مالي، فقد لا تكون لديه المعلومات الكافية. وبعبارة موجزة: اتباع الشرع والأخلاق في تصحيح النسبة من جهة، وفي تفسير النص الثابت النسبة من جهة أخرى، وأن نقلع عن الدخول في نوايا النّاس وقصودها، وكأنّنا نلعب دور ربّ الأرباب وعالم الخفايا والأسرار.

٢. لكل واحد من العلماء وجهة نظره، ومفتاح الحل هو الاعتراف بالآخر، والإيمان بالتعددية التي راها الكثيرون ضلالا، ففي ظل عيش التعددية عيشا حقيقيا نحظى باحترام أكبر لبعضنا بعضا، ونتفهم بعضنا بعضا، ويعذر بعضنا بعضا، ونصوب لبعضنا بعضا، ويكون كل واحد منا مرآة أخيه المؤمن. أمّا إذا استمرينا في التخوين والتضليل والتفسيق والتكفير والتجهيل والتسخيف والإخراج من الدين أو المذهب، والاتهام بالتخلف والرجعية، وسوء الظن ونحو ذلك، فلن نصل إلى نتيجة مرجوة في حدود ما أراه بنظري القاصر.

وطبعا من الصعب أن نلتزم جميعا بهذا، لكن من الضروري أن يكون غالب خطابنا هو خطاب هادئ وبارد، فلو صدرت منا هنا وهناك بعض التعابير فهي عابرة، وهذا غير أن يقوم خطابنا مع الآخر على ثقافة التهمة وسوء الظن وعنف اللغة وفعل الإقصاء والنبذ والحجر. وإنّما أقول ذلك كي لا نكون مثاليين أيضا، ففي أكثر المناخات هدوءا هناك لغة عنيفة في بعض

الأحيان، لكنّ هذا غير أن يكون المناخ كله أو أغلبه أو طابعه العام عنيفا وإقصائيا تجاه الآخر المختلف معه.

٣. كما نطالب آحاد المسلمين بالهدوء ولو النسبي، كذلك من حقنا أن نرجو من الشخصيات الكبيرة - الدينية وغير الدينية - ممارسة فعل الهدوء أيضا في خطابها وعدم مهاجمة خصومها بطريقة عنيفة وتسقيطية وتسخيفية، وفسح المجال للحريات بشكل أكبر في التعبير لكل شخص عن وجهة نظره. فإنّ اختلاف العلماء وطلاب العلوم الدينية ترك ويترك تأثيرا كبيرا - في حدّته وهدوئه - على اختلاف الجمهور من الناس وعلاقاتهم ببعضهم، فلنعمل جميعا على تخفيف حدّة التوتر وتفويت الفرصة على المتربصين، ومواجهة الفتنة المطلة بقرونها، لكن دون صمت أو خوف أو هروب من تحمّل المسؤولية، فلكل واحد أن يقول رأيه، لكن ليس من المناسب أن نهجو ونتهجم ونهين ونسفه.

٤. كائنا من كان الذي بدأ مسلسل العنف في أوساطنا - ولكل شخص منا وجهة نظره في ذلك - لكن على الجميع أن يعلم أنّ من يستخدم العنف في حق الآخرين والقمع والإقصاء والقسوة والسباب والشتيمة، فعليه أن ينتظر اليوم الذي ستأتي فيه ردّة الفعل، فالآخرون لن يسكتوا عن العنف الموجّه إليهم، وقد قلنا مرارا: إنّ السكوت عن العنف الذي مورس على بعض العلماء خلال العقود الأخيرة - وهم من تيارات مختلفة - جرّ إلى ممارسة العنف المضاد، وطالت شرارات العنف الأطراف كافة. ولا حل إلا بميثاق شرف (مرفق بفتاوى وتوجيهات حاسمة) يبادر إليه المراجع الكبار والعلماء النافذون والوجهاء الفاعلون في الأمّة لوقف تدهور الأوضاع وتنامي العنف والعنف المضاد، والذهاب خلف وضع آليات أفضل للاختلاف، تضمن الحق في التعبير، والحريّة في البيان والرأي، وفي الوقت عينه تمنع الإهانات الشخصية والتجريح بحق الرموز أو غيرهم، وقد ميّزنا مرارا بين التجريح والنقد.

وكما ندعو لتخفيف عنف النقد كذلك ندعو الآخرين لتخفيف الحساسية تجاه النقد، فلا حلّ إلا بهذه المزدوجات اللازمة. ولهذا فإنني لا أحبذ أن ننظر للأمور بشكل تجزيئي فنأخذ حدثا ثم نثور وننفعل لأجله، بل الأفضل أن ننظر للأمور بشكل شمولي، ونتعاطى مع مجموعة الحداث الممتدة في الزمان والمكان المعاصرين، لنستطيع رؤية الأمور بشكل أفضل، ووضع حلول أو مقترحات أنجع بخصوصها. ومشكلة الكثيرين منّا أنّهم ينظرون إلى النتائج وينسون الأسباب، أو يقلبون الأسباب والنتائج، أو ينظرون إلى ردّة الفعل ويتركون الفعل، أو يلعنون المعلول ويمتدحون العلة، وكلها مطالعات غير مكتملة للمشهد.

٥. من الضروري اتخاذ مواقف قوية وواضحة بحق كل من يثير العنف ويدعو للكراهية المفرطة في الداخل الإسلامي أو المذهبي، وهذه المواقف عندما تكون تحت رعاية أو تحت غطاء أو ضمن سكوت فطن من المرجعيات الكبيرة (الدينية وغير الدينية)، فبالإمكان أن تترك أثرا إيجابيا، في الحدّ من الأزمة التي نواجهها. كما أن وسائل الإعلام المرئي والمسموع لها وضعها الخاص في تثوير النّاس ونشر الكراهية أو المحبة، ويجب الانتباه لها جيدا، وهي تختلف عن أي وسيلة أخرى بالتأكيد.

٦. إنّ بعض الخلافات الدينية والفكرية القائمة بيننا اليوم باتت توجد شكلا آخر من الصراع السياسي القائم في أوساطنا، فهناك تيارات مختلفة سياسيا، ويمكن أن يكون الصراع الديني في هذا الملف أو ذاك تعبيرا عن تصفية حسابات سياسية هنا أو ممارسة إقصاء سياسي هناك، ويجب أن لا نظل سذجا نظن أن كل زوايا الأمور دينية أو فكرية، فهناك وجه سياسي للخلافات الكثيرة القائمة بيننا اليوم، وهذا يعني أنّ أحد المفاتيح الأساسية للحل هو عبر السياسيين، سواء كانوا علماء دين في الوقت عينه أم لم يكونوا، والملف السياسي ملف معقد وشائك، ويحتاج لأهل الاختصاص ولمبادرات توصل إلى حلول ولو مؤقتة أو موضعية. وأعتقد بأنّ الظروف اليوم باتت تسمح بمصالحات سياسية في الداخل المذهبي بين بعض الاتجاهات على الأقل.

٧. من الواضح أنّ الحلول المشار إليها في كلامي أعلاه مثالية، ونحتاج فترة طويلة للوصول إلى نتائج بشأنها، لكنّني أقترح شيئا عمليا وهو أن يقوم بعض الوجهاء والمشايخ والشخصيات في المناطق الشيعية المختلفة، لا سيّما في بلدان العراق والخليج، بتشكيل وفد كبير يحمل عريضة يوقع عليها أكبر قدر ممكن من العلماء والباحثين والمفكرين والمثقفين والإعلاميين والمشايخ والناشطين ورجال الأعمال والسياسيين الشيعة من أطراف فكرية وسياسية مختلفة، لنقلها -وبشكل واضح وصريح وجريء وبلا مجاملات أو مداراة - إلى المرجعيات الدينية والسياسية الشيعية العليا ومن يدنوها في الطائفة، لمطالبتها باتخاذ مواقف وإجراءات وفتاوى وتوجيهات لمعالجة الوضع القائم، ووضع مقترحات لتجفيف منابع التوتر وتحليل أسبابها ونتائجها، ومحاصرة كل مظاهر نشر الكراهية بين المؤمنين، مع الحفاظ على حق الجميع في إبداء رأيهم.

ويعمل مع ذلك أيضا نشاط إعلامي فاعل للترويج لثقافة التسامح والتهدئة، إلى جانب ندوات ومؤتمرات وملتقيات بحثية تعالج الأزمة التي نحن فيها من وجوهها غير الدينية كالوجه الاجتماعي والنفسي والتربوي والسياسي والاقتصادي والتاريخي وغير ذلك، معالجة صريحة ومباشرة، لتكون رؤيتنا للموضوع أكثر نضجا، ومن ثم لتكون مقترحاتنا أفضل

وأفعل. هذه خطوة بسيطة لست متأكدا من جدواها إن لم أكن متأكدا من عدم جدواها، لكنّ الاحتمال الضعيف يفرض علينا العمل وتبرئة ذممنا وضمائرنا من المسؤوليات الملقاة على عاتقنا أمام الله والإنسان والتاريخ " (إضاءات في الفكر والدين والاجتماع، حيدر حب الله، مؤسسة البحوث المعاصرة،ج٣، ص٥٥٥).

الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ هو عبارة عن فصول مستقلة حول بعض الأعلام والعلماء في الفكر الشيعي، ممن تعرضوا لتكفير وإهانات لا حد لها، واستقبلوا من الشتائم والتوهين مما لا تتحمله حتى الجبال الراسية، فكيف بهم وهم أصحاب النفوس الوديعة ،والقلوب الرحيمة، والعاطفة الجيّاشة، أمثال الشهيد الصدر والسيّد محسن الأمين، والسيّد محمد حسين فضل الله وغيرهم ممن فصلنا الحديث عن قضاياهم ومعاناتهم والعنف الذي لا يمكن تصوره وتعقله، ولا يمكن بأية حال أن يصدر من الداخل، وهو الوسط الشيعي الذي نبت فيه لحم هؤلاء وفكرهم وعقيدتهم وكانوا من أبرز أعلامه ومفكريه وسدنة دينه ومذهبه، هذا العنف لم يتلقوه هؤلاء من العدو ولا من الخارج ولا من أعلام المذاهب الأخرى، ولا من الطوائف المناوئة، وإنّما من رجال قضوا معهم سنوات في ظل الحوزات، والمآتم الحسينية، ومساجد الله، وكانوا يعملون معا، سنوات وهم يدرسون ويكتبون ويتباحثون في الدين والعقيدة والرواية والتفسير وسيرة الأئمة الطاهرين (ع)، سنوات وهم يحاضرون في الناس حول آداب التعامل في الإسلام، وأنّ الدين والأخوة بين المؤمنين تقوم على حسن الظن والصفح والتسامح ومقابلة الإساءة بالإحسان والتواضع ومحبة المؤمنين وتوقير العلماء وخفض الجناح للمؤمنين كما كان يصنع رسول الله (ص) وهو من هو، ولكن كل هذا وكل الدروس والدراسات وسنوات العلم وتحصيله ذهبت أدراج الرياح، وسقطت القيم تحت القدم، وصار العلماء ذوي أسنان حادة، وقلوب سوداء (وعذرا على هذه الكلمة) ونفوس تمتلئ بالحقد والضغينة والمكيدة، على من كل هذا؟ ليس على عدو ينتقص من الدين، ولا على ملحد يتجرأ على العقيدة، ولكن على عالم مثله، وصار العلماء ينهش بعضهم لحم بعض، واشتعلت نيران الحقد ما بينهم، وصار كل واحد لا يأمن من الآخر، ويخاف منه، ويكيد بعضهم لبعض، ويؤلب العوام على العالم الآخر، حقدا وحسدا وتعاليا، والمصيبة أنّ هذا كله يفعل باسم الدين، والخوف على شريعة السماء، وحراسة العقيدة، وصارت تسفك الدماء، وتنتهك الأعراض، وتقتل الأنفس، وتحرق الديار، إي والله ودون وجه مبالغة ، العلماء ضد العلماء، والمرجع ضد المرجع، والمعمم ضد المعمم، أبعد هذا نلوم العوام، والساقط من الناس ونتحسف متى ما وجدنا واحدا من الجهال يتجرأ على مرجع أو فقيه أو عالم ؟! فالعلماء قبله تجرأ بعضهم على بعض، وكفر بعضهم بعضا، وكتبت فتاوى بالعشرات في التكفير

والتسقيط والتفسيق، فلا لوم ساعتها على العوام من الناس، فالعلماء مشاعل وقدوة في كل شيء، فهم يتحركون تحت غطاء الدين والعمامة .. ولكن هكذا هي النفوس، متى ما تلبّست بلباس العنف والضغينة، ومتى ما لفظت من داخلها الرحمة والتسامح والتعقل، ولم تتخذ الدين الحق وسنة النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين مسلكا. فإنّه عند ذلك سيصدر منها ما يعقل وما لا يعقل، وما يمكن تصوره وما لا يمكن تصوره.

ونحن لا نلوم العوام، ولا الجهال من الأمة، فإنّ هؤلاء يغلب عليهم الجهل، والعصبية، وغياب الوعي والتعايش مع النبي والأئمة المعصومين (ع) دراسة وسلوكا .. هؤلاء الدين لعق على ألسنتهم، وفهمهم للدين لا يتجاوز القشور، والمظاهر، وتلعب بهم التيارات والأفكار والرموز في كل مكان، وتراهم مطية لكل راكب، لا يدركون من الدين لبه وجوهره، ولا يستنون بسنّة الأئمة (ع) .. أقول هؤلاء لا لوم عليهم، ونلاحظ من خلال التجارب كلها التي تعرض فيها العلماء بسبب اجتهاداتهم للتسقيط والتكفير والإهانات والسب والتجريح، كل ما جرى لم يصدر أول ما صدر من رجل من العوام، ولا من امرئ من السوقية والبسطاء من الناس، وإنما كان هذا العامي مشروعا لتحريض ولفتاوى ولبيانات ولخطب ونداءات من رجال دين، هؤلاء المعممون هم الشرارة الأولى لكل عالم تعرض للتكفير والتوهين والسب، إهانته وجرحه وتكفيره يتحمل مسؤوليته عالم مثله، ورجل دين كتب وألف وألب وحرض عليه، ومن ثم جاء الناس يتهافتون كالدواب، وينساقون كالماشية وراء تلك الكتابات ووراء تلك التحريضات والفتاوى ليضعوا هذا العالم في الوحل ويدوسوه تحت أقدامهم بلا رحمة، ولا احترام لمقام العلماء والمجتهدين والمفكرين الأحرار، الذين لا ينعقون مع كل ناعق، وينساقون وراء كل فكرة وصيحة. وعلى القارئ أن يرجع للصفحات السابقة التي كتبناها، ليجد أنّ العالم لا يسقطه ويكفره أولا إلا عالم مثله، من أقرانه ومجايليه ومن المقربين منه، هذا إن لم يكن صديق وأخ الأمس. تجد فقيها يكتب في فقيه مثله بأنّه كافر !! إي والله، وعالما يدعو للهجوم على عالم بسبب الخلاف بينهما في المدرسة الفقهية والاتجاه في استنباط الأحكام، ومن ثم يهجم العوام عليه ويقتلونه هو وابنه بسبب تلك الفتوى، وفقيها يكتب أنّ محاربة الفقيه المعاصر له أعظم ثوابا وأجرا من الجهاد بالسيف في سبيل الله، وفقيها يرى بأن الكأس تتنجس لأنه لمست بيد الفقيه الآخر، وقس عليه عشرات الأمثلة الدالة على العنف والغلظة والشدّة في الاختلاف، هذا يحدث وأكثر منه في تاريخ العلماء ممن ينتمون إلى مدرسة أهل البيت (ع)، في الوقت الذي نعلن الحرب والعداء ونكتب الدراسات والبحوث ضد السلفيين، لم ؟ لأنهم اتخذوا تكفير الآخرين منهجا وسلوكا، ونأتي بعشرات الأدلة الدامغة في عدم جواز تكفير المسلم، وخطورة التكفير، وأنّ هذا منهج الخوارج، وإذا بنا نكون نسخة منهم، ولكن و يا للحسرة، لا

نكفر الآخرين، وإنّما نكفر بعضنا، وهذا الفقيه يكفر ذاك، وهذا العالم يحكم بظلال ذاك، وهذا المعمم يفتي بأنّ كتب صاحبه صارت من كتب الضلال، ولا يجوز ابتياعها ولا قراءتها، ومن يقوم بذلك فهو مأثوم، وسيكون مصيره عذاب جهنم !! وأحد الأعلام من الفقهاء يكتب كتابا عنوانه دال على تكفير مخالفيه، إذ يسميه: (السلم المرونق في من تكفر وتزندق)، ويقصد بهم الأصوليين من العلماء، فهم في نظره كفار وزنادقة والعياذ بالله، ولم يسكت هؤلاء عنه وعن كتابه فأفتوا بجواز قتله، فهجم عليه الناس في داره وقتلوه شر قتلة هو وولده وبعض تلامذته وأنصاره !!!. وسوف ترى بأنّ مفردة كافر والكفر هي أكثر المفردات استخداما فيما بين الفقهاء والعلماء الشيعة المتخاصمين والمتصارعين فيما بينهم في الأفكار والاتجاهات العلمية، هذا الاختلاف يتحول إلى الحكم بالكفر وهو أعلى درجات الاتهام والردّة، ستراه صار أسهل ما يكون، والتلفظ به اتجاه الفقهاء والعلماء والفرقاء كلفظ الاسم تماما، لا فرق بينهما في ألسن المختلفين والمتخاصمين من المعممين والعلماء وحتى الفقهاء والمراجع العظام، والمدافعين عن بيضة الإسلام !!!.

وفي الفصل الذي عقدته للشهيد الصدر ذكرت ملاحظة جديرة بالتأمل والانتباه، ولنقف أمامها طويلا .. طويلا:

غريب أمر التسقيط والتكفير، فإذا ثار العوام والمعممون على رجل من أجل تسقيطه وتكفيره والرمي به لأسفل سافلين ساعتها لا يفرقون ولا يختلف الأمر معهم بين أن يكون هذا الرجل فقيها عالما أو أن يكون علمانيا ملحدا، وبين أن يكون متخرجا من بين أحضان الحوزة العلمية بالنجف الأشرف أو قم، أو متخرجا من جامعة السوربون بفرنسا، وبين أن يكون ثائرا مجاهدا ومضحيا بنفسه أو خاملا منزويا في بيته وصومعته، وبين أن يكون مجددا أو رجعيا تقليديا، وبين أن يكون عبقريا وفاضلا ومتقيا وصاحب إيمان وجهاد للنفس وبين أن يكون متكالبا على الدنيا وملذاتها .. فما المعيار لكل هذا ؟! وما الدافع الحقيقي الذي يكمن وراء تسقيط الشخصيات؟! فمن يدور في خلده أن عالما بوزن وورع وتقوى وجهاد وفضائل وخلق الشهيد محمد باقر الصدر يتعرض لما تعرض له من شتائم وإهانات وتسقيط وتجريح، وممن ؟ من رجال دين يزاملونه في الحوزات الدينية، ومن أقرب الناس إليه .. فهذا في رأيي الطامة والدهماء التي تدمر البلاد، ولا تبقي بقية من خير أو صلاح، إذا وصل الأمر بنا إلى أن نسقط ونكفر ونفسق رجلا كالشهيد الصدر !!. ويلاحظ هنا، وليدرك القارئ جيدا بأن العوام لا يمتلكون الجرأة ولا الشجاعة ولا الإقدام لتسقيط عالم من العلماء، أو شخصية من الشخصيات إلا بعد أن يبادر واحد أو أكثر من المعممين ورجال الدين، فالمعمم يتقدم أولا ويبادر للتسقيط، ومنهم تكون الشرارة، ومن ثم ينطلق العوام بجهلهم وعنفوانهم وطيشهم الذي لا يعرف الحدود ولا المحرمات ولا

أي محذور ولا حرمة لمؤمن ولا لحرمة لعلم. فمتى ما حفظ العلماء الحرمة لبعضهم وما لم يبادروا للتسقيط وتكفير بعضهم فإن العوام لا يمكن أن تكون لهم الجرأة في تكفير أو تسقيط أو تخوين أحد العلماء أو المؤمنين .. وهذه هي الداهية الدهياء في تعاملنا. حتى وصل الأمر بالسيد الصدر أن يقول بأن ما لقيه من أهل العلم أشد مما لقيه من حزب البعث !!

علي المحرقي

٢٠/٢/٢٠١٥م

الشيخ أحمد الأحسائي

نسبه واسرته:

هو الشيخ أحمد بن الشيخ زين الدين بن إبراهيم بن صقر بن إبراهيم بن داغر بن رمضان بن راشد بن دهيم بن شمروخ بن صولة آل صقر المهاشر المطيري الأحسائي من رهط بني خالد الذين ينتهي نسبهم إلى قريش، وقد لقبوا بالمهاشر نسبة إلى جبل في تهامة اسمه " مهشور " كانوا يسكنونه. وكان آباء الأحسائي يسكنون البادية، ولم يكن لأحد منهم حظ من المعرفة والثقافة بحكم سكنى الصحارى، وكانوا على مذهب أهل السنة، ولكنهم لم يكونوا متعصبين. واتفق نزاع بين داغر الجد الرابع للمترجم له وأبيه رمضان أدّى إلى فراقهما، حيث هاجر داغر بأهله إلى قرية المطيرف، ولم يمض عليه زمن طويل حتى اعتنق مذهب الشيعة الإمامية لسيادته في تلك الربوع. وقد أشار المترجم له في ما كتبه عن نفسه إلى ذلك بقوله عند سياق نسبه بعد ذكر جده داغر : " غفر الله لهم جميعا "، ثم ذكر رمضان ومن سبقه بعد تلك الجملة بحيث تشمل ما قبلها دون ما بعدها، وصرَّح بعد ذلك بقوله : " ومنَّ الله عليه - على داغر- بالإيمان ليستنقذنا من الضلالة، وكان أولاده كلهم من الشيعة الاثني عشرية. وقد تعاقب في قرية المطيرف بعد داغر أولاده وأحفاده حتى المترجم له.

ولادته ونشأته:

ولد الأحسائي في قرية المطيرف في شهر رجب عام ١١٦٦هـ/١٧٥٢م، كما ذكره بنفسه، وذكره ولده الشيخ عبد الله. ولم يكن أبوه "زين الدين" من أهل المعرفة والكمال لكنه كان يحسن القراءة والكتابة والإلمام بالمبادئ الأولية كما يظهر، وقد نشأ عليه ولده، وكانت المطيرف كما قال بنفسه : " قرية انتشر فيها الجهل وعمَّ الناس، وليس فيها أحد ممن يدعو إلى الله وعبادته، ولا يعرف أهلها شيئا من الأحكام ولا يفرقون بين الحلال والحرام، بل كان أهل البلد صغيرهم وكبيرهم، لهم مجاميع يجتمعون فيها بالطبول والزمور والملاهي والغناء والعود والطنبور، وكانوا حريصين على المعاصي كل الحرص، ولم يكن فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقد ولعوا باللهو وانغمروا فيه، وكان كل فرد منهم يعلق ما يملكه من آلات الطرب وأدوات اللهو على باب داره مباهاة يتفاخرون بها في ما بينهم.

وكانت لهم مجالس خاصة يتجمهرون فيها فيشتغلون بالملاهي ويعكفون على المناهي بصورة جماعية ولا يفوت ذلك منهم أحد.

هجرته إلى العراق وإيران وتنقلاته فيهما:

هاجر الأحسائي إلى العراق في سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م، وعمره يومذاك ٢٠ سنة، وهبط النجف، وظلّ يتنقل بينها وبين كربلاء ملازما لحضور دروس مشاهير الوقت، وهم الشيخ محمد باقر البهبهاني في كربلاء، والسيد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء في النجف، وغيرهم. وبعد مدّة حلّ في العراق طاعون جارف فتك بالناس فتكا ذريعا، وفرّ المجاورون منه وتفرّقوا في القرى والأرياف، وهرب بعضهم إلى خارج العراق، فعاد الأحسائي إلى بلاده، فتزوج وظلّ هناك فترة ظهر خلالها اسمه واشتهر. وفي سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م هبط البحرين فسكنها مع عائلته أربع سنوات. وفي شهر رجب عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م عاد إلى العراق ثانية للزيارة. فزار النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، وعاد فسكن البصرة ونزل محلة " جسر العبيد " وطلب أهله من البحرين وحلّ في دار الحاج إبراهيم العطار أبو جلة ثم ذهب إلى الدورق، وكان حاكمها الشيخ علوان بن شاوه يبالغ في احترامه، وبعد سنتين من سكناه فيها حاصر الشيخ محمد بن مبارك حاكمها الشيخ علوان فأخرجه وحكم مكانه، وفي يوم الغدير الثامن عشر من ذي الحجة عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م هاجم الوهابيون كربلاء فقتلوا وأحرقوا وسبوا ونهبوا، فراح ضحية ذلك الغزو البربري والعمل الوحشي ٧ آلاف من أهل البلد والزوّار الذين قدموا إلى المدينة، من الكبار والصغار والرجال والنساء، فكان لذلك وقع شديد على نفس الأحسائي، كما هي الحال بالنسبة للشيعة وعلمائهم في كل مكان. وقد ضاعف ذلك من حبه للعزلة وابتعاده عن الناس، وصادف أن وقعت نفرة بينه وبين الشيخ محمد بن الشيخ مبارك، فهبط البصرة ونزل دار "ابن بدران" فترة، فتهافت عليه الناس، فهبط قرية "الجبارات" من قرى البصرة، وبعد فترة هبط قرية "التنومة" زمنا، وانتقل منها إلى قرية "النشوة" فمكث فيها ١٨ شهرا، فلم ترق له، لأنها لم تحقق رغبته في الخلوة بنفسه والابتعاد عن الناس، فعاد إلى البصرة من جديد بعد أن ظلّ يتنقل بين القرى زمنا فرارا من الشهرة واجتماع الناس من حوله.

وكان السيد عبد المنعم الجزائري -من أشراف البصرة ومشاهيرها - قد سمع برغبة الأحسائي في العزلة والخلود إلى الهدوء. فعرض عليه النزول في قرية له تسمى "الصفا" لأنه لن يجد خيرا منها لبعدها عن المارة. فهبطها مع عائلته سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م، ومكث فيها سنة كاملة، فلم يكن مكان أسوأ منها في نظره من حيث الهواء والتربة، ونظم قصيدة في ذمّها. ثم هبط قرية "شط الكار" العائدة للسيد أحمد بن هلالة مدّة، ثم ترك عائلته فيها مع ولده الشيخ علي وذهب إلى "سوق الشيوخ" بالقرب من "الناصرية" مع ولده

الشيخ عبد الله، وكان سبقه إلى سكنى "السوق" ولده الشيخ محمد تقي. فمكث فترة وترك ولده الشيخ عبد الله عنده ليكمل تحصيله العلمي على أخيه وعاد إلى البصرة فاستأجر دارا لعياله وأولاده، ونقلهم إليها وصمّم على زيارة الإمام الرضا (ع) في "خراسان".

إلى إيران:

وفي سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م جدَّد العهد بزيارة العتبات المقدسة في العراق مع ولده الشيخ علي، ومعه من أصحابه: السيد صالح بن السيد سلمان المولوي الموسوي، والسيد حسين بن أحمد الحسيني، والحاج خليفة بن ديرم الأحسائي. ومن زوجاته: مريم بنت خميس، وآمنة بنت أحمد. ثم سافر منها إلى إيران، ولما وصل إلى يزد اجتمع به بعض أهلها، وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي هناك يومئذ، وعرضوا عليه البقاء عندهم فوعدهم بتحقيق رغبتهم في العودة من زيارة الإمام الرضا (ع). وواصل سيره فوصل إلى خراسان فزار ومكث مدة ثم عاد إلى يزد كما وعد.

في يزد:

وقد أحاطه أهلها بالرعاية والعناية البالغة طوال مدة بقائه وأحبّوه كثيرا، ولما عزم على العودة إلى العراق امتنعوا من السماح له والتمسوا منه البقاء وحالوا دون سفره بمختلف الوسائل، فعدل عنه وبعث بعض أفراد عائلته مع سائر أصحابه إلى البصرة برعاية ولده الشيخ علي عن طريق أصفهان وشيراز، وظلّ مع زوجته في يزد، ومذ توطن على البقاء شرع في التدريس والوعظ فتألق نجمه وطار اسمه، فسمع به السلطان فتح علي شاه القاجاري وأحبه وأعجب به على البعد واشتاق إلى زيارته، فكتب إلى حاكم يزد أن يسيّره إلى العاصمة مكرما، فامتنع الشيخ لمخالفة ذلك لرغبته في الانطواء، فكتب إليه السلطان يدعوه فأصر على الرفض بغضا للشهرة وفرارا من الزعامة وتبعاتها، فكرّر دعوته وتبودلت بينهما الرسائل في ذلك مرارا فلم يزد ذلك الأحسائي إلا إصرارا على الرفض.

ونقل ولده الشيخ عبد الله، ومرتضى الجهاردهي موجز رسالة كتبها السلطان إليه بالفارسية، وتعريب الموجز ما يأتي : " كان الواجب يقضي علي بأن أتشرف بزيارتك لأنك الإمام المقتدى والمرجع للخاص والعام، فقد شرّفت مملكتنا ونوّرتها بقدومك. لكن ذلك ليس بمقدوري لعدّة أسباب، فأنا معذور لأني إذا هممت بالتشرف في خدمتك لزم أن يصحبني ما لا يقل عن ١٠ آلاف جندي، وبما أن يزد مدينة صغيرة، وواد غير ذي زرع فإن دخول هذا الجيش سيسبب ضائقة معيشية، وارتفاعا في أسعار الحاجيات الاستهلاكية. وطبيعي أنك لا ترضى بغضب الله وما لا يرضيه. وإلا فأنا

أقل من أن أحظى بين يديك فكيف بأن أتكبر ؟ فإن شرفت على أثر وصول هذه الرسالة إليك فهو المطلوب وإلا فسأضطر للتوجه إلى يزد".

وأورد الشيخ أبو القاسم الإبراهيمي نقلا عن كشكول السيد حسين اليزدي رسالة عربية كتبها فتح علي شاه إلى الأحسائي، وهذا نصها: "الحمد لله الذي شوّقنا بلقاء -كذا- الشيخ الجليل والحبر النبيل، قطب الأقطاب ولب الألباب، حجة الله البالغة ونعمته السابغة، أضحى بدوحة العلوم غصنها سمقا، وأميط عن صباحها من الجهل عنقا - كذا -علامة العلماء، أعرف العرفاء، أفقه الفقهاء، أدام الله بقاءه، ويسّر الله لنا لقاءه. وبعد، لا يخفى عليك يا بدر أهل الدين، وبحر ملة اليقين، كعبة الفضائل ونقاوة الخصائل، أنّا نشتاق إليك شوق الصائم إلى الهلال، والعطشان إلى الزلال، والمحرم إلى الحرم، والمعدم إلى الدرهم. ونرجو منك بعد وصول هذه الورقة أن تقدم بالعطف والشفقة وتتوجه إلينا وتتوقف برهة لدينا، حتى نستفيض منك وأنت السحاب المطير، ونقتبس منك وأنت السراج المنير، ونقتطف منك وأنت الروض الظاهر -كذا- ونجتني وأنت الشجر الباهر، وإذا دعيتم فأجيبوا فإن منزلكم عندنا لرحيب .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

لم تزد تلك الرسائل المتتالية والإلحاح الجاد من قبل السلطان الشيخ الأحسائي إلا إصرارا على الامتناع ومبالغة في الرفض، ذلك لأنه كان يحب العزلة والانزواء وخمول الذكر وترك علاقة عامة الناس، فكيف بالملوك والأمراء وما يقتضي ذلك من التزامات تخرج المرء عن طوره وتصرفه إلى غير هدفه ؟ وعندما شعر بالمضايقة من الحكام والوجوه لتلبية طلب الشاه قرّر الفرار عن طريق شيراز فالبصرة. فأحسّ الحكام وأهالي يزد بذلك فتجمهروا في بيته وطلبوا منه حفظ أرواحهم لأن الحكومة في العاصمة ستفسر ذلك بأنه خوف من ورود السلطان إلى يزد وتمهيد طريق الفرار للأحسائي. ولما تيقن وقوع الضرر عليهم من ذلك نزل عند رغبتهم واضطر للبقاء، وسمت مكانته عند الأهالي أكثر لما علموه من مقامه عند السلطان. ثم استجاب للدعوة فتوجه إلى طهران في موكب عظيم، وشيّعته يزد حكومة وشعبا، وجرى له في كل مدينة أو قرية مرّ بها تكريم وتعظيم واستقبال، وتوديع وطبّق نبأ مسيره أرجاء البلاد الإيرانية.

في طهران:

وخرج لاستقباله موكب السلطان ورئيس وزرائه وسائر الوزراء والأعيان والأمراء، وهرع الناس على اختلاف طبقاتهم، وعلى رأسهم العلماء وكبار رجال الدين والفضل. وأنزله السلطان منزلة الكرامة وحظي باحترام وإقبال لا يوصف، وكانت مكانته تزداد عنده يوما بعد يوم. وصادف أن

حدثت زلازل متتالية في أطراف طهران أدّت إلى خراب الدور وسائر الأماكن القريبة من طهران. فرأى فتح علي شاه ليلة في منامه قائلا يقول: " لو لم يكن جناب الشيخ أحمد في هذه المدينة لهلك أهلها بالزلازل في ساعة واحدة"، فاستيقظ مرعوبا وزاد تعلقه بضيفه واعتقاده به، وأخذ يسأله بعض المسائل فيجيب عليها بكتب ورسائل فعظم قدره عنده للغاية، واعتقد أن طاعته فرض ومخالفته كفر.

وعرض السلطان على الشيخ، في بعض اجتماعاته معه، سكنى إيران، معللا بأن الشيعة وعلماءهم مضطرون إلى التقية في العراق مداراة لآل عثمان، وعالم بصير مثله يجب أن يعيش في ظل حكم يمكنه من إظهار علمه ونشر معارفه، أضف إلى ذلك أن العرب لا يأنسون بالحكمة والأسرار والعلوم العقلية التي يبرع الأحسائي فيها ويعمل على نشرها، ولا يتطلبونها. وقد اعتذر إليه لأول وهلة، لكنه كرّر ذلك عليه في لقاءاته التالية فوافق. وطلب إليه ثانية أن يختار طهران للسكنى فاعتذر إليه بعدم رجحان ذلك، وعلله بأن الناس إذا رأوا إقبال السلطان عليه وإصغاءه إليه، قصدوه في حوائجهم وشفعوا به في مشاكلهم، فإن رفض واعتذر أبغض واتهم، وإن أجاب أحرج السلطان ببعض طلباته، إذ لا شك أن فيها ما يتنافى مع القانون ويناقض مصلحة الحكومة، فالأجدر به أن يسكن مدينة أخرى، فإيران كلها بلاده وتحت حكمه. فاقتنع السلطان بوجاهة عذره، فخيّره فاختار العودة إلى يزد، وكان محمد علي ميرزا ابن السلطان فتح علي شاه والي كرمانشاه وخوزستان والحويزة وتوابعها حاضرا في المجلس، فأمره أن يرسل بعض عمّاله إلى البصرة ليحمل عائلة الشيخ إلى يزد مكرّمة. وكتب محمد علي ميرزا رسالة إلى إبراهيم آغا حاكم البصرة طلب منه فيها أن يساعد رسوله على نقل عائلة الشيخ، وعاد الشيخ إلى يزد باحترام. وورد الميرزا شايق رسول محمد علي ميرزا إلى البصرة في أوائل ذي القعدة عام ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، فحملهم من طريق الأهواز فتستر فدزفول فخرّم آباد فبروجرد فكاشان. ووصلوا إلى يزد في غرّة صفر قبل تحويل السنة -عيد النوروز- بأربعة أيام.

في يزد وخراسان ثانية:

عاد الأحسائي إلى مزاولة أعماله العلمية من جديد، فشرع بالتدريس والإفادة ونشر المعرفة وإعمال الكمال، وكان مجلس درسه حاشدا بأهل العلم والفضل، ومسجده مكتظا بجموع المصلين خلفه، وظلّ على مكانته لدى كبار علمائها وأصحاب الرأي فيها. وفي سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م عزم على زيارة الإمام الرضا (ع) فصحب ولده الشيخ علي وبعض زوجاته فزار وعاد إلى يزد،وبعد فترة صمّم على زيارة العتبات المقدسة بالعراق، وكانت يزد قد تقدّمت كثيرا بواسطته، وحظيت باهتمام السلطة والحاكمين من أجله، ولذلك عزّ على أهلها سفره، وحاولوا إقناعه بالبقاء بشتى الصور فلم

يفلحوا. حتى أنَّ أمين الدولة حاكم البلد حذّر المكاريّين من حمل أمتعته وهدّدهم فلم يجده ذلك. وخرج الشيخ بعياله في موكب ضخم، وودّعه الناس وهم في أسى وبكاء.

في أصفهان:

ومرّ موكب الأحسائي بأصفهان، وقد كانت أنباء الرحلة قد سبقته، فاستقبله أهلها، ولا سيما العلماء والحكام استقبالا منقطع النظير، والتمسوا منه البقاء فلم تسعه الإجابة لأن الشاه زاده محمد علي ميرزا، حاكم كرمان شاه، كان قد أوفد المستقبلين إلى أصفهان ليصحبوا موكبه. وهكذا خرج مودعا بمثل ما استقبل به من احترام.

في كرمان شاه:

واستقبله أهل كرمان شاه على بعد منزلين في "جاه كلان"، كما استقبله الشاه زاده مع حاشيته في "تاج آباد" على بعد أربعة فراسخ. ودخل المدينة بإجلال في الثاني من رجب سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٣م، وقضى فيها أياما كان خلالها موضع الإكبار والتقدير . وطلب منه الشاه زاده سكنى "كرمان شاه" فاعتذر وأخبره بأن سبب تركه ليزد لم يكن لضيق أمور معاشه ولا لعدم احترامه بين الناس، فقد شقّ عليهم ذلك لولا أن رغبته في مجاورة العتبات المقدسة هي التي أخرجته، فأجابه بأن خروج روحه من جسده أهون عليه من خروج الشيخ من "كرمان شاه" وأنه يضمن له تهيئة وسائل الزيارة كل عام لأنه يحب أن يرضي الله بخدمته، ويكون له شرف جواره، ليفخر بذلك أمام غيره من الولاة والحكام، فوعده بتحقيق رغبته في العودة.

بين كرمان شاه والعراق:

وهبط العراق فتشرف إلى النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، وقضى في كل مدينة مدة. ثم عاد إلى كرمان شاه وبقي فيها نحو ٣ سنين. وقد عاد إلى العراق خلال تلك المدة غير مرة، وتكررت زياراته للعتبات مرارا. وكان يطيل المكث في كل مشهد فترة طويلة، وفي سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م عزم على حج بيت الله الحرام وصحب ولده الشيخ عبد الله، ومعه من أصحابه وأتباعه: المولى مشهد التبريزي، والحاج أبو الحسن بن إبراهيم اليزدي، والحاج عبد الله بن إبراهيم آل عيثان القارئ الأحسائي، والحاج علي الدزفولي، فخرج عن طريق البادية.

في دمشق والديار المقدسة:

وصل الأحسائي إلى دمشق في أواخر شهر شعبان، فصام شهر رمضان فيها، وتحرك إلى المدينة في منتصف شوّال، فوصلها في الثاني والعشرين من ذي

القعدة. وفي الرابع والعشرين منه خرج فأحرم من "مسجد الشجرة"، وبعد تمام المناسك رجع إلى العراق من طريق نجد والجبل مع جم غفير من الحجاج، وعند وصوله الجبل افترق عنهم واتجه إلى النجف مع نفر من أصحابه، فهاجمت ركبه عصابة من اللصوص فقاتلهم.

في العراق وكرمان شاه مجدداً:

وفي غرّة ربيع الثاني وصل إلى النجف، فأرسل ولده الشيخ عبد الله مع بعض خدمه إلى كرمان شاه، وظلّ في النجف ٨ أشهر، وفي الرابع من محرم عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م عاد إلى كرمان شاه وعاش عدّة سنين بهناء وجلال حتى توفي محمد علي ميرزا وشحت النعم على أثر قيام الحرب بين العراق وإيران، وأدبرت أيام البلد، وضاعف النكبة سيل عظيم أغرق ربع المدينة في ليلة واحدة، وهلك الناس والمواشي والزرع، وفي العام الثاني من وفاته وقع وباء عظيم في كل إيران، وفتك بالناس فتكا ذريعا، فعزم الأحسائي على زيارة الإمام الرضا (ع).

في بعض مدن إيران:

وهبط قم فقزوين فطهران، وذهب لزيارة مرقد السيد عبد العظيم الحسني في الري فوجد أهلها قد فرّوا إلى الجبال والصحارى، فمكث ٤ أيام واتجه إلى طوس فوصل شاهرود، فحلّ الوباء في ركبه فمات عدد من صحبه وإحدى زوجاته، ودخل خراسان مع اشتداد الوباء، فمكث ٢٢ يوما، وذهب إلى تربت فاستقبله حاكمها محمد خان بن إسحاق خان، ثم إلى طبس واستقبله أيضا حاكمها علي نقي خان بن المير حسين خان الطبسي، وهمّ بالعودة إلى يزد وكان الطريق مخيفا، فأرسل معه الحاكم ابن عمّه مراد علي، المعروف بالسطوة والشجاعة في ١٠٠ راكب و٢٠٠ راجل حتى يزد.

في يزد وأصفهان وكرمان شاه:

ووصل إلى يزد، ولم يطل مكثه فيها، فبعد ٣ شهور توجه إلى أصفهان وحلّ في دار عبد الله أمين الدولة ابن محمد حسين خان صدر الدولة، فطلبوا منه البقاء فأرسل أهله مع ولده الشيخ عبد الله إلى كرمان شاه، وقضى شهر رمضان في أصفهان، وأحصي مرة عدد المصلين خلفه فبلغوا ١٦ ألفا، ولم يدّخر أمين الدولة وسعا في إكرامه، حتى أنه أهداه قرية "كمال آباد". وفي العاشر شوال اتجه إلى كرمان شاه فمكث سنة ثم عزم على مجاورة العتبات في العراق.

في كربلاء:

وهبط كربلاء فمكث مدّة ثم همّ بالحج ثانية، وكان معه هذه المرة ولده الشيخ حسن، والسيد خلف بن علي النجّار، وموسى بن عبد الحسن، والحاج علي الكيشوان الكربلائي، واثنتان من زوجاته، وعبده سلطان، وبعض الخدم.

في الشام:

وسافر عن طريق بادية الشام فهبط دمشق فمرض، وظلّ يواصل سيره ومرضه آخذ بالتزايد، حتى توفي في الطريق في منزل يقال له "هيدية" قرب المدينة المنورة.

وفاته وقبره:

توفي الأحسائي وهو متوجه إلى الحج في "هدية" على ٣ مراحل من المدينة أو مرحلتين، وذلك يوم الأحد ٢١ من ذي القعدة عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م، وصلى عليه ولده الشيخ علي نقي، كما قاله الميرزا علي الحائري! ونُقل إلى المدينة فدفن في البقيع خلف جدار قبّة الأئمة (ع) من طرف الجنوب، تحت ميزاب المحراب مقابل "بيت الأحزان"، وكان عمره ٧٥ سنة كما قاله ولده. ورثاه الشيخ علي نقي، وتلميذه الشيخ حسن جوهر، وأرّخ وفاته الشيخ محمد السماوي وشاعر آخر، ونظم الشيخ عبد الحسين شكر النجفي أبياتا اتّهمه الشيخ علي كاشف الغطاء على أثرها بالشيخية، ودافع عنه الشيخ علي الخاقاني، والشيخ آغا بزرك الطهراني.

وقد انتشر خبر وفاته في البلاد الإسلامية فأقيمت له مجالس الفاتحة في مختلف الأرجاء ولا سيما في إيران، فكان له في كل مدينة دخلها أو سكنها ودرّس فيها مأتم. وأقام له الشيخ محمد إبراهيم الكلباسي من زعماء الدين في أصفهان مجلس الفاتحة ٣ أيام فحضره الخاص والعام.

... مأساة تكفيره وتسقيطه ...

شهرته وحسد المعاصرين له:

تألق نجم الأحسائي فتلقته الأوساط العلمية بقبول حسن، وعرف بغزارة العلم وسمو الفكر وعلو الثقافة وأشير إليه بالأنامل. وأجمع الكل على ورعه وتقواه وترسله وزهده في الزعامة الدينية ومتع الحياة كافة. وأخذ يتنقل بين النجف وكربلاء والكاظمية فيقضي فيها مددا طويلة، وكانت فيها يومذاك حوزات دراسية ضخمة وعلماء أفذاذ. وكانوا يتسابقون إلى زيارته ويبالغون في احترامه، ولذلك كثر الإقبال عليه وعظم في نفوس العامة على اختلاف طبقاتهم، وأخذت رياسته بالتوسع رغم إعراضه عنها،

وأوشكت شهرته أن تغطي العلماء المعاصرين له، فلم يهن ذلك على بعضهم بل ضاقوا به ذرعا، وامتلأت صدورهم عليه حقدا، وصمموا على دكه، غير أن المد الشعبي ومكانته الجماهيرية كانت ترهبهم، فلزموا جانب الصمت، إلا أنهم بدؤوا يعملون في الخفاء للإطاحة به. وكان علماء كربلاء قد صمّموا على تكفير كل عالم يرأس ويتزعم ويخافون تقدمه. وقد كفروا عددا من العلماء لكنهم لم ينجحوا مما اضطرهم إلى الخجل.

وسافر الأحسائي إلى إيران عدّة سفرات، فدخل عواصمها العلمية ولاقى كبار رجالها، وكانت أصفهان يومئذ مركز علم كبير، وفيها سوق رائجة للفلسفة والحكمة الإلهية، وعدد كبير من مشاهير الفلسفة، من أبرزهم: الشيخ علي النوري. وقد سُئل: أيهما أفضل الشيخ آغا محمد البيد آبادي من فلاسفة أصفهاني أم الأحسائي ؟ فكان جوابه : " إنَّ التمييز لا يكون إلا بعد بلوغ المميز لمقامهما، وأنا غير بالغ لمرتبتهما، فكيف التمييز؟ . وحكى الشيخ هادي السبزواري صاحب "المنظومة" أنه كان يقرأ مقدمات العلوم النقلية في أصفهان يوم هبطها الأحسائي ولم يكن يتجه لدراسة العلوم العقلية بعد، فأذيع أن الحوزات العلمية والحلقات الدراسية كافة قد تعطلت وأن طلابها عامة سيحضرون درس الشيخ الأحسائي، فحضره مع من حضر ورأى كبار العلماء ومشاهير المدرسين كالشيخ محمد إبراهيم الكلباسي صاحب "الإشارات" وغيره تحت منبره. وكان يدرّس الفلسفة والحكمة الإلهية. وقد أجمع العلماء قاطبة على زهد الشيخ وتقواه. وقد شذّ عنهم السيد محمد باقر الشفتي الملقب بـ "حجة الإسلام" الذي كان يقيم الحد الشرعي من قتل وقطع وجلد، فهو الوحيد الذي لم يكن ليستقبل الأحسائي ويودعه ويحترمه كما كان يفعل الآخرون، مع أنه كان صديقا حميما للكلباسي الذي لم يدّخر وسعا في تكريم الأحسائي. ويقول الشيخ عبدالله بن الأحسائي: إنّ والده عندما مرّ بأصفهان أصرّ عليه علماؤها وأعيانها بأن يصوم شهر رمضان عندهم وكان هلالا قريبا، فاستجاب وحلّ ضيفا على أمين الدولة عبدالله خان ابن صدر الدولة محمد حسين خان، فبذل منتهى الجهد في خدمته، وكان "مسجد الحكيم" وهو مصلى الكلباسي الذي قدّمه له يضيق بالمصلين على سعته. وقد تصدّى نفر لإحصائهم بالتعاون فكانت عدّتهم ذات يوم ١٦ ألفا، ويقول التنكابني:" إن الأحسائي كان يأتي إلى المسجد قبل الظهر بساعة فيجلس على الباب ويضع إلى جنبه ساعته والبوصلة- آلة تعيين القبلة- ويظل بانتظار زوال الشمس، فإذا دخل الوقت بدأ بالنوافل من مكانه واتجه إلى المحراب وأدّى عدّة ركعات وهو في الطريق".

وهكذا كانت الحال بالنسبة له في كل مدينة دخلها في إيران. وقد دعم شخصيته أكثر وفرضه على الناس فرضا وإن لم يكن بحاجة إليه ما أبداه له السلطان فتح علي شاه القاجاري من تعظيم لم يشاركه فيه أحد من

علماء إيران، وفيهم الفطاحل وذوو البيوت العريقة في الزعامة الدينية. وقد كانوا جميعا يسارعون إلى استقباله قبل غيرهم، وقبل أن ينتدبوا، ويأتمون به في الصلاة، ويقدّمونه على أنفسهم في المناسبات إذا حضر. ولكن ذلك لم يكن سهلا عليهم. فالإيرانيون في الغالب ينظرون إلى العرب نظرة ازدراء واحتقار، ويعتقدون بتخلفهم الذهني، وهم بعد ذلك علماء، والحسد من خصائص أهل العلم، فكيف يروق لهم أن يأتي رجل من أطراف الأحساء وأبناء الصحراء فيتفوق عليهم في بلادهم ويحظى بإقبال ملكهم وشعبهم؟ ولكن ذلك قد حصل بالرغم منهم، وأجبرهم الوضع على الاعتراف بتفوقه وتقدمه.

وضاق القوم ذرعا بالرجل، وفكروا في الخلاص منه طويلا، حتى اهتدوا إلى ما اهتدى إليه زملاؤهم علماء كربلاء من قبل. ورأوا أن الطريق الوحيد للإطاحة به، وتفريق الناس عنه هي إثارة زوبعة حوله، وذلك عمل يحسنونه ويعرفون كيفية التمهيد له والوصول إليه. كل ذلك يجري في الخفاء والأحسائي مترسل في سيرته وحديثه لا يعرف ما يبيّت له القوم ولا يخطر له على بال.

تبودلت الآراء وتكررت المشورة بين علماء إيران والعراق. وكان أكثر علماء العراق يومئذ وإلى اليوم من الإيرانيين، وكانت الصلات مستمرة بينهم. يقول الدكتور علي الوردي : " فإذا ما حدث في إيران أي صراع ديني أو سياسي فسرعان ما ينتقل أثره إلى العراق عن طريقهم، إذ أن الجدال الذي ينشب بين رجال الدين في إيران لابد أن يصل إليهم على وجه من الوجوه، فيتجادلون هم بدورهم، وكثيرا ما تنتشر عدوى الجدال إلى العامة، وربما أدّى إلى استفحال الخصومة وتبادل الشتائم بينهم" . وقد أجمعت الكلمة على الوقيعة بالأحسائي، ولكن من يوري الشرارة الأولى؟ ومن الذي يملك الجرأة الكافية لينذك بشخصية تضخّم رصيدها على الصعيدين الحكومي والشعبي كشخصية الأحسائي؟ ومن أين يجب أن تنطلق هذه الشرارة .. أمن العراق أم من إيران ؟ وذلك ما سنتعرض له في الفصل القادم.

... تكفير البرغاني له:

خرج الأحسائي من كربلاء متوجها لزيارة الإمام الرضا (ع) في ركب ضخم ورياسة عظيمة ودخل وافر، تستقبله مدينة وتودعه أخرى باحترام وجلال منقطع النظير حتى وصل إلى قزوين. وكانت الرياسة فيها يومئذ للشيخ محمد تقي البرغاني الشهير بالشهيد الثالث. وكان على جانب كبير من الغرور والإعجاب بالنفس كما يبدو. فظنّ بحكم شهرته وانحصار الزعامة فيه أن الأحسائي سوف لا يعدو بيته وأنه سيزيد من قدره واحترامه بنزوله ضيفا عليه، ولذلك لم يوجه له دعوة. وكان في

قزوين رجل علم من تلاميذ الأحسائي اسمه الشيخ عبد الوهاب القزويني، وهو من الفقهاء وأئمة الجماعة هناك يومئذ، ومن عائلة كبيرة إلا أنه دون البرغاني سمعة وعلما. ولما سمع بتوجه أستاذه الأحسائي إلى قزوين أرسل جماعة لاستقباله إلى قرب همدان ودعاه للنزول في داره فأجابه. فاعتبر البرغاني ذلك تكريما من الأحسائي لتلميذه وحطا من منزلته هو. وتهافت العلماء والأمراء وسائر الطبقات على دار الشيخ عبد الوهاب لزيارة الأحسائي، وكان البرغاني في طليعة القوم، وقد عتب على الأحسائي لعدم نزوله في داره، فكان مما قاله له : " إنني أعلم العلماء هنا، وكان من اللازم عليك أن تنزل داري بدون حاجة إلى دعوة ". فكان جواب الأحسائي : " إنّ دعوة المؤمن محترمة شرعا وإن لم يكن أعلم، وأنا تابع للشرع لا للأعلمية ". فكان الجواب مسكتا ومؤلما للبرغاني فحقد على الأحسائي منذ تلك اللحظة.

وبدأ البرغاني يعمل للانتقام من الأحسائي والوقيعة به. وأخذ يتحين الفرص ويتسقط كلامه للحصول على مدخل يلج منه، وممسك يتذرع به. وكان الأحسائي يتكلم مترسلا في مجالسه الخاصة والعامة ويتحدث عن استنباطاته وكشفياته. وكان مما قاله يوما : " إنَّ الأئمة الاثني عشر هم العلل الأربع لسائر الخلق، وإنَّ معراج النبي (ص) كان بالبدن الهورقليائي وغير ذلك. وحانت الفرصة للبرغاني أن يلعب لعبته ويحقق رغبته فأضاف إلى تلك الآراء بعض الكفريات ونشرها بين العوام. ونسب الأحسائي إلى تضليل العوام بآرائه وغلوّه في الأئمة وكفره. وقد جلب إلى صفه بعض علماء قزوين ممن لم تكن له مع الشيخ عبد الوهاب علاقة حسنة ليطوح بالاثنين معا، وليستعين بإخوانه وإن اختلفت أهدافهم كما فصّله الشيخ عباس كيوان القزويني.

وتبعا للسيرة المألوفة فقد كان على الأحسائي أن يرد الزيارة للذين زاروه. وكان يصحبه في تلك الزيارات رهط من علماء وأعيان قزوين. فذهب يوما لزيارة البرغاني في بيته، وبعد أن استقر به المقام وتبودلت الأحاديث سأله البرغاني: هل أنّ رأيك في المعاد موافق لرأي المولى صدر الدين الشيرازي؟ فأجابه: إنه مخالف له. فقال البرغاني لأخيه الشيخ علي: اذهب إلى المكتبة وأحضر كتاب "شواهد الربوبية". فتثاقل الشيخ علي لأنه كان من تلاميذ الأحسائي، وحاول أن يغير مجرى الحديث فقال البرغاني: دعنا من ذلك وقل لنا ما هو رأيك في المعاد؟ فقال الأحسائي: إنني أن المعاد بالجسم الهورقليائي وهو في هذا الجسد العنصري كالزجاج في الحجر. فقال البرغاني: الجسد الهورقليائي غير الجسد العنصري الذي يعاد يوم القيامة، وذلك من ضروريات الإسلام. فقال الأحسائي: وهذا عين مرادي. ثم تشعّب الكلام واحتد النقاش فانبرى أحد تلامذة الأحسائي وكان من تركستان لمجادلة البرغاني فأسكته وانفض المجلس بكدر وخلاف. وفي ذلك اليوم خرج

الأحسائي إلى المسجد فلم يخرج معه أحد من العلماء كما كان متبعا ولم يحضروا للصلاة معه. وكان الوحيد الذي ذهب معه هو تلميذه الوفي الشيخ عبد الوهاب القزويني.

ونظرا لمقام الأحسائي الكبير عند الجميع وعظمته العلمية المعترف بها من قبل الكل رأى الشاه زاده ركن الدولة علي نقي ميرزا حاكم قزوين أنَّ ما قام به البرغاني اعتداء لا يمكن السكوت عنه. كما خاف على سمعته مما ستحدثه الغوغاء من فوضى في أيام حكومته. وحاول حفظ نفسه من التعرض لغضب السلطان فتح علي شاه الذي يحب الأحسائي ويبالغ في تعظيمه. فماذا سيكون موقفه منه إذا سمع بأن الأحسائي قد أهين في قزوين وهو حاكمها؟ وقد اضطره كل ذلك للتدخل بين الاثنين أملا في رفع الخلاف وإنهاء المشكلة. وكان أن دعا علماء قزوين كافة لتناول العشاء في بيته في إحدى الليالي، ودعا الأحسائي أيضا، وكان الأحسائي في صدر المجلس حين دخل البرغاني، وكان من المنتظر أن يجلس إلى جانبه لما كان يراه لنفسه من اللياقة للصدارة، غير أنه جلس بعيدا عنه وترك حائلا بينهما. ولما أحضر الطعام أفردت للأحسائي والبرغاني مائدة خاصة بصفتهما أجل الحاضرين وأرفع من أن يأكلا مع الآخرين، لولا أن تركها البرغاني وجلس على المائدة الثانية وأكل مع القوم. ولما انتهى المدعوون من الأكل وعادوا إلى أماكنهم تغير وضع المجلس واستبدل البعض مكان الآخر، فصار مجلس الأحسائي قريبا من البرغاني بحيث يرى كل منهما الآخر. فكشف البرغاني عن دخيلة نفسه وأظهر غرضه وجسّم حقده بين وضع كفه على جهة وجهة من جانب الأحسائي لئلا يراه !! وبدأ الحاكم الحديث فتكلم طويلا. وكان مما قاله : إنَّ الأحسائي شيخ العلماء وكبير الروحانيين من العرب والفرس، وإن احترامه واجب على الجميع، وإن على البرغاني أن لا يدّخر وسعا في تكريمه وأن لا يلتفت إلى كلمات المفسدين الذين أوقعوا الجفوة بينهما. فردّ البرغاني بقوله: ليس بين الكفر والإيمان صلح ولا إصلاح. فللأحسائي في مسألة المعاد رأي يخالف الضروري من أحكام الدين، ومنكر الضروري كافر. فبذل الحاكم كل جهد ممكن في إخماد الفتنة ومعالجة الموقف إلا أنه فشل وأكد البرغاني تكفيره للأحسائي وخرج.

ويروي الشيخ عباس كيوان القزويني قصة تكفير البرغاني للأحسائي بصورة أخرى، خلاصتهما أنهما اجتمعا على مائدة الشيخ عبد الوهاب القزويني فقال البرغاني للأحسائي: لقد زعمت كذا وكذا، فهل أنت معتقد بذلك؟ فقال: نعم، ويجب أن يعتقِده الآخرون. فامتنع البرغاني عن الطعام وقال له: أنت كافر وأتباعك كفار، وأنا لا أواكل الكفار. ثم خرج فساد المجلس صمت رهيب أعقبه خلاف قوي، وتعصّب الأحسائي لآرائه وتعصّب خصومه كذلك، وانتشرت أخبار تكفير الأحسائي في بقية المدن

الإيرانية، وواصل الأحسائي سفره إلى خراسان. وكلما مرّ بمدينة وجد الانقسام حوله واضحا، ففريق يتجاهله ويعرض عنه وآخر يبالغ في تعظيمه تعصبا. وكتب البرغاني إلى علماء كربلاء بأنه كفر الأحسائي وطلب متابعته في ذلك. فاستجابوا وارتفعت الأصوات معلنة كفره، وصار الناس في حيرة مما حدث، ثم سادت الخصومة وتوسّع الخلاف وظهر لدى الشيعة مبدأ جديد، وقبرت خلافات الأخباريين والأصوليين وحلت محلها الشيخية وخصومها.

تجاوب علماء كربلاء والنجف:

وصلت أنباء الوقيعة بالأحسائي إلى كربلاء وكان مكفروه في إيران قد طلبوا إلى زملائهم في كربلاء إكمال الموضوع كما مرّت الإشارة إليه، فوحّد القوم صفوفهم وجمعوا قواهم للنهوض بالأمر، وذهب فريق منهم إلى السيد مهدي بن السيد علي الطباطبائي وكان من أعلام كربلاء فعرضوا عليه بعض العبارات الغامضة والمصطلحات الفلسفية التي استخرجوها من مؤلفات الأحسائي. وعمدوا كذلك إلى بعض الجمل التي يعكس التحوير معناها فتصرفوا به من حذف وزيادة وأولوه بالنحو الذي يطلبونه. ورغبوا إليه أن يصدر فتوى بتكفيره. فتوقف لما كان يراه من احترام والده للأحسائي واعترافه بالعجز عن فهم بعض كتاباته وأنها اصطلاحات يقتصر فهمها على الحكماء وأنه ليس منهم. إلا أنهم لم يتركوه وشأنه بل ظلوا يلاحقونه ويذاكرونه حتى انقدح في ذهنه بعض الشبهات وحصل له شك في بعض المقاصد والآراء. فاكتفوا بذلك وأشاعوا تكفير الأحسائي على لسانه. وكان إذا سئل عن ذلك تمتم بالكلمات وتلكأ ولم يفصح. فيفسر المغرضون ذلك بالتكفير. ثم كتبوا إلى أطراف العراق وإيران: إن الطباطبائي قد أفتى بكفر الأحسائي، وظلّ الناقمون يغربلون مؤلفاته ويتتبعون كلماته الغامضة وتعابيره المتشابهة ويذيعونها بين الناس، وقد اتّبعوا بعض الأساليب الماكرة فكانوا يستدرجون الناس. وما أن أحسوا بكرههم لفكرة معينة أو نفرتهم من رأي مخصوص حتى نسبوا ذلك إلى الأحسائي، وبذلك أحكموا كرهه في النفوس وأحقدوا الناس عليه.

وصادف موسم بعض الزيارات المخصوصة التي اعتاد الناس على أن ينهالوا فيها على كربلاء من كل صوب وحدب. فانتهزها الخصوم فرصة مواتية، فكتبوا نشرات حشوها بالأباطيل والأكاذيب ووزّعوها على الجماهير بشكل واسع، وقرأها أكبر عدد ممكن. فكثرت التقولات وتكررت الاعتداءات وعمّ الخطب وتفاقم الأمر وسادت الفوضى والاضطرابات. ولم يكفهم ذلك بل أعدّوا العدّة لعقد مجلس ضخم عام يحشر فيه أكبر عدد من أهل المدينة والزوّار من مختلف الأطراف، ويُدعى إليه من الخارج من يُدعى، ثم يكتب محضر في تكفير الأحسائي أمام الملأ. وتهيئوا لذلك على نطاق واسع وعيّن

اليوم والوقت، وتهافت الناس من كل صوب، وأوشك المجلس أن يكتمل على النحو الذي يرغبون فيه، وإذا بالمدينة تفاجأ بزلزلة عظيمة تهتز لها الأرجاء وتتضعضع الغبراء وتتساقط المباني ويعم الذعر ويسود الهلع ويتفرق الجمع. فاعتقد أتباع الأحسائي أنّ ذلك نصر من الله لهم وخذلان لخصومهم وانتقام منهم، لا سيّما وقد ذكر المعمّرون بأنهم لم يروا زلزلة في كربلاء ولم يسمعوا مطلقا!.

ولم يردع ذلك القوم ولم يكفوا عن عملهم بل عادوا إلى سابق وضعهم بعد أن هدأت الأوضاع بعض الشيء. وعمد بعضهم إلى تأليف كتاب حشاه بالفضائح والكفر والإفك وقول الزور وأقوال الملاحدة والزنادقة ونسبه إلى الأحسائي. وكان له مجلس عصر كل يوم يقرأ فيه تلك الفضائح على ملأ من الناس فتتعالى الأصوات من أرجاء المكان بلعن الأحسائي والبراءة منه ومن معتقداته، وبوجوب مقاومته والقضاء عليه.

وقد كفره غير السيد مهدي والبرغاني المذكور كل من الشيخ محمد جعفر شريعة مدار، والمولى أغا الدربندي صاحب "أسرار الشهادة" وشريف العلماء المازندراني، والسيد إبراهيم القزويني صاحب "ضوابط الأصول" والشيخ محمد حسن النجفي صاحب "جواهر الكلام" والشيخ محمد حسين الأصفهاني صاحب "الفصول" وغيرهم من فقهاء عصره وعلمائه.

ويروي الشيخ محمد حسن شريعة مدار الاسترابادي لتكفير والده للأحسائي قصة خلاصتها: إنّ المرجع يومئذ هو السيد محمد الطباطبائي الملقب بالمجاهد ولما أفتى بكفر الأحسائي وافقه وأيّده علماء كربلاء والنجف عامة. غير أن الشيخ محمد جعفر شريعة مدار كان في مكة يؤدي فريضة الحج. فقال الأحسائي: إنّ علماء هذه الديار فقهاء وأصوليون وليست لهم خبرة في الحكمة والعلوم العقلية وكلماتي ومؤلفاتي لا يفهمها إلا الحكماء. ورضي أن يحكم فيها الشيخ محمد جعفر شريعة مدار. واتفق أن عاد شريعة مدار من مكة فبعث له السيد محمد المجاهد "شرح الزيارة" وعدّة رسائل من مؤلفات الأحسائي بيد رسول وطلب منه قراءتها وبيان رأيه فيها. فقرأها بدقة وتأمل عباراتها وقال: "إنّ هذه الكتب والرسائل متشابهة وقابلة للتأويل ويجب إطاعة أمر السيد بحكم مقبولة ابن حنظلة " ولكن من أجل التثبّت في الحكم والحكومة لا مندوحة من مذاكرة الأحسائي نفسه فيها لنرى أنه يستحق التكفير أم لا ؟ واتفق أن التقى الأحسائي به في الحمّام، فشكره على عدم تسرعه في تكفيره كما فعل الآخرون، ودخلا في نقاش فتجمهر الناس عليهما في الحمام لسماع الحوار، فسرد الأحسائي آراءه ومعتقداته كما سطرها في مؤلفاته، وفهم منها شريعة مدار ما فهمه السيد المجاهد وسائر علماء كربلاء والنجف وحكم مثلهم بتكفيره. فوقعت في كربلاء وبلاد إيران كارثة لانتشار الخبر.

إنكار الأحسائي لما نسب إليه:

عاد الأحسائي إلى كربلاء بعد الفراغ من زيارة الإمام الرضا (ع) وكان عازما على قضاء ما تبقى من أيامه فيها، ولم يكن ليتصور ما بلغته الحالة من هياج وتفاقم، وما بلغه خصومه من ضراوة وشراسة. فرأى الجو مكفهرا والوضع متوترا ينذر بالانفجار، والناس حوله في خلاف، وتلميذه السيد كاظم الرشتي في حالة يرثى لها من المقاطعة والمقاومة لموقفه الإيجابي منه ومن آرائه، ولدفاعه عنهما بكل ما أوتي من حول وطول. فكثر استغرابه وحار في أمره، وما لبث أنصاره أن تجمهروا عليه وألزموه بالتدريس، فشرع في مجلس حافل، وكان يدرّس في أصول الفقه وأصول الدين، والحديث والتفسير، والفقه وغيرها. ومعظم تدريسه في "أصول الكافي" و "الاستبصار" وغيرهما. واستمر على سابق عهده يحاول الجمع بين قواعد الشرع والحكمة، وكان في رأيه يطبق المعقول على المنقول مع أن الكثير من قواعد المعقول لا يلتقي مع ظواهر الشرع والدين. وكان تلامذته يتناولون آراءه في ما بينهم وتتسرب إلى الحوزات الأخرى، فيحتدم حولها النقاش ويعلو الجدل، وتزيد الطين بلة بالنسبة لما سبق، وتنسب للأحسائي آراء وأقوال غيرها مما لا تستسيغه العامة ولا تألفه الخاصة. وقد كثرت النسب إليه والتقولات عليه، وكان خصومه قساة للغاية ومن حقهم أن يكونوا كذلك، بل يجب أن يكونوا كذلك، لأنهم لم يقصدوا بالخصومة إحقاق الحق وإبطال الباطل لتتصف بالمرونة والعدالة والإنصاف ولتراعى فيها أصول المرافعات وآدابها، بل كان الهدف هتكه وتشويه سمعته وتحطيم شخصيته. وهو وإن كان قد فهم ذلك أخيرا وصرّح أن الدافع الأول والأخير هو الحسد، لكنه كان غافلا عنه في بادئ الأمر لأنه ظلّ يناقش ويدافع ويحاجج.

وأخذ الأحسائي يرد على مؤاخذات خصومه بأسلوب علمي وحجج منطقية ويفسر أقواله المشتبه بها، وينفي عنه التهم والنسب غير الصحيحة . وتبرأ علنا من كل ما يخالف عقائد الشيعة الإمامية وأنه لم يقل ذلك في مجلس أو يسجله في كتاب. ودعا القوم مرارا للاجتماع والمداولة ولكنه لم يُعر أذنا صاغية ولم يُلتفت إلى طلبه، وصرّح غير مرّة بأن للكلام ظاهرا وباطنا، وأن بعض العبارات قابل للتأويل لا يمكن الأخذ بظاهره ممن لم يعرف المصطلحات الخاصة. واستشهد بقصة الأعرابي الذي حضر مجلس الخليفة عمر بن الخطاب فقال : " إني أكره الحق، وأحب الفتنة، وأشهد بما لم أره، وعندي ما ليس عند الله، وأعلم ما لا يعلمه الله، وأصدّق اليهود والنصارى، وآكل الميتة، ولا أركع ولا أسجد، وأنا أحمد النبي، وأنا علي، وأنا ربكم " . فأنكره عليه عمر وقال : " ازددت كفرا على كفرك " وأمر بضرب عنقه، وكان الإمام علي (ع) حاضرا، فقال : " مه يا عمر فإن هذا رجل من أولياء الله، ما تكلم إلا بالحق. أما قوله إني أكره الحق يعني الموت، وكل أحد يكره الموت، وأما قوله أحب الفتنة فإن الله سبحانه يقول : " إنما

أموالكم وأولادكم فتنة " وكل أحد يحب المال والولد، وأما قوله أشهد بما لم أره فإنه يشهد بالله ولم يره بالبصر، وأما قوله عندي ما ليس عند الله فعنده ظلم لنفسه وليس عند الله ظلم، وأما قوله أعلم ما لا يعلمه الله فإنه يتصور أن له ولدا وشريكا ولا يعلم الله له ولدا أو شريكا. قال الله تعالى : " قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ". وأما قوله آكل لحم الميتة فالجراد والسمك، وأما قوله ولا أركع ولا اسجد، ففي صلاة الجنازة، وأما قوله أنا أحمد النبي يعني أحمده على تبليغ الرسالة وأثني عليه ، وأما قوله أنا علي يعني علي في قولي هذا واعتقادي ولست بمتسافل، وأما قوله أنا ربكم بمعنى لي كم وصاحب كم وهي الردن من اللباس، فقام عمر وقبّل رأس أمير المؤمنين (ع)، وقال : لا بقيت بعدك يا أبا الحسن.

ثم استعرض الأحسائي بعض كبار أعلام الشيعة الذين توجد في كلماتهم عبارات متشابهة ظاهرها الكفر، كالسيد المرتضى الذي قال : إن الله ليس إلها للأعراض ولا للجوهر الفرد. والصّدوق الذي تقرب إلى الله بوضع رسالة في إثبات سهو النبي (ص) والأئمة (ع)، والأردبيلي الذي جوّز التركيب العقلي في الله، والخوانساريين اللذين جوّزا انتزاع المدد غير المتناهية من ذات الله، والمجلسي الذي ذكر قسما من المقدورات يقدر عليه الخلق ولا يقدر عليه الله .. إلى غيرهم، وتساءل : لماذا لم يحكم أحد بكفر أولئك وفسقهم وحكم بكفره ؟ ولماذا لم تحمل تلك الكلمات على ظواهرها وحملت كلماته ؟ ولماذا لم يجتهد أحد في كلماتهم في مقابل النص واقتصر على الاجتهاد في كلماته ؟ إلى غير ذلك من ضروب الرد وصنوف الدفاع. إلا أن ذلك كله لم يقع موقع القبول لدى أحد من القوم، وإنما أصروا على تفسير كلماته وعباراته وفق مشتهياتهم وحسب آرائهم، وبقوا على ما كانوا عليه من مخالفة. واستمروا على تأليب الناس عليه بمختلف السبل. وكان إذا هبط كربلاء غريب من العلماء أو الأعيان سارعوا إلى زيارته وحذّروه من الاتصال بالأحسائي أو ملاقاته، وحشوا ذهنه بما لفقوه من الاتهامات والكفريات.

وتوجد صورة رسالة كتبها الأحسائي إلى تلميذه الشيخ عبد الوهاب القزويني، وفيها عرض واف ووصف دقيق لما جرى معه في كربلاء، ولما وصل إليه القوم من إسفاف وإجحاف وظلم واعتداء، كصرف الأموال لشراء الذمم واستئجار الأعوان على التنكيل به، وبثّ الإشاعات ضده. وبما أنها بقلم الأحسائي نفسه وهو رجل صدوق لا يتطرق الشك إليه بوجه من الوجوه، ولا يحتمل في حقه الكذب أو الزيادة و النقصان، آثرنا إثباتها ليقف القارئ على مدى ما وصل إليه القوم من انحدار في الخلق وظلم للوجدان ومخالفة للشرع، وإلى القارئ نصّها :

" بسم الله الرحمن الرحيم .. إلى جناب عالي الجناب، ولب الألباب، الداخل في الخيرات من كل باب، أهدي جميل التحية والسلام، أصلح الله أحواله وبلغه آماله في مبدئه ومآله بحرمة محمد وآله، آمين رب العالمين.

أما بعد .. فإن سألتم عن محبكم وداعيكم فأنا أحمد الله إليكم، أما أنا من جهة نفسي ظاهري وباطني ففي راحة، وأمّا الناس من جهتي فقد اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اختلفوا ولكن الله يفعل ما يريد.

جاء الورع الزاهد الشيخ متقي وأراد أن يطعن على جنابك، فلم يجد غير أنه نظر في بعض كتبي في قولي " أن للإنسان جسدين الأول يعاد يوم القيامة وهو الجسد الأصلي، والثاني أعني العارضي الذي ليس للإنسان، وإنما هو عرض لحق المكلف من الأكل والشرب وليس من حقيقة، وإنما هو في نفس الأمر جسد تعلمي أو بمحكمه، وإن قلت: إنه من العناصر فإن كل ما تحت فلك القمر من العناصر الجواهر والأعراض ". ونفخ الشيطان في قلبه، فقال: إنه كفر وهذا كافر والمولى عبد الوهاب صلى خلف الكافر، وأعانه عليه قوم آخرون : " فقد جاؤوا ظلما وزورا " الفرقان/٤، " والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم " النور/١١، خوفا على دراهم العجم والهند حتى قالوا إنك تقول إن الذي خلق السماوات والأرض علي بن أبي طالب (ع) وحكموا بنجاسة الأرض التي أطؤها، وبنجاسة حضرة الحسين (ع) لأني أدخل عليه للزيارة، والأمر أعظم مما تسمع، وبذلوا الأموال على ذلك القريب والبعيد تشييدا لتكفيري : " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون " إبراهيم/٤٢.

وقلت: هذا كلام للخواجه نصير الدين في "التجريد" والعلاّمة في "شرح التجريد" ولا تجب إعادة فواضل الإنسان، وبيّنه العلامة في الشرح أنه لا يحشر إلا الطينة الأصلية، وقال المجلسي كلاما طويلا من جملته : " الثاني في البدن الأصلي الذي يبقى من أول العمر إلى آخره وهناك أجزاء فضلية تتصف بالزيادة والنقصان والتغيير والتبديل، والإنسان المقصود بقول "أنا" هو الأجزاء الأصلية التي تكون مدار الحشر والنشر والثواب والعقاب عليها ".

وفي هذا الكتاب مثل هذا الكلام كثير، والصادق (ع) كما في الكافي سئل عن الميت: هل يبلى جسده؟ قال: نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا الطينة التي خلق منها، فإنها لا تبلى، تبقى في قبره مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرّة، وكل العلماء على هذا، فقد جعلوا هذا الجسد الثاني الذي لا يعود كما هو رأيي هو الجسد التعليمي أعني العارض أو العرض، حتى أني صرّحت في بعض كتبي بأن الجسد الذي يعاد لو وزن لما زاد على هذا الذي في الدنيا المرئي مقدار ذرة. فإن الله يقول : " وإن كان مثقال ذرة من خردل

أتينا بها وكفى بنا حاسبين " الأنبياء/٤٧، فقوله " أتينا بها " أي بعينها ذلك، ولكن متى كنت كافرا جاهلا بالميعاد وأنا أدعي أنه ما أحد عرف مثلي، وقد وقف علماء العرب والعجم كلها عليها، فما طعن فيها إلا جاهل بمعنى قولي، أو معاند منكر للحق، وقد قال أمير المؤمنين (ع) : إذا قال أحدكم لأخيه يا كافر كفر أحدهما ". لكن يا شيخ حسبي الله وكفى به شهيدا، إنّ الله يقول في كتابه الحق : " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " ق/١٨.

والحاصل أنا أقول حسبي الله وكفى، ليس وراء الله منتهى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وسلام على من يعز عليك، وخصّ نفسك بالسلام " .

ظلّ الأحسائي يعمل من جانبه على رتق الفتق وإخماد الفتنة، ويدعو إلى جمع الكلمة وعدم شقّ عصا المسلمين وتفريق صفوفهم، ويحذّر من الاختلاف، لأنه يضعف الشيعة ويشمت بهم أعداءهم. وظلّ خصومه من جانبهم يغذّون التفرقة وينمّون دواعي الاختلاف، وكان أن قاموا بعمل أبشع من كل ما عملوا، وتصرّف أقبح من سائر ما ارتكبوا، وذلك أنهم عمدوا إلى كتابه " شرح الزيارة الجامعة الكبيرة " فحملوا منه نسخة إلى داوود باشا والي بغداد وأطلعوه على مواضع منها فيها تعريض وطعن في الخلفاء، منها قصة الشاعر ديك الجن مع الخليفة العباسي. وعزّزوا ذلك بعريضة ضمّنوها بعض الاتهامات الباطلة التي كانوا يروجونها، كقولهم : إنّ الأحسائي يقول إن الأمام عليا هو الخالق والرازق والمحيي والمميت، ونحو ذلك من الإفك والبهتان. وكان الوالي قد قتل قبل ذلك بقليل الشيخ ياسين خال الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي بتهمة نسبت إليه بلا بينة ولا شهود، مع أن الشيخ موسى كان عنده في غاية الاحترام.

ولما بلغ الأحسائي خبر ذلك رأى بقاءه في كربلاء غير صالح، فباع داره وأثاثه وحلي نسائه، وفرَّ بأهله وأبنائه وزوجاته إلى الله قاصدا بيته الحرام، وقبر نبيه مع ما كان عليه من كبر السن وضعف القوى، ورغم مشقة الطريق وطوله، فالخوف كان يدفعه. وقد مرض قبل الوصول إلى المدينة وتوفي وحمل إليها كما مر. ويقول الحاج محمد كريم خان الكرماني ما ترجمته : " إنّ الوالي داوود باشا قد حقد على أثر الوشاية وبعدها بشهور حاصر كربلاء وطوّقها بجيش كبير حتى أصابها القحط، وأنه رماها باثني عشر ألف إطلاقة مدفع، حتى هدم جانب من صحن الحسين (ع) واخترق بعض الإطلاقات جدران القبة وسقط على الناس في داخل الحرم. وهدم الكثير من الدور وقتل العديد من الناس، ونهبت الأموال وهتكت الحرمات. ولم نجد لتلك الحادثة ذكرا في تاريخ تلك الفترة من العهد العثماني بالرغم من أن عبّاس العزّاوي قد أشار حتى إلى صغار الأحداث والاختلافات. وقد اتهم السيد ضياء الدين الروحاني الأحسائي بأنه أراد إبقاء الفتنة بين الشيعة والسنة وإثارة الخلاف بينهما، فكتب قصة ديك الجن في

كتابه، وهرب وصار ذلك سببا لغارة كربلاء وقتل أهلها، ورد عليه معتمد الإسلام التبريزي بأن والي بغداد لم يصدر أمرا بغارة كربلاء على أثر قراءة الكتاب لا سيما وأن الأحسائي قد هرب إلى الحجاز، وكانت الغارة بعد ذلك بسنين.

وقد خلط المترجمون عند نقل قصة ديك الجن خلطا عجيبا، فقد قال السيد كاظم الرشتي : " وقد كان رحمه الله ذكر في الجزء الرابع حكاية حسن بن هاني حيص بيص ديك الجن مع المتوكل " وقال السيد محمد باقر الخوانساري : " حكاية حسن بن حيص بيص ديك الجن مع المتوكل " وقال الحاج محمد كريم خان الكرماني ما ترجمته : " حكاية الحسن بن هاني الذي كان ينقل حديث ديك الجن مع المتوكل". فنقل كل واحد من هؤلاء الثلاثة يختلف عن الآخر، والغريب أن الكل ينقل عن "شرح الزيارة" ويقولون إن الأحسائي نقل عن "معالم الزلفى" للبحراني، في حين أن الأحسائي نقل مضمون الحكاية ولم يذكر المصدر ولا اسم المحكي عنه، ولا اسم المتوكل.

وأما السيد هاشم البحراني فقد نقل في الباب الـ "٩٩" عن كتاب "فضائل أمير المؤمنين" للشريف الرضي، وكان الشريف نقله عن "المثالب والمناقب" للشيخ المفيد: أنه كان على عهد الرشيد بن المهدي رجل يقال له إسحاق بن ابراهيم الملقب بديك الجن ... الخ، وقد سمّاه المامقاني بإسحاق بن إبراهيم أيضا.

أما الحسن بن هاني فهو أبو نؤاس الشاعر المعروف المعاصر للرشيد، والمتوفى عام ١٩٨هـ/٨١٣م، وأما حيص بيص فهو أبو الفوارس، شهاب الدين سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التميمي المعاصر للمقتفي لأمر الله ٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٥-١١٦٠م. وأما ديك الجن فهو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥هـ أو ٢٣٦هـ/٨٤٩م أو ٨٥٠م. أما محمد خان القزويني المحقق المعروف فهو ينكر أصل الحكاية ويعتقد أنها مكذوبة وملفقة من قصص الجاهلية للتشهير بالخلفاء ومعاوية.

وأما الأبيات التي ذكرت القصة أن الخليفة العباسي سأل الشاعر عن المراد بها فهي أول قصيدة لديك الجن. وأما الخليفة فالظاهر أنّه المتوكل على الله العباسي لا الرشيد، لأن ديك الجن مات في أيّامه. وربما كان هذا القدر من القصة صحيحا كأن يسأله المتوكل عن معنى بيت من قصيدته، وأما باقي القصة فإننا نؤيد ما ذهب إليه القزويني من أنها ملفقة. فليس من الممكن أن يطعن ديك الجن أبا بكر وعمر ومعاوية ويزيد، ويخرجهم من ربقة الإسلام على النحو الذي ورد في القصة، ثم يسلم من المتوكل فضلا عن أن يحظى بجائزته، لا سيما وأن ديك الجن معروف بتشيعه، وقصائده

في مدح أهل البيت (ع) ورثائهم ورثاء الحسين بن علي (ع) كثيرة سائرة. وقد قال الأصفهاني عن قصيدة له يمدح بها الإمام عليا (ع) ما لفظه : " وهي مشهورة عند الخاص والعام وينا ح بها ".

تراجعه تحت الضغط العام:

كان الأحسائي يرى أنَّ أحكام الشريعة الإسلامية بحاجة إلى الإصلاح والإيضاح، وأن بعض الحقائق والمعتقدات سواء عند الشيعة الإمامية أو غيرهم تفتقر إلى التصحيح والتهذيب، فأخذ ذلك على عاتقه، وحاول أن يوفق بين أصول الدين وأصول الفلسفة، فكان أن فاجأ مجتمعه بمفاهيم جديدة لم يستسغها وآراء حديثة لم يكن من السهل عليه تقبلها. ولسنا الآن بصدد تأيد أو تفنيد تلك الأقوال ومدى صحتها وموافقتها للواقع، ولكنها على كل حال كانت جديدة على الناس ومستغربة لديهم. وكان عليه كأي مصلح مخلص يطلع على الناس بمفاهيم لا عهد لهم بها، أن يبذل جهدا في شرحها وتوضيحها وإقناع الناس بمدى نفعها وما تدخله على تفكيرهم من صقل وتهذيب، وأن يتسع صدره لمختلف أنواع الرد والنقد، بل الاستنكار والطعن والسخرية والاستهزاء ريثما يثبت الزمن صحتها من سقمها، وصلاحها من فسادها، مازال قصده خيرا وهدفه نبيلا.

ويبدو لنا أن الأحسائي كان يتسلح بذلك الاستعداد ويملك تلك القابلية، لولا أنه مني بخصوم وابتلي بمعارضة وقوبل بمقاومة لم تكن سليمة ولا مخلصة، على أنّنا لا ندّعي بأنّ كل ما أخذ عليه ونوقش به كان اتهاما صرفا وادّعاءا كاذبا. ففي آرائه ما يقبل المناقشة ويستدعيها، وفي كلماته ما هو متشابه يذهب به التأويل مذاهب شتّى. إلا أن الأغراض الشخصية والتطرف والتحزّب والمصالح الخاصة وأشياء أخرى، كل ذلك قد طغى على القضايا الفكرية والآراء العلمية، وأصبح طابع الحقد والغرض طاغيا على كل ما قيل وكتب حتى تكهرب الجو ضده، وصبّت النقمة عليه صبّا، لدرجة أنه لم يبق لصوته سامع، ولم يفسح له مجال الدفاع عن نفسه والرد والمناقشة، بل ضاع في خضم الدعايات والاتهامات، وأغرقته موجة الفتاوى بالتفكير حتى خشي على نفسه.

ويبدو لنا أيضا أنه قد تراجع عن بعض آرائه، وأنكر قسما منها، تحت تأثير الضغط الهائل، أملا في تدارك الوضع ومعالجة الموقف شأنه في ذلك شأن كثير من علماء الشرق والغرب عبر القرون الطويلة. فقد اضطرت موجات الاستنكار الكثير منهم إلى التنصل من أفكارهم والإنكار لآرائهم ومعتقداتهم حفظا للنفس، وطلبا للسلامة. فعندما قوطع الأحسائي في قزوين فجأة على أثر استنكار البرغاني لرأيه وحكمه بكفره حول مسألة المعاد بالجسم الهورقليائي، وذهب إلى الصلاة للمسجد وليس بمعيته غير

تلميذه الشيخ عبد الوهاب القزويني ولم يحضر صلاته أحد من علماء قزوين بعد أن كانوا يحيطونه في كل ليلة ويتهافتون للصلاة خلفه، عزّت على تلميذه تلك الردة والمقاطعة، فطلب من أستاذه الأحسائي أن يؤلف رسالة يثبت فيها المعاد الجسماني. ففعل نزولا عند رغبة التلميذ، غير أن ذلك لم يفده شيئا سوى ما وقع فيه من التناقض. ✽

✽ نقلنا هذا الفصل بتصرف من كتاب " الشيخية .. نشأتها وتطورها ومصادر دراستها" للسيد محمد حسن آل طالقاني، مكتبة المعارف/النجف- دار الكتاب العربي/بغداد، ط١/٢٠٠٧م (٥٥-١١٣).

السيد كاظـم الرشتي

نسبه وأسرته:



هو السيد كاظم بن السيد قاسم بن السيد أحمد بن السيد حبيب الحسيني المدني الرشتي. كان جد أبيه -السيد حبيب- من أشراف مدينة الرسول (ص) وأكابر ساداتها، وقد وقع في المدينة بعد وفاته طاعون، فهاجر ولده السيد أحمد على أثره إلى إيران، وهبط رشت ووُلد له فيها السيد قاسم فعُرف بالرشتي، وتعاقب أولاده من بعده هنالك. ورشت مدينة جميلة في شمال إيران، تحيط بها الجبال والغابات، وتكثر فيها الأمطار.

ولادته ونشأته:

ولد السيد كاظم في رشت عام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م، كما قاله المعلم نقلا عن "تاريخ سرتيب"، أو ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، كما قاله الشيخ أبو القاسم الإبراهيمي وغيره. وقد ظهرت على الرشتي ملامح الذكاء منذ طفولته، فاهتم أبوه بتنشئته وعيّن له معلما أخذ عنه، وتعلم القراءة والكتابة، ثم قرأ مقدمات العلوم على لفيف من العلماء والفضلاء فأتقنها، وعزم على الانتقال إلى بعض المدن الكبرى لتلقي العلوم العالية كما هو ديدن طلاب العلم من القرى والمدن الصغار، فخالف أهله وأقاربه رغبته.

ولما نشأ طموحا إلى معالي الأمور وأخذ يفتش عمن يهذب نفسه عليه، ويوصله إلى الرقي الروحي اعتكف عند قبر الصوفي الزاهد الشيخ صفي الدين الأردبيلي في أردبيل أربعين يوما. وكان أهالي رشت وآذربايجان الشرقية يعتبرون قبر صفي الدين من أقدس الأماكن منذ القديم. ويقول الدكتور جواد علي نقلا عن المستر براون أيضا حكاية عن الشيخية إن الإمام تجلى للسيد كاظم الرشتي في ليلة من الليالي وكان عمره إذ ذاك اثني عشر عاما، وأشار عليه بوجوب الذهاب إلى مدينة يزد للالتحاق بحاشية الشيخ أحمد الأحسائي. وحكى الجهاردهي عن السيد كاظم نفسه: إنه أرشد وهو معتكف عند قبر صفي الدين في أردبيل في عالم مرموز إلى الشيخ أحمد الأحسائي. أما الشيخ أبو القاسم الإبراهيمي فيقول: إن الرشتي رأى وهو في رشت فاطمة الزهراء (ع) في عالم الرؤيا ذات ليلة فأرشدته إلى الأحسائي، ولم يكن قد سمع به أو عرفه، وبعد أربع ليال أخرى سنحت له في المنام ثانية، فدلته على مكانه، وهو يومئذ في يزد.

لقاؤه للأحسائي:

سافر السيدٍ كاظم إلى يزد، فالتقى بالشيخ أحمد الأحسائي، وحلَّ في داره وبقي ضيفا عليه أكثر من أربعين يوما، يقضي وقته مع الرائح والقادم من ضيوف الشيخ في المحل المخصص للضيافة، شبه معزول عن الشيخ وتلامذته وحاشيته، إذ لم يعره طول تلك المدة أدنى التفات، فذهب به الخيال كل مذهب وظن بالشيخ الظنون، ثم يئس من رعايته وإقباله وعزم على الهجرة إلى كربلاء والالتجاء إلى عتبة سيد الشهداء (ع)، عندها توجهٍ الأحسائي إليه وخصّه بزيارة وأفهمه تلويحا أو تصريحا أنه كان مأمورا بالإعراض عنه عندما كان متجها إليه بكله. أما بعدِ أن فهم أن للأحسائي سادة وقادة هم الأئمة (ع) من آل محمد (ص)، وفكر بالالتجاء إليهم بادر إلى لقائه. وقد وجد الرشتي عند الأحسائي ضالته، وتحققت رغبته، فتعلق به قلبه منذ اللقاء الأول ولازمه حضرا وسفرا، وواظب على حضور دروسه معقولا ومنقولا. وقد حظي عنده بمنزلة كبيرة لم ينلها سواه حتى صار أخص تلامذته، وأرشد حضار درسه، وأقربهم إلى نفسه لدرجة أنه كان لا يبدأ بالتدريس ما لم يحضر الرشتي حتى ولو حضر تلامذته كافة. وقد وصفه الخونساري بقوله:" تلميذه العزيز، وقدوة أرباب الفهم والتميز، بل قرة عينه الزاهرة، وقوة قلبه الباهرة الفاخرة، بل حليفه في شدائده ومحنه، ومن كان بمنزلة القميص على بدنه". ويقول الإبراهيمي إن الشيخ كان يقول في حقه:" ولدي كاظم يفهم وغيره لا يفهم" وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة.

هجرته إلى العراق:

وقد ورد العراق بصحبة أستاذه الأحسائي في بعض أسفاره، وزار مراقد الأئمة (ع)، فأمره أستاذه بالبقاء في كربلاء، فسكنها مشغولا بالتدريس والإفادة. ويبدو أنَّ الرشتي قد عاد إلى مسقط رأسه (رشت) أيام سكناه في كربلاء، وعندما كان أستاذه الأحسائي في كرمانشاه. فقد عثر الإبراهيمي على رسالة كتبها الرشتي لأستاذه من هناك.

مشايخه:

يظهر لنا أن تتلمذ الرشتي كان مقتصرا على شيخه الأحسائي، وأنه لم يأخذ عن أحد من العلماء غيره، فليس في المصادر التي تعرضت لذكره وسيرته شيء عن ذلك. نعم، أجيز من جماعة ذكرهم في بعض ما كتبه لتلامذته من إجازات كإجازاته للشيخ حسن جوهر، وقد ذكرهم أيضا الشيخ محمد علي الحبيب آبادي في ترجمة الرشتي نقلا عن إجازة أخرى، وهم كالتالي:

١. الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي المتوفى عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م.
٢. السيد عبدالله شبرّ الكاظمي المتوفى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.
٣. الشيخ علي الرشتي.
٤. الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م.

تلامذته:

والحديث عن تلامذة السيد كاظم الرشتي كالحديث عن تلامذة أستاذه الأحسائي تماما. فعددهم كبير بالمئات وربما كان أكبر من عدد تلامذة شيخه، فقد كانت له عبر السنين الطوال حوزات آهلة ومجلس درس حاشد. لكن الشبهات التي كانت تلاحقهم كانت أقوى منها في عهد الأحسائي، والأذى الذي كانوا يتعرضون له أكثر منه في ما مضى، ما جعلهم ينكرون التلمذة على الرشتي، بل يبرؤون من علاقته وينفون رؤيته. ولذلك فإننا لم نعرف منهم إلا عددا صغيرا وأفرادا معدودين، وربما كان هذا العدد كثيرا بالنسبة لما كان يلقاه ويعامل به من ينتسب إلى الرشتي أو يُعد متخرجا من مجلس درسه. وهؤلاء أيضا قد وجدت أسماؤهم متفرقة في العديد من المصادر، ولم يذكروا بعنوان التلمذة، بل نقلت عنهم في الغالب قصص وأحاديث في ما يخص حياة الرشتي، وما اتفق له وما جرى عليه وفهم منها ضمنا أنهم من حضّار درسه. وقد كان للبابية يد في ضبط عدد من هذه الأسماء في الكتب التي ألفت في حياة الباب. فبعض هؤلاء شركاؤه في التتلمذ على الرشتي، وعدد منهم ممن آمن به بعد إعلاء دعوته، فحفظت اسمه مصادر البابية وإلا فلم تحفل مصادر الشيخية بشيء من ذلك ما عدا نفر قليل. كما يعود بعض الفضل إلى الشيخ محمد علي الحبيب آبادي، حيث أحصى منهم ثمانية عشر. وبالرغم من الجهد الذي بذلناه في الفحص عنهم، فإننا لم نزد على ما ذكروه أكثر من ١٤ اسما، وإليك قائمة بأسمائهم:

١. الشيخ إبراهيم بن عبد الجليل صاحب "تحفة الملوك".

٢. الميرزا إبراهيم الشيرازي.

٣. ولده السيد أحمد الرشتي.

٤. الشيخ آغا أحمد المجتهد التبريزي.

٥. المولى أحمد المراغي.

٦. الشيخ أحمد بن إسماعيل الخراساني. صار بابيا كما يظهر من كتابه.

٧. الميرزا حسن الدهلوي العظيم آبادي صاحب "أصول الدين".

٨. الميرزا حسن الطبيب.

٩. الشيخ حسن جوهر. صاحب "شرح حياة الأرواح".

١٠. المولى حسين البشروي. أول من آمن بالباب وعبّر عنه الباب في خطابه له بـ "باب الباب". وقد قتل في حادثة قلعة الطبرسي التي استبسل فيها البابيون، ولا سيما البشروي، وأبدوا من فنون الحرب بما حيّر العقول، وأدهش الخصوم. وذلك في ليلة تاسع ربيع الأول عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، ودفن في القلعة، وخفي قبره لئلا يمثّل به أعداؤه.

١١. الشيخ حسين الكنجوي.

١٢. زرّين تاج (التاج الذهبي) ابنة الشيخ صالح البرغاني القزويني، وهي المشهورة بـ "قرة العين" وكانت تُكنّى بأم سلمى. وقد التحقت بالباب وصارت من أكبر دعاته، وقتلت في شوال عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م. وقال السيد عبد الرزّاق الحسني: إنها سافرت إلى كربلاء لملاقاة الرشتي، فوجدته قد توفي قبل وصولها، وأنها لما كتبت إليه قبل هجرتها إلى كربلاء افتتح جوابه لها بقوله: "يا قرة عيني وراحة فؤادي". فلقبت بقرة العين. ونقل السيد محسن الأمين ذلك عن الشيخ شفيع الجابلقي أيضا. ونفى الشيخ علي الحائري تلك النسبة إلى الرشتي، وقال إنَّ ذلك من ادعاءات البابية لترويج آرائهم. ويُستفاد من أقوال آخرين أيضا أنها لم تدركه أو تتلمذ عليه، ولكن الشيخ محمد علي الحبيب آبادي قد ذكرها في عداد تلامذته، وكذا اعتضاد السلطنة. وقد عقد الدكتور علي الوردي فصلا خاصا لذكرها، اعتمد فيه على مصادر عديدة، منها كتاب مخطوط لبعض أفراد عائلتها نصَّ فيه مؤلفه على أنها قطنت كربلاء على عهد الرشتي نحو اثنتي عشرة سنة، وعادت إلى تبريز، وفي زيارتها الثانية كان الرشتي قد توفي.

١٣. الشيخ شريف الكرماني.

١٤. الشيخ شفيع ثقة الإسلام التبريزي.

١٥. الشيخ علي البسطامي. التحق بالباب أيضا، فأرسله بعد إعلان دعوته إلى العراق مبشرا بها وداعية إلى المذهب الجديد، فجمع نجيب باشا والي بغداد لفيفا من علماء الشيعة والسنة من بغداد وكربلاء والنجف لمحاججته فأفحموه وأفتوا بكفره. وكان ذلك عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، ولا يعلم كيف ومتى لقي حتفه.

١٦. الشيخ علي الترشيزي، كان من خواص الرشتي والتحق بالباب أخيرا، فصار من خلفائه، ولقب بحضرة "عظيم" لأن كلا من كلمتي "شيخ علي" وكلمة "عظيم" تساوي بالحساب الأبجدي (١٠٢٠) وقد صار رئيس بابية طهران. وطورد، فلم تستطع السلطة القبض عليه حتى وقعت حادثة إطلاق النار على السلطان ناصر الدين شاه عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م، فألقي القبض عليه وقطعت أذناه أولا، وربط بسلسلة في ممر بعض المباني الحكومية حتى قتل قومه جميعا، فقدموه إلى مجلس علماء أفتوا بقتله، فألحق بأصحابه.

١٧. المولى علي معين الإسلام.

١٨. السيد علي محمد الشيرازي الملقب بالباب (مؤسس البابية) وقد سها السيد محسن الأمين، فعدّه من تلامذة الشيخ أحمد الأحسائي، وتبعه الدكتور حسين علي محفوظ وحمل الشيخ علي الحائري الأمين على الغرض للنيل من الأحسائي بنسبة تعاليم الباب إليه. وقد أعدم الباب رمياً بالرصاص يوم الاثنين ٢٧ شعبان ١٢٦٥هـ/ يوليو ١٨٤٩م كما تدعيه سجلات الحكومة الإيرانية أو ٢٨ شعبان ١٢٦٦هـ/ ٩ يوليو ١٨٥٠م كما تقول كتب البابية. وكان قد التحق بالباب في بادئ أمره وتابعه وآمن بمعتقده ثمانية عشر رجلا كلهم من العلماء على الظاهر، وقد سمّاهم حروف (حي) فالحاء بالحساب الأبجدي ثمانية، والياء عشرة، ومجموعها: ثمانية عشر. ويمكن أن يقال إنَّ هؤلاء هم بذرة البابية ونواتها الأولى.

١٩. الميرزا علي نقي القمي الملقب بالهندي، صاحب (نور الأنوار في ترجمة الأحسائي والرشتي والكرماني).

٢٠. الشيخ عيسى اللنكراني. وهو اسم مستعار للجاسوس الروسي (دالكوركي) مفوض السفارة الروسية في طهران عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ووزيرها المفوض فيما بعد.

٢١. الشيخ محمد بن الشيخ حسين أبو خمسين الأحسائي.

٢٢. الميرزا محمد التنكابني صاحب (قصص العلماء) والمتوفى عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.

٢٣. الشيخ محمد العابد.

٢٤. الشيخ محمد تقي الهروي.

٢٥. السيد محمد تقي الهندي.

٢٦. الميرزا محمد جعفر الصدر.

٢٧. السيد محمد حسن الموسوي.

٢٨. المولى محمد حسن الكرماني الملقب بالمحيط. وهو الذي ربّى ولديه السيد أحمد والسيد حسن، وادّعى نيابته.

٢٩. الميرزا محمد حسين المامقاني المتوفى عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م.

٣٠. الشيخ محمد علي البارفرشي، وقد صار من أعاظم البابية ولقب بـ (قدّوس) وكانت له مكانة محترمة لدى البابيين الأول. وعدّه بعض المؤلفين أعلى رتبة من الباب نفسه، وقد اختاره الباب لمرافقته في سفرة الحج، ولما قتل البشروي في حادثة قلعة الطبرسي عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م استلم الرئاسة (قدّوس) بوصية منه، وأنزل إلى طلب العون العسكري من طهران، فأسرع إلى نجدته سليمان خان الأنشار قائد القوات الإيرانية بالعديد من الجنود والكثير من العتاد فلم يستطع إخضاعهم، واضطر مهدي قلي لمفاوضة البابيين وإنهاء القتال صلحاً، فرحب (القدّوس) بالفكرة فخدع ونقل مع بعض من صحبه إلى بارفروش، فسلم إلى العلماء وقتل شر قتلة وهو من حروف (حي).

٣١. الحاج محمد كريم خان القاجاري رأس شيخية كرمان ومدّعي خلافة الرشتي، وقد توفي عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م.

٣٢. المولى مهدي الخوئي، وقد التحق بالباب، وهو من حروف (الحي).

٣٣. السيد هادي الهندي صاحب (تنبيه الغافلين وسرور الناظرين).

آثاره:

والرشتي كأستاذه الأحسائي من ناحية تركته العلمية، فقد خلّف ثروة فكرية ضخمة. ومن يقف على آثاره يمتلكه العجب حين يلمس مشاركته في المعقول والمنقول وخبرته الواسعة في مختلف المواضيع الإسلامية. لا سيما عندما يتصور ما كان يحيطه من قلق واضطراب وما كانت تتصف به حياته من فقدان الطمأنينة وعدم الاستقرار، فقد قضى عمره في صراع عنيف مع خصومه ومقاومة ضارية للحفاظ على نفسه. فكيف استطاع في مثل ذلك الجو المحموم أن ينتج وهو الذي لم يخلد إلى الراحة والهدوء ؟! وآثاره على ما فيها من تهافت وغريب آراء وشذوذ وخروج على الرأي والمعتقد السائد، يتسم معظمها بالعمق وبعد النظر والتوغل في الحكمة والتضلع في العلوم الغريبة.

وأغلب آثار الرشتي كآثار أستاذه الأحسائي رسائل وأجوبة مسائل، إذ كان تلامذته وأتباعه يوجّهون إليه العديد من الأسئلة في مختلف العلوم، وكان خصومه يؤاخذونه على آرائه وآراء شيخه الأحسائي، فيعمد إلى تأليف رسالة في أجوبة ما يسأل عنه أو ردّ ما اعترض به عليه. وقد جمع بعض أتباعه بعد وفاته عددا من هذه الرسائل وأجوبة المسائل، فنشره في مجلدين باسم "مجموعة الرسائل" في تبريز عام ١٢٧٦هـ-١٢٧٧هـ/١٨٥٩-١٨٦٠م وذلك بهمة الميرزا محمد شيخ الصدر، ونفقة سليمان خان بن شمخال خان. ولم تبع من المجموعة نسخة واحدة، وإنما اعتبرت وقفا شرعيا كآثار الأحسائي لا تباع ولا ترهن، وإنما توزع على أهلها والقابلين للاستفادة منها، وقد سمّاها الشيخ آغا بزرك الطهراني بـ "الرسائل وأجوبة المسائل".

وكل كتبه عقائدية تحتوي على آرائه حتى ما كتبه في الفقه والتفسير، فقد أخضعه للتأويل وفق رأيه اعتسافا. ولكن كتبه الكبار الثلاثة "شرح الخطبة التطنجية" و "شرح القصيدة اللامية" و "أصول العقائد" كافية لأن تعطي فكرة كاملة عن معتقداته وآرائه في مختلف المسائل والمواضيع الإسلامية وحتى ما وراء الطبيعة.

ومجموع كتبه ١٦٦ رسالة، وخطبتان، وثلاث فوائد، ومراسلة. ومجموعها (١٥٦٩٣٢) سطرا في ١٧٢ مجلدا، ٦٤ منها مفقود.

تحول المعارضة إليه وتكفيره:

انتقل الأحسائي إلى جوار ربه، فظنّ خصومه أنّ أفكاره قد ماتت معه ولم يعد لها شأن يستحق الاهتمام، فخمدت أصوات مناوئيه فترة. غير أن ظهور تلميذه الرشتي وزعامته المبكرة وخضوع كبار تلامذة الأحسائي له، وجرأته في السير على هديه وتبني آرائه والدفاع عنه وعنها والبرهنة على صحتها وعدم فهم المعارضين لمقاصده، كل ذلك جعلهم يحشّدون قواهم من جديد، ويوحّدون صفوفهم للوقوف في وجهه. وكان عمر الرشتي حين وفاة أستاذه الأحسائي ٣٥ سنة فقط. وبدأت المهاترات ثانية بأسلوب أعنف وضراوة أشد ووقفوا منه موقفا بعيدا عن الرحمة والإنسانية، مخالفا للحياء وأخلاق العلماء وما يجب أن يكون عليه رجال الدين من سيرة تُحتذى وسلوك يُتبع. وكثر نقده في المجالس وثلبه على ألسنة الخاصة والعامة من الناس، وكانت بداية الاتصال به أن أرسلوا إليه من يأمره بترك ما هو عليه من تدريس وإفادة، فكان جوابه: إنه يدرس مواضيع هي صلب الإسلام وأصوله كالتوحيد ومراتبه، والنبوة ودلائلها، والإمامة ولوازمها، والتشريع وفلسفته، والأحكام وفائدتها، وما إلى ذلك، فما الداعي إلى تركها؟ فقالوا: إنك تدرس الحكمة، والحكماء ضالون مضلون. فرد عليهم: بأن الله أثنى عليها في كتابه الكريم، وخصّ به رسله وكرّم أنبياءه، واستشهد على ذلك

بعدد من آيات القرآن، وقال معقبا: وإذا كان البعض قد توغل في الحكمة، فخرج عن الطريق وانحرف عن الاعتقاد السليم فلا يدل ذلك على فساد العلم أو يدعو إلى تركه واهماله، فليس في العلوم ما لم يتكلم فيه أهل الباطل، ولم يدخلوا فيه ما ليس منه حتى الفقه، وإذا كان كذلك، فعليكم أن تنبذوه ولا تتدارسوه، فردّوا عليه: بأن معرفة العلوم كافية، والمعرفة الإجمالية مجزية، والخوض في تفاصيلها والبحث عن مسائلها غير واجب ولا لازم. وظلّ معهم في أخذ ورد وهو يناقش علميا ويستدل كثيرا بالآيات والأحاديث والنصوص، حتى قالوا: إنهم لا يريدون منه ترك التدريس، بل ترك منهج الأحسائي الذي سلكه. فتساءل عن العيوب التي بدت لهم في الأحسائي، وعن الفرق بينه وبين العلماء السابقين، ولماذا وثّقه المعاصرون له وشهدوا بعظمته إذا كان فيه نقص أو عيب؟ فقالوا: لم يتبين منه للسابقين ما تبيّن لنا، فلا نكلف بأقوالهم. فأجابهم بأن ذلك عين جواب السلف الأول لما قال لهم بريدة الأسلمي: إن رسول الله (ص) نصّب عليا للخلافة فما عدل بكم عنه إلى ابن أبي قحافة؟ قالوا له: حضرنا وغبت والحاضر يرى ما لا يراه الغائب.

لم يقتنع القوم بأجوبته وردوده وما دافع به عن نفسه وعن شيخه الأحسائي، وأصروا على إحضاره في مجلس عام لمناقشته فرضي مرغما، ومهّدوا لذلك بدعاية واسعة وبعثوا الرسل تلو الرسل لدعوة الناس من الأطراف للاجتماع والتفرج وعيّن موعد لعقد المجلس، وكان انعقاده في بيت السيد محمود بن السيد علي الطباطبائي صاحب "الرياض" وقد تضاربت بعض المصادر في وصف ذلك المجلس وتناقضت الأقوال حول ما دار فيه من نقاش، والقول الفصل ما كتبه الرشتي نفسه في ذلك، فلنستمع اليه وهو يقص ما وقع له، قال:

" واجتمع فيه خلق كثير يبلغ عددهم ألوفا، وما فيهم من يصدقني، وأحضروني في ذلك المجلس الشديد وإنه ليوم عصيب، وجاء القوم يسرعون من كل جانب ولهم من رؤسائهم جواذب، وأنا إذ ذاك بينهم وحيد فريد، فقال لي واحد منهم في ذلك المجلس:" إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين" القصص/٢٠، أنى لي والخروج وقد حفّ القوم بي من كل جانب ومكان شاكين بأسلحتهم، مشتملين بأرديتهم كأنهم أتوا للجهاد بين يدي المبعوث من رب العباد. فلما استقر بنا وبهم الجلوس سألتهم: لماذا هذا الاجتماع؟ وما الموجب لهذه الغوغاء ؟ هل سمعتم أو رأيتم مني خلافا للشرع أو العرف أو الدين أو المذهب اجتمعتم لتثبتوه لي وتقيموا الحد ؟ قالوا: لا . قلت: فأي شيء إذن اجتماعكم وضوضاؤكم؟ قالوا: نريد أن نسألك عن عبارات الشيخ ونبيّن أنها كفر. قلت: فهلا سألتم منه في اليوم الأول لما طلب منكم ذلك حتى يفسرها لكم؟ وبعدما أبديتم الفضيحة واظهرتم الشناعة، وملأتم الأمكنة والأصقاع من القول الباطل والمذهب

العاطل " ءآلآن وقد عصيت قبل" يونس/٩١، ثم إن الرجل قد انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة ليس له حضور حتى يبين لكم مكنون ضميره "عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم" المائدة/١٠٥، قالوا: لابد من أن ننظر إلى كلماته بعد مماته، ونسألك عنها. قلت: إنّ أهل الباطل من الأموات كثيرون فهل صنعتم في عبارة أحد من الأموات مثل صنيعكم هذا؟ قالوا: إن له تبعة يعتقدون معتقده، فيضلون. قلت: وكذلك أموات من أهل الباطل فهم تبعة يتبعون اعتقادهم ويتجاهرون وهم قبل الشيخ فهلا أحضرتموهم وأتباعهم حتى تثبتوا عليهم فساد معتقد شيخهم ليرتدعوا ويرجعوا إلى الحق؟ وإن لم تعرفوهم فأنا أعرفكم بأسمائهم وكتبهم ومقالاتهم وعباراتهم، ثم ثنّوا بالشيخ وأتباعه. قالوا: مالك إلى ذلك من سبيل بل لابد من بيان هذه العبارات. قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، هاتوا ما عندكم. فأبرزوا عبارة للشيخ نصّها: " إن الجسد العنصري لا يعود " قالوا لي: قل إنّ هذه العبارة كفر أو لا ؟ قلت: على الذي أفهمها وأدين الله بها ليس فيها كفر ولا زندقة، ولكنكم أخبروني عن الجسد بحسب اللغة على ما ذكره في "القاموس" و "الصحاح" و "مجمع البحرين" دون ما اصطلح عليه الحكماء كم معنى ذكروا له؟ قالوا: ما نعرف. قلت: يا سبحان الله إذا لم تعرفوا معاني الجسد وإطلاقاته على ما عند أهل اللغة كيف تنكرون على هذه العبارة ؟ فلعلّ للجسد معنى لو قلتم يعوده كفرتم. قالوا: نحن نريد أن نفهم العوام. وجميع من حضر ولا واحد منهم صدّقني أو ساعدني، قلت: أية مدخلية لفهم العوام بالمقام ؟ ولو كان كل ما لم يفهم العوام باطلا للزم بطلان كتب العلماء، إذ لاشك أن الحطاب والبقال لا يعرفان عبارات "شرح اللمعة" ولا مسألة الأمر بين الأمرين، ولا يعرفان أن الأمر بالشيء ينهى عن ضده الخاص أو العام، فهل يسوغ لهما أن يحكما ببطلانها ؟ فهذا خرق اتسع على الراقع. ولما رأيت قلة إنصافهم وغلظة جورهم واعتسافهم، قلت لهم: ماذا تريدون ؟ قالوا: نريد أن تكتب أنّ هذه العبارة كفر. فكتبت لهم: إنّ العبارة إذا لم يكن لها بيان مقدما ولا مؤخرا، ولم يحذف منها شيء من أولها أو وسطها آخرها كفر بحسب فهم العوام كقوله تعالى : "يد الله مغلولة " المائدة/٦٤، وقوله : "وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة " القيامة/٢٢- ٢٣، ولا ريب أنه كفر بحسب متفاهم العوام، إذ ليس لله ولا وجه من الجوارح. وأبرزوا بعض العبارات منها محرفة ومنها لم يعرفوا أن يقرؤوها وأرادوا مني أن أكتب على ما هي عليه، فكتبت هذه الصورة: ومرجع القول إنه كلام متشابه نسأل تفسيرها من قائلها كالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعلوية، وبالجملة لا اعتبار بالقرطاس. ولما لم يبلغوا مني مرادهم ولم يقدروا أن يثبتوا لي شيئا من زخاريفهم، وعجزوا والحمد لله .. قالوا: نريد أن يثبت اجتهادك عندنا. فقال صاحب المجلس : " قد تبيّن الرشد من الغي" البقرة/٢٥٦ . أنتم قبل ذلك تحتجون عليه بفساد في العقيدة لمخالفته للضرورة، والآن تبين عندنا أنه على صفاء الاعتقاد، وتطلبون منه الآن أن

يثبت اجتهاده وها أنتم تدعون الاجتهاد. فإذا وجب ثبوت الاجتهاد بالإجلاس وإحضار الناس، فمتى ما أحضرتم وأجمعتم وأثبتم اجتهادكم فنحضر فلانا ليجلس معكم مجلسا آخر لإثبات الاجتهاد، وقد بان أن قصدكم غير الله. وفي هذه الأثناء أذّن المؤذن لصلاة الظهر فقمنا للصلاة وتفرّق المجلس : " فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين " الأعراف/١١٩، وظهر الحق والحمد لله رب العالمين. ومن قلة إنصاف الحضّار في ذلك المجلس أبادهم صرف الدهر ولم يبق منهم أي من أهل الحل والعقد أحد إلا واحد من حاضري ذلك المجلس لكنه كان من الأذناب والأتباع، ولم يكن له قابلية السؤال والجواب، ثم ما كفاهم ذلك، بل بقوا يثيرون الفتنة ويهيجون للفساد نائرة ويدفعها الله سبحانه : " كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين " المائدة/ ٦٤.

ثم مرة أخرى صاحوا بالناس وجمعوهم في حضرة العبّاس ونشروا الألوية والأعلام واجتمعت عليهم الطغام واللئام لإخراجي من البلد بغير جرم اجترمت ولا ذنب أذنبت إلى أن ردّ الله كيدهم في نحورهم، وماتوا بغيظهم وردهم الله خائبين عن نيل مقصودهم ومرادهم، وأفعالهم من ذلك القبيل كثيرة، وأعمالهم من هذا النمط عديدة، وأذيّاتهم لي شديدة، يتكرم الإنسان عن ذكرها، فالأولى والأحرى طيها عن نشرها، فإن الأوقات أشرف من صرفها في جواب هذه المزخرفات وبيان الترهات، والله المستعان وعليه التكلان ... " .

ولم تقف مقاومتهم بعد ذلك المجلس عند حدها، بل استمروا على إيذائه ومضايقته، ومطاردة أصحابه وتفريقهم من حوله، وظلّ صابرا محتسبا صامدا في وجوههم متحملا لإساءاتهم وتطرفهم في الخصومة إلى حد لا يوصف ولا يتحمل، فقد وصلت الحال إلى التعرض له ولأصحابه في المجالس والطرقات بمختلف الأساليب وأنواع السخرية والاستهزاء، وكل عمل شائن يدل على مستوى مرتكبيه ومن كان وراءهم من انحدار الخلق، فقد قال يصف بعض ما جرى له ولأصحابه : " ... ففرقوا الآباء عن أبنائهم، والأولاد عن آبائهم، والزوجات عن أزواجهن، والأخوة عن أخوتهم، والأخوال عن خالاتهم، والبنات عن أمهاتهن، باينوا بين مسالكهم، ورخصوا غيبة من ينسب إلينا أو يقلدنا، وحرموا مجالستهم معنا، فإذا حضرنا مجلسا هم فيه يتفرقون تفرق المعزى إذا شد عليها الذئب، أو كأن صاعقة نزلت عليهم، أو بلية حلت بهم، ولا يبالون بمجالسة الكفار والنصّاب والفجّار، وأهل الفسق والفجور، بل يجالسونهم ويخالطونهم بلا مبالاة ولا اكتراث، وإذا حضر واحد منا يتفرقون ولا يقعدون، وإذا مروا علينا يتغامزون، وإذا مروا بواحد منا لا يسلمون، ويتقصدون ضررنا بكل وجه يمكنهم من مال أو عرض أو نفس على حسب إمكانهم وطاقتهم، ويرموننا بالعظائم من القبائح والشنائع، ويرخصون لأصحابهم بأن يفتروا علينا بالبهتان والكذب والزور،

ولقد حاولوا قتلي مرات عديدة سرا وجهرا، والله سبحانه بفضله وكرمه يدفع عني حتى يبلغ الكتاب أجله .. " .

ومن أفظع الأعمال التي قاموا بها تجاه الرشتي أنهم أوعزوا إلى بعض أتباعهم بخطف عمته من على رأسه أثناء الصلاة وهو يؤم الناس في حرم الحسين (ع)، وقد تكرّر ذلك العمل الشائن مرتين: إحداهما وهو يؤدي صلاة الظهر في إحدى الجمع، وأخرى في صلاة الفجر وهو ساجد، وقد صاحب ذلك في الحادثتين تعالى الضحك من قبل الخصوم المتفرقين في أرجاء الحرم وحول ضريح الحسين (ع) دون مراعاة لحرمة المكان وقدسية العبادة، وهو واقف بين يدي ربه تعالى وهمّوا بقتله كما صرّح به آنفا، ففشلوا واعتذر إليه البعض من كان مكلفا بالتنفيذ كما صرّح به أيضا، فقد قال : " فو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، قد أخبرني واحد ممن كان من المباشرين لقتلي في بيت هاشم خان خال نظام الدولة أيّده الله بتوفيقه، في ملأ من الناس وجاءني يظهر التوبة والندامة ويستبرئ مني الذمة ويطلب العفو ... " وأطلق عليه الرصاص بعض العلويين من خصومه وهو خارج من صحن الحسين (ع) بمحاذاة باب السدرة فلم يُصب بأذى، واخترقت إحدى الرصاصات يد بعض أصحابه، وكان في حاشيته حين وقوع الاعتداء تلميذه الحاج محمد كريم خان الكرماني وقد شرح ذلك مفصلا.

ووقف الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء موقفا مشرفا. وتدخل بين الفريقين بقصد الإصلاح وإخماد الفتنة كما فعل من قبل أخوه الشيخ موسى كاشف الغطاء دفاعا عن الأحسائي، وطلب من السيد كاظم الرشتي أن يكتب معتقداته بصراحة وأن يوضح النقاط التي تذرع القوم بها للطعن في صحة معتقده ببيان واف، ففعل الرشتي ذلك ولم يبق لخصومه حجة. وقام الشيخ علي بدور الوسيط فحمل ما دوّنه الرشتي إلى مجلس خصومه وأطلعهم عليه، وكتب الرشتي عدة نسخ من ذلك فوزعها على الأطراف إتماما للحجة، فلم يجده ذلك ولم يبدّل القوم موقفهم منه. فطلب منه كاشف الغطاء أن يصعد المنبر ويشرح للناس معتقداته وينزّه نفسه مما نُسب إليه من العقائد الفاسدة. ورجاه أن يوضح ذلك بالعربية والفارسية ليفهم ما يقوله أبناء الأمّتين. فاستجاب أيضا، وكان ذلك في أيام عرفة وعيد الأضحى وكربلاء مكتظة بالزوار والغرباء الذين أموها من مختلف البلاد. فنُصب له منبر مرتفع فخطب بالعربية مفصلا وأوضح كل شيء يتعلق بالمقام. وفي ليلة عرفة نصب له منبر في الصحن الحسيني الشريف فصعد على أعلى مراقيه وخطب بالعربية وثنّى بالفارسية ولم يترك من نقاط الاختلاف ومواد الشبهات والنقد ما لم يوفه حقه من البيان والإيضاح. ثم التمس منه بعض أصحابه أن يستمر على تلك الحالة ويلقي من نوع تلك الخطب التوضيحية ما قد يساعد على رفع سوء التفاهم، فأجاب وواظب على ذلك، فكان يرقى المنبر في كل ليلة عقب صلاة العشاء واستمر

إلى ما بعد عاشوراء. ثم التمسه أصحابه أن يكثر من ذلك فكان يخطب في عصر كل خميس وجمعة وسائر أيام تعطيل الدراسة، وشهر رمضان كله. واستمر على ذلك حوالي سنتين يوضح الشبهات ويدفع الاتهامات غير أن ذلك لم يجده ولم يعد عليه بفائدة ولو قيد شعرة، وربما زاد الخصوم إصرارا وعناداً.

وتصرّح بعض المصادر بتكرر محاكمة السيد كاظم الرشتي في ثلاث جلسات وفي بيوت مختلفة. وكون الرشتي لم يقل ذلك عند تطرقه إلى ذكر مجلس المحاكمة لا ينفي صحة ما ورد على لسان غيره لأنه لم يكن بصدد سرد الحادثة بالدقة والتسلسل، وإنما أشار إلى أنهم طلبوا مناقشته فحضر. وقد ذكر ذلك المقدار لتوضيح موقف الخصوم منه ومعاملتهم له. ثم إنّ مدعي تعدد الجلسات هو الشيخ محمد حمزة شريعة مدار، وهو من لا يمكن تكذيبه أو التشكيك في نقله. وقد صرّح بأنه قدم من بارفروش (مدينة في إيران) إلى كربلاء حينذاك زائرا، ووجد الخلاف بين الفريقين قائما وحضر الجلسة الأولى واستمع إلى ما دار فيها من نقاش. وقد صرّح هناك بأن السيد مهدي ابن صاحب الرياض وأتباعه كانوا جهلاء في الحكمة وفي فهم كلام الشيخ الأحسائي في "شرح الزيارة" وأنّ مجلس درس الأحسائي في أصفهان وطريقته قد أفاد أهل العلم كثيرا في فترة قصيرة. وقال: إنه لم يحضر الجلستين الأخريين لأنه حينئذ سيؤدي إلى تأييد أحد الفريقين. وكانت مخالفة السيد مهدي والعلماء التابعين له أمرا صعبا. ومخالفة الرشتي أصعب لأنه كان بارعا في العلوم العقلية والنقلية والفقه والأصول وسائر العلوم الأدبية والغربية. وكان كل فريق يتوقع الانتصار والتأييد.

ويقول المازندراني ما ترجمته: " إن الجلسة الثالثة انعقدت في دار السيد محمد علي سادن روضة الحسين (ع)، وحضرها السيد كاظم الرشتي وحده. وتألف الفريق الخصم من السيد مهدي الطباطبائي، والشيخ خلف الحائري، وشريف العلماء المازندراني، والشيخ محمد جعفر الاسترابادي، وغيرهم. وقد عجزوا جميعا عن مناقشة الرشتي إذ لم تكن لهم معرفة في الفلسفة وقواعدها التي هي فن الشيخ الأحسائي. وقد تقدم السيد مهدي بسؤال إلى الرشتي عن بعض الجمل والعبارات من كتابه "شرح الزيارة" للأحسائي فأوضحها له الرشتي ببيان واف. ولما لم يفهمها ولم يستوعب ما قاله له توجّه للرشتي قائلا : " إن ظاهر كلمات شرح الزيارة الذي تعتقد به مخالف للشرع والدين، وبهذا الظهور والمظنة أظن فيك وفي شيخك الأحسائي الكفر، وأعتقد أنّ الكفر الظني كفر. ويعرف الآخرون تكليفهم" . فاضطرب المجلس على ضخامته، فلم يرق ذلك لشريف العلماء فتوجه للرشتي بسؤال بسيط في علم المنطق، فأجابه الرشتي بجواب متناقض، فضحك الناس وتفرقوا. وقد كان ذلك في عام ١٢٤٦هـ/١٨٢٠م، وفي ذي الحجة

من تلك السنة حدث طاعون عظيم جارف استمر حتى آخر محرم عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، وفتك بكربلاء والنجف وبقية مدن العراق وسائر البلاد العربية فتكا ذريعا، وأحصينا نسبة الوفيات في القبائل العربية والفارسية، فكانت النتيجة أنه لم يبق من المجموع ١٠٪ ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن وهو عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م لم يبلغ الموجود نصف المفقود ولن يبلغ نظرا لاستمرار الطواعين " . والظاهر أن ذلك هو ما أشار إليه الرشتي بقوله : " ومن قلة إنصاف الحضّار في ذلك المجلس أبادهم صرف الدهر ولم يبق منهم أي من أهل الحل والعقد أحد ... " .

مساهمة النجف في التكفير والتشهير :

وكما تجاوبت كربلاء والنجف الأشرف مع قزوين وبعض المدن الإيرانية أعلن الشيخ محمد تقي البرغاني تكفير الشيخ أحمد الأحسائي وأورى الشرارة الأولى لتلك الفتنة التي ظلّ يستعر أوارها حتى الآن، ويحرق الأخضر واليابس وسيظل كذلك أيضا مادام لأبناء الشيعة أثر وما بقي منهم نفر. أقول: وكما تجاوبت كربلاء والنجف مع قزوين في تلك المأثرة الخالدة تجاوبت النجف مع كربلاء في المفخرة اللاحقة في تكفيرها للسيد كاظم الرشتي وتشهيرها به وبأتباعه، بعد أن كان علماؤها يعيبون على السيد مهدي الطباطبائي تصرفه وتطويره للمسألة وتشعيبها، وسعيه في إيجاد الخلاف وتفرقه الصف، وإصراره على أن مراد الشيخ أحمد الأحسائي من تعابيره غير ما يفسره به تلميذه الرشتي من رأي مقبول يوافق به المعتقد السائد لدى أبناء طائفته. وربما تنسب له بعضهم هياج المرة السوداء، وقال عنه إن وضعه غير طبيعي، وإن صدور تلك التصرفات منه أمر لا إرادي. كل ذلك وغيره كان منهم انتصارا للحق ودحرا للباطل، رتقا للفتق وحيلولة دون تشتت الكلمة، وعملا بقوله تعالى : " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا " النساء/٩٤، وقد استمرت الحال على ذلك زمنا وعلماء النجف ينتصرون للرشتي وأتباعه ويواصلونه ويبادلونه الزيارة متى هبطوا كربلاء.

وتبدّل الموقف فجأة وإذا بالنجف ترفع صوت الاستنكار على السيد كاظم الرشتي وأتباعه ممثلة في الشيخ علي بن جعفر كاشف الغطاء الذي كان إلى وقت قريب جدا مدافعا وإن لم يكن مؤيدا، وكل حجته أنه وقف على قول الرشتي في رسالة له ألفها في علم الأخلاق : " واعرض عن كتب القوم لا سيما العامة العمياء" وفهم منها حسب ادّعائه أن الرشتي ينكر الاجتهاد والتقليد، وطريقة المجتهدين، والكتاب والسنة، وأنه اخترع مذهبا آخر. وقد أشاع ذلك ونشره بين الناس على نطاق واسع، فعلت الضوضاء في النجف وارتفعت أصوات الاستنكار من كل صوب، وتناهت أخبار إلى كربلاء وإلى السيد الرشتي، فدهش من استغرابه وكتب إلى كاشف الغطاء على الفور

يستفسر عمّا جعله يكر على ما فرّ منه، وذكّره بنقمته على من فعل ذلك في كربلاء، فلم يجبه على رسالته. وكتب له ثانية بصورة مفصلة تعرض فيها لشرح الفقرة التي التبس فهمها عليه، وأوضح له قصده من ذلك، فكان نصيبه الإعراض أيضا.

لم يصرح الرشتي عند تعرضه لذكر قصة أهل النجف معه باسم الشيخ علي، بل صرّح باسم والده الشيخ جعفر، وإنه كان لا يخاف في الله لومة لائم، وإنما صرّح بذكره الحاج محمد كريم خان الكرماني، ولم يهتد الرشتي إلى السبب الذي حدا به على القيام بذلك، وكأنه مقتنع بأنه لم يكن أكثر من وهم في العبارة المذكورة. لكن الكرماني ذكر لذلك حادثة غريبة تتلخص في أن أحد أتباع الرشتي قد جعله وصيه، وكانت له دار في كربلاء، وعندما همّ الرشتي ببيع داره لتنفيذ وصيته رجاه الشيخ علي كاشف الغطاء أن يبيعها منه فوافق. ولما صار وقت دفع الثمن طالب الرشتي به، فرجاه الشيخ أن لا يستوفي ثمنها منه ريثما يصل إلى الرشتي مبلغ من الوجوه الشرعية لتوزيعه على الفقراء، فيقتطع ثمن الدار من ذلك المبلغ. فأجابه الرشتي بأنه لا يصله شيء من الحقوق وإذا ما وصل فإن له موارده التي يجب أن يصرف فيها، وأن البيت يعود لصغار قصّر فلا يمكنه التفريط فيه أو هبته له. وأصرّ على استحصال المبلغ فاستاء كاشف الغطاء، وعاد إلى النجف، وأبدى تأثره وتذمره من الرشتي، فتجرأ الناس على ذكره بالسوء أمامه، ثم تذرع بتلك العبارة.

والقصة غريبة للغاية، ونحن نربأ بكاشف الغطاء عن أن يهبط إلى ذلك المستوى، ولا يمكن بوجه من الوجوه أن يُصدق في حقه ذلك أو أن يصدر منه عمل شائن مثله، لا سيما وهو يومئذ من أكابر مراجع الدنيا والدين، ولم يكن ليصعب عليه الحصول على ثمن دار يهم بشرائها. وقد صرّح بعض مترجميه بأنه " كان عفيفا أبيا مترفعا عن الحقوق ولا يتناول منها درهما واحدا كما أخبر بذلك وكيله الحاج إبراهيم الشريف، وإعاشته ونفقة عياله مما يرد عليه من الأنعام والهدايا، وما تدرّه عليه بعض الأراضي الزراعية التي هي من عطايا الولاة له " . هذا إذا غضضنا النظر في فقاهته وورعه ومركزه الاجتماعي، فمن رابع المستحيلات أن يتذلل للرشتي بذلك النحو ويستعطفه ليعفيه من مبلغ تافه. ومن المستحيل أيضا أن يقدّم كاشف الغطاء مثل ذلك الرجاء إلى الرشتي فيرده ذلك الرد، وهو محتاج إلى صغار الأنصار والأتباع لا مثل كاشف الغطاء الذي هو مرجع النجف، ونصير الرشتي يزوره ويهبط داره في كربلاء، ويلوم خصومه على معارضتهم له. ويشكك في القصة أكثر كون المصدر الذي استقى منه الكرماني مجهولا، فمعظم ما كتبه الكرماني عما حلّ بالأحسائي والرشتي ترجمة واقتباس مما ذكره الأخير في كتابه " دليل المتحيرين " كما لا

يخفى على البصير. وليس لهذه الحادثة هناك ذكر، ولم يشر إليها الرشتي من قريب ولا من بعيد.

وقد أيّد كاشف الغطاء فقيه آخر من النجف واستند إلى فتواه، فكفّر الرشتي دون أن يسمع منه أو يقرأ له ما يوجب التكفير وإنما اعتمد على حكم كاشف الغطاء فأمضاه. ولم نتوصل إلى معرفة هذا الشيخ المفتي بصورة تفيد الجزم، فقد عبّر عنه الرشتي بقوله : " وأعجب منه أن عديله ومثيله يقول بأني لم يتبين لي شيء، لكنه عالم تكلم وحكم، فأمضيت حكومته" . وقال الكرماني إنه أخوه. وعلى فرض صحة ذلك فإننا لا نعرف أي الأخوة كان، فللشيخ علي ثلاثة أخوة أكبرهم الشيخ موسى المتوفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، وليس هو المراد قطعا، لأن تكفير الرشتي حدث بعد وفاته، ولأنه وقف من تكفير الأحسائي موقفا مشرفا ذكره الرشتي بالثناء. وثانيهم الشيخ محمد ولم يكن من أهل المرجعية والإفتاء، إذ لم يكن له " ما كان لأخوته من المزايا العلمية " بالإضافة إلى أنه لم يكن يسكن النجف، فقد قطن الحلة مرجعا لأهلها على عهد أخويه الشيخ موسى والشيخ علي إلى أن توفي في طاعون سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. وثالثهم الشيخ حسن، وقد كان على صلة حسنة بالرشتي، وهو الذي يكتب له مراسلا :

شقيق أراه معرضا عن شقيقه	كأن طريقي كان غير طريقه
لك الخير لا يذهب بوجدك عاذل	يفرق منا شائقا عن مشوقه
يحنّ إلى ذكراك في كل ساعة	كما حنّ وجدا عاشق لعلوقه
ترفق بصب مستهام فؤاده	يحن وراء الركب حنة نوقه
له ناظر يرعى النجوم ومدمع	يسيل وقلب خافق من مضيقه
فلا العين ترجو أن تجف دموعها	ولا القلب يرجو راحة من خفوقه
وشتّان ما بين الخلي وواجد	وما بين مأسور الهوى وطليقه
وما بين مألوف السهاد وراقد	وما بين مثلوج الحشا وحريقه

أضف إلى وثوق العلاقة أن الشيخ حسن قد سكن الحلة أيضا على أثر وفاة أخيه الشيخ محمد في عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، خلفا له ولم يعد إليها إلا بعد وفاة أخيه الشيخ علي عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، ليخلفه. على أن ما كان بين الاثنين من صداقة لا يصلح لأن يكون دليلا على عدم إمكان الإفتاء بحقه، فعلاقة الشيخ علي مع الرشتي كانت أوثق ثم قلب له ظهر المجن لسبب لم يُعرف. وما المانع أن يكون أخوه مقتديا به في ذلك ومتابعا له ؟ كما لا يصلح مكوثه في الحلة، لأن يكون دليلا على أنه غير صاحب الحادثة، فربما كان قام بذلك في النجف قبل عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، والتي هاجر فيها إلى الحلة. ولو وقفنا على تاريخ الإفتاء والتكفير لتوصلنا إلى معرفة المفتي والمكفر، نعم للرشتي عبارة توحي بأن المفتي الثاني كان أخا للشيخ علي، فقد قال : " أتاني آت من قبل أحد الشيخين! وحيث كان في القوس الصعودي الأصغر مقدم على الأكبر جاء رسول الشيخ الآخر ... " وفي موضع آخر : " أتاني ثلاثة رسل من جناب الشيخ الأكبر " فلعله كان أخاه وإن الكرماني قد اعتمد في ما قاله على ما سمعه من مشايخه.

وكيفما كان قد انتشرت قصة الرشتي في النجف على نطاق واسع، وكثر سلبه والاستخفاف به في الأوساط العلمية، وتناولته ألسنة العامة والسوقة بالنقد اللاذع والشتم البذيء. ولم يكتف القوم بذلك وبدا لهم أن لا يقصروا الدعاية ضده على النجف، فتعدوها إلى سائر المدن العراقية، وقد وقع في يد الرشتي أحد الكتب التي أرسلها الشيخ علي كاشف الغطاء إلى البصرة، وكان قد منع فيه الرجوع إلى الرشتي في أمر من أمور الدين من الأصول والفروع. بل تعدت الدعاية إلى خارج العراق وباقي البلاد الإسلامية، فقد بعث أحد رؤساء الهند إلى الرشتي صورة كتاب أرسله كاشف الغطاء إليه، وقد ورد فيه قوله : " إن السيد كاظم الرشتي قد خرج من الدين وعن مذهب المسلمين، وقد أعرض عنه جميع العلماء، وعدل عن تقليده جميع المؤمنين الأذكياء، فوجب علينا إعلامكم بأنه لا يجوز تقليده ولا أخذ مسألة من المسائل الدينية عنه، فمن فعل ذلك لن يغفر الله له أبدا، ولن تقبل له توبة " . وقد سأل الرئيس الهندي من الرشتي عمّا إذا كان قد صدر عن كاشف الغطاء حقا ؟ وعن الأسباب الموجبة له، وعلق بما مضمونه :" إنه تمنى أن يكون قد مات ولم ير هذا الكتاب أو يسمع به " .

ولم يقف الرشتي مكتوف اليدين أمام تلك الحملات الواسعة التي كانت تشن عليه من كل جانب ومكان، ولم يلتزم الصمت في قبال تلك الاتهامات والتقولات، بل ظل يصول ويجول، ويكتب ويخطب، ويناقش ويحاجج، ويردّ ويفنّد، فأحدث ضجة عالية في الأوساط، وبدا الانقسام حوله واضحا مكشوفا، فنبّهت تلك الصرخات المرتفعة من هنا وهناك بعض الغافلين، وأدّت ببعض المخدوعين إلى الفحص عن حقيقة ما يقال عن الرشتي، والنظر الجاد إلى دفاعه وردّه، وما يعلنه من آرائه ومعتقداته، ويأخذه على

خصومه ومعارضيه. فسعى المعارضون في النجف لإيجاد المبررات لعملهم، والاستشهاد على صحة مدّعياتهم، وسلامة مقاصدهم، لأنهم بالغوا في تكفيره كثيرا، ووقعوا في مأزق حرج، ووقفوا موقفا صعبا للغاية، فإما أن يثبتوا كفره وزندقته وارتداده على الملأ، وإما أن يتراجعوا، وكلا الأمرين على جانب كبير من الصعوبة، فلا إثبات كفره هيّن، ولا العدول على رأيهم فيه ممكن.

وصادف أن هبط الرشتي النجف بمناسبة زيارة عيد الغدير، فاغتنم القوم فرصة وجوده وأرسلوا إليه من يدعوه للاجتماع بهم، فتساءل: أيريدون قطع الفتنة أم إثارتها؟ فأجيب بأنهم يهدفون إلى قطع الفتنة. لكنه لم يطمئن إلى حسن نواياهم، واعتقد أنها مؤامرة جديدة لتأكيد مدعياتهم بأن يجتمعوا به ويتفرقوا، فيشيعوا في الناس أنه مصر على عدم التراجع عن رأيه. فصرّح بأنه لا يأمنهم، وأنهم لو كانوا صادقين لاستجابوا إلى طلبه بالاجتماع قبل اتساع الخرق. فطلب طرفا ثالثا للتحكيم، على أن يتعهد الطرفان بقبول حكمه إذا حكم لأي الجانبين. وبرهن على استعداده التام لذلك باقتراحه تحكيم عدد من العلماء غير العراقيين الذين كانوا هبطوا النجف في تلك الأيام للزيارة لموقفهم الحيادي، مخافة أن يميل العراقي لو حكم في البين إلى أحد الطرفين. واحتمل في الوقت نفسه أن يميل الحكم إلى جانبهم لأنهم أشهر وأقوى، ومع ذلك فقد أظهر الرضا. وعزّز رسول القوم برسول من عنده ينقل رأيه بنصه مخافة التحريف. فلم يوافق القوم على ذلك بحجة عدم قابلية المطلوبين للتحكيم. فردّ عليهم بأنكم تنسبون لي إنكار ضروري لا يخفى على أحد من عامة المسلمين فكيف بالعلماء؟ وكيف تنسبون هؤلاء إلى الجهل لدرجة عدم القدرة على فهم هذا المقدار؟ وصدق ظنّه بالقوم، وأنهم لم يقصدوا إلى إحقاق الحق، فقد أذاعوا في الناس أنهم بعثوا للرشتي تسعة عشر رسولا يطلبون الاجتماع به فأبى. وكانت النجف غاصة بالزوار من كل حدب وصوب بمناسبة الغدير، وهي زيارة مهمة للإمام علي (ع) عند شيعته. يتهافتون فيها على قبره سواء القريب منهم والبعيد.

وبلغ الرشتي ما أشيع عنه بين جماهير الزوّار، فأمر بنصب منبر له في صحن الإمام علي (ع) بعد صلاة الظهر يوم الغدير، والمكان مكتظ بمختلف طبقات الناس، ومن كل صقع ومكان. فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي وآله، ثم قال: " أيها الناس .. إن هذا يوم اجتمعت فيه حرمتان، إحداهما الغدير والأخرى الجمعة، فازداد شرفا على شرف ونور على نور. والحرمة الثالثة الحضور عند أمير المؤمنين (ع)، وهذه حرمات قلما يتفق اجتماعها وتداخلها، فاحمدوا الله واشكروه واعرفوا قدر هذه النعمة، وافهموا قدر مقام الكرامة، وتقربوا إلى الله تعالى بالعمل الصالح، واعلموا أن العمل الصالح لا يصعد إلى درجة القبول إلا بالاعتقاد الصحيح، ومعرفة فضل أمير المؤمنين

(ع)، والاعتراف بعلو مقامه وسمو رتبته، واعلموا أنه (ع) وأخاه وأولاده وزوجته (ع) أمناء الله، وأبواب رحمته، ومقاليد معرفته، وسحائب رضوانه، ومفاتيح جنانه، هم مفاتيح الغيب، هم سر اللاريب، هم مجال المشيئة، وهم ألسن الإرادة، وهم قصبة الياقوت، وهم حجاب الملك والملكوت.

أيها الناس : نزلوهم في مراتبهم ولا ترفعوهم عن الحد الذي جعله الله : " لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق " النساء/١٧١، هم ليسوا أرباب من دون الله، ولا هم شركاء مع الله، ولا فوض إليهم أمر الله : " بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون " الأنبياء/ ٢٦-٢٨ ، " ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين " الأنبياء /٢٩.

أيها الناس: إنهم كلمة الله، وأنهم حملة أمر الله، وأن رسول الله (ص) شرّفه الله وعظمه بحقيقة ما هو أهله، وعرج بجسمه إلى السماء، بل بثيابه ونعليه، وأن الخلق يوم القيامة محشورون بأبدانهم وأجسادهم الدنيوية المرئية، المحسوسة في الدنيا، والله سبحانه هو العالم بالأشياء كلها قبل إيجادها ومع وجودها وبعد وجودها، فلا تتفاوت له الأحوال ولا يوصف بالانتقال، ولا يعتريه زوال ولا اضمحلال، وهو الحيّ، القيوم، القادر، المتعال.

أيها الناس: هذا الاعتقاد الصحيح، فمن اعتقد بهذا فميز أنه رجيح — كذا - يستحق ثواب الله ويستوجب عطاء الله بزيارة أمير المؤمنين (ع) في هذا اليوم، ومن لم يعتقد الذي ذكرناه كله أو بعضه : " فقد حبط عمله " المائدة/ ٥، " وما له في الآخرة من خلاق " البقرة/ ٢٠٠.

أيها الناس: هذا اعتقادي وديني، وعليه انعقد ضميري، وبه أدين الله في سري وعلانيتي، وملأت كتبي ومصنفاتي من هذا النوع، وإن كانت بعبارات مختلفة. وأرى علماء هذا البلد ينازعوني ويخالفوني، فإن كان نزاعهم وخلافهم في هذه العقائد، فإني أدين الله بها وأبرأ إلى الله من كل من لم يعتقدها . وإن كانوا ينسبون لي ما ينافي هذه العقائد فإني أبرأ إلى الله منها وممن يدين بها. وقد أرادوا مني الاجتماع فطلبت منهم الحكم لقطع النزاع وما استصعبت عليهم في أمر الحكومة بل اخترت لهم علماء أتقياء أبرارا زهادا يصلحون للحكم في هذه المسائل. لأن الحكم في هذا المقام هو الذي يعرف ضروريات المذهب والدين، وحيث أن علماء العراق متهمون بي وبهم اخترت لهم علماء غرباء زوارا أتقياء، وأنا عندكم من الآن إلى غد متى ما شاءوا بشرط الحكم فأنا حاضر. ولا تختلفوا ولا تتقولوا الكذب والزور، ولا تقولوا إن فلانا أردنا منه الاجتماع لقطع النزاع فأبى، ولا ريب أن قطع النزاع لا يكون إلا بالحكم المطاع، وأما بدونه فيزداد النزاع والجدال، ويحدث ما

يمجّه أولو الأبصار والأسماع. والصلاة على رسول الله الصادق الأمين، والسلام على عباد الله الصالحين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .
ثم نزل عن المنبر وبقي في الانتظار. وقرب الغروب من ذلك اليوم جاءه ثلاثة رسل من الشيخ الأكبر: اثنان من التجار، والثالث من أهل العلم قائلين : إن الشيخ يريد الاجتماع بك. فأعاد عليهم ما كان قاله للرسول الأول. فخشي التاجران من التحريف والزيادة والنقصان، وطلبا منه أن يجلسهما عنده ويبعث رسولا مأمونا رشيدا من قبله. فاستجاب الرشتي وأرسل الشيخ حسن جوهر، وأمره أن يخيّر الشيخ بين ثلاثة أمور:

الأول: الاجتماع بشرط حضور الحكم، فإن أبى محتجا بعدم قابلية من اختير للحكومة كما فعله سابقا فليعرض عليه.

الثاني: وهو أنه لا يخلو إما أن يكون حال الرشتي مشتبها عليه أو أنه موقن بضلاله وأن قلبه ينافي لسانه. فإن كان مشتبها عليه فيجب عليه التصديق به بعد أن أظهر دينه ومعتقده امتثالا لأمر الله بقوله : " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا " النساء/٩٤، وإن كان موقنا بضلاله ونفاقه وجب عليه التصديق بظاهر اللسان وعمل الأركان ولا يجوز له ولا يجب عليه كشف الباطن اقتداء بفعل رسول الله (ص) مع أصحابه، فإنه كان يعلم يقينا ما في ضمائر بعضهم، لكنه كان يعاملهم على الظواهر صدوعا بأمر الله تعالى: "ولا تكن للخائنين خصيما" النساء/١٠٥، وقد قال الإمام زين العابدين (ع) في دعاء السحر: " اللهم إنَّ قوما آمنوا بألسنتهم ليحقنوا به دماءهم، فأدركوا ما أملوا " لا سيما وأنه لم يسمع أحد من لسان الرشتي ما يخالف ظاهر الشريعة على الباطن بالرغم من أن ذلك لا يحق لغير الله في الشريعة الإسلامية. فهو على أتم الاستعداد لأن يتباهل معه بأن يضع أحدهما يده في يد صاحبه ويدعوان معا على المبطل منهما : " ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" آل عمران/٦١، ولا مانع لدى الرشتي أن يكون ذلك أيضا ، فأعرض عليه.

الثالث : وهو أنّه زعم بأن من اختير للحكومة غير لائق. فهل يرى ثمة من يليق بذلك أم لا ؟ فإن نفى، فقد أتى محالا، وإن أثبت فليكتب اعتراضاته بأن ينقل نص الكلام المشتبه عليه بألفاظه، ويفسر مراد قائله، ثم يورد تفسيره الخاص والمعنى الذي يفهمه من العبارة، ثم يورد اعتراضه. ويبعث ذلك إلى الرشتي ليوضح كلامه ويبين مرامه، فإن اقتنع الشيخ حكم به الطرف الثالث، فهو الحكم الفصل الذي لا ينازع. فذهب الشيخ حسن جوهر إلى كاشف الغطاء وعرض عليه الآراء كلها، فاختار الثالث وظلَّ يتماهل ويسوف عدة سنين حتى اختاره الله إليه.

ظلّ الرشتي في كربلاء يتزعم المدرسة الشيخية، ولم يزر إيران خلال مدة زعامته وأمدها ١٧ سنة من وفاة شيخه الأحسائي إلى وفاته، إلا أنه كان يتمتع بمكانة كبيرة في المدن الإيرانية كافة وفي البلاط القاجاري بالذات ولم تقتصر روابط الرشتي على إيران، بل كانت له صلات وثيقة وعلائق حسنة مع الهند وسائر المماليك الإسلامية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، وكانت شخصيته في بلاط آل عثمان محترمة أيضا، وظلّ يواصل نشر أفكاره ويدافع بحماس عن شيخه وآرائه، والحقيقة أنه لم يضف جديدا إلى عقائد شيخه الأحسائي، فقد كان يدرس مؤلفاته ويوضح آراءه، وقد قضى السنين التي عاشها بعد أستاذه داعية له ومروجا لطريقته ومدافعا عنه، ومؤلفاته على كثرتها لم تأت بجديد لم يسبق إليه أستاذه أو لم يتعرض له بالإشارة على الأقل، وقد فصّل الرشتي مجملها ووضّح غوامضها واستمرت تلك المطاحنة بينه وبين معارضيه، ودام ذلك الصراع العنيف، والرشتي يقاوم بصبر وجلد وأعصاب فولاذية حتى داهم نجيب باشا كربلاء، وجرى فيها قتل عام أبيد فيه معظم معارضي الشيخية، وانطفأت النائرة، وخمدت الأصوات، ولم يبق لدى القوم قدرة على المعارضة أو قابلية للمصاولة، وسادت كربلاء وأطرافها تعاليم الشيخية، وانتشر أعلامها في المدن مبلغين دون أية معارضة.

حادثة نجيب باشا:

بديهي ما كانت عليه الحكومة العثمانية على عهد المماليك في العراق وغيره، فقد دبّ فيها الضعف والفساد إلى أبعد الحدود. وكان العراق خاصّة في وضع سيء للغاية حيث سادته الفوضى لحدّ جعل الحياة فيه على جانب كبير من القلق والاضطراب بسبب تمرد العشائر بين الآونة والأخرى في مختلف المناطق من جهة وتحديات الحكومة الإيرانية وتهديدها والقلاقل التي كانت تثيرها بين فترة وأخرى حول مسألة الحدود وغيرها من جهة ثانية. وكان للخلافات المذهبية والقضايا الطائفية دورها البارز في تلك الحقبة من الزمن، فشعب إيران وحكومته شيعة يهمهم أمر شيعة العراق وما فيه من عتبات مقدسة، ومراقد محترمة للأئمة من آل محمد (ع)، وحكومة آل عثمان سنية تعمل على إضعاف الشيعة وسلب حريتهم والحد من نشاطهم في الوقت الذي كانت تدعم فيه السنة وتغدق العطاء والمناصب لعلمائهم وسائر رجالهم. وكان عملها يسيء الحكومة الإيرانية ويثير حفيظتها، فتعمد إلى إثارة الأحقاد والفتن. وكانت الحكومات البريطانية والفرنسية والروسية تستغل تلك الفرص لتثبيت أقدامها وتحقيق مصالحها.

وكانت الحكومة العثمانية على عهد المماليك تحترم العتبات المقدسة ومراقد أئمة الشيعة في النجف وكربلاء وغيرهما. وقد زاد احترامها على

عهد علي رضا بسبب ما كان يكنه للأئمة (ع) من حب وتقديس، لأنه كان بكتاشيا، وقد أصبح بعضها نتيجة احترام الولاة لها وعدم تدخلهم في شؤونها ملجأ للهاربين من السلطة والمطاردين من قبلها. فكان المجرمون من ماردين حتى المحمرة يلجئون إليها ويحتمون بها. ومن ذلك تجمّع حدث في كربلاء، فأدّى إلى تدميرها ووقوع مذبحة عظيمة فيها ذهب ضحيتها ألوف من الأبرياء. وإلى القارئ ملخّصها :

كان في كربلاء رجل من الأشقياء اسمه السيد إبراهيم الزعفراني لا يزال في بعض أزقة المدينة الداخلية طاق يُنسب إليه ويعرّف باسمه " طاق الزعفراني " . ألف هذا الشقي عصابة من الأوباش والسفلة وقطاع الطرق، كان معظمهم من الأشرار الهاربين من الحكومة والباقون من أراذل المنطقة. وقد أطلق عليهم اسم " اليرمازية " وهي كلمة تركية معناها " الذين لا ينفعون لشيء " ويراد به الأشرار من طبقات المجتمع، وكانت بداية هذا التجمع على عهد الوالي داوود باشا. وقد تزعّم الزعفراني هذه العصابة وأخذ عددها يتزايد يوما بعد يوم، واستفحل أمرها بمرور الزمن حتى صارت قوة هائلة ترهب الأهلين، وهيمنت على المدينة هيمنة تامة، فلم يكن بوسع أحد أن يتحداها أو يعصي لها أمرا، وعجزت السلطة المحلية وسطوة الوالي عن تأديبها وإيقافها عند حدّها.

عمدت هذه العصابة إلى السلب والنهب ومختلف ضروب الاعتداء على المواطنين والزوّار، فكانت تخضعهم لأوحش الطلبات وأقبحها، وتنهب أمتعتهم وملابسهم، بل زوجاتهم وبناتهم، فقد كانوا يختطفون الفتيات الجميلات بالقوة، أو يسرقونها فلا تعاد إلا بعد فترة. وقد التقى السائح البريطاني جيمس بيلي فريزر بأحد الزوّار الإيرانيين ممن عوملت زوجته بتلك الصورة. وصادف مرّة أن ألقوا القبض ليلا على أحد المجتهدين في كربلاء، وهو السيد إبراهيم القزويني صاحب " ضوابط الأصول " ولم يطلقوه حتى أعطاهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه.

وظلّ أولئك المفسدون على سيرتهم طوال ولاية داوود باشا وعلي رضا باشا اللاظ، ولما ولي نجيب باشا واطلع على أمرهم نوى القضاء عليهم حتى لو أدّى إلى هتك حرمة المدينة المقدسة، وبدأ العمل بإرسال إنذار إلى رؤسائهم بوجوب الخضوع ونزع السلاح خلال شهر واحد، فلم يستجيبوا له. فطلب إلى السيد كاظم الرشتي أن يعمل على حقن الدماء، وكان المجتمع الكربلائي يومئذ منقسما على نفسه بسبب الصراع العقائدي بين الشيخية وخصومهم، فلبّى الرشتي طلب الوالي، وحثّ الناس على فتح أبواب البلدة للقوّة التركية والاستسلام لها. فأدّى عمله إلى زيادة الانقسام بين الأهالي حيث انصاع أتباعه لرأيه وازداد خصومهم عنادا وإصرارا على القتال، بل صرّحوا علانية بأنهم مستعدون للفناء وهتك الأعراض وراضون بأسر

نسائهم وأطفالهم على يد العثمانيين وأن لا يتدخل الرشتي وتخمد الفتنة على يده، فيرتفع ذكره ويثبت حقه في أعناقهم ويكون له فضل عظيم. وارسل رؤساء الحركة إلى بعض العشائر المتحالفة معهم كآل فتلة وآل يسار وآل زغبة، يستنجدون بهم. فجهّز الوالي قوة عسكرية ضخمة قادها بنفسه إلى كربلاء.

اتخذ نجيب باشا قرية المسيّب قاعدة له، وجعل قيادة القوّات المحاصرة بيد سعد الله باشا، واتصل بالقنصلين البريطاني والفرنسي وبالوكيل الإيراني وبعض الشخصيات الإيرانية من سكنة كربلاء، فطلب منهم تسوية الأزمة ليظهر أمامهم عدم مسؤوليته مما سيقوم به من إباحة وسفك دماء، وفشل الجميع في الوساطة بين الفريقين. وفي ليلة الحادي عشر من ذي الحجة عام ١٢٥٨هـ/١٣ ديسمبر ١٨٤٢م ثاني عيد الأضحى سلطت القوات التركية مدافعها على سور كربلاء من ناحية باب النجف، ففتحت ثغرة واسعة، وبعد معركة طاحنة عندها تغلغلت القوات في المدينة، وتمّ لها النصر فسيطرت في برهة قصيرة وأبيحت البلدة ثلاث ساعات، وبدأ القتل الذريع والنهب الفظيع. وكانت الأوامر قد صدرت إلى الجند باحترام بيت السيد كاظم الرشتي. وحين علم الأهالي بذلك تهافتوا على البيت طلبا للنجاة، وكثر الازدحام حتى مات تحت وطء الأقدام عشرون شخصا ، واضطر الرشتي لإضافة عدد من البيوت المجاورة له إلى بيته بغية إيواء اللاجئين إليه، فنجوا جميعا. وكان الجيش مؤلفا من أبناء السنة واليهود، وقد قتلوا كل من لقوه في الأزقة والشوارع والبيوت والمخابئ والزوايا وغيرها، ويتراوح عدد الذين لاقوا حتفهم بين عشرة آلاف واثني عشر ألفا. ونجا بسبب الدور التي فتحها الرشتي من دار إلى دار قرب عشرة آلاف نفر من أعدائه وأصحابه. كما استطاع الكثيرون حفظ أموالهم وذخائرهم بنقلها إلى بيته، بينما نُهبت أموال باقي أهل كربلاء، وأسرت نساؤهم واطفالهم، ولم يقتل من أصحاب الرشتي في تلك الواقعة ولا واحد، في الوقت الذي لم يسلم فيه حتى الذين لاذوا بضريح الحسين (ع) واختفوا في أروقته، بل وحتى الذين تمسكوا بالضريح. ونفى ذلك بعضهم فزعم أن الذين التجأوا إلى صحن الحسين (ع) قد نجوا، وكان السبب أن الحاج مهدي كمونة نائب سادن الحرم الحسيني قد خرج مع بعض السدنة إلى القائد وهو واضع عمامته في رقبته ويبكي ويلطم ويطلب الأمان، وإنه خاطب القائد بالتركية قائلا ما تعريبه : " أفندم .. إننا لم نخلع الطاعة ولم نفارق الجماعة، فلا تأخذنا بذنوب المفسدين، وترحّم علينا بالأمان" . فرفع القائد يده مشيرا إلى الجند بالتوقف عن الضرب، فنجا بذلك جميع من كان في داخل الصحن إلا من مات منهم من شدّة الزحام. وقد ذهب القائد بعد ذلك إلى صحن العبّاس، فلم يفتح له المعتصمون فيه الباب، فأمر الجند بقلع أحد الأبواب فقلعوه وهجموا على من كان في الصحن وحول الضريح فقتلوهم

جميعا. ووجد بعد ذلك في السرداب الذي تحت رواق العبّاس ما يزيد على ٣٠٠ قتيل.

وفي صباح اليوم التالي دخل نجيب باشا كربلاء، ولمّا اقترب موكبه من صحن الحسين (ع) ترجّل عن جواده، فاستقبله الحاج مهدي كمونة ومن معه من السدنة وهم يحملون القرآن وأعلام الروضة، فدخل نجيب باشا إلى الصحن وقد حفَّ به الحاج مهدي كمونة، والسيد كاظم الرشتي، والشيخ وادي الشفلح رئيس عشيرة زبيد، والملا علي الخصي .. وغيرهم. فزار القبر واستراح في " تكية البكتاشية " قليلا. وألقي القبض على الزعفراني فنقل إلى بغداد مكبلا ومات بعد قليل، كما ألقي القبض على بعض أشراف كربلاء بتهمة التحريض على الحركة والمقاومة كالسيد صالح الداماد، وعلي كشمش، وطعمة العبد، وبعض آل نصر الله وآل النقيب، وطورد السيد عبد الوهاب آل طعمة سادن الروضة الحسينية، ثم عُفي عنه بشفاعة السيد علي الكيلاني نقيب الأشراف في بغداد. وقد اختلف الرواة في تقدير عدد القتلى، فمنهم من جعله ٤ آلاف، ومنهم من قال : إنه ٥ آلاف، وثالث قدّره بـ ٩ آلاف، وزعم آخرون ١٠ آلاف. وادّعى بعضهم أنه بين ١٠ آلاف و ١٢ ألفا، وقال غيره إنه ١٨ ألفا، وروى آخر إنه ٢٠ ألفا ، وارتقى غيره إلى ٢٤ ألفا. أما المندوب العثماني فقد نصّ تقريره على أن عدد القتلى من الأهالي يناهز المائتين والخمسين أكثرهم من الإيرانيين، وإنَّ خسائر الجيش التركي ٤٠٠ قتيل و٢٠٠ جريح. بينما حكي عمن شهد الواقعة من الثقات: إنه لما أقفل العسكر أحصينا القتلى وسألنا الحفارين وتحققنا من ذلك، فكان ما يزيد على ٢٠ ألفا من رجل وامرأة وصبي، وكان يوضع في القبر الأربعة والخمسة إلى العشرة، فيهال عليهم التراب بلا غسل ولا كفن، وتفقدنا القتلى منهم في الدور والآبار.

وفاته وقبره:

وأخيرا، وبعد صراع طويل وجهاد مرير، وحروب طاحنة وحملات واسعة قاومها الرشتي بأعصاب فولاذية، وقابلها بصبر ورباطة جأش، وبالرغم مما تميز به من قدرة خارقة على تحمل الصعاب والمتاعب، فقد أثرت فيه واقعة نجيب باشا تأثيرا بالغا، فلم يكن ليهون عليه ما حلَّ بالقوم وإن كانوا أعداءه وخصومه، ولم تفرحه إبادتهم وإن صفا له الجو وخلا الميدان من معارض، فقد كان يمر بالديار وهي خرائب، تنعى فيها البوم، وتصفر في أروقتها الرياح، وتتجاوب الأصداء، فيقف عليها منكسرا خاشعا يتصور المأساة وأيامها السود، حين كانت المدافع العثمانية تمطر المدينة بوابل من القنابل، وسيوف الجند تعمل في رقاب المارة من مختلف الطبقات، لا ترحم شيخا لكبره، ولا طفلا لبراءته، ولا امرأة لضعفها، ولا زائرا لغربته، ولا تميز بين محارب ومحايد، ومخالف ومؤيد، بل تحصد الرؤوس كما يحصد المنجل

السنابل، والناس مذعورة تفر فرار الغنم إذا شدّ عليها الذئب : " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه " عبس/٣٤-٣٦، وكيف انهالوا على بيته بلا شعور طلبا للنجاة وأمانا من الموت بعد أن رفضوا الحل السلمي إذا كان عن طريقه أو بواسطته كرها وتحديا. وكيف حدا بالقوم حادي الموت زرافاتٍ ووحدانا، فخلت منهم الديار، وعفت الآثار مرة واحدة، وتعود به الذاكرة إلى ما قبل الحادثة بسنين يوم جمعوا عليه الغوغاء من كل صوب وحدب حتى ضاقت بهم البلاد، وحشروهم في مجلس عام ضاقت ارجاؤه فتسلقوا جدرانه وسطحه وملأوا الطرق المؤدية إليه، وذلك ليحاكموه ويهتكوه ويعلنوا كفره على الملأ. ويوم أمروا أتباعهم بخطف عمته في حرم الحسين (ع) وهو يصلي بين يدي ربه، ويوم رموه بالرصاص وهو خارج من صحن الإمام ليقتلوه فأخطأوه وأصابوا خادمه، ويوم أرادوا اجلاءه عن كربلاء فنادوا بالناس فجمعوهم عليه وهو يدرس، وأرادوا أن ينزلوه من على المنبر لإخراجه .. كان يستعرض ذلك كله في ذاكرته كما يستعرض شريط السينما فتنهار قواه وتضعف عن حمله رجلاه، لكنه لم يكن ليهون عليه ما حلَّ بالقوم من إبادة وفناء ومصير مؤلم.

وبقيت تلك الخواطر تجول في ذهنه، وظلت مظاهر استباحة المدينة ماثلة بين عينيه لا تفارقه لحظة، فظهرت عليه أمارات المرض والانهيار بالتدريج، واخذ يحس بدنو الأجل، فقرر أن يزور العتبات المقدسة في العراق ويودع مراقد الأئمة (ع) وأحب أن يرافقه أصحابه وأحبابه في تلك الزيارة، فأمرهم بذلك وطلب إلى الميرزا حسن الطبيب وكان من تلامذته الأعلام أن يصحبه أيضا، فاعتذر منه لإشرافه على معالجة عدد من المرضى، فرجاه أن ينظم لهم العلاج ودستور العمل به ليصحبه لأنه يظن أن ذلك آخر أسفاره، فردّ عليه بأنه صحيح سالم وسوف تتكرر زياراته بإذن الله، فقال له : إنني أعرف شيئا لا تعرفه، فاسمع ذلك مني ولا تفض به إلى أحد. فامتثل وزار مع اصحابه سامراء، ولما عاد إلى الكاظمية وانتهى من زيارة الإمامين (ع) دعاه الوالي نجيب باشا، فزاره في بغداد وبالغ في تعظيمه وتكريمه، ودسّ له سما في القهوة، ولما عاد إلى منزله تقيّأ دما واضطربت حالته، فعجل أصحابه بحمله إلى كربلاء وبقي يومين أو ثلاثة، وتوفي بعد ساعتين ونصف من منتصف ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي الحجة عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م، وهي الليلة نفسها التي هاجم فيها نجيب باشا كربلاء من السنة السابقة. وجهّزه وصلى عليه الشيخ حسن كوهر بوصية منه، ودفن في رواق الحسين (ع) خلف الشباك الواقع عند أرجل شهداء الطف (رض) ووسعوا الحفر من الأسفل حتى ألحدوه في داخل الحرم الحسيني بالقرب من قبور الشهداء، وأرّخ وفاته بعضهم في آخر قصيدة نظمها في رثائه، وكانت مكتوبة على لوح قبره بقوله : وكل شطر منه تاريخ :

ألا قل بتاريخه (غاب نور) ١٠٠٣/٢٥٦	وإن شئت قل (غاب بدر الهدى) ١٠٠٣/٢٠٦/٥٠ ۞

۞ نقلنا هذا الفصل بتصرف من كتاب " الشيخية .. نشأتها وتطورها ومصادر دراستها" للسيد محمد حسن آل طالقاني، مكتبة المعارف/النجف- دار الكتاب العربي/بغداد، ط١/٢٠٠٧م (١١٧-١٦).

المشروطة والمستبدة .. التكفير من كل جانب



كاظم اليزدي



كاظم الخراساني

في قضية المشروطة والمستبدة ستجد أمامك معجما لا حد له من الشتائم، مثل قرد وكلب وضال، حتى تصل إلى حد التكفير والإخراج من الملة والمذهب، ولا تقف عند هذا الحد، بل تذهب إلى أبعد من هذا بكثير، إلى حد الاعتداء والضرب والقطيعة والصراع الدامي، كل هذا من إخوة وعلماء وأدباء ينتسبون إلى مذهب واحد، مذهب ينبثق من تعاليم أهل البيت (ع)، ويخرج من عباءة الإمام الصادق (ع). عنف وقسوة ما بعدها قسوة، واندفاع وتهور لا يعرف الهوادة، وحقد يتغلغل إلى حيث الأعماق في النفس!! عنف لا يعرف التسامح ولا تقبّل الآخر، ومن هو الآخر ؟ إنه أخ من قبل أيام، وعالم من قبل سويعات، ومرجع قبل مدة وجيزة، ما أقسى الإنسان حين يذهب إلى المعاداة والضغينة، يصبح أقسى من الوحش الكاسر، والأسف كل الأسف حينما يكونون من شيعة أمير المؤمنين (ع). تقرأ ما جرى بين هذين التيارين فيصيب قلبك الألم الممض، وتكاد لا تصدق ما تقرأ، وفؤادك يكاد أن يموت من الغصة والحسرة على ما آلت إليه النفوس، من الشحناء والبعد عن الدين وتعاليمه، وما يخرج من الأنفس والألسن، ما يمثل شريعة الغاب لا شريعة النبي (ص) وتعاليم القرآن وهدي السماء. كل هذه الشحناء تتم في مدينة النجف، وهي المدينة التي يعلم المراجع والعلماء قبل غيرهم من العوام بمدى قدسيتها، وأنها مدينة أمير المؤمنين (ع)، أمير المؤمنين الذي كان يتقبل الخوارج مع أنهم كفروه وحاربوه وأهانوه في مسجد الكوفة، ولم يقبل أن يتعرض لهم أحد بأذية، أو سوء .. وفي النجف مدينة العلم والعلماء والتسامح تجد المرجع الخراساني يكيد للمرجع اليزدي، والمرجع اليزدي يقدم الأموال للعوام المتوحشين من الزقرت والشمرت لصوص العراق المعروفين لينضموا لحزبه ضد حزب الخراساني، وكل منهما يستميل العلماء وأشباه العلماء ليقوي شوكته، ويكفر الخراساني على الملأ وتحرم الصلاة خلفه، وهو المرجع الأعلى وقتها، وتسحب سجادة الصلاة من تحت أحد العلماء وهو يصلي بالصحن الكاظمي، لأنه رفض إعطاء توقيعه إلى

المشروطيين. واعتداءات بالضرب على العلماء وعلى العوام، وكل منهما يكفر الآخر، ويخونه .. حقيقة عنف ما بعده عنف، خصوصا وأنه يُغلف بغلاف الدين، ويؤطر بإطار الفتاوى، ويخرج من قلب الحوزة الدينية، ومن عباءة رسول الله (ص) !! هذا ما يجعل العنف فيه أشد ما يكون، والقسوة مضاعفة، لأنه يعتقد بأن عنفه مبرر بمبرر الدين، ولو ضرب أو كفر أو قتل أو قتلوه فكل ذلك في سبيل الدين والعقيدة !!.

بادئ ذي بدء سنعطي القارئ فكرة حول المشروطة والمستبدة وكيف نشأت، لتنتج لنا فيما بعد هذا الصراع العنيف بين تيارين شيعيين، كل منهما يكفر الآخر، ويسقطه علانية ومن دون تريث أو تردد. ومن ثم سننقل مظاهر التكفير والصراع التي انتهجت في العراق من قبل الشيعة للشيعة، والعراقي ضد العراقي، والمعمم ضد المعمم، والشاعر ضد الشاعر. معتمدين في هذه التفاصيل على كتاب " النزاع على الدستور بين علماء الشيعة .. المشروطة والمستبدة " لرشيد الخيّون، ط٢/نوفمبر٢٠١١م، دار مدارك " وكتاب " لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، علي الوردي، ج٣،ط١/٢٠٠٥م،دار الكتاب الإسلامي". ونحب أن نشير هنا إلى أن الإيرانيين يطلقون عليها لفظ مشروطة، أما الأتراك فيستخدمون لفظ مشروطية.

في بداية القرن العشرين بدأت حركة في صفوف الشيعة بل و السنة أيضا المنتشرين في إيران و العراق ،و امتدت تأثيراتها مكانيا و زمانيا إلى أكثر من هذا التاريخ و هذه البقعة، هذه الحركة يطلق عليها اسم المستبدة و المشروطة، المشروطة يراد منها إلزام الملوك بقواعد دستورية تحول دون استبدادهم بالسلطة و انفرادهم بالحكم و اتخاذ القرارات،و يطلق على هذه الحركة في أدبيات السياسة والتاريخ المعاصر الحركة الدستورية، و المستبدة على عكس ذلك تفترض أن الملك أو السلطان هو ولي الأمر و خليفة المسلمين و بالتالي يجب أن تترك له حرية الملك دون أي تدخل من أحد ليمارس استبداده في الحكم.

المشروطة هي حركة المطالبة بالدستور التي ظهرت في تركيا وايران، وهي إنما سميت بهذا الاسم لأن القائمين بها اعتبروا مواد الدستور بمثابة الشروط التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته، وهذه فكرة مستمدة من نظرية "العقد الاجتماعي" التي شاعت في أوروبا بعد قيام الثورة الفرنسية، ومنها جاءت إلى تركيا وإيران.

إنَّ المشروطة ظهرت في تركيا قبل ظهورها في إيران بما يزيد على ٣٠ سنة، ويعود سبب ذلك إلى قرب تركيا من أوروبا وشدّة تأثرها بالحضارة الأوروبية. يجب أن لا ننسى أن الصراع بين القديم والجديد بدأ في تركيا منذ منتصف القرن الثامن عشر، أما في إيران فقد بدأ هذا الصراع منذ

منتصف القرن التاسع عشر، وذلك من جرّاء دخول بعض المخترعات والنظم الحديثة إلى إيران على عهد الشاه ناصر الدين.

و قد انقسم علماء الشيعة و مراجعهم إلى صفين حول هذه القضية ، فقسم من العلماء أيدوا المشروطة و على رأسهم الآخوند الخراساني أحد أهم و اكبر علماء الشيعة في ذلك الوقت و سار معه عدد من رجال الدين الكبار كأستاذ المجتهدين الشيخ النائيني و هبة الدين الشهرستاني و الشيخ الطهراني، و في المقابل كان هناك قسم آخر من العلماء ذهب إلى تأييد المستبدة و على رأسهم السيد كاظم اليزدي، و جمع من العلماء أيضا .

المسألة في الأصل ذات بعد سياسي، يتعامل مع واقع السلطة في الدولة العثمانية في تركيا و الدولة القاجارية في إيران، و أصل المسألة عبارة عن استفتاء وجه للمراجع، فتعددت وجهة النظر اتجاهه، ومن ثم انتقل الخلاف الفقهي السياسي من الطبقة العليا إلى طبقات أدنى من العلماء، فراحوا يشرحون الموقف و يعطون له التفسيرات العلمية والفقهية و الفلسفية و العرفانية و التاريخية، ومن ثم انتقل إلى طبقة أدنى من رجال الدين الذين راحوا يجترون تلك المناقشات العلمية ، دون مزيد وعي و تدبر و تأمل، وأدخلوا عليها أشياء من الخيال الخصب وحملوها أحلاما و لعنات و أساطير و صارت جزءا من مجالس العزاء هنا و هناك، ثم انتقلت إلى عامة الناس الذين لا حظ لهم في التحصيل العلمي و البعد الفكري، فأخذوا هاتين الفتويين وقلدوا فيهما، وإنما يوما بعد يوم صار التقليد تعصبا أعمى ، فانقسم الناس في العراق و إيران إلى مستبدة و مشروطة، و صار كل واحد يميز جاره و صديقه و أخاه على هذا الأساس و بالتالي يتم تجنبه إذا كان من أنصار الحركة المقابلة و يتم التعاطف معه إذا كان موافقا .

يحكى أن رجلا كان ذاهبا لزيارة أمير المؤمنين ،و قد وصل في ليلة إلى قرية من قرى العراق مسورة بسور(كانت القرى العراقية الجنوبية في ذلك الوقت مسورة بأسوار خوفا من هجمات و غزوات الوهابيين) فدق باب القرية، فتح له، و سئل فورا : أنت مستبدة أم مشروطة ؟ لم يعرف الرجل المقصود، ولكن أمام إصرارهم أنهم لا يستضيفونه إذا كان على خلاف معهم في هذه المسألة، ولأنه يريد الحل فاختار كلمة منهما سبق إليها لسانه ربما، فقال لهم: مشروطة فأوسعوه ضربا ورموه خارج القرية حيث كانوا هم من أنصار المستبدة. قام هذا الزائر يحمل وجعه و مشى في ظلام ذلك الليل حتى وصل إلى قرية أخرى، فدق بابها و كان من أهلها نفس سؤال القرية السابقة ، ففكر هذا الرجل بينه و بني نفسه، حيث أن القريتين متجاورتين فلا بد أن يكونا من نفس الفكرة أيضا، فأجابهم أنه من المستبدة، ولكن للأسف كان هؤلاء من المشروطة فأوسعوا هذا الزائر ضربا وقذفوه خارج السور. ثم تابع مشيه ليصل إلى قرية ثالثة سألوه فيها نفس السؤال ،

فأجابهم: أنا يهودي قصدت هذه البلاد للتجارة، فرحبوا به وقدموا له مستلزمات الراحة .." (فتنة المصطلحات، الشيخ حسن برجي، الإنترنت)

مما لا شك فيه أنّ العراق كان في الكثير من الأوقات مناصفة بين الدولة الصفوية من جهة الشرق والدولة العثمانية من جهة الشمال. بل أمسى ساحة للصراعات والحروب المتواصلة بين الدولتين المتضادتين ومذهبيهما المختلفين. مذهبان جمعهما الإسلام بشهادتي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، وفرقتهما الإمامة وما يتبعها من أمور. وحسب التجاذب المذهبي تأثر وجهاء الشيعة النجفيون في أمر المشروطة، سلبا أو إيجابا بما حدث في إيران، بينما تأثر وجهاء السنة البغداديون بما حدث في تركيا.

المعركة بالنجف:

وضعت النجف مراجعها وهم بمثابة ملوك الطائفة أو المذهب بموازاة ملوك السياسة، فمن العادة لا تسعى المرجعية لزيارة الملوك، ولا تحتفي بهم في دارها، وقيل يعود ذلك إلى سُنّة سنّها وثبتت بعده المرجع الأعلى في زمانه الميرزا محمد حسن الشيرازي (ت١٨٩٧م) صاحب فتوى التنباك الشهيرة، ومنذ ذلك الوقت كان اللقاء بين المراجع والشاهات أو غيرهم من الحكام يتم داخل الحضرة العلوية.

وقصة ذلك حسب رواية السيد محسن الأمين أنه في سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٩م زار ناصر الدين شاه العتبات المقدسة في العراق، وكان الوالي على بغداد مدحت باشا الشهير، فلما قصد الشاه كربلاء خرج لاستقباله علماؤها إلى المسيب، فسلم عليهم وهو راكب، ولما ورد النجف الأشرف خرج أيضا لاستقباله علماؤها، فسلم عليهم وهو راكب أيضا، ثم زاروه بعد دخولها، ولم يخرج السيد محمد حسن الشيرازي لاستقباله، ولم يزره. فأرسل الشاه إلى كل واحد مبلغا من المال فقبله، وأرسل إلى السيد فلم يقبله، فأرسل الشاه وزيره حسن خان يعاتبه، ويطلب منه زيارة الشاه فأبى، فأصرّ الوزير وأصرّ السيد.

وبعد الإلحاح تم الاتفاق على أن يذهب الشاه لزيارة الحضرة الشريفة العلوية في وقت معين، ويذهب السيد إليها بهذا القصد. وهناك يتم اللقاء. وأصبحت هذه الطريقة سنة متبعة عند كبار العلماء منذ السيد الشيرازي حتى اليوم. فإذا جاء إلى النجف ملك من ملوك المسلمين أو من هو في منزلته أحجموا عن استقباله، وإذا دعت الضرورة إلى الاجتماع التقوا به في الحضرة المقدسة.

علمنا بما جرى بإيران بين فقهاء المشروطة وفقهاء المستبدة وما أسفر عنه من حوادث مؤلمة، وبما أنها حركة داخل المذهب الشيعي فلابد أن يصل أوارها النجف، ليتبناها وتنقسم مرجعيتها حولها، وتصبح مركزا لها وإيران

تابعة، بحكم أنها محور التشيع، وحوزة العلم، وقبلة الطلاب من كل أصقاع العالم.

كتب أحد علماء الدين من أهل المشروطة المتأخرين يقول : " قامت حركة تحريرية تهدف إلى تحقيق العدالة والمساواة والحد من سلطة الشاه، بإيجاد مجلس يتقيد الحاكم بمقرراته، فدعمت النجف هذه الحركة المباركة، وساندتها بقيادة الشيخ كاظم الخراساني، صاحب كفاية الأصول الشهيرة، وما أن تبنت النجف هذه الحركة حتى انعكست الآية، فبعد أن تولدت بطهران أصبحت طهران وغيرها صدى للنجف، التي هزّت عرش الشاه، وأودت به. وأصبح الشيخ الخراساني محورا يدور الجميع من حوله، وكان طبيعيا أن يتحالف الحكام العثمانيون مع الحكام الإيرانيين ضد هذه الحركة".

وأثناء الخلاف داخل إيران بين الدستوريين والمستبدين وصل استفتاء إلى علماء النجف بشأن المشروطة، وقد أفتى الكبار بالتأييد ما عدا السيد محمد كاظم اليزدي (ت١٩١٩م)، لسبب ليس له علاقة برفض الدستور، مثلما سيأتي ذكره لاحقا. من أوائل الرسائل التي وردت إلى علماء النجف تستفتيهم في أمر المشروطة كانت هذه الرسالة ننقلها بعد ترجمتها إلى العربية:

"إلى حضرات المجتهدين وحفظة الحكمة الإلهية لابد وأنكم سمعتم بمجلس الشورى الشعبي، وأنتم تعرفون جيدا أن هذا المجلس الذي يعمل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقة الاثني عشرية المقدسة لمحو الظالمين والخائنين، ونشر العدل على جميع البلاد، وإعلاء شأن الراية الإيرانية، ويؤسفنا أن عددا من الأنانيين المفسدين أخذوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب من أجل محو هذا المجلس. فنحن ننتظر فتواكم في بيان تكليف المسلمين في هذا الشأن ".

وعلى أثر وصول هذا الاستفتاء إلى النجف اجتمع كبار علمائها للجواب عليه، وجاء في الفتوى التي وقعها نيابة عن الجميع الملا محمد كاظم الخراساني (ت١٩١١م) وقيل الخليلي : " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على القوم الظالمين إلى يوم القيامة .. أما بعد، فبالتأكيدات الإلهية، والمراحم السماوية، وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن، حضرة صاحب الزمان، أرواحنا فداه: إنَّ قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة، ومحترمة، وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفذوها. وعليه نكرر قولنا : إن الإقدام على مقاومة المجلس العالي (البرلمان) بمنزلة الإقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس " .

من هنا تبدأ سهام التكفير تتوجه للأطراف الأخرى، فمن يرفض البرلمان فهو كمن يحارب الدين الحنيف، وأحكامه وتشريع السماء، وكمن حارب رأي الإمام صاحب الزمان، ويجب على المسلمين الوقوف أمامه بحزم ومحاربته ومحاربة أي صوت يرفض البرلمان، لأن قوانين البرلمان قوانين مقدسة، ومحترمة وهي فرض وملزمة على جميع المسلمين، ولا يجوز الاعتراض عليها !! والغريب في هذا كله أن هناك مراجع وفقهاء وعلماء في الطرف الآخر على النقيض من ذلك كله، فهي ترفض وتحارب وتعارض البرلمان، وفكرة المجلس، وترفض الدخول فيه أو الانصياع لقراراته وقوانينه، فأي الفريقين من الفقهاء والمراجع والعلماء ورجال الدين يأتمر بأمر صاحب الزمان؟! والإمام المهدي هنا يوجه للدخول في البرلمان أم يوجه لمقاطعته وحربه وعدم الانصياع له ؟! والإمام المهدي (ع) مع الخراساني أم مع اليزدي ؟ وكلاهما مرجعان من كبار المراجع ولديهما الأعلمية ؟! وهل بالفعل من قاطع فكرة البرلمان حارب صاحب الزمان وعمل منكرا ومحرما في الشريعة ؟! والأغرب من هذا كله أن هذه الفتوى التي تدعو للدخول في البرلمان ومحاربة كل من يقاطع ويعترض الامتناع سوف يدعو أصحابها فيما بعد للنقيض تماما، لمحاربة البرلمان ومقاطعته وعدم الدخول فيه، وذلك حينما يتجسد على أرض الواقع !!.

بعد هذه الفتوى الصريحة انتقلت المعركة إلى النجف، فأصبحت مركزا لمعركة اشتدت بين علمائه، يتبعهم في الخصومة عوام الناس، كل يقلد مرجعه. ودخلت المعركة إلى مفاصل الحياة الفقهية والأدبية والشعرية. ولأهمية النجف تجاوز الدستوريون أو المشروطيون الأتراك حواجز المذهب فطلبوا من علماء الشيعة بالنجف العون في تحقيق الدستور أو المشروطة التركية.

قال السيد هبة الدين الشهرستاني (ت ١٩٦٧م) وهو من أهل المشروطة والمساهمين في أحداثها بقوة: " أصبحت النجف في ذلك العهد مركزا سياسيا مهما، وشبحا مخيفا بين عواصم الأمم الإسلامية، مما دعا أن يستنجد بها أحرار تركيا عندما أحسوا بأن السلطان عبد الحميد سيفتك بهم، ويغتالهم، فطلبوا من أحرار (الدستوريين) النجف وزعيمهم الإمام الخراساني أن يبرقوا إلى عبد الحميد برقية ينصحونه فيها، ويؤنبونه، وإجابة لتدعيم الفكرة بادر أبو الأحرار الخراساني ببرقية مطولة ملأت صحيفة كاملة، وفيها إنذارات وتهديدات، ونصائح للرضوخ إلى فكرة الأحرار " .

ساعد على استيعاب وتفهم علماء النجف، وما يحيطهم من مقلدين وأدباء وشعراء لأمر المشروطة الاتصال الثقافي والفكري مع العالم الخارجي، وهو وإن كان محدودا لكن لا يستهان به، وسط التسلط الاستبدادي الديني، والانغلاق الاجتماعي والفكري. ورد في مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني : " كان الشيخ ضياء الدين النوري يطلب لنا من مصر جريدة

المؤيد، واللواء، والهلال. كما يجلب الكتب التي تتضمن سير المصلحين أمثال: كتاب مشاهير الشرق. وكنا نقف على كثير من الحقايق التي خفيت علينا ".

ساعدت هذه الصحف والمجلات الدستوريين على أن يحسنوا "الهجوم عن طريق العلم والمعرفة". وكانت جريدة "حبل المتين" الهندية تنشر أخبار الصراع بين الفريقين، وتميل إلى الدستوريين، ووقفت مبكرا ضد السيد اليزدي وجماعته، مما أثار العواصم الإسلامية وأحرار الهند، من جماعة غاندي في أول الأمر، واتصلوا بالإمام الخراساني وجماعته، ومنوهم بالإمدادات والنصرة، وصارت النجف لها صدى عظيم في مختلف العواصم، وخاصة إيران واستانبول ". وهنا يأتي الاتفاق غير المباشر بين عدوين: بريطانيا المحتلة للهند وجماعة المهاتما غاندي في تأييد المشروطة. فمثلما وقفت روسيا بكل قوتها مع المستبدة أو المشروعة بإيران، وقفت بريطانيا مع الحزب الآخر، وكرست جهودها في سبيل حياة برلمانية دستورية.

كذلك كان لنشاط الدستوريين بتركيا، وكانت النجف والعراق بكامله تحت سيطرتها، أثره في نصرة المشروطة، فقد "انتعشت فكرة الأحرار في النجف، وصاروا يتنفسون الصعداء بعد الابتلاء الذي غمرهم من عوام النجف، ومن جماعة اليزدي بانقلاب الجو ضدهم، وتطور الوضع في تركيا، فانعكس الصدى على النجف. وزار النجف ثريا بك، واجتمع في مدرسة الميرزا حسين ميرزا خليل بحضور أعلام النجف وزعماء الدين، وتضاءل شخص اليزدي وحاشيته، وتقارب أحرار الأتراك وأحرار النجف لتجاوب الفكرة، وصادف القدر بإنزال مظفر الدين شاه إلى رمسه، فكان لأحرار إيران أن أخذوا يوسعون الهدف، وكان لأحرار الأتراك أن أعلنوا الدستور العثماني، وقيدوا السلطان عبد الحميد بالعهود والخضوع للدستور".

نشط أصحاب المشروطة بالنجف في بداية الأمر بشكل سري، خشية من سطوة أصحاب المستبدة، وتحريك العوام ضدهم، وكانوا يستغلون سراديب النجف غرفا مغلقة لعقد اجتماعاتهم، وقواعد لتحركاتهم. كان من هؤلاء حسب ذاكرة السيد هبة الدين الشهرستاني : أغا الشيرازي، ومحمد باقر الأصفهاني، وميرزا عبد الرحيم بادكوبي، وميزا هيئت تبريزي، والشيخ جواد الجواهري، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والسيد أحمد الصافي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ هادي كاشف الغطاء، والسيد مسلم زوين. وقد لعب الأخير دورا في حماية العديد من أنصار المشروطة، مستغلا سطوته الأسرية بالنجف. إلا أن المواجهة ظهرت حامية عام ١٩٠٧م بين المرجعين الخصمين ورئيسي الحزبين: ملا كاظم الخراساني ومحمد كاظم اليزدي.

وذكر الشهرستاني : أنه قويت الخصومة التي بلغت منتهى الوحشية من إيذاء العوام لإخواننا وهيئتنا بتسميم فكرة العوام، من أننا نريد الحرية، التي ضد الدين، وكثيرا ما كانوا يضربونهم على رؤوسهم. وأعتقد أن بعض الشياطين منهم عملوا عملا سيئا خدموا فيه جماعة اليزدي بنشرهم إعلانا ألصقوه على الجدران، رسموا فيه يدا وفيها مسدس خاطبوا فيه السيد اليزدي وناشدوه النزول على رأي رجال المشروطة، فإن لم يفعل قتلوه، فكان لهذا الإعلان أثر سيء في نفوس العوام، وانتصارهم لليزدي، فقد هاجت عواطفهم. واعتبروا أن هؤلاء مجرمون يريدون القضاء على ابن رسول الله، وانحاز إلى جنب السيد اليزدي فريقا: الشمرت والزقرت" .

أخذ الصراع يتطور بسرعة بين الحزبين، والكفة كانت تميل للمستبدين، وذلك لقرب رأيهم من بساطة العوام، وسهولة استخدامهم في الصدامات، التي لا تجيدها النخبة المثقفة من مؤيدي المشروطة من أرباب العلم والأدب والمجتهدين. والخلاف كان عميقا بين محوري الفريقين: وهما اليزدي والخراساني، وهما مرجعان متوازيان في المستوى العلمي، لكن ثقل المرجعية كان لليزدي.

كان لهما رأيان متعاكسان متميزان، وعلى طول الخط لا يلتقيان، فالسيد اليزدي يرى أن مصلحة الدولة يجب أن تكون بيد شخص واحد، مسئول عنها لا يشاركه فيها مشارك، ويحتج لرأيه هذا بما يصل إليه اجتهاده الديني، مبرهنا عليه بالبراهين والأدلة المختلفة، ومعه أتباعه من مختلف الطبقات، بينما كان الخراساني يرى عكس هذا الرأي، يرى أن الدولة الحقة هي التي تقوم على أساس رفض الاستبداد، والاستبداد قوة يتمسك بها الجبابرة والطواغيت والفراعنة، وأضرابهم. وأن الاستشارة وإشراك الرعية في الرأي هو مما نصَّ عليه القرآن، وأيدته سيرة النبي الأكرم (ص)، وقام عليه أمر أكثر من جاء بعده من أولياء الأمر العادلين. وكان له أتباعه وأشياعه من المجتهدين، ودعاة الحرية، وحملة الأقلام، وأرباب أكثر الصحف. يؤيده في ذلك الأحزاب المعتدلة في إيران والدولة الإسلامية في تركيا.

وإثر الخلاف الذي نحا بعيدا عن الحوار والإقناع الفكري إلى الاتهام والتجريح، تقسّمت الأسر الدينية النجفية إلى مشروطة ومستبدة، وأخذ الفريقان يستقطبان ذوي المراكز العلمية الدينية، فقد نجح السيد محمد كاظم اليزدي بكسب أسرة آل كاشف الغطاء إلى جانبه، وهما الشيخان أحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، فانقطعا عن حضور مجلس الملا الخراساني، حتى أصبح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في مقدمة مناصري اليزدي في أيام المشروطة، حتى جعله أحد أوصيائه.

بالمقابل انضم وجهاء أسرتي آل الجواهري وآل بحر العلوم إلى الخراساني مؤيدين المشروطة، وتطورت الخصومة بصورة خطرة بين العلماء والعوام، وصارت النجف كالأتون المستعر، واضطر اليزدي أن يضاعف عطاءه للعوام، ولرؤساء الشمرت والزقرت، لما عرف من سطوة رجال الدين، واجماعهم ضده. إلا أن إعلان الدستور العثماني وإشاعة مباهجه ببغداد وامتدادها إلى النجف دعم موقف الملا كاظم الخراساني وأعوانه، وخذلان اعوان السيد كاظم اليزدي. وصف البعض جماعة الخراساني وهو صاحب لقب أبي الأحرار مثله مثل مدحت باشا بتركيا، بالحلقة الذهبية التي قلبت تاريخا واسعا، وخلقت تاريخا جديدا، وصار الرجال الأبطال وأعلام الدين يهتفون بالخطط التي وضعوها، والمقررات التي هيئوها، وبذلك كثر العديد الذي لاشك بأن الفرد منهم كان أمة.

لم يبق الصراع محليا داخل النجف، لأنه قضية خاصة بالدولة، وليس فقه مذهب أو مسألة دين، فنجاح أي منهما سيحدد معالم العرش الإيراني والعثماني، والعراقي بعد حين. لذا دُوّل الصراع بين الحزبين بتدخل الروس لصالح المستبدين قبل ثورة أكتوبر الاشتراكية. بينما تخل البريطانيون لصالح الدستوريين، وكان ذلك قبل احتلال الإنكليز للعراق. كان التدخل الروسي والبريطاني امتدادا لتدخل الدولتين في الخلاف بين الحزبين بايران، فكان الروس ينظرون إلى توغل الإنكليز في صفوف الحكومة والشعب الإيراني، وصاروا يبذرون سمومهم عن طريق إيجاد الوعي بالحياة الدستورية والبرلمانية، فارتأوا أن ينزلوا إلى ساحات العمل بإيجاد مؤسسات تعارض وتصادم السياسة الإنكليزية.

وفي غمرة الصراع فتحت روسيا قنصلية لها بالنجف، وسمّت قنصلها الفخري، وهو أبو القاسم الشيرواني، الذي قيل إنه لعب دورا مهما في نصرة المستبدة أو المشروعة. وبالمقابل كانت هناك القنصلية البريطانية بكربلاء، ونائب قنصلها محسن حسن الكابلي القندهاري، الذي كان يشجع الناس على التمرد، وتأييد حركة الدستور.

حدث في تلك الآونة أن فرضت السلطات العثمانية ضرائب على الإيرانيين المقيمين بكربلاء، وأتت الفرصة سانحة للقنصل البريطاني أن يجمع حوله وحول الدعوة إلى الدستور المتضررين من هذا القرار، فشجّع على التمرد مع الإغراء بالمساعدة السخية والحماية، فتجمعوا قريبا من دار القنصلية البريطانية، الواقعة في محلة الخيمكاه أو المخيم، وهم في حالة الالتجاء على الطريقة الإيرانية، ففرشوا البسط على الطريق، وعلقوا خياما على الجدران ليستظلوا بها من وهج الشمس، واستمروا على ذلك أكثر من خمسين يوما يأكلون وينامون بمكانهم، لا يتحولون عنه حتى سدّوا الطريق على المارة.

كان متصرف أو حاكم كربلاء يومذاك رشيد بك الزهاوي، وقد حاول إقناعهم بالتفرق دون جدوى، ثم وسّط بعض رجال الدين، فلم يأبهوا لهم. وقد بعث الميرزا حسين خليلي والسيد كاظم اليزدي إليهم من النجف رسلا ينصحونهم، فلم يستمع أحد منهم للنصح.

وبعد محاولات عديدة يائسة وجهت الحومة لهم ثلاثة إنذارات متعاقبة، كان الأول منها لمدة أسبوع، والثاني لمدة ٢٤ ساعة، والثالث لمدة ٦ ساعات. وقد حلت نهاية الإنذار الثالث في منتصف ليلة القدر من شهر رمضان ١٣٢٤هـ الموافق ١٠ نوفمبر ١٩٠٦م، فأحاط الجنود بالملتجئين، ووجهوا عليهم رصاص بنادقهم من كل ناحية. إنَّ الملتجئين لم يكونوا يتصورون أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، وقال قائل منهم : لا تخافوا إنه ليس رصاصا حقيقيا، غير أنهم صاروا يتساقطون صرعى على الأرض، فأسرعوا يستغيثون بالقنصلية يدقون بابها لتسمح لهم بالدخول فلم يجدوا غوثا.

ما حدث بكربلاء هو عين ما حدث بطهران، مع تلبية مطالب الملتجئين، لكن كربلاء كعادتها لا ترحم، قتل المعتصمون ولم تلبَّ مطالبهم. وتحول مركز المدينة إلى ساحة تبادل للخطب الملتهبة بين الفريقين، فقد وفد إليها خطيب من طهران ذو لباقة ومستبد، هو السيد أكبر شاه، ليقابل خطيبا مشروطيا متفوها، هو الشيخ جواد. جاء الأول من طهران وسكن كربلاء، وهو من مشاهير الوعّاظ الذين يحسنون الهيمنة على شعور العوام.

بدأ منذ ذلك الحين نزاع شديد بين الرجلين من على المنابر، وانقسم أهل كربلاء إلى فريقين، كل فريق التزم واعظا، وصار يكفر بعضهم بعضا، وكان قتل الحسين (ع) من المواضيع التي اتخذها الفريقان مستندا لهما في الجدل. فأنصار المشروطة يعتقدون أن الحسين (ع) إنما قتل بسيف الاستبداد، وأنه لو كان نظام المشروطية سائدا في زمانه لاختاره المسلمون خليفة عليهم بدلا من يزيد. أما أنصار الاستبداد فرأيهم أن المشروطة تعني الشورى، وأن الشورى هي التي أدّت إلى ضياع الخلافة من أهل البيت (ع)، ووصولها إلى رجل مثل يزيد !!.

كانت جريدة "الرقيب" البغدادية تنشر على الملأ ما يحدث في مجالس الوعظ والخطابة بكربلاء، فما أن قال واعظ المشروطة الشيخ جواد: إن النبي (ص) أمر بالعدل والمساواة، وإن الحسين (ع) قتله الاستبداد، حتى قام مستبد من بين الجمهور يرد ثالبا الواعظ. واحترازا من الأذى أخذ الشيخ جواد يعتلي المنبر محاطا بالأتباع.

وبما أن السلطة العثمانية في ذلك الوقت تحولت إلى المشروطة بعد إعلان الدستور في يوليو ١٩٠٨م، لذا تدخلت ضد أصحاب المستبدة، أمرت السيد أكبر شاه أن يغادر كربلاء إلى الكاظمية. لكن جريدة الرقيب ظلت

يلاحقه قائلة: هل أن ذلك سيرفع الضرر الناتج عن خطبه المثيرة الداعية الى مبادئ الاستبداد والظلم.

ومن المواجهات الخطيرة بين الفريقين، وما كاد يشعل الحرب بين النجفيين، وداخل المرقد العلوي، حسب ما وردت في كتاب سيرة السيد اليزدي، أنّ الدستوريين الإيرانيين أرادوا موقفا قويا من مرجعية النجف ضد الدخول الروسي إلى قزوين (١٩١١م)، وبالتالي القضاء على الحياة البرلمانية، لذا أبرقوا إلى السيد إسماعيل الصدر وهو من علماء الكاظمية يطلبون منه محاولة الصلح بين قطبي المشروطة والمستبدة بالنجف. وإثر هذا التحرك أرسل الآخوند ملا كاظم الخراساني الشيخ محمود النجفي الى اليزدي مع رسالة الصدر وبرقية رئيس المجلس، طالبا منه اقتراح ما يراه مناسبا، وأنه سيكون طوع أمره. وكانت هذه بادرة غير مسبوقة من جانب زعيم الحوزة. لكن اليزدي الذي علم بالأمر من أوساط الآخوند اعتذر عن مقابلة النجفي بحجة المرض.

وكرّر النجفي زيارة بيت اليزدي أملا في أن يؤذن له بالمقابلة، فلم يحصل على ما أراد. وفي الأسبوع التالي قام شيخ العراقيين الخراساني والصدر والميرزا محمد تقي الشيرازي (ت ١٩٢٠م) بمحاولة ثانية مع اليزدي، لكنه كرّر الاعتذار. فقرر العلماء تنظيم اجتماع شعبي في حرم الإمام علي (ع) لعرض الموقف، ففوجئوا باليزدي يتقدم نحو الصلاة كالمعتاد، فحاول الصدر محادثته، كما حاول رجل آخر قادم من إيران الاستغاثة به واسترحامه، وانكبّ على قدميه يقبلهما راجيا منه أن يوحد موقفه مع بقية العلماء، إلا أنه أعرض عنه. وفي هذه الأثناء بدأ بعض أتباع اليزدي يرفعون أصواتهم قائلين إن ثمة مؤامرة لقتل السيد، فاشتبك الناس مع بعضهم، وضرب كثيرون، بينما انسحب اليزدي إلى إحدى الغرف في صحن الحرم، ولم تهدأ الأمور إلا بعد تدخل الشرطة، التي فرّقت الناس بالقوة.

قد يُفهم من موقف اليزدي في عدم إدانته للروس أنه قائم على تأييد الروس للمستبدة، ولا يعني دحرهم سوى انتصار المشروطة. سبق أن قرأنا عن تهديد المشروطيين للسيد اليزدي، وإن كان عن طريق أحد العوام، لكن المؤيدين للمشروطة يعدون ذلك فعلا طائشا صدر من أحد العوام، بينما لا يبررون فعل العوام المؤيدين للمستبدة، ويحسبونه على المستبدين كافة.

يقول السيد محسن الأمين العاملي إنّ عامة أهل العراق وسوادهم مع اليزدي، خصوصا من لهم فوائد من بلاد إيران، لظنهم أن المشروطة تقطعها، وجرت بسبب ذلك فتن وأمور يطول شرحها وليس لنا إلا أن نحمل كلا منهما على المحمل الحسن والاختلاف في اجتهاد الرأي. إلا أن هبة الدين الشهرستاني برّر للسيد اليزدي مساهمة الدستوريين في شحن الأجواء والمشاعر ضده، وأنه كان في بدايته مؤيدا للمشروطة. قال : " كان

في أول الأمر مع الجماعة ومن المؤيدين، غير أن الذين تبنوا الفكرة لم يشعروا، ولم يلمسوا منه صدق العمل بالاستمرار، فقد كوّنوا بأسلوب غير مباشر جوا معكرا ضده، أدى بالأخير إلى تشويش الأذهان نحوه وجفاه الناس".

كذلك أشار السيد محمد مهدي الموسوي الكاظمي (ت ١٩٣٩م) : " ذهب أبالسة المشروطة إلى حجة الإسلام السيد محمد كاظم اليزدي عليه الرضوان ليخلوه في حزبهم العاطل، كما أغفلوا جماعة من معاصريه، ولكن سيدنا المعظم استعلم سرا عن أحوال الحزب المشروطي من أهالي بعض المدن الإيرانية، ممن يثق بقولهم، فلما كتبوا له حقيقة الأمر لم يدخل في الحزب، وقعد في داره خائفا يترقب، وقد أرادوا قتله. لكن رؤساء أعراب النجف وهم أهل الغيرة والحمية والديانة والفتوة حفوا به، وطافوا حول داره كطوافهم حول الكعبة المشرفة، فلم ير العدو الفرصة في قتله".

ومن يوميات الصراع بين الفريقين على ساحة النجف بالذات، خلال سنوات عديدة، والتي بدأت حامية سنة ١٩٠٦م قال شاهد عيان ومشارك في الحدث، وهو الشيخ محمد حرز الدين (١٨٥٦-١٩٤٥م) وواضح من روايته أنه كان من أصحاب المستبدة:" حدثت زوابع سيلية عظيمة، منها الصراع بين المشروطة والمستبدة على قلب الحكم القائم في إيران إلى الحكم الدستوري، وما استتبعها من الحوادث في العراق وإيران، وولايات آل عثمان، بل والأقطار الإسلامية جمعاء، من جرّاء سياسة الإنجليز، وطمعهم في البلاد الإسلامية والعربية لثرواتها. وقام المأجورون بسجن وقتل جملة من العلماء والسادات والأعيان والأمراء والخطباء".

" وحدث أيضا حرب بين أهل النجف ونواحيه مع من في البلد من الجند وأتباع السلطان، وكان مبدأ ذلك في النجف في الساعة غروبية (وقت الغروب) من ليلة السبت ٦رجب ١٣٣٣هـ حتى ليلة الاثنين منه، فاستسلمت المراكز ونهبت جميع ما فيها. حتى أني دخلت معاقل الجند في النجف والنار تستعر فيها، والمدافع تلعب بها الصبيان. أقول: وليس لهذه الحوادث دخل بوجود السيد (يقصد محمد كاظم اليزدي) بل من نتائج ما أحدثه المهاجرون وأبرمه الأنصار، وبعض أمراء المسلمين وقادتهم. وقد اتفق جلّ القوم ما سوى السيد اليزدي وأغلب العرب، وجملة من علماء الترك على ممانعة القوم، فلم يتسن لهم".

لقد تصاعدت لهجة التكفير بين الطرفين، وخصوصا من قبل فقهاء المستبدة ضد أهل المشروطة، لأن الدعوة إلى الدستور حسب المعترضين تعني إبعاد كتاب الله، والتقيد بما يكتبه ويقرّه البشر، وقد استلهم العوام تلك الأفكار وأخذوا يشيرون إلى الملا كاظم الخراساني بالكافر "ولا يكادون يسمعون

عن أحد العلماء أنه مشروطة حتى انفضوا عنه، ويلعنونه، ويتركون الصلاة خلفه".

واخذت العداوة تأخذ منحى الاعتداء المباشر على المصلين وعلماء الدين من قبل العوام، وذلك بتحريض بعضهم ضد البعض الآخر، فقد حصل أن سحبت سجادة الصلاة من تحت أحد العلماء بالصحن الكاظمي، لأنه رفض اعطاء توقيعه إلى أحد دعاة المشروطة، وكان شابا شديد الحماس، وقد حاول هذا الشاب أن يجمع التواقيع من العلماء والعوام في تأييد المشروطة في الكاظمية، فذهب هذا الشاب إلى أحد علمائها في الصحن الكاظمي يطلب منه توقيعه، ولما وجده يرفض إعطاء خاتمه للتوقيع سحب السجادة من تحته ومنعه من الصلاة، وقد حدثت في الكاظمية ضجة من جراء ذلك، وهبّ نفر من مغاوير المحلات فطاردوا الشاب ثم أمسكوا به في أحد الأزقة واعتدوا عليه اعتداءا منكرا. وحين علمت الحكومة بالأمر أرسلت قوة من الجنود لحماية الاستبداديين، فأدّى ذلك إلى انكماش دور أصحاب المشروطة في البلدة وتضاؤل نفوذهم، ظلّ الوضع كذلك فيها حتى يوم إعلان الدستور في البلاد العثمانية حين انقلب الوضع على عكسه.

من الأعمال التي تورط بها أنصار المشروطة عند انتصارهم أنهم شنقوا المجتهد الكبير الشيخ فضل الله النوري الذي كان يتزعم أنصار الاستبداد في عهد الشاه محمد علي، وكان شيخا وقورا كبير السن، وقد قام بشنقه على ملأ من الناس رجل أرمني اسمه بيرم كان مديرا للشرطة حينذاك، فأدّى ذلك إلى شيوع التذمر في أوساط الكثيرين من الناس. وانتهز الخصوم الفرصة فجعلوا شنق الشيخ بمثابة "قميص عثمان" وأقاموا له مجالس الفاتحة وحفلات التأبين في كل مكان، وأخذا يبالغون في تمجيد الشيخ بغية التشهير بالمشروطة وأنصارها. ولم يقتصر ذلك على إيران بل سرت عدواه إلى العراق، فأخذ خصوم المشروطة فيه يكثرون من إقامة مجالس الفاتحة على روح الشيخ وينادون :" أويلاه، قتل شيخنا مظلوما".

يقول علي الوردي معلقا حول هذه الحادثة المؤلمة:" إنَّ الكثير من رجال الدين مازالوا حتى الآن يحملون أسوأ الأثر عن المشروطة، ويلعنونها لعنا وبيلا. التقيت بأحد هؤلاء منذ عهد قريب، وهو السيد محمد مهدي الموسوي الأصفهاني الكاظمي، فسألته عن رأيه في المشروطة، ولم يكد يسمع سؤالي حتى انبرى يذمها ذما قبيحا ووصفها بأنها "خراب الدين". ثم قال: إنها هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه من ضياع! ولهذا الرجل كتاب عنوانه "أحسن الوديعة في تراجم مشاهير مجتهدي الشيعة" وقد تطرق في كتابه إلى ذكر المشروطة عند ترجمته للشيخ فضل الله النوري، فهو يقول:" وكان رحمه الله من كبار العلماء المجتهدين، وأجلاء الفقهاء المحدثين، والأدباء البارعين، والنبلاء الجامعين، ولدين الله من الناصرين. وقد صلبه أشرار الفرقة المعروفة بالمشروطة، والمتولي لصلبه بأمرهم رجل من الأرامنة

يُدعى ببيرم، في طهران بملأ من الناس، ولم يتكلم أحد أبدا، من دون جرم وتقصير لسبب ليس محل ذكره هنا. وقد قتلت هذه الفئة المعروفة جمعا كثيرا من أعاظم علمائنا، وكان غرضهم من ذلك محو الدين كي تكون لهم الحرية التامة، فيفعل كل منهم ما يشاء، ويحكم ما يريد من دون معارض لهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) إذ مع نفوذ العلماء ما كانوا يقدرون أن يبثوا آراءهم الباطلة، وينشروا عقائدهم الفاسدة في البلاد الإسلامية، ولكن للبيت رب يحميه، وللدين صاحب يقيه".

نجد مبالغة وعصبية وانفعالا يبديه السيد مهدي الموسوي الكاظمي، أحد مؤيدي المستبدة المتأخرين، وهو يتحدث عن أشرار المشروطة بالنجف، مع أنهم هناك كانوا أضعف من أن يسعوا إلى قتل السيد محمد كاظم اليزدي، والذي بفتوى منه يتحرك العوام ولا يبقون ولا يذرون. بينما كان أصحاب المشروطة يتخذون من السراديب أوكارا لاجتماعاتهم خشية من عيون المستبدين، هذا ما شهده الشهرستاني :" كنا نجتمع بتدبير الأعمال ورسم الخطط بصورة سرية في سراديب النجف خشية العوام وحاشية السيد اليزدي".

يروي علي الوردي حديثا سمعه من أحد كبار السن، من الذين شهدوا المعارك بين المشروطة والمستبدة. أنه لما توفي الآخوند الخراساني (١٩١١م) كان تكفيره وشتمه جاريا على الألسن، وأنه لما شاهد مجالس العزاء المقامة بوفاة الخراساني في النجف سأل المحيطين به :" كيف يجوز للناس أن يقيموا المآتم للكافر أي الخراساني ؟". !!

معارك الشعراء:

دخل الشعراء حلبة الصراع بقوة، وكان المتنورون منهم مع المشروطة، كما تقدمت الإشارة. مثل الشاعر والأديب علي الشرقي (١٨٩٢-١٩٦٤م)، وكان يومها في ذروة الشباب، وحصل أن أنشدت قصيدة للشاعر في مجلس عزاء شيخ المشروطيين ملا كاظم الخراساني، وصادف أن دخل السيد محمد كاظم اليزدي معزيا بوفاة خصمه اللدود، وكان الناشد قد وصل في القصيدة إلى شطر البيت "أصغ أيها الناعي بجنبك شامت". لكنه عندما شاهد اليزدي داخلا سكت عن إنشاد البيت، وكان المجلس قد غصّ بأئمة الأدب، وأعلام الفكر النيّر، ومن بينهم الشيخ عبد الحسين الجواهري (من أسرة صاحب موسوعة الجواهر الشيخ محمد حسن، ووالد الشاعر محمد مهدي الجواهري، توفي ١٩١٦م) فقام وخاطب الراوي، وقال: أعد : أصغ أيها الناعي بجنبك شامت! وأومأ بيده إلى الإمام اليزدي.

لم يستمر هذا الحماس في حياة الشيخ علي الشرقي، مع استمرار إجلاله للميرزا محمد حسين النائيني كمرجع ديني وظاهرة فكرية لأحد أقطاب

المشروطية. هذا ما دلّت عليه كلمته "وردة من حديقة الإمام النائيني" في رثاء الميرزا، التي نشرها في جريدة "البلاد" البغدادية عام ١٩٣٦م. واللافت للنظر أن الشرقي عزل النائيني تماما عن رسالته "تنبيه الأمة" وعن إسهامه في الحركة آنذاك، حتى اعتبر مفكرها إلى جانب الآخوند الخراساني فقيها.

وإذا كان الشرقي آنذاك في عقده الثاني، أي كانت فورة الشباب تغمره، فقد كان مال بعض الشيوخ الكبار من الشعراء النزول إلى هذا المستوى في خلافاتهم وخصوماتهم، مثلما فعل الشيخ عبد الحسين الجواهري. خصوصا مع وجود أتباع من الخواص والعوام يحيطون باليزدي في ذهابه وإيابه، وكانوا معه كالحلقة في مجلس العزاء المذكور، وكان المجلس عامرا بهم، وكادت القصيدة أن تقلب مأتم العزاء إلى ساحة معركة!!.

ولا أظن أن علي الشرقي وقد تعدى فورة الشباب تلك ينزع إلى فريق دون آخر، بعد قوله:

لقد ظللت طريقي ... من اختلاف الطرائق

حقيقة الأمر غابت ... من اضطراب الحقائق

ولكنا عند الرجوع لديوان الشاعر المحقق نجد اختلافا في نص البيتين، فقد وردا هكذا مع بيتين آخرين:

يا رب حار دليلي ... ما بين حاد وسائق

إلى المغارب نادى ... هذا وذا للمشارق

حقيقة الأمر غابت ... من اشتباك الحقائق

على افتقاد الطريق ... دلّ اختلاف الطرائق

وتنبيك قصائد أخر بتجاوز أخلاقي، لا يصلح إلا بين الغوغاء. قال السيد مهدي البغدادي (ت١٩١١م) هاجيا زعيم المستبدة السيد اليزدي وجماعته:

وكم من قائل صف مستبدا

فقلت وكيف وصف المستبد

إذا تدعوه حرا فهو نائي

ويرضى أن يُقال أخس عبد

فقل للمستبد وراك فاعبد

فأنت أحق في موت ولحد

فلست أرى حياتك في البرايا

سوى كلب تردى ثوب قرد

فلو أنصفت نفسك كنت تدري

بأنك كافر بالله عندي

أتأبى العدل في الدنيا وترضى

بحكم الجور فينا والتعدّي

وأنشد السيد محمد الخلخالي (ت ١٩١٢م) هاجيا فريق الاستبداد:

قلت لما بدا العذار بخديه إلى أين أيها المستبد

قال غاز بجيش مشروطة الحسن بجيش كالنمل ليس يُعدّ

روى علي الوردي حديثا سمعه شخصيا من عبد الحميد زاهد الكتبي النجفي " أنه كان في تلك الأيام صبيا يلعب مع أقرانه في الأزقة، فكان الصبيان أثناء اللعب يقسمون أنفسهم إلى فريقين: مستبد ومشروطي، ثم تنشب المعارك بينهم تقليدا لما يقع بين الكبار". وينقل الوردي عن السيد محسن الأمين الأبيات التالية:

تغيرت الدنيا وأصبح شرها

يروح بإفراط ويغدو بتفريط

الى أيـــن يمضـــي مـــن يـــروم ســـلامة

ومـــا النـــاس إلا مســـتبد ومشـــروطي

وشغل الصراع وقت الشعراء، وتحولت قصائدهم إلى نقائض، يؤلف منها ديوان من الشعر. وما حصل بمدينة الكاظمية شمال بغداد، أن نظم المشروطي السيد محمد مهدي الصدر بيتين من الشعر في ذم فريق المستبدة. جاء فيها:

ـتبدون قـــد تـــاهوا بغـــيهمُ لم يجعـل الله في أبصـارهم نـورا

ـان يمكـــنهم أن ينســـخوا نســـخوا مـــن الكتـاب عنـادا آيـة الشـورى

فردّ عليه الشيخ عبد الحسين الأسدي بالقول :

المســـــتبدون قـــــد تـــــاهوا بغـــــيهمُ

بـــــذاك قـــــد قـــــال قـــــوم وافـــــتروا زورا

ـــــم وبكـــــم فهـــــم لا يعقلـــــون كمـــــا

لم يجعـــــل الله في أبصـــــارهم نـــــورا

لـــــو كـــــان يمكـــــنهم أن ينســـــخوا نســـــخوا

مـــــا كـــــان في لوحـــــه المحفـــــوظ مســـــطورا

مـــــالوا لشـــــورى الأولى قـــــد حرفـــــوا علنـــــا

مـــــن الكتـــــاب عنـــــادا آيـــــة الشـــــورى

وبالمقابل ساند الشيخ الشاعر عبد الحسين الحويزي (ولد ١٨٧٠م) حركة المشروطة، وأيّد فكرة الخراساني حول الديمقراطية، ومدحه وهجا خصومه، وفي مقدمتهم الإمام اليزدي، وفريق الاستبداديين، وقال مادحا:

بـدا الحــق صــبحا بعــدما كــان غاربــا　　　وضــوء محيــا العــدل جلّــى الغياهبــا

نهاية المعركة:

ضعف أتباع المشروطة بعد وفاة زعيمهم ودرعهم وملاذهم الذي يستندون عليه الملا كاظم الخراساني (١٩١١م)، قال هبة الدين الشهرستاني مقيما نشاط حركته إثر وفاة الملا :" استمرت الحركة من عام ١٣٢٤هـ إلى عام ١٣٢٩هـ (١٩٠٦-١٩١١م) حيث توفي الإمام الخراساني، وفي خلال ذلك اجتمعت الكلمة من قبل رجال الدين، غير أن المفاجآت التي داهمتنا أوجدت تفككا في الصفوف، وأني أستغرب هذه الأسباب والأساليب التي تتولد في كل يوم، غير أني كنت أعلل ذلك بأمور هي أن السلطتين الإيرانية والعثمانية أخذتا تتجاوبا تجاوبا سريعا، لأنهما على طريقة واحدة في الحكم، ألا وهي الاستبدادية المقيتة".

هناك من العلماء من أيّد المشروطية ثم تراجع عنها، ليكون خصما لدودا لها، وحسب ما تقدم أن زعيم المستبدة اليزدي كان في بداية أمره مؤيدا للدستور، ويرى علي الخاقاني (ت ١٩٧٩م) أن سبب تراجع جمهرة من المشروطيين وانتقالهم إلى المستبدة هو وفاة ملا كاظم الخراساني، والحال سنراه أيضا في تشتت جمع المستبدة بعد وفاة السيد محمد كاظم اليزدي.

ومنهم الشيخ جواد الشبيبي (١٩٤٤م)، والد الشيخين الأديبين المعروفين محمد باقر (ت ١٩٦٠م)، ومحمد رضا (ت ١٩٦٥م)، والشيخ الشاعر عبد الحسين الحلي (ت ١٩٥٥م)، وكان الرعيل الذي انضم إلى موكب الخراساني من خيرة المثقفين في ذلك العصر، ومنه صاحبه الشيخ جواد الشبيبي. ولكن عندما قسا القدر بفقدان أبي الأحرار من صفحة الوجود، انخرط من بينهم إلى جانب الاستبداديين نتيجة حديث ناجاه به بعض المبرزين من أعضاء حلقة الإمام اليزدي.

علي شريعتي

ولد علي محمد تقي شريعتي في عام ١٩٣٣ في قرية (مزينان) القريبة من مدينة مشهد في محافظة خراسان. ينحدر الدكتور علي شريعتي من أسرة متعلمة فقد كان أبوه مفسرا للقرآن وكاتبا معروفا ومؤسسا لمركز علمي يسمى (مركز نشر الحقائق الإسلامية). في عام ١٩٥٥ التحق علي شريعتي بكلية الآداب جامعة مشهد وتخرج منها بدرجة امتياز عام ١٩٥٨م. أرسل في بعثة دراسية إلى فرنسا عام ١٩٥٩ م حيث درس الأديان وعلم الاجتماع وحصل على شهادتي دكتوراه؛ الأولى في تاريخ الإسلام والثانية في علم الاجتماع. تزوج علي شريعتي أثناء دراسته الجامعية في مشهد من زميلته (بوران شريعتي رضوي) ١٩٥٦م.

يعد علي شريعتي من أبرز رواد الحركة الإسلامية الإيرانية وفي مقدمة مفكريها وقد لعبت جهوده وأفكاره دورا كبيرا في التعبئة الفكرية والسياسية التي سبقت الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ م إلى حد أنه كان يلقب في أوساط الشعب (معلم الثورة). انخرط شريعتي منذ أن كان صغيرا في العمل السياسي حيث انضم هو ووالده في نهاية الأربعينات إلى حركة كانت تظم جماعة من المثقفين الإيرانيين المتأثرين بالأفكار اليسارية التي كانت تجد صدى واسعا في ذلك الحين وهي الحركة (الاشتراكيون الذين يخشون الله) وكذلك انظم هو ووالده إلى تيار مصدق الذي كان يعرف بالحركة الوطنية عام ١٩٥٤م، وكان وقتها طالبا في المرحلة الثانوية. واستمر نشاطه السياسي حتى أصبح عضوا في حركة المقاومة الوطنية التي أسسها آية الله الزنجاني وآية الله الطالقاني ومهدي بازركان وكان ممثلا لهذه الحركة في خارج إيران أبان دراسته في باريس.

كانت نقطه التحول في مسيرة شريعتي هي حسينية الإرشاد التي افتتحت عام ١٩٦٩م لكي تكون مركزا علميا حيث ركز فيها شريعتي كل نشاطه فالقى محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع مصححا من خلالها المفاهيم السائدة. وأسس فيها خمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة، لجنة تاريخ الإسلام ولجنة تفسير القرآن، ولجنة للأدب والفن ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعي، ولجنة للغة الإنكليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها.

"في عام ١٩٦٩م تأسست في العاصمة طهران حسينية الإرشاد، لتغدو بعد حين مركزا لانطلاقة شريعتي الحقيقية في إيران والعالم الإسلامي، بما غرسه هناك من معارف جريئة استطاعت أن تأخذ فضاءها الأوسع في الحركة الإصلاحية الإسلامية. في تلك الحقبة قام شريعتي من منبر حسينية الإرشاد بإلقاء محاضرات منتظمة في الأبعاد الثلاثة التي تتمحور لها محاضراته، العلاقة مع الأنا "التراث" مع الآخر "الغرب وأطروحاته" ومع الواقع الجديد، منطلقا من الإسلام ومدرسة التشيع، محاولا ترسيخ الآيديولوجيا الإسلامية من الجذور بتصحيح مفاهيم عدّة كانت سائدة، تفرضها سلطتها التاريخية.

التف حوله الشباب هناك، فأنشأ جيلا مميزا من الشباب، أولئك الذين أضحوا بعد ذلك من أبرز صانعي الثورة الإيرانية والقائمين بها، إضافة لذلك أسّس شريعتي في حسينية الإرشاد خمس لجان ناشطة في مجالات: تاريخ الإسلام، تفسير القرآن، الأدب والفن، واللغة والأدب العربي، واللغة الإنكليزية. كما نظم مسرحية عن ثورة (سربداران) التي حدثت في إيران خلال القرن الثامن الهجري، بعد أن وظفها توظيفا في إطار أفكاره. يعرض بها مسارات الدين المتحجر والمفاهيم المزوّرة ومسألة الإصلاح والبحث عن إسلام العدالة والثورة.

لمع نجم شريعتي بسرعة فائقة، فكان يربو عدد المستمعين لمحاضراته في بعض الأحيان إلى ٦ آلاف شخص، وينقل أن المشاهدين لمسرحيته (مرّة أخرى أبو ذر) بلغوا ما يقارب الأربعين ألف شخص. كانت محاضرات شريعتي تطبع كراريس وتسجل أشرطة وتوزع بكميات لم يسبق تدوينها (يقول بعضهم إن عددها وصل الملايين) في كافة مدن إيران وأطرافها. ومن هنا كان يحمد الله تعالى أن السلطة منعته من الجامعة الرسمية فجعل الله تعالى له إيران بل العالم الإسلامي بكامله جامعة له" (علي شريعتي وتجديد التفكير الديني، عبد الرزاق الجبران، دار الأمير،ط١/٢٠٠٢م، ص١٠٤).
عانى شريعتي خلال مسيرته هذه من السجن مرات عديدة فقد سجن عام ١٩٥٨ م لمدة ستة أشهر بسبب القمع الذي تعرضت له الحركة الوطنية. واعتقل عام ١٩٦٥م في منطقة بازرتجان على الحدود التركية الإيرانية لدى عودته من أوربا وأفرج عنه بعد عام واحد، وبعد قرار السلطات إغلاق حسينية الإرشاد عام ١٩٧٣ م اختفى علي شريعتي وتوارى عن الأنظار لكنه سرعان ما سلم نفسه إلى السلطات بغية إنقاذ والده المعتقل. وبقي هذه المرة في السجن ما يقارب ١٨ شهرا ثم أطلق سراحه بعد أن تدخل من أجله المسئولون الجزائريون أثناء زيارة الشاه إلى الجزائر عام ١٩٧٥م.

الشخصيات التي تأثر بها شريعتي:

ان أول من تأثر به الدكتور شريعتي كان والده الذي يعتبر معلمه الأول حيث تلقى بعض أفكاره وراح يطورها وينضجها لاسيما أفكاره الإصلاحية حيث قام بتأسيس مركز الحقائق الإسلامية وقام بنشاط واسع في تنقيه اصول التشيع مما علق بها عبر القرون من الدخيل والخرافة. ومن الذين تأثر بهم شريعتي الدكتور مصدق الذي يمثل الوطنية الإيرانية بأبهى صورها . حيث قاد حملة كبيرة لتأميم النفط الإيراني ولدت له صراعا مع شاه إيران. ومن شدة إعجاب شريعتي به انضم إلى تياره عام ١٩٥٤م وكان في حينها طالبا في المرحلة الثانوية. ومن الذين تأثر بهم شريعتي كذلك الإمام الخميني حيث يذكر في أحد مؤلفاته أنه يفتخر بأنه مقلد للخميني وانه لا يمكن أن يتخذ مرجعا غيره.

وفاته:

بعد اعتقال دام أكثر من ثمانية عشر شهرا أفرج عن علي شريعتي عام ١٩٧٥م لكنه وضع تحت المراقبة ومنع من القيام بأي نشاط وأستمر هذا الحال إلى أن سمحت له السلطات بالسفر فرحل إلى لندن عام ١٩٧٧م وبعد شهر من إقامته هناك عثر عليه ميتا في شقته ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية. وكان ذلك عند الثامنة صباحا من يوم ١٣٥٦/٣/٢٩هـش (١٩٧٧/٦/١٩م) الموافق ١رجب ١٣٩٧هـ وجد الدكتور شريعتي ملقيا على ظهره عند عتبة باب بيته. وبعد أن نقل إلى المستشفى وعاينه الطبيب تبين أنَّ سبب الوفاة كانت: سكتة قلبية، انسداد شرايين القلب، وعدم وصول الدم إلى القلب. وكان أحد أطبّاء المستشفى قد أرسل شهادة وفاته نتيجة هذه العلة إلى المجمع العلمي. ولكن وقع التشكيك في مصداقية هذا التقرير الذي تمّ تحريره دون تشريح الجثمان، الأمر الذي جعل (السافاك) الإيراني ضمن دائرة الاتهام، وجعل الطلاب الإيرانيين المقيمين في الخارج يطالبون بتشريح الجثمان الذي سارع رجال الأمن إلى محاولة نقله إلى إيران، ولكنّ نقله السريع إلى سورية من قبل مريدي شريعتي فوّت الفرصة، ولهذا يعتقد البعض أنّه قتل على أيدي السافاك الإيراني. وقد تمّ نقل جثمان الدكتور شريعتي إلى دمشق حيث دفن في جوار السيدة زينب (ع) بعد أن صلى عليه السيد موسى الصدر.

تكفيره والتحذير منه ومن كتبه:

في الوقت الذي كان يخطب فيه الدكتور علي شريعتي (١٩٣٣-١٩٧٧م) في حسينية الإرشاد بمدينة طهران ويلتف حوله الآلاف يستمعون له بانجذاب

وإصغاء وبكثير من الاهتمام والتركيز ، ويستحوذ فيه على طبقة كبيرة من المثقفين والجامعيين من الإناث والذكور، ويرون فيه النبع الصافي الذي ينهلون منه تعاليم الإسلام، ومعرفة الدين بنقاء، وتاريخ الإسلام ببصيرة في الوقت ذاته كانت الأصوات المحذرة منه ومن فكره تنطلق بقوة من الحوزات الدينية، ومن رجال الدين، وتصدر الفتاوى في كتبه، وتحكم عليه بالضلال والزيغ والانحراف عن خط التشيع الأصيل، والإسلام المستنير. بل تذهب إلى أبعد من هذا كله، فهو في نظرهم كافر وناصبي وسني ووهابي وضال ومضل ومبتدع، وكتبه كتب ضلال وشراؤها وبيعها وقراءتها واقتناؤها والاحتفاظ بها كلها أعمال محرمة ويأثم من يقوم بذلك !!.

" لقد كان من قبيل الاكتشاف عند مترجم هذا الكتاب أن يعلم ثمة فجوة كانت موجودة بين شريعتي وبين الهيئة الدينية قبل الثورة، وأن هذه الفجوة ألقت بظلالها على العلاقة بين الهيئة الدينية وبين فكر شريعتي بعد الثورة، مع أن شريعتي لم يكن موجودا بشخصه آنذاك.

لقد بدأ الخلاف حول نقاط تثير الضحك أكثر مما تثير الخلاف، وهي من قبيل أن يقف إلى منصة ولا يقف على منبر، ويتحدث عن الدين في قاعات محاضرات لا في تكايا أو مساجد، ويجلس على كرسي لا على سجادة، ويشرب الماء أثناء إلقاء محاضراته الدينية (وفي الحسينية التي تنتسب إلى الحسين (ع) الذي استشهد في كربلاء ظمآنا، وحتى طفله الصغير استشهد ظمآنا) كما وُجِّه إليه النقد بأنه يسخر من بعض كتب الأدعية التي يقول عنها بعض رجال الدين: إن من قرأها كُتِبَ له ثواب سبعين شهيدا من شهداء بدر !!.

كما أنه يكتب بلا حياء على غلاف واحد من كتبه: "مسؤولية أن تكون شيعيا" وكأن التشيع تهمة أو جريمة. وهو عندما زار مصر أدار ظهره لمساجد الأئمة الأطهار واتجه إلى الأهرام، وهي مقابر الفراعنة، وإلى مقابر الذين ماتوا في السخرة عند بناء الأهرام وأخذ يبكي. كما أنه يسمي رجال الدين الموجودين بالشيعة الصفوية، ويعتبر نفسه شيعيا مختلفا وعلويا، وهو يخاطب الناس بقوله: أخي .. أخي، بدلا من أيها المؤمن. وهو عندما يتحدث عن العقد التي تكونت لديه من الحضارة التي أقامها قومه يخاطب عبيد فرعون بأنه واحد منهم، لكنهم ذهبوا، بينما بقي هو يعاني من ثلاثي السلطة: الفرعون وقارون وبلعم بن باعوراء (الحاكم والرأسمالي ورجل الدين المتصل بالسلطة والعامل عندها).

وترتفع نغمة هجوم رجال الدين على شريعتي: أنه رجل ضعيف الإيمان، إيمانه بالولاية ضعيف، لقد أخذوه إلى فرنسا وأدخلوه مدرسة لتعليم

اللغة والبلاغة فحسب، وضحكوا عليه ببعض الألقاب من أمثال الدكتور والمثقف ثم دسّوه لهدم التشيع والتحدث فيما لا يفهمه، وفيما يفهمه أهل هذا العلم فحسب.

كان هذا بعض ما ورد في كتاب "دفاع عن الإسلام والهيئة الدينية ضد علي شريعتي خطيب الإرشاد" الذي ألفه الشيخ محمد علي الأنصاري، وقد افتتحه بفصل كامل عن سيرة شريعتي وقصة حياته كما وصفها المشايخ بالطبع" (أبي أمي نحن متهمون، علي شريعتي، دار الأمير، ط١/٢٠٠٣م، مقدمة المترجم ص ١٠).

كان يستمع لكل هذه التهم ويتلقى السهام وهو يتألم ويتمزق من الداخل، ويشعر بالغربة في وطنه وبين أبناء مذهبه وعقيدته، والذين لا يستطيعون فهمه الفهم الصحيح، ولا يدركون رسالته واجتهاده الفكري المستقل. وكان متهما ومطاردا من الداخل من بني قومه ومذهبه، وكذلك كان متهما ومطاردا من الخارج، ممن يخالفونه الفكر والمذهب والعقيدة !!. تلقى هجوما مزدوجا وصارما لا يتوقف من تيارين متضادين، من العلماء المتحجرين ومن المثقفين المتغربين والملحدين، كليهما لم يكن راضيا عن طرحه وأفكاره ورؤاه، فكان يقف في الوسط بينهما يتلقى الصفعات والجراحات الواحدة تلو الأخرى حتى سقط شهيدا في غربته، وفي بلد منفاه، وإلى اليوم والهجوم عليه لم يقف. بجانب هذا لا ننسى مراقبة السلطة الشاهنشاهية له ولتحركاته والتضييق عليه وأسره، وعمل كل ما فيه الحد من نشاطه وثوريته.

"طرحه العلمي وجرأته ومقولاته اللاذعة اصطدمت بمعارضة فئة رجال الدين، إلا بعض علماء الدين الواعين وعدد من طلبة العلوم الذين مالوا إلى هذا النهج الجديد، فشنوا على شريعتي حملات تشهير ظالمة، فكفر واتهم بالبهائية والزندقة وو، ونشروا ضده كتبا عديدة، واتهم فيها بالخروج عن الدين، والغريب أنه بينما اتهم بالخروج عن المذهب، اتهم أيضا في مؤتمر علماء المسلمين في مكة بأنه من غلاة الشيعة" (علي شريعتي وتجديد التفكير الديني، عبد الرزاق الجبران، دار الأمير،ط١/٢٠٠٢م، ص١٠٥).

يقول علي شريعتي حول ما جاء في المؤتمر الإسلامي من اتهامه بالغلو : " في العام الماضي ذهبت إلى مكة للحديث في مؤتمر إسلامي دولي، وسلمت متن بحثي، فردّوه إليّ قائلين: " هذا غلو في التشيع "، والمتشيع المغالي أي المتطرف هو الشيعي الذي يفرط في شأن علي، وعندما قالوا لي : إنني من غلاة ومن "عبّاد علي" في المملكة العربية السعودية منعوني من المشاركة في المؤتمر الإسلامي، فحمدت الله أن ساقني إلى طريق أتهم به في إيران بأني من أهل السنة، وفي السعودية بأنني من غلاة الشيعة، على كل حال إن لم يكن

طريقي صحيحا فهو على الأقل أقرب إلى الحقيقة من طريق أولئك الذين اعتادوا على الأكل سواء من الخرج أو من المزود. هو الطريق الذي أعلم أنني سأجاهد فيه طوال حياتي، وسوف أضحي بحياتي في سبيله لا كـ "صنم مفكرين" في ذلك الجناح لأصبح شيئا أو لأحصل على شيء، ولا كوجه ديني ومذهبي، إنني أفقد الاثنين كليهما، ولا أريد من هذا الفقدان المزدوج أن أظفر بشيء، الشيء الذي أريده!" (أبي أمي نحن متهمون، علي شريعتي، دار الأمير، ط١/٢٠٠٣م، مقدمة المترجم ص٥٦).

وفي كتابه " العودة إلى الذات" يبسط الأمر بشيء أكثر تفصيلا وألما، ويبين مدى تلقي الأطراف المضادة لكتبه وفكره، ومن ثم تكفيره والعمل على إقصائه ومحاربته. يقول :

" عندما يُطرح "كلام جديد" في المجتمع أو إنسان جديد فإن هذين النمطين المصطنعين لن يستطيعا التعرف عليه أو تحديد قيمته الحقيقية سلبا أو إيجابا أو نسبية. فذلك الذي بقراءة "صرف مير" حطم مائة قفل وجنزير، ودرس جامع عباس للشيخ بهائي، ويستطيع أن يصرف "اشترتن" في كل صيغها كالماء الجاري ودرس العلوم الدينية وجاوز السطح والقشور، وطوى المعقول والمنقول، لا يحتاج إلى قراءة هذا الكتاب أو رؤية هذا الإنسان، اللهم إلا من أجل أن يكتب عليه "رسالة ردية" لقد حكم عليه مسبقا. أما الفئة الثانية فطبقا للمعايير التي يظنونها لا تتغير وعلمية جدلية مائة في المائة فسوف يدينون الكتاب من جلده، أو الرجل من على البعد، ويستخرجون جذوره الاجتماعية والتاريخية بإعجاز أسلوب الجدل ومبدئية الاقتصاد، ولن يدفعه شيء إلى بحث هذا الرأي أو الفكر الجديد اللهم إلا كتابة النقد.

لم ينظر أحد من أهل هذين القالبين إلى كتابي "معرفة الإسلام"، ومن جلده أصدروا الفتوى والحكم القاطع. فالأول بمجرد أن رآه قال: ماذا؟ هل يترك المرء بحار الأنوار للمجلسي، والكافي للكليني، وكحل البصر للمرحوم الحاج الشيخ عباس ثم يأتي ويقرأ السيد الدكتور فلان المتفرنج؟ والثاني بمجرد أن رآه قال: نعم، ديني، الدين أفيون الشعوب، الدين اخترعه الأغنياء فيما مضى حتى لا يصبح العمّال والفلاحون واعين، وحتى يتحملوا استغلالهم وسيطرتهم .. ليس فيه ما يُقرأ" (ط١/١٩٨٦م،الزهراء للإعلام العربي، ص٢٢٦).

ثم يشير إلى النوع الثالث من القراء، وهو المستقل، والقارئ الوسطي الذي يميز ما يقرأ، ويمتاز بالحرية الفكرية، وبعدم تسلط الآخرين عليه، أيا كان هذا الآخر، فهو يقرأ كتب شريعتي بكل حرية، ويقرأ الآخرين كذلك بالمستوى نفسه. ليس أسيرا لكتب القدامى من الفقهاء، والمتوارث من

الافكار والعقائد، وليس عبدا للأفكار المادية والإلحادية الوافدة من الغرب، والتي تخدع ألباب الشباب ببريقها ومصطلحاتها الخادعة، فهو يقرأ وينتقي ويميز.. يقول شريعتي : " هذا الثالث فحسب، هذا المفكر الذي ليس مخرفا ومغلقا إلى حد أن يقنع بالبحار وكحل البصر، وليس محدودا أو ساذجا أو متظاهرا بحيث يشبع بمصطلحات أربعة ومقالين مترجمين، إنه لم يتوقف في شكل ثابت قط، إنه لايزال يتحرك ويبحث ويفكر ويحلل، إنه هو الذي يتناول كتابي مثل أي كتاب آخر قد يكون ردا على كتابي ثم يفتحه، وهو الوحيد الذي يقرأ بعد القراءة والفهم، هو الوحيد الذي يحكم بنفسه ولا يستعير الأحكام الموضوعة والمصنوعة للاستعمال من المنتجين ذوي العلامات التجارية، هؤلاء هم الناس، ولا جدال أن الناس هم الذين يخاطبهم الفنان أو الكاتب أو الذي عنده ما يقال. لقد جربت، إنهم هؤلاء، وهم أذكياء وواعون وصادقون ومخلصون .. لهم حاسة شم حادّة ويميزون رائحة الإنسان من بين نتن الروائح العفنة الكثيرة، رأيت الفنانين الغربيين الذين لم يكونوا أبدا حلفاء أي قبيلة، وكان مجرد ذكر أسمائهم أو نشر خبر عنهم أو صور لهم أو إشارة إليهم وإلى أعمالهم من الأمور الممنوعة، كانوا شخصيات تهرب إلى المجتمع، يتكتم ما حولهم في كل مكان دائما، وفي مقابل هذا فإن الأقنعة كانوا دائما وأبدا فوق صواري الأعلام، لكن هؤلاء الناس كانوا يفهمون بالرائحة بتلك الحاسة الخاصة التي تعلم القريب والحس الفطري لتمييز الخطر ومعرفة العدو وهو ما أسميه بالإشراق الاجتماعي، إنهم يجدون من يقف إلى جانبهم" (المصدر السابق، ص ٢٢٦).

وربما الأسباب كثيرة هي التي دعت رجال الدين بأن يحكموا عليه وعلى كتبه بالزيغ والضلال، ولكن أهمها أمران، الأول أنه رجل اجتماع، ودارس في جامعات أوروبا وليس متخصصا في علوم الدين والشريعة والدراسات الإسلامية، فكيف خوّل لنفسه الحديث وبثقة في الإسلام وتاريخه وأحكامه ورجاله وكل ما يتعلق به من مسائل دقيقة ؟! والأمر الثاني ما يجده العلماء في كتبه الكثيرة ومحاضراته العديدة من عبارات ومصطلحات صادمة للفكر الشيعي وللعقيدة الشيعية. من هنا ثارت الضجة حوله، وانطلقت سهام التسقيط والتجريح، والحكم عليه بالضلال والبعد عن الدين.

والذي يجب أن يعرفه القارئ هنا أن من حسن حظ الدكتور علي شريعتي أنه وجد أصوات كثيرة تدافع عنه وعن فكره وتوجهاته من قبل رجال الدين، ومن أسماء لها ثقلها في الفكر الديني المعاصر، مما يعني أنه ليس هناك إجماع أو شبه إجماع حول تكفيره والحكم عليه بسوء الطوية وبالزيغ والضلال، وإنما الرجل صادق التوجه، ويحمل الإخلاص في دعوته وفكره الديني، ولكنه وقع في مجموعة من الشبهات والأخطاء، مثله كمثل أي

مفكر حر، ومثل أي عالم يكتب ويحاضر ويوجه بغزارة في الفكر الديني الواسع بجميع تخصصاته وتفرعاته، من تفسير وعقيدة وتاريخ واجتماع وسياسة. وهكذا كان أمر الدكتور علي شريعتي، وهناك الكثيرون ممن يحملون هذه النظرة اتجاهه واتجاه فكره وكتاباته. بل آن هناك فريقا وإن كان قليلا من العلماء يعد شريعتي خبيرا في الإسلام وأستاذا في العقيدة ومصلحا عظيما، مثله مثل جمال الدين وإقبال وغيرهما من المصلحين الدينيين.

"ويبدو أن هناك ٣ مواقف في المؤسسة الدينية بشأن الدكتور علي شريعتي، وبعبارة أخرى تنقسم المؤسسة الدينية بشأن الدكتور شريعتي إلى ٣ أقسام:

١. علماء الدين الذين يخالفون شريعتي بشكل مطلق، ويرون في كتبه مصداقا واضحا للكتب الضالة المضلة والباطلة. ويذهبون إلى حرمة قراءتها وبيعها وشرائها. ومنهم من يرى كفر شريعتي، ومنهم من يذهب إلى كونه سنيا أو وهابيا، ومنهم من يذهب إلى كونه ناصبيا، ومنهم من يراه مسلما شيعيا ضالا، وهذا ما تمثله غالبية العلماء التقليديين من غير الثوريين، وهم المتقوقعون في نطاق الحوزات العلمية، والذين لم يتعرفوا على الأفكار الجديدة والمعاصرة.

٢. العلماء الذين يحسنون الظن بالدكتور علي شريعتي، ويرون فيه مسلما شيعيا حسن الطوية، وكان قصده الخدمة، وقد حقق بعض النجاحات، إلا أنه في الوقت نفسه ارتكب بعض الأخطاء الكبيرة، حيث يرون أنه قدّم آراء جديدة عن الإسلام، وتوصل إلى بعض الفوائد المهمة والقيّمة، وتحدّث ببعض الأمور التربوية، إلا أنه لم يكن أستاذا في العقيدة، ولا ينبغي عدّهُ مصدرا يُرجع إليه في أخذ رأي الإسلام، فلابد من تعلم الإسلام من خلال الحوزات العلمية، وهذا الرأي تمثله الغالبية من العلماء الشباب الثوريين الذين لم يتقوقعوا على الحوزة فقط.

٣. عدد قليل من العلماء الذين لا يرون الدكتور شريعتي مسلما شيعيا حسن الطوية فحسب، بل يرونه (أستاذا في العقيدة) و (خبيرا في الإسلام) و (مصلحا)، ويرون فيه امتدادا لنهج السيد جمال الدين الأسد آبادي، وإقبال اللاهوري. وبطبيعة الحال لا تراه هذه الفئة معصوما من الخطأ، ولكنها ترى رؤيته للإسلام هي الأصح والأكثر جامعية. إلا أنّ هذه المجموعة من القلة والندرة بحيث لا يمكن عدّها تيارا مرموقا في الحوزة العلمية" (مجلة نصوص معاصرة، السنة الرابعة، ع: ١٣-١٤، شتاء وربيع ٢٠٠٨م، ص ٨٦).

وفي هذا الصدد يبين لنا الكاتب والباحث أحمد عبد الله أبوزيد العاملي وضع شريعتي في أوج شهرته ونفوذه في إيران، وبشيء من التفصيل، وموقف

العلماء اتجاهه بتصنيفهم إلى فريقين وليس ثلاثة كما ذكرنا أعلاه، وذلك في كتابه "محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق". يقول:

وضع الدكتور علي شريعتي في إيران

في هذه الفترة كانت أفكار الدكتور علي شريعتي قد أصبحت نافذة في المجتمع الإيراني وخاصة الشباب. ويبدو أنّ من أبرز الشعارات التي كان يرفعها (إسلام منهاى روحانيت) أي (الإسلام ناقص المؤسسة الدينية) وقد تفاوت موقف العلماء تجاهه وتجاه أفكاره، حيث انقسموا إلى فريقين:

١. **الفريق الأول:** مثّله جمع من العلماء، من قبيل السيد عبد الله الشيرازي والسيد الخوئي والسيد شهاب الدين المرعشي النجفي، وذلك من خلال الاستفتاءات التي نترجمها في ما يلي:

أ. ما حرّره السيد عبد الله الشيرازي لاحقا بتاريخ ١٧جمادى الأولى ١٣٩٨هـ في جوابه عن سؤال وجّهه إليه أصحاب شركات النشر، يستوضحون فيه الموقف الشرعي حول نشر كتابات شريعتي، وقد أجاب بما يلي:

"بسمه تعالى شأنه

حيث إنّ كتب المشار إليه تشتمل على مطالب توجب الانحراف، فإن شراءها وبيعها لا يخلوان عن إشكال شرعي. ولا مانع من مطالعة هذه الكتب بالنسبة إلى ذوي العقائد الثابتة والقوية والمأمونة من التزلزل، ومن لديهم اطلاع على المسائل الدينية والعقائدية بالحد الكلي. أما أصحاب العقائد الدينية والمذهبية غير الثابتة والقابلة للتزلزل، فلا يجوز لهم ذلك، ويجب عليهم اجتناب كتبه، والله المسدد. الشيرازي ١٧جمادى الأولى ١٣٩٨هـ".

ب. كما وجّهوا سؤالا إلى السيد الخوئي عدّدوا له فيه ثمانية آراء لشريعتي، وقد أجاب عنه بما ترجمته:

"بسمه تعالى

انّ المطالب المذكورة باطلة، وكل كتاب يشتمل على أمور من هذا القبيل مما يوجب الضلال لا يجوز شراؤه وبيعه وحفظه، والله العالم.
الخوئي ٢٣رجب٩٨".

ج. ووجّه حوالي خمسة آلاف موقّع سؤالا إلى السيد المرعشي النجفي عدّدوا له فيه مجموعة من مؤلفات شريعتي الصادرة عن حسينية (الإرشاد)،

وذكروا له أنه ينفي ختم النبوة وشخصية الأئمة (ع) ويستهزئ بالمقدسات الدينية، وسألوه عن حكم المشاركة في الحسينية، وقد أجابهم بما ترجمته:

" بسمه تعالى

إنَّ الكتب المذكورة من كتب الضلال، ولا يجوز مطالعتها والرجوع إليها. نسأل المولى أن يحفظ الشباب من شر الوسواس ومن الشبهات الواهية والأقلام المضرة والكتب المسمومة، بمحمد وآله الطاهرين. شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي".

٢. **الفريق الثاني:** وهو الفريق الذي كان مقبولا في الساحة الإيرانية على مستوى الشباب، ولم يؤمن بالدخول في صراع عنيف مع شريعتي، حيث رأى أن الطريقة المثلى هي مجابهة أفكاره ونقدها بروح علمية. ويقف على رأس هؤلاء الشهيد الشيخ مرتضى المطهري والسيد محمد حسين الطباطبائي. جإضافة إلى السيد الخميني الذي اختلف موقفه عن موقف العلماء المصعدين، وإن كان من نمط فكري مباين لشريعتي:

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي في رسالة له إلى الشهيد المطهري ما ترجمته:

" بسمه تعالى

إنّ رأيي الذي أبديه يتعلق بعدم صحة المطالب الواردة لا بشيء آخر.... إنّ كثيرا من كتاباته لا تنسجم مع مباني وأصول المعارف الإسلامية ... وفي الوقت نفسه فإنها رائجة بين مختلف الطبقات رواجا كبيرا، ولهذا ينبغي التركيز على عدم تلقيها جميعا على نحو الصحة، وعلى ذوي الأهلية أن يقوموا بنقدها العلمي وبالمنطق ... تجدر الإشارة إلى أن على من يريد نقد هذه الكتابات ... أولا: أن لا يكتفي بقول (غير صحيح)، بل عليه أن يدخل إلى البحث بروح الاستدلال، وثانيا: أن يراعي الآداب الإسلامية الداعية إلى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وأن يتجنب إهانة الأشخاصِ أو الإساءة إليهم، ثم إنَّ من يتحلى بالمنطق لا يلجأ إلى سلاح غيره... إنَّ الإسلام - بلحاظ المعارف التي يشتمل عليها- عبارة عن كل تام كامل، وعلينا أن نكون حذرين فلا ندّعي أن النسبة بين التعاليم الإسلامية والرؤية الغربية هي النسبة بين المادة والصورة. وأنا أعلن أني لا أجيز الاستناد إلى كلامي ووجهة نظري من أجل الإساءة إلى أحد" . (ط١/٢٠٠٧م،ج٣،ص٣٥٢،مؤسسة العارف للمطبوعات).

(١) فتاوى تكفر وتحذر من علي شريعتي وكتبه وفكره:

سننقل أولا مجموعة من الفتاوى التي جاءت حول علي شريعتي وكتبه من رجال الدين ومجموعة من الفقهاء، بعدها سننقل آراء بعض الفقهاء والمفكرين المدافعة عن فكره وشخصه، ومن ثم سنفصل القول في فكر شريعتي ومواطن الاختلاف في آرائه، والأفكار التي أثارت الرأي العام عليه، وجعلت الحوزات الدينية تناوئه وتحذر منه ومن فكره وكتبه.

(١) آية الله السيد محمد حسين الطباطبائي:

سماحة آية الله العلامة الحاج سيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله .. بعد السلام

باحترام واعتزاز نبلغ جنابكم السامي بأن قد أشيع أخيرا في طهران بأن سماحتكم- والعياذ بالله -قد أيدتم كتابات علي شريعتي، وأنكم قلتم: إنكم لم تجدوا فيها أدنى اعتراض، لذا يرجى أن تبذلوا عنايتكم وتكتبوا شيئا لايضاح الحقائق ونجاة عدة أفراد من الضلالة.

الجواب:
"بسمه تعالى ..إنني لم أؤمن أبدا بكتابات الدكتور شريعتي، ولم أقل مثل هذا الكلام لأحد، وغالب مطالبه تعد من الاشتباه، ولايمكن قبولها طبقا لمدارك الدين الإسلامي".محمد حسين الطباطبائي.

جواب آخر للعلامة الطباطبائي:

"بسمه تعالى .. السلام عليكم

ليست لدينا أي عداوة ذاتية مع الدكتور شريعتي، وكل ما في الأمر أننا نقرأ ضمن تأليفاته مطالب لا تقبل التوجيه طبقا للموازين الإسلامية، مثل قوله: الإنسان أهل الله، مع أن القرآن الكريم يقول صريحا: (الأنعام/١٠٠) ويقول:(الصافات/١٥٨)، وهذه عقيدة من عقائد عبدة الأوثان.ويقول أيضا إن الله والطبيعة والإنسان عبارة عن واحد حقيقي متوجه نحو الكمال، وفي كتابه "مولدي = الأرض القاحلة" ينكر المعاد، ويقول في وصف معراجه أن أساتذته المسيحيين قد أدخلوني الجنة وأنني كنت أطوف في الجنة ويدي في أيديهم، في حين أن القرآن الكريم وبشكل صريح يعتبر المسيحي كافرا، ويقول أن الكافر لن يدخل الجنة، وكذلك نظائر هذه الاشتباهات الكثيرة. والسلام عليكم".محمد حسين الطباطبائي.

(٢) آية الله شهاب الدين المرعشي النجفي:

بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المبارك لسماحة المستطاب حجة الإسلام والمسلمين آية الله العظمى الحاج السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دامت بركاته: انتشرت أخيرا كتب تحت عناوين "التشيع العلوي والتشيع الصفوي"، "مسؤولية التشيع"، "أبي أمي نحن متهمون" "معرفة الإسلام" بقلم علي شريعتي وبواسطة حسينية الإرشاد، ويبدو للمتأمل وجود مطالب كثيرة على خلاف المذهب الشيعي المقدس وحتى نفي خاتمية النبي الأكرم (ص)، ويوجد فيها أيضا الحط من شخصية الأئمة الأطهار والاستهزاء بالمقدسات الدينية. إننا الموقعين نرجو منكم بيان رأيكم في خصوص الكتب المذكورة وحكم المشاركة في المؤسسة السابقة لكي يتضح تكليفنا. من طرف ما يقرب من خمسة آلاف موقع.

الجواب:
"بسمه تعالى .. الكتب السالفة تعد من كتب الضلال ولايجوز مطالعتها والرجوع إليها، وأطلب من ساحة القدس الإلهي أن يحفظ الشباب من شر الوساوس والشبهات الواهية والأقلام المضرة والكتب المسمومة، بمحمد وآله الطاهرين. شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي.

(٣) آية الله السيد كاظم أخوان مرعشي:
بسمه تعالى شأنه .. المحضر المبارك آية الله العظمى الحاج سيد كاظم أخوان مرعشي دامت بركاته .. بعد السلام ، يرجى أن تذكروا رأيكم حول قراءة وشراء وبيع كتب علي شريعتي.
الجواب:
بسمه تعالى: بما أن كتب علي شريعتي لا تخلو من الانحراف وبعض مطالبها لا تتطابق مع أصول المذهب والدين الإسلامي المقدس فإن شراء وبيع مثل هذه الكتب حرام، ومطالعتها للأفراد الذين لا يملكون المعلومات الكافية غير جائز. أعاذنا الله من مضلات الفتن.

(٤) آية الله العظمى السيد تقي الطباطبائي القمي.
المحضر المبارك سماحة آية الله العظمى الحاج سيد تقي الطباطبائي القمي دام ظله العالي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أرجو التفضل بالإجابة على الأسئلة الثلاث التالية:
١. هل أن آراء الدكتور علي شريعتي مخالفة للإسلام أم لا؟
٢. هل أن آراؤه مخالفة للمذهب الحق مذهب أهل البيت (ع) أم لا؟
٣. هل شراء وبيع كتبه جائز من الناحية الشرعية أم لا؟
المرسل: خليل سكري وجمع من المؤمنين

الجواب:
بسمه تعالى:
١ انني لا أعرف الشخص المذكور ولم ألتق به مرة واحدة، وما هو معلوم لدي أن له موقعا خاصا عند طبقة الشباب، ولقد قرأت مجموعة من الكتابات المنسوبة إليه، وكانت في عدة موارد منها مباينة للموازين الدينية ومغايرة للقواعد العلمية. ففي الصفحة ٦٩ من كتاب "معرفة الإسلام" ادعى أن نبوة رسول الإسلام مؤقتة وأنكر دوام الرسالة، وإن حكم منكر الرسالة واضح في الإسلام. وفي الصفحة ٢٨ من كتاب "أبي وأمي نحن متهمون" ذكر فيما يتعلق بالصلاة والصوم وغيرهما أمورا لم يتفوه بها احد منذ زمن رسول الله (ص) وحتى يومنا هذا، وادعى أمرا على خلاف ضرورة الإسلام، وإن أضراب هذه المسائل كثيرة في كتبه.
٢ بالنسبة لي ليس هناك مجال للترديد والشبهة بأن هناك موارد متعددة في الكتب المنسوبة إليه تتضمن مطالب مغايرة بشكل تام مع مدرسة أهل البيت (ع)، وما ذكر في جواب السؤال السابق يكشف عن ذلك.
٣. إن هذا النوع من الكتابات والمؤلفات والذي تمت الإشارة إليه أعلاه تعد من كتب الضلال التي ذكر حكمها في الكتب الفقهية، ومن المؤكد أنه يجب الامتناع عن حفظها وبيعها وشرائها وقراءتها. وأوصيكم بالتقوى، ومن يتق ربه يجعل له مخرجا، ومن يتوكل عليه فهو حسبه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. الأحقر تقي الطباطبائي القمي ٢٧جمادى الثانية ١٣٩٩هـق".

(٥) آية الله الشيخ علي النمازي الشاهرودي:
بسمه تعالى شأنه .. المحضر المبارك سماحة العلامة الكبير آية الله الحاج الشيخ علي النمازي الشاهرودي دام ظله .. بعد السلام، يرجى منكم التفضل بابداء رأيكم المبارك في خصوص كتابات علي شريعتي .. جمع من المؤمنين.
الجواب:
المخدوم المكرم المعظم أدام الله توفيقاتكم
طلبتم مني أن أكتب وجهة نظري في خصوص كتابات الدكتور وأمثاله، وحيث أن المجال محدود والأحوال متشتتة فإنني أكتب لكم عدة سطور وارسلها لكم، وأعتذر كثيرا عن التأخير في الجواب ..بشكل عام يجب أن تؤخذ الأمور المنسوبة إلى الله والرسول (ص) عن طريق القرآن مع بيان العترة الطيبة الطاهرة الذين هم حملة علوم القرآن والمفسرون له، ولقد حدد نبي الإسلام (ص) وظيفة الأمة في الحديث المتواتر عند المسلمين والمعروف بحديث الثقلين، وبما أن القرآن الكريم لا يتفرق عن العترة إلى يوم القيامة فإنه يجب أن تؤخذ علوم ومعارف القرآن من العترة وورثة العترة الذين هم الحاملون والناقلون لعلوم ومعارف العترة، وهذه هي الطريقة المستقيمة الأنيقة. قال الإمام الباقر صلوات الله وسلامه عليه:

"كل ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل. وإن أكثر المطالب المذكورة في تلك الكتابات لم تؤخذ من القرآن وبيان العترة، بل إنه قد ثبت خلافها من القرآن والعترة، ومن ثم فإن فيها مطالب مضلة كثيرة، ويجب على طالبي علوم القرآن والعترة أن لا يتعدوا الوظيفة التي عينها لهم نبي الإسلام، وأن يتجنبوا حتما من هذه الكتابات والمؤلفات، وإن من يأخذون علومهم من الأساتذة غير المسلمين وغير الشيعة فإنه ليس لهم نصيب من معارف وعلوم القرآن والعترة، وإن تلامذة الكفار والفجار لن يكونوا مؤيدين لمروجي دين أحمد المختار ومطالب الأئمة الهداة الأبرار والأخيار والناقلين لآثارهم، لأن علوم الكفار والفجار على خلاف القرآن والعترة، ولايمكن للشخص الواحد أن يؤيد الضدين، ومن الطبيعي أن المؤيد والمروج لأحدهما سيكون في مقابل المؤيد والمروج للآخر. وبناء على ذلك فإن مثل هذه الكتابات والمؤلفات تحتوي على توهين المقام المقدس لفقهاء وعلماء الشيعة مثل الشيخ الكليني والعلامة المجلسي، لأن كتبهم على خلاف كلام أساتذة أولئك، وإن فقهاء وعلماء الشيعة منذ عهد أئمة الهدى (ع) وحتى الآن كانوا وبأمر من أئمة الحق مراجع للشيعة، وقد تلقوا علوم القرآن والعترة من أهل بيت العصمة والطهارة، وقاموا بتعليمها لبعضهم وضبطها ثم إيصالها إلينا، ولولا أتعابهم لرجع الناس عن الدين، وإن إهانتهم إهانة لله ورسوله .. والسلام على من اتبع الهدى. الأحقر علي النمازي الشاهرودي.
سلخ ذي الحجة الحرام ١٣٩٧هـ ق ".

(٦) آية الله السيد كرامة الله ملك الحسيني
المحضر المبارك آية الله المجاهد السيد ملك الحسيني دامت بركاته .. بعد السلام
يرجى منكم التفضل بإبداء رأيكم المبارك في خصوص شراء وبيع كتب علي شريعتي.
الجواب:
"بسمه تعالى .. بعد الحمد والصلاة، فإنه مما لاشبهة فيه أن كتب علي شريعتي من كتب الضلال وهي محرفة للعقائد الحقة للشيعة الإمامية، ولقد ألحقت أخطر ضربة نحو الأفكار الرفيعة والنورانية لمدرسة التشيع، وبناء على ذلك فإن نشر وتوزيع كتبه وبأي نحو كان غير مباح وغير مشروع". مدرسة الإمام أمير المؤمنين (ع)
ملك الحسيني ٥ / ٢ / ١٣٥٧ هـ ش الموافق ٢٥ / ٤ / ١٩٧٨م ".

(٧) آية الله السيد عبد الله الشيرازي:
المحضر المبارك سماحة آية الله العظمى الحاج السيد عبدالله الشيرازي دام ظله العالي
بعد السلام .. نود إخباركم بأنه قد وقع أخيرا اختلاف ما بين الشركاء في

دار نشر"الأم" حول طباعة ونشر كتابات علي شريعتي الذي نظن أنه معروف لديكم، لذا نرجو منكم لأجل رفع الاختلاف ومعرفة التكليف الشرعي أن تبينوا رأيكم الشريف المبارك لما يوجب ذلك من رفع الشبهة وذلك لأننا من مقلدي سماحتكم، أدام الله عزكم ودامت بركاتكم.

الجواب:

بسمه تعالى شأنه .. بما أن الكتب المشار إليها تتضمن مطالب مضلة ولذلك فإن شراءها وبيعها لا يخلو من الإشكال، وأما قراءتها فإنه لا مانع منها للأفراد الذين تكون عقائدهم الدينية ثابتة ومحكمة وغير قابلة للتزلزل والذين يكون اطلاعهم على الأمور الدينية والعقائدية بالحد الكلي، وأما بالنسبة للأفراد الذين ليست لهم أسس محكمة في العقائد الدينية والمذهبية وهي قابلة للتزلزل فإن قراءة تلك الكتب غير جائز لهم، ويجب عليهم اجتنابها، والله المسدد".

السيرازي .. مشهد المقدسة ١٧ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ ".

(٨) اية الله العظمى السيد علي الفاني الأصفهاني :

بسمه تعالى شأنه المحضر المبارك سماحة آية الله العظمى الحاج السيد علي العلامة الفاني الأصفهاني دام ظله العالي .. بعد السلام، نود أن تعلم سماحتكم بأنه قد انتشر الكلام أخيرا في طهران بأنكم - والعياذ بالله -قد ايدتم كتابات شريعتي، وهذا الأمر وإن كان واضحا عند المخلصين لكم، ولكن من جهة إيضاح الأمر إلى المتعلقين وسائر المؤمنين يرجى منكم التفضل بكتابة عدة كلمات مذيلة بختمكم الشريف.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم .. إن كتابات المذكور تشتمل على أباطيل متعددة، وإن قراءة وبيع وشراء كتبه حرام بالنسبة لمن ليس لديهم العلم والقدرة على تشخيص الغث من السمين".

٢٥ ذو القعدة ١٣٩٧هـ ق .. علي الحسيني الأصفهاني العلامة الفاني

(٩) اية الله العظمى السيد محمد صادق الحسيني الروحاني :

بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المحترم لسماحة المستطاب آية الله العظمى الحاج السيد محمد صادق الروحاني دامت بركاته انتشرت أخيرا بعض الكتب في طهران من قبل حسينية إرشاد، وهي مختصة بالدكتور علي شريعتي. وفي الصفحات ٧٧، ٧٩، ٩٦، ١٠٢، ٨٨، ٢٦، ١٢، ٢٣ من كتاب التشيع العلوي والتشيع الصفوي"، وفي الصفحة ٣٧١ من كتاب "خاتم الانبياء من الهجرة إلى الوفاة"، وفي الصفحة ١٨ من نشرة "مسؤولية الانتساب للتشيع" وفي الصفحات ٤٤٥، ٤٢٥، ٤٤٥، ٦٩، ٥٥١، ٤٤١ من كتاب معرفة الإسلام" نقرأ مطالب على خلاف مذهب التشيع المقدس وفيها جسارة على مقام علماء الشيعة. يرجى التفضل بإبداء وجهة نظركم

المبارك تجاه مطالب تلك الكتب التي ذكرنا نماذج منها أعلاه. ونظرا للكتب الأنفة فهل أن نشرها يندرج بما يخالف التشيع؟ وكذلك ما حكم المشاركة في جلسات محاضرات المؤسسة السالفة؟

نسأل الله سبحانه وتعالى سلامة سماحتكم. بتاريخ ٢٣ من شهر رمضان المبارك

الجواب:

"بسمه تعالى وإليه المشتكى، وإن الأرواح المقدسة للمعصومين تطلب العون!! إن الإصدارات الأخيرة من المؤسسة السالفة ومحاضرات الشخص المذكور قد بلغت هذه الأيام مرحلة خطيرة، ولقد أثارت غضب ونفور عموم المتدينين في جميع أنحاء البلاد، وللأسف فإنها تظهر نفسها باسم تطبيق الأحكام الواقعية للإسلام، وهي في الحقيقة المصداق الواقعي للبدعة في الدين وهي ضد المصالح العالية للإسلام والمسلمين. لم يكن بالحسبان والتصور في بلد بني أساسه على دين الإسلام الحنيف وخصوصا على الطريقة الجعفرية الاثني عشرية الحقة وفي بلد يعد مركزا للعلماء ونشر حقائق الإسلام ومع وجود الزعماء الواقعيين للإسلام والعلماء المتخصصين في علوم الشرع والدين ومراجع التقليد العظام أن يبلغ أمر محاربة التشيع والشيعة ومحاربة أهل بيت النبوة إلى درجة بحيث تتحدث مؤسسة بهذا الشكل السافر ضد مذهب التشيع ودين الإسلام المقدس وقوانينه السماوية وأن تنشر المطالب والمحاضرات المسمومة. وعلى كل حال فإنه وفقا للوضع الفعلي لهذه المؤسسة فإنني العبد الحقير أرى حرمة المشاركة في تلك المجالس، ويجب على علماء الدين ورجاله أن ينبهوا الناس وأن يجيبوا بأنفسهم على تلك الكتابات ببيان جميل وجذاب .. الأحقر محمد صادق الحسيني الروحاني".

(١٠) آية الله السيد أبو الحسن القزويني :

بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المبارك لسماحة المستطاب حجة الإسلام والمسلمين آية الله العظمى الحاج السيد أبو الحسن القزويني دامت بركاته. من المعلوم لدى سماحتكم أنه ومنذ عدة سنوات تنشر في حسينية كتب بقلم علي شريعتي، والظاهر منها أنها بشكل عام على خلاف المذهب الشيعي المقدس، وقسم منها أيضا على خلاف الإسلام وإنكار للخاتمية، ولذا أرسلنا مع العريضة الموقعة مجموعة من كتبه مثل "معرفة الإسلام"، "التشيع العلوي والتشيع الصفوي"، (أبي وأمي نحن متهمون"، "فاطمة هي فاطمة"، "مسؤولية التشيع"، "الشهادة"، يرجى بيان رأيكم في ذيل هذه الرسالة لتنوير أذهان العامة. من قبل ما يقرب من خمسة آلاف موقع على العريضة المرسلة.

الجواب:

"بسمه تعالى.. مع أنني أشكو من المرض مدة من الزمن وليست لي القدر

على القراءة الكاملة ولكن نظرا للمطالعة الإجمالية للكتب المذكورة فإنها لاتطابق مع مذهب التشيع، وإن إنكار الخاتمية يعد إنكارا لضروري دين الإسلام. أبو الحسن الحسيني القزويني".

(١١) اية الله العظمى السيد حسن الطباطبائي القمي :
بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المبارك لسماحة المستطاب حجة الإسلام والمسلمين آية الله العظمى الحاج السيد حسن الطباطبائي القمي دامت بركاته إننا الموقعين على العريضة المقدمة إلى جنابكم الأنور ونتجاوز الخمسة آلاف جامعي وموظف وتاجر وقعنا فيها على العريضة السالفة، ولقد أرسلنا معها كتبا بعنوان "معرفة الإسلام"، "التشيع العلوي والتشيع الصفوي"، "أبي وأمي نحن متهمون"، "مسؤولية التشيع"، ولقد اطلعنا على ما فيها ووجدنا فيها مطالب على خلاف الطريقة الجعفرية الحقة ومذهب التشيع المقدس، مضافا إلى الإهانة والجسارة الموجهة للمقامات المذهبية، ومن ثم رأينا أن نطلب من سماحتكم أن تطلعوا على الكتب الآنفة وأن تبينوا وجهة نظركم المحترمة لكي يتضح التكليف بالنسبة لنا نحن الموقعين على العريضة المقدمة وكذلك جميع الأخوة المؤمنين. وفي الختام نسأل الله سبحانه أن يكتب لكم الصحة والعافية.
الجواب:
بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد.. قرأت أقساما من بعض الكتب المذكورة ووجدتها على خلاف الواقع والحقيقة، بل ومخالفة لأساس مذهب التشيع الحق وموجبة للضلال. ويجب على عامة الناس أن يتجنبوا قراءة مثل هذه الإصدارات، والله الموفق للصواب، أعاذنا الله من الزلات والعثرات". ٢٨من شهر الصيام ١٣٩٢هـ ق .. القمي".

(١٢) اية الله العظمى السيد محمد هادي الميلاني:
بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المبارك سماحة آية الله العظمى السيد هادي الميلاني دام بقاء وجوده الشريف، بعد السلام والسؤال من الله تعالى أن يديم عزتكم وأن يطيل في العمر المبارك للزعيم الكبير الشأن .. أما بعد:
فانه فيما يخص الدكتور علي شريعتي، فقد أشيع أنه قد طرد من جانبكم، وأنكم قد حرمتم كتبه، ومن جملة الأشخاص الذين نقلوا ومن على المنبر قولكم بتحريم كتبه وأنها ليست حسينية الإرشاد بل يزيدية الإضلال هو الشيخ أحمد الكافي والدكتور روح اليزدي، وكذلك نقل الشيخ محمد حسن البياني الذي يعد من تلامذتكم ومن أصدقائي أيضا نقل عن لسانكم تحريم كتبه (من على المنبر). ولكن من جهة أخرى ينكر البعض هذا الأمر ويقولون إن هذا سوء استغلال لمقام سماحة آية الله الميلاني، ومن جملة الاشخاص الذين ينكرون ذلك فخر الدين الحجازي، حيث أنني عندما قلت له: لمَ تدافع عن الدكتور شريعتي مع أن سماحة آية الله الميلاني قد رفضه،

قال متعجبا: إن هذا من الكذب، وفضلا عن أنه لم تصدر مثل هذه الفتوى من سماحة آية الله الميلاني فإنه قد كتب الرسائل ولعدة مرات لأجل إطلاق سراحه من السجن، فهل أن أهل المنبر هم الصادقون أم غيرهم مثل السيد حجازي، وللأسف فإن هذا الاختلاف شديد في الأهواز، ولذا فإنني ونيابة عن "منتدى مركز التشيع" أرجو من سماحتكم أن تبينوا رأيكم المبارك حول الدكتور علي شريعتي لكي يكون حجة على المؤمنين، ويكون مؤثرا في رفع الاختلاف إن شاء الله تعالى.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ١٠جمادى الأولى ١٣٩٤هـ ق، ١٢خرداد ١٣٥٣ هـ ش الموافق ٢ / ٦ / ١٩٧٤م.

الجواب:
"بسمه تعالى شأنه .. السلام عليكم
لقد وصلتني الرسالة الشريفة المؤرخة بتاريخ ١٢ /٣ / ١٣٥٣، وإن ما نقله أهل المنبر بالنسبة للشخص المعهود صحيح، وأسأل الله تعالى أن يحفظ عموم الأخوة المؤمنين من الضلال وفتن آخر الزمان ببركات وجود الوجود المقدس لولي العصر أرواحنا فداه، وأن يهديهم ويثبتهم على الطريقة الحقة لأهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إن شاء الله تعالى.. ألتمسكم الدعاء". سيد محمد هادي الحسيني الميلاني

سؤال آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم .. المحضر المقدس آية الله العظمى سماحة السيد الميلاني دام ظله.
بعد السلام .. أسأل الله تعالى أن يديم عليكم السلامة. قبل مدة بعثت لكم رسالة وسألتكم فيها عن رأيكم المبارك حول الذهاب إلى حسينية الإرشاد ومطالعة منشوراته، فأرجو أن تبينوا رأيكم.
الداعي لكم: قاسم الدماوندي.

الجواب:
"بسمه تعالى شأنه .. السلام عليكم.
أسأل الله لكم الصحة والعافية لشخصكم الموقر. وصلتني الرسالة الصادرة من شخصكم الرفيع والمؤرخة في ٢٠ / ٥ / ١٣٥١ هـ ش (الموافق ١١ / ٨ / ١٩٧٢م). نعم يجب الامتناع عن الذهاب إلى ذلك المكان وقراءة الكتب المزبورة. والمرجو أن تكونوا موفقين ومؤيدين في أداء التكاليف الدينية والمذهبية، وأن تجتنبوا من الشبهات وفقا لأمر الإمام الصادق صلوات الله عليه، وأن لا تقرأوا الكتب الضالة (كلمة غير واضحة)، وألتمسكم الدعاء". سيد محمد هادي الحسيني الميلاني. ١٤رجب ١٣٩٢ هـ ق

(١٣) آية الله السيد الخوئي:

بسمه تعالى شأنه .. المحضر المبارك المرجع الكبير لشيعة العالم آية الله العظمى الخوئي دامت بركاته، بعد السلام

نرجى منكم التكرم بالنظر والإجابة عما يلي: لو أنه في بعض الكتب وردت العبارات التالية،

فما هو حكم شرائها وبيعها؟

١. إن رسول الله عندما يقول أنا خاتم الأنبياء لايريد أن يقول أنه كاف للإنسان وإلى الأبد.
٢. تعدد الزوجات هو نوع جناية في حق المرأة.
٣. العاملون في السياسة الإسلامية غير علي بن أبي طالب وأصحابه اجتمعوا في السقيفة بناء على آية لكي يبينوا ما يرتبط بالمصير.
٤. إن محمدا (ص) قد ترعرع في أحضان عبدة الأصنام، صحيح أن مؤرخي الإسلام يسعون إلى أن يطهروا حجر عبد المطلب وأبي طالب من الشرك، غير أن هذا ميل عام، حيث أن الإنسان يحب أن يكون بطله العزيز والمحترم من أسرة طاهرة وشريفة ومحترمة.
٥. قال النبي (ص): اهدأ أبا بكر، ثم قال: سدوا الأبواب المفتوحة على المسجد جميعا إلا باب منزل أبي بكر.
٦. إن الموسيقى من الفنون الإسلامية.
٧. إن النبي (ص) اتكأ على يد أبي بكر اليمنى وصلى.
٨. لم يكن للنبي في المدينة سوى (كلمة غير واضحة) وكان ذلك يهوديا.

نرجى أن تتفضلوا ببيان حكم شراء وبيع الإصدارات المتضمنة لهذه العقائد؟

الجواب:

بسمه تعالى:

المطالب المذكورة باطلة، وأي كتاب يشتمل على مثل هذه الأمور الموجبة للانحراف والضلال فإن بيعه وشراءه وحفظه غير جائز. والله العالم".

الخوئي ٢٣ رجب ١٣٩٨هـ ق.

ملاحظة:

مستند ومدرك الكلمات السابقة من كتب شريعتي ضمن الطبعة الفارسية:

١. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٦٩ السطر ١٠.
٢. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٥٠٨ من السطر ١٢ إلى ١٥.

٣. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٣٨ السطر٢٠.
٤. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٤٦٢ من السطر ١٣ فما بعد.
٥. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٤٣٦ من السطر ٢٠ فما بعد.
٦. ماذا يجب أن نفعل؟ الصفحة ١٢٤ من السطر ١٣ فما بعد.
٧. معرفة الإسلام طبعة طوس الصفحة ٤٤٥ السطر ١١.
٨. مسؤولية التشيع في الصفحة ٢١ السطر ١٩، وفي الطبعة الجديدة الصفحة ٢٧.

(١٤) آية الله الميرزا جواد التبريزي:
أ. ما حكم قراءة كتب علي شريعتي للشباب من وجهة نظركم؟
الجواب:
بسمه تعالى: كتبه مشتملة على مطالب غير صحيحة، ولا مجال لذكر تفصيلها، وارجعوا إلى الكتب التي تكون محلا للاطمئنان، واسعوا من أجل المطالعة أن تختاروا كتبا ترشدكم إلى جهة نيل الكمال الأخلاقي لكي تتمكنوا من صون الإيمان في أنفسكم مثل كتب المرحوم العلامة المجلسي والكتب التي ألفها أو لخصها المرحوم الشيخ عباس القمي وعموما ارجعوا إلى الكتب التي يكون هدفها تقوية الإيمان في قلوب المؤمنين، والله الموفق.
المصدر: كتاب نصايح حضرت آية الله العظمى الحاج ميرزا جواد التبريزي (بالفارسية) ص١٣.

ب. سؤال آخر:
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
يقوم بعض الناس بكتابة مجلة ونشرها بين يدي الشباب المؤمن، ولا تهدف هذه المجلة بيان الحق والدفاع عنه، وترويج الحق ورد الشبهات، وإنما هدفها ينحصر في طرح ما هو جديد ومخالف للمألوف والسائد، وعرض فكر الكتّاب الذين يحملون نَفسًا تجديديا مخالفا لما هو يطرح عادة من قبل علماء الدين ورجال الحوزة الدينية. وليس الغرض من ذلك بحسب ادعاء أصحاب المجلة حرف الشباب عن الحق وإبعادهم عن فكر ومنهج أهل البيت (ع)، وإنما هدفهم التواصل بين الشعوب ونقل المشاهد الثقافية لكي تتلاقح الأفكار، وتتسع الآفاق الفكرية والثقافية من خلال معرفة الفكر والفكر الآخر. إلا أن الملاحظ على هذه المجلة هو أنها تعرض الفكر الآخر والذي هو في الغالب نتاج شخصيات معروفة بالانحراف، والفكر المخالف، من دون أن تدفع ما فيه من شبهات قد تؤثر في انحراف الشباب وإبعادهم عن المنهج الإسلامي القويم، وهنا ننقل بعض ما جاء في هذه المجلة، وسوف ننقل لكم صورا من المجلة عبر الفاكس إن شاء الله:
بعض ما جاء في المجلة:

فقد جاء فيها إبراز بعض الشخصيات المنحرفة، وترويج أفكارها، والتي منها عدم وجوب الخمس في أرباح المكاسب، وضرورة قراءة العقائد قراءة تاريخية بحتة، وهذا الفكر حسب تعبير افتتاحية المجلة لدكتور جامعي اسمه السيد محمد حسين الطباطبائي، وقد يكون فكر أحمد الكاتب متأثرا به.
ومن الأفكار المعروضة أيضا بلا جواب ورد وتعليق أفكار الدكتور عبد الكريم سروش، والدكتور علي شريعتي، والشيخ محمد شبستري والذي حسب تعبير المجلة له آراء حقوقية جريئة فيما يتعلق بحقوق الإنسان والحريات الشخصية والعامة، فمنها قوله بضرورة التخلي عن ما يطلق عليه نظرية حقوق الإنسان في الإسلام، انطلاقا من ضرورة التعايش مع الإنجازات الإنسانية في العالم، كما أنه يقول بأن الإمام عليا عليه السلام لا يمكن اعتباره قدوة في تطبيق القضايا الحقوقية، لأن تصرفاته مرتبطة بظرفه المختلف عن ظرفنا. ونحن نرجو من سماحتكم التفضل ببيان الموقف المطلوب اتجاه هذه المجلة والقائمين عليها، ودمتم حصنا منيعا لمذهب الحق، وجعلكم الله محط عنايته الخاصة بحق محمد وآله الطاهرين.

الجواب:
بسم الله الرحمن الرحيم
لا يجوز نشر ما يشتمل على مثل هذه الأفكار والآراء المنحرفة التي قد تؤثر في نفوس بعض البسطاء من الناس، ولا يبرر ذلك أن يكون بهدف التواصل بين الشعوب ونقل المشاهد الثقافية، فإنه يتيسر ذلك ببث الأفكار الصحيحة لا الأفكار المنحرفة التي لا يبعد أن يكون بعضها مدعوما من قبل جهات استعمارية بهدف نزع الفكرة الدينية من نفوس المؤمنين خاصة الشباب منهم.

(١٥) الإمام الخميني:
هناك حديث أو جواب لسؤال وُجه لآية الله الخميني فهم منه البعض أن الإمام الخميني يقصد في جوابه وحديثه المستطرد الدكتور علي شريعتي لا غير، ولكنه لم يصرح بالاسم، وفي نص آخر نجد حديثا منسوبا للخميني عن طريق سفير إيران الأسبق في الكويت، وليس نصا من الإمام الخميني نفسه وتحديدا علي شريعتي بالاسم.

" المحضر المبارك سماحة آية الله العظمى السيد الخميني مد ظله العالي بعد تقديم الاحترام نود إعلامكم بأنه - وكما نمى إلى علمكم - تمت أخيرا حملات مسيئة إلى الدين الإسلامي المقدس وخصوصا الطريقة الحقة لمذهب التشيع التي تمثل روح الإسلام من قبل الشيوعيين وأتباع مدرسة ماركس والمنحرفين عن مقام ولاية أمير المؤمنين (ع) وأولاده العظماء المعصومين (ع) وتم فيها الهجوم على أحكام الدين الإسلامي المطهر وتوهين

المقام الرفيع للعلماء من نواحي عديدة، وللأسف فإن مجموعة من أولئك ينسبون أنفسهم إليك ويعدون أنفسهم من مؤيديك، نرجو أن تبينوا رأيكم المبارك في هذه الموضوعات ومثل أولئك الأفراد بشكل واضح لكي يرتفع أي نوع من أشكال اللبس وسوء الفهم.

الجواب:

لقد بينت مرارا رأيي في هذه الموضوعات قولا وكتابة، ومن غير المستبعد أن يكون هناك تجمع في إيران قد بدأ بالعمل في النشاطات المخالفة للإسلام والمذهب بأسماء وأساليب عمل جديدة، وهي جماعات سياسية قد وجدت على يد الأجانب لأجل تضعيف الإسلام ومذهب التشيع المقدس والمقام العظيم للعلماء. ومن أجل إبعاد الأمة عن مصالحها اليومية فإن هذه التجمعات تشترك في أمر واحد ألا وهو خيانة البلد الإسلامي وتحطيم المدافعين عنه، وذلك لأن أعداء الإسلام وناهبي الأمم الضعيفة يرون مصالحهم في خطر في ظل نفوذ العلماء الذين يعدون الحافظ الوحيد للقرآن الكريم وأحام الإسلام المنجية، فاضطروا ومن أجل حفظ مصالحهم الاستعمارية إلى إيجاد الأحزاب المنحرفة العميلة والجماعات المنتسبة للإسلام بحسب الظاهر وهي في الحقيقة تخالفه. إن الإسلام والمذهب الجعفري المقدس يعتبر سدا في مواجهة الأجانب وعملائهم، سواء اليمينيين منهم أو اليساريين، وإن العلماء الحافظين لهما يعدون سدا لايتمكن الأجانب بوجوده أن يتعاملوا كما يحلو لهم مع الدول الإسلامية وخاصة إيران، ولهذا شرعوا في التخطيط منذ قرون وبحيل متنوعة لأجل تحطيم هذا السد، أحيانا عن طريق تسليط عملائهم الخبثاء على البلدان الإسلامية، وأحيانا عن طريق إيجاد المذاهب الباطلة وترويج البابية والبهائية والوهابية، وأحيانا عن طريق الأحزاب المنحرفة. في هذا اليوم حيث منيت مدرسة ماركس بالفشل وظهر في الملأ خواؤها، فإن العملاء الأجانب الذين هم يخالفون مدرسته يقومون بترويجها في إيران!! وذلك من أجل تمزيق الوحدة الإسلامية وضرب القرآن الكريم وضرب العلماء في إيران التي تعد مهد تربية أهل بيت العصمة والطهارة، ومع إحياء هذه المدرسة العظيمة (مدرسة أهل البيت) فإن الأجانب الناهبين لن يصلوا إلى مآربهم غير الإنسانية. وسيجدون أنفسهم مضطرين لأن يضعفوا ويحطموا وبأي وسيلة ممكنة مذهب التشيع المقدس والعلماء الذين يحمون عنه، وإن أكذوبة انتساب بعض هؤلاء المنحرفين إلي من هذا القبيل. إنني أعلن وبشكل صريح إنني متنفر ومنزعج من هذه التجمعات الخائنة سواء الشيوعية أو الماركسية أو المنحرفين عن مذهب التشيع وعن مدرسة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم الصلاة والسلام وبأي اسم وصورة كانت، وأراها خائنة للبلد والإسلام والمذهب. ليعلم الأشرار والمغرضين إنهم لن يستطيعوا بهذه الأكاذيب والحيل أن يوجدوا الخلاف بين العلماء، ويجب

على المنتسبين للعلماء والدافعين عن الإسلام والمذهب أن يتبرؤوا من هذه التجمعات المفسدة ويدافعوا عن المقام الرفيع للعلماء ويحترزوا عن التفرق والاختلاف ويحبطوا حيل الأجانب. وإنني أطلب من العلماء الكبار أن ينظروا إلى طبقة الشباب بعين العطف والأبوة، وعلى الشباب أن يبذلوا جهدهم لحفظ مقام العلماء. وأخيرا أرى من الضروري تذكير الكتاب والمفكرين المحترمين بالامتناع التام عن الإقدام على تأويل وتفسير القرآن الكريم وأحكام الإسلام، وأطلب من جميع الفئات أيدهم الله تعالى أن يغلقوا الطريق بوحدة كلمتهم أمام أعداء الدين أعداء البشرية، وأسأل الله تعالى جلت عظمته أن يقطع جذور الأجانب وعملائهم الخبثاء عن البلدان الإسلامية وعن بلد أهل البيت، إنه ولي الأمر.

سلامي للعلماء الأجلاء وعلى جميع طبقات المؤمنين أيدهم الله تعالى.

شعبان ١٣٩٧ هـ ق روح الله الموسوي الخميني.

ملاحظة: السؤال الموجه إلى السيد الخميني (رض) وإن لم يتضمن ذكر اسم شريعتي ولكنه يتضمن بعض مواقف شريعتي المعروفة في هتك العلماء ونسبة نفسه إلى خط السيد الخميني وإنه من مؤيديه، وسنتحدث عن هذه المسألة في موضوع آخر إن شاء الله تعالى.

يقول السفير الإيراني الأسبق في الكويت علي جنتي:

بعد وفاة المرحوم شريعتي، وفي إحدى أسفاري إلى النجف الأشرف تشرفت بخدمة الإمام الخميني، وأشرت إلى الرسالة التي كان قد كتبها في وفاة المرحوم (١) شريعتي وقلت له: إن ذكركم لعبارة تركت آثارا سيئة بين الجامعيين في أوروبا وأمريكا، فقد كانوا يتوقعون أن يكون لكم تقدير أكثر لشريعتي. في هذه اللحظة غضب الإمام الخميني وقال: "هل أنا مثل هؤلاء المثقفين لكي أقول: شهادة، شهادة!! إن الشهادة لها شرائطها". التزمت الصمت ولم أجرؤ أن أضيف كلاما آخر.

ومن المناسب هنا أن أنقل خاطرة أخرى حول الدكتور شريعتي:

قام الشهيد محمد المنتظري بعد قدومه إلى النجف بتقديم مؤلفات وكتابات الدكتور شريعتي إلى الإمام الخميني، وكان الإمام الخميني يقرأ جميع مدوناته ومحاضراته، وعندما تشرف الشيخ محمد المنتظري بزيارة الإمام الخميني للمرة الثانية طلب منه وجهة نظره حول كتب شريعتي، فذكر الإمام الخميني شريعتي بمرارة وضيق، وأظهر ضيقه من انتقاد شريعتي في كتبه من المرحوم العلامة المجلسي وهجومه على العلماء، فقال المرحوم محمد منتظري: قلت للإمام الخميني: إن هؤلاء هم نفس العلماء الذين أدموا قلبك ولم يكونوا معك في النضال ضد نظام الشاه، بل وخطوا خطوات على خلاف طريقة النضال، فقال الإمام الخميني: "إن شريعتي قد تعرض لأصل العلماء". (٢). (١. تجدر الإشارة إلى أن السيد

الخميني قدس سره لم يقل في رسالته التي كتبها في وفاة شريعتي كلمة "المرحوم" فما جاء في كلام السفير الإيراني السابق من لفظ "المرحوم" هي وجهة نظره الخاصة، ٢. خاطرات علي جنتي "بالفارسية"، ص١٥٣، تدوين: سعيد فخر زاده - نشر: منشورات مركز وثائق الثورة الإسلامية -الطبعة الأولي - شتاء عام ٢٠٠٢م -طهران.)

وبعد مقتل شريعتي جاءت للإمام الخميني برقيات كثيرة تطالبه ببيان بهذه المناسبة المفجعة، وذلك من قبل الجاليات والطلاب الإيرانيين الدارسين في أوروبا وأمريكا، ومناطق مختلفة من العالم، فما كان من الإمام إلا أن أجابهم برقية وجهها للسيد إبراهيم يزدي، وذلك في شعبان عام ١٣٩٧هـ، وفي برقيته لم يذكر منقبة لشريعتي، ولم يشر لفضيلة من فضائله، بل لم يذكر حتى اسمه، وكانت كلمته مقتضبة وعامة، وغير محددة ولا موجهة لتأبين شريعتي، وهذا ما يفسر كلام السفير الإيراني والذي أوردنا نصه أعلاه، حين ذكر :

"بعد وفاة المرحوم شريعتي، وفي إحدى أسفاري إلى النجف الأشرف تشرفت بخدمة الإمام الخميني، وأشرت إلى الرسالة التي كان قد كتبها في وفاة المرحوم شريعتي وقلت له: إن ذكركم لعبارة تركت آثارا سيئة بين الجامعيين في أوروبا وأمريكا، فقد كانوا يتوقعون أن يكون لكم تقدير أكثر لشريعتي. في هذه اللحظة غضب الإمام الخميني وقال: "هل أنا مثل هؤلاء المثقفين لكي أقول: شهادة، شهادة!! إن الشهادة لها شرائطها". التزمت الصمت ولم أجرؤ أن أضيف كلاما آخر" . أما نص برقية الخميني التي بعثها بمناسبة اغتيال شريعتي فهذا نصها:

" باسمه تعالى

سعادة السيد الدكتور يزدي .. أيّده الله تعالى

بعد السلام والتحية .. وافتني برقيات عديدة من أوروبا وأمريكا من اتحاد الجمعيات الطلابية الإسلامية في أوروبا والجمعيات الطلابية في أميركا ومناطق مختلفة ومن بقية الأخوة المحترمين من الجاليات الإيرانية- أيدهم الله تعالى- بفقد الدكتور علي شريعتي. ولأن جواب الجميع غير متيسر وجواب أحد دون آخر غير صحيح أرجو منكم إبلاغ شكري إلى جميع الأخوة المحترمين- أيدهم الله تعالى.

عقدت أملي في أنفاس آخر العمر هذه على الطبقة الشابّة عامّة والطلبة خارج إيران وداخلها الحوزويين وغيرهم. والأمل أن يبيّن العلماء والمفكرون النيّرو الضمائر مزايا الدين الإسلامي المنقذ للعامّة الذي يكفل سعادة البشر الشاملة، ويهدي إلى سبل الخير في الدنيا والآخرة ويحفظ استقلال الشعوب وحرياتها، ويربّي النفوس، ويكمّل النقائص النفسية والروحية ويرشد الحياة الإنسانية.

ولنطمئنوا أن عَرضَ الإسلام كما هو وإصلاحَ الإبهامات والاعوجاجات والانحرافات التي نشأت بيد مريدي الشرّ سيجعل النفوس البشرية السوية التي لم تنحرف عن فطرة الله، ولم تغلبها الأغراض الباطلة والشهوات الحيوانية تقبل على الإسلام دفعة واحدة، وتغنم من بركات الإسلام وأنواره. إنني أبشّر الشبّان الأعزاء بالنصر والنجاة من أيدي أعداء الإنسانية وعملائهم.

وعلى الطبقة الشابّة البصيرة في الخارج والداخل أن يحكموا علاقاتهم، وينضووا تحت لواء الإسلام الذي هو لواء التوحيد الوحيد ليدافعوا عن حق الإنسانية والإنسان متناغمين متجاوبين حتى تنقطع أيدي الأجانب بإذن الله تعالى- عن البلاد الإسلامية. ويجب أن يحترزوا من العناصر العميلة للأجانب التي تسعى إلى التفرقة بين الجمعيات الإسلامية الطلابية، ويطردوها من صفوفهم (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) (آل عمران/ ١٠٣) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. روح الله الموسوي الخميني" (صحيفة الإمام، ج٣، ص: ٢٠١).

في الوقت الذي يؤبن الخميني شريعتي بهذه اللغة المقتضبة، وبهذه العاطفة الهادئة التي لا تليق بمقام شريعتي في نظر أنصاره ومحبيه، وهو المقتول غدرا وبعد صراع مرير، وجهاد مستميت من أجل الدين والشعب الإيراني والمطالبة بحقوقه وحرياته، وفي سبيل الإسلام، وفي الغربة على يد الشاه عدو الاثنين معا، وعدو الثورة الإسلامية نرى بعد عامين الإمام الخميني يؤبن العالم الباكستاني أبا الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩م) بلغة كلها تحسر على فراقه، وألم على رحيله، واندفاع في بيان مكانته وتبيان فضائله ودوره المهم في النهضة الإسلامية والصحوة في العالم الإسلامي. وهو الذي مات على فراشه وحتف أنفه. وقد نعاه الإمام الخميني مشيدا بمكانته وسمو أهدافه ومقاصده، ومما جاء في نعي الإمام:

لقد حُرمت الأمة الإسلامية من عالم ممتاز ومفكر كانت تفتخر به. إنَّ مولانا المودودي قدّم خدمات جلى للأهداف الإسلامية والمسلمين في شتى أنحاء العالم. إنه لم يكن قائدا دينيا عظيما للمسلمين في باكستان فحسب، بل كان قائدا للعالم الإسلامي كله، لقد أحيى الثورة الإسلامية في العالم الإسلامي، مما أدّى إلى اتساع الثورة الإسلامية في كل مكان، فكانت وفاته خسارة كبرى للعالم الإسلامي لا يمكن سدّها، فيجب استدامة السعي لتحقيق أهدافه الدينية، وعلى كل أنصار النهضة الإسلامية أن يواصلوا السير قدما لتنتصر هذه الأهداف" (مسيرة التقريب، د. محمد علي آدرشب،ط١/٢٠١٠م، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ج١،ص٣٤٤).

وأصدق القارئ القول بأني بحثت طويلا عن مصدر كلمة الإمام الخميني والتي قالها في حق المودودي في المصادر جميعها فلم أجد لها أثرا، حتى صحيفة النور وهي المعتمد في هذا، ليس فيها ذكر لهذا التأبين، مع ملاحظة أن الكاتب لم يأت بالمصدر لكلمة الخميني في حق المودودي، مما يجعل في النفس شيئا حيالها !!.

وفي السياق ذاته تذكر السيدة الدكتورة فاطمة طباطبائي زوجة السيد أحمد الخميني أن السيد الإمام كان يحرص على قراءة كتب علي شريعتي، ويؤتى له بالجديد منها إلى النجف ليطلع عليها، ويداوم على قراءة كتبه بجانب كتاب آخرين. تقول :" وقد جرت العادة أن يتم وضع عدد من الكتب المتنوعة والمؤلفة حديثا، والواصلة لمكتب سماحته من أنصاره وأعضاء الاتحاد الإسلامي الطلابي في أوروبا وأميركا، في الغرفة السفلية ليطالعها السيد الإمام طبق برنامج معين، وفي أوقات محددة مسبقا. وأتذكر عددا من عناوين الكتب التي رأيتها هناك، منها : "الفارسية سكر" للسيد جمال زادة، و"طلوع الانفجار"، و"أفضل الجهاد" (رسالة مفتوحة للشاه) للسيد علي أصغر حاج سيد وادي، ومؤلفات أخرى أعدّها عدد من الطلبة من أعضاء الاتحادات الإسلامية الطلابية، كذلك "تفسير سورة الأنفال" من إعداد منظمة مجاهدي الشعب (خلق)، فضلا عن مؤلفات الأستاذ جلال آل أحمد والدكتور علي شريعتي" (ذكرياتي،ط١/٢٠١٤،دار المؤرخ العربي، ص٤٨٦).

ولكن مع هذا نجد في مصدر آخر خلاف ذلك، وشهادة تناقض هذا كله، نفهم منها أنّ الخميني يقدر ويجل علي شريعتي، ولا ينظر له كما ينظر العلماء، بأنّه عدو للدين، وينطلق من أغراض غير دينية .. مما يؤكد بأنّ شخصية علي شريعتي كانت ومازالت من الشخصيات الإشكالية في الفكر الشيعي المعاصر .. هذه الشهادة ينقلها مباشرة عن الخميني السيّد محمود دعائي. يذكر التالي مما يتعلق بشهادة الخميني في شريعتي:

" كنت يوما عند الإمام فقال: لقد أرسلوا شخصا من طهران لهدف واحد هو أن يأتي إلى هنا ويتحدّث ضدّ الشيخ المطهري والسيّد الشريعتي - وكانا كلاهما يومذاك على قيد الحياة - ، أنا أعرف السيّد المطهري وأعرف كيف يفكر، جاؤوني بكتابه "قضية الحجاب"، ووضعوه على منضدتي وقالوا: إنّ هذا الكتاب قد جعل نساء جنوب طهران أيضا ينزعن الحجاب! في حين أنني قرأت هذا الكتاب، فهو لم يجعل جنوب طهران خالية من الحجاب، بل إنّه جعل الكثيرات من السافرات يقتربن من الحجاب الشرعي.

عندما جاؤوني بكتاب "معرفة الإسلام" للسيّد الشريعتي وقالوا: إنّه ضد المقدسات الإسلامية، لم أرغب أن أردّ عليهم، لذلك قلت لهم: إنّ هذا الكتاب ضخم، فحددوا لي المقاطع التي ترونها ضد المقدسات، فأشاروا إلي أحد المقاطع، فوجدته على غير ما يقولون، أجل من المحتمل أن يكون قد عبّر فيه عن ذوق خاص قد لا أرضاه أنا ولكن على أي حال ليس بالصورة التي يروجونها هم كمفكر معارض للإسلام يجب الوقوف بوجهه" (حكايات وعبر من حياة الشهيد مرتضى المطهري، حيدر بلال البرهاني،ط١/٢٠١٢م، دار الحوراء، بيروت، ص ١٨٤).

(١٦) مرتضى العسكري:

لعلّ أقسى هجوم لقيه علي شريعتي وحسينية الإرشاد هو الهجوم والتشويه والتسقيط الذي صدر من معاصره السيد مرتضى العسكري، والحملات النارية والبيانات التي كان يصدرها ويحرض من خلالها على شريعتي وحسينية الإرشاد هي الأعنف والأقوى، حتى ضجّ منها شريعتي نفسه، وبرم وضاق ذرعا ولم يعد يتحمل أو يستطيع الصبر عليها، وهو الذي اعتاد وألف الهجوم عليه وعلى الحسينية وكان لا يكترث أو يتأثر ويمر على الجميع مرور الكرام، أما العسكري وهجومه عليه فقد أشار إليه في محاضراته وكان يعد مرتضى العسكري نموذجا حيا وصارخا للتشيع الصفوي الذي يعنيه ويشير إليه في كتاباته. وقد أصدر مرتضى العسكري بالاشتراك مع بعض العلماء بيانا شديد اللهجة ضد شريعتي، متهما إياه بالتسنن والميل لمذهب الوهابية، والدفاع عن الخلفاء وتشويه التاريخ الإسلامي، والبعد عن العقيدة، والتشكيك بمبادئ المذهب الشيعي، والعمل على نشر المفاسد من قبيل الموسيقى والدعوة إلى اختلاط الرجال بالنساء، واللادينية.

وقد تكلم شريعتي بحرقة وألم حول ذلك البيان عندما قرأه، وراج في أوساط العلماء والمثقفين وطلبة الجامعات وطلبة العلوم الدينية، وانتشر في طهران وفي أغلب مدن إيران، ويبدو أن البيان أصاب شريعتي بمقتل، وجعله يصرخ من الألم ونزف جراح التحسر والشعور بالاضطهاد من بني جلدته ومذهبه وغربته في أوساطهم.

وكتب شريعتي كلاما طويلا معبرا عن ألمه وضيقه، ومن ثم يعرض ذلك البيان والهجوم عليه، وقد ارتأيت أن أنقله للقارئ ليطلع على مشاعر شريعتي إزاء موقف مرتضى العسكري منه ومن معه من العلماء. يقول:

" وسوف أورد هنا مثالا حسيا بسند صحيح وبخط واحد من أبرز الوجوه العلمائية المتخصصة في التشيع الصفوي وهو العلامة المحقق السيد مرتضى العسكري، وذلك بهدف اطلاع كل من يتلهف للحقيقة من طلاب مدرسة الإمام الصادق ويتعطش للارتواء من زلال التشيع العلوي من أبناء الطبقة المستنيرة المتعطشين للإيمان الحقيقي والباحثين عن سر الانحطاط

الذي أودى بفكر المجتمع وحضارته، وليتمكن هؤلاء من الفرز والتمييز الدقيق بين نوعين متضادين من التشيع، كل منهما يحمل وجها يختلف عن الآخر اختلافا جوهريا وله منطق خاص به يميزه عن الآخر بشكل واضح ومحدد.

والسبب في اختياري لهذه العينة بالذات لتكون مصداقا أوضح لمنطق التشيع الصفوي هو أن صاحبها يعتبر من أبرز الشخصيات العلمية والمتخصصة لهذه الفرقة، هذا أولا، وثانيا إنه شخصية معاصرة وبالتالي يعكس واقع علماء العصر الصفوي بلحاظ مدى التشابه والتطابق بين أوضاع المجتمع الإيراني المسلم هذه الأيام وأوضاع في أيام الصفويين، مما يعطي انطباعا حيا عن الدور الذي لعبه التشيع الصفوي وأقطابه، وذلك لمن يريد أن يبحث القضية تاريخيا واجتماعيا، وثالثا أن هذه العينة يدور الحديث فيها حول واحد من أهم أصول التشيع وهو إدانة الخلفاء الغاصبين لحق علي في خلافة النبي، ورابعا أن هذه المسألة مكتوبة بخط يد السيد العسكري مما يمنحها قيمة علمية من حيث السند.

وبغية توضيح خلفية هذا المبحث وتقييم الدور الاجتماعي الذي لعبه التشيع الصفوي في شق صف المسلمين أمام الخطر الأجنبي المشترك وموقف علماء التشيع الصفوي من قضية الوحدة والتضامن الإسلامي على الصعيد العالمي بإزاء الجبهة المعادية للإسلام والمسلمين، أرى من الضروري الإشارة إلى مفارقة غريبة حصلت عقيب حرب الستة أيام سنة ١٩٦٧م واحتلال بيت المقدس من قبل الصهاينة وما رافق ذلك من رفع شعار وحدة الصف بإزاء المستعمر.

من المعلوم إن حسينية (الإرشاد) تبنّت منذ بداية تأسيسها (الإسلام الحسيني) وحملت لواء الدفاع عن العترة والإمامة والتأشير على الانحرافات التي طرأت على المسيرة بعد غصب الخلافة، وخصّصت حوالي ٢٠٠ برنامج من مجموع برامجها ومؤتمراتها وندواتها الدينية والعلمية والتاريخية البالغة زهاء ثلاثمائة وسبعين، للحديث بشكل مباشر عن أهل البيت والدفاع عنهم، أما أنا فتشهد جميع آثاري المطبوعة والمسموعة والتي هي الآن في متناول الجميع بأنها كانت تدور في الغالب على محور واحد هو الدفاع عن هذا المذهب. ويعزّز ذلك أن أساس نظرتي الفلسفية والاجتماعية تبتني على رؤية شيعية واضحة، وكان أول كتاباتي كتاب صدر قبل ثمانية عشر عاما حول (أبي ذر) وآخرها كتاب (الشهادة رسالة الحسين) و (الدعوة رسالة زينب) وإنّ ميولي الشيعية واضحة جدا سواء في هذه الكتب أو في غيرها من القضايا الاجتماعية بحيث حرمني علماء الوهابية عام ١٩٥٠م من إيراد خطبتي في المؤتمر الإسلامي المنعقد بمكة بتهمة كوني شيعيا

مغاليا، مع ذلك كله إذا بي أواجه وحسينية الإرشاد حملة مسعورة منظمة تعرض من خلالها لاتهامات مدروسة في أكثر من محفل رسمي وعام في طهران وغيرها من المدن، وذلك تحت شعار (الولاية) المقدّس ومناهضة خطر (الوحدة)، بحيث اتهمت مؤسسة الإرشاد وأنا بالذات بأننا لا نؤمن بالولاية وننكر أهل بيت الرسالة، بل إننا سنة وهابيون!

وبعد وقفة تأمل اكتشفنا أنّ هذه الهجمة جاءت بالضبط متزامنة مع الهجوم الصهيوني وبالتحديد بعد شهر من تبني حسينية الإرشاد مهمة الدعوة لدعم الفلسطينيين، حتى تمّ تخصيص رقم حساب في البنك لإرسال المساعدات والتبرعات المالية مع تأييد شخصيات مرموقة في دائرة التشيع العلوي لهذا المشروع، وإثر ذلك صدر بيان من قبل شخصيات محسوبة على الخط الصفوي في التشيع يمكن أن يكون بلحاظ نوع الشخصيات وشكل المنطق الاستدلالي والرؤية الطائفية وحجم الاتهامات، مصداقا بارزا وسندا محكما حول ماهية التشيع الصفوي.

في هذا البيان تتضح بدقة وجلاء خصائص الاتجاه الصفوي، وبوسع المحقق المنصف أن يجري مقارنة بين تلك الخصائص والخصائص الموازية لها في منطق التشيع العلوي وطريقة الاستدلال والانتقاد والتقييم لدى علماء الاتجاه العلوي في التشيع سواء في الماضي أو الحاضر مما يتيح له إدراك الفارق الجوهري بين الاتجاهين.

ان رجل الدين الصفوي - ولا أقول العالم الشيعي- متعصب تعصبا أعمى، بمعنى أنه غير قادر على تحمل رأي المخالف وليس لديه أدنى استعداد للاصغاء إليه وفهم ما يقول، وليس المراد من (المخالف) هنا بالضرورة من يخالفه في الدين أو المذهب، بل حتى من يخالفه في نمط التفكير وطبيعة المزاج، فإنه لا يتورع عن تكفيره بدون تردد.

بينما (العالم) في التشيع العلوي مستثنى من هذه القاعدة بين جميع علماء الاديان، وحتى علماء المذاهب الإسلامية الأخرى، ونراه مصداقا بارزا للعبد الصالح المبشر بقوله تعالى في سورة الزمر : " فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" أو في قوله تعالى: "وجادلهم بالتي هي أحسن". ومعناها أنّه يتعين اختيار أحسن الأساليب وأجمل الطرق في مقام المحاججة مع الخصم فكريا أو عقائديا، ولو أنّ البعض فسّر الجدل هنا بمعناه الاصطلاحي في علم المنطق، وهو شكل خاص من أشكال القياس هدفه افحام الخصم وإسكاته ولو كان ذلك بدليل غير صحيح لدى المتكلم، وهذا الكلام مخالف مع روح القرآن ورسالة النبي، مضافا إلى أنّ القرآن الكريم لا يتعاطى مع المصطلحات الفنية ولغة أهل الفلسفة والمنطق بل يتحدث

بلسان الناس، قال تعالى:" وما أرسلنا رسول إلا بلسان قومه". وبالطبع المقصود هم عموم القوم لا الخواص وأهل الفن والاختصاص من الفلاسفة والعلماء، وهذا هو ما نفهمه من الآية الكريمة لا ما ذكره بعض المفسرين من أنّ نبي الإسلام جاء باللغة العربية كما آن نبي اليهود جاء إليهم بالعبرية، إذ هذا المعنى هو من قبيل الحقائق التي أشرنا إليها آنفا، والتي هي من باب توضيح الواضحات، ويكون معنى الآية بحسب هذا الفهم إن الله أرسل النبي محمدا إلى قريش والعرب يتكلم بالعربية ولم يبعثه باللغة الصينية مثلا!.

لقد اشتهر علماء الشيعة على مر التاريخ بالانفتاح والتحرر في مجال البحث والمحاججة العلمية، وكانوا يحبون الدخول في المناظرات والمناقشات الفكرية والعقائدية، وذلك لأن الأجهزة الإعلامية كلها بيد المذهب المخالف، والشيعي ليس لديه وسيلة لإثبات حقانية مذهبه سوى اللجوء إلى المحاججة والجدل العلمي الذي كان الشيعة يتمتعون بمهارة فائقة فيه، وذلك بخلاف رجل الدين الصفوي الذي كان يتهرب من مواجهة السؤال، وإذا أجابك ذات مرة وعاودت عليه طرح سؤال آخر فإن جوابه سيأتي إليك سيلا من الشتائم والسباب والاتهام بالفسق والتكفير، كما قال أحدهم في جواب أحد الكتاب الذي زعم أن بعض الأدعية الموجودة في الكتاب الكذائي سندها ضعيف، فأجابه أحد المشايخ المحسوبين على الخط الصفوي بالقول: وأنت الذي تدّعي بأنك ولد أبيك، هل لديك سند قوي بذلك؟

إن رجل الدين الصفوي وإن كان يرتدي في الظاهر نفس الزي الذي يرتديه علماء الشيعة إلا أنّ المخاطب عنده دائما هو عوام الناس حتى في مجال البحث العلمي وهو يتهرب من مواجهة العلماء وأهل التخصص، ومع أنّه يزعم أنّه عالم شيعي، ويدّعي أنّه مرجع للعوام في معرفة أمور دينهم، هو في الحقيقة مقلد لعوام الناس، وليس سوى أداة رسمية لإصدار الأحكام على ضوء ما استنبطه مريدوه تبعا لأهوائهم ومزاجهم، وبالتالي هو ببغاء تردّد ما يقوله العوام حتى في مجال الاعتراض على نظرية واردة في بحث أو كتاب، فتراه يصرّح بأنّ النظرية الفلانية في الكتاب الفلاني باطلة ومخالفة لموازين الشرع المقدس، وعندما يُستفسر منه عن الموضع الذي استند إليه في إصدار فتواه يقول إنه لم يطلع على تفاصيل الكتاب ولكن عددا من الوجهاء المعروفين وفدوا عليه وقالوا له إن الكتاب الفلاني ينطوي على أفكار ضلال ويجب أن تفعل شيئا يحول دون أن يقرأه عوام الناس!.

أما المنطق الذي يتحلى به رجل الدين الشيعي الحقيقي في العالم الإسلامي فمازال يتمتع بمنزلة حضارية وعمق علمي وطابع استدلالي وأدب حوار ومناظرة، خاصة وأن استقامة العقيدة الإسلامية وسلامة المعتقدات

والأصول الخاصة بالشيعة والفهم الشيعي للتاريخ والمنحى الاجتماعي لهم منه من حين السقيفة إلى يومنا هذا، كل ذلك عوامل أغنت الشيعي عن الحاجة إلى اللجوء إلى الأساليب الملتوية والمهاترات في إثبات ما يريد إثباته، وبالرغم من عدم امتلاكه لجهاز إعلامي فاعل على الصعيد العالمي أو حتى على الصعيد الإسلامي، إلا أنّ قوة الحجة لديه ونوع الأسلوب الذي يتبعه في المحاججة جعلته مصدرا مؤثرا في الإقناع، بحيث لا تكاد تنطلق دعوة من عالم شيعي ذي اتجاه علوي وليس صفويا، إلا وجدت لها آذان صاغية في صفوف علماء السنة والمستنيرين من غير الشيعة وأحدثت فيهم هزّة عنيفة في المجالات الفكرية أو العقائدية أو السياسية.

.. **النص الكامل لبيان "التعريض بالإرشاد"..**

يتألف هذا البيان من خمس صفحات مستنسخة، وقد تمّ طبعها وتكثيرها خلال ثلاث سنوات مضت، وفي رمضان هذا العام حيث بلغت المؤامرة أوجّها طبع هذا البيان بآلاف النسخ ووزّع في أغلب المساجد والحسينيات وبصورة خاصة، حيث تقوم أيادٍ خفية بوضع هذه البيانات بأعداد هائلة في المساجد والتكايا قبل تجمع الناس فيها، فإذا ما تجمّع الناس لأداء صلاة الجماعة أو غيرها من الطقوس والشعائر الدينية عثروا على هذه البيانات، مما يدلل على أن ناشري هذه البيانات يخشون أن يتعرف الناس على شخصية الأفراد الذين يقفون وراء هذا العمل.

أما السبب في اختياري لهذا البيان كسند علمي لبيان حقيقة التشيع الصفوي من بين عشرات الكتب والرسائل والمنشورات والمقالات المكتوبة على نفس المنوال، فيعود إلى ما يلي:

١ إنّ هذا البيان هو أول نغمة من سمفونية عظيمة سيتم عزفها لاحقا.

٢ إنّ أكثر الأشخاص الذين تعرضوا للطعن بي وبمؤسسة الإرشاد من خلال الكتب والرسائل والمنشورات هم من نمط السوقية الذين تجلببوا أخيرا بزيّ علماء الدين وقرروا الاعتياش على الدين، وهؤلاء وإن كانوا يمثلون الثقل الأكبر لدى الاتجاه الصفوي في التشيع إلا أنّ أعمالهم تفتقر إلى القيمة العلمية التي تجعلها تستحق الرد بخلاف هذا البيان الذي كتب بواسطة أقلام متخصصة في دائرة التشيع الصفوي وذات ثقل ديني واجتماعي مرموق.

أحد هؤلاء هو آية الله السيد صدر الدين الجزائري - عالم مشهور - والآخر ابنه السيد مرتضى الجزائري، وهو من الشخصيات البارزة في هذا الاتجاه، وقام بنفسه بتهيئة نص البيان، أما الشخص الثالث فهو السيد مرتضى العسكري، وهو شخصية معروفة وذات تخصص في التنظير للتشيع

الصوفي، وله تأليفات عديدة في هذا المضمار، وعاد أخيرا من العراق. وقد كتب هامشا على البيان المذكور يؤيد فيه مفاد البيان وما جاء فيه من اتهامات بحقي مع الرد عليّ في نفس الهامش الذي يعتبر هو الآخر سندا تاريخيا قيما لمن يريد أن يفقه حقيقة التشيع بلباسه الصفوي، ويرغب بدراسة أبعاد هذا التشيع وخصائصه ونقدها نقدا علميا وتاريخيا واجتماعيا موضوعيا، ما يدعوني هنا لإيراد نص كلامه بخط يده.

٣. ثم إنّ هذا البيان خلافا لغيره من البيانات والمنشورات لم يكن موجها لي على وجه الخصوص، ذلك أنه يرتبط بفترة زمنية كنت فيها في مشهد وقد جئت إلى طهران للمشاركة في مؤتمر جامعي، وقد تخلل ذلك اللقاء محاضرات في حسينية الإرشاد، حيث كان يشرف عليها آنذاك ثلة من العلماء والخطباء المرموقين، ويبدو أنّ أسنة الحراب في هذه الحملة الظالمة كانت موجهة إليهم، أما الاستشهاد ببعض أقوالي وآرائي في البيان المشار إليه أعلاه فباعتبار تحمل حسينية الإرشاد لمسؤولية نشرها، وبعد مجيئي إلى طهران وتحمل مسؤوليات إضافية في الحسينية أضيفت أربع صفحات أخرى إلى البيان وكانت حافلة بالسباب والشتائم والافتراءات التحريضية ضدي شخصيا، وهذا بدوره يكشف عن حقيقة هامة!.

فقبل أن أنخرط في سلك الإرشاد وعندما كنت أعمل بمفردي، كانت كتاباتي تتصف بحدّية أكبر، وكنت أهاجم الاتجاه الصفوي في التشيع بلغة أوضح وأكثر صراحة، ولكني لم أتعرض حينها أبدا لحملة مسعورة كهذه، بل على العكس ربما كان بعض أقطاب ذلك الاتجاه يتوددون إليّ وينظرون إليّ نظرة ود واحترام، أما الآن فقد تبدّل الموقف كليا، وما اختياري لهذا البيان من بين مئات الموارد التي كتبت للتأليب عليّ بألسنة مختلفة ومضمون واحد، إلا لما في هذا البيان من دلالة واضحة على أن المستهدف في هذا الهجوم ليس أنا شخصيا، وليست المسألة مسألة خلاف شخصي بيني وبين أنصار التشيع الصفوي، بل ولا بين هؤلاء وحسينية الإرشاد، بل هو مسعى محموم انطلق بصورة منظمة ومدروسة وبدافع الخشية من بروز تيار إصلاحي يهدف إلى الخروج من هذا الوضع الراكد وإيجاد نهضة فكرية إسلامية، الأمر الذي أقضّ مضاجع أحبار اليهود وقياصرة الروم ممن أرعبهم هذا المناخ الذي يبشر بظهور روح قدس جديد في صميم الوجدان الشيعي لأجيالنا المعاصرة، ولكن ما العمل، فقد ولد المسيح، ولن يكون بوسع الأحبار المتلبسين بلباس دين موسى والمدّعين لوراثة مقام هارون وأموال قارون، إلا أن يلجأوا إلى أسلوب الدس والاحتيال ويتحولوا إلى جبهة القياصرة والمشركين لأجل إطفاء نور الله وتعليق روح الله على أعواد الصليب ... ألا بئس ما يفعلون !.

.. **نص البيان:**

بعد إيراد مقدمة حافلة بالسباب والشتائم والتهم والافتراءات ضد مؤسسة الإرشاد ومؤسسيها والعاملين فيها وحتى المبنى الذي تقع فيه، يبدأ البيان بالإشارة إلى النقاط التالية في معرض الإجابة على أسئلة زعموا أنها موجهة إلى عدة شخصيات (دينية ذات ورع وتقوى) من قبل أناس يريدون أن يتعرفوا على ماهية المؤسسة ووجهها الحقيقي، وإليك نص البيان:

إن أفضل وسيلة لإيضاح أغراض هذه المؤسسة ومن يقف وراءها هو التمعن في النقاط التالية:

١. دراسة الأحوال الشخصية والخلفيات العقائدية للأشخاص الذين يرتادون هذه المؤسسة وينشطون في العمل فيها، مع التعرف على السيرة الذاتية لمن يقفون وراءها وتقصّي سوابقهم وسلوكياتهم ماضيا وحاضرا.

٢. التعرف على نوع الخطب والمقالات والندوات والاحتفالات التي تقام فيها.

٣. إجراء دراسة ومسح شامل لمنشورات هذه المؤسسة والتي تطرح عادة تحت شعارات دينية لأجل تمريرها على البسطاء من الناس.

هذا الأمر يبدو ضروريا على صعيد النقطتين الأولى والثانية، إذ لابد من الإتيان بأدلة وشواهد قد لا يتسنى للقارئ الحصول عليها إلا نادرا. أما النقطة الثالثة فالمسألة تكاد تكون محسومة باعتبار أنّ منشورات هذه المؤسسة في متناول أيدي الجميع ولا حاجة إلى بذل مزيد جهد وعناء لتوفيرها كأدلة وشواهد.

يعتقد البعض أنّ حسينية الإرشاد يقتصر نشاطها على ترويج الوهابية والتسنن والتشكيك بمبادئ المذهب الشيعي وأحيانا نشر بعض المفاسد العملية من قبيل الموسيقى والدعوة إلى اختلاط الرجال بالنساء، وليس لها غرض مناوئ لأصل الدين الإسلامي، ولكن سيتضح قريبا جدا أنّ المؤلفات الصادرة عن هذه المؤسسة تعدّت ذلك إلى أكثر من ذلك، وحاولت تحت شعار الموضوعية والحياد والتحرر والانفتاح ونبذ التعصب أن ترسخ في أذهان الناس أن اللادينية هي حالة اجتماعية وظاهرة إنسانية يجب القبول بها ولا داعي للإصرار على وجود ديانة سماوية يجب على الجميع اتباعها. وسوف نشير أدناه إلى واحد بالألف من هذه المؤلفات والمنشورات الصادرة عن المؤسسة المشار إليها، داعين أهل الفن والخبرة إلى التمعن في مضامينها ومطالعتها بصورة تفصيلية:

"خلافة الشيخين وكون خلافتهما نوعا من الحكومة الإلهية". جاء في الجدول الأول من كتاب "محمد خاتم الأنبياء" صفحة (٣٦١) ما يلي:

" كان أكثر هدوءا في تلك الليلة (والمقصود النبي صلى الله عليه وآله) وصباح يوم الاثنين الذي كان يلتقط فيه أنفاسه الأخيرة، حرّكه من السرير إلى أن وصل إلى عتبة باب بيت عائشة فأزاح الستار ورأى الناس يصلون مع أبي بكر، وفجأة انتبه الناس إلى النبي وهو ينظر إليهم وعلى سيماه تلوح ابتسامة وديعة، كان النبي مسرورا جدا لأنه رأى الناس في المسجد على خلاف ما كان يتوقع، واطمأنّ إلى مصير ومستقبل المسلمين في حال غيابه عنهم!.

يقول أنس بن مالك: إنه لم ير رسول الله في حالة أحسن من تلك اللحظة، دخل الرسول المسجد ورأى الناس رسول الله وهو يخطو بقدميه نحو المسجد والبسمة لا تفارق وجهه فانتابهم شعور بالغبطة وكادت صفوف الصلاة تنفرط لولا أن رسول الله أومأ بيده إليهم لكي يكملوا صلاتهم!.

وفي الصفحة (٣٤٠) من نفس الكتاب جاء ما يلي:
" كان أبو بكر واحدا من بين اثنين أو ثلاثة أشخاص كان لهم أكبر النفوذ بين الناس، سابقته في الإسلام وصداقته الحميمة مع النبي وقرابته العائلية منه وكذلك الوجاهة الاجتماعية التي كانت له في الجاهلية، كلها عوامل ساعدت في أن يظل اسمه جاريا على ألسن الناس، ولكنه كان ذا شخصية متواضعة، وكان سمحا وذا طباع دمثة، غير أن المسؤولية السياسية والاجتماعية الحافلة بالأخطار لا يكفي لها شخصية بهذه المواصفات.

أما عمر فعلى خلاف أبي بكر، كان حادّ المزاج خشن الطباع ويتعامل مع الأمور بجدّية وحزم، وهو ذو نزعة أصولية - حسب الاصطلاح الغربي- إذا آمن بقضية اندفع فيها بلا مداراة ولا مسامحة، وقد أدّ انضمامه إلى أصحاب محمد في مكة إلى تقوية صفوفهم بشكل ملحوظ.

وفي الصفحتين ٣٣٧ و ٣٣٨ من الكتاب ذاته جاءت العبارة التالية : " أثبتت طريقة انتخاب الخلفاء الثلاثة كيف استطاعت الديمقراطية الغربية التي فقدت الشعوب إيمانها بها في الأعوام الأخيرة أن تمنح المجتمع العربي آنذاك قدرة على رسم آفاق مصيره السياسي دون الحاجة إلى حضور شخص النبي بينهم".

وفي نفس الكتاب والصفحة ٣٣٩ تحديدا نقرأ ما يلي :" ومن هنا، فإن مما لا ريب فيه أنّ الناس بعد النبي سيحصل لديهم (إجماع) واتفاق على كبار رجال القوم وأشرافهم، أبو بكر بن أبي قحافة شيخ قريش وشريف بني تميم، وعمر بن الخطاب شريف بني عدي، وسعد بن عبادة شريف طائفة

الخزرج، وعثمان بن عفان الرجل الصالح السيرة الذي ينتسب للنبي من طريقين -متزوج من ابنتي الرسول- وعبد الرحمن بن عوف شريف بني زهرة ومنهم أيضا سعد بن أبي وقاص.

اما أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية فهم رؤساء بني أمية وهي أقوى طوائف قريش، والعبّاس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب الوجهان البارزان في بني هاشم (في رأي المؤلف أنّ منزلة أبي بكر أعلى من الجميع كما أنّ علي بن أبي طالب يأتي في المنزلة الأخيرة).

نص الهامش الثالث للسيد العسكري:

... كان عمر بن الخطاب شريف بني عدي، أما نسبه ففي كتاب الدرر بإسناده عن الحسن بن محبوب عن ابن الزيات عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: كانت صهاك جارية لعبد المطلب، وكانت ذات عجز وكانت ترعى الإبل وكانت من الحبشة وكانت تميل إلى النكاح فنظر إليها نفيل جد عمر في مرعى الإبل فوقع عليها فحملت منه بالخطاب، فلما أدرك البلوغ نظر إلى أمه صهاك فأعجبه عجزها فوثب عليها فحملت منه بختمة، فلما ولدتها خافت من أهلها فجعلتها في صوف وألقتها بين أحشام مكة فوجدها هشام بن المغيرة بن الوليد فحملها إلى منزله وسمّاها بالختمة، وكانت شيمة العرب من يربي يتيما يتخذه ولدا، فلما بلغت ختمة نظر إليها الخطاب فمال إليها وخطبها من هشام فتزوجها فأولد منها عمر وكان الخطاب أباه وجدّه وخاله وكانت ختمة أمه وأخته وعمّته، وينسب إلى الصادق في هذا المعنى شعرا:

مـــن جـــدّه خالـــه ووالـــده	وأمـــه وأختـــه وعمتـــه
أجـــدر أن يبغـــي الوصـــي وأن	ينكـــر في الغـــدير بيعتـــه

واكتفي بنقل هذا المقدار من الهوامش (العلمية) لهذه الشخصية العلمائية الصفوية، وأعتقد أنها كافية لتوضيح طبيعة المنطق العلمي والديني الذي يتعاطى به رجالات التشيع الصفوي، وأقتصر هنا على الإشارة إلى مفارقة طريفة وهي أنني أوعزت منزلة أبي بكر وعمر واللوبي الذي يعمل بالتنسيق معهما إلى زمان الجاهلية، أما الذين يصرون على أن أبا بكر وعمر لم يكونا قبل الإسلام سوى أولاد خدم وجامعي حطب فإنهم قد اعترفوا من حيث يشعرون أولا يشعرون بأن الرجلين اكتسبا هذه المنزلة والمكانة من الإسلام لا من الأوضاع الاجتماعية والطبقية للجاهلية " (التشيع العلوي والتشيع الصفوي، علي شريعتي، ط١/٢٠٠٢م،دار الأمير، ص ٨٠-١٠٢).

وسوف يظهر موقف العسكري من شريعتي ويتجلى بكل وضوح حين وفاته، وحين يعلم بعقد السيد موسى الصدر مجلس عزاء على روح شريعتي في لبنان، مما جعله في ثورة عارمة، وهياج وصراخ ولم يعد يتحمل أو يطيق الصبر على السيد موسى، ويبعث له برسالة استنكار سوف نتعرض لها في الصفحات القادمة.

هذه أهم الفتاوى والكتابات التي صدرت ضد الدكتور علي شريعتي، والتي تحذر من فكره، وتصفه بالزيغ والضلال، وأنه يتكلم باسم الدين وهو أبعد ما يكون عنه، وأن قراءة كتبه وشراءها وبيعها من المحرمات، وأصحاب هذه الفتاوى مراجع وفقهاء أعلام، وليسوا من طلبة الحوزة المغمورين، أو ممن لا يعتد بكلامهم وآرائهم في الرجال والأفكار التي تمت إلى الإسلام.

② فتاوى وكتابات تدافع عن علي شريعتي وكتبه وفكره:

المدهش في الموضوع برمته من أوله لآخره أنك في الوقت الذي تجد فيه أحد العلماء، أو مجموعة من العلماء يتجه ناحية التطرف في موقفه من علي شريعتي وغيره من الكتّاب الذين يمتاز فكرهم بالإشكالية، تجد على النقيض من ذلك كله، هناك مجموعة من العلماء تعد علي شريعتي وأمثاله من الكتّاب الإسلاميين في طليعة العلماء والمفكرين المستنيرين والذي خدموا الإسلام غاية الخدمة والعطاء، والغريب غاية الغرابة أن صاحب الرأي الأول فقيه ويتكلم وينطلق في كلامه وتقييمه لعلي شريعتي من الفكر الديني وأصول البحث الديني، و الثاني فقيه أيضا وينطلق في كلامه وتقييمه لعلي شريعتي من الفكر الديني وأصول البحث الديني، والأول درس وتخرج من الحوزة الدينية في قم، والثاني كذلك، مع هذا هما على النقيض تماما، ففي الوقت الذي قرأنا فيه بعض الفتاوى والبيانات حول شريعتي السابقة تصفه بأنه كان سببا للانحراف الفكري والضياع الديني للكثير من الشباب والشابات في إيران، في الوقت ذاته نجد فقيها ومفكرا من العيار الثقيل من مثل الدكتور بهشتي يعلن ويؤكد بأن الدكتور علي شريعتي كان سببا لهداية الكثير من الشباب والشابات في إيران !!. فأي الفريقين يتبع القارئ العادي في تعامله مع كتابات علي شريعتي ؟! فكتبه حرام من جهة لأنها كتب ضلال عند فريق من الفقهاء، وهي كتب هداية واستنارة عند فريق آخر من الفقهاء ؟!!. وليس بهشتي وحده في الميدان ممن دافع عن فكر وكتابات وتوجهات ودافعية الدكتور علي شريعتي، بل معه مجموعة من العلماء والمفكرين الإسلاميين الذي يلتمسون للرجل الأعذار، ولا يضعونه في خانة الكفر والضلال والزيغ و الانعتاق من ربقة الدين كما يحاول البعض أن يصف شريعتي. فهناك أسماء من العيار الثقيل في الفكر الديني، مجتهدين ومفكرين وسياسيين

ورجال دين من الطبقة الأولى ممن يضعون شريعتي في مراتب عالية من البناء والدور والفاعلية في المجتمع الديني الإيراني، ويدافعون عن الرجل بكل قوة ويسفهون ويجرمون من يسيء الظن به، أسماء من مقام موسى الصدر والسيد علي الخامنئي وآية الله الطالقاني والشهيد محمد باقر الصدر ومهدي بازركان وعبد الجبار الرفاعي وحيدر حب الله .. وغيرهم !!

وافضل ما قرأت في الموضوع كله بصدق ما كتبه البعض حول كتابات شريعتي بأن الرجل صادق الكلمة والدافعية، ومفكر حر، ومجاهد مخلص في جهاده، يبتغي هداية الشباب المسلم ويبحث عن الحقيقة ولكنه بسبب مؤثرات عديدة أحاطت به وقع في شبهات كثيرة، وأخطاء عديدة تحتاج إلى بيان ورد .. هذا أفضل وصف وتقييم لكتب علي شريعتي، وهذا هو رأي الدكتور بهشتي من دون غلو في الرجل، ووضعه في مصاف القديسين ولا التطرف في العداء ووضعه في خانة الكفار والعياذ بالله، وهذا ما أميل له من خلال قراءات كثيرة لكتب علي شريعتي، ولفكره، والاطلاع على سيرته وما كتب عنه من قبل الكثيرين ممن عاصروه وجاؤوا بعده، ومن خلال النقاشات العديدة مع مجموعة من العلماء والمثقفين.

والى القارئ مجموعة من الكتابات التي تنصف الدكتور علي شريعتي وتدافع عنه وعن فكره، ولا تتطرف في تقييمه:

(١) الإمام السيد موسى الصدر:

لدينا نصان وجدناهما لدى السيد موسى الصدر قالهما في حق الدكتور علي شريعتي، وهما مشحونان بالتقدير والاعتزاز والاعتراف بمكانة شريعتي، وعظمته الفكرية، وكذلك دوره الريادي في الثورة والنضال ضد السلطة، مما يعده نبراسا ومشعلا للثوار في لبنان وفي كل مكان.

والذي يبعث على الذهول في نص الإمام موسى الصدر وهو من هو، وقد عاش في إيران حقبة من الزمن، وغاص في حوزاتها، وتشرب من بيئتها الثقافية والدينية، وشهد علي شريعتي وحضوره الطاغي في المشهد الثقافي في ايران، كما أنه كان لصيقا بالمؤسسة الدينية، وقريبا من الفقهاء والعلماء ورجال الفكر بشتى توجهاتهم وتياراتهم، المذهل أن الصدر هنا يتهجم على العلماء الذين كفروا شريعتي وتهجموا عليه وحاربوه وحكموا عليه بالزيغ والضلال، بل إن الصدر يذهب إلى أبعد من هذا، إذ يعد نفسه امتدادا لفكر شريعتي ومدرسته وتوجهه، وأن العلماء الذين كفروا شريعتي وحاربوه " يعتبرون الإسلام محتكراً لهم، ومن حقهم وميراثهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم. هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام ومصدر التفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن سنحاول بإذن الله، بالإضافة إلى

العدد القادم من "أمل ورسالة" أن نخصص عدداً نلخص فيه أفكاره ثم نطبع ونترجم أفكاره وكتبه ومحاضراته حسب التيسير وفي حدود الإمكان في لبنان، بإذن الله. بدون شك إن التيار الذي كان يحترم ويكرّم الدكتور "شريعتي"، كان تياراً ساحقا، تقريباً الشبيبة المسلمة في إيران، وغالباً جعلوا التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم والتأثير الإسلامي كان عميقا في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين استسلموا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل. الدكتور "شريعتي"، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، يعني الفكر النضالي المعتمد على الإيمان بالله. ولذلك نحن نعتبره فقيدنا وخسارتنا. ونكرمه في هذا اليوم، يوم "علي"، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضاً، ثواب الفاتحة" بعد هذا النص الجلي من السيد موسى الصدر ماذا نقول عنه؟ أنقول أن الصدر يدافع عن ضلال وزيغ، ومنخدع بالكفر ولا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، وأنه كبقية الشباب الإيراني الذي يستمع لشريعتي، وهو يرتكب محرم ويدافع عن رجل كافر .. أنستطيع أن نقول هذا ؟ وكأن الحقيقة محتكرة فقط في فئة دون أخرى، ولدى تيار دون آخر ؟ وبالطبع الصدر ليس من هذا التيار الذي يتوافق مع الحوزة والعلماء الربانيين المحافظين على العقائد الشيعية الحقة بمنظار هؤلاء الذين يكفرون علي شريعتي.

أولا: كلمة قالها الإمام الصدر بمناسبة ولادة أمير المؤمنين (ع) والتي تزامنت مع أيام اغتيال علي شريعتي ودفنه بسوريا بجوار السيدة زينب (ع)، وقد ألقى السيد الصدر الكلمة بتاريخ ١٩٧٧/٧/١م. وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم ..

طبعاً اليوم مولد الإمام أمير المؤمنين "علي بن أبي طالب" (ع)، والإمام هو في الواقع إمام المؤمنين من المسلمين، وبنفس الوقت إمام المحرومين المتحركين غير المستسلمين. لأن المحروم إما أن يستسلم لحرمانه، وإما أن يتحرك. المحروم المتحرك، لا شك أن "علي بن أبي طالب" إمامه، يعني نموذجاً وقائداً له .. نحن في هذا اليوم نتفاءل وندرس سيرة الإمام كبحث ثقلي، ونعتبره فصلا جديداً لحركتنا.

كان لنا صديق، زميل، قائد من قادة الفكر الإسلامي، هو الدكتور "علي شريعتي". توفي في الفترة الأخيرة، وفي "الرسالة" التي ستطبع إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة يوجد له نعي وصورة، والعدد القادم من الجريدة سيخصص له بإذن الله . أحببت أن أنقل للإخوان صورة عن هذا الرجل، وألقي بهذه المناسبة ضوءاً على البعد العالمي لحركتنا. الدكتور "علي شريعتي" أبوه رجل دين غير معمم، اسمه الشيخ "محمد تقي شريعتي"، وهو

رجل فاضل أسس مؤسسة في خراسان اسم المؤسسة "مجمع الأبحاث القرانية" وأنا ألقيت محاضرات هناك، قبل عشر سنوات تقريبًا. الدكتور "شريعتي" وهو إيراني، قروي من قرية "مازينان"، قرب "كوير" يعني الصحراء في إيران، تخرج من جامعة السوربون واختصاصه "علم الاجتماع الديني". وعاد إلى إيران وكان يعطي دروسًا في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحول إلى داعية ديني؛ له أكثر من ١٥٠ كتابًا. كتبه، محاضراته في الواقع، محاضراته أربع ساعات، خمس ساعات، ست ساعات، سبع ساعات ارتجال، تسجل وتطبع. أديب شامخ، فكره إسلامي، فكر نضالي منفتح. إسلاميته وطبقيته وموقف رجال الدين لم تجعل من دعوة الدكتور "شريعتي"دعوة محافظة رجعية يمينية كما هو التقليد، لأن الدعوة الإسلامية تعتبر في كثير من الأوساط دعوة محافظة على الأقل. دعوة الدكتور "شريعتي" للإسلام دعوة تقدمية ثورية نضالية، أو ما نسميه نحن دائمًا في اجتماعاتنا دعوة حركية، وليست دعوة مؤسسية. يعني ليس الإسلام دكانة يجب أن نحتفظ بمكاسبه، ونأخذ لأجله من الناس، ونسخر الناس لخدمته، كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية. المؤسسات الدينية اليوم، لها أموالها، ولها أوقافها، ولها رجالها، ولها شؤونها وبروتوكولاتها، ولها خصوماتها، ولقاءاتها، ولها مكاسبها. تمامًا مثل الاتحاد السوفيتي أو الصين، بعدما تحولا إلى دول، ونسيا كونهما حركة انقلابية عالمية. فبدآ يفكران بالاحتفاظ بمكاسبهما، ولأجل الاحتفاظ بهذه المكاسب، يجب التحالف حتى مع الشيطان، أو مع نصف الشيطان، أو مع ربع الشيطان بالتالي. فترى أن الصين الشيوعية اليوم تلتقي مع القوى اليمينية في العالم للاحتفاظ بمكاسبها وللمنافسة مع الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي نفس الشيء.

اذًا. أحيانًا كثيرة حركة إنسانية في مرحلة من المراحل ما تتحول إلى مؤسسة. متى؟ عندما تشيخ، الحركة في بدايتها شابة، ناشطة، متحركة، تخيف، تقتحم، تتقدم، إلى أن تنتهي أنفاس المؤسسين، فتشيخ، وتفكر كيف تحفظ رأسها. لا تصطدم مع الناس، تتحالف مع هنا وهنا تفكر بالاحتفاظ بالمكاسب. الدكتور "شريعتي" في أحد كتبه يقول: في فرنسا، رحت أشتري مجلة جون أفريك Jeune Afrique فوجدت أن الأمن الفرنسي قد جمع جميع نسخ هذه المجلة الفتية الإفريقية. قلت في نفسي: يا سبحان الله! فرنسا، معقل الحريات، مركز جميع أنواع الدعوات من الشيوعية المتطرفة إلى التروتسكية، إلى غير ذلك، إلى اليمين إلى الوجدانية والوجودية، وكل أنواع الفكر... كيف فرنسا هذه تخاف من مجلة "جون افريك "فتجمعها؟ السبب أن هذه مجلة شابة، حركة جديدة تقتحم وتخيف، بينما الحركات الأخرى كادت تتحول إلى مؤسسات لها جهدها طبعًا.

الدكتور "شريعتي"، كان أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم. أفكاره قيِّمة جدًا، وكان يحضر درسه الأسبوعي، حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيين أو متخرجين في مؤسسة معينة باسم "النادي الحسيني للإرشاد". طبعًا حُورِب من قبل الحكم في إيران، وحُورِب أيضًا من قبل مجموعة من رجال الدين الذين يعتبرون الإسلام محتكَرًا لهم، ومن حقهم وميراثهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم. هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام ومصدر التفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن سنحاول بإذن الله، بالإضافة إلى العدد القادم من "أمل ورسالة" أن نخصص عددًا نلخص فيه أفكاره ثم نطبع ونترجم أفكاره وكتبه ومحاضراته حسب التيسير وفي حدود الإمكان في لبنان، بإذن الله. بدون شك إن التيار الذي كان يحترم ويكرِّم الدكتور "شريعتي"، كان تيارًا ساحقًا، تقريبًا الشبيبة المسلمة في إيران، وغالبًا جعلوا التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم والتأثير الإسلامي كان عميقًا في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين استسلموا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل. الدكتور "شريعتي"، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، يعني الفكر النضالي المعتمد على الإيمان بالله. ولذلك نحن نعتبره فقيدنا وخسارتنا. ونكرمه في هذا اليوم، يوم "علي"، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضًا، ثواب الفاتحة.

ثانيا: النص التالي عبارة عن خطاب ألقاه السيد موسى الصدر بقاعة الرشيد في كلية العاملية بتاريخ ١٩٧٧/٨/١٤م، تحت عنوان " نكرم علي شريعتي لأننا نعتبره تجسيدا لأصالة الفكر الثوري "، وذلك في ذكرى مرور أربعين يوما على استشهاد الدكتور علي شريعتي.. ونحب أن نشير هنا إلى أن الشاه بعد هذا التأبين الذي نظمه الصدر قام الشاه بسحب الجنسية الإيرانية من السيد موسى الصدر، كما أنه من الجدير ذكره هنا أن السيد موسى الصدر يُعد أول من نقل كتب شريعتي ومحاضراته إلى اللغة العربية، وأول كتاب كان "الشهادة" والذي قامت "دار الأمير" بإعادة نشره ضمن الأعمال الكاملة لشريعتي، ولكن السيد موسى الصدر لم يضع اسمه على الكتاب كونه مترجما له، أو معرب.

أقامت حركة المحرومين احتفالاً شعبياً في قاعة الرشيد وكانت الكلمة الأولى لسماحة الإمام الصدر.. المفكر المناضل المؤمن الشهيد الدكتور علي شريعتي كرم في حفل لم يسبق له مثيل، وذلك في قاعة الرشيد بالعاملية صباح الأحد الماضي، في حفل تأبيني، دعت إليه تسع عشرة منظمة ثورية مؤمنة في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأميركا وكندا. وحضر الحفل جمهور كبير من علماء الدين وأساتذة الجامعات ومختلف الطبقات. وكان في جملة الحضور السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

ورئيس حركة "فتح"، والإمام السيد موسى الصدر، وعميد كلية الحقوق، وال الفقيد. وقد غصت القاعات بالحضور.افتتح الحفل بآي من الذكر الحكيم ثم قدم فضيلة الشيخ محمد يعقوب الأمام الصدر بكلمة قال فيها:

في زمن الكساد والطقس الدنيء والردة على الأبواب، كان شريعتي فعل عطاء ورمز انبعاث وارتقاء، رعدا في عالم من السكون وسراجا منيرا في بحر من الظلام. في زمن التسول الفكري والغيبوبة الروحية كان علي شريعتي حمل جهاد وفيض رسالة: لغة إلهية يحوكها على نول الوجود التزاما وأصالة، من معجن السماء خبز الفقراء ومن صحراء محمد (ص) لهيب الرجاء، ومن نهج علي عدالة وعزيمة ومضاء، ومن طيف الحسين شهادة ومنطق فداء، من قلب المعاناة، من صميم المأساة، من لهيب العاصفة، في عمق التحدي، في تزاوج الفعل مع الكلمة، في مضاء العزيمة، في ألق الرسالة، في زهد الشرفاء، في طهارة الأتقياء، في ثورة الرجاء، في معقل الفداء سبدى في حلكة الليل إشعاعه هدى ووفاء، ملتزما بالنضال المؤمن الهادف، اما حقيقته للفقراء المضطهدين والجائعين والمشردين يمسح بكفاحه عن وجوههم عرق المهانة والذل التاريخي ويقود مسيرة الحق في دروب الجلجلة وآلامها، يصفع وجود الطغاة أصنام المال والحياة والجاه والأمجاد الزائفة، قائد مسيرة حركة المحرومين سماحة الإمام السيد موسى الصدر.

خطاب سماحة الإمام السيد موسى الصدر:

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، وخاتم رسله محمد، وعلى أنبياء الله المرسلين. وسلام الله على آل بيته وصحبه الطاهرين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.إخواني العلماء، أخي إحسان، السيدة الجليلة حرم فقيدنا الكبير، أيها الأخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله. لماذا نحتفل؟ لماذا نجتمع، فنقيم احتفالاً يضم رجالا ونساءً، مناضلين ومناضلات، يضم رجال دين يضم رجال فكر وها أنا أرى أمامي، عميد كلية الحقوق، الدكتور محمد فرحات، والأخ الدكتور منير شفيق، وقادة الفكر الملتزم. لماذا نجتمع فنحتفل؟ ما لنا وللدكتور شريعتي؟ وماله ومالنا؟ في الواقع، أن إنساننا الطامح عندما ينظر في الأفق، فيرى أن وضعه وحياته ومجتمعه لا يرضي طموحه، يتطلع إلى الأفق ويعزم على التغيير. هذا الإنسان الذي يقول عنه الحديث الشريف:"أكثر الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل". تعبيرا عن معاناة الذين يريدون أن يغيروا مجتمعهم، ولا يكفيهم ما هم فيه من الوضع المهترىء ويعانون من المستفيدين في المجتمع أكثر وأكثر بنسبة طموحهم، وبعد تطلعهم.نحن ننظر إلى الأفق لكي نرى وضعنا اليوم، وفي المنطقة، وفي العالم، فلا نجد في هذا اليوم،كما لم نجد أمس، ما يرضينا، ما يرضي

طموحنا، ما يقنعنا. وهنا يختلف الناس فئات: فئة تستسلم للوضع الحاضر، تذوب فيه، تسايره، تجامله، تفلسفه، تتعاون معه. هؤلاء الضعاف لسنا منهم، ولا يشرفنا أن نلتقي معهم.فئة أخرى، تفوق الفئة الأولى، لا تقبل بما يجري في المجتمع. ولكنها تتهرب من المواجهة،تهاجر، تسافر، تختار مجتمعا آخرا، تختار أميركا، أوروبا، آسيا، هنا وهناك. تفتش هذه الفئة عن الملجأ، عن المهجر. هؤلاء أقوى من الفئة الأولى ولكننا لا نقبل سيرتهم، ولا نكتفي بموقفهم. أما الفئة الثالثة هم أقوى من الفئة الأولى المستسلمة. أما نحن لم نكن لنقبل أن نكون من الفئة التي تستسلم للوضع الحاضر. ولا من الفئة التي تهرب ولا تواجه. والدليل على ذلك ما أنتم فيه، فقد وجدتم أنفسكم في مأساة فقد قائد فكري كبير، غريب، يعتصركم الحزن والألم، فإذا بكم يتحول الحزن والألم، فإذا بكم يتحول لقاؤكم إلى مهرجان فرح وسرور. كما يحضر قائد الثورة ورمز الشعلة المتقدة الأخ أبو عمار.وهكذا ترفضون أن يتغلب الموت عليكم، ويخيم الحزن على قلوبكم، ترفضون الاستسلام،وتفتشون لتحويل هذا الحزن إلى البشائر. والخسارة إلى الربح، والوجوم إلى التصفيق.إذا لسنا من الفئة المستسلمة للوضع الحاضر، ولا من الفئة التي تغيب فلا تواجه الوضع الحاضر.

هناك فئة ثالثة، ترى أجواء بلدتها، ومنطقتها، وبيتها لا ترضيها، فتفتش عن التغيير. وهناك فئة من هؤلاء الراغبين في التغيير، من الساعين إلى التغيير، من الذين لا يستسلمون إلى الوضع الحاضر، فئة منهم تواجه فتغير. ولكنها تستعمل سلاح الغير. تختار سلاح الأحزاب، بعض الأحزاب التي لا علاقة لها بأرضنا. هذه غير الفئة الأولى والثانية. فالذي يسعى في سبيل التغيير، ولكن يختار خطا غير النهج المتفق عليه، يكون كما يقول الإمام علي (ع) "ليس الذي طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأصاب". نحن لسنا معهم، وإن كنا نحترم شأنهم، ونعتبرهم شبانا طامحين، أرادوا التغيير فأخطئوا في الوسيلة.

نحن هنا، وجدنا أن أفقنا لا يرضينا، مجتمعنا الداخلي، عالمنا العربي، موقعنا في العالم الثالث لا يرضى طموحنا، لا ينسجم مع إيماننا، لا يتفق مع مبادئنا. وأول مظاهر إيماننا، الإيمان بالله اللا متناهي. فطموحنا لا متناه، وإيماننا بالحق والعدل لا متناه إذا مهما عظمت المصاعب في الداخل والخارج، لا يمكننا أن نقبل. نحن نشاهد عالمنا العربي، ويعز علي أن أقول، إن عالمنا العربي، وما نشاهد في الأجواء، أمر لا يشرفنا. فنحن نشعر بالذل والهوان عندما تتحكم فئة إرهابية في حياتنا، وفي حياة منطقتنا. عندما يريد أن يتحكم إرهابي فيحول إرهابه إلى قضية، ويحول القضية المقدسة إلى الإرهاب، ويجد في العالم مسامع تسمع، وقلوبا تقتنع، نحن نشعر بالألم. نحن عندما نحاسب ونحتسب، ونفكر في عالمنا العربي، فنرى أن وزير خارجية أميركا يأتي ويذهب، ويقابل ويلاقي، ويفشل. ثم يحاول ويطلب

المزيد من التنازلات، وأي تنازلات يمكن أن يقدمها العالم العربي اليوم، أكثر مما حصل؟ ومع ذلك كله، ومع إبراز النية الحسنة أمام العالم، ومع ابراز الموقع الإيجابي اقتصاديا، و"بتروليا وسياسيا، وحربيا، مع ذلك تشعر بأن العدو، المتبختر، المتكبر، يستعلي علينا، ويستعلي على قادتنا، وزعمائنا، ورجالنا، وممثلينا نشعر بالألم، فنرفض هذا الواقع بكل قوة. ولا يمكن أن نقبل بهذا الواقع، حالا ومستقبلا، إن تمكنا من التغيير فورا، أو لم نتمكن، المهم أن نضع الخطوة الأولى في سبيل الألف ميل، وفي طريق الألف ميل للتغيير. إذا الجو العربي، لا يرضينا، ولا ينسجم مع طموحاتنا، وتضحياتنا، وتاريخنا، فنريد التغيير، جونا الداخلي، مرت علينا، هذه الفترة الطويلة، بعد التذابح والتقاتل، بعد الحرب القذرة، التي لا انتصار فيها لأحد، بعد المعركة التي فرضت علينا دون سبب، ودون نتيجة، ودون نجاح، ولا تزال نجد فئات هنا وهناك، تحاول الاستسلام أو تحاول الاستمرار في التشنج، وكأن التجربة المريرة المزعجة لا تكفيهم. جونا الداخلي نشعر بأنه لا يرضينا، ولا يقنعنا ولا يشرفنا القبول به، جونا العالمي، في نفس المستوى، في كل منطقة، في بيوتنا، في مناطقنا، في حركاتنا، في نشاطاتنا، في تجمعنا، نجد النقص هنا وهناك. فهل نستسلم؟ كلا، هل نهاجر؟ كلا، هل نختار ايديولوجية الآخرين؟ هل نعترف بإفلاسنا؟ كلا..لذلك نفتش في الأفق، لكي نجد ثورة من طبيعة أرضنا وسمائنا، ثورة فكرية ترتبط بقلوبنا، وتراثنا وإيماننا. فإذا اخترنا واحترمنا علي شريعتي، فلأنه يفلسف، ويبرر، ويشرح، ويلقي أضواء على السلاح الفكري الذي امتشقته هذه الأمة في تاريخها المجيد، بقوة وحزم. وتمكنت أن تغير به جاهليتها بالنور، وكفرها بالإيمان، وتشتتها بالتوحيد، وذلها بالقوة، وشقاءها بالرحمة، وتخلفها بالسعي لتقدم الآخرين. هذه التجربة الناجحة، التي تبرز من خلال كلمات علي شريعتي ورفاقه، ثورة فكرية كبرى نحترمها. كما نحترم فتح" وثورة فتح. لماذا؟ لا لمجرد أنها ثورة حق، ولا لمجرد أنها تسعى في سبيل تحرير الأرض المقدسة فحسب، بل أكثر من ذلك، نحن نحترم فتح لأنها ثورة أصيلة، ليست مستوردة ولا مقتبسة ولا محاكاة، ثورة من صميم هذه الأرض، ومن وحي هذه السماء، من هذه المنطقة المباركة، ثورة هي في الصراط المستقيم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. هذا ما نقر ونعتز، ولذلك بها نتمسك. ولذلك نقف، ونعتز ونحترم هذه المناسبة الكريمة، التي يكرم فيها علي شريعتي، ومن خلال علي شريعتي يكرم الفكر الأصيل المؤمن، الفكر الذي يتمكن من استقطاب العالم، كل العالم، ومن تحريك الطاقات المجمدة، الموجودة في المعابد والمحلات والبيوت. تلك الطاقات الهائلة، المكدسة، المهملة، التي يمكن أن تعمل فعلها في تغيير مجتمعنا، عندما تتحول إلى حركة مؤمنة، مناضلة لتغيير المجتمع.

نحن نعتز، ونعترف. وها نحن نجتمع لنكرم هذا الفكر الأصيل. لنكرم الفئة الرابعة غير المستسلمة، ولا المهاجرة، ولا المقتبسة، بل أصحاب الثورة الأصيلة، الذين يريدون أن يغيروا مجتمعهم. أخذنا من علي شريعتي في حياته، وها نحن نأخذ من علي شريعتي في وفاته. وفاته هي التي تجمعنا. الثورات المؤمنة، المناضلة، الأصيلة، من فلسطين إلى لبنان، إلى أقطار آسيا وإفريقيا إلى إريتريا، إلى زنجبار، إلى زيمبابوي، إلى الفلبين، إلى إيران... إلى كل مكان، هذه الثورات الأصلية التي تشكل الفئة الرابعة، أو فلنسمه العالم الرابع. كانوا يسموننا العالم الثالث، ونحن بموقعنا الطبيعي من العالم الثالث، لأننا لا نخضع للجبارين، ولا نقر بتقسيم العالم بين القوتين بالإفلاس فتقتبس فكرة وإيديولوجية من هنا وهناك، وفئة ترفض أن تعترف بالإفلاس وتعتمد الفكر الأصيل، والإيديولوجية الأصيلة، من أرضها وسمائها وتتقدم فيها.

إذن .. أخذنا من الدكتور شريعتي، في وفاته، لقاء هذه الحركات المناضلة المؤمنة، فشعرنا بقوتنا في عصر الغربة، وشعرنا بقوتنا في وقت الضعف، وها نحن نلتف حول بعض، كرموز تمثل عالما واسعا، مرتبطا بالجغرافية، وبالتاريخ الناجح، بل مرتبطا بالسماء والأرض، بقلب ملتق مع الإيمان بالله، الذي هو ينبوع الفكر، وينبوع النضال. نشعر بقوة بعد جرح، وبعد محنة، وبعد ضعف. نشعر بقوة وأصالة عندما نلتقي في هذا اللقاء المبارك. إذن .. لشريعتي فضله في حياته وله فضله في وفاته أيضا.

أيها الأخوة الأعزاء

نحن في مجتمعنا، نستعرض الوضع العام، نجد أن المؤمنين بالله، نجد أن الأبطال المناضلين، يجب أن يلتقوا، ويتعاونوا، ويخلصوا، ويعلموا، ويختاروا، وإلا فأنهم محاربون في عقر دارهم. وها نحن نشاهد في لبنان، بعد المحنة الكبرى، التي عانيناها خلال السنتين الماضيتين، والتي وقفنا فيها موقف الدفاع عن الوطن، عن وحدة الوطن، عن عروبة الوطن، عن قضية الوطن. عن قضية فلسطين في هذا الوطن. عندما وقفنا هذا الموقف، دون أن نريد علوا في الأرض ولا فسادا، مددنا للتعاون، ولا نزال نمد اليد للتعاون. ومع ذلك، نشاهد أن العالم يستضعفنا، وينقل خلافاته إلينا، ويحاول أن يشتت شملنا، ويفرق جمعنا، ويضعف قوتنا، ويدق الإسفين بين صفوفنا.

أيها الأخوة الأعزاء

أكثر ما يمكن أن يضعف به الإنسان والمؤسسة والحركة، أن تشعر بالتشتت، والتمزق. وحدة صفنا، تكوين جبهتنا، لقاؤنا، أتصور أن لا بديل عنه في موقعنا. ألا يكفينا ما وصلنا إليه في هذه الفترة؟ أما سمعتم أيها الأخوة الأكارم، أن رئيس وزراء إسرائيل يقول أرجو الانتباه أن السلاح

الإسرائيلي هو الذي حمى المسيحيين في جنوب لبنان، ومنع إبادتهم. هل نسأل نحن، في لبنان مسلمين ومسيحيين، بهذا الطرح؟ هل هذا صحيح؟ نحن خلال ألف سنة، أو أكثر، نتعايش، نتآخى، نتعاون، نتداول، ننام ونأكل في بيوت بعضنا البعض، وفي قرى بعض، مشتركين متعاونين. أين كانت إسرائيل قبل قرن أو أكثر؟ نحن كنا أخوة. سلاح إسرائيل هو الذي فرقنا وليس هو الذي دافع عنا، أو دافع عن المسيحيين. بالعكس كانوا يراقبون الأحداث حتى إذا هدأت، يبعثون عصابات وأسلحة لإعادة التفجير في بلادنا. إذا كانت ذاكرة بعض الناس ضعيفة، فهناك من يذكر. اسألوا صاحب الغبطة، البطريرك خريش، الرجل الطاهر الصادق الأمين. عندما كان قسا في يافا وعكا وحيفا سيطرت إسرائيل وتأسست دولة العصابات هناك، في البداية، فرقت بين المسلمين والمسيحيين، وقالوا للمسيحيين لا علاقة لنا بكم ولا ضير من قبلنا عليكم. نحن نخاصم المسلمين حتى طردوا المسلمين. وبعد ذلك جاؤوا إلى المسيحيين، ففرقوا بين الموارنة والكاثوليك والروم، ثم فرقوا بين فئاتهم ثم سبوا جميعا وأخرجوا جميعا. هذا الذي سمعته مرة ومرتين وثلاث من البطريرك.

على من يضحك عدونا رئيس وزراء إسرائيل؟ من الذي خلق المشكلة الطائفية في لبنان؟ نحن كنا نتعايش، نحن كنا منذ ثلاث سنوات، بالضبط في وقت يشبه هذا الوقت، كنت أنا ألقي عظة الصيام في كنيسة الكبوشيين. وكاد أن يلقي خطبة الجمعة رجل دين مسيحي في بعض المؤسسات. من الذي وصل في تعايشه وتعاونه إلى ما وصل إليه اللبنانيون ولا يزالون؟ من الذي خلق الطائفية غير العدو الإسرائيلي؟ هل نحن نقبل؟ وهل نلبي؟ هل نسكت؟ كلا! علينا أن نرد على هذه المزاعم. فنضع أيدينا بعضنا ببعض، لبنانيين، وفلسطينيين، وسوريين، والعرب. نقف لمواجهة هذه المرحلة الخطرة، التي تعادل في سمومها تاريخ اليهود المظلم. وتفوق في خطورتها جهنم، التي تعيش في قلب "بيغن" ورفاق "بيغن" في إسرائيل. إلى أين وصلنا؟ هل لا تزال فئات منا، ولأسباب خاصة ولمصالح سياسة، تحاول أن نعتدي؟ وأن تعض على الأصابع؟ وأن تأخذ من هنا وهناك؟ كلا! لقد آن الأوان أن نتفق، ولأن نلتقي، ولأن نؤجل خلافاتنا، ولأن نعالجها بالحوار المطلوب حتى نتجاوز ونتخطى هذه المرحلة الخطرة.

ماذا يريد بعض أشقائنا منا؟ عندما تتجاوزهم مشاكلهم فينقلون هذه المشاكل إلى جنوبنا، إلى مناطق أخرى، فيتصرفون، ويخلقون الصعوبات والمشاكل للمقاومة الفلسطينية وللبنان. وقد وصلنا أكثر من كل ذلك.. إلى أن بعض الدول الشرقية أيضا استضعفتنا وبدأت تلعب في أمعائنا، ففي كل يوم نسمع إماما ومؤسسة، وفي كل يوم نرى أن هناك زعما في التعاون والمساعدة، وفي كل يوم نسمع إماما ومؤسسة، وفي كل يوم نسمع أنهم يريدون خيرا للشيعة، لو أرادوا خيرا للشيعة لما اعتقلوا الطالقاني، ولو أرادوا

خيراً للشيعة، لما اعتقلوا كبار قادة الفكر في إيران، إن المخابرات الإيرانية هي تضطهد الشيعة، وتمزق الشيعة وتخلق منا ما لا نقبل. نحن لا نقبل بهذا الشيء، هل نحن نسكت ونقبل بما يمزقنا ويمزق أحشاءنا؟ كلا! لا نقبل ذلك. صحيح أننا نتعرض للصعوبات، والاعتداءات وللمشاكل، وكلنا أيضا لا نزال نملك دما يدافع، وهمة ترفض، وقولا يقول: لا. كيف كان تاريخنا؟ كيف كان قادتنا؟ كيف كان رجالنا؟ أولئك الذين كانوا وحدهم في التاريخ؟ وكانوا يقولون لإمبراطوريات العالم: لا! لا! نحن لا نقبل هذا الشيء. نحن نشاهد كل يوم، وأنتم تشاهدون، القضية لا تحتاج إلى السكوت وإلى البحث، تشاهدون فئات هنا وهناك، مشايخ هنا، وإماما هناك، جبهة هنا، وتنظيمات هناك، تتحول وتشجع، وتضع كل ثقلها وهمها، لتمزيق صف الشيعة. ماذا يريدون منا؟ نحن أخذنا طريقنا: طريق النضال، طريق علي والحسين، طريق الحق، طريق الاستقرار، طريق رفض الطغيان، طريق قوله: لا.

بلد الوعي والنضال، بلد النموذج الرسالي في العالم، بلد الوحدة الوطنية، بلد الصراع في سبيل الأفضل، بلد الهجرة المناضلة، بلد المنطلق لأقدس ثورة.. ثورة فلسطين. لا يمكن أن نقبل أن رجالا صغارا، لا يملكون إلا ثمن البترول، ولا يملكون إلا اللؤم والدس والفتنة، يدخلون إلى بيوتنا، وفي صفوفنا لكي يمزقونا، ويخلقوا منا محاور وفئات هنا وهناك. شعبنا مطلع على ذلك، وطائفتنا مطلعة على ذلك، وطائفتنا شاهدت أيام كانوا يتهمون عليا بالغيبة، ويوما كانوا يتهمون عليا بالمرح، ويوما كانوا يتهمون الحسين بالخروج على إمام زمانه، ويوما كانوا يضللون هنا وهناك.

لو لم يكن من أية ميزة! ميزة النضال تقترب إلى ميزة الإدراك .. ألسنا قوم الاجتهاد نحن؟ يعني إدراك الوضع الحاضر، واكتشاف الوضع الحاضر والعمل! هذا هو الأساس.. لا! لا يمكن أن يؤثر فينا سهمهم، وأن تمر فينا مؤامراتهم. نحن لهم بالمرصاد، فيذهب العملاء والمأجورون، ولو لبسوا لفات، فليذهب العملاء والمأجورون ولو سموا أنفسهم أئمة، فليذهب الصغار والأقزام إلى جهنم، جهنم المال، جهنم الفساد، جهنم الميوعة .. فليعلم الناس هذا! أصحاب علي والحسين، أنهم لو كانوا يهتمون بالشيعة والتشيع، لو كانوا يعتنون برجال الدين والعلماء، لو كانوا يهتدون بالعلم والفقه والفضيلة، لما أدخلوا مئات الألوف في سجونهم، نحن نرفض هذا، وهذا رفض جديد أمامنا.

إخواني الأعزاء..

نكرم بأشرف صورة فقيدنا الكبير الدكتور شريعتي. ولا شك أننا في هذا المكان عندما نلتقي بالشعلة المتقدة، كما قلنا، نشعر أن في هذا عزاء لأهله،

وعزاء للشبيبة المؤمنة التي شعرت بالحرقة الكبرى في وفاة فقيدنا الراحل، محما أن ذلك عطاء آخر منه في يومنا العصيب. فلنلتق! أيها الذين يرفضون الوضع الحاضر ولا يهاجرون، والذين لا يقتبسون سلاماً من الآخرين، فلنقف، ونلتقي، ونغير حاضرنا ولا يهاجرون، والذين لا يقتبسون سلاما من الآخرين. فلنقف، ونلتقي، ونغير حاضرنا اللبناني والعربي، والعالمي، بالحكمة والوعي، وعدم السماح للأيادي الخبيثة أن تلعب في أمعائنا، ولنضع كلبنانيين أيدينا بعضا مع بعض، ولنضع كأخوة مناضلين، أصحاب قضية واحدة، فلسطينيين ولبنانيين، أيدينا بعضنا مع بعض، ولنضع كعرب، يدنا في أيدي بعضنا، حتى نضع حدا للكبرياء الذي نعانيه والذي نحس به، والذي نقرف منه، ونشعر بأنه لا يتناسب مع كرامتنا، وكرامة تاريخنا. فيدا بيد! ووجها إلى جانب وجه! وعقلا إلى جانب عقل! وقلبا إلى جانب قلب، متصلا بواسطة الإيمان إلى ينبوع العقل والفكر والعلم، إلى الله سبحانه وتعالى، فإلى الله .. والسلام عليكم " .

ما ان علم السيد مرتضى العسكري بذلك التأبين، وذلك الاحتفال والاحتفاء بشريعتي من قبل السيد موسى الصدر حتى استشاط غضبا وهاج وثار ثورة عارمة ضد السيد ، مستنكرا عمله المشين باحتفائه بالكافر علي شريعتي، والضال، والمنحرف عن خط الدين، ثم يبين بكل وضوح رأي بأنه تمنى لو كرّم أكبر فاسق على وجه الأرض ولم يكرم أكبر عدو للدين وأهله، وبالطبع هو علي شريعتي في رأيه !! وهو (أي الصدر) بذلك يؤيد ويرسخ تحريف الإسلام باحتفائه بعلي شريعتي، لأن شريعتي يعد رمزا لتحريف الإسلام .. أرسل السيد مرتضى العسكري رسالة إلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين بتاريخ ١٨ رمضان١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧/٩/٦م جاء فيها:

بسمه تعالى

فضيلة الحجة الشيخ محمد مهدي شمس الدين المبجّل .. السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، توالت عليّ اعتراضات وأخبار وشكاوى واستفسارات كتبا وشفاها ومخابرة عن احتفاء السيد موسى الصدر في موت علي شريعتي الكافر بخاتمية سيّد الرسل والمحرّف لشريعته، وأنه أخيرا أقام باسمه وباسم مجلسه مهرجانا تأبينيا كبيرا له، ومن قبل أقام الفاتحة على روح آخرين.

وليته كان قد كرّم أكبر فاسق على وجه الأرض ولم يكرّم أكبر عدوّ للدين وأهله، فإنّ عمله هذا تأييد منه لتحريف الإسلام وتوسعة نطاق الإضلال، ولست أدري ماذا أعدّه للجواب يوم الحساب و "إنا لله وإنا إليه راجعون" . والسلام

مرتضى العسكري الثلاثاء ١٨ رمضان١٣٩٧هـ".

واتصالا بالحديث ذاته، وما يتعلق بتكريم السيد موسى الصدر وتبجيله لشخصية الدكتور شريعتي فقد جاء في أحد تقارير المخابرات الإيرانية مشاهدة السيد مصطفى الخميني برفقة السيد موسى الصدر وخمسة من الطلاب الجامعيين الإيرانيين المقيمين في ألمانيا في المنطقة الزينبية يقرأون الفاتحة عند ضريح الدكتور شريعتي. بجانب هذا فإننا نشير إلى أن السيد موسى الصدر هو الذي تلقى جثمان علي شريعتي في سورية، وهو الذي صلى عليه في حرم السيدة زينب (ع)، وتابعه لآخر ساعة.

(٢) الدكتور محمد الحسيني البهشتي:

في الحقيقة فإن الدكتور بهشتي من أشد العلماء استماتة في الدفاع عن شريعتي وإخلاصه للدين والمذهب، وإن كان لا يتفق معه في مجموعة من آرائه الدينية والتاريخية والعقائدية والتي تحتاج إلى نقد وتوجيه، ويحتاج الدكتور شريعتي فيها إلى مواجهة، ولكنه مع هذا كله يحترمه ويقدر جهاده وإخلاصه، ويرفض بشدة من يصف شريعتي بأنه فاسد العقيدة والسلوك وأنه مغرض، ومحارب لمذهب التشيع، وهذا ما لا يؤمن به بهشتي على الإطلاق، ويخالفهم فيه جملة وتفصيلا. بل هو نقي السريرة، ومخلص في قناعاته وكتاباته وإن كانت لا تتوافق مع السائد، وهو يرى بأن الدكتور يتجاوب مع النقد البناء بكل أريحية، ولا يمتاز بالتزمت في الآراء والمواقف ولا يصر عليها إذا وجد أنه على خطأ، ومتى ما نُبه إليها من قبل عالم حصيف ومخلص في نقده، على عكس ما ينقل عنه بأنه متزمت في آرائه .. وأنه ليس بالشخصية التي تواجه بالعناد واللجاجة الملاحظات والتذكير والمناقشات الخالية من الأغراض والمتفتحة التي من شأنها الإسهام في سد النقص وإزالة العيوب. ويؤكد بأنه لم يجد الدكتور على هذا النحو ولا حتى لمرة واحدة. بل إن بهشتي يذهب إلى أبعد من هذا بأشواط كثيرة في نظرته لفكر وشخصية ودور ومكانة شريعتي، فهو يرى أنَّ الجوانب الإيجابية لعمل الدكتور كثيرة جدا، فقد كان نقطة مضيئة في تاريخ الإسلام وتأريخ الثورة.

وقد حاضر بهشتي كثيرا في الدفاع عنه في قبال من يتهجم عليه أو يفهم أفكاره خلافا لما يريده، وكانت له مساجلات مع العالم الجليل مصباح اليزدي حول نظرية الخاتمية التي بسببها لقي شريعتي الكثير من النقد والازدراء والتسقيط، وكانت له نقاشات طويلة وحادة مع الشهيد مطهري حول طبيعة فهمه لأفكار شريعتي وموقفه منه، وتأويله لكتاباته المختلفة، مما يدعوه لأن يغير من طريقة تلقيه لفكر شريعتي وموقفه منه، ويجب أن نلتفت هنا وندرك حقيقة مهمة، وهي أن بهشتي يبني رأيه حول شريعتي

انطلاقا من علاقة لصيقة به، ومن خلال معايشة وحوارات ولقاءات شخصية، وصداقة طويلة، وليس اعتمادا على نقولات أو نصوص، وإنما لافسه شفاهة ووجها لوجه، وصارت بينهما اجتماعات كاشفة كثيرة. وسوف نكتفي بنقل نصين كاشفين لبهشتي حول شريعتي وحول الدفاع عنه. الأول مقطعان من محاضرة، والثاني مقابلات أجريت معه حول شريعتي وتوجهاته وفكره، وكانت الأسئلة فيها جريئة وصريحة ومباشرة.

الأول: شهادته حول شريعتي

يقول الشهيد بهشتي : " من خلال اطلاعي على كتابات المرحوم الدكتور وأقواله وحواراتي معه، أدركت فيه مثل هذه الميزة في التقصي وطلب الحقيقة. كان الدكتور بنظري ينطلق دوما من الفكر الممزوج بالمذاهب الاوروبية والحديثة، أو العرفان الإيراني والهندي، أو مزيج آخر باتجاه معرفة الإسلام الحي والبناء والأكثر خلوصا ونقاء من الشوائب. هذا المسير رهن للذهن الوقاد والقريحة الغنية والروح المتعطشة والنفس الباحثة والجهود الحثيثة في الليل والنهار، الأمر الذي قلّ نظيره على طريق الفهم والتفهيم. هذا هو الرأي الذي أحمله عن المرحوم الدكتور شريعتي. لهذا السبب كرّس الدكتور وقته وبما سنحت له الفرصة خلال السنوات القليلة لإلقاء المحاضرات والكتابة. أذكر أنني قلت للدكتور في ذلك اللقاء: ان هذا العمل قد يجعل المحاضرات والكتابة طويلة. قال: حسنا، هذا عيبه لدي. لنفعل شيئا وفي أسرع وقت. قلت: كيف ؟ قال: كان لديكم أنتم (خاطبني بالقول وقال أنت) وقت طويل للتحدث والتفكير، منذ أمد وأنتم تفكرون وتتحدثون وتكتبون، لكن الفرصة التي توفرت لي للتحدث والكتابة كانت من مدّة قريبة، وأنا قلق من أنها قد لا تطول.

كان قلقا .. قلقه في الأكثر ناجم من سلب حرية التحدث والكتابة. ربما لم يكن لديه علم بأن الأجل آت، وسيخطفه من بين المتعطشين والمنتظرين. آمل ان يمن الله تعالى عليه بالأجر الجزيل، الأجر الخاص بالباحثين والعاملين بإخلاص .. وآمل أن ينجب مجتمعنا أشخاصا باحثين حداثويين مثابرين حتى يستطيع فكرهم المجاهد وعملهم الإسهام بشكل كبير في رفد عجلة هدف الأمة المتجددة والمثابرة " (الدكتور علي شريعتي باحث على طريق التكامل، د. السيد محمد الحسيني البهشتي، ط١/ ٢٠٠٣م،دار الهادي،ص٢٨).

ويقول الشهيد بهشتي في موضع آخر مبينا موقفه من شريعتي من بين مواقف كثيرة ومتباينة اتخذتها المراكز العلمية من فقهاء وباحثين وطلبة علم ومثقفين، وذلك بشكل واضح لا لبس فيه ولا التواء أو تردد،

يقول : " لكنني قلت بأنني سأتحدث عن فهمي للمرحوم الدكتور علي شريعتي .. النظر إلى الدكتور شريعتي يمكن أن يكون على ثلاث أنماط:

١. على أنه محقق جامع للشرائط توفر فيه حد النصاب من الشروط اللازمة للمحقق بالشؤون الإسلامية، وصاحب رأي مجتهد، حصل على المؤهلات العلمية المعتمدة في الحوزة، هذا فضلا عن اكتسابه المؤهلات الأخرى اللازم توفرها لدى محققي الحوزة العلمية الذين لا يتوفر فيهم حدّ النصاب منها، وزاد عليها، وبالتالي فإنه تمتع بحداثوية التحقيق مما جعلته يستعرض الإسلام بقراءة جديدة وحيّة وملبية لمتطلبات العصر، وتتسم في نفس الوقت بالتحقيق والسندية. هذا نمط من رؤية المرحوم الدكتور شريعتي. لكني لا أحمل مثل هذه النظرة عنه، لست فقط لا أحملها عنه، بل أعتبرها وانطلاقا من معرفتي الملحوظة به وبأعماله، أنها رؤية تتّسم بمبالغة كبيرة، وفي غير محلها، وأرفضها.

٢. على أنه كاتب مغرض وفاسد (فاسد العقيدة وفاسد العمل) ومفسد، أراد أن يحط من قدر الإسلام والتشيع .. لكني أيضا لا أرى المرحوم الدكتور شريعتي على هذا النحو. إن معلوماتي عنه سواء عبر علاقات الصداقة أو لقاءاتي به أو ما سمعته عنه ممن رافقه وهم كثي من مرحلة شبابه وعاشره عن قرب وكلامهم محل ثقة، أم من خلال حجم التحقيق في كتبه ومدوّناته التي قرأتها، وحواري المباشر معه، لا تفضي بي إلى هذه النتيجة.

٣. أ: على أنه باحث ومحقق لا يهدأ، عرف الإسلام بمقدار ما أوردته الكتب المؤلفة في العقود الأخيرة حول الأبعاد الإسلامية والشيعية المختلفة والمحاضرات التي ألقيت في هذا المجال.

ب: على أنه كانت له معرفة بأسئلة واحتياجات الجيل الشاب، لا سيما المتعلم والمثقف في زمانه.

ج: وأنه لم يتوصل إلى أجوبة كثير من الأسئلة والاحتياجات التي أوردها في كتبه ومحاضراته.

د: واهتم بالعلوم الاجتماعية المعاصرة أملا بالعثور على أجوبة لهذه الأسئلة والمتطلبات.

هـ: ولم يعثر فيها على أجوبة تلك الأسئلة والمتطلبات.

و: ونظرا لصلته المتجذرة في قلبه ومشاعره بالإسلام وشخصياته البارزة وخاصة الأنبياء والأئمة (ع) والأبطال والشيعة منهم في المقدمة، فإنه أعاد النظر في العلوم الإسلامية.

ز: وكتب وألقى وعرض ما توصل إليه حتى لا يصطحب ما عرفه إلى القبر، ودون أن يغلق على نفسه باب النقد، حتى نقاط النقد

الرئيسة، أو أن يعتبر العمل في إعادة النظر في العلوم الإسلامية أمرا مفروغا منه.

أما شخصيا أرى الدكتور شريعتي بهذه الصورة، وأضيف بأن له صور من عدم النضوج في حالات إعادة النظر، وأن نتاجه المستند للدراسات والتحقيقات أقل بكثير من نتاجه الناجم عن القريحة والذوق. أعلم بأن فهمه الذوقي الذي يمكن أن ترافقه أخطاء وانحرافات تسبب أو يتسبب في حصول أضرار. لكنه وإلى جانب هذه الأضرار هناك منافع وأمور جذبت عددا كبيرا من الأشخاص إناثا وذكورا إلى الإسلام والتشيع. فأي الأمرين كان أكثر وأعم فائدة؟ لا أدري. هذه المسألة تحتاج إلى إحصائية. حسب اطلاعي فإن الأشخاص الذين تعرفوا أكثر على الإسلام، وأقبلوا عليه بواسطة كتب ومحاضرات شريعتي هم كثيرون، لكن الذين انحرفوا بسببها ليسوا بالكثير حسب معلوماتي، هذا تشخيصي، ربما يكون تشخيص الشيخ مصباح عكس هذا الأمر، إنه استنتاج أوسع، ولا يمكن تقييده بدائرة معلومات شخص واحد.

حسنا .. موقفي تجاه الدكتور شريعتي ونتاجاته هو موقف الاستفادة الصحيحة، لا هو الرفس، ولا التضييع والإلغاء، كما أنَّه ليس بموقف محل الإطراء والمديح له، بل إنه موقف الاستفادة الحسنة من الثروة في خدمة الهدف، مع التحلي بالانتباه واليقظة، دون أدنى تحفظ في مقابل نقاط ضعفه، حيث لم أعمل بالتحفظ في هذا المجال حتى الآن ولا أراه مناسبا، ففي كل النقاط المثارة في كتاباته، وأشار إليها الأخوة أبديت رأيي بها، فإن كان الحديث فيها حسنا قلت بأنه جيد، وإن كان سيئا قلت بأنه خطأ وغير ناضج. ولطالما ذكرت له بأن أسلوبك خاطئ أيها الدكتور، وفيه شيء من النقص، فاعمل على رفعه. تلك هي حقيقة موقفي الذي يتلخص بضرورة الاستفادة من مجموع نتاجاته، ذلك أن كتابات الدكتور فيها إشارات وأمور حسنة، وأخرى كثيرة مؤثرة، إلى جانب الأخطاء الكثيرة أيضا، ولا أجد ضرورة أو دليلا على اتخاذ موقف حادٍ محل موقف الناقد " (المصدر السابق،ص٥٧).

الثاني: لقاءات مع بهشتي حول علاقته بشريعتي

ما هو تقييمك للدكتور شريعتي وما هي الفكرة التي تحملها عن شخصيته الفكرية والسياسية والدينية؟

الدكتور شريعتي ذو قريحة ثرّة، وذهن وقاد، وفكر متجدد. لقد سعى من أجل الإنسان أكثر من أي شيء آخر، وتابع هذه الفكرة على صعيد الإسلام والأديان الإلهية، وعلى صعيد ما جاء به الفلاسفة وخبراء الاجتماع والآخرين من المفكرين بشؤون الإنسان، وحقق النتائج التي تطلع إليها.

في رأيي إنَّ الدكتور شريعتي هو مصداق للتجدد والنهضة. إنه حركة سريعة، إنه حركة مليئة بالمتقلبات، وحركة تنضوي على تطور، هذا التطور والمتغيرات ملحوظة جيدا في محاضراته وكتاباته وكتبه، وحاملا في ذات الوقت قريحة ثرة وذوقا رائعا.

إنَّ كتاباته، وكلماته، وعباراته، وأسلوب كتابته، وأسلوب إلقائه، وطريقة تعامله مع القضايا ومع مجتمعه امتازت جميعها بإبداع كبير، فضلا عن أنَّ الحداثة والابتكار يمثلان واحدة من الميزات البارزة للدكتور. انطلاقا من أنَّ الدكتور كان حركة وتجددا، فإن من الطبيعي أن تتخلل أفكاره وأعماله أمورا متعددة يرفضها الإسلاميون من ذوي الرأي، أو أنه لم تكن له حتى منطلقات أصيلة. لهذا السبب كانت تظهر في كثير من المرات ردود فعل وحساسية في مقابل أقواله وكتاباته، وبالطبع لا من جانب من يحمل نظرة سطحية عن الإسلام، بل من جانب ذوي الرأي والمتعمقين في علوم الإسلام.

بيد أنه ينبغي توخّي الإنصاف في عملية الحكم على الدكتور، خاصة لجهة دوره المؤثر في عودة الجيل الشاب إلى ذاته و "إسلامه" وعثوره مرة أخرى على هويته في الإسلام. إنّ أعمال ونتاجات الدكتور كانت مؤثرة جدا في عودة الجيل الشاب إلى ذات إسلامه، وإنَّ كثيرا من المجموعات والشرائح استطاعت من خلال كلامه وكتاباته ورؤاه العودة إلى ذات إسلامها.

ما مدى معرفة الدكتور شريعتي بالفلاسفة الإسلاميين ؟

لم يكن للدكتور شريعتي معرفة منتظمة ومدروسة بنتاجات الفلاسفة الإسلاميين مثل: ابن سينا، والعلامة نصير الدين الطوسي، والملا صدرا، والميرداماد وغيرهم. إن كتب الفلسفة الإسلامية لم يدرسها بشكل أكاديمي، بل حتى إن مطالعته لها لم تكن بشكل متواصل، أي أنه لم يطالع نتاجات ابن سينا أو الملا صدرا أو على الأقل "الإشارات" أو "الشفاء" لابن سينا أو "الأسفار" للملا صدرا، أو حتى نتاجات أرسطو وأفلاطون التي تعود إلى ما قبل الإسلام، إنّه لم يطالعها مثلما يطالعها الشخص المهتم بمطالعة الفلسفة. لكنه عرف الطريق لهؤلاء المفكرين الكبار عبر كتابات أخرى، لقد جمع معلومات جيدة في مطالعاته الجديدة، أي في مطالعاته حول نتاجات المفكرين الغربيين، وبالتالي فمطالعته عن الفلاسفة كانت بالواسطة. إنَّ قسما من معرفته بالقرآن الكريم ونهج البلاغة وباقي المؤلفات الإسلامية كانت من طريق مباشر، وقسما منها كانت عن طريق كتب أخرى، ومن خلال ذلك استطاع أن يوجد في ذهنه الوقاد والناقد تركيبة جديدة، تمتاز بجاذبية وأثر خاص، ثم سعى إلى معرفة النسيج الثقلي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي الإيراني إلى حد ما، وكذلك التفكير بكل المجتمع

السري. لقد استطاع الدكتور أن يتعرف بشكل جيد على أفكار الفلاسفة والعرفاء الإسلاميين عن طريق الشعر والأدب، وليكوّن له على كل حال وجهة نظر بشأن هذه الخارطة. إنَّ اتساع الأفق لدى الدكتور هو أمر مشهود.

ما هو رأيكم في فهم المجاميع لرؤى الدكتور؟

الدكتور كان حركة فاعلة، الدكتور كان حالة من التطور والتغيير. نعلم أن مواقف الإنسان تتغير في التطورات، بعض مواقفه تحظى بإعجاب بعض المجاميع، في حين تقف أخرى ضدها، هذه الحالة تحصل لكل إنسان، والدكتور ليس بمستثنى منها.

بعض المجاميع تعمد إلى الأخذ بالمواقف المتماشية مع رغباتها وميولها، وتجاهل ما يتنافى مع مواقفها الخاصة. إنَّ المجاميع المتمحورة حول نفسها تتسم عادة بهذه السمة، بحيث أنها تأخذ من كل شخصية أو تيّار أو صاحب رأي كل ما يصبّ في صالحها، وتنبذ كل ما لا يوافقها أو يضرّها. إن الدكتور لم يعتقد يوما ما أنَّ كل ما يقوله هو الصحيح، وهذا المعنى لطالما كرّره. وهل يمكن أن يكون الإنسان ذكيا وواعيا ومفكرا، ويقول في نفس الوقت بأن كل ما أقوله هو الصحيح؟ يشير الدكتور في كتاب " ياد وياداوران" إلى تبدل رأيه بشأن بعض الأعمال العبادية، فيقول : " عندما كنت في عرفات العام الماضي، ماذا كان رأيي بقراءة الناس لزيارة عاشوراء أو زيارة الإمام الحسين، وما هو رأيي اليوم، الرأيان يختلفان مائة وثمانون درجة " . إنه يعتبر هذا التغيّر المتقدم كمالا بالنسبة له، وأن ما كان يفكر به العام الماضي لا يقبله هذا العام. لكن هذه المجاميع ترتكز في عملها مثلا على فكرة العام الماضي التي رفضها بنفسه هذا العام، دون أن يشيروا إلى رفضه الجديد.

ما هي النقاط الإيجابية والسلبية في فكر ومنهج شريعتي؟

لقد اتبع الدكتور في بعض فهمه لآيات القرآن الكريم والروايات أسلوبا نسمّيه نحن "بأسلوب أصحاب الرأي" أن أسلوب من يحاول تفسير العبارة والجملة بما يتطابق مع فكرته المقتنع بها. هذا الأسلوب هو أسلوب محفوف بالمخاطر والأضرار.

في جانب من كتابات الدكتور التي طالعتها قبل سنوات، علّقت في حاشيتها مرارا على أن الدكتور أحبّ هنا فكرة، ورغب في أن يكون لهذه الفكرة سند إسلامي، ثم ذهب وعثر على آيات وروايات، وأراد أن يفسرها بما يجعلها سندا إسلاميا لأفكاره التي اقتنع بها. وعموما فإننا لا نعتبر هذا الأسلوب صحيحا، بل نرى بأن الإنسان حينما يريد أن يتابع علوم الإسلام يمكنه

التوجه صوب القرآن الكريم بأفكار مختلفة، لكنه حينما يتّجه لفهم القرآن الكريم فعليه أولا أن يتحقق من أن أي هذه الأفكار تحظى بتأييد القرآن الكريم، ثم يقول إنّ هذه هي الرؤية القرآنية للموضوع، حتى وإن لم يستسغ عقله هذه الفكرة ويعتبرها غير مستدلة حسب رأيه. إنّ المرء إذا أراد أن يعرف الإسلام فعليه أن يتجه صوبه دون أحكام مسبقة، رغم أن هذا الأمر ينطبق على كل المذاهب، لكنه يستلزم دقة أكبر بشأن الإسلام دين الوحي. إنّ الدكتور يبدو في بعض الموارد (للأسف أنه انقضت سنوات طويلة ولست أذكر بالضبط المصاديق، لكنني دونتها في ذلك الكتاب) على هذه الشاكلة. في اللقاءات المحببة التي كانت لي بين الفينة والأخرى مع الدكتور شريعتي، لفت نظره بكل صراحة وأخوية إلى هذه النقاط ولم أر منه صدودا، بل على عكس ما ينقلونه عنه، لم يكن متزمتا في موقفه وآرائه.

أذكر آني تحدثت معه مرة بالتفصيل، فوجدته متجاوبا. أخونا العزيز السيد خامنئي نقل في مورد آخر أنه تحدث مع الدكتور في موضوع آخر، وتجاوب معه الدكتور. على هذا الأساس ينبغي للباحث والمدقق والمتجدد أن يقبل بحقّ كل ما يساعد حركته التجديدية وبحثه السليم. لذا كانت تلك نقطة الضعف في عمل الدكتور، لكنه ليس بالشخصية التي تواجه بالعناد واللجاجة الملاحظات والتذكير والمناقشات الخالية من الأغراض والمتفتحة التي من شأنها الإسهام في سد النقص وازالة العيوب. أنا لم أجد الدكتور على هذا النحو ولا حتى لمرة واحدة.

على هذا، فإن من يطالع نتاجات الدكتور عليه أن يلتفت إلى هذه النقطة، وهي أنّ الدكتور كان يفهم الأمور أحيانا وفقا لما تجود به قريحته ويفضي به ذوقه، مما يعني حتمية الخطأ والزلات. ذلك أن الصحيح هو أن الإنسان حينما يريد معرفة ما يريد القرآن الكريم قوله، فعليه أن يلتفت إلى ماذا ترمي عبارة القرآن الكريم، سواء كان هذا الفهم يتماشى مع فهمه أم لا. إنّ الجوانب الإيجابية لعمل الدكتور كثيرة جدا، فقد كان نقطة مضيئة في تاريخ الإسلام وتأريخ الثورة.

❁ كيف تقيّم حجم تقبّل الدكتور شريعتي للنقد؟

إنّ إشادتي وتثميني للدكتور تأتي من منطلق أني وجدته باحثا مستعدا لإعادة النظر في آرائه ومتبنياته فيما لو أنك تحدثت معه بلغة واضحة وشفافة ومنطق سليم خالٍ من أي غرض، وهذا بحد ذاته يُعدّ بعدا جميلا وساميا في كل إنسان، ذلك أن الحق وقبوله هو من الميزات البارزة للإسلام.

لماذا يعمد مجتمعنا إلى المساس بشخصياته وثرواته، أو يحجّم هذه الاستفادة، بدل أن يستفيد منها بشكل إيجابي ؟! هذا الأسلوب ليس الأسلوب الذي تعلمته من الإسلام ولا أحبه.

اما اعتقد بأن الدكتور وكثير من الثروات العلمية الأخرى يمكن الإفادة منها بشكل إيجابي وبنّاء، ويمكن تجنب وضع النقاط الغامضة كعقبة أمام الإفادة البنّاءة منهم. ومع ذلك أؤكد بأن على المطالعين لنتاجات الدكتور الالتفات إلى أن الدكتور يسير على طريق التكامل، الأمر الذي أثاره هو نفسه في إحدى محاضراته بشأن عدد من المفكرين غير المسلمين. حينما كان يجري الحديث عن ما يقوله ماركس، فإنه كان يدعو إلى ذكر تلك الأقوال مع أزمانها، في أي زمن قال ماركس هذه العبارة؟ هل كتب هذه العبارات في زمان المانيفيست؟ كم كان عمر ماركس؟ لقد اعتمد هو هذا الأسلوب.

اننا لنجد ذلك أيضا في فقهائنا، فالعلامة الحلّي مثلا والعلامة الطوسي من الفقهاء الذين ألفوا الكثير من الكتب. حينما تقولون "رأي العلامة الحلي" يجب ان تذكروا في أي سنة كان وفي أي كتاب؟ فما أكثر ما رفض العلامة الحلي والشيخ الطوسي في سن الخمسين الرأي والفتوى التي اصدرها في سن الثلاثين. يجب أن نقول بأن الأذهان الوقادة التي تسير في حركة تجديد سريعة يجب أن تكون على هذا النحو.

على هذا ينبغي لمطالعي نتاجاته أن يعرفوا بأنه كان للدكتور فهم إسلامي في سن الثلاثين، وقد رفضه وهو في سن الأربعين أو الخامسة والأربعين ونقده.

● حبّذا لو تفضلتم بالحديث عن كيفية الاستفادة من نتاجات الدكتور؟

على العموم يجب أن نقول بأن على المطالع أن يتعرف أولا على مجموعة منقحة تتطابق مع التعاليم الإسلامية. يجب أن يكون حاملا لفهم جامع عن الإسلام قبل أن يتجه لهذه الكتابات المتلاطمة، وإلا لضاع فكره وذهنه في هذا التلاطم، إذ لن يمكنه بعد ذلك أن يصل إلى فهم واضح عن الإسلام بسهولة.

انا كنت ولا أزال أثق باختيار الجيل الشاب، وأشعر بتقدم وتطور هذا الجيل. أذكر أنه كان لي ارتباط فكري وذهني بالشباب قبل حوالي خمسة وثلاثين عاما ولا أزال كذلك. أعتقد بأن الله تعالى جعل في بلادنا كنوزا من المواهب الخلاقة، وهذه المواهب الغنية تعد بحق ثروات مستقبلية حقيقية وكبيرة.

انّ الأذواق المتنوعة، والقرائح أو أفكار التحليل العميقة كلها تستحق الإطراء والإشادة. آمل أن تكون شريحة الشباب مع ما تقرأه أو تسمعه وما تحوله سبيلا لنجاة الجماهير المستضعفة والفقيرة، ومنبع خير لكل البشرية، علينا أن نعتبر أن شريحة الشباب هي اللبنة الأساس في مستقبلنا.

إني أوصي بهذا الجيل لئلا تجرفهم التيارات مهما كانت، وأن يواصلوا حركتهم البنّاءة المتسارعة، مع المحافظة على هويتهم الأصيلة والأصلية.

❁ متى تعرفتم على الدكتور؟ حبذا لو تفضلتم ببعض الذكريات المتعلقة باللقاءات الأولى.

بسم الله الرحمن الرحيم .. تعرفت على المرحوم الدكتور شريعتي لأول مرّة عام ١٩٧٠م، في صيف هذا العام كان لنا في مشهد مع السيد خامنئي والمرحوم الدكتور شريعتي وبعض السادة عدد من الجلسات تمحورت حول القضايا والمتطلبات. في تلك الأيام كان لبعض الأشخاص المتحمسين لتنظيم المواقف الفكرية الإسلامية اجتماعات منتظمة. في اجتماعاتنا تلك تطرقنا أحيانا حول هذا الموضوع، غير أن الحديث مع الدكتور غالبا ما كان يدور حول التحرك الإسلامي والحركة الإسلامية ومتطلباتها في الظروف التي كانت تحيط بها وكذلك مستقبلها. ومنذ ذلك الحين استمرت النقاشات والمباحثات لا سيما بعد مجيء الدكتور إلى طهران، إذ ازدادت فرص الحوار وتبادل وجهات النظر.

❁ ما هو رأيكم بشأن طريقة تفكير ورؤى الدكتور شريعتي ؟

لطالما تكرر هذا السؤال، ولطالما أيضا تكرر الجواب، وأجيب عليه الآن أيضا.

المرحوم الدكتور شريعتي كان ذو (هكذا) قريحة غنية، ويحمل فكرا متجددا، كان باحثا ومفكرا متعطشا، دؤوبا على الدوام من أجل أن يفهم ويعرف. شكلت المعارف الإسلامية أسس هذا الفكر، وقد اطلع عليها وهو لا يزال في بيت والده بمدينة مشهد المقدسة (حجم تعرفه عليها فاق حجم معارف ومطالعات الشاب العادي) وكانت له أيضا مطالعات في مجال الأدب وعلوم الاجتماع حول الثقافة الغربية والأوروبية.

إنَّ ميزة الدكتور تتمثل في أنه لم يفقد هويته وأصالته في هذه المطالعات، ولم يتنصل عن نفسه. واضح أن سنوات المطالعة والدراسة في مجال علوم الاجتماع والمعارف الغربية لم تجعله ينبهر أو يذوب تماما في الثقافة الغربية، بل ظلت أصالة الثقافة الإسلامية الغنية دوما بالنسبة له قوة جاذبة. كما إنَّ نفس هذه الميزة صارت سببا في أن يتمكن الدكتور وإلى جانب المحافظة على هويته وشخصيته يتمكن من قطع خطوات واسعة إلى الأمام على طريق السير والسلوك الفكري والمعرفي، ويحقق نتائج رائعة وقيمة.

هذه الموهبة الفوارة والقريحة الثرة جعلته في مثل هذا المسير والتجدد البناء، وبشكل تلقائي ذا وجهة نظر ورأي في القضايا المختلفة، وما أكثر ما

اختلفت وجهات نظره في الموضوع الواحد مع توالي الأيام. الأمر الذي تذكره بهذا الشأن هو النقطة التي أوردها الدكتور في كتابه "ياد وياداوران" هو كيف أن الدكتور شريعتي حينما ذهب إلى الحج ورأى هناك عددا من الحجاج الشيعة يعمدون في عرفات ومواقف أخرى من الحج إلى ذكر الإمام الحسين (ع) وقراءة زيارة عاشوراء وزيارة وارث .. هنا يتبادر إلى ذهنه لأول مرة هل من المناسب أن يعزف الشيعة في هذا المكان وهذا التجمع العام لكافة مسلمي العالم على وترهم الخاص، ويرفعوا شعارهم الخاص بهم. أي صبغتهم الحسينية وكونهم حسينيين ؟ أليس من الأفضل أن يساير الشيعة غيرهم من المسلمين هناك بقراءة تلك الأدعية وأداء باقي المناسك الإسلامية العامة ؟ في العام التالي وحينما يتشرف بزيارة بيت الله الحرام مرة أخرى ويرى نفس تلك المشاهد يلتفت فجأة إلى أنه، نعم ! الحقيقة هي أن مراسم الحج العظيمة إنما هي ظاهر وأفعال مادية باطنها وروحها هو التفكير على النمط الحسيني، والعيش على النهج الحسيني. لذا فالتوجه للإمام الحسين (ع) على كل نحو في المواقف المختلفة للحج يعني الاهتمام بروح هذه المناسك والعبادة الكبيرة، وأن حلقة الوصل في كافة العبادات هي الولاية والإمامة. يلتفت الدكتور إلى أن الحج، وهذه المراسم العظيمة، لو باتت تحت سيطرة الخلافة الأموية والعباسية وساسة الطاغوت وفي خدمتها، فستكون حق (هكذا) يستفيد منه الباطل، أما لو كانت نفس مناسك الحج هذه على نهج الإمام الحسين والحسينيين لصارت حينها حقا يصاحبها حق أعظم. لذا يتبادر إلى ذهنه أن من المناسب جدا أن تتوجه القلوب في نفس تلك الأماكن والمواقف إلى كربلاء والإمام الحسين، وتقرأ زيارات الإمام الحسين (ع) كي يتم في تلك الزيارات ذكر الشهادة والإمامة الحسينية، ويجدد القلب وتجدد الروح ويجدد الضمير العهد مع روح الحج، أي مع الإمامة الحسينية. أي يتبادر له في العام السابق أن هذا العمل في غير محله، وفي العام الذي يليه يذهب إلى أنه مناسب، بل وضروري أيضا، وذلك للحفاظ على المغزى الصحيح للحج. في هذا الموضوع ألقى الدكتور محاضرة تنشر بعد ذلك على شكل هذا الكتاب، أي كيف يجب أن نكون دوما بذكر الحسين والحسينيين.

الفكر المتجدد والباحث يتميز دوما بمثل هذا التغير بمقدار مائة وثمانين درجة. والدكتور شريعتي كان يحمل في كثير من القضايا مثل هذا الفكر. كان يقول بشأن ماركس حينما تقولون ماذا قال ماركس فعليكم أن تقولوا ماركس في أي عام، ماركس في زمان كتابته للمانيفيست ١٨٤٨م، أم ماركس عام ١٨٧٠م، أم بعده. على هذا كان يفكر بأن الإنسان الباحث يواجه عبر الزمان تغييرا في آرائه إزاء القضايا المختلفة. إنه تحدث عن ماركس، بينما أنا أقول بأن في تأريخ فقهائنا شخصيات فقهية بارزة اتسمت بالذهن الوقاد والقريحة الثرة والفكر المتجدد.

العلامة الحلي والشيخ الطوسي هما فقيهان معروفان، ولكل منهما مؤلفات كثيرة، إننا نجد للعلامة الحلي في كتبه المختلفة فتاوى مختلفة لمسألة واحدة، أي أن الفكر متجدد. والعجيب أنه يثير المسألة أحيانا في كتاب واحد وفقا للمتطلبات، أحدها في بداية الكتاب والأخرى في نهايته، حيث كان له فهم آخر للمسألة، ولما ينتهي الكتاب بعد وعلى ذلك يصدر فتوى جديدة بالمسألة. إنها ميزة الأفكار المتجددة والمتمكنة، ولقد كان للدكتور فكر متجدد ومتين.

ما أستطيع قوله بشأن العلاقة مع الدكتور نقطتان:

الأولى: استنادا للقاءاتي وارتباطي به، والمقدار الذي سمعت منه وقرأت عنه، فإن الدكتور قد تحرك دوما صوب الأصالة الإسلامية، أي أنه اقترب في كل خطوة خطاها من الأصالة الإسلامية.

الثانية: على عكس ما تردد في بعض الأوساط من أنه لا يصغي لكلام الآخرين، فإنه كان يستمع للكلام المنطقي والمستدل من ذوي الرأي ويقبله، شريطة أن يكون ذلك الشخص بالمستوى الفكري القادر على التحليل، ويستطيع أن يحلّ له المعضلة والموضوع.

ما هو رأي رابطة علماء الدين المجاهدين منذ البداية بالدكتور شريعتي؟

رأي العلماء بشأن الدكتور ينقسم إلى أقسام: قسم اعتبر الدكتور مثقفا منفتحا، ينصبّ عمله في خدمة الإسلام والدفاع عنه. فيكنّ له الاحترام. القسم الآخر، وإلى جانب احترام الدكتور كان يوجّه له النقد بسبب أخطائه الكبيرة في فهمه الإسلامي، على أن هذا النقد كان بنّاء ومنصفا. القسم الثالث لم يكن يحمل نظر القسمين الأول والثاني بسبب ابتعاده عن الدكتور، ولقد كان في رابطة علماء الدين المجاهدين وجهات نظر متعددة حول الدكتور.

بماذا تتمثل ميزات الدكتور شريعتي؟

كان الدكتور رجلا مثابرا دؤوبا، كثير العمل، مفعما بالمشاعر. كان بحق فنانا، تجلى بعده الفني في قلمه وكتاباته. كان فكرا وقادا تشهد له كتاباته ومحاضراته بذلك. كان بحق راغبا في وقوع ثورة أصيلة تحت راية الإسلام، ومنبثقة من أسس تعاليم الإسلام على أرضنا، بعيدا عن تأثير الثقافة الغربية والشرقية، بل كان تواقا بكل أحاسيسه إلى تحقيق ذلك. كان يهتم كثيرا بجيل الشباب، عرف جيدا هموم الشباب، وكان يستطيع أن يبين همومهم وآلامهم وتطلعاتهم. على كل حال كان ثروة قيمة. مع

العلم وكما قلت سابقا إن الدكتور كان متجددا وباحثا، ارتكب في هذا الطريق أخطاء ملحوظة في فهمه للأمور الإسلامية والاجتماعية، ومن الضروري الالتفات إلى تلك النقاط عند مطالعة مؤلفات الدكتور.

ماذا كان دور الدكتور شريعتي في الثورة الإسلامية؟

لقد أوجد الدكتور طوال تلك السنوات الحساسة حماسا مؤثرا ألهب أجواء الثورة الإسلامية، ومارس دورا بناءً في استمالة واستقطاب الشبيبة المثقفة والمتحمسة للإسلام الأصيل، وحفز قلوبا كثيرة لتكون في ركب الثورة الإسلامية. على الثورة الإسلامية والمجتمع أن يثمنان (هكذا!) ذلك الدور.

السؤال الأخير، ماذا كان رأي "مجاهدي خلق" في ذلك الزمان بالدكتور شريعتي؟

كان الشباب المرتبط في ذلك الزمان مع المجاهدين يترددون بكثرة على حسينية الإرشاد، وينتقدون نشاط الحسينية وأفكار الدكتور شريعتي، وكانوا يقولون: بأنّه تيار أوجده المعارضون للثورة الإسلامية كي يدفعوا الشباب نحو الفتور إزاء الثورة والعمل المسلح. وهي نظرية مجاهدي وفدائيي الشعب. على هذا كانوا يعتبرون أن عمل ونشاط الدكتور وتلك البرامج عموما تتعارض مع مبادئهم ورؤاهم. كانوا يعتبرون الدكتور نوعا من الحركة المضللة. هذا ما كان يظهره الشباب الذين كانوا يأتون إلينا. " (المصدر السابق،ص٨٠).

(٣) السيد علي الخامنئي:

بالنسبة لموقف السيد علي الخامنئي من الدكتور علي شريعتي فإننا نرصد كلمة له في حقه كتبها في مجلة "الوحدة"، نتلمس منها إشادة وتقدير لدور الدكتور، ولما بذله في سبيل أمته وفي سبيل الإسلام، ولما يحمله من تقدير للحوزة الدينية على خلاف ما يُشاع عنه، وأنه يملك إبداعا خاصا وقدرة فائقة على نقل تصورات الإسلام إلى الشباب بلغة جذابة، وأسلوب شائق. وأنه في الوقت الذي يجب أن نحرص فيه على قراءة كتب الشهيد مطهري فإنه ينبغي أن نقرأ كتب شريعتي جنبا إلى جنب.

يقول السيد الخامنئي :" أود هنا أن أنقل لكم خاطرة جرت عام ١٣٤٧هـ.ش (١٩٦٩م) أي في السنة الأخيرة من عمر جلال آل أحمد، حيث جاء المرحوم آل أحمد إلى مشهد، فجمعتنا به جلسة مشتركة كان من حاضريها بالإضافة إلى آل أحمد المرحوم شريعتي وعدد من الأصدقاء. حين وصل الحديث إلى علماء الدين، وكان يعبّر عنهم يومذاك بالحوزة العلمية،

التفت المرحوم آل أحمد إلى شريعتي متسائلا لماذا تنتقد الحوزة العلمية بكثرة ولا تنتقد مثقفينا ... هلمّ وانتقد مثقفينا أيضا !

أجاب المرحوم الدكتور شريعتي بجواب يمكن أن نتلمس من خلاله حقيقة موقفه في التمييز بين "الروحانيين" كموقع وحالة، و "الروحانيين = علماء الدين" كأشخاص، قال : " إنّ سبب إصراري على نقد الحوزة العلمية، يعود إلى أننا ننتظر الكثير منها، بينما لا ننتظر شيئا من نُخب مثقفة وُلدت في أحضان الثقافة الغربية. الحوزة العلمية قاعدة أصيلة نأمل منها أن تقدم الكثير، وحين تتخلف عن العطاء في مقام العمل، فإننا نمارس النقد تجاهها".

أستطيع القول إن شريعتي يمثل مرحلة، ولكن بهذا المعنى: لقد استطاع أن يطرح أفكارا في المجتمع من خلال لغة واضحة وأن يبينها لذلك لجيل من خلال هيمنة خاصة على الثقافة السائدة بين أفراد ذلك الجيل. وهذا لا يعني مطلقا أن شريعتي لا يمتلك إبداعا معينا، وإنما كان له الكثير من الإبداع في المسائل الجديدة وهذا هو المعنى الذي أعنيه بأن شريعتي يمثل مرحلة مضت.

المرحلة التالية لشريعتي هي أن تأتي للقضايا التي طرحها انطلاقا من فهمه للثقافة الإسلامية، وتعيد تأسيسها ومطابقتها في إطار أصول الرؤية الفلسفية الكونية للإسلام.

إنّ عملية إعادة البناء هذه ستتمخض في نظري عن مرحلة جديدة تكون مفيدة لجيلنا الحاضر وبتعبير آخر، إنّ ما نحتاج إليه هو أن نقرأ شريعتي إلى جوار مطهري. فما ينتج من الجمع بين جمال البيان لشريعتي ومتانة الفكر الإسلامي وإحكامه لمطهري، هو بالضبط المرحلة الجديدة التي يحتاج إليها جيلنا الحالي.

إنّ الإطار التأسيسي الذي يجعل الدكتور شريعتي في إطار الروّاد الأوائل، يتمثل في قدرته البيانية الفائقة في إعادة طرح الإسلام بلغة حديثة تتناسب مع ثقافة الجيل يومذاك. وإذا كان الكثيرون ولجوا قبله هذا المجال، فإن النجاح الذي حققه شريعتي لم يحققه سواه" (علي شريعتي .. الهجرة إلى الذات، جميل قاسم، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١/٢٠١٠م، بيروت، ص٢٦٩).

(٤) آية الله الطالقاني:

دافع آية الله محمود الطالقاني (١٩١١-١٩٧٩م) باستماتة عن شريعتي، وعن نقائه وإخلاصه للدين، والفكر الإسلامي حسب ما يذهب، وكان الطالقاني يرى بأن شريعتي يمتاز بالنبل والخلق والتواضع، بجانب هذا لم يكن

متعصبا لآرائه وأفكاره، بل كان يبحث باستمرار عن الحقيقة، ويتقبل النقد، كان شريعتي كما يرى الطالقاني مظلوما، وشنوا عليه من كل مكان حملات ظالمة لا تتوقف، والسبب أنهم لا يستمعون له بحق وإنصات ونقة. بل يقتطعون كلماته ويبترونها ومن ثم يحكمون عليه ويشوهون فكره وصورته ويحرضون ضده بكل قسوة، لقد لمست في شريعتي من خلال مجالستي إياه صفاء الروح ونقاء السريرة كما يقول طالقاني .. وإليك نص كلماته التي قالها في جامعة طهران، بمناسبة ذكرى وفاة شريعتي. يقول الطالقاني :

" جاء رجل إلى الإمام جعفر الصادق (ع) وهو مضطرب، فخاطب الإمام: يا بن رسول الله هلكت. فسأله الإمام: وماذا حدث؟ فأجاب: إني شككت بوجود الله. فهدّأ الإمام من روعه، وبدلا من تكفيره أو طرده قال له: الله أكبر! هذا أول اليقين، فالله الذي عرفته وعبدته قبل كان صنيع خيالك وأوهامك، كان صنما صنعته أنت، ليكون آلة بيدك تستخدمها لصالحك. الآن شككت بذلك وحطمت ذلك الصنم، وقد بقي عليك أن تواصل طريق اليقين لتصل الى الإيمان الصحيح.

هناك الكثيرون ممن يعبدون إلها كهذا، إنهم يحتاجونه كوسيلة للعيش والشفاء من الأمراض، وكبديل عن العمل والسعي والطب والعلم و ....، إنّ ذلك الإله هو تماما كالصنم الذي تصنعه الأوهام والخيالات المريضة لبشر ضعفاء.

لاشك أيضا في أنّ كثيرين يبدأون بالشك، ويبقون أسراه دون أن يستطيعوا الخلاص منه والعبور إلى اليقين. أما الشك الذي نتحدث عنه، فهو الذي يعتبر أول اليقين، ويعتبر حافزا على البحث والدراسة الجادة ..

انّ المرحوم شريعتي تميز بروح مستفيضة شكاكة منذ بداية شبابه وأوائل عهده بالدراسة والتحصيل العلمي. كان يشك في كل شيء حتى في دينه، فقد كان يشك في الدين السائد بين الناس، أي بذلك الإسلام الممسوخ، ذلك الإسلام الذي حوّل إلى دكان للارتزاق، ووسيلة للاحتراف وتربية "المريدين". كان لابدّ لشاب واع مثل شريعتي أن يبدأ بالشك، لكنه لم يبق اسير الشك.

بدأ الدراسة، بحث في الأصول، قرأ في المناهل الأولى، فكّر وتمعن في التفكير، هاجر في أرض الله الواسعة، والتقى بالناس في العالم، واحتك بمختلف المدارس والمناهج، فتوسعت آفاق فكره، حتى بلور مفهومه عن إسلام ثوري حيّ. وعاد إلى وطنه حاملا عبء الرسالة. إن هذا التحول والتطور إنما عاشه معظم شبابنا، ولكن ليس كل واحد منهم بشريعتي، ليستطيع أن يعبر مخاض الشك والتردد فيصل إلى اليقين.

في ظل أكثر العهود إرهابا وسوادا، حيث كان مجرد ذكر الإسلام الثوري، يُعد أكبر جرم في نظر الطغاة، بدأ شريعتي مهمته، فكسب قلوب الشباب وبدأ بتغيير مفاهيمهم. فقد كان الشباب إما أسرى مناهج ومدارس فكرية أخرى، أو مبهورين وغير واثقين من أنفسهم. إنّ علي شريعتي رسّخ ثقة عميقة بين الشباب، ثقة بأصالتهم وفكرهم وبقدرتهم على الوصول لليقين، ورغم كل هذه الجهود الجبّارة، فقد كان يُردد طوال عمره وإلى أن وافته المنية: لست منزها عن الأخطاء، وغالبا عندما كنا معا، كان يقول لي: قوّمني إذا أخطأت، ناقشني لأرى كيف يمكن أن أصحح أخطائي. إذن هذه كانت من صفاته البارزة، إذ إن على الإنسان أن يتوقع دائما أنه قد يخطئ وأنّ عليه تصحيح خطئه.

كان دائما يستمع للآخرين، ويفكر في القول ليتبع أحسنه. كان يأخذ ما هو الأحسن من كل مدرسة وفكر: مدرسة اليسار، مدرسة اليمين، مدرسة الإسلام، وقد قال لي مرّة: إنني آخذ جملة أو فكرة من كتاب عادي جدا، كتاب ديني شائع مثلا، فأبرز وأطور ما لم تقع عليه أعين القرّاء. **لقد كان إنسانا نبيلا خلوقا متواضعا، وكم ظلمه أولئك الخصوم الذين اتهموه بأنه عنيد لا يقبل النقاش.**

كان يتحدث ويكتب ثم يقول للآخرين: ناقشوني وقوّموني فلربما كنت أنا على خطأ... ومن خلال النقاش الصبور الدؤوب، استطاع أن يبلور ذلك النهج الإسلامي الذي هو كفيل بتغيير أمة بكاملها، واستطاع أن يسترجع شبابنا من "قصور الشباب" التي بناها الشاه ليلهو فيها الشباب وينسوا رسالتهم الاجتماعية ويصبحوا مشوهين وممسوخين. لقد استرجعهم شريعتي بعدما جعل من حسينية الإرشاد منارا ومركزا للاستقطاب.

كل يوم ... كنا نشهد معركة ضد شريعتي في أحد أحياء العاصمة. لقد شنّوا عليه حملات ظالمة مستمرة. كنا نقول لأولئك المتحاملين: ماذا حدث؟ اذهبوا واسمعوا آراءه وناقشوه، وقدّموا له الرّد الذي تريدون. لكن الأمر كان يجري على نحو آخر، إذ كان البعض يقتطع جملة أو فقرة من كتاب له، ويستخدمها لتشويه فكر شريعتي والتحريض ضدّه في الاجتماعات العامة ومختلف الأوساط. تلك الاجتماعات التي كنا نعلم أن الساواك SAVAK كان وراء تنظيمها سرا أو علانية.

لكن تلك المحاولات لم تنل من شريعتي، وقد حقّقت أفكاره تغييرات كبرى في عقول الواعين من الناس، وخصوصا في عقول الجيل الجديد. إنّ الإنجازات التي حققها شريعتي في قلب مفاهيم بأكملها بين الناس، هو الذي مهّد لثورتنا العظيمة وأرسى أسسها.

ان اخر مرة التقيته فيها، كان عندما خرج من السجن، وقد سهرنا الليل معا إلى ما بعد منتصفه، وقد تلمست فيه صفاء روح وإجادة تعبير لن انساهما طوال حياتي، وعندما كنت أتحدث، كان يستمع إليّ بكل جوارحه، ثم يعلق على الموضوع فيغنيه بشرح أوضح وتعبير أفضل. كان اخر موضوع تحدثنا حوله هو سورة القدر، وتفسيرنا لمسألة ليلة القدر. أنا قلت جملة واحدة، فتلقفها مني، وشرح بتحليل بهرني وجعلني أنسى الوقت، فلم انتبه إلا وقد مرّت ساعة من بعد منتصف الليل .. بعدها ودّعته وافترقنا...

سار هو نحو قدره، نحو "ليلة قدره"! وسرت أنا نحو قدر آخر، نحو السجن، حيث اقتربت من الموت، لكنني لم أحظ بالشهادة، ولربما كانت مشيئة الله تريد بي شيئا آخر. أما هو فقد هاجر متجها نحو الشهادة.

ارجو من الله، أن يحفظ أفكار ونظريات ذلك الإنسان العظيم حيّة في الاذهان. كما أرجو منكم أن تدرسوا مؤلفاته وأفكاره وأن تطوروا مواضيعها.

ناضلوا وسيروا على الدرب الذي انتهجه شريعتي من أجل تشخيص ومعرفة الإسلام الذي نريد، إسلام الثورة الاجتماعية، لا إسلام تقليدي وذاتي .. فهذا ما كنا ننتمي إليه دون جدوى.

ان مسؤولية الحفاظ على الثورة ومواصلتها تقع على كاهل الجيل الجديد. انني أعيش آخر أيامي، وقد وصلت إلى نهاية حدّي. أرجو من الله أن يحفظ ويوفق الذين لازالوا على الدرب سائرين" (المصدر السابق،٢٧٧).

(٥) مهدي بازركان:

قبل أن نورد شهادة بازركان (١٩٠٧- ١٩٩٥م) في حق شريعتي الذي زامله وعاصره واحتك به مناضلا ومفكرا، من المهم أن نعطي نبذة للقارئ حول سيرة بازركان الاجتماعية والسياسية، ودوره الكبير في الثورة الإسلامية بايران، وذلك للإضاءة حول النص وأهميته من حيث قائله، ووزنه السياسي والعلمي.

ولد مهدي بازركان في عائلة تعمل بالتجارة. في تعليمه المبكر جمع ما بين الدراسات التقليدية والحديثة. أرسل فيما بعد إلى المدرسة المركزية في باريس، وعاد في عام ١٩٣٥م حاصلا على شهادة الدكتوراه. انضم بازركان الى المصرف الأهلي بعد أداء خدمته العسكرية. أصبح أستاذا أيضا في كلية الهندسة، جامعة طهران. تعاون مع شخصية رئيسية في المعارضة لشاه ايران، السيد محمود الطالقاني، من أجل نشر رسالة الإسلام التقدمي.

أصبح بازركان نشيطا جدا في تأسيس ومساعدة الجمعيات الإسلامية، كما انضم إلى الحركة القومية برئاسة محمد مصدّق أيضا.

في عام ١٩٥١م أصبح نائب وزير، وأشرف على تأميم شركات النفط. بعد انقلاب عام ١٩٥٣ انضم بازركان إلى المقاومة القومية، لكنه سجن. وأسّس مع طالقاني وآية الله سحابي حركة تحرير إيران، لكنه سجن مرة ثانية مع الاثنين. وحُكم على كلٍ منهم بالسجن لمدّة عشر سنوات. وصف الإمام الخمَيني في بيان له هذا الحكم بأنه جائر وأظهر تأسّفه لإدانة الطالقاني وبازركان وسحابي. تمّ إطلاق هؤلاء المعتقلين في العام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م بعد أن أمضوا خمس سنوات في المعتقل بين العامين ١٣٨٧- ١٣٩٨هـ (١٩٦٧/١٩٧٨م). أسّس بازركان فيما بعد مع آية الله مرتضى مطهري وطالقاني الجمعية الإسلامية للمعلمين وشارك في تأسيس جمعية حقوق الإنسان أيضا.

تابع بازركان أنشطته السياسيّة والفكريّة بشكل شبه علني. هذه الأنشطة زادت وأصبحت أكثر علنيّة في سنتي١٣٩٧-١٣٩٨هـ (١٩٧٧/١٩٧٨م) مع حصول ما سُمّي بالانفتاح السياسي، وبعد ذلك مع تصاعد الانتفاضة الإسلامية للشعب الإيراني بقيادة الإمام الخميني واتساعها. بعد هجرة الإمام الخميني إلى باريس كان بازركان أيضًا من جملة الشخصيّات التي سافرت إلى باريس، حيث حاور الإمام حول مستقبل الثورة الإسلامية وقضايا إيران السياسيّة.

عيّنه آية الله الخميني أول رئيس وزراء للحكومة المؤقتة في عام ١٩٧٩م. استقال بعدها بسبب قضية الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران وأخذ الرهائن الأمريكيين. أسّس فيما بعد جمعية الدفاع عن الحرية وسيادة الأمة الإيرانية" (موسوعة الحركات الإسلامية،د.أحمد الموصلي،ط١/٢٠٠٤،مركز دراسات الوحدة العربية،ص١٦٩).

وفي مصدر آخر نجد ما كتب عنه قريبا من هذا مع بعض الإضافات .. :

" ولد مهدي بازركان لعائلة غنية في طهران عام ١٩٠٨م، فتح عينيه في أجواء نجاح الحركة الدستورية ضد الاستبداد في أوائل القرن ١٩٠٦م، ثم انتكاسة هذه الحركة، وكان أبوه من الناشطين فيها، درس على يد معلمين أكفاء كـ "أبو الحسن فروغي" الذي كان يجمع بين العلم والدين، وقد أثّر ذلك على مجمل حياته الفكرية حيث كان دائما يحاول رفع التناقض الوهمي بين العلم والدين. كان بازركان ضمن أول مجموعة طلابية أرسلت إلى خارج إيران للدراسة في فرنسا، حيث درس فيها الهندسة الكهربائية، الحياة في فرنسا والتقدم التكنولوجي عمّقت في وجدانه بأن النهضة في الشرق لا يمكن إلا عبر العلم والإيمان والأخلاق، فالعلم بلا إيمان لا مردود له، وإنّ سر التقدم الأوروبي هو التزامهم بالأخلاق والإيمان إلى جانب العلم. عمل

بازركان في القطاع الحكومي وكذلك في القطاع الخاص، له أكثر من سبعين كتابا ومقالة عن قضايا مختلفة في الفكر الإسلامي، توفي في طهران عام ١٩٩٥م.

ومنبر بازركان أحد أبرز الدعاة المدافعين عن الإسلام والقرآن في الفترة المعاصرة، إذ ترتكز كل كتاباته ومحاضراته على إثبات أحقية الإسلام وانسجامه مع العلم والمكتسبات العلمية البشرية. وقد تبلورت حصيلة حوالي نصف قرن من جهوده في طريق إحياء الفكر الديني والإصلاح الاجتماعي في عشرات الكتب والمقالات. وإلقاء نظرة عابرة على عناوين اتجاهاته الفكرية يشهد على هاجسه الديني وسعيه الفكري لمعالجته هذا الهاجس. ولكن هذا الهاجس لم يظهر في القوالب التقليدية للفقه والعرفان والفلسفة، بل يشكل الفكر التجريبي والعلمي أساس تأملاته وأفكاره الدينية. إنّ ما يلاحظ بوضوح في بحوثه الدينية والاجتماعية هو التوجه ذو البعدين: نحو النصوص الدينية وبالأخص القرآن الكريم، ونحو العلوم التجريبية.

عاش بازركان في فترة زمنية تميزت بالانفتاح على الغرب والتقاط النماذج الغربية، وكانت إيران في تلك الفترة مصابة بحمّى الإصلاحات. وكان هو احد أفراد البعثة الطلابية الأولى الموفدة إلى أوروبا في عام ١٩٢٨م. وانطلاقا من الهاجس الديني نفسه كان سعي بازركان في التقاط المظاهر الحضارية الأوروبية المنسجمة مع توجهاته الدينية ونقلها إلى مجتمعه المتخلف، وقد تأثر شخصيا بشكل كبير بالميزات الأربع للحضارة الغربية وهي: التفكير الديمقراطي والتحرري، والروح الاجتماعية، والتفكير العملي (البراغماتية)، والمناهج العلمية، ويمكن ملاحظة هذا التأثر بوضوح في بحوثه الدينية.

ومجمل الموضوعات التي حظيت باهتمام بازركان هي: الإصلاح والإحياء الديني، العودة إلى القرآن، علاقة العلم والدين، علاقة الدين والدنيا، الدين والسياسة، علم الإنسان، معرفة الآفات التي تهدّد الدين، الآفات الاجتماعية في إيران وسائر الشعوب الإسلامية، مواجهة الغرب، ومن ثمّ: الدفاع العصري عن الدين " (اتجاهات الفكر الديني المعاصر في إيران، مجيد محمدي، ط١/٢٠١٠م،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ص١٧٧).

يقول بازركان في حق شريعتي:

انّ معرفتي بعلي شريعتي ترجع إلى فترة مبكرة، إلى بدايات التعاون مع والده الأستاذ محمد تقي شريعتي (الذي كان دائما يغمرنا بلطفه ويكرمنا بتأييده). في مرحلة أخرى، عمل علي شريعتي معنا في حركة تحرر إيران، وأسّس فرعها في أوروبا عندما استقر في فرنسا، رغم أن هذا كله، لا يعني

اتفاقنا في جمع أطروحاته الفكرية، فقد طرح مفهوما معينا للشهادة ولتاريخ الشيعة وأمورا كثيرة أخرى لا مجال للخوض فيها هنا.

المهم هو أنه يرجع إليه الفضل في تكوين جيل كامل من الشباب، جيل واع ضد الاستعمار والاستغلال من جهة، وضد التجهيل الديني من جهة أخرى. لقد ابتكر هو في أدبنا السياسي كلمات الاستضعاف والاستحمار، وكافح من أجل طرح الإسلام، بحيث يعني تطبيقه، بناء مجتمع توحيدي خال من الطبقات والاستغلال. لقد طرح الإسلام ليس فقط بأسلوب جديد، وإنما بروح جديدة متجاوزا في ذلك رجال الدين.

إنّ تجاوزه لرجال الدين، أدّى ببعضهم إلى محاربته وحتى تكفيره. فقد كسر هو احتكارهم لعلوم الدين، ثم أنّه حاول أن يبعث في الناس قوة الإرادة والثقة بالنفس والشعور بالمسؤولية، حاول أن يغني الناس عن الوسطاء في ارتباطهم بالله، وهذه كانت ضربة لمصالح ووظائف بعض رجال الدين.

إنّ علي شريعتي كان ابنا بارا لهذا الزمن، الذي يغلي بحركات التحرر والثورات والانقلابات الاجتماعية. تأثر بالثورة الجزائرية وبفرانز فانون وبثورات العالم الأخرى. في الواقع، إنّه دون جهود علي شريعتي لما كانت الثورة تنفجر في ذلك الوقت بالذات، أو لربما اتخذت مسارا آخر. رغم هذا لا يمكن اعتباره صانعا للثورة كما يصفه البعض، لأنه لا يوجد صانع للثورة. إنّه كان أحد أبرز معلميها وروّادها، وإنّ دوره أثّر في توقيت الثورة ومسارها.. لكنه لم يصنعها كما لم يصنعها أحد آخر.

إنّ التاريخ يسير نحو الأمام، والجميع يواكبون هذا المسير، أحدهم يخطو خطوة للأمام وآخر يتلوه في الخطو، وربما يحاول آخر أن يعرقل، لكن مسيرة الثورة تجري نحو الأمام وتفعل فيها عناصر وتأثيرات شتّى، لذلك يصعب التركيز على دور شخص معين، وكأن له قدرة خارقة. إنّ هذا الأمر صحيح فيما يخص الاختراعات العلمية، ناهيك عن الحركة الاجتماعية. ثم إنّ الفكر لا يصنع الثورة، إنّ الثورة تصنعها أساسا حاجة المجتمع نفسه للتقدم، والناس عندما يحتاجون الثورة ينشدون الفكر الذي يرشدهم ويمنحهم السلاح في النضال .. هكذا كانت حاجة الشعب الإيراني للثورة ضد نظام الشاه، وهكذا كان تمسكهم بفكر علي شريعتي" (هكذا تكلم علي شريعتي،فاضل رسول، ط١٩٨٧/٣م، دار الكلمة للنشر، ص٢٣٨).

(٦) الشهيد محمد باقر الصدر:

الشهيد محمد باقر الصدر كان له رأي واضح وصريح من علي شريعتي وكتاباته وأفكاره وكذلك حول شخصيته العلمية والذاتية بشكل عام كان يعلنه لطلبته والمقربين منه، وقد فصّل الباحث أحمد عبد الله أبوزيد

العاملي ذلك الموقف، وملابسات تعاطي الصدر مع قضية شريعتي وموقف الفقهاء والمؤسسة الدينية الإيرانية منه في كتابه المهم " محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق" الجزء الثالث. من خلال صفحات الكتاب ومن خلال تتبع الوثائق واللقاءات والمباحثات التي قام بها العاملي يتضح بأن الصدر كان يتوجس من أي تكفير أو تضليل أو اتهام لأي عالم أو كاتب شيعي، لأنه اكتوى بنار التكفير والتسقيط وهو من هو مكانة علمية في المؤسسة الدينية، فكيف الحال مع شريعتي خريج الجامعات ؟!! وكان يصر على أن يؤتى له بكتابات واضحة ودقيقة من كتب شريعتي وليس اعتمادا على النقول من الآخرين والحاشية، وهو الأمر الذي يؤكد الصدر بأنه لم يصله شيء من ذلك للأسف الشديد. وكان مستاء جدا من ردود الفعل الحادّة اتجاه شريعتي وطريقة التعاطي الغوغائية مع فكره وآرائه التي تقبل الحوار والنقاش والجدال معه فيها، وقد كتب ردا حول نقد شريعتي لكتابه بحث حول الولاية إلا أن طلبته حذروه من نشره حتى لا يعطي شريعتي قيمة ويعلي من مكانته، وقد رفض هذا التفكير ولم يقبل به. وكان الشهيد يصر على أن شريعتي رجل فاهم ونظيف ولكن لديه اشتباهات تقبل النقاش والتحاور معه حولها. وهو تماما موقف الشهيد مطهري منه، والذي تعرضنا له سابقا.

في ظل أجواء الصراع حول شريعتي وفتاوى تضليله وتكفيره والتحذير منه في ايران من قبل الفقهاء والمؤسسة الدينية " كان السيد الصدر يراقب الاحداث في إيران ويتابعها وكان يؤلمه هذا الصراع في الصف الإسلامي الذي أدى إلى انحسار شعبية عدد من العلماء في أوساط الشباب المثقف، بينما كان الدكتور شريعتي يشق طريقه ويزداد عدد أنصاره وخاصة في الاوساط الجامعية لما يمتلك من بيان وقدرة خطابية تستهوي الشباب المثقف.

في اوج الصراع، زار أحد علماء طهران العراق وكان قد درس على يد السيد الصدر في النجف. وقد دعاه السيد الصدر إلى تناول طعام الغداء ودعا عددا من طلابه وكان السيد محمد الحيدري أحدهم. بعد تناول الطعام فتح السيد الصدر موضوع الصراع بين شريعتي وعلماء الدين، مما دفع الضيف السيد (أ) إلى الهجوم على شريعتي بحماس وعصبية. وقد قاطعه السيد الصدر بهدوء قائلا :" إننا نريد مناقشة الموضوع بهدوء، فلا داعي للانفعال". استمر الضيف في حديثه وإشكالاته على شريعتي، ثم تحدث السيد الصدر موجها كلامه إلى الضيف:" إنّ الدكتور شريعتي يمتلك قدرة بيانية عالية، ويستعمل مفردات وأمثلة حديثة ومن واقع المجتمع، يفهمها الناس ويتفاعلون معها وخاصة الشباب. بينما الفريق الذي تصدى لشريعتي من العلماء يستعملون مفردات قديمة وزمانها غير هذا الزمان وأمثلتهم بعيدة

عن الواقع المعاش، لهذا يكون التجاوب معهم ضعيفا حتى لو كانوا على حق، فهذه اللغة تعتبر غريبة أو غير جذابة للشباب.

إنّ طالب العلم في الحوزة يقرأ كتبا ألفت قبل فترات زمنية بعيدة عن زماننا بعضها قبل مئات السنين، لهذا فأمثلتها ومفرداتها قديمة وبعيدة عن فهم وجذب الشباب الذي عادة يتطلع إلى الحديث والجديد، لهذا يكون تأثيركم على جيل الشباب ضعيفا، في حين الدكتور شريعتي يستعمل اللغة الحديثة والجذّابة بالإضافة إلى قدرته الفكرية. فكيف تدخلون في صراع نتيجته خاسرة مسبقا".

وكان السيد الصدر مستغربا من بعض علماء الدين الذين كانوا يتابعون كل خطأ يقع فيه شريعتي والذين كانوا ممن فقدوا مواقعهم في صفوف الجامعات.

وبعد هذا الاجتماع الذي استمر ساعات سأل السيد محمد الحيدري السيد الصدر عن الدكتور شريعتي وهل فهمه للإسلام صحيح؟ وبالتالي فهل أفكاره صحيحة؟ فأجاب :" هناك أخطاء في أفكار شريعتي وبعضها واضح، ولكن ليس من الصحيح الدخول في صراع معه". وكان السيد الصدر يرى أنّ شريعتي متأثر بالفكر الغربي والماركسي. وكان إذا فتح موضوع شريعتي في مجلسه يؤكد على أنّ شريعتي رجل (فاهم) ولكن لديه اشتباهات.

يُشار إلى أنّ جو الانفتاح في النجف الذي ساهم السيد الصدر بشكل رئيس في إيجاده لم يشهد ما شهدته الساحة في إيران من حديث عن المعادلة التي أكد عليها الدكتور شريعتي، وهي: " الإسلام ناقص المؤسسة الدينية"، وسبب ذلك أنّ هذا الجو في النجف كان وليد الحوزة نفسها.

الدكتور شريعتي ينقد (بحث حول الولاية):

بعد ترجمة كتاب (بحث حول الولاية) إلى اللغة الفارسية تحت عنوان (تشيع وإسلام) ثم (تشيع مولود طبيعي إسلام) اطلع عليه الدكتور علي شريعتي، وقد علق عليه بمجموعة من الملاحظات، وصف فيها قلم السيد الصدر بـ (ذو الفقار علي)، وأرسلها إلى مترجم الكتاب الشيخ حجّتي الكرماني الذي أرسل نسخة منها إلى السيد الصدر، وقد طبعت أول الأمر تحت عنوان (نقدي بر كتاب تشيع مولود طبيعي إسلام) باسم الشيخ علي إسلام دوست (= الدكتور علي شريعتي)، ثمّ ضمها إلى الطبعة الجديدة التي أصدرها تحت عنوان (تشيع مولود طبيعي إسلام، با نقدي از دكتر شريعتي)، وقد نشرت هذه الملاحظات مؤخرا باللغة العربية تحت عنوان " نقد نظرية الإمامة عند الشهيد محمد باقر الصدر" (انظر مجلة (نصوص

معاصرة)، السنة الأولى، العدد الثاني:١٦٧- ١٨٢، تحت عنوان (نقد نظرية الإمامة عند الشهيد محمد باقر الصدر) ترجمة محمد عبد الرزّاق).

السيد الصدر يؤكد على ضرورة البحث العلمي ويبعث برد على شريعتي:

لما وصلت تعليقات الدكتور شريعتي إلى السيد الصدر، أجاب عنها، وكان الجواب محررا بخط الشيخ محمد رضا النعماني، ثم أرسلت مع السيد أبو الفضل الأفكاري إلى السيد كاظم الحائري والسيد مرتضى العسكري ليطلعا عليها ويرجعاها إلى السيد الأفكاري ليوصلها بدوره إلى الشيخ حجّتي كرماني إن لم يكن هناك اعتراض، وذلك ليقوم الشيخ كرماني بترجمتها إلى الفارسية وضمّها إلى الطبعة الجديدة من البحث. وقد كتب إلى الشيخ علي حجّتي كرماني: " أما بالنسبة إلى ملاحظات دكتور شريعتي حفظه الله تعالى حول كتاب (تشيع مولود طبيعي إسلام) فقد كتبت ما يناسب من التعليق عليها وتوضيح المطالب التي جاءت في الكتاب، غير أنه لم يتيسر حتى الآن إرسال ذلك إليكم، وسنرسله في أقرب فرصة ممكنة استجابة لرغبتكم".

كما كتب إلى السيد كاظم الحائري حول شريعتي الأسطر التالية ضمن رسالة طويلة تتعلق بشؤون كثيرة، يهمنا منها ما له صلة بشريعتي ونقده. يقول الصدر:

وبالنسبة إلى الجواب على ملاحظات دكتور شريعتي أرى من المفيد جدا استجابة طلب آقاي حجتي (يقصد الشيخ علي حجّتي كرماني) حيث طلب منا كتابة جواب على هذه الملاحظات وإرساله إليه ليترجمه ويضمّه إلى الطبعة الجديدة، فإنّ في ذلك من الفوائد في توضيح جملة من حقائق الإمامة والولاية ما تكون المرجعية الصالحة مسؤولة عن توضيحها باعتبارها الجهة الوحيدة القادرة على أن تسجل انتصارا فكريا واضحا في هذا المجال. وقد كتبنا إليكم نأخذ رأيكم ولكن لم نتلق جوابا حتى الآن، وكتبت رسالة للسيد علم الهدى مع الشيخ السليمي بهذا الشأن لأخذ رأيه الشريف ولم أتلق جوابا، وأنا الآن أرسل الجواب على ملاحظات الدكتور شريعتي مع السيد الأفكاري ليوصلها إلى آقاي حجتي. وقد كلفت السيد الأفكاري أن يطلعك ويطلع السيد علم الهدى على ما كتبناه، على أن لا يكلف ذلك تأخير الجواب أكثر من يومين، فإن لم يكن لكم رأي حاسم وواضح في المنع فلينفذ وليسلم السيد الأفكاري الجواب إلى آقاي حجتي، وإن كان لكم رأي واضح وحاسم في المنع فليتوقف واهتموا بإيصال وجهة نظركم إليّ سريعا لأدرس الموضوع وأرى ما هو الصالح".

السيد الصدر يرضخ لرغبة طلابه ويوضح تقييمه لشريعتي:

وصل السيد الصدر ردّ من طلابه بعدم صلاح هذه الخطوة، لأن ذلك يعطي حجما كبيرا لشريعتي، ولم يكن السيد كاظم الحائري موافقا على نشر الرد، وكذلك مجموعة من طلابه الذين اجتمعوا ورأوا أنّ من غير الصالح أن يقوم السيد الصدر بتحرير الجواب بنفسه، ورأوا أنّ جواب الشيخ الكرماني عنه كاف. ولما وصل الجواب إلى السيد الصدر استغرب من هذا الفهم والتفكير وأكد ثانية على طبعه. ويذكر السيد محمود الهاشمي أنّ بعض الذين علموا بنشر الكتاب حذّروا السيد الصدر من نشره في إيران لأن ذلك سيضر بسمعته فيها لأن سمعة شريعتي سيئة و.. فقد صوّروا للسيد الصدر أنّ القضية خطرة وعليه أن يترك طبع الكتاب، فطلب السيد الصدر التريّث لحين معرفة الواقع، ولكن الذي يبدو من رسالته الآتية إلى السيد عبد الغني الأردبيلي أنه شعر بعدم صحّة ذلك.

وفي رسالة بعثها إلى السيد نور الدين الأشكوري ووصلته بتاريخ ١٩٧٧/٦/٢١م يكتب السيد الصدر مقيّما شريعتي وطبيعة الموقف منه:

" وأما موقفنا، فمن الناحية العملية قد قرّرنا حتى قبل مجيء رسالتكم الانصراف عن نشر جواب الملاحظات كما شرحت ذلك في رسالتي للسيد أبي جواد، وكذلك في كل ما كان من أشباه ذلك. إذا اتفقتم أنتم والسيد (أبي جواد) والسيد الأردبيلي على المنع فإننا نأخذ بوجهة نظر المنع حينئذ ولو لم تكن هناك رؤية واضحة لحيثياته، فالمسألة إذن منتهية من الناحية العملية. وأما من الناحية النظرية فينبغي أن تعلموا أنّ أفضل طريق لإقناعي بضلال هذا الشخص هو الاستشهاد بنصوص من كلامه ومن كتبه استشهادا محددا مع تعيين الصفحة والكتاب، والغريب أنّ هذا الطريق مما لم يستعمل حتى الآن من قبل أحد معنا. وقد نقل السيد محمد علي عن السيد ضياء الدين أن هناك كلمات كثيرة تدينه في كتبه ومؤلفاته، ولكن لم تحدد لنا هذه الكلمات، مع أنّ تحديدها هو الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نظرة ثبوتية عنه، ونحن بحكم أنهم يرسلون إلينا عددا كبيرا مما ينشر له مطلعون على كثير ما كتب، وفي حدود ما قرأت له وجدت انحرافا فكريا يتمثل في التأثر بطرز التفكير الماركسي والديالكتيكي، ومحاولة تقريب مفاهيم الدين ضمن إطار هذا التفكير. وهذا الانحراف في نفسه خطير، وقد ناقشته أيضا في جواب الملاحظات في مقام توضيح أن الانقسام إلى شيعة وسنة في صدر الإسلام لم يكن على أساس طبقي، وهذا الانحراف قد يكون ناشئا من التأثر الثبوتي بالفكر الديالكتيكي، أو من التأثر الإثباتي، لأنه يراه أحدث فكر وأقربه إلى نفوس الشباب، أو من لف و دوران واستهداف غير ما هو الظاهر.

وأما بالنسبة إلى مواقفه من الإمام أمير المؤمنين ومن خصومه، فلم أجد تناقضا، نعم، وجدت خطأ واشتباها في تقييمه للصحابة كما شرحت ذلك، غير أن ما يتبناه من تقييم على خطئه لا أراه يناقض ما يتبناه من تقديس مطلق لأمير المؤمنين.

وعلى أي حال فاعلم يا ولدي أنّ ما مر به أبوك من مراحل في حياته وما شاهده بعينه وسمعه بأذنه ووصل إليه من الضجيج والكلمات حوله واتّهامه حتى بما يشبه التسنن وهو أعرف خلق الله بأنه من أبعد خلق الله عن ذلك وأنّ التشيع يجري في عروقه كما يجري الدم، خلق في نفسه حصانة ومناعة ضد التقبّل لأمثال ذلك بالنسبة إلى غيره إلا بصورة بطيئة ومع نصوص دامغة.

مرة أخرى أكرر أنّ الطريقة الفضلى هي طريقة النصوص وتعيين مواضعها. هذا من الناحية الثبوتية، وأما من الناحية الإثباتية، فقد أخذنا بوجهة نظركم السلبية عمليا، وهذا هو الحال في سائر الحالات المماثلة إن شاء الله تعالى إلى أن يتضح الحال".

وكان الأستاذ حسن داوودي وهو من المتأثرين بالسيد مرتضى العسكري قد كتب ردّا على نقد الدكتور شريعتي الذي سجّله على (تشيع وإسلام)، وأرسله من إيران إلى السيد الصدر. وبعد فترة سافر الأستاذ داوودي إلى العراق والتقى بالسيد الصدر واستفسر عن انطباعه حول الرد الذي أرسله إليه من إيران. وقد اعتذر السيد الصدر بحيلولة كثرة المشاغل دون الاطلاع عليه، ووعده بذلك. إلا أنه علق على أسلوب السيد مرتضى العسكري في التعاطي مع مسألة الدكتور شريعتي بأنه ليس من الصحيح أن نواجه شريعتي بأسلوب العلامة المجلسي" (٣٥٥- ٣٧٠).

(٧) حيدر حب الله:

حيدر حب الله مفكر إسلامي من لبنان، وهو رئيس تحرير مجلة "نصوص معاصرة" ومجلة " الاجتهاد والتجديد" وكان لفترة رئيس تحرير مجلة المنهاج"، له عدة كتب مهمة في الفكر الإسلامي، وفي الفقه والسنة، كتب حيدر حب الله شهادة أراها من خير ما كتب حول شريعتي على الرغم من قصرها واقتضابها، امتازت بالتوازن والعقلانية في تقييمه لشريعتي وفكره، وانطلقت من الروح العقلانية في نظرته لشريعتي، وكيفية التعامل معه ومع فكره وكتاباته، إذ هو يرفض تفسيق شريعتي ووصمه بالضلال، كما يرفض التعامل معه بنظرة التقديس والتبجيل الصارخ، مع ملاحظة أنه يصف شريعتي بالمفكر العملاق. يقول حب الله :

" وأخيرا، ومهما تحدثنا عن شريعتي المفكر العملاق فلا ينبغي أن نكون مقلدة له، كما يفعل كثير من مثقفينا، بل إنّ من حقوقه علينا أن ننتقده ونتخطاه ونستفيد من تجربته تراثا لنتقدم نحو الأمام إن شاء الله، سيما وأن أكثر كتبه إنما هو نتاج محاضرات وخطب، الأمر الذي يفسح المجال للعثور على ثغرات.

من هنا، نتحفظ على الأسلوب الدعائي التهويلي الذي يستخدمه بعض الباحثين بهدف إحياء شريعتي، مؤجلا نقده، أو مفترضا أننا بحاجة إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى، فهذه الطريقة تناقض منهج شريعتي نفسه ومنهج أمثاله من الذين يرفضون حد الإمكان تعميم مقولة المقدّس. اليوم نحن بحاجة إلى إعادة قراءة شريعتي، لكن ليس لتوظيفه سياسيا ضد أحد، بل لاستخلاص العبر من تجربته في نقاط قوتها وضعفها، وهذا ما يستدعي توازنا في مطالعة الرجل، لا ينحو منحى التبجيل ولا يتجه ناحية التفسيق والتضليل، علنا بذلك لا سيما مع تطور الدرس الديني اليوم نستفيد من التراث بدل أن نستنسخه بحرفيته" (نصوص معاصرة، العدد ١٠، السنة الثالثة، ربيع ٢٠٠٧م، ١٤٢٨هـ، ص ١٠).

وفي موضع آخر توجه أحد القراء للشيخ حيدر حب الله بسؤاله حول رأيه في مقولة علي شريعتي الشهيرة "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" فأجاب وأبدى رأيه بكل وضوح، ثم بيّن بعدها بأنّه يتفق مع مقولات شريعتي بنسبة ٩٠ في المائة، إذ جاء في المصدر :

" السؤال: ما الذي يقصده الدكتور علي شريعتي من إطلاق عبارة التشيع العلوي والتشيع الصفوي؟

● ما يقصده الدكتور علي شريعتي رحمه الله هو أنّ هناك منهجين في التعاطي مع الإمامة والمسألة المذهبية والدينية عموما:

أ. منهج يتعاطى بروح تاريخية وطقوسية وفئوية وما فوق عملية، فيركز كثيرا على صراعات التاريخ المذهبي، ويعيش التاريخ أكثر مما يعيش الحاضر، وتستهلكه الطقوس والمناسبات المذهبية، ويحمل روح القطيعة مع الآخر، ويبالغ في الصورة الشكلية للتشيع، ويضع كل ثقله فيها، ويتعاطى مع النبي وأهل بيته تعاطيا غيبيا في الغالب فيركز على خلقهم وأسرارهم ومكانتهم السماوية، ولا يعيش تفاعلات تجربتهم في الأرض، ويسعى لحصر العمل الديني في الجانب الطقوسي تقريبا وتحرير الإنسان من مسؤولياته في الجانب الاجتماعي والسياسي، ويستخدم التقية للتحرر من المسؤوليات الكبرى في الأمة، ويركز على الشفاعة والحب للتخلي عن وظائفه الرئيسة، ويفهم التقليد للمرجعيات الدينية فهما مغلوطا، فهذا

سدد تشيّع صفوي، لأنّ ازدهار هذا النهج من التشيع جاء - من وجهة نظر شريعتي - مع الصفويين.

ب- ومنهج يتعاطى من منطلق نهضوي عملي سياسي واجتماعي، فيرى التشيع في الثورة على الظلم، وفي رفض الانحراف في المجتمع، وفي بناء الأمة، وفي الاهتمام بمصالح المسلمين، وفي النزاهة والمبدئية في ممارسة السلطة أو العمل السياسي والاجتماعي مقابل المنهج المصلحي والوصولي والنفعي، وفي رفض الطبقية والتمييز بين الناس لاعتبارات وهمية لغوية او قومية أو عشائرية أو عرقية أو فئوية أو .. وفي تحقيق العدالة الاجتماعية وتداول الثروات الطبيعية لكسر حدّة الفاصلة الطبقية بين الناس، وفي مساواة الجميع أمام القانون ونظام القضاء والعقوبات بما في ذلك الحاكم نفسه، وفي محاربة الإقطاع السياسي والديني بأشكالهما، وغير ذلك.

وهذا ما كان يسميه شريعتي بالتشيع العلوي، لأنّ سيرة علي تعطي هذه السمة بأجمعها، وعلينا أن ندرس سيرة النبي وأهل بيته من زاوية نهضوية يمكنها أن تساعدنا في تنوير طريقنا لبناء أمّة قوية وعادلة ومقتدرة، وليس لبناء أمّة تلطم نفسها وتذهب بكل طاقاتها في المناسبات الدينية والتركيز على البعد الظاهري للدين أو الاستغراق في الجوانب المافوق واقعية ودنيوية، رغم الإقرار بأنّ البعد الظاهري وبأنّ المناسبات الدينية وبأنّ الغيب أمر ضروري في حدّ نفسه.

هذه خلاصة مكثفة لوجهة نظر الرجل التي أوافقه عليها بنسبة تسعين في المائة، فرحمه الله وجزاه خيرا، وإذا كان من اختلاف مع شريعتي في مسائل فكرية أو دينية أخرى فإنّ هذه المسألة - بصرف النظر عن بعض التفاصيل تكاد تكون واحدة من مظاهر تفكيره النهضوي الذي تحتاجه الأمّة اليوم، دون أن تعيش قطيعة مع التاريخ ولا مع الغيب ولا مع الطقوس" (إضاءات في الفكر والدين والاجتماع، حيدر حب الله، مؤسسة البحوث المعاصرة،ج٣، ص٤٧٠، السؤال رقم ٤٩٥).

٨١) أ. محمد إسفندياري:

وأنا أبحث وأنقب في الكتب والدوريات حول الكتابات التي تناولت علي شريعتي، وموقف المؤسسة الدينية منه ومن كتبه وأفكاره وقع نظري على بحث قيم، ورصين، كتبه باحث إيراني متخصص في التراث والببلوغرافيا، اسمه محمد إسفندياري، وقد نشره في مجلة "نصوص معاصرة" .. وهو بحث طويل ومهم، وفيه نظرات تحليلية عميقة واستشهادات موثقة لا يمكن لأي باحث في فكر علي شريعتي الاستغناء عنها أو إغفالها بأي حال من الأحوال. ويهمني هنا في بحثه كله - وسنعود له لاحقا - ما كتبه حول

النظرات التي تذهب إلى تكفير علي شريعتي وأمثاله من المفكرين الذين يختلفون مع التيار العام ومع أجواء الحوزة ورجال الدين، ووصفهم بأبشع النعوت ونعتهم بالضلال والزيغ والخروج من الملة والمذهب. يقول :

"هل هناك مصلحة في تقديم المستنيرين مثل شريعتي بوصفهم كفارا ؟!:

في كل دين ومذهب يطرأ هناك خلاف بين أتباعه، إلا أنّ أسوأ أنواع التعامل مع هذه الخلافات يكمن في التعاطي معها حدّيا. بمعنى أن يبادر أحد الطرفين باتهام الطرف الآخر بالخروج من حد الدين، وإظهار المشاكل الداخلية كأنها مشاكل خارجية، وهذا الأسلوب هو أسوأ أساليب الاختلاف وأقذرها على الإطلاق.

فهناك من يعمل بمجرد اختلافه مع الآخر على التعاطي حدّيا، فيخرجه من حدود الدين، وأوّل شيء يتهمه به هو الكفر والارتداد والخروج عن الدين والعمالة للأجنبي، والابتداع والإحداث في الدين. وهذا هو نفس الشيء الذي فعلته الكنيسة قبل ألف سنة في العصور الوسطى مع غيرها من المفكرين الإصلاحيين. كما ارتكبت الماركسية في بداية نشوئها هذا الخطأ الفادح.

بديهي أن أسوأ اتهام في المجتمعات الدينية هو أن تتهم شخصا بالخروج عن المعتقد، فما أن يوصف الفرد بعدم الإسلام أو الماركسية في المجتمع الإسلامي أو الماركسي حتى يسقط ذلك الفرد عن الاعتبار، ويتلقى أقذع الشتائم. وهذه الحقيقة القائمة دعت بعض الجماعات إلى إساءة استغلالها وصولا إلى غاياتها وأهدافها من أقرب الطرق، والقضاء على معارضيها بأبسط الوسائل، جهلا منها بأن هذا الأسلوب إنما يعود بالضرر على الدين والمعتقد الذي تدّعي الانتساب إليه.

إنّ أهمية كل دين تقاس بعدد المنتمين إليه، وكلما كانت كفاءة المنتسبين إلى دين عالية كان ذلك مؤشرا أكبر على أهمية ذلك الدين، وعليه فإن التعاطي الحدّي مع الشخصيات العلمية واتهامها بالخروج من ربقة الدين، يُعد بمنزلة الانتقاص من أهمية الدين ذاته. حيث أن هذا الأسلوب يعني أنّ ذلك الدين لا تتسع ظرفيته لمثل هذه الشخصيات، وأنّ أتباعه ليسوا سوى حفنة من البسطاء والسذّج. وعندما تسم المسيحية والماركسية المصلحين والمجدّدين بميسم الارتداد، يُفهم من ذلك أنّ هاتين العقيدتين لا تتمتعان بالكفاءة التي تساعدهما على استيعاب هؤلاء الأشخاص واعتبارهم جزءا من كيانها.

ينقل أحد العلماء في الحوزة العلمية عن أحد أساتذتها كلمة بنّاءة وتربوية، هي :

اجهدوا على عدم إبراز أمثال ابن سينا وصدر المتألهين والفارابي والسبزواري كفارا، إذ لا يساعد ذلك على ترويج الإسلام وإشاعته، فليس من صالح الإسلام إخراج الفلاسفة وأهل العقل والمعقول والمنطق، وتعريفهم بوصفهم من الملحدين، بل كلما كان المنتسبون إلى الدين الإسلامي من أمثال هذه الشخصيات أكثر، كان ذلك مؤشرا إيجابيا على سلامة وقوة ومتانة مضمونه ومحتواه، وفي ذلك ترويج وإشاعة للإسلام".

والتعبير المعاصر لهذا الكلام هو أن نجهد على عدم إبراز من كان مثل إقبال اللاهوري والمهندس مهدي بازركان والدكتور علي شريعتي والدكتور سروش بصفتهم كفارا، إذ لا يعد إخراج المستنيرين من ربقة الإسلام خدمة للإسلام وترويجا له، بل كلما كان المنتسبون إلى الدين الإسلامي من أمثال هؤلاء الأفراد أكثر، كان ذلك دليلا على قوّة الإسلام ومتانته، وعاملا مساعدا على نشره وترويجه.

أجل .. إنّ في إبراز الشخصيات الواعية والمثقفة بوصفها كافرة ومخالفة، دعما وتعزيزا لجبهة الكفر والجناح المخالف. فعندما يسم أولياء الدين والسلطان النخب العلمية بالكفر والمخالفة، يكون المفهوم الضمني لذلك أنّ هذا الدين وتلك السلطة لا يتسع وعاؤها لاستيعابهم. وكلما كان المؤمنون والمعتقدون بالدين والسلطة من كبار العلماء والخبراء، كان ذلك مؤشرا ايجابيا على شرعية ومنطقية هذا الدين وتلك السلطة. فالدين لا يحتاج إلى الدهماء والمستوى الكمي فقط، بل يحتاج كذلك إلى العلماء والمستوى الكيفي أيضا. وليس ولاته من النخب فحسب، بل هناك الفلاسفة المتقدمون والمستنيرون المعاصرون، حيث من الضرورة أن يكونوا. ولكن العجيب أنّ البعض ينعت المسلمين من المستنيرين بالكفر إرضاء لطبقة سطحية وقشرية من المسلمين. وطبيعي أنّه ليس المراد من هذا الكلام تكفير أولئك المسلمين السطحيين، بل المراد منه أن لا يكون هناك أي تكفير لأحد.

عندما يقف في مقدمة الدين عدد من أهل العلم والذكاء، يثبت وقوفهم في الطليعة شيئا مغايرا لوقوفهم في صفوف الذين كفروا، فالدين الذي يكفر منه العلماء والعقلاء، دين مخالف للعلم والعقل وجدير بالطبقة الجاهلة من عامة الناس.

إنّ أكثر ما كان يفخر به ابن سينا وصدر المتألهين وشريعتي هو انتماؤهم للإسلام. ولكن من جهة أخرى يمكن للإسلام أن يفخر بأنّ أتباعه من أمثال هؤلاء الشخصيات، فوجود ابن سينا وصدر المتألهين وشريعتي أكثر فخرا للإسلام من وجود الطبقة الجاهلة من دهماء الناس. وعندما تنادي امرأة خاملة في قرية من القرى أو طالب علم مغفل بالإسلام، لا يضيف نداؤهما خردلة إلى الثقافة الإسلامية، ولا يجلب نفعا للدين. ولكن حينما

يهتف ابن سينا وصدر المتألهين بالإسلام ستضاف شهادة فخر واعتزاز للإسلام، وتتزين الثقافة الإسلامية بهذه الشهادة. ولا يمكن قياس ومقارنة تلك المرأة الخاملة وذلك الطالب المغفل، وهما من الخوالف، بهذه القمم العلمية التي جالت في طول الفلسفة وعرضها، حتى غدا العلم لبانا في أفواههم. وكذلك حينما يتحدث المنبري (طبقا لروتينه السنوي) عن الإمام الحسين، إنّما يتخذ الحديث عنه مهنة يتكسب منها، في حسن لو تحدّث عن الإمام الحسين رجل مثل شريعتي العائد من جامعة غورويش والسوربون، وجال في مدارس الشرق والغرب، سيعني كلامه :" إني رأيت جميع الأشياء والأشخاص فلم أر مثل الحسين (ع) عظيما".

على كل دين أن يسعى إلى زيادة عدد أتباعه، إلا أنّ الأهم من ذلك أن يكون أتباعه من ذلك أن يكون أتباعه من الأذكياء والنخب. وحينما يسعى أولياء الدين إلى إظهار المعارضين من العقلاء بوصفهم من الكفار، فذلك يعني في الحقيقة سحبا للبساط من تحت الدين، وتقويضا لأسسه ودعائمه.

اتقوا الله في شريعتي!!

فلينصف الذين يكفّرون علي شريعتي والذين يبرؤون منه، ولينظروا هل يصح لهم تكفير من يدين بهذه المعتقدات، أو يصح وصفه بالتسنن؟ ونحن نعلم أنّ الإسلام يتحقق بالشهادتين، ويتحقق التشيع بهما وبالشهادة بالولاية. فانظروا كيف يطرد الذي ذهب في اعتقاده إلى أبعد من هذه الحدود، وعمل على نشر الدين والمذهب بمثل هذه التهم !!

إنّ هذه الشهادة من الدكتور شريعتي لا تثبت إسلامه وتشيّعه فحسب، بل وتشهد على أنه أقوى في إسلامه وتشيّعه من خصومه ومناوئيه وأكثر فهما منهم للإسلام والتشيّع.

يُحكى أنّ مناوئا لحافظ الشيرازي ألف ديوانا في رد ديوان حافظ وأهداه إلى أحد الحكام قائلا: لقد أجبت حافظا في هذا الديوان! فقال الحاكم له: هب أنّك أجبت حافظا، فبم ستجيب الله تعالى ؟ وهذه الحكاية بنفسها هي حكاية شريعتي ومناوئيه ومكفريه، فلو سلمنا أنهم أجابوا شريعتي من خلال تكفيره وتشويه سمعته، ولكنهم بماذا يجيبون الله تعالى؟ أجل .. إنّ أعداء الدكتور شريعتي ليس خصيمهم هو شريعتي، بل خالقه، فليحذروا الله إن كانوا متشرعين.

كنت قد ختمت البحث في هذه النقطة، إذ عثرت من باب الصدفة على كلام للدكتور شريعتي في هذه المسألة، حيث قال في إشارة منه إلى الهجمات التي تعرّض لها: تسعى جميع الشعوب والمذاهب والفرق إلى إثبات انتماء بعض الأشخاص لها، حتى ولو من طريق الزور والبهتان، وذلك لأن

قيمة كل مذهب إنما هي من قيمة المنتسبين إليه، ومثّل لذلك بأنّ أحد المعلمين للبهائية كان يقول: سُمع من أحد تلاميذ السبزواري المقربين وأصحاب سرّه أنّ السبزواري قد استبصر في أواخر حياته، وقبل وفاته بقليل. وكانت هذه كذبة ذكية لا يمكن تكذيبها، حيث تمّ توقيتها بما قبل الوفاة بقليل، فلا يغدو بإمكان طلابه نفيها. ثم أضاف شريعتي: وهناك من يعمل خلاف ذلك، فلو تحدّث مستنير عن الدين، لانتفض المتدينون بوجهه قبل غير المتدينين، متجاهلين السنوات التي قضاها في تأليف عشرات الكتب والمقالات التي تؤكد تديّنه، ويتمسكون بجملة واحدة في إحدى كتبه تصوّروا خطأها عندهم أو فهموها بشكل مغاير للمراد منها، ليجعلوا منها ذريعة لإثبات مروقه من الدين، وهذه هي رسالة نموذج من المؤمنين في عملية تبليغ الدين" (نصوص معاصرة، العددان ١٣/١٤، السنة الرابعة، شتاء وربيع ٢٠٠٨م،١٤٢٩هـ، ص ١٠٥ - ١١١).

علاقة شريعتي بالشهيد مطهري:

ربما يكون الشهيد مرتضى مطهري من أكثر علماء الدين ورجال الحوزة ممن عايشوا شريعتي، وارتبطوا به، وكانت تجمعهما علاقة جهادية وفكرية لسنوات عديدة ولحين سفر علي شريعتي واغتياله. وذلك في حسينية الإرشاد، والتي جمعت بينهما تحت سقف واحد، وتحت أهداف مشتركة، بجانب تلك المعايشة كان الشهيد مطهري أكثر العلماء ربما قراءة لكتب وإصدارات شريعتي، وكذلك استماعا لمحاضراته الغزيرة والعديدة والتي كان يلقيها في الحسينية، وهذا يعني أنّ شهادة مطهري في حق شريعتي شهادة حسية، قائمة على المعايشة والالتصاق وتحريك الحواس جميعا نحو شريعتي، والتواصل اليومي معه، وليس اعتمادا على النقول وشهادات الآخرين في حقه، وفي هذا الطريق نجد كتابات نقدية وتحليلية لمطهري كتبها بعد قراءته لكتب شريعتي، وكذلك شهادات في حقه، والدفاع عن المنهجية الأصوب في التعامل معه، والأليق في تقييم فكره وشخصيته .. كل هذا نجده مكتوبا ومسطرا في كتب كثيرة، ومصادر معتبرة موثوقة وموثقة كتبها الشهيد مطهري نفسه، وكذلك المقربون من الاثنين معا، والذين عايشوهما من الأصدقاء في الحسينية، فكانوا من الشهود المعتبرين.

شابت علاقة الشهيد مطهري بعلي شريعتي توترات كثيرة، وخلافات فكرية عديدة، فهما يلتقيان في نقاط كثيرة، ولكنهما يختلفان في نقاط ليست بالقليلة أيضا، مما جعل الشرخ بينهما يزداد كل يوم، والشقاق يتعمق كل ساعة، ولا تجدي محاولات التقريب بينهما، ويحاول الباحث د محمد إسفندياري أن يصور تلك العلاقة الشائكة بينهما بأنه أمر طبيعي، ولا يجب أن نهول منه، فكما كانت بين الاثنين اختلافات عميقة، وتباين في الأفكار والمشارب الفكرية والثقافية والمنطلقات، كانت بينهما أيضا نقاط

التقاء ومشتركات لا حصر لها، ويصعب إيرادها ووضع اليد عليها لكثرتها، وإذا كان مطهري على خلاف مع شريعتي كما يُروج بشكل سيء وبكتابات مقصودة وواضحة الهدف والغاية فالحالة نفسها كانت واضحة ومشهودة بين شريعتي وبازركان أيضا، وبين شريعتي وسروش، بل الخلاف هنا أشد منه بين شريعتي ومطهري. يقول:

" كما كان هناك اختلاف بين المطهري وشريعتي، كان هناك أيضا خلاف بين بازركان وشريعتي، وبين سروش وشريعتي، بل ربما كان خلاف بازركان وسروش مع شريعتي أشد من اختلاف المطهري مع شريعتي. ولكن للأسف الشديد يتم تضخيم الخلاف بين مطهري وشريعتي إلى مستوى جعلهما في قطبين متنافرين لا يرجى معه إقامة الوفاق بينهما. وفي المقابل يتم استعراض الخلاف بين بازركان وشريعتي، وكذلك الخلاف بين سروش وشريعتي على المستوى المعقول والمنطقي، من دون إبرازهما كقطبين متنافرين" (المصدر السابق، ص ١٠٣).

وفي موضع آخر يؤكد وبشكل جلي بأن المشتركات بين الاثنين، شريعتي ومطهري كثيرة جدا، ومواقفهما من العلماء التقليديين والمؤسسة الدينية والتجديد الديني وغيرها متطابقة تقريبا، وكذا موقف المؤسسة الدينية منهما متشابهة، فلم بعد هذا كله نصور العلاقة بينهما بالنقيض، وأنهما لا يمكن الجمع بينهما بأي حال من الأحوال ؟!

يقول:

" تمّ الحديث بكثرة عن الخلافات بين الأستاذ الشيخ مرتضى المطهري والدكتور علي شريعتي، ولكن لحد الآن لم يتم التداول في المشتركات الفكرية بينهما، وقد خيّم على ذلك سكوت جاهل ومطبق، والأعجب من ذلك، الادّعاء الناقص الذي ادّعاه بعضهم، والذي يظهر الشيخ المطهري بوصفه ممثلا عن "الإسلام التقليدي"، والدكتور شريعتي ممثلا عن الإسلام المستنير، فإنّ كون علي شريعتي ممثلا للإسلام المستنير مما لا شك فيه، ولكن لا شك أيضا في أنّ الشيخ المطهري ليس ممثلا للإسلام التقليدي، بل إنّه مخالف وناقد له.

لقد كان المطهري وشريعتي يسلكان طريقا واحدا لبلوغ هدف واحد، وإن اختلفا في الأساليب الموصلة لذلك الهدف. ومن المناسب هنا أن نستعرض بعض المشتركات بين المطهري وشريعتي:

١. محو الخرافة من الإسلام، وانتقاد الفهم العامي له، ومكافحة الجهل.
٢. التعريف بالإسلام بوصفه دينا مقتدرا، يفوق قدرة وقيم الأديان والمذاهب الأخر.

٣. انتقاد الجمود والسطحية "التحجر والمروق والخروج عن الدين والتخلف والرجعية وضيق الأفق الذهني".
٤. مواكبة الزمن وإدراك مقتضيات العصر الراهن، والتعريف بالإسلام من خلال ذلك.
٥. بيان العلاقة والنسبة بين الإسلام وسائر المذاهب والنظريات الحديثة.
٦. التعريف بالإسلام بوصفه دينا اجتماعيا وسياسيا، وليس مجرد كونه دينا ذا أفق ضيق ينظر إلى علاقة الفرد بخالقه فقط.
٧. إثبات قدرة الإسلام على مقارعة الظلم وعلى الجهاد والثورة.
٨. نقد المؤسسة الدينية التقليدية.
٩. الاهتمام بالمواضيع المستحدثة، من قبيل: فلسفة التاريخ، وفلسفة الأخلاق.
١٠. الاهتمام بموضوع حقوق المرأة في الإسلام.
١١. إدراك خطر الشيوعية، والعمل على نقدها علميا.
١٢. التعريف بالإسلام بوصفه دينا متينا ومنطقيا، يدعو إلى التدبر والتفكر والعلم والتحضر والإنسانية.

إننا لو واصلنا هذه السلسلة من المشتركات وقمنا بشرحها، لغدت طويلة وعريضة، ولكننا نكتفي بهذا المقدار منها، ويمكن القول بأنّ الوجه المشترك بين المطهري وشريعتي يكمن في أنّ كليهما "مسلم مستنير" أو "مستنير متدين" أي هما في القطب المقابل لـ "المستنير غير المتدين" و "المتدين غير المستنير" أو "المتدين التقليدي".

ولابد من الالتفات إلى أن الدين المتنور، أو التنوير الديني، هو وسط بين عدم التدين والدين المتحجر "التقليدي" وأنّ الفوارق بين المطهري وشريعتي كانت تكمن في "الدين المتنور"، وفي هذا المسار ولأجل تحقيق هذا الهدف.

من هنا ندرك اختلافاتهما الأساسية لـ "عدم التدين المتنور" و "الدين التقليدي" وعليه، برغم كل الفوارق بين مطهري وشريعتي، إلا أنهما كانا مشتركين في أصل مهم وشامل وهو "الدين المتنور" أو "التنوير الديني"، وأنّ الاختلاف الجوهري لم يكن فيما بينهما، بل كانا معا مختلفين مع أولئك الذين يفهمون الدين بشكل تقليدي، أو أولئك الذين كانوا من المستنيرين غير المتدينين. ولكن العجيب أنّ الحديث لم تكن الألسن لتلوكه إلا في ذكر الخلافات بين المطهري وشريعتي، ولا يتطرق إلى المواطن التي كان المطهري فيها يختلف مع علماء الدين التقليديين. هذا في حين أنّ اختلافات المطهري مع علماء الدين التقليديين أكثر مع اختلافاته مع شريعتي، وأنّ

نظرة المطهري للإسلام تختلف عن نظرة علماء الدين التقليديين اختلافا جوهريا، حيث كان المطهري يطرح أمورا لم تخطر على بالهم أبدا، ويحمل من الهموم والمشاكل ما لم يستشعروها أو يحسّوا بها بتاتا. خلاصة القول: لم يكن المطهري وشريعتي في قطبين مختلفين، بل كانا في قطب واحد يمثل الدين المتنور. والنقطة المقابلة لهذا القطب في الدائرة الدينية يمثلها المتدينون غير المستنيرين "المتدينون التقليديون"، وفي الدائرة التنويرية يمثلها المستنيرون غير المتدينين، فتأمل.

قد يُتصور أنني أسعى إلى نفي أن يكون هناك خلاف بين المطهري وشريعتي، ولكن هذا غير صحيح أبدا، حيث كان هذان المفكران مختلفين، ولكنهما لم يكونا في قطبين، فلم يكن اختلافهما ناشئا من كونهما في قطبين مختلفين، وإنما يعود اختلافهما إلى كونهما مفكرين بالمعنى الحقيقي للكلمة.

والحقيقة أنّه ليس بالإمكان العثور على مفكرين متوافقين في الأفكار، وأساسا إن عبارة "المفكرون المتفقون" متناقضة كتناقض الأكوس وذي اللحية العريضة. ولو ادّعى مفكران أنّ الانسجام والتوافق فيما بينهما فكريا، فلا يخلو أمرهما من أنهما يمزحان، أو أنّ أحدهما يفكر بعقل الآخر ويقلده. فللمفكرين فكران في واقع الأمر، وللمفكرين مهما كثروا أفكارا متكثرة بعددهم من دون مبالغة.

أجل لو ادّعى شخصان، خاصة إذا كانا مفكرين، أنّهما متفقان فكريا، فإما أن يكون أحدهما منافقا، أو يكون كلاهما مداهنا.

قال السيد ابن طاووس في كتاب (كشف المحجة) :" لقد ألّف القطب الراوندي رسالة في خلافات الشيخ المفيد والسيد المرتضى، فأحصى بينهما خمسة وتسعين خلافا، وذلك في أصول العقائد. بل وأضاف في ختام هذه الرسالة: إنّنا لو أردنا استقصاء جميع المسائل التي اختلفا فيها لتحوّلت هذه الرسالة إلى كتاب موسّع".

واللفت أنّ هذين العلمين الشيعيين الذين لا نشعر بأي اختلاف فيما بينهما، قد اختلفا في خمس وتسعين مسألة في الحد الأدنى، وذلك في أصول العقيدة فقط. ولا أتصور أنّ هناك مثل هذا الحجم من الاختلاف بين المطهري وشريعتي في جميع المسائل غير الدينية.

وبرغم وجود كل هذا الاختلاف بين الشيخ المفيد والسيد المرتضى، لا يصح تصنيفهما في قطبين مختلفين، وذلك لأنهما يهدفان إلى حقيقة واحدة ويسلكان طريقا واحدا. ومع ذلك نجد مجتمعنا مفعما بالحديث حول اختلافات المطهري وشريعتي، وتثار ضجة مفتعلة لإثبات وقوف هذين العلمين في قطبين مختلفين، ويتم تضخيم الخلافات القائمة، ويُضاف إليها

بعض الخلافات عشوائيا. ولذلك يبدو أنّنا بحاجة إلى فارابي آخر حيث ألّف كتاب (الجمع بين رأيي الحكيمين) في الجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو، ليقوم هذا الفارابي الجديد ليؤلف في المشتركات والروابط الفكرية بين المطهري وشريعتي ومواطن الانسجام بينهما.

لاشك في حدوث الاختلاف بين أرسطو وأفلاطون، إلا أنّ خلافهما مع السفسطائيين من أمثال بروتاغوراس وغورغياس كان أقدم وأشد، حيث كان الاختلاف بين هذين العلمين من جهة، والسفسطائيين من جهة أخرى اختلافا مبنائيا وفي الأصول، في حين أنّ الاختلاف بين هذين الفيلسوفين المنطقيين كان في البناء. إذن فمن العور أنّ نرى الخلاف بين أرسطو وأفلاطون، ولا نرى خلافهما الجذري والجوهري مع السفسطائيين من جهة أخرى، إلا إذا أخرجنا السفسطائيين من الإطار العلمي.

وهذا الشيء نفسه يصدق فيما يتعلق بالخلاف القائم بين المطهري وشريعتي، ولكنهما قبل أن يختلفا فيما بينهما قد كان لهما اختلاف أشد وأعرق مع التدين والمتدينين وأنصار الدين التقليدي من الذين توقفوا على القرون الماضية حتى اعتبروا من "القدماء المعاصرين" والذين أطلوا برؤوسهم علينا من الأيام الخالية. وعليه، لابد من الحديث عن اختلافات شريعتي والمطهري مع التقليديين بشكل أشد، قبل بيان الاختلاف بينهما. اللهم إلا إذا أخرجنا هؤلاء التقليديين من ربقة البحث العلمي واعتبرناهم غير جديرين بالبحث. ولكن الذين يثيرون الخلاف بين المطهري وشريعتي ليسوا فقط لا يذهبون إلى هذا الرأي، بل ويسعون إلى إظهار المطهري بوصفه تقليديا محضا، وأنّ الخلاف القائم بينه وبين شريعتي يعود إلى كون المطهري تقليديا، وكون شريعتي تجديديا.

وأضيف أيضا أنّ هناك من جعل من المطهري حجابا لشريعتي، وهناك من جعل من شريعتي حجابا للمطهري، إذ هناك من حُرم الاغتراف من معين شريعتي لمجرد اغترافه من معين المطهري، وهناك من حرم من الاغتراف من معين المطهري لمجرد اغترافه من معين شريعتي. فكان هؤلاء من ذوي الأفق الضيّق الذين لا يتسع إناؤهم لأكثر من معين واحد، وإنّ أوعيتهم بمنزلة البركة التي ما أن يضع المطهري أو شريعتي قدمه فيها حتى تفيض بمائها ولا يبقى للغير متسع لوضع قدمه فيها. وهناك من هو أسوأ من هذه الجماعة، وهم أولئك الذين جعلوا من المطهري أداة للقضاء على شريعتي، وجعلوا من شريعتي أداة للقضاء على المطهري، وهؤلاء لم يكونوا ليفعلوا ذلك حبا للمطهري ولكن بغضا لشريعتي، ولا أولئك فعلوا ذلك حبا لشريعتي، ولكن بغضا للمطهري". (المصدر السابق،ص ٩٩).

ثم نجد الأستاذ إسفندياري يذهب إلى أبعد من هذا بكثير، إذ يرى بأن الشهيد مطهري قد تأثر كثيرا بشريعتي، وبشخصيته وبكتبه ومحاضراته وأفكاره، مما جعل مطهري ينتقل بعد تعرفه على شريعتي من حالة إلى حالة، ومن منهج إلى منهج، حيث بدأ متأثرا بالفلاسفة والمتكلمين وبعد تعرفه بشريعتي انتقل إلى المسائل الاجتماعية والإصلاحية، وقدّم المصلحين الاجتماعيين على جميع من سواهم، من فلاسفة وعرفاء ومتكلمين! أي أنّ شريعتي كان عاملا مؤثرا في اتجاه مطهري الفكري، وفي رؤاه التغيرية والإصلاحية، مما يدل على قوة الاحتكاك والتجاذب بينهما. وفي هذا المعنى يكتب:

" **تأثير شريعتي على مطهري، قمة العلاقة الإيجابية:**

وفي الختام نقول أيضا: إنه لم يكن هناك ارتباط فكري بين المطهري وشريعتي فحسب، بل وقد أثّر شريعتي على المطهري، وقد أدناه بهذا التأثير إلى نفسه وقرّبه منها.

وكما نعرف، فإنّ المطهري كان في بداية أمره متكلما وفيلسوفا، وكانت أغلبية إشكالاته من سنخ المسائل الكلامية والفلسفية. كما كان من الناحية الشخصية والنفسية يميل إلى الانطوائية والعزلة، وربما كان لهذه الانطوائية دور في سوقه نحو المباحث الذهنية والانتزاعية. وقد أشار المطهري في بداية واحد من كتبه إلى أنه ومنذ الثالثة عشر من عمره كان يميل إلى الميتافيزيقيا، حتى لم يكن ليتحمل الفيزيقيا، وكان ينزع إلى العزلة إلى حد يترك معه الحجرة وزميله فيها ويلجأ إلى حجيرة صغيرة أشبه ما تكون بقبو. وأضاف أنه كان يرى منذ ذلك الحين الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين أعلى شأنا ومقاما من سواهم من أصناف العلماء الآخرين.

وبعد أن التقى المطهري بشريعتي واطّلع على مؤلفاته خرج من المباحث الكلامية والفلسفية، ومال إلى المسائل الاجتماعية والعصرية، وقدّم المصلحين الاجتماعيين على جميع من سواهم، فحيث كان في السابق يقول: كنت في بداية دراستي للعلوم الدينية أفضّل الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين على غيرهم، كانت نتيجة أمره أن قال: إنّ المصلحين الاجتماعيين أعظم وأجلّ منهم، حيث قال:

إنّ كلمة "المصلح" و "الإصلاح" من الكلمات السائدة فيما بيننا حاليا. وقد كان السيد جمال الدين الأسد آبادي من المصلحين، وللمصلح من الشأن والأهمية التي تجعله فوق العالِم والمجتهد والفيلسوف والمنجّم والرياضي... إذ لا شك في حاجة المجتمع إلى من يصلحه أكثر من حاجته إلى الطبقات والفئات العلمية الأخرى.

لقد تأثر المطهري إلى حدّ ما بالدكتور شريعتي في الاجتماعيات والمسائل المستحدثة. ومن الطبيعي فإنّ المطهري قد خالف شريعتي في تحليل بعض المسائل، ولكنه إنما استلهم تلك المسائل من الدكتور شريعتي نفسه. ومن باب المثال يمكننا أن نشير إلى مسائل من قبيل: الإنسان والمجتمع، والتاريخ، وفلسفة التاريخ، وفلسفة الأخلاق، والمقارنة بين الإسلام والمذاهب والآراء الحديدة، حيث كان شريعتي هو الذي أثار المطهري نحوها. وكذلك تجدر الاشارة إلى سعي المطهري في طرح الإسلام بوصفه دينا أو رؤية شمولية، تأثر فيها بسعي شريعتي إلى طرح الإسلام بصفته الإيديولوجية". (المصدر السابق،ص١٠٤).

شهادة مطهري في حق شريعتي:

أما فيما يتعلق بشهادة الشهيد مطهري حول شريعتي وأفكاره فلدينا نص قاطع وواضح كتبه المطهري بنفسه وفيه لا يخرج عن شهادة بهشتي، فشريعتي في نظر المطهري مخلص للإسلام، كما أنّه ليس لديه أي آراء غير اسلامية اتجاه أي أصل من أصول الدين توحيدا ونبوة ومعادا وعدلا وامامة. لكنه وقع تحت كم من الشبهات والأخطاء العلمية والفكرية، وذلك بسبب دراسته في الغرب، وتأثره بالكتاب والمفكرين الغربيين اللا اسلاميين، ومن هنا علينا أولا أن نعتمد في الدرجة الأولى على كتاباته، وثانيا ينبغي احترامه وتقدير إخلاصه مع تنبيهه باللغة العلمية وبالكتابات والردود الهادئة إلى أخطائه ومنزلقاته الفكرية فيما يتعلق بالفكر الإسلامي. وكل ما يمت بصلة إلى الدين. والغريب أنّ مطهري بسبب موقفه هذا لقي من السهام ما لقي، ومن الأذى الكثير، من الفريقين معا، من أنصار شريعتي من الشباب، ومن خصومه، ممن يذهب إلى تضليله والحكم عليه بالزيغ !!. إذ كيف يخطئه من جهة، ومن جهة أخرى كيف يظهره بمظهر المخلص للدين، والكاتب النقي مع شيء من الأخطاء العلمية ؟!. فصار المطهري جرّاء ذلك في مأزق وموقف لا تحمد عقباه. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن المطهري كان يساير شريعتي أو يوافق على كتاباته ويستحسنها ويبررها، بل كان مستاء جدا منه ومن كتاباته، وما سببته للحسينية بشكل عام وللمطهري بشكل خاص من حرج شديد، وسمعة سيئة في أوساط العلماء والمتدينين والحوزات العلمية، وخصوصا ما جاء في كتبه "معرفة الإسلام" و "محمد خاتم النبيين" من أفكار لا يتقبلها العلماء بأي وجه من الوجوه، حتى بات الناس يقولون يزيدية الإضلال بدلا من حسينية الإرشاد !

لكن مع هذا كله لم يكن يقبل المطهري بأن يذهب في التعامل مع شريعتي إلى حيث التفسيق والتضليل والتكفير، بل يذهب إلى حيث النقاش العلمي،

والحوار الجاد، وتترك هذه الأمور للخاصة من العلماء والمفكرين ورجال الدين والمتمكنين من الرموز العلمية الحوزوية.

" من الضروري هنا معرفة علل ما تعرض له الأستاذ في الأعوام الأخيرة من حياته وحتى بعد استشهاده، من اتهامات وجّهها إليه البعض بنزوعه إلى الراحة والدعة واجتناب المواقف الثورية الحادّة والتهاون في النشاطات السياسية، ومثل هذه الاتهامات لم تتعرض لها الشخصيات التي لم تصل إلى مستوى الأستاذ حتى من جهة النشاطات الثورية الظاهرية، والتعرض للسجون والمراقبة. وقد اتضح مما تقدم أنّ هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة، وأوضحنا سابقا أنّ إقدام الأستاذ على النشاطات الثورية الظاهرية والحادّة ارتبط على الدوام بمدى مناسبتها لجهوده في الحفاظ على الهوية الإسلامية النقية للثورة، وحسب تصورنا فإنّ لهذه الافتراءات علتين أساسيتين ترتبطان كلاهما بموقعية الأستاذ وجهوده للحفاظ على نقاء الأساس العقيدي للثورة وحفظهما من الأفكار الأجنبية الدخيلة المغطاة بصبغة إسلامية ظاهرية، ويُضاف إلى هاتين العلتين علل أخرى لسنا هنا بصدد تفصيل الحديث عنها، كإخلاصه العميق واجتنابه التظاهر، أو كحدّة ذكائه ويقظته ونظرته الثاقبة المؤدية إلى عدم إعطاء ذرائع للعدو وبعبارة أخرى التزامه بالتقية بمعناها الحقيقي وهو العمل بصورة يستطيع معها توجيه أكبر وأكثر الضربات للعدو مقابل أقل الخسائر.

أما العلّة الثانية التي سبّبت اتهام الأستاذ "باللاثورية" على الرغم من سابقته الجهادية الطويلة سياسيا وثقافيا، فهي ترتبط بالانتقادات التي وجّهها الأستاذ لبعض آراء وأفكار المرحوم الدكتور علي شريعتي، وبطبيعة الحال نحن هنا لا نعتبر منظمة "مجاهدي الشعب الإيراني" والمرحوم الدكتور علي شريعتي من سنخية واحدة، كما أنّ انتقادات الأستاذ لتلك المنظمة ولآراء الدكتور علي شريعتي لم تكن من سنخية واحدة، فالمطهري كان يعتبر أفكار المنظمة ماركسية المنبع، في حين أنه كان يعتقد بوجود أفكار صحيحة إيجابية لدى المرحوم شريعتي وأخرى سلبية غير صحيحة، وأفكار هذين الطرفين وأساليبهما متباينة أساسا.

في عام (١٣٩٨ هـ . ق) وضمن سياق الاختلافات والمناقشات التي شهدها الشارع الثقافي في إيران حول المرحوم الدكتور شريعتي وأفكاره، صدر بيان موقع من قِبل الأستاذ المطهري والمهندس بازركان، نبّه إلى الجوانب والنقاط السلبية في آثار المرحوم شريعتي ضمن الإشارة إلى الجوانب الإيجابية والتأكيد على احترام شخص الدكتور، ونشير هنا إلى أنّ المهندس بازركان قد سحب توقيعه بعد بضعة أيّام، ونص البيان هو :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

،ملرا لأنّ القضايا المتعلقة بالمرحوم الدكتور علي شريعتي مازالت منذ مدة ••ار لغطٍ وتضييع لأوقات فئات عدّة وانصرافها وانشغالها عن القضايا لاساسية والضرورية، وكذلك نتيجة لاستغلال الأطراف المشبوهة والمعرضة لهذا اللغط، لذا رأينا نحن الموقعين على هذا البيان ضرورة لساحث حول الموضوع، وبعد سلسلة من اللقاءات والتباحث بهذا الشأن واتحاد وجهات النظر إلى درجة كبيرة توصلنا إلى أنّ الواجب الشرعي ،سلزم منّا إطلاع الرأي العام على آرائنا المشتركة بهذا الصدد، بصورة اجمالية أولا ثم تفصيله فيما بعد، إيمانا منا بواقع أنّ أكثر الذين أصيبوا بعدم وضوح الرؤية وإتلاف الوقت نتيجة ذلك اللغط هم من طلاب الحقيقة، فقررنا إيصال آرائنا إليهم خصوصا لتكون وسيلة خير لإنقاذهم من ذاك الضياع والعودة إلى التزام عُرى الوحدة والألفة بين المسلمين، وامين أنّ في ذلك رضا الله تعالى.

والمناط فيما يُشاع بشأن المرحوم شريعتي أو يرتبط بميوله وقناعاته واستنباطاته وآرائه حول القضايا الإسلامية، هو ما تعكسه آثاره وكتاباته. ونحن لنا علاقة بشخصه إضافة إلى اطلاعنا على آثاره وكتاباته، واستنادا الى هذه المعرفة، نؤمن بعدم صحة ما يُنسب إليه من ميول ... ، كما لم تكن له اراء غير إسلامية تجاه أي من أصول الدين "توحيدا ونبوّة ومعادا وعدلا وامامة".

ولكن وبحكم أنّ دراسته وثقافته كانت غربية، ولم تسنح له الفرصة الكافية والمجال اللازم للتحقيق الوافي في مجال المعارف الإسلامية، حتى أنّه كان أحيانا يجهل بديهيات القرآن والسنّة والفقه والمعارف الإسلامية، لذلك وعلى الرغم من الازدياد المستمر في معلوماته في هذا المجال نتيجة جهوده المكثفة، فإنّه وقع في أخطاء كثيرة لا ينبغي السكوت عنها، فهو نوع من كتمان الحق ومصداق لقوله تعالى: " إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون".

واستنادا لما تقدّم وبملاحظة إقبال الشباب الواسع على كتب المشار إليه، وانتباهه هو نفسه إلى أخطائه بعد التذكير المستمر له بشأنها من قبل أشخاص نزيهين، وبعد اتّساع معلوماته، وتوكيله أحد أصدقائه وكالة مطلقة لإصلاحها، وبالتوكل على القوّة الإلهية ومع حفظ احترامنا لشخصيته وتقديرنا لخدماته وجهوده في جذب الشباب إلى الإسلام، فقد قررنا بيان آرائنا حول محتويات مؤلفاته وآثاره في منشورات بلغة صريحة ودون مجاملة أو التفات إلى انفعالات الأنصار المتعصبين أو الأعداء المغرضين.

نسأل الله العون والتسديد، شاكرين لجميع الأفراد الذين يعينونا على ذلك من غير قصد سيء وعبر اطلاعنا على آرائهم المدعمة بالبراهين .. والسلام على من اتبع الهدى".

بعد نشر هذا البيان انهالت على الأستاذ المطهري سهام شتى التهم والافتراءات حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالتعاون مع النظام الملكي.

ومفهوم أنّ من الصعب على بعض الشباب الثوري المتحمس، الاقتناع بموقف الأستاذ هذا، فهم كانوا يرون في المرحوم الدكتور شريعتي الكثير من مظاهر الثورية وبسببها عشقوه، لذا كان صعبا عليهم التحرر من عواطفهم، والتصديق بأنّ بعض أفكاره لا تنسجم مع المفاهيم الإسلامية، بل إنّ هذه الحالة شكلت أرضية مناسبة لاقتناعهم باتهامات اللاثورية التي روّجها الأنصار المتعصبون لشريعتي ضد الأستاذ المطهري، فأولئك الشباب كانوا يتعاملون مع هذه القضية وفق المغالطة التي أشرنا إليها وهي أنّه مادام الدكتور شريعتي إنسانا ثوريا، والأستاذ يعارض أفكاره، إذا فالأستاذ المطهري ليس ثوريا !!.

لكن الأستاذ المطهري لم يرهب هذه الهجمات التي شنّها ضده أمثال أولئك الذين كان لبعضهم ارتباط بالنظام الشاهنشاهي، واختار الصمت تجاهها دون أن يسمح لها بالتأثير عليه، فلقد كان مؤمنا بعمله ذاك ويراه واجبا شرعيا يساهم عبر القيام به في دفع مسيرة الثورة وفق أحكام ومفاهيم الإسلام النقي" (جولة في حياة الشهيد مطهري،تأليف جماعة من الأساتذة والعلماء، ط١/١٩٩٢م، دار الهادي، ص١٩٣).

هذا الموقف المتصلب والمتشدد من الشهيد مطهري، والذي امتاز بالغلو والغلظة من قبل أنصار شريعتي والشباب الملتفين حوله، وكذا من أعداء كتابات شريعتي جعلت من شريعتي يهيج ويثور، ويخرج بنتيجة مؤداها أنّ أنصاره يريدون أن يحولوا من شريعتي إلها يعبد، ومعصوما لا يخطئ، وأعداءه حولوه إلى عدو لا يمكن الاقتراب منه، وهذا ما جعله في حنق وضيق واستياء نفسي في ظل هذه الأجواء المتوترة والمحمومة، وصار يشعر بالغربة والألم في وسط هذا المجتمع المنفلت من العقلانية والوسطية، ترجم ذلك الألم والإحساس إلى رسالة بعث بها إلى أستاذه وملهمه روح الله الخميني في منفاه.

" أما الشهيد الشيخ مرتضى المطهري فإنّ رأيه بالدكتور شريعتي قد تفاوت بين زمان وآخر، وقد كان هو الذي دعاه بعد تعرفه عليه في مدينة مشهد إلى إلقاء محاضراته في (حسينية الإرشاد) في طهران بسبب إعجابه ببيانه.

ولكن بعد أن انتشرت كتابات شريعتي وأفكاره، وجد الشهيد مطهري أنّ فيها الكثير مما لا ينسجم مع الإسلام. ومع أنّ موقفه قد تصعّد، إلا أنّه في الوقت نفسه لم يدخل معه في معركة، بل حرص على نقد أفكاره نقدا علميا. ثم أعلن عن استعداده لأن يقوم بإبلاغ شريعتي بموارد الخطأ الذي وقع فيه ليقوم هو - أي شريعتي- بتصحيحها دون أن يتدخل الشيخ المطهري. يكتب إلى السيد الخميني عندما كان في النجف وبعد رحيل شريعتي ما ترجمته:

" رأيت مؤخرا أنّ فريقا ممن لا يعتقد بالإسلام ويرتبط به بشكل صحيح ومن المنحرفين عنه يسعون جاهدين إلى أن يجعلوا منه أي شريعتي صنما بحيث لا يجرأ أحد من علماء الدين على الخدش في أقواله ... مدّعين أنّه قد قام بعد جمال الدين وإقبال بتجديد الإسلام بما يفوقهما، وأنّه قضى على الخرافات، ولهذا فإنه لابد من الالتزام بأفكاره ...

عجبا! يريدون أن يصنعوا من خلاصة أفكار (ماسيتيون) مستشار وزارة الاستعمار الفرنسية في شمال أفريقيا ورئيس المبلغين المسيحيين في مصر، و (غورويج) المادي اليهودي و (جون بول سارتر) الوجودي المعادي للإلهية و (دوركهايم) عالم الاجتماع اللاديني، يريدون أن يصنعوا من خلاصة أفكار هؤلاء إسلاما جديدا! فعلى الإسلام السلام.

إن أقل ما ارتكبه هذا الرجل هو إساءته إلى سمعة علماء الدين حيث اعتبر أنّ تعاون رجال الدين مع أجهزة السلطة الظالمة في مقابل القواعد الشعبية أصلا اجتماعيا كليا، وادّعى أنّ الملك والمالك والملا، وبتعبير آخر الموسى والذهب والسبحة دائما موجودون إلى جانب واحد ومن أجل تحقيق هدف مشترك ....

من الجيّد أن أطلعكم على أني في الفترة الأخيرة من حياة شريعتي أبلغته من خلال عدّة أشخاص: إنّ في كتاباتك أمورا ضد الإسلام وعليك أن تقوم بإصلاحها، وأنا على استعداد لأثبت لك ذلك وبحضور جمع من أصحاب الرأي أو لوحدنا أو كيفما ترغب، وإذا ثبت ذلك فعليك أن تقوم بإصلاحها ولو باسمك لا باسمي، وذلك سيؤدي إلى ارتفاع شأنك، وإلا فسأضطر إلى مجادلك بالدليل بشكل صريح، وسيكلفك ذلك غاليا .ز " (محمد باقر الصدر، أحمد العاملي، مصدر سابق، ج٣،ص٣٥٤)

هذا هو موقف الشهيد مطهري الواضح والمعلن من علي شريعتي وأفكاره، و الطريقة المثلى في التعامل معه، وهو الطريق العلمي القائم على البحث والجدل المستنير ووضع اليد على الأخطاء وليس الصراع والتسقيط والتشهير، ويبدو أن المطهري كان يعلن هذا الموقف سواء في حياة شريعتي وحضوره أو بعد وفاته وأثناء غيابه، فموقفه واضح لا لبس فيه ولا تلون أو

تغير، وكان يتكلم بكل صراحة مع شريعتي نفسه وأمامه حول أخطائه الفادحة والمنتشرة في كتبه العديدة ومحاضراته الغزيرة في الحسينية، ويشير لها بحضور بقية العلماء الحريصين على حضور الحسينية، والمرتبطين بالاثنين معا شريعتي ومطهري ارتباطا علميا.

فبجانب ما كتب وسجل من موقف من شريعتي إلى السيد الإمام بعد رحيله والتي أوردنا نصها أعلاه، كتب أيضا هذه الشهادة المهمة والتي لا تخرج في إطارها العام عما جاء في رسالته إلى السيد الإمام، وقد عنونها بعنوان ذي دلالة، وهو "موقفي" في نقاط كثيرة، نورد منها ما يهمنا في السياق وما له علاقة من قريب بموقفه من شريعتي، حيث كتب هذه الشهادة على هامش مباحثات جرت في حسينية الإرشاد بيوم الثلاثاء ١٣٥٠/٧/٦ هـ . ش مع مجموعة من العلماء والمفكرين والمنتسبين والمسؤولين في الحسينية ،وعلى إثر ذلك كتب يقول:

" خلاصة نظري فيما يتعلق بالمرحوم شريعتي يُذكر بخير ويُنبّه إلى أخطائه، و(هو) ليست له ميول سنية وإنْ كانت له أخطاء في موضوع الإمامة، وبين هذه الميول وهذه الأخطاء فرق واضح. أساتذة شريعتي هم والده، الكسيس كارل، ماسينسيون المستشرق وعضو وزارة الخارجية الفرنسية، كورويج اليهودي المادي، جان بول سارتر المادي الوجودي، دور كهايم عالم الاجتماع المعادي للدين، فأيٌ من هؤلاء كان سنيا أو وهابيا، ومن الظلم أن نصف والده المحترم بكل ما يمتاز به من (...) بميول سنية، وبالنسبة لشريعتي لماذا يُتّهم بذلك ؟! إنّه كان ينتفع بكل روح ثورية وعقيدة ثورية، فأيّ ثورية توجد في الميول السنية أو الوهابية ؟!.

إنّ الأشخاص الذين توجد فيهم ما كانت فيه من روح ثورية، وحتى لو كانوا من السنة فإن احتمال تشيعهم يكون أقرب، ففي التشيع توجد مكامن الروح الثورية، في التشيع توجد واقعة كربلاء وانتفاضة أبي ذر، والأئمة الشهداء، الشهيد تلو الشهيد، في التشيع يوجد الأمل والانتظار للفرج الشامل.

موعظة ونصيحة لأولئك الذين هم مثل أبنائي : " اعرضوا عن اللغو، واحذروا أنّ بعض الحوادث تجر إلى عواقب قد لا تريدونها أنتم أيضا. الأوضاع الحالية تحمل حوادث نظير واقعة القرن الثالث عشر الهجري، وكتابات ذلك المرحوم (شريعتي) تحمل بذور مثل هذا الانشقاق المشؤوم (كوير) (اسم كتاب لشريعتي).

إنني ألتمس بالدرجة الأولى من والده المحترم، والذي يعترف بالأخطاء (الموجودة في كتب شريعتي الابن) وقد تحدّثنا حول هذا الموضوع في مشهد، أن تدخلوا في الموضوع، فأنتم ولا شك أحرص من الجميع على سعادته

الاخروية وطيب ذكراه الدنيوية، إذن ساعدوا على إصلاح أخطائه، إنّه الآن في العالم الآخر ويتوقع من محبيه أن ينشروا سننه الحسنة ويوقفوا سننه السيئة" (جولة في حياة الشهيد مطهري،تأليف جماعة من الأساتذة والعلماء، ط١/١٩٩٢م، دار الهادي، ص٢٤٣).

والغريب في الأمر برمته أنّ الشهيد مطهري هو الذي جاء بعلي شريعتي وكذلك والده لحسينية الإرشاد، وهو الذي قدّمه للمنتديات وللعلماء ولأوساط الشباب، وهو الذي أعطاه الفرصة تلو الفرصة للظهور والتحدث في الدين، وطرح آرائه بكل حرية في بادئ الأمر، وذلك لشدة إعجابه به، وانبهاره بشخصيته وانشداده للغته وقوة تأثيره في الشباب وجلبه للإسلام والفكر الإسلامي، مما أبرز علي شريعتي مفكرا إسلاميا يُشار له في جميع الأوساط العلمية في إيران، ويتحول بعدها إلى رقم صعب في كل إيران. وحين تعجّب العلماء من خطوة مطهري تلك، وهو الفقيه المعمم، وخرّيج الحوزة، حيث يستبدل علي شريعتي برجال الدين ليتحدث في حقل ليس محله، وعلم ليس بمتخصص فيه، أجاب معللا بما يظهر شدة إعجابه وثقته في علي شريعتي، وعقده الآمال عليه للأيام القادمة للتغيير في جيل الشباب على الأخص، أجاب قائلا :" إنّه ووالده السيد محمد تقي مزيناني مشغولان في إطار "مؤسسة نشر الحقائق الإسلامية" وقد استطاعا أن يجذبا الشباب إلى الدين بشكل جيد في مشهد. أجل، وفي مشهد لازال الانجذاب يزداد إليه يوما بعد آخر، والسبب أنّه متخصص في علم الاجتماع، وقد درس جيدا. وهو يملك السيطرة الكاملة على أعصابه، بالإضافة إلى مهارته الفائقة في بيان الأفكار واستخدام الألفاظ. لأنّ الشباب قلما سمعوا حديث الدين من "الأفندية" ذوي الهندام الجيد والشكل الأنيق، فقد ازداد الطلب على الدكتور شريعتي، خصوصا وهو يتحدّث بلغة الشباب". وفي موضع آخر وفي شهادة ثانية في حق شريعتي على لسان مطهري يؤكد بأنّ وجود شريعتي يمثل مغنما ويعد مكسبا لما له من تأثير في جلب الشباب للإسلام، وهو يؤثر فيهم ويستمعون له أكثر من استماعهم لرجال الدين، وفقده يعد خسارة، ونبذه يعتبر تصرفا غير مناسب، وفي هذا المعنى يقول مطهري : فمن جهة يعدّ شريعتي وجودا نافعا في نفسه، وهو يستطيع بحسب قدراته وامكاناته أن يجذب الشباب ويضعهم على الطريق. فجيل الشباب ينجذب اليه لكونه محاضرا دينيا مثقفا وليس من المعممين أكثر مما ينجذب إلينا، وذلك بسبب الدعاية المضادة والسموم التي بثّها الأعداء ضدّنا على مر الزمان، أعداء الداخل والخارج على السواء. والذي أخشاه، أنّ فقده قد يتسبب في مشكلة، بحيث إذا تركناه هكذا قد يجر إلى مكان آخر".

تفاصيل الخلاف بين شريعتي ومطهري:

من المؤكد ومن خلال الشواهد والتفاصيل العديدة حول حياة الشهيد مطهري وشريعتي أنّ بين الاثنين خلافات عميقة، وذلك أثناء تواجدهما معا في حسينية الإرشاد، واختلافهما في أسلوب العمل أمر ظاهر وملموس من خلال مطالعة المصادر الكثيرة التي تناولت الشخصيتين معا، فهما مختلفان في طبيعة ونمط التفكير، ومختلفان في المصادر التي يستقي كل منهما معارفه، وقناعاته، ومختلفان في الرؤى والغايات، مما جعل الشهيد مطهري في آخر المطاف لا يتحمل البقاء أطول، والعمل معه في الحسينية، ويكيف نفسه حسب شخصية شريعتي، وما هو عليه من طريقة عمل وإدارة، وما ينعكس بالتالي في المجتمع كله من أقاويل جارحة تنسحب على مطهري نفسه، وتُحسب عليه، مع أنّها أخطاء شخصية وفردية يمثلها شريعتي ذاته، ولا دخل لمطهري فيها، ولكن المجتمع والحوزات الدينية والعلماء لا يعرفون هذا النمط من التفكير. وقد حاول مطهري رأب الصدع، والإصلاح بكل السبل إلا أنه فشل، مما جعله ينسحب، ويسحب أذيال الخيبة، واليأس من التغيير، فالخلاف كل يوم في ازدياد، والشقاق يتعمق كل ساعة، وليس الأمر كما يصفه أ. محمد إسفندياري، مجرد اختلاف بسيط وعادي للغاية، كأي اختلاف بين عالمين من المفكرين المسلمين، فهو أعمق بمراحل.

ومن أفضل ما قرأت من تفاصيل تظهر بجلاء وتتبع دقيق لهذا الخلاف في المشربين بين مطهري وشريعتي ما كتبه الشيخ البحاثة والمؤرخ علي دواني، في كتابه "ذكرياتي مع الشهيد مطهري". وهو كتاب قيم وثمين في مادته، ودواني معروف في هذا الحقل من الكتابة، وهو حقل تراجم العلماء، وخصوصا علماء إيران .. ولنبحر معا مع الشيخ دواني وذكرياته التي كتبها حول الخلافات التي نبتت بين شريعتي ومطهري، ومن ثم التقييم الصادق والمتوازن لشخصية علي شريعتي الإشكالية، والتي تمتاز بأكثر من بعد وتأثير.

يقول الشيخ علي دواني:

" الأستاذ الشهيد في حسينية الإرشاد:

لا أعرف في أية سنة حصل ذلك، حين جاء الشهيد مطهري يوما إلى قم زائرا، وذكر في مجموعة من الرفاق كنت أحدهم، بأنّ مشروع حسينية الإرشاد استكمل، وهي الآن في طور العطاء والعمل، حيث قال إنه والشيخ أكبر هاشمي رفسنجاني والشيخ محمد جواد باهنر أصبحوا أعضاء الهيئة العلمية في الحسينية. والمعروف أنّ الشيخ رفسنجاني والشهيد باهنر كانا حينها قد غادرا حوزة قم واستقرا في طهران.

،صاف الأستاذ الشهيد: نريد أن نستفيد من الفرصة ونقوم ببعض الأعمال اعلامية والتبليغية في حسينية الإرشاد، من بين ذلك أن ندعو في ليالي السبت عددا من الأصدقاء من قم، ليقدموا إلى طهران ويساهموا بإلقاء محاضرة في الحسينية، تُعلن عنها قبل ذلك في الصحف، لتضاف مشاركتهم إلى مشاركتنا نحن الموجودين في طهران. والذي بدا لي أنّهم ، عوا من جماعة "مكتب إسلام" السادة ناصر مكارم وحسين نوري، ودعوني ،، للمشاركة في تلك المحاضرات عدّة مرّات.

كان الضجيج حول حسينية الإرشاد لازال في بدايته، إذ كان هناك من ،،ساءل عن الذي يقف وراء المشروع، ويردّد: وماذا في المساجد حتى تُترك، ويلجأ مطهري ورفسنجاني وباهنر إلى ممارسة هذا النشاط من خلال حسينية الإرشاد؟ لابدّ أنهم يريدون أن يأتوا بغير المعممين (الأفندية) أيضا من امثال فخر الدين حجازي، كي يأخذ مكانه بدلا من أهل العلم في ارشاد" الناس !

لازلت اذكر أنني حين انتهيت من إلقاء محاضرتي في إحدى المرّات التي ، عت فيها إلى الحسينية، أعلنوا بأنّ الدكتور شريعتي سيأتي من مشهد في الاسبوع القادم فما بعد. سألت: ومن هو د. شريعتي؟ أجاب الأستاذ الشهيد: ،،ه ووالده السيد محمد تقي مزيناني مشغولان في إطار "مؤسسة نشر الحقائق الإسلامية" وقد استطاعا أن يجذبا الشباب إلى الدين بشكل جيد في مشهد.

سألت مستفهما: هو نفسه الذي جاء قبل عدّة أشهر وألقى محاضرة في الحسينية، فكان أن زاد عدد الحضور على النسبة التي تحضر لي ولك ؟ أجاب الأستاذ الشهيد: أجل، وفي مشهد لازال الانجذاب يزداد إليه يوما بعد آخر. والسبب أنّه متخصص في علم الاجتماع، وقد درس جيدا، وهو يملك السيطرة الكاملة على أعصابه، بالإضافة إلى مهارته الفائقة في بيان الأفكار واستخدام الألفاظ.

أضاف: لأنّ الشباب قلّما سمعوا حديث الدين من "الأفندية" ذوي الهندام الجيد والشكل الأنيق، فقد ازداد الطلب على الدكتور شريعتي، خصوصا وهو يتحدّث بلغة الشباب.

قال الشهيد مطهري ذلك، ثم استطرد: أنا أعرفه ووالده جيدا، فهما من أهل مشهد. لذلك دعوتهما معا للمشاركة في إلقاء المحاضرات في الحسينية، ولكي يكون ذلك أيضا مصدرا يعينهما على تحسين وضعهما المعاشي، فوضعهما المعاشي ليس على ما يرام.

والد الدكتور له سابقة في الدراسات الحوزوية، بيد أنّه عاد قبل سنوات ليترك الزي الديني، لقناعة منه أنّه يستطيع عن هذا السبيل أن يتوفر على تقديم خدمة أفضل للدين والمجتمع. إنّه معلم وموظف في الحقل الثقافي، وهو متقاعد عن الوظيفة فعلا، ليس لديه ما يقيم أوده غير (١٠٠٠) تومان يتقاضاها شهريا كراتب تقاعدي.

أضاف الأستاذ الشهيد: طبيعي أنّ ذلك أثار اعتراض بعض العلماء وأهل المنبر ممن لا يتحلون برؤية صحيحة، ولا يعرفون شيئا. كما اعترض بعض تجار السوق (البازاريين وهم قوّة عظيمة متنفذة في إيران) وقالوا إنكم تريدون أن تجذبوا إلى الساحة أمثال فخر الدين حجازي والدكتور شريعتي بدلا من المعممين، فيتحلق الناس حولهم ويحتفون بهم، ولا يبقى شيء من الاعتبار للعمامة ❁بيد أني لم أصغِ لهم، ولا زلت معتقدا بضرورة الاستفادة من هؤلاء. فيجب أن يأتوا إلى هذه المواقع ويستفيد المجتمع من رؤاهم، خصوصا الشباب، لا أن نتركهم عرضة لقوة جذب الآخرين، فتزداد المسافة أكثر فيما بيننا وبين المجتمع.

الشباب يُعنى بهؤلاء أكثر مما يعنى بنا. طبيعي أنّ لنا موقف النظارة والإشراف، فنحن نراقب الموقف من موقعنا الذي وضعنا بين جبهتين متعارضتين، جبهة المتقدسين وجبهة الشباب المتطرف. ومن موقع الإشراف والمراقبة هذا لن ندع الأمور تنحدر إلى منزلق ضيق. لذلك كله على الأصدقاء في قم أن تنفتح أرجلهم على المكان ويزوروه باستمرار، لكي نصل إلى نتيجة أفضل.

استطرد الأستاذ الشهيد مضيفا: بعث لنا الميرزا أبو الحسن رفيعي رسولا قال: إنّ كلاما يُثار حول حسينية الإرشاد، يوجب علينا تكليفا شرعيا، فما هو الموضوع؟ أجبته بأننا أيضا درسنا الفقه وعلى دراية بالفلسفة أيضا، ونحن على حذر! أخيرا أشار الشهيد مطهري أنه بصدد الإفادة من أمثال محيط

طباطبائي ومجتبى مينوي، بدعوتهم لإلقاء المحاضرات في الحسينية، وسنرد على المتقدسين والمعارضين، فإلى متى يجب أن يكون هؤلاء بعيدين عنا!

❁ طبيعي أنّ بعض كلام المعارضين لم يصدر جزافا من دون شيء. ففي تلك الأيام كان السيد فخر الدين حجازي يفعل فعلته في طهران، حتى أنني سمعت من المرحوم السيد غلام رضا سعيدي بأنّ الناس يطلقون عليه وصف: حجازي قاتل الآخوند، لشدّة موقفه منهم!

قلق الأستاذ على مستقبل حسينية الإرشاد:

.مد عدّة شهور حلّ المحرم، وقد التزمت مجلسا حسينيا أمارس من خلاله الخطابة في طهران. دعاني الشهيد مطهري في أحد الأيام لتناول طعام الغداء في بيته الواقع في منطقة "قلهك" وقد ذكر لي أنّ السيد عبد الكريم هاشمي نجاد سيحضر الدعوة أيضا.

كان الضجيج قد تصاعد آنئذ وكثرت الأقاويل ضد حسينية الإرشاد وبلغت ذروتها ضد محاضرات الدكتور شريعتي ووالده. عندما وصلت إلى بيت الشهيد الواقع في أول شارع "دولت" رأيت الشهيد هاشمي نجاد قد سبقني إلى المنزل، فقد جاء من مدينة مشهد إلى طهران ليلتزم مجلسا حسينيا يمارس الخطابة من خلاله، وبدوري كنت أعرف الشهيد هاشمي نجاد قبل ذلك حين كان في مدينة قم.

بدا الشهيد مطهري قلقا ومضطربا جدا، إذ بدت عليه سيماء عدم الراحة. ومع أنّه حاول أن يخفي اضطرابه ويظهر أمامنا بأسارير منفتحة ووجه منبسط تعلوه البسمة، وأخذ يبادلنا الحديث، ولكن مع ذلك كان يبدو وكأنّ ألما يعتصره ويؤذيه. بعد أن انتهينا من تناول طعام الغداء، التفت موجها حديثه لي: لا ريب في أنّك تناهت إلى أذنيك الضجّة المثارة حول حسينية الإرشاد منذ عدّة أشهر، وبالتحديد ضد الدكتور شريعتي وكتابه "معرفة الإسلام" وضدّ والده، وكذلك موج الاعتراض ضد بحثه الذي شارك به في كتاب "محمد خاتم النبيين"، هذا الكتاب الذي نشرناه عن طريق الحسينية؟

أضاف قائلا: لقد بلغت الحملة المعادية ضد الحسينية مدىً بحيث أخذوا بدلا من أن يقولوا "حسينية الإرشاد" يقولون "يزيدية الإضلال"! ولا ريب أنك سمعت أنّ الدكتور شريعتي أخذ يتحرك في مساره الخاص، حتى كادت أن تخرج السيطرة على الموقف من بين أيدينا، خصوصا وهو لا يصغي إلينا؟

أجبت: أجل. قال مستمرا في حديثه: لقد بذلنا جهودا كبيرة للحؤول دون اتساع الخرق وحملة الأقاويل، وحاولنا السيطرة على الموقف وتحديد الدكتور شريعتي، إلا أنّ جهودنا باءت بالفشل ولم تثمر. فنحن لا نستطيع أن نتحدث مع بعضهم لغياب القواسم والفهم المشترك، وبعضهم حين نتحدث إليه لا يفهمنا ولا يدرك مغزى القضايا المطروحة بشكل صحيح، كما أنّه لا يحيط بالجو على نحو كافٍ.

لقد قرّرنا أن نذهب الآن أنا والسيد هاشمي نجاد إلى مدينة (كرج) لنلتقي الحاج الشيخ حسن القمي (كان آية الله القمي مبعدا آنئذ إلى كرج من قبل

النظام، ولكن كان مسموحا بزيارته) فإذا كنت مستعدا تعال معنا. فالحاج القمي يعرف الدكتور شريعتي ووالده، وله بالإضافة إلى ذلك موقع لائق في المجتمع بسبب موقفه من حركة السيد الخميني، إذ استدعاه النظام من مشهد ثم نفاه إلى كرج. فنحن ذاهبون إليه نستلهمه الرأي في هذه المسألة. قلت: أجل أرغب بذلك وأنا على أتم الاستعداد.

ركبنا معا السيارة العتيقة التي يملكها الشهيد هاشمي نجاد وهي من طراز قديم موديل "فلوكس واغن" وتعهد السياقة بنفسه. وصلنا إلى كرج وأمسينا بمحضر الشيخ القمي في تمام الساعة الرابعة عصرا.

بدأ الشهيد يتحدث بعد أن فتح ملف القضية، والألم يحيطه من كل جانب، فقال: كم عانينا حتى استطعنا أن ننفذ إلى حسينية الإرشاد بحيث تكون في قبضتنا، ولا تقع بيد غير المؤهلين وتحت دائرة نفوذهم. ولابد أنك سمعت الضجيج والأقاويل ضد الحسينية بحيث أنّ أغلبية علماء طهران وأهل المنبر لا يشتركون في مراسم الحسينية ونشاطاتها، بل يتحدثون ضدّها، ونحن نتحمل.

لقد تركّزت حملة التحريض والضجيج أوّلا ضد فخر الدين حجازي حتى انتهى الأمر بمغادرته للحسينية وتركه لها، والآن يتركز الهجوم ضد الدكتور شريعتي. والمشكلة أنّه أخذ يتطرف ويتحدث بأحاديث ويكتب كتابات تعطي الذريعة للمهاجمين والمعارضين للحسينية. وأيضا لا يمكن ضبطه والسيطرة عليه، فهو لا يصغي لنصائحنا بل يفعل ما يحلو له. ومن الجهة الثانية، فإنّ الناس لا يسكتون بل يلاحقوننا بالتهم. تساءل الشهيد مطهري أمام الشيخ القمي: حقيقة، لا أدري ماذا أفعل، فهل أترك الحسينية أم أبقى؟

أضاف: فمن جهة يعدّ شريعتي وجودا نافعا في نفسه، وهو يستطيع بحسب قدراته وإمكاناته أن يجذب الشباب ويضعهم على الطريق. فجيل الشباب ينجذب إليه لكونه محاضرا دينيا مثقفا وليس من المعممين أكثر مما ينجذب إلينا، وذلك بسبب الدعاية المضادة والسموم التي بثّها الأعداء ضدّنا على مر الزمان، أعداء الداخل والخارج على السواء. والذي أخشاه، أنّ فقده قد يتسبب في مشكلة، بحيث إذا تركناه هكذا قد يجر إلى مكان آخر.

ومن جهة ثانية، يعود إصرارنا في إبقائه والحفاظ عليه بنتائج سلبية، من بينها: أنّه بدأ يسقط اعتبارنا بين أكثرية علماء طهران والمدن، فهم يرمون بالتقصير كله علينا. وإذا استمرت الأمور تسير على هذا المنوال، فسوف نخيب ولا يتحقق ما كنّا نرجوه من حسينية الإرشاد، بل سيأتي المشروع بنتائج عكسية تماما.

اضاف الأستاذ الشهيد: نحن في محنة حقيقية وأزمة، وقد اكتسبت المصيبة أبعادا معقدة، بحيث لا يعرف لها أول ولا آخر، لا ندري ماذا نفعل، لذلك جئنا إليك لننظر ماذا ترى وما هو رأيك؟ فهل بمقدورك أن تتوجه بالنصيحة إلى شريعتي والمتقدسين معا طرفي المشكلة لكي يكفا عما هما فيه. أو أنّ المصلحة بنظرك أن نستمر بممارسة نشاطنا في حسينية الإرشاد مع وجود جميع هذه المشكلات؟

عجبت لشدة المحنة التي أحاطت هذا العالم الجليل، وهي محنة من نفس اللون الذي نزل بي، وابتليت بها وأنا في مدينة قم، تلك المحنة التي ألمت بي اثر تعاوني مع الزملاء في مجلة "مكتب إسلام"، وأثناء التدريس في "دار التبليغ"، وهو الابتلاء الذي دفعني عدّة أشهر أن أنفض يدي من كل شيء، وأترك قم إلى طهران.

بدأ الشيخ القمي يتحدث مفصلا، فكان من بين كلامه، أنّه أكد ما كان ذكره الشيخ مطهري، إذ قال في هذا المجال: أنا أعرف شريعتي ووالده جيدا، فهما من أهل مشهد. والأمر كما ذكرت من أنّ وجودهما كليهما نافع. ولكن كثرة الحديث عن الخلفاء والوحدة الإسلامية بالشكل الذي يثير حفيظة الشيعة، والأفراد المخلصين، هو أمر يبعث على الخطر. والذي أراه اما انكم تبادرون إلى نصيحتهما مرة أخرى، لكي تتم الحجة عليهما، أو إذا قدما علي، أتولى أنا نصيحتهما وأوصيهما برعاية نهج الاعتدال في طريقتهما، حتى تهدأ الضجة وتتلاشى. أما إذا رأيتم أنّ هذا الأسلوب لا ينفع، فما عليكم إلا أن تردّوا عليهما، ولا أرى أن تترك الحسينية.

كانت سحنة الشهيد مطهري الخضراء قد تحوّلت من فرط التأثر والانفعال إلى اللون الأسود، وأطرق برأسه وهو متألم بعمق.

رفع رأسه وقال في جواب الشيخ القمّي: لا أعتقد أنّه سيصغي إلينا، أو يأتي إلى هنا، وحتى لو أراد هو ذلك، فإنّ له رفاقا، لا يريدون بقاءنا في الحسينية، ويمنعونه من ذلك. من جهة ثانية فإنّ المتقدسين لن يسكتوا. وأنا شخصيا قد تعبت، ولذلك سأترك الحسينية إن لم ألمس فائدة، ولا أتحمل مسؤوليتها بعد ذلك، وقد قلت هذا لكي تكون على علم بمجريات الأمور. حدثت هذه الحادثة سنة ١٩٧١م ولا أذكر الشهر الذي وقعت فيه بالضبط.

ظلّ الشهيد هاشمي نجاد ملتزما الصمت في مدّة اللقاء، في حين كان الشهيد مطهري وكأنه ينتظر منه أن يتحدث ويقول شيئا في اللقاء، إلا أنّه لم يفعل وظلّ ساكتا. أما أنا فقد كنت أشارك في الحديث أحيانا، غير أني لا أتذكر ما قلته في ذلك اللقاء.

افترقنا عن بعضنا في طريق عودتنا إلى طهران، ثم تعالت الضجة بعد ذلك وتفاقمت الأزمة، وأخذت مسألة الحسينية مدى واسعا، وبلغ الاختلاف ذروته حول بقاء الشهيد مطهري ورفاقه وإدارة الحسينية، حتى انتهت فيما قالوا إلى انسحاب الشهيد مطهري من الحسينية تماما حيث التزم إقامة صلاة الجماعة في مسجد الجواد، وأخذ يدير ذلك الموقع.

بلوغ قضية الحسينية الذروة والتعامل مع الأستاذ الشهيد:

في وقت تفاقم مسألة حسينية الإرشاد كنت واقفا في عصر أحد الأيام في الشارع القديم الذي ينتهي إلى "شميران" مقابل شارع "دولت" بانتظار سيارة التاكسي التي تقلني إلى بيتنا في شارع "أميرية".

مرّت أمامي سيارة سوداء من الطراز القديم، ثم توقفت على بعد خطوات من المكان الذي كنت أنتظر فيه. رأيت من يشير إليّ بالصعود من داخل السيارة السوداء، كان الذي يشير معمما يجلس في المقعد الخلفي. تأملت، فإذا هو الشهيد مطهري، كان يهم بالذهاب إلى مسجد الجواد. صعدت في السيارة، وبعد تبادل التحية والسلام، سألته: ما هي الأخبار الجديدة؟ أجاب: لم أنم الليلة الماضية! عدت لسؤاله: لماذا؟ قال: هل رأيت الكتاب الذي أصدرته منظمة "بيكار" وأعلنت فيه انفصالها عن منظمة "مجاهدي خلق" ؟ أجبت: كلا.

لقد شغلني في السابق وأثار قلقي كتاب "٢٣ سنة" حيث ظلّ يشغل فكري لمدّة، والآن هذا الكتاب، والذي أراه أنّه يجب كتابة رد على الكتابين معا، لكي لا يؤدي تأثيرهما إلى إضعاف الروحية العامّة للشباب وتشويش أذهانهم.

وذكر لي الشهيد مطهري أنّ من بين ما جاءت على ذكره مجموعة "بيكار" في هذا الكتاب، قولهم: لقد انفصلنا عن إسلامكم الجامد المتيبّس، ولم يعد إسلامكم بعد الآن قابلا للترقيع، وغير ذلك مما يشابهه. كان الأستاذ متألما بعمق، يأخذه الأسى من كل جانب.

عند هذه النقطة من الحديث كنا قد وصلنا إلى مقابل حسينية الإرشاد. كان الوقت عصر يوم الجمعة، فاجتمع عدد كبير من الشباب عند الحسينية، وجلس جمع آخر منهم عند سلالمها، وكانت جماعة ثالثة وقوفا، فيما كان بعضهم يمرّ من باب الحسينية داخلا إليها أو خارجا منها.

وبين مجموعات الشباب هؤلاء، كان عدد من الطالبات الجامعيات والنساء المحجبات اللائي يرتدين العباءة "الشادور" أو يكتفين بغطاء الرأس حجابا (وهنّ الأكثر) يمررن من بين الشباب وإلى جوارهم، إلى داخل الحسينية. توقفت سيارة الشهيد مطهري عند تقاطع للطرق قريب من الحسينية، فما

ـعان من الشباب وقد رأوا الشهيد مطهري إلا أن أخذوا يضحكون وهم ..ظرون إليه، بضحكة ذات مغزى. ثم أخذوا يتبادلون الإشارة فيما بينهم اسبه بعضهم بعضا للنظر إلى الشهيد مطهري وهو جالس في سيارته ،موجها نحو مسجد الجواد. كانوا في الواقع يسخرون من الشهيد مطهري ،يومئون إلى أنّه هرب من الدكتور وترك الحسينية وأخذ له موقعا في ،مسجد الجواد. كانت الضحكات تأتي أحيانا بصوت عال وتبدو متصنعة!

،ظرت إلى الأستاذ الشهيد الذي كان بدوره ينظر إليهم، فوجدته متألما جدا. فقد كان ينظر إليهم وإلى حركاتهم للحظات، ثم يدير وجهه عنهم ،هدوء وينظر للحظات أمامه. كان واضحا أنّه غير مرتاح في داخله ويشعر ،الألم الشديد. عندما تحركت السيارة وتجاوزت التقاطع، التفت إليّ ..سائلا: لا أدري إذا كنتَ قد انتبهت إلى الشباب أمام الحسينية، وهل لاحظت كيف كانوا ينظرون إليّ، ويسخرون مني ؟ أجبت حتى لا أزيد من ألمه: أجل، إلى حد ما.

قال: أنا الذي جئت بعلي شريعتي هذا وبوالده إلى طهران بعد أن كانا في ضائقة مالية شديدة (فعليّ كان قد جاء للتو من أوربا ولم يكن لديه شيء، أما والده فقد كان يعيش بألف تومان شهريا فقط، يتقاضاها كراتب ،ماعدي) لكي يحاضرا في حسينية الإرشاد ويكتبا المقالات، ويكون ذلك ،مثابة معونة لتحسين وضعهما المالي، ويكون لهما في الوقت نفسه دور في جذب الشباب أكثر إلى دائرة الدين والمذهب.

..د أنّهما رتّبا حالهما مع المشرفين على الحسينية وسارا معهما، وسلكا نهجا ..هى إلى أن أترك الحسينية، وفي الوقت نفسه أن يجرؤ الشباب الديني على ، ينتهك حرمة أحد الروحانيين (العلماء) ويتعاملوا معه بمثل هذه الطريقة، وقد كان حتى الأمس ينظم البرنامج التبليغي في الحسينية، ،يسوم بجذبهم إليها!

،صلت السيارة إلى جوار مسجد الجواد في ساحة "٢٥ شهريور" (٧ تير حاليا) ،عندما همّ الأستاذ بالنزول سألني: أين تذهب؟ هل تريد الذهاب إلى البيت؟ قلت: نعم، فتوجه إلى سائقه قائلا: أوصل الشيخ دواني إلى بيته وعد. قلت: مهلا. دعني أستفيد من الفرصة، وأنزل معك لأداء الصلاة، ثم أعود إلى المنزل. دخلت إلى المسجد فتلقاني السيد (مرتضا يي فر) بالسلام، وما أن رآني حتى قال: أيها المؤمنون تهيأوا للصلاة، وبعد الصلاة سيرتقي الشيخ دواني المنبر للخطابة. وبدوري أبديت استعدادي لذلك. كان المصلون يتراوح عددهم بين (١٧- ١٨) مصل، أكثرهم من عمّال البناء، حيث كانوا يشتغلون في بناية بقرب المسجد، وكان بالإضافة إليهم عدد من النساء يقفن في الصف الخلفي خلف الستار.

أقمنا الصلاة جماعة بصفين قصيرين أغلب من فيهما من المؤتمين هم عمّال البناء، وذلك خلف شخص هو أستاذ في جامعة طهران، وعالم بارز، وأستاذ سابق للفقه والفلسفة في الحوزة العلمية بمدينة قم، ومؤلف كتاب "أصول الفلسفة والمذهب الواقعي" الذي كان له ذلك الصدى الواسع في داخل البلد وخارجه، أجل لم يصلّ خلفه أكثر من صفين صغيرين!

اعتليت المنبر بعد أن كان نصف الجمع قد انصرف مغادرا المسجد، في حين كانت حسينية الإرشاد في هذا الوقت بالذات تضج بأمواج الطلبة الجامعيين إناثا وذكورا، من طهران ومن المدن، والدكتور علي شريعتي يتحدث في الحضور ساعتين وثلاث ساعات دون أن يشعر أحد بالتعب.

قرأت مجلسا مختصرا يتناسب مع الجماعة الموجودة، التي لم أعرف منها إلا رجلا وامرأة رأيتهما عند باب المسجد، في حين لم أكن أعرف البقية، وقد بدا أنهم لا علاقة لهم بالأوضاع، وعندما انتهيت من المجلس ونزلت عن المنبر توجهت إلى الشهيد مطهري متسائلا: شيخنا، ما هذا المآل الذي آلت إليه الأمور؟

أجاب: ذهبت جميع المحاولات سدىً، فقد حاولت أن أجمع بين العلماء المعارضين والمتقدسين الجامدين، وبين الشباب المتطرف الجانح وحركات شريعتي، والهيئة الإدارية للحسينية فلم أفلح، والأدهى من ذلك والأمرّ أنّ جميع المشكلات عادت لتعصب برأسي!

فالمتقدسين يرون أنّني السبب في جلب الدكتور شريعتي والضجّة التي ثارت حول حسينية الإرشاد. والشباب المتحمس الحادّ (المتطرف) ذهبوا مما سمعوه إلى أنّني لا أوافق الدكتور شريعتي على تطرفه، لذلك أصبحوا في جبهة معارضة لي. أما الهيئة الإدارية في الحسينية فقد اختارت أن تماشي الأجواء السائدة وتأخذ بنظر الاعتبار ميول الجمع الكبير الذي يحضر الحسينية، وبذلك التزمت موقف الجانب الآخر.

أضاف الشهيد مطهري قائلا: من جهة أخرى تمّ اعتقال الشيخ أكبر رفسنجاني وهو في السجن الآن، أما الشيخان باهنر ومفتّح فقد اكتفيا بالنظر إليّ (يُفهم من التعبير أنّ موقفهما لم يكن فاعلا لصالحه في أزمة الحسينية) فيما اختار البعض الآخر أن ينسحب جانبا حينما رأى الطقس غير ملائم وأخذ يتهرب من التزام موقف مؤيد لي!

إزاء ذلك كله اضطررت للمجيء إلى مسجد الجواد، فهو يضم مكتبة مهمة، وفيه قاعة باذخة، لممارسة التبليغ، لذلك خشيت أن يقع بيد غير أهله، أو أن يضع النظام يده عليه، فقمت بالتزامه وأداء الصلاة فيه، وهكذا رحت أقضي وقتي مع هذا القدر من الناس الذين رأيتهم، حتى يقضي الله

مرد. أجل، يتجمع في أيّام الجمعات فقط عدد من الأصدقاء ومن تلامذتي، فأقوم بإلقاء درس عليهم، وفي الليل يصعد بعض الأصدقاء المنبر ويلقون دروسا في التفسير. نمضي على هذا البرنامج حتى يقضي الله بأمره.

محلرد الأستاذ مطهري: أما الحسينية والضجّة المثارة من حولها فقد تركناها لأهلها. فإن وجهوا لك الدعوة في بعض الليالي لصعود المنبر في هذا المسجد، فأجبهم، كما كنت تفعل في السابق، حيث كنت تأتي أحيانا وتجيبهم لطلبهم، وارتق المنبر في جمع أكبر لنستأنس بك أكثر.

شعرت في تلك الليلة بالحرقة والألم الشديد لحال ذلك الأستاذ الكريم، بما يحمله من معارف وعلوم، لقد كان أكثر شعوري بالأذى نابعا من حالة عدم الثبات والاستقرار السائدة بين أوساط الحوزويين، وغياب التنظيم عن المجمع الروحاني (المؤسسة الدينية وأوساط الحوزويين والعلماء) بحيث وصل الحال إلى ما آل إليه وضع شخص مثل الشيخ مطهري، إذ انهار المجمع الذي كان يؤطر الأعضاء الأصليين لحسينية الإرشاد، وتلاشت جماعة "حديث الشهر" وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه فعلا!

أما مصير الشباب فقد صار بيد "الأفندية" (غير المعممين) وهؤلاء لا يملكون بالتأكيد رؤية دينية نقية بنسبة مائة بالمائة، بل هم يتقلبون بين إفراط وتفريط وحب وبغض. قلت مع نفسي: الله وحده هو العالم بما ستؤول إليه الأمور وتنتهي إليه من نتيجة.

لقاء مع د. شريعتي وحديث عن الشهيد مطهري حول حسينية الإرشاد:

لي معرفة بالخطيب المشهور السيد صدر بلاغي. فقد كان يأتي إلى مدينة قم ويدرّس في حوزتها تأريخ الإسلام وفن الخطابة. وكنت واياه نمضي شوطا من الليل معا في بعض الليالي.

والذي حصل في وقت ما من سنة ١٩٧٢م حينما قدمت للاستقرار في طهران، أن دعاني السيد بلاغي لتناول طعام الغداء في بيته الكائن في منطقة قلهك. ذهبت في وقت الظهيرة، وكان قد حضر الدعوة غيري، السادة: الدكتور علي شريعتي، ناصر ميناجي الذي كان يتصدى لحسينية الإرشاد آنئذ، السيد مرتضى شبستري، السيد محمد صادق رضوي القمي، شريعتي روحاني وأولاده، وصابري زنجاني. كانوا جميعا من علماء طهران، وكانوا يجتمعون في ذلك الوقت مع السيد صدر بلاغي في يوم الثلاثاء من كل أسبوع.

حصل ذلك في الوقت الذي كان فيه الشهيد مطهري قد ترك الحسينية، ولم يعد له أية علاقة بها. ومن جهته أخذ المرحوم شبستري مع السيد صدر بلاغي بعد مغادرة مطهري على عاتقهما إدارة أمور الحسينية مع الدكتور

شريعتي والسيد ميناجي، بحيث كانوا يوجّهون النشاط التبليغي والفعاليات الدينية فيها.

كان معروفا عن الدكتور شريعتي أنّه لا يألف المعممين، ولكن كما قلت، وكما ذكر لي السيد بلاغي في الدعوة تلك، أنّه كانت له جلسة أسبوعية مع أولئك، وجميعهم من علماء طهران، وهم متوافقون فكريا مع شريعتي وأجواء تلك الأيام، كما كانوا جميعا من المؤيدين للسيد شريعتمداري. كانت هذه الجلسة الدورية تعقد كل أسبوع في بيت أحدهم، باستثناء شريعتي، ومن المؤكد أنّهم يتداولون في الجلسات تلك المسائل ذات الصلة بأعمال الحسينية، ومن بينها قافلة الحج التي أخذت تبعث بها الحسينية إلى مكة. عرّفني السيد صدر بلاغي على الدكتور شريعتي، كما عرّفه عليّ، وقد أبدى كلانا سروره لذلك.

لم يكن للدكتور شريعتي استعداد كبير كي يمتدح أحدا ويشيد به (على صعيد الإشارة إلى أعماله الفكرية وربما الأخذ عنها كما يفهم من السياق) ومع ذلك قال لي مخاطبا: لقد استفدت من مؤلفاتك، ومنها كتاب "المهدي الموعود" وكتابك "الموعود الذي ينتظره العالم" وقد أشرت في أحد كتبي على نحو الكناية إلى أنّ أحد المعممين الشباب استطاع في هذه الأيام أن يعرّف بالإمام المهدي صاحب الزمان بشكل جيّد وقد كنت أقصدك.

شكرته ثم خاطبته بقولي: السيد الدكتور، إنّك تشكل وجودا نافعا، فبالرؤية التي تملكها استطعت أن تجذب إلى دائرة الدين والمذهب الكثير من الشباب المتعلم، أو أولئك الذين لا زالوا في طور الدراسة (ويعني بهم الطلاب الجامعيين في الغالب) من الذكور والإناث، بل استطعت أن تجذب حتى من لا علاقة له بالدين، سواء في مشهد، كما سمعنا، أو في طهران وبعض المدن. ولا شك أن أفضل شاهد أسوقه على ما أقول هو إقبال الشباب على حسينية الإرشاد عندما تبدأ تحاضر، ولكن ...

سأل الدكتور شريعتي: ولكن ماذا؟

قلت مجيبا: ولكن احرص هذه الأيام على أن لا يجنح هؤلاء الشباب نحو الحدّة والتطرف، واحرص على ضبطهم، كما عليك أنت شخصيا أن لا تكون طرفا في المعركة ضد العلماء والمعممين وألا يتخذوكم وسيلة للتطاول عليهم. أراد الدكتور شريعتي أن يجيبني على ما قلت لولا أنهم قالوا أن الغداء حاضر. بعد أن انتهينا من تناول الطعام، بادر مضيفنا السيد صدر بلاغي قبل أن يتحدث الدكتور شريعتي، بالقول: شيخنا لا شك أنّك تعلم أنّ حسينية الإرشاد بدأت تبعث منذ العام الماضي قافلة حجيج إلى مكة، إلى جوار ما تمارسه من أعمال تبليغية، وفي هذا العام سنذهب أنا والدكتور وبقية الزملاء إلى الحج.

اضاف: لدينا في الحسينية مجالس ليالي السبت حيث تحفل باجتماع مهيب حماسي للشباب، تلقى فيه المحاضرات التي كادت تنحصر أخيرا بمحاضرات الدكتور. ولكي لا تتعطل هذه المجالس نستمد منك العون والمساعدة، فما نريده أن تتبنى أنت مهمة إلقاء محاضرات ليالي السبت ريثما نعود من الحج. وبدوره سيقوم الدكتور بعد أسبوعين من الآن، حيث يلقي آخر محاضراته قبل أن يغادر إلى الحج، معلنا أن الحسينية لا تتعطل في فترة الحج وأنّ الشيخ دواني سيلقي المحاضرات الأسبوعية حتى عودتنا. ثم إنك كنت تأتي إلى الحسينية قبل ذلك وتتردد عليها، وكذلك الآن الزم بالشيء نفسه.

من جهة أخرى لقد قدمت للتو للإقامة في طهران، وقد تحدثت مع السادة وقلت لهم إنّها فرصة جيدة أن تستثمر وجودك، وندعوك رسميا للعمل مدة سنوات في الحسينية بحيث تجعلها مركزا لعملك. نحن لدينا حتى الان ما يقارب ١٥٠ محاضرة مسجلة ألقاها أشخاص متعددون في الحسينية، وجميعها لم تفرغ بعد من الأشرطة على الورق. والذي نراه، أن تفرغ محتويات هذه الأشرطة، ثم توضع حصيلة الأوراق بين يديك، فتقوم بتهذيبها وتنظيمها واختيار العناوين لها، حتى تصدر في مجموعة من المجلدات وتطبع في إطار سلسلة منتظمة واحدة. وبالنسبة إلى حقوقك فإنّ لك بالإضافة إلى المرتب الشهري الذي تتقاضاه من عملك في الحسينية، حصة في حقوق التأليف، كما أنّ اسمك يثبت على المجموعة بعنوان كونك المنظم الذي اضطلع بمهمة تهيئتها وإعدادها للطبع.

استطرد السيد بلاغي: لقد تحدّثت مع السادة وقلت لهم إنني ألقيت والسيد الصدر (الإمام موسى الصدر) محاضرة في قم، قاموا بتفريغ محتوياتها على الورق، ثم أعطيت إلى الشيخ دواني لتنظيمها وإعدادها للنشر، فجاءت بصياغة ممتازة، بحيث لو كنت أنهض شخصيا بإعدادها وتهيئتها للطبع لم تأت أحسن من ذلك. ثم وضعتها بين يدي السادة كي يطلعوا عليها.

اما مقالك الذي نشرته في مجلة "مكتب إسلام" الأسبوع الماضي تحت عنوان "على جبل حراء" من دون توقيع، فقد أمضيتُ معه وقتاً في الطريق وأنا عائد من قم إلى طهران، كانت ممتعة حقا تبعث على اللذة والفائدة. أنا أعتقد انك أفضل من يستطيع أن يعيننا في حل مشكلتنا ومشكلة الحسينية، وهذا ما أتمنى وأرجو أن تستجيب له.

اجبت: السيد بلاغي، السيد الدكتور، لقد جئت للتو من مدينة قم، خارجا من أجواء مجلة "مكتب إسلام" و "دار التبليغ". وفي الواقع لا أجدني أطيق جوا تطبق عليه الضجّة والأقاويل. لقد جئت إلى هنا لكي أعتزل وأجلس في

زاوية بعيدة عن الأقاويل، ولكي أتفرغ إلى التأليف والترجمة باطمئنان وراحة بال، وأصعد المنبر أحيانا ولكن بهدوء ودون مشكلات.

أضفت بعد برهة: قررت أن لا أذهب إلى أي مكان فيه ضجة وينطوي على مشكلات، وألا أراود بيوت السادة المعروفين (الوجهاء) والتجار، ولا أشتّت نفسي في هذا المجال وذاك، بل أبقى منكبًا على عملي. أودّ أن أبقى حرًا طليقا من نوازع الانحياز إلى هذا الفريق أو ذاك، حيث تكثر في هذه الأيام الأوصاف التي تُطلق على الأشخاص وتصنفهم على هذا الفريق أو ذاك، كما أردت أن أكون بعيدا عن ميول الحب والبغض لهذا أو ذاك.

لا شك أنّ دعوتكم لي للعمل في حسينية الإرشاد، هي أفضل فرصة يمكن أن تتاح لي لتوفير لقمة العيش، وأنا القادم توا إلى طهران، حيث لم تسر أوضاعي بعد على ما يرام، ولكن لي شرط واحد، وهذا الشرط يتمثل في أن تحل مشكلة اعتزال الشيخ مطهري للحسينية، بحيث تضعون حدا لهذه العزلة بتوفير السبيل لعودته ورفاقه، وبهذه العودة أجيء أنا إلى الحسينية وأبدأ عملي فيها براحة بال وهدوء خاطر. وإلا فهل من الصحيح أن أجيء إلى حسينية الإرشاد في الوقت الذي يكون فيه الشيخ مطهري قد تركها وذهب إلى مسجد الجواد، خصوصا مع الخلفية المشتركة التي بيننا؟ وإذا قدّر أن رضيت بذلك وقنعت به، فماذا أقول في جواب الناس والمعارضين، وهل ترون أنّ هذه المشاركة ستمرّ هكذا بدون متاعب ومشكلات؟

أجابوا: أولا: الشيخ مطهري هو الذي ترك الحسينية وغادرها، ولم يتسبب أحد بذهابه. إنّ أكثر أسباب مشكلته مع الحسينية ناجمة من بحث مطبوع للدكتور ووالده، قيل أنّه تضمن تبجيلا بالخلفاء، هذا هو في الواقع مبعث الضجة، والذي كتبه والده أنّه تساءل قائلا: لماذا نتحامل على رجال صدر الإسلام هؤلاء؟ أما الدكتور فقد كتب في بحثه أنّ النبي جاء في حال مرضه وقد رأى أبا بكر قد تصدّى للصلاة مكانه، فتبسم علامة الرضا، حتى أنّ أنس بن مالك الذي يخدم النبي قال إنه لم ير النبي مسرورا فرحا أبدا كما رآه مثل ذلك اليوم.

وحين بعث الدكتور بحثه من مشهد إلى الشيخ مطهري في طهران، كان قد كتب له بخط يده - والبحث لازال محفوظا في الحسينية- بأنّه موكل من قبله في التصرف بالبحث بما يراه ضروريا، بيد أنّه لم يفعل وإنما أبقى البحث على حاله، وأعطاه هكذا إلى الطبع من دون أن يغير فيه، والآن حين أثيرت الضجّة عادوا ليقولوا إنّ المسئول عن ذلك هو الدكتور نفسه.

قلت لمحدثي: إذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن يبادر الدكتور لبيان ذلك وتوضيحه في محاضرته هذا الأسبوع، ثم يعمد بعد ذلك إلى حذف هذا المقطع وتجديد طباعة البحث من دونه، لكي يعرف الناس أنّ الدكتور لا

يصر على هذا الموقف، حتى لو افترضنا أن التقصير كان من الشيخ مطهري ورفاقه.

وهنا تدخل الدكتور شريعتي في الحديث، وقال: لا أدري إذا كنت قد عرفت خبر الندوة التي عقدناها في الحسينية بعد أن بدأت المشكلة وأثيرت الضجة، كي نجيب من خلالها على المعارضين؟ لقد قلت شخصيا في تلك الندوة، إنّ هناك ثلاث نظريات فيما يتعلق بصلاة أبي بكر وطبيعة موقف النبي الأكرم منها، هذه النظريات أو الأقوال هي :

١. ثمة من ذهب إلى القول أنّ النبي حين سمع في مرضه الذي توفي فيه أنّ أبا بكر وقف للصلاة مكانه، نهض من فراش المرض، وأسند من جانبه من شدّة ما فيه، ودخل المسجد، ثم تقدم أمام أبي بكر ودفعه إلى الوراء بهدوء، ووقف للصلاة في مكانه، وذلك بشكل لم تنفرط فيه الجماعة. وهذا هو قول الشيعة.

٢. وثمة قول يذهب إلى أنّ النبي حين دخل المسجد ورأى النّاس مصطفة في صفوف تصلي وراء أبي بكر، دخله الفرح لكون المسلمين التزموا بصلاة الجماعة في غيابه، وما كان منه إلا أن انضمّ إلى الصلاة مقتديا بأبي بكر مصليا بصلاته، لكي يكون ذلك درسا للأمة تفهم من خلاله أهمية صلاة الجماعة وأنّ هذه السنّة الحسنة يجب أن تستمر بعد النبي أيضا. وهذا هو قول السنّة.

٣. وثمة قول ثالث ذهب إلى أنّ النبي دخل المسجد حين سمع أبا بكر وقف للصلاة مكانه، فأعجبه حين رأى الصلاة أن تلتزم الأمة بصلاة الجماعة في حياته وتؤديها حتى حال غيابه، فداخله لذلك سرور كبير، حتى أنّه تبسم علامة الموافقة والرضا، بحيث نقل عنه أنس بن مالك أنه لم ير النبي مسرورا كما رآه في ذلك الموقف.

شخصيا اخترت هذا القول، لأنه ينطوي على أهمية فائقة من وجهة النظر الاجتماعية، لأنّ هدف النبي من صلاة الجماعة هو أن تُحفظ بتلك الهيئة وذاك الشكل.

عندما انتهى الدكتور من كلامه، أيّده الحاضرون انطلاقا من تأكيدهم على أنّ الدكتور إنما اختار هذه الوجهة في المسألة وأطلّ عليها من هذه النافذة بالذات، بحكم تخصصه الاجتماعي.

عاد الدكتور للحديث، فأضاف قائلا: وما دمت عرضت لهذه الأقوال في تلك الندوة، فأعتقد أنّ ذلك كان كافيا، وبالتالي لا يستدعي الموقف العودة إلى

أصل البحث وحذف المورد منه. فهذا شيء غير سائغ يبعث على زيادة الأقاويل.

تدخل السيد صدر بلاغي بالحديث فقال: شيخنا، أضف إلى ما مرّ أنّ الدكتور ينوي أن يبحث في موضوع الخلفاء، ويمحصه بالبحث تمحيصا دقيقا، بحيث يكشف عن الجماعات والتحالفات التي كانت، حتى في زمن النبي بين الخلفاء وعائشة وحفصة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد للسيطرة على الخلافة الإسلامية بعد النبي، فهو يريد أن يكشف الستار عن جميع ذلك، لكي يثبت أنّ واقعة خلافة الخلفاء لم تأت هكذا بنت ساعتها، بل كانت ثمرة لتخطيط سابق، وأنّ هؤلاء كانوا بانتظار الفرصة المناسبة.

أضاف السيد بلاغي: وهذا العمل فيما أرى، أفضل في تأثيره من أن يعود الدكتور إلى ما كتبه سابقا فيطاله بالحذف والتغيير، وما عليك إلا أن تصبر لتنظر انطلاقة العمل الجديد.

جاء دوري في الحديث فقلت معلقا على ما سمعت: دكتور، ما قلته لا يكفي، فما لم تغير ما كتبته وجئت بذكره في بحثك المطبوع، لن تهدأ الضجة ولن تنام، ولا يبرئك أحد من المسؤولية.

أضفت: لأنّي أتمتع بروح ولائية أنطلق منها، لذلك سأقول الذي أقوله من دون تحفظ، فما ذكرته من أنّ النبي صلى وراء أبي بكر وبصلاته، أو أنّه تبسّم حين رآه يصلي مكانه لما داخله من الفرح والسرور والرضا، لو أنّ المرحوم آية الله البروجردي المرجع الكبير وفقيد عالم التشيع قال به، لكان أنزل من المنبر مع جميع ما له من اسم ووجاهة ومكانة، بل لكانت حياته في خطر. إذ مع هذا القول يكون جميع تاريخ الشيعة في دائرة السؤال والاستفهام، ولا أحد يعرف بعد ذلك ما هو الكلام الثابت الذي يتمسك به الشيعة بشكل مستدام.

لقد بذل علماء الشيعة ومتكلموهم وفلاسفتهم جهودا في بحث هذا الموضوع خلال ١٤ قرنا وسجّلوا ثمار بحوثهم في كتبهم الكلامية، حيث ذكروا أنّ القول الفصل في هذه الواقعة، أنّ النبي حين أخبر أنّ أبا بكر وقف للصلاة مكانه، نهض من فراش المرض على ما فيه من ضعف، حتى كانوا قد أسندوه من جانبيه، ودخل المسجد، ثم تقدم للصلاة أمام أبي بكر بعد أن دفعه إلى الوراء، لكي لا تكون هذه الصلاة ذريعة لكسب موقع الخلافة الإسلامية، ولكي تدرك الأمة أهمية خطورة المسألة، بحيث يختار النبي على ما فيه من علة ومرض، أن ينهض من فراشه ويدخل المسجد ويصلي في الناس بدلا من أبي بكر.

اما القول الثاني الذي ذكرته، فهو من الموضوعات، ولا أساس من الصحة لما ؛مال من أنّ صلى وراء أبي بكر. والقول الثالث مردود أيضا، فإذا كان المراد هو إقامة الجماعة وحفظ هذه السنّة الحسنة، فقد كان يكفي النبي أن ستحسن قولا فعل أبي بكر، ويصل القول إلى الناس. وما أخلص لقوله إنّ لا نعتقد بالقولين كليهما، كما أنّهما لا يتسقان مع الظواهر.

والا إذا كان الأمر كذلك فلا يبقى معنى لجميع وصايا النبي (ص) التي ؤكد على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كما لا معنى لواقعة الغدير، وتأكيد النبي وإصراره في توجيه النّاس وجذبهم إلى فعله، إذ بمقدور الجميع أن يعترضوا بعدئذ ويقولوا: إذن لم تكن الأمور ولم تجر يقينا على ما ذكر.

صمت: لاحظ أيها الدكتور، إنّ ما كتبته لم تكن له سابقة صدرت من شيعي معتقد حتى الآن، وإنّك كتبت ذلك انطلاقا من حسينية الإرشاد، ومن بلد يُعد مركزا وحيدا للعالم الشيعي، ومع ذلك تريد أن لا يعترض احد بشيء، ولا يحسبه عليك وعلى الحسينية؟ وتريد أيضا أن لا يتحدث الشيخ مطهري بشيء؟ لو لم ينسحب الشيخ مطهري جانبا ويترك الحسينية، لكان هو نفسه في معرض خطر جدي يداهمه، أكثر بكثير مما ؛مال عنه الآن، فكيف بك وأنت أفندي غير معمم؟ قلت محذرا: أشعر حاملا بالخطر، وأرى المستقبل مدلهما مظلما، وأخشى أن نفقدك.

لم يرتح الدكتور لذلك، فقرّب الكرسي الذي كان يجلس عليه إلى الأمام، وقال: أولا، أنا شخصيا ولائي (من الولاء لأهل البيت) ولا أعتقد أني أقل من الاخرين في هذا المجال، كما أعتقد أنّ الضجيج لن يستمر. وثانيا، حين اقوم ببحث موضوع الخلفاء في الإطار الذي تحدّث فيه السيد بلاغي، وما فعله أولئك، سأقول كلاما يجتث الضجة من أصلها ولا يبقي لها أثرا، بحيث تخيب آمال أولئك الذين يريدون انتهاز الفرصة والإفادة من الضجة، كما يخيب المعترضون.

في هذه اللحظة تدخل المرحوم السيد مرتضى شبستري، وقال: شيخنا، هل تجيبنا بقول مؤكد إلى ما نريد من أنّك ستحاضر في الحسينية مكاننا إلى ان نعود؟ طبيعي أنّ ذلك سيكون بإعلان الدكتور نفسه إلى الحاضرين، من ان المجلس الأسبوعي سيستمر بمحاضرات يلقيها الشيخ دواني طوال مدّة الحج. والشيء الآخر هل أنت مستعد لأن تضع الحسينية في حساب أعمالك، فتواصل نشاطك الكتابي من خلالها كما كنت تفعل في قم، وترتاح من مشكلات المنبر؟

أجبت: في الحقيقة، لا أستطيع! فما لم تعد العلاقة على ما يرام بينكم وبين الشيخ مطهري، وما لم يعد الشيخ إلى الحسينية مرة أخرى، لا أستطيع أن ألتزم بأداء العملين اللذين اقترحتموهما عليّ.

أخذ حضّار المجلس ينظر بعضهم إلى بعض، وخيّم السكون المخيب عليهم. استمر الحديث حول الموضوع أكثر من ساعة، نهضت بعدها لتوديع الجمع ومغادرة المكان. وهنا تدخّل الدكتور شريعتي بالقول: إذا أردنا أن نتجاوز ما مرّ، فربما كان الشيخ دواني هو "الروحاني" (المعمم) الوحيد الذي تحدّث معنا بصدق وصراحة مقرونين بالحرص والمحبة، وأنا شخصيا أحترم هذا النهج في التفكير، وأقدّر هذا الأسلوب في العمل. شكرت للدكتور شريعتي موقفه، ثم ودّعت حضّار المجلس في جو يسوده الألم والتأثر بسبب عدم الاستجابة لطلبهم وغادرت المنزل.

ما أن وصلت إلى خارج الدار، حتى كان السيد صدر بلاغي قد جاء يسعى ورائي بدون عباءة، وبالنعال فقط، ووقف معي في الزقاق وهو يقول: أخي، لماذا لم تقبل هذا العمل؟ عليك أن تعرف بأنّ هذه الدعوة كانت لأجلك وحدك تقريبا. فقد ذكرتك بخير ومدحتك، وأردت أن أسدي لك خدمة، ولا أعتقد أنّ الشيخ مطهري سوف يعترض على قدومك، وعليك أن لا تفكر بالموضوع كثيرا وتشغل بالك به، فربما عاد الشيخ مطهري إلى الحسينية أيضا.

أضاف: لقد قلت لهؤلاء السادة إنّ الشيخ دواني الذي جاء إلى طهران للتو ولم ينشغل بعد، هو أفضل من ينهض بهذين العملين، فأيّد كلامي السيدان رضوي وشبستري لأنهما يعرفانك جيدا، أما الآن وقد رفضت، فماذا ستفعل، وكيف تعيش وتدير حياتك في هذه المدينة الخربة؟ (يقصد الخراب المعنوي وانهيار أقدام الرجال، حيث يتأخر مَن مِن شأنه التقدم ويتقدم من لا يستحق ذلك) قال ذلك، ثم أضاف: عُد واقبل العمل!

شكرته على كلامه، وتوجّهت إليه قائلا: لاحظ سيدنا، إنّ الذي تفكر به لي، هو أفضل عمل يناسبني، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أطيق الضجة والأقاويل. لقد ارتحت من أوضاع قم، فهل أعود لأبتلي بأوضاع حسينية الإرشاد؟

ردّ عليّ السيد بلاغي بلهجته الصريحة المعهودة عنه، بقوله: اترك جميع هذا الكلام يا أخي! إنّه عمل جيد، بل هو لباس فصّل على مقاسك، وهذا عمل لا يخرج من عهدتك أحد سواك.

أضاف: الناس همج رعاع يتحركون مع الريح، فدعهم وما يقولون، إذ لا ينبغي للإنسان أن يضع لحيته بيد الناس، تعال أنت إلى الحسينية، وربما

ماد مطهري أيضا. قلت في جوابه: الواقع، النّاس في جهة، والشيخ مطهري في جهة ثانية. وفي الحقيقة لا أستطيع التزام العمل من دون عودة الشيخ وحلّ مشكلته. لقد خرجت من الحفرة (كناية عن معاناته في حوزة قم) فلا أريد أن أقع في البئر (كناية عن أزمة حسينية الإرشاد) بحيث أعيش مضطربا قلق البال مشوّش الأفكار. إنّني أفضل أن أبقى حرا ووحيدا بدلا من ذلك. قلب ذلك والحزن يغمرني، ويحيط بي التأثر والأذى لرفضي العمل أكثر من ذي قبل، ثم ودّعت السيد الصدر، وانصرفت.

في الليلة التالية، اتصل بي هاتفيا المرحوم شبستري، وقال: هذه الدعوة لم تكن إلا لك وحدك تقريبا، فقد كان السيد البلاغي يعتمد عليك وعلى قلمك ويعوّل عليهما كثيرا، لقد امتدحك كثيرا، ونحن أيّدناه، ورأينا أنّك الشخص الوحيد المناسب الذي يمكنك أن تنهض بهذا العمل، ولن يعترض أحد على عودة الشيخ إن رغب هو في ذلك.

بعد انّ جوابي للمرحوم شبستري الذي كان رجلا عالما عطوفا محبا للخير، فكان هو الرفض مرّة أخرى، ولكن بأذى وألم يعتصراني نتيجة الرفض، إذ لم يكن يبدو أمامي أي طريق آخر للحل. والآن، رغم مرور السنوات على الواقعة، لازلت متأثرا أحسّ بالألم، فلماذا انتهى الأمر إلى هذا المآل، ولماذا لم استطع أن أستفيد من إمكانات حسينية الإرشاد، بحيث انجرّت المسألة إلى عدم التوافق، كما هو الحال في الكثير من أعمالي التي لم يحالفني فيها التوفيق، وأضعت فرصا ذهبية، أفلتت من بين يديّ" (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ط١/١٤١٧هـ مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، تعريب:خالد توفيق، ص ٧٩ - ١٠٦).

اعلم أنّ النص طويل جدا، والاقتباس موسع، ولكن تعمدت ذلك، لما فيه من إضاءات كثيرة تكشف لنا طبيعة الخلاف المحتدم في تلك الفترة حول شريعتي وأفكاره، وموقف الشهيد مطهري منه، وقد سطر مطهري نفسه الكثير من الشهادات والكتابات حول علي شريعتي وكتاباته، وموقفه منه، وما خرج من انطباع حول شخصيته وطريقة التعامل معه، والأسباب التي أدت به في النهاية إلى أن يخرج عن الحسينية بلا رجعة في ظل وجوده، ولا يطيق التعامل معه، أو يتحمل أكثر ويطيق الصبر مع شريعتي في ظل أفكاره وما تجر عليه من ضجيج وتسقيط، وفي ظل عدم استماعه لآراء الاخرين، خلافا لما يراه البعض من العلماء من أن شريعتي يتقبل الآراء ووجهات النظر المخالفة. كما بيّن في تلك الكتابات نظرة شريعتي للعلماء ورجال الدين.

وعندما ضاق مطهري ذرعا من شريعتي، وتفرده بالقرارات، ومن شطحاته المكررة في محاضراته وكتاباته، وعدم استجابته لمطالبه بالتوقف

والمراجعة مع الأعضاء رأى بأن الأجدى هو الانسحاب من الحسينية، وعدم البقاء في ظل وجود شريعتي فيها، وفي ظل الهجمة الشرسة التي تتلقاها الحسينية ومنتسبوها من العلماء ومن بينهم مطهري نفسه من الحوزات الدينية والفقهاء والمراجع والعوام.

بتاريخ ١٣٤٧/١٠/٢٧ هـق قدّم مطهري استقالته من حسينية الإرشاد احتجاجا على تصرفات شريعتي وأفكاره التي يتداولها في محاضراته من دون قيد أو مراجعة، وفي الاستقالة كتب:

" حضرة السيد محمد همايون ـ رئيس هيئة الإدارة المحترمة في حسينية الإرشاد:

ضمن تقديم غاية الشكر لمقامكم السامي على أشكال الألطاف المخلصة التي أحطتم بها هذا العبد، ومع الاطلاع الكامل على توافر كامل النقاء وإخلاص النية وعلو الهمّة في جنابكم أنتم المؤسس الحقيقي لهذه المؤسسة الإسلامية "حسينية الإرشاد"، ومع تقديم كامل الاعتذار، أقدم لكم استقالتي هذه من عضوية هيئة إدارة حسينية الإرشاد بعد أن تحققت عمليا إحدى توقعاتي الصريحة، فلم يبق لديّ شك في أنّ الأساليب غير المنضبطة والقرارات الفردية للسيد (...) ستجرّ هذه المؤسسة إلى السقوط الحتمي، وتحول الآمال التي بعثتها نشاطاتها في جيل الشباب، إلى نوع من الضياع بل وسوء الظن بكل مؤسسة دينية.

ولاشك بأنّ هدف الشخص المذكور يختلف تماما عن الأهداف المقررة في النظام الداخلي للمؤسسة وعن طموحات مؤسسها الخيّر، وسائر الخيرين الذين حازوا افتخار الخدمة في المؤسسة، وأوضح دليل على هذه الحقيقة هي معارضة المذكور، والعراقيل التي يثيرها بوجه كل شكل من أشكال توزيع المسؤوليات وتثبيت الضوابط الداخلية للعمل، وضد كل إجراء مفيد وعميق يلبي احتياجات الفئة المتعلمة، يضاف إلى ذلك ميوله الحادة لتحويل المؤسسة إلى مؤسسة فارغة يلفها الضجيج.

ولكوني أرى أن هذا المرض غير قابل للعلاج، أجد أنّ الخدمة الوحيدة التي أستطيع تقديمها لهدف المؤسسة، هي الامتناع عن التعاون والعمل مع المشار إليه وإلى الأبد، وأن أعلن ذلك جهارا. وفي الوقت نفسه آمل أن تتغلب حسن نوايا مؤسس المؤسسة ومعاونيه الخيرين وبواطنهم الإسلامية على الأفكار الشيطانية، داعيا الله تعالى أن يحفظ برعايته هذه المؤسسة من اللسعات الشيطانية. أرجو اعتبار استقالتي هذه نهائية والامتناع عن معاودة مراجعتي بشأنها تجنبا لإثارة الخجل.

كما أرجو الإسراع في انتخاب عضو آخر، وإبلاغ المراجع القانونية بهذه الاستقالة، وإذا رأيتم لزوم أن أبلغ هذه الاستقالة للمراجع القانونية ..مسي فيرجى إبلاغي لكي أقدم على ذلك سريعا.

ضمنا وبملاحظة تحملي شخصيا مسؤولية الإشراف على طبع مقالات كتاب "محمد خاتم الأنبياء"، وحيث تهيّأت مقدمات طبع الجزء الثاني منه وسيبدأ الطبع الأسبوع القادم، فإني أشرف على ذلك.

أسال الله تعالى التوفيق لجنابكم وسائر الأخوة الخيّرين في المؤسسة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

٩) السيد أحمد الخميني:

ليس لدينا نص مكتوب أو بيان منشور للسيد أحمد الخميني يتعلق بموقفه من علي شريعتي، ولكن من الممكن التعرف على موقفه من شريعتي من خلال مذكرات زوجته السيدة فاطمة طباطبائي، والتي طبعت مؤخرا بعنوان "ذكرياتي" في دار المؤرخ العربي. ففي هذه المذكرات يقع الباحث على صفحات عديدة، ومواقف متنوعة من قبل السيد أحمد الخميني اتجاه علي شريعتي، وفكره وعقيدته ودوره الرائد في الفكر الديني والسياسي في ايران، ومساهماته البارزة في الثورة الإسلامية، مما يشير إلى موقف السيد أحمد الإيجابي والمتحمس لشريعتي والمشابه لموقف بهشتي وموسى الصدر والطالقاني وغيرهم. ممن لا يذهبون إلى تسقيط الرجل وتسفيهه واتهامه بالمروق من الدين والعقيدة، وفساد النوايا والسلوك، فهو كبهشتي يرى بأن شريعتي مفكر إسلامي مخلص في منطلقاته وتوجهاته الإسلامية، وهذا كله لا يعني أنه لا يوجد مناطق في كتاباته وتفكيره قابلة للنقد، ففي كتاباته الكثير من مجال الاختلاف والتباين في المواقف والآراء.

في المذكرات تتصاعد مواقف السيد أحمد اتجاه علي شريعتي تبعا للموقف الاخر، وتبعا للمرحلة والظروف، وكذلك تحكمها ردات الفعل التي توازي وتساوي الفعل نفسه الذي يلتقطه الخميني من الآخرين الذين يحاولون تسقيط الرجل والحكم عليه بالكفر والردة والضلال، بينما هو يراه نقيا ومفكرا إسلاميا ورائدا وسليم المنطلق. وهنا حقيقة لا نعلم: هذا الموقف الذي عليه الابن يتوافق مع موقف الأب السيد الإمام، أم هو رأي مستقل وينفرد به الابن خلافا لرغبة وموقف الأب؟! هذا غير واضح من خلال المذكرات، فالسيدة الطباطبائي لا تذكر شيئا يفسر ويرفع اللبس عن هذه المنطقة من التفكير عند كليهما اتجاه شريعتي، بل هي تورد ما عليه بعلها السيد أحمد، بعيدا عن موقف السيد الإمام نفسه.

على أية حال، لنتعرف الآن على بعض المواقف والشواهد التي تدل بجلاء على أن السيد أحمد من أشد المتحمسين لعلي شريعتي، وأكثرهم اندفاعا له ولفكره، وإن أوقعه هذا الحماس والدفاع أحيانا في مواقف لا تحمد عقباها مع بعض رجال الدين والمثقفين الثوريين، والرافضين لعلي شريعتي، وإن كان هو ابن السيد الإمام نفسه.

تكتب الدكتورة فاطمة :

" اعتاد السيد أحمد أن يطالع بإمعان كتب الدكتور شريعتي ويدقق فيها، وكان يعتبره مثقفا واعيا بزمانه وعصره، ويمكنه الارتباط بشكل جيد مع الشباب ويؤثر عليهم، مع الاحتفاظ بحقه في نقد بعض أفكاره وآرائه أو رفضها.

عرف الدكتور شريعتي أنّ له موافقين ومخالفين كثيرين، وفي أحد الأيام اجتمع عدد من موافقي الدكتور شريعتي ومناوئيه في منزل والدي، وتحاوروا حول أفكار واعتقادات الدكتور شريعتي، وكل منهم بدأ باتهام الآخر بعدم فهم الدين بشكل جيد، أو أنهم غير متدينين وهكذا .. مما دعا والدي لأن يدخل وسط جمعهم ويخاطبهم: اسعوا لأن تكونوا واقعيين ولا تغالوا في إصدار الأوامر المتسرعة والعاطفية على الآخرين وانصفوهم.

عندما كنا في النجف الأشرف خاطب السيد أحمد مرّة أحد الأشخاص الذين كانوا يهاجمون الدكتور شريعتي بشدّة ويدينه، قائلا : "هل قرأت مؤلفاته؟" أجاب: " كلا، لأني أخشى لو قرأتها سأكون من المدافعين عنه". فقال له السيد أحمد باندهاش: " إذن كيف تسمح لنفسك أن تخالف شخصا لم تطلع على أفكاره وأقواله أصلا". (ذكرياتي،ط١/٢٠١٤،دار المؤرخ العربي، ص٤١٢).

ثم تشير في صفحات لاحقة إلى مشاركة السيد أحمد الخميني مع السيد دعائي في مراسم أربعينية شريعتي، والتي أقامها في لبنان السيد موسى الصدر، وهي المناسبة التي بسببها هاج السيد مرتضى العسكري، وثار معترضا على تلك المراسم في حق شريعتي، مع أنه أكبر ضال في رأيه، والتي أشرنا لها سابقا، والسيد دعائي من المقربين للإمام ، وكان له دور بارز في مسار الثورة، قبل انتصارها وبعد انتصارها كذلك. تقول السيدة فاطمة :

" بعد مرور عدّة أيّام سافر السيد أحمد برفقة شقيقي صادق، والسيدين حسين الخميني ودعائي، إلى مدينة كربلاء لزيارة مرقد الإمام الحسين (ع)، وبعد عودتهم من هناك سافرا إلى لبنان للاشتراك في مراسم أربعينية الدكتور شريعتي، والتي أقامها خالي الإمام موسى الصدر في بيروت، وقد

غادر النجف الأشرف إلى لبنان عدد من الشخصيات، ومنهم السيد دعائي المشاركة في المراسم" (ص ٤٨٢).

وبعد صفحات تذكر لنا موقفا جمعها مع زوجة الإمام وبعض نساء النجف. واللاتي اعترضن وانتقدن قرار الإمام الرحيل عن أمير المؤمنين (ع) وجواره إلى بلاد الكفر فرنسا، الشاهد هنا موقف السيد فاطمة من شريعتي وموقف النسوة منه، وهذا الموقف يتطابق مع رأي زوجها بلا شك، وموقف النسوة يتطابق مع موقف كثير من الرجال المعترضين على شريعتي والناقمين عليه. تكتب:

لقد ترك قرار سماحة الإمام السفر إلى باريس، أصداء غير مشجعة في النجف الأشرف، نتيجة التباس فهمه من قبل أهالي النجف. فقد جاءتنا زوجات عدد من العلماء يستنكرن هذا القرار بالقول: " لماذا اتخذ الإمام هذا القرار؟. أليس من المؤسف أن يترك أجواء النجف وجوار أمير المؤمنين (ع) ويغادر إلى بلاد الكفر؟! .. فلا معنى للجهاد والنضال عند مثل هؤلاء الناس"، إلا أنهنّ استدركن بأنّ المرجعية هي الأمر المهم الذي ينبغي السعي من أجل المحافظة عليها بأي ثمن كان. وأنّ المكانة العلمائية (حسب تعريفهنّ الخاص)، هي التي ينبغي للإمام المحافظة عليها وصيانتها ..

وفي مثل تلك الأجواء التي لم يرون وجود أي تناسب بين معرفة لغة أجنبية أو استماع عالم ديني للمذياع مع التزامه الديني ومعرفته الدينية وحفظه للتقاليد المتبعة لدى الأوساط العلمائية والمرجعية، أجل في مثل هذه الأجواء فإنّ سفر مرجع تقليد لفرنسا لا يمكن القبول به بأي شكل من الأشكال ..

كان البعض يظن أن السيد الإمام أهمل مقام المرجعية من أجل إثبات رأيه وإصراره عليه فحسب .. كما كان البعض الآخر يقول : " ... وهكذا تبين أنّ المرجعية لا مكانة لها بالنسبة للإمام، وإلا كيف يمكن لعالم ديني أن يغادر النجف الأشرف إلى فرنسا، بينما يفضل نظراؤه استنشاق هواء النجف الأشرف والموت في هذا المكان. وآخرون كانوا يقولون أن يدفن الإنسان في مقبرة (وادي السلام) أمر يستحق أن يسكت ويلتزم الصمت !!.

وفي اليوم ذاته زارتنا إحداهنّ والتقت السيدة أم أحمد، وبعد السؤال عن أحوالنا قالت لها : " ألم تقولي للسيد الإمام إنه من المؤسف أن يغادر النجف ؟! أليس من الأفضل أن يقضي سنوات عمره الأخيرة في هذه المدينة ؟! وأن القيام بزيارة الحرم العلوي والسلام على الإمام علي (ع) أفضل من كل أمور الدنيا ".. وقالت أخرى : " وا أسفاه، لقد كان له هنا مسجد يصلي فيه ويدرّس دروسه، ويمتلك فرصة لأداء الزيارة، ولكنه ترك كل ذلك وذهب

إلى بلاد الكفر، وإن صلاة ركعتين في حرم الإمام علي (ع) أفضل من الدنيا وما فيها "..

مع استماعي لمثل هذا الكلام ورغم أني سعيت أن أكون مستمعة فقط، ولم أكن أرغب في محاورة مثل هؤلاء الناس، إلا أنني قلت: " إنّ هذا كله يعتمد على فهمكم للدين والالتزام الديني" .. فأجابت إحداهنّ : " إنّ هذا الكلام المتنور هو ما رسخه شريعتي والمتغربون في أذهانكم !!، إنّ أمثاله عندما يريدون سلبكم دينكم، فإنهم يقومون بذلك تدريجيا وبهدوء، ولا يقولون لكم بصراحة أن تتخلوا عن دينكم".

وقد أثرن بمثل هذا الكلام أعصابي، فقلت : " إن سماحة الإمام هو مرجع تقليد وصاحب فكر واجتهاد، وقد اتخذ قراره حسب رؤيته للأمور .. فلو كنا نفكر مثلكم، كان لابد أن نقول إنّ الإمام الحسين (ع) لم يتخذ قرارا صحيحا عندما غادر مكة، والكعبة المكرمة، والروضة النبوية الشريفة، وتحرك إلى الكوفة .. وطبقا لمنطقكنّ ورؤيتكنّ للأمور فإن الإمام الحسين (ع) كان عليه أن يفضل زيارة جده على الجهاد، وهل إن الإمام الحسين (ع) تأثر بكلام المثقفين والمتنورين كما تزعمن ؟!! " .

طالت مثل تلك الحوارات والمناقشات في تلك الأيام، وعندما رأت السيدة أم أحمد أن كلا منا لا يقبل رأي الآخر، والطرفان مصران على رأيهما، قالت : " لا فائدة من مثل هذه الحوارات والنقاشات، وإنّك تبذلين جهدا عابثا، فلا داعي لأن تهدري وقتك في مثل هذا النقاش والجدال ". (ص ٥٤٥).

(١٠) محمد حسين فضل الله:

ليس بمستغرب ولا هو من المدهش أن نعرف بأن السيد محمد حسين فضل الله من الداعين لقراءة علي شريعتي ومطهري والصدر حيث يمثل هؤلاء الفكر الشيعي المعتدل والوسطي، ويكون من المدافعين عنه وعن فكره وخطه، بل الغرابة ستعلو برأسها لو سمعنا أو قرأنا بأن السيد يدعو لعدم قراءة كتب شريعتي، وذلك لما هو معروف عن فضل الله من دعوة للتجديد والانفتاح والوسطية وتقبل الآخر والبعد عن التشدد، وقد برزت دعوته تلك في لقائه مع الكاتب والإعلامي توفيق شامان . يكتب توفيق شامان في صحيفة " النهار" بتاريخ ٢٠١٠/٧/٩م مقالا حول السيد فضل الله جاء فيه : " حينذاك، أشار إليّ العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله بقراءة الدكتور علي شريعتي وآية الله مرتضى مطهري والسيد محمد باقر الصدر، وحين أنهيت ما تيسّر من كتب الأعلام الثلاثة، عدت إلى السيد فضل الله بعد عامين، وكان الاجتياح الإسرائيلي قد دبّت عواصفه وهوجاؤه على لبنان المنكوب، أسأله:

يا مولانا ... الدكتور شريعتي يهاجم رجال الدين ؟

هو يهاجم الواقع الشيعي ... وليس رجال الدين.

حينذاك، أدركت أنّ الإجابات الجاهزة المتلبسة نمط تفكيري المراهق والمرصوفة أسئلة وتساؤلات شكاكة بالبيئة والمحيط، وبالأبعدين والأقربين، لا تنم إلا عن قصور الرؤية وفتافيت النظرية وطفولية الخطاب
ومنذ اللقاء الثاني مع العلامة المرجع السيد فضل الله، بتّ أرى العالم فضاء وليس زقاقا، والعقل كونا يتجاوز حدود الضيعة والقرية، وأما البشر، فقد تختلف معهم أو تأتلف، وقد تتسع لحظة الزمن لمن هم منك وليس منهم، وقد تضيق اللحظة فلا تتسع الأرض كلها لقدمي رجل واحد.
(وداع السيد، المركز الإسلامي الثقافي، لبنان، د.ت، ص ٣٤٤).

(١١) كتابات متفرقة:

لا شك أنّ مفكرا وكاتبا إشكاليا من العيار الثقيل بوزن الدكتور علي شريعتي سوف تدور حوله مئات الدراسات وآلاف المقالات والكتابات، المدافعة والرامية، المادحة والقادحة، وما تلك التي أوردناها أعلاه إلا مجرد نماذج، وقد اخترتها لأنها كانت صادرة من أعلام، وأسماء بارزة لها كلمتها وسمتها، وتؤخذ آراؤها بعين الاعتبار، وبعضها فقهاء بارزون، وأساتذة حوزات مشهود لهم، وبجانب هذه الكتابات هناك دراسات مستفيضة كتبت في الدفاع عن شريعتي وفكره واتجاهه، بل إني وجدت بعضها تقرنه مع السيد الإمام ومطهري وناصر مكارم الشيرازي والسبحاني والصدر مع شيء من الاختلاف، وإلا فالمشرب واحد، والمدرسة العلمية والإصلاحية هي هي ذاتها، وقواسمهما مشتركة، ودوافعهما لا تختلف.

في هذا الصدد يكتب الشيخ محمد ثقفي، وهو طالب في العلوم الدينية، ويحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي دراسة حول الإمام الخميني بعنوان " أسس الاتجاه الإحيائي والإصلاحي في الفكر السياسي عند الإمام الخميني .. بحث مقارن". وفي البحث يحاول الكاتب أن يقرن شريعتي مع الخميني ومطهري في بوتقة واحدة، وهما معا ينطلقان من مدرسة تقوم على الإصلاح الديني، والفرق بينهما أن الأولى خرجت من الحوزة والثانية من الجامعة، لا غير. يقول:

ينقسم المفكرون الإسلاميون الذين ساهموا في إيجاد هذه الحركة، حركة الإصلاح الديني إلى صفين: أولهما، علماء الدين الواعون المتنورون، الذين انطلقوا من أحضان مدارس العلوم الشرعية والدينية، وحاولوا طرح صورة جديدة وناصعة عن الإسلام كدين حيوي، وثانيهما، المثقفون الذين خرجوا من أحضان الجامعات الحديثة. وهؤلاء بذلوا جهودهم لشرح وطرح

المعارف الإسلامية في ضوء المنجزات العلمية القائمة، وعرضوا الانسجام والتوافق بين الدين والعلم الحديث.

والهدف الرئيس لكلا الشريحتين كان صون وحفظ الحقائق الخالدة للإسلام، وإزالة ما اعتراه من صدأ الجهل والخرافة، وإظهار استجابته للمتطلبات الجديدة. ومن جملة هؤلاء المصلحين، الإمام الخميني، والشهيد مطهري والدكتور شريعتي، الذين سعوا لإزالة الشوائب عن هذا الدين، وتطهيره مما علق به من صدأ، ومن ثم للتدليل على قدرته على إدارة أمور المجتمع".

ثم يكتب بعد أسطر ما يلي: " وبعد إطلاق سراح الإمام الخميني من سجن قيطرية، وعودته إلى الحوزة العلمية (مدرسة العلوم الدينية)، بدأت النهضة الإسلامية تنتشر ويتسع نطاقها. ورغم الصعوبات والمشاق التي ظهرت بعد نفي الإمام إلى الخارج، فقد بادرت شخصيات انطلاقا من شعورها بالواجب والتكليف الشرعي إلى ممارسة أنشطة عديدة في المجالات الثقافية المختلفة، من أجل إثراء الفكر الإسلامي، وتقديم تفسير جديد، وأكثر حيوية للأيديولوجيا الشيعية.

وكان من أبرز الخطوات التي اتخذتها مرجعيات الدين آنذاك، تأسيس معاهد عليا لتدريس العلوم الإسلامية في قم ومشهد، وتربية الطلبة المناضلين والمثقفين والمتعلمين على ثقافة العصر، مما ساهم في ازدهار الفكر الإسلامي.

ومن بين أبرز الشخصيات التي خاضت هذا الجهاد المقدس، آية الله الخميني، وآية الله طالقاني، والشهيد مطهري، ومحمد تقي شريعتي، والمرحوم المهندس بازركان، والعلامة الطباطبائي، والمرحوم السيد محمد رضا سعيدي، والدكتور علي شريعتي.

وسنحاول في هذا المقال عرض الأفكار الإصلاحية للإمام الخميني، والشهيد مطهري، مقارنة مع أفكار المرحوم بازركان والدكتور شريعتي.

نهجان إصلاحيان في نطاق الفكر الديني:

ثمة نهج أول انطلق منذ قرن، تكوّن من علماء الدين الذين درسوا في الحوزة العلمية، واطلعوا على العقائد الإسلامية أكثر. وهم ينطلقون في إعادة بناء ركائز المعرفة الدينية وجعلها متلائمة مع متطلبات العصر، معتمدين غالبا على "نقاء المعرفة الدينية". ومع الأخذ في الحسبان التعاليم الكلامية - الفقهية، فقد بذلوا جهودا كبيرة في نطاق رفع فاعلية الدين وعودته من جديد إلى ميدان المجتمع، وكان هؤلاء في المجال السياسي، حَملة مشعل

النهوض والنضال ضد الظلم، وصيانة حركة تحقيق العدالة، وتحرير المجتمع والفكر القيادي، والعلم والتقوى في الحكومة، والنضال المتواصل ضد أنظمة الاستبداد.

ومن أبرز الشخصيات اللامعة في هذا المجال: العلامة الشيخ عبد الحسين الاميني، والعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، والأستاذ محمد تقي شريعتي، والعلامة محمد تقي الجعفري، والشهيد مرتضى مطهري، والعلامة جعفر السبحاني، وآية الله ناصر مكارم الشيرازي، وآية الله الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، والأهم من الجميع الإمام الخميني.

المنهج الثاني الأحدث، هو الخط الذي بادر فيه المثقفون المتنورون المسلمون إلى توضيح وشرح العقائد الدينية، حيث استخدموا النمط الحديث والاسلوب الجديد أكثر من الأسلوب التقليدي في تفسير النصوص، واعتمدوا لغة الخطاب المناسبة في طرح المفاهيم، واعتبروها ذات أهمية فائقة في الوصول إلى عقول المخاطبين. واهتمّ هؤلاء المفكرون أكثر بالموضوعات الاجتماعية السياسية، ومن أبرزهم المرحوم المهندس مهدي بازركان، والدكتور علي شريعتي.

إن كلا الفريقين ساهما في هذه النهضة الإصلاحية، كلا بمقدار طاقته وبحسب أسلوبه. وهناك قواسم مشتركة لوحظت في ما بينهما، نقدمها بشكل مفهرس:

١. العودة إلى الأصول والمبادئ الأولى.
٢. الرجوع إلى القرآن الكريم.
٣. سنّة السلف الصالح.
٤. الاتجاه العقلي (راسيوناليسم).
٥. الاجتهاد المستمر.
٦. مكافحة الخرافات.
٧. رفض التقليد الأعمى.
٨. تصفية المصادر الثقافية وتنقيتها.
٩. عدم إمكانية فصل الدين عن السياسة.
١٠. توعية الناس بمصيرهم.

ويمكن القول: إنّ هذه هي الأصول التي حاول المصلحون دائما دعوة الناس إلى إحيائها والالتزام بها " (موسوعة الفكر السياسي عند الإمام الخميني ..

قراءة في السيرة والمسيرة، مجموعة مؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - بيروت، ط١/٢٠١٠م، ص ٢٠٦).

أهم المآخذ على شريعتي

هناك أفكار كثيرة توزعت في كتابات شريعتي ومحاضراته، وكانت محلا للنقد والمآخذ من قبل الفقهاء وعلماء الدين، والمفكرين الإسلاميين، وهناك ملاحظات تكاد تكون مشتركة ومحل اتفاق بين العلماء والقراء المتابعين بدقة لكتابات شريعتي، وهي ملاحظات سلبية اتجاه ما في تلك المحاضرات والكتابات، وهي ليست بالأفكار العابرة، أو التي تعد من قبيل الاختلاف في وجهات النظر، ولعل من أهم تلك المآخذ التي سجلت على شريعتي، والتي سنأخذها من كتابات معتبرة، هي التالي:

١. التأثر بالماركسية والتحليل الماركسي للدين:

أول هذه المآخذ التي يلحظها القارئ الحصيف لكتابات شريعتي هو تأثره بالماركسية، وشيوع الفكر الماركسي في تحليلاته وكتاباته، سواء كان يقصد ذلك أملا، فهو يبقى متأثرا بالماركسية، وهذه الملاحظة أوردها أكثر من مفكر له باع في الاطلاع على الكتابات الغربية، والمدارس الفلسفية المعاصرة، أي ليسوا ممن لا اعتبار له، أو من المجتهدين الذين لا اتصال لهم بالفكر الغربي والفلسفات المعاصرة ممن لا يُحتج بكلامهم وتحليلاتهم، وممن يذهب إلى هذا الرأي الشهيد محمد باقر الصدر على الرغم من دفاعه عنه، ودعوته للتحاور معه بدلا من التشهير به وتسقيطه أو تكفيره، ولكن بعد الاطلاع على كتاباته رأى بأنها لا تخلو من أفكار ماركسية يعكسها على الدين والفكر الإسلامي والأحداث الإسلامية لعصر النبوة وما بعده. ومن هؤلاء الشهيد مطهري، وكذلك المفكر الدكتور عبد الجبّار الرفاعي، هؤلاء الثلاثة يتفقون على أن شريعتي متأثر بوضوح بالماركسية وتحليلاتها وإسقاطاتها، وإلى القارئ ما كتبه هؤلاء الثلاثة في فكر شريعتي المنطوي على التحليل الماركسي.

١. الشهيد الصدر:

يقول الشهيد الصدر في رسالة بعث بها إلى السيد نور الدين الأشكوري موضحا فيها موقفه من علي شريعتي وكتاباته وما يدور حوله من ضجيج في إيران، والذي يهمنا في الرسالة تحديدا هو بيان الصدر بشكل قاطع وبتأكيد بأنّ كتابات شريعتي لا تخلو من تفسيرات ماركسية، وتأثر جلي بالفكر الديالكتيكي، وانحراف خطير. ولاحظ هنا عبارة الشهيد الصدر "كلمات كثيرة في كتبه ومؤلفاته" وعبارته " عدد كبير مما ينشر له"

الذي أريد أن أقوله إن الشهيد ذهب إلى بيان النزعة الماركسية لدى شريعتي من خلال اطلاعه على عدد كبير من كتبه، ومؤلفاته، وليس مبنيا هذا الرأي أو الحكم على كتاب واحد، ومما يعني من جهة أخرى أن النزعة الماركسية لدى شريعتي لم تأت سهوا أو اعتباطا في واحد من كتبه، او في فصل في كتاب، بل تكاد تكون ظاهرة ملموسة في أغلب ما يكتب، وهو الذي أشار له الصدر وغيره من المفكرين الإسلاميين الذي له اطلاع نقدي على كتابات شريعتي.

يقول الصدر :

إنّ هناك كلمات كثيرة تدينه في كتبه ومؤلفاته، ولكن لم تحدد لنا هذه الكلمات، مع أنّ تحديدها هو الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نظرة ثبوتية عنه. ونحن بحكم أنّهم يرسلون إلينا عددا كبيرا مما يُنشر له مطلعون على كثير مما كتب، وفي حدود ما قرأت له وجدت انحرافا فكريا يتمثل في التأثر بطرز التفكير الماركسي والديالكتيكي، ومحاولة تقريب مفاهيم الدين ضمن إطار هذا التفكير. وهذا الانحراف في نفسه خطير، وقد ناقشته أيضا في جواب الملاحظات في مقام توضيح أنّ الانقسام إلى شيعة وسنة في صدر الإسلام لم يكن على أساس طبقي، وهذا الانحراف قد يكون ناشئا من التأثر الثبوتي بالفكر الديالكتيكي، أو من التأثر الإثباتي، لأنه يراه أحدث فكر وأقربه إلى نفوس الشباب، أو من لف ودوران واستهداف غير ما هو الظاهر.

وأما بالنسبة إلى مواقفه من الإمام أمير المؤمنين ومن خصومه، فلم أجد تناقضا. نعم، وجدت خطأ واشتباها في تقييمه للصحابة كما شرحت ذلك، غير أنّ ما يتبناه من تقييم على خطئه لا أراه يناقض ما يتبناه من تقديس مطلق لأمير المؤمنين" (مصدر سابق، ص٢٦٨).

وفي هامش الكتاب يكتب العاملي تعليقا ذا دلالة حول كلام الشهيد أعلاه، إذ كتب :" وقد ذكر الأستاذ هيكل أنّ شريعتي اعترف بأنّ أفكاره هي خليط من الإسلام والماركسية ووجودية سارتر وصوفية الحلاج مع لمسة من نزعة باسكال الإنسانية (الهيومانيزم) (مدافع آية الله:١٧٢).

٢. الشهيد مطهري:

الفكرة التي طرحها الصدر عينها يطرحها الشهيد مطهري وبشكل أكثر تفصيلا في واحد من كتبه المهمة، ويطبقها عمليا في مقال مطول كتبه حول كتاب " الحسين وارث آدم" لعلي شريعتي، وقد عنونه بعنوان "نقد كتاب "الحسين وارث آدم" وأدرجه في كتابه "الملحمة الحسينية" الجزء ٣. أو الصحيح أدرجه ناشر الكتاب، لأن الكتاب طبع بعد رحيل الشهيد مطهري

بسنوات ممتدة. المهم في الموضوع برمته أنّ الشهيد مطهري يؤكد بشكل لا لبس فيه ولا تردد أن كل مظاهر التفسير الماركسي تجلت بوضوح في هذا الكتاب، ولا يمكن إنكار ذلك بأي تأويل أو بأي شكل من مظاهر النقد المضاد، أو الدفاع المشروع!

يكتب الشهيد مطهري ناقدا الكتاب:

" "الحسين وارث آدم"

هذا الكتاب هو من تأليف الدكتور علي شريعتي. في إحدى سفراتي إلى مشهد في العام ١٩٧٣م قدّمته لي (انتشارات طوس) فقرأته، وأنا في طريقي إلى طهران، وإنّ ما استخلصته من هذا الكرّاس الذي عرض فيه كاتبه أفكاره بشكل مبطن وبتعبيره هو كما ورد في الكراس بأنه : " إنما أردت أن أقول كل عقدي وعقائدي في هذا الكرّاس هو التالي :

إنّ هذا الكراس ما هو إلا شكل من أشكال التفسير المادي الماركسي للتاريخ، بل نوع من التعزية الماركسية التي تقرأ على الإمام الحسين، وهي تعزية مستحدثة. واستنادا إلى هذا الكراس فإنّ بداية التاريخ البشري كانت مع الاشتراكية والمساواة. ثم بدأت اللامساواة، وصراع الحق والباطل، يغزوان البشرية، وظهرت الملكية، والتي قسّمت بدورها المجتمع البشري إلى قسمين، تماما كما هو حال نهري دجلة والفرات اللذين ينبعان من منبع واحد، ثم يتشعبان إلى رافدين منفصلين.

وانقسام الإنسان إلى قسمين يعني إلى طبقتين: طبقة مستغِلة ومستثمرة، وطبقة محرومة ومستغَلة، والطبقة الحاكمة والمستغلة ذات ثلاثة وجوه: سياسية واقتصادية ودينية (مذهبية)، أو أصحاب الذهب والقوّة والتزوير (الخداع). وإنّ مهمة الأولى (أي الحكام) هي :صناعة العبيد. والفئة الثانية (أي الاقتصاديون) هي النهب. والفئة الثالثة (أي رجال الدين والمذهب) هي الخداع والتضليل.

وهكذا يكون القصر والدكان والمعبد عبارة عن ثلاث شعب أو فروع لمكتب واحد. وإنّ السيف والذهب والمسبحة يؤديان نفس الوظيفة. وقد كانت هذه هي السمة الملازمة للنظام الحاكم في التاريخ على الدوام. وأي شيء آخر غير ذلك كان عبارة عن حركات، وثورات مدانة ومقموعة. نعم لقد قامت ثورات، ونهضات، وحركات صميمية ومخلصة، ولكنها يائسة، لأن النظام التحتي تظام فاسد. ولهذا ترى أنّ كل تلك الحركات والثورات التي وقعت على يد إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وعلي، والحسين، قد ولدت آثارا معاكسة. وما كان يُنتظر منه أن يكون إدام خبز البشرية، تحوّل إلى بلاء ومعاناة مضاعفة، وقيد جديد أضيف إلى القيود السابقة.

نعم .. فحرية القبيلة، والعشيرة الأولى، لم تدم طويلا (ص٢٢). ونداء الإمام الحسين قد أطفئ بينما ظل رنين ناقوس العجل السامري يدوي عاليا على الدوام (ص٢٤)، وما المصير المحتوم لورثاء آدم كافة، سوى الأسر والمعاناة (ص ٢٨).

وما ارث الحرية، والعدالة، والنهوض سوى الثورات المدانة في التاريخ أبدا. وما ارث العبودية، والظلم، ودين النوم، سوى النظام الحاكم في التاريخ (ص ٣٩). والإمام الحسين مظهر لانكسار آدم وهزيمته (ص ٤٧).

والكاتب يصور في كرّاسه هذا الأرض بين النهرين بمثابة التعبير الرمزي لحل الأرض وأضحى تاريخها مظهرا لتاريخ الأرض كلها.

وان دجلة والفرات تعبير عن الجناحين المتضادين للمجتمع البشري اللذين انشعبا بعد خروجها من منبع واحد، وأوحيا باتصالهما وتلاقيهما الوهمي والكاذب قرب بغداد، وهو أشبه بتلك الوحدة الكاذبة بين جناحي البشرية في دورة الخلافة الإسلامية، حيث ظهرت تلك الوحدة الكاذبة أيضا، لكنها سرعان ما تكررت الجناية والمأساة بشكل أكثر فجاعة مرة أخرى.

ان كل جناة العالم يظهرون ويبرزون في كل واحد من تلك الوجوه الثلاثية للخلافة الإسلامية، وهكذا يبدأ شقاء العالم، وهو الشقاء الذي لم يسبق له مثيل.

ان مصير دجلة والفرات النهائي هو أن يصبا في البحر، ويستقرا هناك.

ومصير البشرية، كخاتمة التاريخ البشري هو في الاشتراكية، وهناك فقط تنجو البشرية من بلاء الملكية والنظام الطبقي، ويتم تهديد البناء التحتي، ويحل محله بناء تحتي واقعي جديد، قوامه العدل والقسط الواقعيان.

ان جهود الثوريين في التاريخ، ونضالاتهم ضد البناء التحتي الفاسد، كانت مخلصة وصميمية على الدوام، لكنها يائسة، وغير مثمرة باستمرار. ولا يمكن الوصول إلى السعادة الواقعية للمجتمع البشري إلا بزوال الطبقات، ومحو النظام الطبقي، ألا بالاشتراكية تطمئن القلوب !

فالإمام الحسين يتقدم بتسارع نحو الموت، وحيدا يائسا - بنظر الكاتب — وإنّه مظهر هزيمة آدم وانكساره، والتزامه غير المثمر.

استنتاج:

في هذا الكراس يُلاحظ المرء أن كلمة آدم، أو الإنسان، ما هي إلا رمز للإنسان الاشتراكي، وتوحيد العالم ما هو إلا تبرير وتفسير، لتوحيد ووحدة المجتمع. كما أنّ الشرك العقيدي أو الاعتقادي، ما هو إلا ظل من الشرك أو مثنوية الحياة.

وبهذه البيانات يتجلى مرة أخرى الطابع الماركسي للكراس، حيث يتم تفسير وجدان الإنسان على أنّه انعكاس ونتاج للوضع الاجتماعي للإنسان، وهو ما يمكن أن يكون تعبيرا عن وجهة نظر (دور كهايم) وليس (كارل ماركس).

شيء واحد لا تقع عليه العين في هذا الكراس، هو شخصية الإمام الحسين (ع)، وآثار نهضته.

إنّ أساس فكر هذا الكراس مبني على قاعدة أنّ كل الجهود في المجتمع الطبقي، تبقى دون نتيجة، وإنّ ثوار التاريخ، وهم ورثة آدم أي الإنسان الاشتراكي، وقيامهم هو من أجل الحق، والحق يعني العدالة والمساواة، وهذا يعني: الاشتراكية.

إنّ الإمام الحسين في هذا الكراس هو نفسه الإمام الحسين المُدان، والمظلوم، من قبل قراء التعزية الحسينية التقليديين، والذين يرون في الحسين رجلا لا دور له في التاريخ، مع فارق أنّ الإمام الحسين عند أولئك الوعّاظ، وقراء التعزية الحسينية، قد فرش سفرته للبكاء عليه، حتى يحصل البكاؤون على نصيبهم منها في الآخرة.

بينما الإمام الحسين في هذا الكراس - بواسطة التعازي ومجالس البكاء - وسيلة بيد الجناح الحاكم، لاستثمار واستغلال الطبقة المحكومة، والمحرومة. وفي هذا الكراس فإنّ المعبد كان دائما إلى جانب القصر والدكان، والروحاني ظل دائما إلى جانب الحاكم وصاحب رأس المال.

وبالطبع فإن الذي يقع في الحاشية، أو على الأطراف هو المعبد -لاحظ هنا المعبد بشكل عام، وليس الكنيسة، أو الدير، أو الصومعة، أو محل عبادة الأوثان - والذي يشمل بدوره المسجد أيضا. وبالطبع فإن سياق موقع الروحاني - رجل الدين - صار واضحا أيضا " (الملحمة الحسينية، ط١/١٩٩٠، الدار الإسلامية،ج٣ ص ٢٨٥).

والفكرة عينها قالها مطهري وأوردها في أكثر من شاهد، وهو يلح على أنّ شريعتي لا يمثل المفكر المستقل، ولا الكاتب المفكر الذي يغربل، بل هو نتاج تيارات عديدة، وإيديولوجيات متنوعة من الفكر الغربي، والفلاسفة

العربيين. كلها صبّت أفكارها في ذهنه، وقولبتها في داخله وأخرجت لنا في الاخير علي شريعتي الذي نقرأه ونعرفه، مع شيء من التأثير بوالده.

استمع لمطهري يوضح هذه الفكرة : " خلاصة نظري فيما يتعلق بالمرحوم شريعتي يُذكر بخير ويُنبّه إلى أخطائه، و(هو) ليست له ميول سنية وإنْ كانت له أخطاء في موضوع الإمامة، وبين هذه الميول وهذه الأخطاء فرق واضح. أساتذة شريعتي هم والده، الكسيس كارل، ماسينسيون المستشرق وعضو وزارة الخارجية الفرنسية، كورويج اليهودي المادي، جان بول سارتر المادي الوجودي، دور كهايم عالم الاجتماع المعادي للدين".

د. عبد الجبار الرفاعي:

اذا كان الحكم على شريعتي بالتأثر بالماركسية، وبانعكاساتها الخطيرة على كتاباته قد لمسناه لدى علماء الدين أمثال مطهري والصدر في حقبة السبعينات، فإن الفكرة ذاتها يؤكدها مفكر آخر في القرن الواحد والعشرين، وهو الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الدارس للتيارات الفلسفية، والخبير في الفكر الإسلامي، وصاحب الباع الطويل في البحث، بل إنّنا نجد الرفاعي يؤكد بشكل أكثر وضوحا وجزما، ويذهب إلى أنّ كل أوليات ومبادئ شريعتي ماركسية، ومن ثم أقام عليها انعكاساته على تفسيره للدين الإسلامي، ولا يجد الرفاعي عند شريعتي أي شكل من أشكال النقاء الإسلامي، والفكر الأصيل، ولا يمكن العثور لديه على رؤية إسلامية عميقة !!.مما يعني أنّ التأثر بالماركسية وعدم خلوص كتابات شريعتي الإسلامية ونقائها محل للإجماع لدى العلماء والمفكرين المعتبرين، منذ نهايات القرن العشرين حتى يومنا هذا، وهذا يجعلنا نطمئن بأنّ هذا الحكم ابعد ما يكون عن التجني والافتئات على الرجل، أو القسوة والحكم بلا دليل. ففي مساء الأحد ١٦ يناير ٢٠١١م، وبقاعة الجمعية الفلسفية المصرية، عُقدت ندوة حضرها جمع من المثقفين والباحثين والأكاديميين وعدد من أعضاء الجمعية وأساتذة الفلسفة بكلية الآداب في جامعة القاهرة، ألقى الدكتور عبد الجبار الرفاعي محاضرة بعنوان " اختزال الدين في الأيديولوجيا .. لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي" وقد ناقشه فيها مجموعة من الأكاديميين ودكاترة الجامعات المتخصصين، من بينهم : علي مبروك وأميرة حلمي مطر، ويمنى طريف الخولي، وأحمد عبد الحليم عطية، والسيد رزق الحجر، وأحمد الأنصاري، وجوزيبي سكاتولين (إيطالي)، ومحمد محق (أفغاني).

يقول الرفاعي بما يخص جزئية الماركسية في فكر شريعتي، وظهورها بجلاء في كتاباته الإسلامية : " وتورط شريعتي بتفسير ماركسي لبعض الايات، فأسقط المادية التاريخية على القصص القرآني، وحاول أن يقدم

أحيانا تأويلا وجوديا ملتبسا للإسلام. فمثلا صاغ تحليلا يبتنى على الصراع الطبقي في قصة ابني آدم بين هابيل وقابيل، فاعتبر "قابيل ممثلا للنظام الزراعي والملكية الخاصة والفردية، بينما هابيل يمثل العصر الرعوي والاشتراكية الأولية قبل الملكية". وهكذا فسّر الكثير من الصراعات الاعتقادية والثقافية والسياسية والاجتماعية، تفسيرا طبقيا ماركسيا، فهو يرى أنّ "الثورة الحتمية المستقبلية تعتمد على التناقض الديالكتيكي، الذي بدأ بالمعركة بين هابيل وقابيل، وهي تجري على الدوام في كافة المجتمعات بين النظام الحاكم والمحكوم، وانتصار العدالة والقسط والحقيقة هو المصير الحتمي للتاريخ". وخلص إلى أنّ كافة العقائد و "الأديان الحاكمة في التاريخ، إنّما هي دائما وبلا استثناء تمثل الطبقة الحاكمة". وتحيل الظواهر الاجتماعية لدى شريعتي إلى مفاهيم عقائدية، فالوحدة الاجتماعية والسياسية، والشرك والصراع الاجتماعي والسياسي يعبران عن التوحيد والشرك الاعتقادي "والوحدة الحقيقية بين الجماعات والطبقات، هي تعبير عن التوحيد". وهكذا "الشرك الاجتماعي إنّما هو انعكاس للشرك الإلهي".

استلهم شريعتي القواعد الأساسية للماركسية، وأقام عليها بناء إسلاميا. كل أولياته ومبادئه ماركسية، ولا يمكن العثور لديه على رؤية إسلامية عميقة. متى وأين كان للإسلام بناء تحتي وبناء علوي؟ بل أين نجد في الإسلام مفهوما للتاريخ بالنحو الذي تكلم عنه؟ إنّ من العسير مزج كل هذه المفاهيم مع بعضها في مركب متجانس. شريعتي يملك أجوبة جاهزة لكل الأسئلة. إنّه يضرب لنا المثل الصارخ عن رؤية ضيقة. وكل شيء يفسر عنده بعبارات ماركسية، ببنى تحتية وفوقية، برؤية ثنائية للتاريخ، وبشلال من التماهيات المسلسلة. إنّ فكر شريعتي خليط من الجذرين، اللذين يتقيأ أحدهما الآخر. يعتقد داريوش شايغان أنّ شريعتي :" لئن خلط هيغل المجرد من كل الجهاز المفهومي لمنظومة العقل وظهورية الروح، مع ماركس مجرد من النظرية، من الفعل على إطلاقه " Praxis"، مع إسلام مبتور من قطبيه، المبدأ " Origine" والمعاد "Retour"، فإننا نحصل على حساء دسم، تبدو فيه جميع العناصر المجمّعة، منزوعة ومجردة من كل مضمونها الوجودي، نظرا لأنها فصلت عن القاعدة التي تكونها وتسوّغ علة وجودها، إنّ فكرا كهذا لا يمكنه أن يكون سوى فكر بلا موضوع، وبالتالي، فكر بلا مكان". إنّ شريعتي لم يستوعب المضمون الفلسفي لـ "ديالكتيك" هيغل، وهكذا لم يتوغل في اكتشاف البنية المفهومية لفكر ماركس، ولم تسعفه رؤياه أن يتخطى مقولاته الاقتصادية والاجتماعية.

كان شريعتي يستعيد معظم المقولات الماركسية، ويعطيها معاني جديدة، "يقولبها وفق البنى التي ينكرها. فالفكرة القائلة إنّ الرؤية التوحيدية (الإسلامية) للعالم تتحقق عبر الإنسان والتاريخ والمجتمع في الأيديولوجيا

الإسلامية، لتفضي إلى المجتمع المثالي، هي نوع من هيغلية مشوهة، محمولة عن نظام العقل، وعن كل الجهاز المفهومي للجدل. ومثلما اختزل شريعتي (الروح المطلق) إلى مفهوم توحيدي غائم، فقد ردّ أيضا كل الماركسية إلى المقولات الاجتماعية والاقتصادية، من دون أي اعتبار للمعنى الفلسفي للبراكسيس. إنّ هذه الماركسية الغائمة المتفشية في مجرد تتكشّف في استعماله، كيفما اتفق، مصطلحات البنية التحتية والبنية الفوقية والحتمية التاريخية (المسماة أيضا "علمية") والعلاقات الجدلية والمشاعية البدائية ... إلخ. وباختصار كل الرطانة توجد هنا. بحيث إنّ شريعتي يلتهم كل فضلات الماركسية في الوقت الذي يدّعي مناهضتها. إنّ إسلام شريعتي المؤدلج مهما تكن دوافعه الدينية والعاطفية ينفك عن مقولات اجتماعية اقتصادية مسطحة ... إنّه وهو يخفض البعد المقدس للإسلام إلى مستوى التاريخ، يعلمنه وينهكه من الدفق المتواصل للصيرورة التاريخية" (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، عبد الجبار الرفاعي، ط٢/٢٠١٣م، دار التنوير- بيروت، ص ٥٣).

هذا الخليط من التأثر بالمفكرين الغربيين الماديين والذي أشار إليه مطهري من قبل، يؤكده الرفاعي هنا، وفي مواطن أخرى، فماركسية شريعتي سيدة راسخة لدى الرفاعي، ولا يمكن إخفاؤها أو التستر عليها أو تأويلها بأي حال من الأحوال، ففي مصدر آخر للرفاعي يشير إلى ماركسية شريعتي، أو تشربه بأفكاره وتطبيقها على كتاباته التي تدور حول الإسلام بقول يشبه القول الذي أوردناه لمطهري وللصدر أعلاه. هذا التوظيف للماركسية في كتاباته أوقعه في أخطاء فادحة، ومنزلقات خطيرة وكبوات لا يمكن التسامح معها، أو غض البصر عنها، أو حتى التماس العذر ورائها. فالرجل واع لما يكتب، ومفكر بصير، وحصيف في كل كلمة يسطرها، أو كتاب ينشره، يكتب كل شي بوعي وخطة محكمة تدور في ذهنه. يقول الرفاعي:

وعندما نعود إلى تراثه نجده يستعير جملة أدوات منهاجية، وأفكارا حديثة، من مفكرين فرنسيين وألمان، فقد تأثر برؤى ريمون آرون، وجاك برك، وهنري كوربان، وفرانتس فانون، وروجيه غارودي، وجورج جورفيتش، ولويس ماسينيون، وجان بول سارتر، وألبير كامو.

وترد في كتاباته إشارات إلى: هيغل، وماركس، وهوسرل، وياسبرس، وهايدغر، وماركوزه، تدلل على أنّ لمناهج ومفاهيم هؤلاء المفكرين تأثيرا بالغا في صياغة عقليته ونسقه الفكري.

لقد استعار شريعتي بعض آراء المثالية التاريخية لهيغل، كما أخذ من ماركس "البناء التحتي والفوقي، والصراع الطبقي، والأيديولوجيا،

والاغتراب". واقتبس فكرة "سجن الذات" من هايدغر، وعممها إلى ما أسماه "السجون الأربعة" بعد أن ضمّ إليها : سجون " الطبيعة، والمجتمع، والتاريخ". كذلك استفاد من ظاهريات هوسرل، واهتم بسارتر، وأفاد من وجوديته في تحليل بعض الظواهر. كما حاول أن يتوكأ على فكرة الاعتراض التي قرّرها ألبير كامو بقوله :" أنا أعترض، إذن أنا موجود". يكتب شريعتي " إنني اتخذت من كلمة ألبير كامو هذه درسا لحياتي، على أساس نفس الرسالة والمسؤولية الصغيرة التي أحس بها، بالنسبة لوعيي وإحساسي وعقيدتي".

لقد استقى شريعتي أدواته التحليلية من علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وفلسفة التاريخ، والانثروبولوجيا، والميثولوجيا، وهيمنت على عقله الفلسفة الاجتماعية الفرنسية والألمانية أكثر من سواها، لكنه ظلّ أقل تعاطيا مع مقولات الفلسفة والآراء الفلسفية، ربما بسبب تخصصه ودراساته في الاجتماع ومقارنة الأديان.

لقد حسم شريعتي خياره وقرّر استخدام المناهج الغربية في دراسة الدين والاجتماع الإسلامي، ولم يتوقف عند الجدل الواسع الذي لما يزل محتدما، حول مشروعية دراسة الدين والمجتمعات الإسلامية، بمناهج مستوردة من أديان ومجتمعات أخرى. فبدلا من اصطفافه بجنب أحد فرقاء الصراع، واستنزاف تفكيره في التدليل على مشروعية أو لا مشروعية ذلك، بادر لحشد مختلف المناهج في دراساته، ولم يتردد في انتقاء واستخدام أي مصطلح أو مفهوم، يحسبه مناسبا لحقل بحثه. وكأنه بمغامرته هذه، أراد القول : إنّ السبيل الأمثل لاختبار المناهج وأدواتها هو بتطبيقها مباشرة على ميادين معينة. وإنّ اكتشاف ما تتمخض عنه عملية التطبيق من معطيات، هو معيار اختبارها. كما أنّ نتائج التطبيق ستقودنا إلى استئناف النظر في بعض المناهج، وإمكانية تمثلها في سياقات حضارية أخرى، فنستبعد منها أو نختزل ما لا يتسق مع بيئتنا، أو لا يمكن توطينه ودمجه في محيطنا الثقافي" (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، عبد الجبار الرفاعي، ط١/٢٠٠٥، دار الهادي، ص ٢٩٢).

٣. فاضل رسول:

على الرغم من أن فاضل رسول في كتابه " هكذا تكلم علي شريعتي" من أشد المدافعين عن شريعتي، والمناصرين لخطه وفكره ومبانيه ومنطلقاته، إلا أنه في الكتاب لم يستطع إنكار تأثر شريعتي بالفكر الماركسي والاشتراكية، وإن حاول أن يبرر، إلا أنه يقر بهذا التأثر بناء على كتابات شريعتي نفسه، ومنابعه الثقافية، وهذه دلالة جديدة، ومؤشر واضح يأخذ بنا إلى حيث اليقين بماركسية شريعتي، فالمدافعون عنه ومحبوه والوسطيون فضلا عن أعدائه كلهم يجمعون على شياع الفكر الماركسي

بتجلياته في كتب ومخيلة شريعتي وهو يكتب عن الإسلام وأحداث التاريخ الإسلامي وهو يحلل المجتمعات بحكم تخصصه في علم الاجتماع. يقول فاضل رسول في الكتاب المذكور: " وجّه شريعتي انتقادات للتفسير الماركسي المبتذل للتاريخ وعجز ذلك المنهج عن تفسير وفهم تطور العالم، وخاصة تفسير الظواهر التاريخية في المجتمعات الشرقية، ولكنه كان حريصا على أن لا يفهم كمعاد للماركسية أو الاشتراكية، فقد ظلّ الماركسيون من محاوريه، وظلّ ينظر إلى الصراع ويتناوله في المستوى الأيديولوجي، ويرى إمكانيات التعاون بين الإسلاميين والاشتراكيين في الكفاح العملي ضد الرجعية والاستعمار. بل إنّ مفاهيمه الاجتماعية نفسها كانت "مساواتية" وأقرب إلى الاشتراكية، ولكن بصياغات إسلامية ترتبط بتراث الفقراء والصعاليك وثورات المستضعفين في تاريخ الإسلام، ويظل أبو ذر الرمز الأحب إلى قلبه في صدر الإسلام" (هكذا تكلم علي شريعتي، ط١٩٨٧/٣م، دار الكلمة، صفحة ب بمقدمة الكتاب).

٢. إسلام بلا حوزة:

من أخطر الأمور التي أخذت على شريعتي، وجعلت المجتمع الإيراني برمته وبمختلف اتجاهاته يهوي به إلى الحضيض ولا يشفع له جهاده ونضاله وسجنه طوال تلك السنوات الممتدة هي العبارة التي نسبت له، والتي ساقها عرضا في واحدة من رسائله إلى أبيه الشيخ محمد شريعتي، هذه العبارة هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وعلى أساسها صنف شريعتي بعدو العلماء وانّه محارب للحوزات ومناهض للمذهب ونعت بأبشع النعوت. مع أننا لا نتصور شريعتي بهذه الصورة التي وضعوه فيها، ولم يكن يقصد المعنى الذي فهمه العلماء والعوام البتة، هذه الفكرة كانت كالطوفان الجارف الذي جرف شريعتي وجعلت الأقدام تدوسه والألسن تلوك اسمه بأقذع الكلمات والعبارات، وإلى اليوم، وهي أخطر من فكرة الماركسية في كتاباته، وأشد خطرا وتأثيرا في الجماهير، فأغلب الناس وحتى المثقفين لا يفطنون بسهولة إلى ما في كتاباته من تأثر بالماركسية ولكنهم سريعا ما يصدقون وينتفضون غضبا لأنهم سمعوا عالما يقرر بأن شريعتي يدعو إلى فصل الإسلام عن الحوزة وعن العلماء ورجال الدين.

حتى الشهيد مطهري أشار إلى ذلك في واحدة من كتاباته التي دارت حول فتنة شريعتي في إيران، وموقف الحوزة ورجال الدين منه، وما درا حول حسينية الإرشاد والضجة حولها من قبل العلماء، إذ كتب مشيرا بطرف خفي إلى شريعتي وتلك العبارة التي كتبها "إسلام بلا حوزة" :

" الحوزويون:

يعرب أصدقاء الحسينية أو مدّعو صداقتها على الأقل عن وجهات نظر متباينة فيما يتعلق بحدود ارتباط المؤسسة واعتمادها على الحوزويين، ووجهات النظر هذه هي إما آخذة جانب الإفراط أو جانب التفريط حسب عقيدتي، وهم يطلبون وجهة نظري فيما أسمع أحيانا أنّ طرفا يفسر رأيي بهذا الموضوع حسب ميوله، لذلك أرى من الضروري أن أوضح وجهة نظري بهذا الشأن:

إنّني مازلت ومنذ عشرين عاما أي منذ أن وصلت إلى مرحلة الاستقلال الفكري، مناصرا حازما للحوزة ومنتقدا لها في آن واحد، مناصرا ومدافعا جادا عنها وهي أصلي ومنطلقي، ففخري الوحيد هو دخولي هذا المسلك، ففي الحوزة وجدت أشرف وأزكى الأشخاص، الحوزة هي نسبيا وريثة ثقافة الـ (١٤٠٠) عاما الإسلامية، هكذا أرى الحوزة وأرى نفسي سنبلة في بيادرها العظيمة.

وكنت ومازلت أعتقد ضرورة بقائها وحفظها، فلا يمكن لشيء أن يقوم مقامها، وأعتبر شعار "إسلام بدون حوزة" شعارا استعماريا. وفي الوقت نفسه فإني شخص منتقد "لحوزتي"، أعتقد بوجوب إحداث إصلاحات فيها، كثيرون هم غير الكفوئين الذين تلبسّوا بزي الحوزويين المقدس، فلا ينبغي الانقياد الأعمى لأمثال هؤلاء الذين يدّعون تمثيل الحوزة قبل الحوزويين الحقيقيين. إنّ أقوالي وكتاباتي خلال العشرين عاما المنصرمة موجودة، والمتعلق منها بهذا الموضوع يتمحور جميعه حول هذين الأصلين، المناصرة والانتقاد.

وعلى هذا فإن وجهة نظري حول موضوع علاقة مؤسسة الحسينية بالحوزة تتمحور حول وجوب ولزوم الاستفادة من الحوزويين الحقيقيين، وحول وجوب ولزوم المقاومة العنيفة للمتلبسين بالزي الحوزوي المقدس الذين استغلوا مزاياه دون أن يمتلكوا شيئا من العلم والتقوى وهما علامة الحوزويين الحقيقيين" (جولة في حياة الشهيد مطهري،تأليف جماعة من الأساتذة والعلماء، ط١/١٩٩٢م، دار الهادي، ص٢٣٤).

السؤال الذي يجب أن نبحثه هنا ونتقصى إجابته هو: هل بالفعل دعا علي شريعتي إلى إسلام بلا حوزة؟ وهل تفوه بهذه العبارة؟ وإذا كان بالفعل قالها فماذا يقصد من ورائها؟ المعنى الذي فهمه العلماء والعامة أم معنى آخر؟ شريعتي بالفعل عدو للعلماء ورجال الدين، ومحارب للفقهاء، وللحوزات الدينية أم محارب وعدو لصنف من العلماء ؟ هذا ما سنبحثه في الصفحات المقبلة.

في عام ١٣٥١ هـش الموافق ١٩٧٢م كتب الدكتور علي شريعتي رسالة إلى والده، وقد ورد فيها التعبير بـ " الإسلام المجرد من الملالي"، فأضحت هذه

العبارة مستمسكا بيد خصومه للتهويل عليه، وتذرع بها بعض للقضاء عليه. وهنا نذكر أولا كلام الدكتور علي شريعتي الذي يتضمن هذه العبارة مع ذكر الكلام السابق عليها واللاحق لها كي نفهم المراد منها بشكل كامل وصحيح، ومن ثم نتطرق لفهم الآخرين لها وطعونهم عليها:

" بات من المؤكد حاليا أنّ الماديين والشيوعيين من المتأثرين بالغرب أو الشرق لن يكونوا هم العلماء وقادة الفكر وصانعي ثقافتنا وفكرنا ومجتمعنا في المستقبل، بل الذي سيصنع مستقبلنا هم العلماء الذين اختطوا لأنفسهم نهج الإسلام العلوي والحسيني، بوصفه المدرسة الفكرية للنهضة الاجتماعية والآيديولوجية الثورية. فكما تقدّم الدكتور مصدّق بأطروحة الاقتصاد المجرد من النفط، كي يؤسس لاستقلالية النهضة وتحريرها من ربقة وقيود التبعية للشركات الاستعمارية السابقة، فقد تحققت في المجتمع حاليا ولحسن الحظ أطروحة الإسلام المجرد من الملالي، مما أدّى إلى إخراج الإسلام من الإطار الضيق للقرون الوسطى، وتقييده من قبل قساوسة الكنائس، والرؤى المتحجرة والأساليب الفكرية المنحطة، والرؤية الكونية الخرافية المنحرفة التي عملت على تجهيل الناس، وحشرهم في دائرة التقليد الذي جعل الأنام كالأنعام، والتعريف بالمستنير بوصفه عدوا للمذهب والإسلام وتخويف الناس وتجفيلهم منه. وأدّى كذلك إلى إخراج الإسلام من نطاق المحراب والبيوت والتكايا الضيقة وحصره بالتعازي والمآتم، إلى ساحة الحياة والفكر واليقظة والحركة والإنتاج، وإنقاذ القرآن على وجه الخصوص من دهاليز المقابر والعمائم التي تسكن فيها، وإخراجه إلى باحة التجاذبات المعاصرة، وتسليمه قياد الإبداع والهداية والابتكار والتغيير والإصلاح".

إنّ ما يتم تداوله وتناقله من مجموع هذا الكلام عبارة " تحققت في المجتمع حاليا أطروحة الإسلام المجرد من الملالي" فقط لا غير، والذي يُستنتج منها دائما أنّ شريعتي كان يسعى إلى الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، وأنّ المراد من المؤسسة الدينية رجالها العلماء الواعين، وليس رجالها الجهّال والمتخلفين. في حين أنّ هذا الاستنتاج باطل وخاطئ جملة وتفصيلا.

فلو بقينا نحن وعبارة "الإسلام المجرد من الملالي" لأمكننا تفسيرها بما نشاء وحملها على ما نريد من المعاني، ولكن لو أخذناها في ضمن كلام متكامل له بداية ونهاية، فعندها سنحصل على المعنى الدقيق والصحيح منها، فإنّ أدنى تأمل مجرد من الأحكام المسبقة يؤكد لنا ما يلي:

١. إنّ الملالي في هذا التعبير هم الذين يشكلون المجموعة المقابلة للعلماء الذين انتهجوا لأنفسهم خط الإسلام العلوي والحسيني.

٢. إنّ الملالي في هذه العبارة هم الذين يؤطرون إسلامهم بإطار العصور الوسطى الضيّق، والذين يجعلون الأنام كالأنعام.

٣. إنّ الملالي في هذا التعبير هم الذين يصفون المثقف بكونه عدو المذهب، والمتمرد على الإسلام.

٤. إنّ الملالي في العبارة المذكورة هم الذين حصروا القرآن بالمقابر.

٥. يرى شريعتي أنّ مصداق هذا النوع من الملالي هم الذين ذكرهم بأسمائهم في هذه الرسالة وهم: السيد إبراهيم الميلاني، والشيخ قاسم الإسلامي، والحاج أشرف الكاشاني، وغيرهم.

السيد إبراهيم الميلاني من أقرباء المرجع الديني آية الله الميلاني، وقد كان ممثلا في إحدى دورات مجلس الشورى الوطني. وقد بلغ به الأمر في إحدى الدورات أن ادّعى الاجتهاد والمرجعية ولقب نفسه بـ (آية الله العظمى)، ونصب العداء لشريعتي، وأفتى ضدّه. وقد ذكره شريعتي في عدّة مناسبات، وكتب له رسالة (راجع الرسائل من الأعمال الكاملة)، وندرك من خلال البحث في وثائق جهاز السافاك أنّ فتوى هذا الرجل ضد شريعتي كانت توزع من قبل السافاك نفسه. وإنّ ما لم يكن أحد ليعلمه بشأن هذا الرجل هو صلته بـ (مكتب الاستخبارات الخاص) للنظام الشاهنشاهي، وهو أهم مؤسسة استخباراتية بما فيها جهاز السافاك، وقد جاء في مذكرات الجنرال حسين فردوست: (منذ حوالي العام ١٣٥٠ هـ . ش/١٩٧١م ارتبط بمكتب الاستخبارات الخاص، رجل يدعى آية الله الميلاني، وذات يوم أخبرني ضابط المكتب بمراجعة شخص معمم إلى المكتب وقد عرّف نفسه على أنه آية الله الميلاني، وقال: إنّ الناس يرفعون إليّ الكثير من الشكاوى، ويريدون مني الإجابة عنها، وأريد منذ الآن إرسال هذه الشكاوى إلى المكتب عبر وسيط آخر للنظر فيها والإجابة عنها. فقلت لضابط المكتب: انظروا في الشكاوى التي يرفعها على النحو المعهود، وقدّموا له الإجابات بانتظام، وتحققوا في الأثناء من هويته، حيث كان آية الله الميلاني مرجعا معروفا في مدينة مشهد، فقيل لي: إنّ هذا الرجل يقيم في طهران وهو غير آية الله الميلاني المرجع الذي يسكن في مدينة مشهد. وأيا كان فقد دأب هذا الرجل على إرسال الشكاوى إلى المكتب على النحو المتقدم، وقد شكرني مرارا، وأهداني في أحد المرات لوحة نحاسية تذكارية).

٦. لا يرى الدكتور علي شريعتي الحوزات العلمية وأساتذتها وطلابها في عداد الملالي، وذلك لأنه كتب في هذه الرسالة ذاتها ما يلي: " إنّ إيماني وثقتي بهذه الحوزة العلمية بغالبية أساتذتها وجميع طلابها، أكثر من هذه الجامعة وغالبية أساتذتها وطلابها".

وقد صرّح شريعتي بتفاؤله بطلاب العلوم الدينية في العديد من المواطن الأخرى، ومنها أنّه خاطب الجامعيين في اجتماع عام، وقال لهم: " إنّ أملي بالطلبة في النهضة الفكرية وبث الوعي في الناس، وإحياء الروح الحقيقية للإسلام، واستنهاض الروح المعارضة التي تنشد عدالة التشيع العلوي وصلاح المجتمع، أكثر من أملي فيكم، وذلك لأن عمركم الثقافي محدود وقصير، بينما يمتد عمر الطالب في الحوزة العلمية ومسؤوليته الاجتماعية إلى حين وفاته، فيبقى طالب العلم في الحوزة مسؤولا عن أفكار الناس ومصائرهم شريطة أن يكون واعيا، وهو كذلك إذ أصبح طالب العلم واعيا".

٧. يُفهم من استعمال شريعتي لكلمة "الملالي" التهكمية، وعدم تعبيره بالمؤسسة الدينية، إنه إنما أراد الطبقة المتحجرة من علماء الدين، وليس كيان هذه المؤسسة الدينية.

٨. دعا علي شريعتي المؤسسة الدينية إلى شرح الإسلام والتواجد في الساحة وقيادة المجتمع في الكثير من كلماته، مما يتناقض ونظرية الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية المنسوبة إليه، حيث يقول: "عندما يختار العالم الإسلامي المسئول ترك ساحة الحياة المعاصرة، ويلجأ إلى العزلة والعبادة، فمن الطبيعي أنّ مكان هذا العالم المسئول الإسلامي سيشغله(العالم الأجير الاستعماري) ليتصرف في حياة الناس كما يحلو له. وعندما يغيب نوّاب الإمام، كما غاب الإمام، فمن الطبيعي أن يتبنى الإصلاح المذهبي البابيون والبهائيون، كما يتبنى الميرزا ملكم خان (نهضة التجديد)، ويتبنى (الثورة السياسية) السيد حسن تقي زادة.

٩. بمعزل عن كل ما قلناه، لو تأمل شخص في المنظومة الفكرية للدكتور علي شريعتي، لوجد فيها مكانة للمؤسسة الدينية. إنّ شريعتي لا يرى الدين منحصرا بعلاقة الفرد بخالقه، وإنّما يعرضه في قالب إيديولوجي يرى فيه الدين مهيمنا على المجتمع والسياسة، ومشتملا على منظومة الأمة والإمامة، وفي مثل هذا الدين تحظى المؤسسة الدينية بمكانتها، وهي ليست مسلوبة الإرادة والسلطة، بل لها كامل القدرة والمسئولية.

والخلاصة: من خلال النظر إلى مجموع كلام شريعتي وسياقه، نعلم أنّ مراده من "الملالي" في عبارة "الإسلام المجرد من الملالي"، هم " الملالي المجردين من الإسلام العلوي والحسيني"، وأنه ناظر إلى شريحة من المؤسسة الدينية، وليست المؤسسة الدينية بجميع أبعادها. وبعبارة أخرى: إنّ مراد شريعتي من "الإسلام المجرد من الملالي" هو "الإسلام المجرد من التخلف"، وإنّ كلمة "الملالي" أطلقت على شريحة متخلفة ورجعية في المؤسسة الدينية.

وهنا نطالب أعداء الدكتور شريعتي أن يتجاوزوا جميع ما ذكرناه، ويتأملوا بأنفسهم ويدققوا في كلامه بتجرد وإنصاف، بعد أن يأخذوا مجموع كلام شريعتي والظروف المحيطة به بنظر الاعتبار، ثم نسألهم: ما هو المراد من عبارة "الإسلام المجرد من الملالي"؟ وهل المراد منها إلغاء المؤسسة الدينية، وحذف الحوزات العلمية؟

أجل، لو قال شخص في جملة واحدة فقط : " لابد من السعي إلى تحقيق الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، لأمكن حمل هذا الكلام على عدّة معان (المعنى الكلامي والمعنى السياسي) ولأمكن القول: ربما كان مراده إمكان أو لزوم إدراك الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية. أو أنّ مراده إمكان الإبقاء على الإسلام بعد حذف المؤسسة الدينية، إلى غير ذلك من الاحتمالات. ولكن هذه الجملة التي تحتمل عدّة معان بعيد كل البعد عن كلام علي شريعتي المتقدم الواضح والصريح.

وعليه، فإنّ كلام شريعتي واضح ولا لبس فيه، وإنّ كل منصف يقرأه لا يذهب إلى سعيه من أجل تحقيق الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية إطلاقا.

استغلال كلام شريعتي للطعن فيه:

ولكن انظروا إلى أعداء الدكتور شريعتي، كيف تشبثوا بهذه الكلمة، وأثاروا حوله كل هذا الضجيج والضوضاء، وصنعوا من الحبّة قبّة. وسعوا من خلال تحريف كلام شريعتي إلى رفع عقيرتهم بالقول: إنّ شريعتي يدعو إلى الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، وقاموا بتعزيره وغيره من المستنيرين بهذه السياط المزيفة. وأساسا إنّ مقولة "الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية" قد صاغها أعداء شريعتي، ولم يتفوه بها شريعتي ولا مؤيدوه، ولم ترد في أدبياتهم أبدا، وإنّما تم تزييف هذه العبارة وصياغتها وإذاعتها وإشاعتها بين الناس من قبل أعداء شريعتي بهدف التقول والقضاء عليه.

كما عمد أعداء شريعتي إلى تزييف مصطلح آخر، وهو مصطلح "السلبيون"، وأرادوا بذلك "الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية"، فعمدوا في الحقيقة إلى اختراع مصطلح مزيّف للتعبير عن معنى وهمي ومزيّف، وذهبوا إلى أكثر من ذلك، حيث اتهموا علي شريعتي بأنه لا يهدف إلى فصل المؤسسة الدينية عن الإسلام فحسب، بل ويهدف أيضا إلى فصل التشيع عن الإسلام أيضا. وأضافوا إلى ذلك قولهم: إنّ الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، هو الإسلام المجرد من الرواية والحديث، وهو نفس ما دعا إليه على سبيل المثال عمر بن الخطاب، حيث قال كلمته الشهيرة : " حسبنا كتاب الله".

والحق أنّ أعداء شريعتي قد أتقنوا الحبكة، ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم، وأخفقوا في نيل مرادهم، حيث قاموا ولم يقعدوا واجترحوا الأكاذيب، ودخلوا في حرب لا ميدان لهم فيها، وأتوا بمقالة ليس لها من قائل، ونسبوا كلاما إلى شخص لا قبل له به، فخبطوا بذلك خبط عشواء.

نعلم أنّ السرقة العلمية انتحال مخالف للأمانة، وأسوأ منه أن تنسب كلامك الصحيح إلى غيرك، والأسوأ منهما المغالطة، وهي نسبة الكلام السخيف إلى غيرك. إنّ هذه المغالطة التي يمكن تسميتها (تشويه كلام الآخرين) تعني حمل الكلام على معنى باطل غير مراد للمتكلم، بهدف إسقاطه وتشويه سمعته. وبعبارة أخرى : أنّ يُتقول عليه ويُنسب إليه كلام لم يقله، ويتهم برأي لا يدين به. وكثيرا ما نشاهد هذه المغالطات في الخصومات، حيث يعمد أحد طرفي النزاع إلى نسبة رأي سخيف إلى غريمه بغية إسقاطه في أعين الناس، ثم يعمل على نقد ذلك الرأي وإبطاله، ليثبت أنّ الحق إنما كان في جانبه، وهذا هو ديدن الذي يحصد أرضا لم يزرعها، أو يفند رأيا لا قائل له.

وقد بلغ التمادي بأعداء شريعتي أن حرّفوا عبارته التي يقول فيها "الإسلام المجرد من الملالي" وحملوها على "الإسلام المجرد من الإمامة" و "الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية" والمراد بالمؤسسة الدينية هنا طبقتها الواعية والمسئولة. نضيف إلى ذلك أن التعبير بـ "الإسلام المجرد من الملالي" قد ورد في ضمن رسالة للدكتور شريعتي، وقد طبعت من دون إذنه ورضاه، وذلك بعد التصرف في مواضع منها لا نعرفها بعينها، وهذه الرسالة عبارة عن هموم ولواعج نفسية ارتأى الرجل أن يبثها لوالده، فلا تمثل (رأيه الرسمي)، وقد أشار شريعتي نفسه إلى هذه الحقيقة في رسالة أخرى على النحو الآتي:

" لم أكتب هذه الرسالة التي كانت في الحقيقة (شقشقة هدرت) إلى سماحة الوالد، مخافة إثارة شجونه وأحزانه، حتى فقدت في تلك المرحلة الزمنية العصيبة والمضطربة، ثم علمت بعد سنوات حيث كنت سجينا أنّ عدوا ماكرا أو صديقا غبيا قام بطبعها ونشرها من دون علمي أو رضاي، بعد أن أضيف إليها بعض التعابير والتفسيرات. وأرجو أن لا يذهب بكم التصور إلى أني إنما أكتب هذا مخافة الفاحشين المحترفين، بل سبب ذلك يعود في الأساس إلى نشر هذه الرسالة، وهي رسالة خاصة اشتملت على حوار ثنائي وهموم سرية لا تعني غير كاتبها ووالده، وقد تمّ تحريفها بشكل لا أرى صلاحا في قراءتها حتى لمن خاطبته بها".

فانظروا إلى أعداء الدكتور شريعتي كيف صنعوا من الحبة قبّة، وأثاروا حوله ضجة وزوبعة كبرى حول لاشيء!.

ولكي تدركوا كيف تذرع أعداء شريعتي بمقولة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية للإمعان في التهويل عليه، لابدّ من الرجوع إلى كتاب (الشهيد مطهري كاشف مؤامرة تأويل ظاهر الدين بباطن الإلحاد والمادية) والذي هو - كما صرّح مؤلفه - مقدمة لكتاب آخر بعنوان (الجذور والمسار التاريخي لحركة الإسلام المجرد من الملالي).

حيث تحدّث هذا الكتاب الذي ينيف على الأربعمائة صفحة عن كل شيء إلا عن الإسلام المجرد من الملالي، ولم يتعرض للقائلين به وما هي أدلتهم، وذلك لسبب بسيط يتلخص في عدم وجود القائل بهذا الكلام، فهو من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع، إلا أن الكاتب قد اتخذه ذريعة للتهويل والبهتان، والملفت للانتباه أنّه حتى بعد مضي أكثر من عقدين من الزمن لم ينشر أو يطبع هذا الكتاب المزعوم والذي يحمل عنوان (الجذور والمسار التاريخي لحركة الإسلام المجرد من الملالي)، وذلك للسبب المتقدم ذاته!

وفي كتاب آخر بعنوان (نهضة الإمام الخميني) تمّ تخصيص فصل لموضوع (جذور فكرة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية). وهناك في هذا الفصل عدّة عناوين على النحو الآتي : (الماسونيون وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية)، و(منظمة الحجتية وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية)، و(نهضة الحرية وأطروحة الإسم المجرد من المؤسسة الدينية)، و (شريعتي وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية).

وفيما يتعلق بـ (الماسونيون وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية)، يجب القول: لا يخلو أمر الماسونيين في إيران، إما أن يكونوا من المسلمين أو من غيرهم، والمسلمون منهم تشهد آثارهم وكتبهم على أنهم لم يكتبوا حول الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية. وأمّا غير المسلمين فإنهم لا يؤمنون بالإسلام أساسا، فضلا عن تفريعاته وشقوقه، وكونه مجردا من هذا الشيء أو ذاك.

وفيما يتعلق بدعوى(منظمة الحجتية وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية) يجب القول: إنّ قائد هذه المنظمة من كبار علماء الدين والبارزين في حوزة خراسان العلمية، وقد نشط في هذه المنظمة العديد من علماء الدين، وحظيت بدعم وتأييد كبار المؤسسة الدينية. وقد كانت هذه المنظمة من أشهر المنظمات التقليدية وغير السياسية في إيران، بل وضد التنوير وضد الدكتور شريعتي على وجه التحديد، وإنّ هذه المنظمة لا تؤمن بالإسلام المجرد من المؤسسة الدينية فحسب، بل تذهب إلى الإسلام المجرد من المتنورين الواعين، وقد حرّمت كتب الدكتور شريعتي. وإنّ من أبعد التهم عن هذه المنظمة هو الاعتقاد بالإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، بل يمكن اتهام هذه المنظمة بأي تهمة أخرى إلا هذه التهمة.

وفيما يتعلق بـ (نهضة الحرية وأطروحة الإسم المجرد من المؤسسة الدينية)، يجب القول: إنّ آية الله الطالقاني كان من أعضاء الشورى المركزية لهذه النهضة. وقد كان لهذه النهضة علاقات طيبة بالمؤسسة الدينية، وذلك منذ تأسيس هذه النهضة عام ١٣٤٠هـ ش/١٩٦١م، وحتى انتصار الجمهورية الإسلامية، كانت المؤسسة الدينية تدعم نهضة الحرية، كما كانت نهضة الحرية تدعم المؤسسة الدينية. وكان المهندس مهدي بازركان الأمين العام لنهضة الحرية يحظى بتكريم المؤسسة الدينية واحترامها، وقد أمره الإمام الخميني بتشكيل الحكومة الثورية الأولى، كما كان عضوا في شورى الثورة، وقد حصلت هناك بعض الخلافات فيما بعد، ولكن لا علاقة لهذه الخلافات بنظرية الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية.

والعجيب أنّ مؤلف الكتاب المذكور قد بلغ به الأمر أنه نسي أو تناسى ما كتبه في المجلد الأول من هذا الكتاب حول علاقة المؤسسة الدينية بنهضة الحرية، حيث قال:" لقد كان دعم القائد الكبير الإمام الخميني لنهضة الحرية في إيران، خطوة إيجابية مؤثرة وقيّمة تضاف إلى مثيلاتها في التوحيد بين القوى الإسلامية وغيرها من القوى المناهضة للاستعمار. وإن الحوزة العلمية في قم التي كانت لها علاقات وثيقة ومنتظمة بقادة نهضة الحرية في إيران، قد عمّقت هذه العلاقة بعد صدور إعلان المؤازرة، وبدأت بتعاون أوثق وأقرب وأكثر تنويعا. وكان يتم نشر الكثير من إعلانات نهضة الحرية وإصداراتها وتوزيعها عن طريق المجاهدين في حوزة قم".

وفيما يتعلق بدعوى (شريعتي وأطروحة الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية)، فإنّ ما قلناه شاهد على بطلان هذا المدّعى. بالإضافة إلى أنّ شريعتي لا يذهب إلى الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية الواعية والمسؤولة، وإنما يذهب إلى الإسلام المجرد من "المؤسسة الدينية المخالفة للإسلام"، وبعبارة أخرى الإسلام المجرد من التخلف والرجعية. ولو كان أعداء شريعتي صادقين لكان عليهم بدل تحريف كلامه، وانتقاد نظرية الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية التي لا يوجد من يقول بها، أن ينتقدوا رأيه الحقيقي المتمثل في "الإسلام المجرد من التخلف". فلماذا يسكتون عن هذا الأمر ولا يأتون على ذكر التخلف والرجعية؟ ألا يعود ذلك إلى خشيتهم من اتضاح مرجع الضمير؟!

الشيء الأخير إنّ هناك من يقول شيئا ويريد به شيئا آخر. فيتحدثون حول نقد الإسلام المجرد من المؤسسة الدينية، ولكنهم يريدون بذلك الإسلام وإيران المجردة من الثلة الواعية المستنيرة، ولكن لحسن الحظ بقيت هذه الأمنية في إطار الرؤيا ولم تتحقق في الواقع الخارجي، حيث إنّ كل محاولة لسحب يد المؤسسة الدينية والمستنيرين عن الإسلام والمجتمع هي

بمنزلة من يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وعلى كل من يتمنى ذلك أن يكفي نفسه وغيره هذا العناء، فقد يضيّق عالم الدين الخناق على المثقف الواعي، والعكس صحيح أيضا، إلا أنّ أحدهم لا ينازع الآخر مكانه ويدّعي لنفسه ما ليس له، إذ لكل منهما أساليبه الخاصة به والتي لا تؤهله لخلافة الآخر واحتلال مكانه. وقد أثبتت تجارب القرنين الأخيرين أنه كلما تعانق علماء الدين والمستنيرون فقد أفلحوا، وكلما تخانقوا فشلوا وحبط عملهم، وكان عدوهم المشترك هو المستفيد والمنتصر. وإنّ نهضة المشروطة (الحركة الدستورية) والنهضة الوطنية والثورة الإسلامية الإيرانية تشهد بأجمعها على هذا المدّعى إذ لم يتعام المحرفون عن ذلك . (نصوص معاصرة، مصدر سابق، ص٩١-٩٩).

طرح شريعتي الأطروحة المعروفة عنه (إسلام بلا مشايخ) ويقصد بهم طبقة رجال الدين الذين اتخذوا الدين موقعا رسميا حد احتكاره، بما لا يجوز لغيرهم الخوض فيه، إضافة لإعطاء أنفسهم الوصاية على الناس، وجعل وجودهم واسطة بين الإنسان وربه. كل ذلك يجده شريعتي بعيدا عن الإسلام، إذ لا كهنوتية في الإسلام، علما أنه لم يرفض علماء الدين، بل اعتبرهم ضرورة اجتماعية وحضارية بكل معنى الكلمة، لذا نوهنا هنا عن ذلك الفهم الخاطئ الذي يؤخذ عادة عن أطروحة شريعتي هذه، سيما توظيفها من قبل المتربصين لتشويه الرجل، وإلا تزول مصالحهم. فهناك فارق كبير بين علماء الدين الذين خدموا الإسلام ومعارفه وحضارته وبين رجال الدين الذين مسخوه، والذين يعول شريعتي أمله عليهم في نهوض الأمة لا على غيرهم، كما يصرح هو بذلك في أكثر من موضع.

اتخذ شريعتي موقفا معارضا لوجود المؤسسة الدينية بالمفهوم السابق في هذا الواقع الذي أضحت عليه في الفترات المتأخرة، إذ اعتبرها مؤسسة فوقية، وهذا لا يعني عداء شريعتي الشامل، بل إنّ شريعتي يخالف المفكرين خارج إطار المؤسسة الدينية من أغلب الاتجاهات الأيديولوجية المعاصرة، في أنهم لا يرون لعلماء الدين أصالة في حياة مجتمعنا، بينما يرى هو عكس ذلك، فهو يقول في سياق ذلك : " أما أمثالي ممن لا تكبله مصلحة الصنف ومنفعة الشغل وحفظ السمعة الدينية، وممن يرى حرمة لحوزتنا العلمية الدينية، ويعتقد بأصالتها، ويعد المسجد والمنبر والمدرسة الحوزوية معقلا لصيانة الثقافة الإسلامية وللاستقلال المعنوي، وملجأ جماهير الأمة، ويعقد الأمل في خلق النهضة الإسلامية وإيقاظ الأمة وتحريك الفكر على الخطيب وطال العلوم الإسلامية بشكل أكبر مما يأمل في الجامعي وأستاذه، فلا ينبغي لنا أن نتجنب النقد، ويجب علينا السعي في هذا الاتجاه ما أمكننا السعي، وإن كان الثمن التضحية بالنفس والسمعة وإثارة السواد والنيل من الشخصية وتشويه جميع عقائدنا وأفكارنا (انظر الأمة والإمامة، ص ١٩).

إلا أنه يفضح هذا المسار الروحاني في المؤسسة الدينية لئلا يقع سوء فهم بهذه الازدواجية تحت هذا الزي الواحد، والتجميل الواحد. بين عالم الدين الذي خدم الحقيقة الإسلامية وبين الروحاني، المتسق في لباسه مع العالم الذي يقوم بخنق ومسخ هذه الحقيقة. لذا ففضح ذلك ضرورة لمعرفة الإسلام الأصيل من جهة، ولإبقاء سمعة العالم الإسلامي نزيهة في قيمها من جهة أخرى.

نقول: اعتبرها مؤسسة فوقية تفرض هيمنتها (استغلالا واستعبادا واستبدادا) للناس باسم الإسلام، وبتبريرات شرعية بعيدة عن روح الدين، فمع اعترافه وتعظيمه لفضل علماء الدين لكنه لا يجد دورا لرجال الدين المحترفين (أي الذين اتخذوا الدين حرفة يعتاشون عليها). فانتقد تحول بعض رجال الدين إلى مؤسسة شبه رسمية، وتحولها بهذه الصفة إلى مهنة وحرفة للكسب، فعارض بشدة استغلال الدين ضد الدين، وخشي من أن " يتحول الإسلام إلى فاشية ". فلم يتقبل صفة رجال الدين، بحيث يتحولون في وجودهم المجتمعي إلى طبقة خاصة، كما هي مع كثير من الأديان المنحرفة، فليس هناك في الإسلام إلا "عالم دين". وهاجم ذلك المنحى التاريخي للمؤسسة الدينية بسخريته اللاذعة تلك الموجة التي أرهقت الدين وأضاعته ومسخته، فغدا الناس ينظرون إليه بريبة.

في نص طويل لشريعتي يمتلك تفصيلا - كان من الضرورة إدراجه كاملا- يرفع الشبهة والإجمال في سمت عدائه للاتجاه الذي يرفضه داخل المؤسسة الدينية، يقول فيه :" أنا لا أعتبر الروحانيين والعلماء الإسلاميين وجودا واحدا، بل أراهما متضادين. لم يكن عندنا في الإسلام جهاز طبقي أو نسقي باسم "الروحانية". هذا الاصطلاح جديد جدا، ومصداقه حديث الظهور، عندنا في الإسلام "عالم" في مقابل غير العالم، وليس "روحاني" في مقابل "الجسماني". يتساءل البعض: لماذا أنا أدافع وبشكل حاد في بعض الأحيان عن هذا المجتمع - أي الجمع الديني- وأبدي إيماني الراسخ واعتقادي بقدرتهم، وأحيانا أخرى أحمل عليهم بأشد الحملات قسوة. لماذا هذا التناقض؟

إنّ هذا التناقض والتضاد هو في الواقع موجود ما بين "الروحاني" و "علماء الإسلام"، وللأسف فإنّ لكليهما زيا واحدا غالبا، ولهما قاعدة ظاهرية واحدة في المجتمع الديني، وإن كان دورهما متضادا. فالذين أصفهم بالروحانيين هم هؤلاء الذين تقتصر صلتهم الوحيدة بالناس بـ" يد للأخذ ويد للتقبيل " ! ومثل هؤلاء عادة لا يعرفون شيئا عن الإسلام (التاريخ، العقائد، القرآن، السنة، التشيع، فلسفة الأحكام، الروح والهدف الأصلي لرسالة النبي، مدرسة علي، نهضة الحسين، العدل، الإمامة، الانتظار ...) لهم دور يشبه تماما دور الحاخام والرهبان والقسيسين والموبدان (علماء المجوس) ... غصن

من شجرة الروحانيين لجميع أديان العالم. الشجرة التي قطعها الإسلام، ولكن الطبقة الحاكمة أو الجهاز الحاكم أوجد مثل هذا الجهاز الرسمي تدريجيا نظرا لحاجته إلى قاعدة من الجماهير، لتبرير الوضع القائم وتخدير الناس، أي تحريف حقائق الدين واستخدامه لصالح السلطة.

كان منذ البداية لدى السنة، من عصر عثمان حجرها الأول (كعب الأحبار)، ثم في خلافة بني العباس، صنعوا (الروحاني) بالاعتراف الرسمي بالمدارس الفقهية الأربعة، وطرد الاجتهاد ورفض المذهب الجعفري الذي هو تجسيد لفكر الصادق وفقهه. وعند التشيع، وبعد السلالة الصفوية التي ورثت نظام الملكية والخلافة من الأسلاف ولكن بزي التشيع المقدس، كان على التشيع أن يرحل من بين الناس، لينتقل إلى "مسجد الشاه" بجوار "عالي قابو" القصر الملكي.

لم يقم العالم بمثل هذا الدور، صنعوا الروحاني ليكون مساعدا وزميلا للشرطة، حيث يشكل خُفه مع الجزمة، زوج حذاء في رجلي الشاه سلطان سيد حسين ! " (الإنسان والإسلام،ط١/١٩٩٢م، دار الروضة - بيروت، ص ١٤٦).

ويجب أن يكون القارئ حصيفا ويقظا وهو يقرأ النصوص التي ننقلها لشريعتي وهو يتحدث بنقد جارح حول رجال الدين، أن شريعتي كتب هذا النقد، وحاضر وحذر وتكلم، كل هذا كان في فترة السلطة الشاهنشاهية، فهو في مواجهة رجل الدين الذي باع دينه من أجل دنياه، وفي سبيل اللحاق بركب الشاه وهو خريج حوزة قم، وعليه عمة العلماء، هنا يجب أن يتنبه القارئ لكل ذلك، ولا يربط بين كلامه وواقع الثورة الإسلامية والجمهورية التي هي تحت ظل الخميني ومن بعدها السيد علي الخامنئي، فشريعتي بكلامه يعني علماء السوء، ووعاظ السلاطين، والذين وقفوا صدا منيعا بفتاواهم ضد الناس، وضد الدين الحقيقي، دين علي والمعصومين (ع)، الدين الثوري والذي يبحث عنه شريعتي ويدعو له باستمرار وفي كل خطبه وبياناته وكتبه، والذي يسميه ثورة أبي ذر.

حينما يخوض شريعتي في واجبات رجال الدين يجد أن :" معظمهم ليسوا عالمين بشؤون الفقه والدين، ولا بالتاريخ وأوضاع المجتمع، ليسوا أدباء ولا علماء، ولا متخصصين في أي مجال، إنهم يدّعون التخصص في الدين !، والدين ليس مهنة ولا يمكن التخصص فيه كحرفة، إنهم يقومون بتقبل النذور ويدعون الشفاعة، ويمارسون أعمالا هي من مهمة الطب، ويدعون العلم بالغيب، و ... ، وهذه الأمور كلها بدع مستحدثة، نهى عنها الرسول ولم يمارسها هو والصحابة". (هكذا تكلم علي شريعتي، فاضل رسول، ط٣/١٩٨٧م، بيروت، ص ٥٦).

يمر شريعتي محللا بخبرة اجتماعية وبوعي لجوهر الظاهرة، وما يدور في فلك الحوزات العلمية، وتصديرهم المفاهيم الدينية باسم الإسلام، ومنحى تأدية المسؤولية وخللها وضررها ووضع رجال الدين، ونشوئهم وتشكلهم ونوع وجودهم في المجتمع. يقول رحمه الله : " فطلاب العلوم الدينية الذين لا يستطيعون - لعدم استعدادهم أو وجود مشاكل عائلية - إكمال تعليمهم والوصول إلى درجة الحكيم أو المحدث أو الأصولي أو المتكلم أو المفسر أو الأديب أو يصيرون شيئا في المعقول والمنقول، لا يجدون محيصا من الإمساك بخيط المنبر- الاقتصار على الوعظ وقراءة العزاء- وهؤلاء على قول الشهيد مرتضى مطهري : " إنّ الحسين قتل مرتين، مرة على رمضاء كربلاء، ومرة على أعواد المنابر". وماداموا قد عجزوا عن دراسة العلوم الإسلامية، عليهم أن يقوموا بالدعوة والتبليغ". مع هذه الكلمة "التبليغ" يضع شريعتي هامشا ليدخل إلى بؤس هذه الإشكالية أو البلوى بالأحرى. يقول في هامشه متحسرا :" هذه هي إحدى علل انحطاط الإسلام وضعفه والرؤية الدينية المنحطة والمبتذلة عند قومنا، إذ يلزمهم تعلم الدين على أيدي أناس أرادوا أن يتعلموا الدين فلم يستطيعوا، لا تظنوا أني أبالغ (الكلام لشريعتي) هل سمعتم مرة واحدة أن أحد العلماء أو المجتهدين أو الفقهاء أو مراجع التقليد قد ذهب إلى المنبر وتحدث إلى الناس؟ إنّ المنبر دون مستواهم، إنّ مكانهم هو المحراب، الخلاصة إنه من بين طلاب العلوم الدينية ، أولئك الذين لديهم الاستعداد والقدرة على مواصلة العمل والتعب الشديد ويصلون إلى درجة الدكتوراه (الاجتهاد)، ينفصلون عن الناس ويختفون في (حفرة) انفرادية تسمى المحراب، وعلاقتهم مع الجماعة منحصرة في أداء صلاة الجماعة والقيام بالاستخارة والفتوى وحساب الخمس والزكاة وسهم الإمام والبيوع وختم مجالس العزاء وقراءة صيغة عقد الزواج لعدد من الأفراد المحدودين في العائلات الفخمة والارستقراطية والمحترمة .. الخ. والآن فإن هذا الطالب الراسب (الذي طرد من المدرسة) ترك الدراسة، وينبغي عليه مضطرا أن يختار المنبر بدلا من المحراب، ويعلم الناس ما لم يستطع هو تعلمه، وفي أول خطوة تطرح أمامهم قضية إيجاد السوق".

الإشكالية الأكبر في المؤسسة الدينية والتي تمثل أس الانحراف هي مسألة الارتزاق والتي تشكل أحد أبعاد القاعدة التي اعتبرها شريعتي مناط الانحراف في التاريخ وهي (الخوف، الجهل، المنفعة) .. والأس الأجذر في هذه الثلاثية هو المنفعة، والتي اعتبرها المفكر الإيراني مطهري أم الآفات في الحوزة العلمية، وبالغ تلك الانتباهة للمفكر الإيراني سروش في أنّ سر نجاح الأنبياء هو أنهم تصدوا لهداية الناس دون منة ولا أجر.

يتناول شريعتي هذا المنحى بتأسف بالغ وإحباط لأمله في نهوض الأمة طالما يأخذون دينهم من هؤلاء الذين يعرضون مفاهيم لا يفهمونها هم أنفسهم،

فيعرض محللا ناقدا وساخرا من طريقة إعدادهم محاضرات المنبر، والمصادر المعتمدة، والأسلوب والمنهج والهدف المخجل، وطريقتهم في النجومية، وغاياتهم المادية، وجهلهم الشديد، وخلطهم بين المذاهب، وإثارتهم الأحقاد ضد الآخر، الذي يعتبرونها من وجوه الدين وجهادا في سبيله.

يوجه شريعتي ظاهرة ادّعاء رجال الدين الوصاية على الدين، على أن ذلك بغية احتكارهم للدين كحرفة مغلقة بهم، كيما تبقى أداة للسيطرة على الناس وإدامة مصالحهم ووسيلة لتبرير فسادهم، إضافة إلى دسهم تلك التشويهات وإعطاء بعدها القدسي كشرط عقدي، بحيث يكفرون ويبرئون على أساس تافه اختلقوه وأعطوه سمة الأصل في الدين، بينما لم يكن لديهم معيار وأس صحيح لها، فمعظمها ينبذها العقل ويسخر منها. (علي شريعتي وتجديد التفكير الديني، عبد الرزاق الجيران، ط١/٢٠٠٢م،دار الأمير، ص ١٨١ و ص ١٩٩).

٣. موقفه من الدولة الصفوية :

وجّه علي شريعتي نقدا لاذعا للدولة الصفوية، وقد كال لها سيلا من الاتهامات، ورماها بكمٍ هائل من العيوب والأخطاء والجرائم في حق التشيع أولا وفي حق الإسلام ثانيا، وهي ليست الدولة التي تمتاز بالنقاء والطهارة الدينية كما نتصورها في أذهاننا ومخيلتنا، بل هي كما يرى شريعتي حرّفت التشيع من مساره الأصيل والحق، مسار أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين (ع) إلى مسار كله غلو وخرافة وزيادات أقرب ما تكون للشرك والانحراف عن خط الإسلام وخط التشيع العلوي الطاهر النقي. وربما هذا النقد الجارح والصريح والمباشر الذي كتبه شريعتي يكون أول نقد ينطلق من مفكر إيراني وشيعي اتجاه الدولة الصفوية التي هي في نظر العلماء ورجال الدين رمز التشيع ومنبع الدين وهي التي احتضنت الفقهاء والعلماء ومنها انطلقت علوم أهل البيت (ع) وكانت سدا منيعا أمام الغزاة والحاقدين والمتربصين بالدين والمذهب، خصوصا أمام الدولة العثمانية، بينما شريعتي إزاء هذا كله له كلمة وله رأيه المستقل، مما أغضب رجال الدين في إيران، وجعلهم في ثورة عارمة ضده، واعتبروه عدوا للمذهب وللتشيع وللدولة الصفوية حصن التشيع، وهذا يعني مزيدا من الكتابات ضده، كتابات تحاول أن تعريه من كل شيء، من الدين ومن المذهب ومن الولاء ومن الفهم الصحيح للتاريخ وللعقيدة وللفكر.

برز رأي شريعتي في الدولة الصفوية جليا في كتابه ذائع الصيت "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" ويبدو واضحا من خلال عنوان الكتاب الدال أن شريعتي يذهب إلى أن الصفويين حرّفوا التشيع الأصيل الذي بدأ على يد

أمير المؤمنين (ع) وهو الذي أسماه التشيع العلوي، واخترعوا تشيعا ليس له صلة من قريب ولا بعيد بأمير المؤمنين ولا بأهل البيت (ع)، وهو الذي أطلق عليه التشيع الصفوي، ولو يعاين أمير المؤمنين والمعصومون (ع) هذا التشيع لأنكروه وتبرؤوا منه لا محالة. لأنه لا يمثل أهل البيت، ولا يلتقي مع أفكارهم ومبادئهم وتوجهاتهم وعقائدهم، فهو بعيد عنهم كل البعد، بل محل غضب من أهل البيت (ع)، فهو تشيع يقوم على الطقوس، والغلو، والانحراف عن خط الرسالة وعن خط أهل البيت (ع)، تشيع يرتمي في أحضان السلاطين تحت مبررات واهية، ومنافع دنيوية.

ومن الممكن أن نلخص نقد شريعتي للدولة الصفوية وللتشيع الصفوي إن صح التعبير، والذي نشأ على يد العلماء ورجال الدين الذين ارتبطوا بالصفويين. قبلها نحب أن نشير إلى أن الكتاب كان في الأصل عبارة عن محاضرة ألقاها شريعتي في حسينية الإرشاد على مدى ٣ ساعات في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك بتاريخ ١٩٧١/١٠/٢٩م، وقد أجرى بعد ذلك تعديلات وإضافات لتنشر هذه المقالة على هيئة كتاب يتألف من ١٤٣ صفحة في ربيع عام ١٩٧٢م. وأفكار الكتاب تتلخص في :

يعتقد شريعتي بأن نشوء الدولة الصفوية كان نقطة انعطاف في مسيرة الحركة الشيعية، إذ تحولت الدولة الصفوية إلى دولة " رجعية استبدادية متخلفة " مثيرة للفتنة المذهبية والطائفية، محطمة لوحدة الإسلام ومتعاونة مع الغرب المستعمر ضد بلاد المسلمين. إنّ نشوء الدولة الصفوية في نظر شريعتي هو هزيمة للتشيع العلوي الأصيل، وانتصار لما يسميه بالتشيع الصفوي. ويعتقد شريعتي بأنّ التشيع الصفوي هو نقيض التشيع الأصيل وعدوه اللدود ولا يوجد أي وجه مشترك بينهما.

إنّ علي شريعتي يشكك بقسم كبير من التراث التاريخي للشيعة، والذي دوّن في العهد الصفوي، وقد تناول هو بالنقد بعض ذلك التراث، مفندا الروايات التي تشوه تأريخ الأئمة، وتبرر القبول بالأمر الواقع وطاعة أولي الأمر، ومفندا أيضا ما ورد في ذلك التراث من خرافات، وغيرها من القضايا.

إنّ تقييمه هذا يدفعه للمطالبة بإجراء فحص دقيق لتراث الشيعة، وبإعادة نظر شاملة في التراث الشيعي- الصفوي، الذي يقول شريعتي بأنه يسود الأوساط الشيعية اليوم.

إنّ شريعتي وهو يستعرض تأريخ الإسلام ورموزه، يتساءل باستمرار ويدقق باستمرار، فهو يؤمن بأن هنالك صورا مشوهة قدمت لأجيالنا عن تأريخنا الحقيقي، وعن قادة ديننا وأمتنا، وقد ساهم في عملية التشويه هذه الأعداء الخارجيون، إضافة إلى المؤرخين والقيمين الرسميين على شؤون الدين، والذين غيروا في التاريخ وبدلوا خدمة لمصالح الحكام والمتنفذين. لذلك نراه

وهو يكتب تاريخ الإسلام وسير قادته ورموزه، لا يكف عن طرح السؤال: أي إسلام، أي تشيع، أي علي، أي فاطمة .... وبالرغم من أنه يقدم أجوبة على بعض هذه التساؤلات، إلا أنه يعترف بأن أجوبته هي محاولات أولية، وإعادة تقييم ذلك التأريخ هو عمل كبير ومحفوف بالصعاب.

الوحدة الإسلامية:

من المآخذ الرئيسية لعلي شريعتي على الدولة الصفوية والتشيع الصفوي، هو تفريقها لصفوف المسلمين وتفتيتها لوحدة الأمة الإسلامية، إضافة إلى تسعيرها لنار الخلافات المذهبية. إنّ شريعتي كرّس قسما كبيرا من كتاباته، للدفاع عن فكرة وحدة الأمة الإسلامية والتقريب بين المذاهب الإسلامية. ويتميّز شريعتي بموقفه من الدولة العثمانية بشكل خاص، حيث يعتبرها رمزا لكيان الأمة الإسلامية ووحدتها، ولصمود الشرق بأكمله أمام حملات الغرب القديمة منها والحديثة، وفي هذه القضية نجد أنّ معيار شريعتي هو معيار سياسي بالدرجة الأولى، فهو ينطلق من مسألة الدفاع عن استقلال المنطقة والحفاظ على وحدتها، ويخرج بذلك عن التقييمات الصادرة على الدولة العثمانية من منطلق مذهبي أو قومي. هو يقول ذلك ويكتبه ويعلنه بكل جرأة في الوقت الذي يرى فيه علماء الدولة الصفوية ومؤرخوها المتأخرون أن الدولة العثمانية السنية هي العدو الأول للتشيع، لذا يجب محاربتها والتصدي لها ولتوسعاتها، والوقوف صفا واحدا مع الحاكم الصفوي وتأييده ومساندتها في حربه مع هذه الدولة الفاسدة، فنحن هنا أمام منطقين وتفكيرين لا يمكن أن يلتقيا على صعيد واحد، هذا التفكير الذي تبناه شريعتي من المستحيل أن يؤيده ويقف في صفه واحد من رجال الدين، سواء المعاصرين للدولة الصفوية أو حتى من المعاصرين لنا، ومن الطبيعي أن يسقطه رجال الدين ويحاربوه ويسيئوا الظن به وبنواياه جرّاء هذه الأفكار الشاذة عن القطاع العام والمخيلة الجمعية للإيرانيين وللشيعة قاطبة، فهو يغني في السرب وحده !! فأين هو وأين هم، في النظرة التي يحملها اتجاه الدولة العثمانية، انظر كيف يقرأ الأحداث وهم كيف يقرؤونها. ولعله أول كاتب ومفكر شيعي يقف هذا الموقف الإيجابي اتجاه الدولة العثمانية، ويقف الموقف السلبي والناقم من الدولة الصفوية.

إنّ هذا الاتجاه التوحيدي، وهذا الأفق الواسع في طرح المسائل، يلاحظ تقريبا في جميع كتابات شريعتي، لكننا سنعرض لمسألتين تناولهما هو بشكل خاص، ألا وهما الموقف من الوحدة الإسلامية عبر تقييم الدولة العثمانية، والموقف من الصراعات المذهبية ومن حركة التقريب بين المذاهب التي نشطت لفترة من الوقت في الوطن العربي.

الدولة العثمانية ووحدة المسلمين:

انَ شريعتي يعتبر معركة الدولة العثمانية مع الغرب، هي معركة مصير الإسلام ومصير العالم، وإن هزيمة الإسلام هي التي فتحت الطريق أمام سيطرة النظام الرأسمالي الذي عمّ العالم عن طريق العنف والقهر، والذي لا نزال نعاني من شروره وقمعه. إذن، فهو يعتبر تلك المعركة هي أهم حدث في التاريخ الإسلامي خلال القرون الأخيرة، والفرصة الأخيرة لإعادة بناء حضارة إسلامية. لذلك تعتبر هذه الناحية هي الناحية الجوهرية في تقييمه للدولة العثمانية.

من هنا أيضا، يأتي موقف شريعتي ضد الدولة الصفوية الإيرانية، فهي رغم ادّعائها الإخلاص للتشيع، بل وترويجها الرسمي للتشيع، إلا أنه يعتبرها العدو اللدود للإسلام ولوحدة المسلمين، إذ إن نهوض الدولة الصفوية شرق الدولة العثمانية، وإثارتها المعارك ضد العثمانيين متسترة بالصراع المذهبي الشيعي- السني، كان ضربة غدر من الخلف، وجهت للمسلمين، وقد تم هذا بتعاون وثيق بين الدولة الصفوية والدول الاستعمارية الغربية، وإن الدور الذي لعبه الصفويون كان من أهم أسباب هزيمة العثمانيين أمام حملة الغرب.

هذه العبارات وهذه الرؤى أشبه ما تكون برؤى أحد السنة أو السلفية من موقفه من الدولة الصفوية الشيعية قبال الدولة العثمانية السنية، وهذا ما جعل رجال الدين يتهمون شريعتي بالتسنن، وبالخروج عن المذهب، هم لا يؤمنون بالاختلاف في وجهات النظر، ولا يتقبلون تعدد الرؤى تحت أي طائل، من هنا كانت الثورة العارمة التي انطلقت من رجال الدين ضده، ومن هنا لم تتوقف السهام والرماح من الداخل الشيعي نحو صدر شريعتي، وقلبه المكدوم.

انَ الأهمية التي يوليها شريعتي للموقف السياسي للدولة العثمانية والدولة الصفوية، (إحداهما صامدة بوجه الاستعمار، والأخرى متعاونة معه)، يأتي موقف شريعتي من الدين ومعيار التدين والإيمان نفسه. فهو يعتقد بأن الحفاظ على وحدة المسلمين، وصيانة بلادهم والجهاد ضد المستعمرين، إنما هو واجب ديني على المسلمين، بل هو معيار لصحة إسلامهم. أما من يدّعي الإيمان، ويحصر ذلك بإيمان قلبي وبممارسة شؤون العبادة، فلا يمكن اعتباره مسلما.

ثم أين كانت مصلحة المسلمين آنذاك ؟ إن الدولة الصفوية - كما يقول شريعتي - دافعت بشكل مغال فيه عن التشيع والإسلام، لكنها خانت المسلمين وتعاونت مع أعدائهم، وفتتت صفوفهم، ليس هذا فحسب، بل يؤكد شريعتي على أنّ التمسك المبالغ فيه بالتشيع وترويج التعصب المذهبي

الضيق الأفق، كان مقصودا من قبل الصفويين لكي يقدموا للإيرانيين تغطية لحربهم مع العثمانيين وجيرانهم المسلمين، ولكي يعبئوا جيوشهم ضد المسلمين بدلا من تعبئتها ضد الأعداء المتربصين بالإسلام وبالشرق عموما.

وحدة اتباع المذاهب الإسلامية:

يقول شريعتي: إن مثيري الفتن المذهبية لدى الشيعة يقدمون للناس نصوصا وأقوالا من كتاب ورجال دين سنة تهاجم الشيعة والإمام علي و ...، وذلك لتشويه الوجه الحقيقي للتسنن المحمدي، بينما لا يشيرون إلى أعمال تاريخية خالدة قام بها علماء دين من السنة حول تاريخ الشيعة وأئمتها. ثم إن مثيري الفتنة المذهبية لدى السنة، يشيرون إلى نصوص من بعض فرق الغلاة، ليقولوا للناس بأن الشيعة غير مسلمين، وهم أعداء للسنة و.....، إنّ هذين النمطين إنما يكملان بعضهما كما يقول شريعتي، ويضيف : " إنّ التسنن الأموي والتشيع الصفوي هما شبيهان، وهما يكملان بعضهما البعض، ولا علاقة لهما لا بالتشيع العلوي الصحيح ولا بالتسنن النبوي الصحيح".

يقول شريعتي :" إنّ المعركة المثارة بين الشيعة والسنة، هي معركة التسنن الأموي والتشيع الصفوي، وهي مثارة من أجل إلهاء المسلمين عن معركة الإسلام ضد الاستعمار، والإسلام ضد الصهيونية، إنها معركة تطرح قضية اغتصاب (فدك) لتلهي المسلمين عن اغتصاب فلسطين".

يورد شريعتي مقتطفات من "منطق رجل الدين الصفوي"، حيث يشير إلى كتب ألفت في إيران لتشويه حياة الخليفة عمر بن الخطاب (ر)، كتب لم يتورع أصحابها عن التزوير والاختلاق والاستشهاد زورا وبهتانا بأقوال منسوبة للإمام جعفر الصادق (ع) ضد عمر بن الخطاب، وبعد ذلك يورد مقتطفات من كتب بأقلام علماء معاصرين للشيعة، كنماذج على "منطق عالم الدين الشيعي". فيستشهد بأقوال للسيد شرف الدين الموسوي (لبنان) في كتابه (المراجعات) : "إنّ الخلفاء - أبو بكر وعمر - تحلوا بفضائل لا يمكن أن ينكرها سوى معاند للحقيقة، والله نحمد إذ لسنا بمعاندين ولا منكرين للحق"، "إنّ الخلاف بين الشيعة والسنة هو خلاف بين مجتهدين من دين واحد، يستنبطون حكما من مرجع ومصدر واحد".

ويشيد علي شريعتي بشكل خاص بحركة التقريب بين المذاهب، ويعتبرها تحولا إيجابيا عظيم الأهمية في تأريخنا المعاصر، بعد قرون من الظلمات والفتن المذهبية. إنه يعتبر فكر التقريب "نقطة انعطاف هامة في الفكر الإسلامي الإصلاحي".

ويستشهد شريعتي بمواقف بعض كبار علماء الدين الشيعة من أمثال الشيخ حسين كاشف الغطاء، الشيخ محمد جواد مغنية، آية الله محمد صالح الحائري المازندراني (أحد مراجع التقليد)، ليثبت أن الاختلاف بين الشيعة والسنة هي ثانوية جدا. ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا بعض الاستشهادات الهامة التي أوردها شريعتي واستند إليها في موقفه:

يقول الشيخ حسين كاشف الغطاء:

" إنّ هدف التقريب هو جعل المسلمين قريبين بعضهم من بعض، كي لا تكون الاختلافات الفقهية سببا في تباعدهم وإثارة العداوة بينهم. إنّ الفرق الكبير في فقهنا مع السنة هو في مسألة الإمامة، التي لا علاقة لها بالمسائل المطروحة اليوم في المجتمع الإسلامي، والمسألة الأخرى هي لعن الخلفاء الثلاثة، وهو ما يعارضه معظم الشيعة، وورد عن الأئمة أنهم نهوا عنه بشدّة.

ولو كان المسلمون يدا واحدة، لما خسروا بلدانهم وأراضيهم ولما استطاع شعب صغير أن يهزم البلدان الإسلامية. لذلك من الواجب على كل الفرق الإسلامية أن تضع خلافاتها جانبا. إن إثارة هذه الخلافات واستمرارها، إن لم تكن حراما في حينها، فهي حرام في وقتنا الحاضر حيث يحاصرنا الأعداء من كل جانب". ويقول الشيخ محمد جواد مغنية :" إنّ الإمامة هي من أصول المذهب وليست من أصول الدين، وإن إنكار الإمامة لا يؤدي إلى الخروج عن الدين. وفي كتب الشيعة توجد أحاديث وأقوال كثيرة، منها الصحيح ومنها ما هو غير صحيح، إذن فكل رأي موجود في كتاب شيعي لا يعني كونه مقبولا من قبل الشيعة. إنّ عليا (ع) نفسه كان مثالا للتضحية والمرونة مع الأصدقاء والخصوم، وكان قدوة لنهج التقريب والوحدة. إنّ مسألتي الإمامة والخلافة هما منفصلتان عن بعضهما ويمكن التوفيق بينهما، إنّ الشيعة لا يعتقدون بأن القرآن محرف، بل ويدينون أي ادّعاء من هذا القبيل. لذلك كله، فإن جميع الفرق الإسلامية تنتمي إلى ملة واحدة، وإنّ الاختلافات الفقهية بينها هي نتيجة للاجتهاد".

أما آية الله الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني (أحد مراجع التقليد للشيعة)، فيقول :" الإمامة والخلافة مسألتان منفصلتان، ويمكن التوفيق بينهما، ففي نظر الشيعة لا يشترط أن يكون الإمام خليفة، ولا توجد جريمة أكبر من بث الخلافات والمعارك بين الناس، بسبب الخلافة والإمامة".

أما السيد محمد تقي القمي، الذي كان أمين سر مجلس درا التقريب فقد كتب يقول: "إذا عدنا لجذور المذهبين وأسسهما يمكن أن نقول بأن جميع المسلمين هم شيعة لأنهم من محبي أهل بيت الرسول الأكرم (ص)، أو أنّ

جميع المسلمين هم من السنة، لأن كل مسلم يقبل أي حديث أو سنة يعود إلى الرسول (ص) عبر مسند موثوق. لذلك يمكننا القول بأننا جميعا نعتبر شيعيين وسنيين وقرآنيين ومحمديين".

بعد استشهاده بعلماء الشيعة هؤلاء، يستشهد شريعتي بكلام للإمام علي (ع) نفسه حول عمر بن الخطاب، ويستغرب، كيف يجرؤ بعض أدعياء التشيع والإخلاص للإمام علي (ع) على أن ينظروا بشكل معاكس تماما لتقييم الإمام علي (ع) نفسه.

يقول الإمام علي (ع) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

" لله بلاء فلان، فقد قوّم الأود، وداوى العمد، وأقام السنة، وخلف الفتنة. ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها وسبق شرها. أدّى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه، رحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال، ولا يستيقن المهتدي".

ويخلص إلى القول بأن الخلافات بين المذاهب في بدايتها، كانت خلافات فكرية وفقهية ضمن مدرسة الإسلام، ولكنها تفاقمت وشوهت وأعطيت أبعادا جديدة في عصور انحطاط الحضارة الإسلامية، وخصوصا في القرون المتأخرة وأثناء صراع الدولتين الصفوية والعثمانية.

يقول بأن مؤسسي المذاهب السنية الأربعة امتازوا بمواقف وحدوية مرنة، وقد ثابروا على ذلك رغم محاولة الخلفاء العباسيين تشجيعهم على توسيع شقة الخلاف، باعتبار مذاهبهم هي المذاهب الرسمية الوحيدة وإغلاق باب الاجتهاد. ويضيف شريعتي بأن الخليفة أبا جعفر المنصور عرض على مالك (مؤسس المذهب المالكي) بأن يعتبر مذهبه هو المذهب الرسمي الوحيد ويأمر بتعميمه في البلدان الإسلامية، لكن الإمام مالك رفض وأجاب الخليفة: دع الناس أحرارا فيما يختارون. ثم إن الإمامين الشافعي وأبا حنيفة اعترفا بأن فتاواهما وآراءهما إنما هي محاولات للتنظير لقضايا معينة، وحذرا الناس من الأخذ بها دون دراسة وتمحيص.

في ذلك العهد كان رواد المذاهب السنية وقادتها يحتفظون بتقدير خاص لأئمة الشيعة وخصوصا علي بن أبي طالب وجعفر الصادق (ع) (الذي اعترف الجميع بمنزلته العلمية)، وينقل شريعتي عن الإمام الشافعي بيتا من الشعر يقول فيه:

ومات الشافعي وليس يدري　　　علي ربه أم ربه الله !

ولكنه يضيف: ولكن القيمين الرسميين على أمر الدين في بلادنا فرضوا حصارا على أفكار الناس ومعلوماتهم، وزوروا حقائق التأريخ، وأخفوا عنا

كل ما يؤلف بين القلوب ويجمع الصفوف، حتى قد لا يصدق بعض المتأثرين بدعايات التشيع الصفوي بأن أقوالا كهذه عن أئمة الشيعة صدرت عن أئمة السنة.

يطالب شريعتي بالعودة إلى الأصول، وإلى ما هو مشترك، يدعو الشيعة للعودة إلى التشيع العلوي الصحيح والانطلاق منه، وتنقية المذهب مما علق به من تشويهات ومواقف متعصبة خاطئة. كما يدعو السنة للانطلاق من التسنن المحمدي الصحيح، وإذ ذاك يكون الوصول إلى طريق واحد أمرا ممكنا. ويدعو شريعتي للاقتداء بالإمام علي الذي كرّس ٢٥ عاما من حياته من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين، إلى أن فرضت عليه الفتنة فرضا.

إنّ شريعتي يستدرك في مكان آخر، بأنه لا يخوض في تفاصيل الخلافات الفقهية، لأنها ليست من اختصاصه، لذلك يبقى في إطار المبادئ والخطوط العامة. ويقول:" إنّ موقفي من هذه المسألة سيبقى متوازنا وعمليا، إذ أنني لا اقف موقفا ثقافيا مجردا فأقول لا يوجد فرق بين التشيع والتسنن، ولا أقف موقفا رجعيا ومغرضا، فأنجرّ للصراعات الطائفية والمذهبية، وأعتقد بأنّ خوضها أهم من النضال ضد الاستعمار، كما يفعل البعض. إنّ شعاري هو: إذا كانت وحدة التسنن والتشيع غير ممكنة، فإنّ وحدة الشيعة والسنة هي ممكنة وهي ضرورة حياتية".

يؤكد شريعتي على معارضته لمحاولات بعض رجال الدين الشيعة طرح التشيع بشكل يشبه دينا جديدا أو نقيضا للإسلام. إنّه يؤكد اعتقاده بأنّ التشيع إنّما هو مدرسة من مدارس الإسلام، وهو نظرة معينة وفهم معين للإسلام ولا شيء غير ذلك.

نقده للصفويين:

إنّ الصفويين كما يقول شريعتي حرّفوا التشيع الصحيح، وحوّلوا مركزه من أكواخ الفقراء وصفوف الجماهير إلى قصور الحكام، وكوّنوا مؤسسة دينية تخدم سلطتهم السياسية، مؤسسة لا علاقة لها بمبادئ التشيع وتراثه الأصيل. ويضيف شريعتي، بأن كل الألقاب التي أسبغت على رجال الدين " آيات الله العظام، حجج الإسلام والمسلمين ..." هي ألقاب بقيت لنا من العهدين الصفوي والقاجاري، حيث أسبغ السلاطين تلك الألقاب على رجال الدين ليساهموا في إعلاء شأنهم وإعطائهم هيبة بين الناس، وذلك لقاء قيام رجال الدين بتبرير السلطة الحاكمة شرعيا، ويعود شريعتي للتاريخ مرة أخرى ليؤكد بأن الرسول (ص) وكبار الصحابة والمجاهدين الأوائل في الإسلام وأكثرهم علما، لم تكن لهم هذه الألقاب المضخمة، إذ ظلوا مع بقية المسلمين إخوانا في الدين، مستغنين عن أية امتيازات وألقاب.

ويورد شريعتي نصوصا بأقلام كبار رجال الدين في العهد الصفوي، وهي مليئة بمدح السلاطين وتبجيلهم بشكل أسطوري، وإسباغ صفات خيالية عليهم، ويقارن ذلك بالمواقف المبدئية الرصينة للإمام علي (ع)، وأئمة من أمثال الحسين بن علي (ع)، صمدوا في وجه السلاطين في ظروف غير متكافئة، وظلوا أوفياء لقيم الإسلام، ولمبدأ الشهادة من أجل الحق. ينعت شريعتي التشيع الصفوي الذي تبلور في العهد الصفوي بالتشيع المتغرب، فهو يقول بأن تغرب الدولة الصفوية لم ينحصر في المجال السياسي (حيث تعاونت مع الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية، أملا في أن تساهم هذه الدول في تحديث الجيش الإيراني وتسليحه)، بل تجاوزه إلى المجال الديني أيضا، فالمراسم الدينية لدى الصفويين أصبحت شبيهة بمراسم المسيحيين في القرون الوسطى: بناء معابد فخمة، جعل رجال الدين قيمين رسميين على الدين، إعطاء رجال الدين حق تكفير الناس أو الغفران لهم. ويضيف شريعتي، بأن المراسم المبالغ فيها أثناء عاشوراء (ضرب الجسم بالسلاسل وإجراء التمثيليات) هي الأخرى اقتبسها الصفويون من الغرب، حيث يروي لنا التأريخ احتفالات دينية مسيحية شبيهة بذلك (كانت تجري للتذكير بمصائب السيد المسيح)، بينما لا نجد لتلك المراسم جذورا في التأريخ الإسلامي، بل نجد في مجالات كثيرة أحاديث تنهى عنها أو شبيهاتها.

يقول شريعتي بأن صدر الإسلام لم يشهد هذا النوع من التمثيليات أو ضرب الجسم وإيذائه. بل إنّ ذلك يتناقض مع تعاليم الإسلام وروحه، كما أنّ التأريخ القديم لشعوب المنطقة أيضا لا يحدثنا عن احتفالات من هذا النوع، وبالنسبة للإيرانيين بالذات، لم يكن الساسانيون يعرفون فن التمثيل، هذا الفن الذي كانت اليونان مهده، وظلّ متواصلا في الغرب خلال مختلف العهود، واختلط بالتقاليد والمراسم الدينية.

النضال ضد الخرافة:

بذل علي شريعتي جهودا كبيرة لتنقية تراث التشيع من الخرافات التي علقت به، خصوصا تلك التي تتعلق بالقدرات الخارقة للأئمة (ع)، والروايات التي لا يصدقها العقل حول معجزاتهم التي تفوق معجزات الأنبياء.

إنّ شريعتي يعتقد بأن تلك الروايات الخرافية هي من بقايا عهود التخلف والجهل، بل ومن بقايا تأثيرات المعتقدات الوثنية. فالرسول (ص) اعتبر نفسه بشرا مثل الناس، ولم يدّعِ أي علم بالغيب ولا أية قدرة خارقة، وهنالك آيات صريحة بهذا الخصوص. إنّ شريعتي وهو يدحض دون رحمة - وأحيانا بسخرية جارحة - بعض الكتب حول تأريخ الأئمة ومعجزاتهم، يظل حريصا على جوهر التشيع وعلى إحياء أصوله وتوفير ظروف وأساليب أفضل لانتشاره وتطوره. إنّه واثق بأنّ بقاء تلك المفاهيم الساذجة

والطرح الخرافي لتأريخ الأئمة (ع) يجعل منطق الشيعة ضعيفا، بل وحتى باعثا على السخرية، كما يجعل الجيل الجديد في حيرة بين معتقداته الشيعية وبين حقائق مادية وعلمية حديثة، تنفي إمكانية وقوع تلك الحوادث الخارقة، لذلك فالتمسك الأعمى بتلك الروايات يخلق إيمانا هشا وضعيف الأساس والمنطق.

إنّ شريعتي يطرح الإسلام وتأريخه، بحيث لا يتعارض مع العقل والمحاكمة العقلية، ولا مع الحقائق العلمية، محاولا جعل الإيمان الديني منسجما مع المعرفة العلمية، بل ودافعا لتطورها لا نقيضا لها ومعيقا.

يقول شريعتي: بأنّ نسب معجزات إلى الأئمة (ع) يذكر منها أمثلة عديدة، خصوصا من كتاب بحار الأنوار للمجلسي، وكتب فارسية أهمها : جواهر الولاية من تأليف آية الله كاظميني بروجردي، وكتب آية الله شيخ علي أكبر نهاوندي، وهما من المعاصرين. يقول بأن نسب المعجزات للأئمة يبدو في الظاهر كأنه محاولة لتجليل الأئمة، ولكنه يؤدي في الواقع إلى تحقيرهم.

ويقول أيضا: إنّ تراث "الكنيسة الصفوية" يجعل الأئمة أهم من الأنبياء، بل ويجعلهم شركاء الله في قدرته، لكن نفس التراث يحاول أن يجمع نقيضين، إذ يصور حياة أئمة الشيعة وكأنها حياة استسلام للمصالح الخاصة، حياة عقد صفقات مع الخلفاء الأمويين والعباسيين، إذ يقول بعض هذه الكتب بأنّ بعض أئمة الشيعة تصالحوا مع الخلفاء، لقاء أموال وجوار أغدقها عليهم الخليفة. إنّ مثل هذه الروايات تشوه حقيقة الصراعات التي جرت، وتصورها بشكل مبتذل؛ وهكذا يلخص شريعتي محاولة التشيع الصفوي لجمع النقيضين في شخصيات الأئمة (ع) في السماء: شريك الله، وفي الأرض: أجير للخليفة.

إنّ شريعتي وهو يرفض هذه المعادلة المتناقضة، يؤكد تقييمه مجددا، بأنّ الأئمة كانوا بشرا مثلنا، قادوا حركة التشيع في ظروف صعبة، جاهدوا وناضلوا، وبذلوا جهودا فكرية، ناضلوا بمختلف الأساليب والوسائل، حسب ظروف الزمان والمكان. لذلك يرفض أي تصوير خرافي لتأريخ التشيع وسيرة أئمته.

يصف شريعتي التشيع الصفوي بأنّه تشيع الشرك والجهل والخرافة، وإنّ ذلك لا يمكن اعتباره نهجا دينيا أو تيارا دينيا، بل إنّه تحريف مقصود قام به السلاطين الصفويون، وكأمثلة على المراسم والمعتقدات التي يصل بعضها إلى حد الشرك بالله، يذكر شريعتي:

- تحريف فكرة الشفاعة، وطرحها بشكل يشبه "الغش في الامتحانات"، حيث يسهل بعض القيمين على شؤون الدين تمرير بعض الناس للجنة، دون أن يستحقوا ذلك، ويبث هؤلاء أفكارا ملخصها أنّ الإنسان مهما عمل من سيئات، يمكنه الأمل في الغفران ودخول الجنة إذا شفع له الأئمة (ع)، وإذا ساعده في ذلك نواب الأئمة في الأرض (أي رجال الدين أنفسهم)، والمعلوم أنّ ذلك يتطلب دفع بعض المبالغ والنذور.
- تأليه الإمام علي، بحيث يصل الأمر حد الشرك. يقول شريعتي بأنّ حب علي لدى الشيعة الصفوية يصبح نوعا من التثليث المسيحي، ولكنه هنا يتجلى في الله- محمد - علي. بينما يجب الالتزام بموقف الإمام علي نفسه، واعتباره تلميذا للرسول (ص)، وجنديا سائرا على نهجه، ويجب قبل كل ذلك الابتعاد عن أية فكرة تدعو لتأليه البشر وللإشراك بالله.
- بنور قبور وأضرحة فخمة، وتزيينها بالذهب. يقول شريعتي بأنّ هذا التبجيل المبالغ فيه، كان ضرورة لتشويه فكر ومنهج من يرقدون في القبور نفسها، حيث حاول السلاطين والمتنفذون، يساعدهم رجال دين رسميون بناء هذه القبور، ليسبغوا هالة من المجد على تراث ادّعوا الانتماء له، بل والوصاية عليه. إنّ ذلك كان في النهاية يستهدف بناء حاجز من الذهب والفخفخة بين الأئمة وبين الناس المرتبطين بهم، وإتاحة المجال أمام البعض ليصبحوا سدنة ومتولين ووسطاء بين الناس والأئمة. وهكذا يصبح الله بعيدا عن البشر، تحجبه عنهم مراتب من الوسطاء والقيمين.

يشير شريعتي إلى إنّ بعض مراسم الاحترام للقبور والأضرحة تشبه مراسم العبادة، وهي في الجوهر تقترب من الشرك، ولا يمكن اعتبارها إلا كعودة إلى تقاليد الجاهلية وعبادة الأصنام، التي جاء الإسلام والتوحيد ليقضي عليها نهائيا، ويذكر شريعتي ببساطة حياة الرسول (ص) والصحابة والأئمة، وببساطة موتهم، وببساطة قبورهم، ونهي الرسول (ص) عن زيارة القبور.

يقول شريعتي بأنّ هذه المظاهر والمؤسسات، والأضرحة المذهبة، إنما يُقصد منها إخافة الناس وإذلالهم، وإعطاء هيبة مبالغ فيها لرجال الدين والقيمين على أمر هذه المؤسسات. هكذا يصبح تراث الأئمة وقبورهم وسيلة لتكوين فئة فوقية، مسيطرة على الجماهير بقوة الدين. هذه الفئة تستخدم كل تلك الهيبة الدينية لفرض ما تعتقده حلالا وحراما، ولإرهاب كل صاحب فكر، ولاحتكار التفكير أصلا.

يعتبر شريعتي هؤلاء القيمين على شؤون الدين، المدّعين تمثيل الله، رجال دين صفويين لا علاقة لهم بالتشيع العلوي.

الإسلام والقومية

إنّ شريعتي ينطلق في تقييمه للعلاقة بين القومية والإسلام، من الالتزام بإطار الأمة الإسلامية، كموحد للشعوب والقوميات، وكرابطة أعلى وأكثر سموا وإنسانية من الرابطة القومية. إنّه لا ينكر الرابطة القومية، لكنه يدين طرحا معينا للانتماء القومي، ذلك الطرح الذي يناقض الإسلام والأممية، يفرّق ويثير الصراعات ويخلق الحواجز بين البشر. ويعتبر هذا النوع من القومية، ضيق أفق وتخلف، ومن عوامل تفتيت وحدة الإسلام وسيطرة الاستعمار على بلادنا.

أما عن الفترات المتأخرة، فيتحدث شريعتي عن الدولة العثمانية والدولة الصفوية الإيرانية، لكنه يركز على النزعة القومية التي تلبست التشيع عند الصفويين، ففي مؤلفه عن "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" يحلل هذه المؤسسة تحت عنوان "مونتاج القومية والدين"، قبل الصفويين أيضا، يلاحظ بدايات انبعاث للنزعة القومية الفارسية، ولكن ذلك كان على الأغلب رد فعل على حالات تمايز عاشتها الدولة العباسية، ثم كانت خلال الفترة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، رد فعل لحالة الانحطاط السياسي والثقافي التي بدأت تعيشها إيران، وأساسا كرد فعل لسيطرة المغول، لكن مظاهر هذا الانبعاث كانت قليل الأهمية قياسا إلى العهد الصفوي.

في زمن الصفويين، اتخذت محاولات بعث القومية الإيرانية - كنقيض للانتماء إلى الأمة الإسلامية - طابعا مذهبيا حادا، وقد حاول السلاطين الاستفادة من التراث العريق للتشيع في إيران، لتشجيع الأفكار التي تربط التشيع بإيران، بل ولإبراز التشيع وكأنه مذهب إيراني، وخلال دراسته لتاريخ تلك الفترة، يشير شريعتي إلى حوادث تاريخية معينة، وكذلك إلى محاولات بعض كبار رجال الدين آنذاك، لمزج التشيع بالروح القومية الإيرانية، من تلك المحاولات، كتاب "بحار الأنوار" للعلامة محمد باقر المجلسي، الذي يعتبره شريعتي قمة الدمج بين التعصب المذهبي الصفوي والنزعة القومية الإيرانية.

ثم ينتهي إلى القول بأنّ الحركة الصفوية كانت حركة شعوبية معادية للإسلام والوحدة الإسلامية، ويرجع إلى عرض تأريخ الشعوبية فيقول: انها بدأت في العهد العباسي بشعار مساواة العجم بالعرب والمطالبة بالامتثال بالآية الكريمة :" إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم" ؛ ولكنها انتهت فيما بعد إلى ادّعاء أفضلية العجم على العرب، ورغم أنّ سياسة التمييز التي اتبعها الأمويون

والعباسيون مهّدت أرضية مناسبة في إيران لحركة شعوبية، إلا أنّ هذه الحركة فشلت وانعزلت فيما بعد، بسبب تمسك الإيرانيين بالإسلام.

يحلل شريعتي اتجاه الشعوبية فيقول: إنّه كان بالضرورة يقود إلى رفض الإسلام والارتداد عنه، ومحاولة العودة إلى تراث إيران ما قبل الإسلام، ولكن ذلك التراث كان أمرا مكروها لدى الجماهير، التي كانت قبل أجيال معدودة تئن تحت نير المؤسسة الدينية الزردشتية. فالمؤسسة الزردشتية انحطت في أواخر العهد الساساني وارتبطت بالدولة، وكان هذا سبب نزوع الناس نحو الحركات الدينية المعارضة (المانوية والمزدكية، وكذلك المسيحية والبوذية). لهذا جاء تمسك الإيرانيين بالإسلام كثورة منقذة، لم تؤثر فيه دعايات الشعوبية.

أما الشعوبية الجديدة المتمثلة بالحركة الصفوية، فإنها ارتدت لباس الإسلام نفسه، ولباس مذهب حاولت تصويره كأنه إيراني. وقد كان لابد لها من ذلك، لكي تستطيع مواجهة مركز السلطة العالمية للإسلام، أي الخلافة العثمانية.

عندما دخل شريعتي في نقاش مع بعض رجال الدين حول هذه الروايات والكتب، أرادوا أن يحرجوه ويؤلبوا ضدّه الناس، فقالوا بأنه حتى الكليني ثبت بعض هذه الروايات، وهو يعتبر صاحب أحد أربعة كتب تعتبر لدى الشيعة مرجعا وتسمى بكتب الرجال.

أما شريعتي فقال بأنّ هذا الطرح من جانب التشيع الصفوي يناقض روح الإسلام، ومساواة الإسلام بين البشر جميعا، وسمو مبادئه فوق كل انتماء عنصري أو قومي، لذلك فإنه يدحضها وإن كانت مؤيدة من قبل بعض كبار العلماء والكتّاب. ففي الإسلام لا يوجد أي كتاب مقدس سوى القرآن، أما كل شيء آخر فهو معرض للنقد والتدقيق والرد إذا أثبتت المحاكمة العقلية خطأه.

إنّ شريعتي يوجه رماحه إلى النزعة القومية التي حاول البعض مزجها بالتشيع، وهو في ذلك لا ينطلق فقط من تقييم وإدانة سياسة الصفويين، بل ينطلق من حرص على تعزيز الانتماء الإسلامي لإيران المعاصرة أيضا، فهو يعي بأن النزعة القومية وبناء الحواجز والعصبيات الضيقة داخل الأمة الإسلامية يجزئ هذه الأمة ويجعلها ضعيفة ولقمة سائغة أمام القوى الأجنبية. (فاضل رسول، مصدر سابق، صفحات متفرقة).

موقف شريعتي من النقد ومن خصومه:

تعرض شريعتي كما قلنا لنقد جارف ومن كل الاتجاهات، حتى في حياته، وكان يسمع كل ما يقال عنه، ويقرأ ما يكتبه الخصوم حول شخصه وأفكاره، وبمرأى منه، وفي التعامل مع الخصوم الفكريين والسياسيين كان شريعتي نموذجا للخلق الحميد والأسلوب المرن السمح في النقاش، ولم ينجر أبدا إلى الابتذال والأساليب القذرة التي حاربه بها خصومه. إنّه يستشهد بالقرآن " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ..." أي أنّ الله يمنعنا من استخدام السب والشتائم حتى مع أعدائه وغير المؤمنين به، كما أنّ الإمام علي (ع) أكد لشيعته "إني أكره أن تكونوا سبّابين".

انّ الشتائم وتلفيق التهم هو أسلوب العاجزين الفاشلين، وهو أسلوب غريب عن الإسلام. إنّ شريعتي يؤكد بأن الروح الخشنة والأسلوب الجامد، والاتجاه لتكفير الخصوم والتشهير بهم، والتعصب والتزمت والحقد، هي كلها من مخلفات عهود الانحطاط في التاريخ الإسلامي، وهي لدى الشيعة بالذات، تعود إلى تراث السلاطين الصفويين.

انّه يدعو إلى التحلي بالأخلاق، وإلى تهذيب النفس وبنائها. إنّ شريعتي كتب أكثر من مرة عن إعادة بناء الذات بشكل ثوري، وهو يعتقد بأنّ الثوري يجب أن يتحلى بالحزم والشجاعة والاستقامة، كما يجب أن يتحلى باللطف والمرونة والحنان والقدرة على الحب. إنّه يعتبر المناجاة والدعاء إحدى الوسائل في تهذيب النفس، وإنّ فلسفة الدعاء نفسها تكمن هنا. إي في إعطاء النفس مناعة وقوّة أمام المصاعب وأمام المظالم. إنّ الدعاء بهذا المعنى ليس ابتهالا عاجزا مستسلما، بل سلاح مناضل، يشحذ به همته ويعمق ثقته بنفسه وبالله.

ان شريعتي يدعو للشجاعة والتواضع في آن واحد، عندما نجري عملية اعادة تقييم تأريخنا ومجتمعنا حسب منهج جديد، حسب منهج الإسلام الثوري. يقول عن نفسه وعن رفاقه في المحاولة :" نحن لسنا أنبياء ولا معصومين، وما نقوله لا يمكن الأخذ به كحكم نهائي. نحن نعمل جهدنا، ونرجو من الله أن يجنبنا الذل والضلالة، ولكننا نخطئ، ونتأثر بعوامل الضعف البشري، بالعواطف، بالخدمات، بالخيانات، بالصداقات والعداوات، بالانتصارات والهزائم ... كل ذلك يؤثر فينا وفي فكرنا". إنّه يدعو للتواضع والدأب في السير على طريق الله والناس، ويعتمد على إرادة الإنسان ومبادرته، إذ إن المبادرة إلى البحث والدراسة والجهاد من واجبات المسلم، وعندما يبادر ويسعى يهديه الله أيضا. " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا".

إنّ أسلوب طرح أفكارنا يجب أن يتسم بالتواضع والأخلاق الكريمة، فالله يمدح في الرسول (ص) أخلاقه وأسلوبه :" وإنك لعلى خلق عظيم". إن كل الأفكار والمواقف يجب أن تعرض للنقاش وأن يسمح فيها بالاجتهاد، ولا يُسمح أبدا بتحولها إلى مقدسات لا يمكن نقاشها. الإسلام هو ضد التحجر، والقرآن يقول :" فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" ؛ والله تعالى يطرح القرآن كجدل علمي وعقلي، لا كشيء يفرض بالقوة : " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"، إنّه لا يخشى من براهين الآخرين وحججهم، ويدعو الرسول(ص) "وجادلهم بالتي هي أحسن". لذلك فالإسلام الذي نتمسك به، وهو يواجه التيارات والأفكار الأخرى، يجب أن يتحلى بروح الجدل والنقاش العلمي، ويجب أن لا يلجم الفكر والتطور العقلي خشية منه على الإيمان، فالإيمان الصحيح هو الذي ينبع من معمعان الصراعات والنقاشات والتجارب، وهو الذي خاض امتحانات الشك بنجاح واستقامة. (المصدر السابق، ص٨٨).

محمد باقر الصدر



غريب أمر التسقيط والتكفير، فإذا ثار العوام والمعممون على رجل من أجل تسقيطه وتكفيره والرمي به لأسفل سافلين ساعتها لا يفرقون ولا يختلف الأمر معهم بين أن يكون هذا الرجل فقيها عالما أو أن يكون علمانيا ملحدا، وبين أن يكون متخرجا من بين أحضان الحوزة العلمية بالنجف الأشرف أو قم، أو متخرجا من جامعة السوربون بفرنسا، وبين أن يكون ثائرا مجاهدا ومضحيا بنفسه أو خاملا منزويا في بيته وصومعته، وبين أن يكون مجددا أو رجعيا تقليديا، وبين أن يكون عبقريا وفاضلا ومتقيا وصاحب إيمان وجهاد للنفس وبين أن يكون متكالبا على الدنيا وملذاتها .. فما المعيار لكل هذا ؟! وما الدافع الحقيقي الذي يكمن وراء تسقيط الشخصيات؟! فمن يدور في خلده أن عالما بوزن وورع وتقوى وجهاد وفضائل وخلق الشهيد محمد باقر الصدر يتعرض لما تعرض له من شتائم وإهانات وتسقيط وتجريح، وممن ؟ من رجال دين يزاملونه في الحوزات الدينية، ومن أقرب الناس إليه .. فهذا في رأيي الطامة والدهماء التي تدمر البلاد، ولا تبقي بقية من خير أو صلاح، إذا وصل الأمر بنا إلى أن نسقط ونكفر ونفسق رجلا كالشهيد الصدر !! ويلاحظ هنا، وليدرك القارئ جيدا بأن العوام لا يمتلكون الجرأة ولا الشجاعة ولا الإقدام لتسقيط عالم من العلماء، أو شخصية من الشخصيات إلا بعد أن يبادر واحد أو أكثر من المعممين ورجال الدين، فالمعمم يتقدم أولا ويبادر للتسقيط، ومنهم تكون الشرارة، ومن ثم ينطلق العوام بجهلهم وعنفوانهم وطيشهم الذي لا يعرف الحدود ولا المحرمات ولا أي محذور ولا حرمة لمؤمن ولا لحرمة لعلم. فمتى ما حفظ العلماء الحرمة لبعضهم وما لم يبادروا للتسقيط وتكفير بعضهم فإن العوام لا يمكن أن تكون لهم الجرأة في تكفير أو تسقيط أو تخوين أحد العلماء أو المؤمنين .. وهذه هي الداهية الدهياء في تعاملنا. حتى وصل الأمر بالسيد الصدر أن يقول بأن ما لقيه من أهل العلم أشد مما لقيه من حزب البعث !!

يذكر السيد عبد العزيز الحكيم أن السيد الصدر حورب كثيرا، وأن من النادر أن يتحمل إنسان ما تحمّله وهو يُحارب بهذا الشكل.

ويذكر الشيخ محمد باقر الناصري أنّ الجميع يعلم أنّ لكثير من أبناء المراجع وحواشيهم دورا مخزيا ومحزنا بحسب تعبير المصدر في محاربة السيد الصدر، والوقوف بوجه خطواته الإصلاحية وإغراء الجهّال به وتنفير

الأمة منه، مما شجّع وأغرى الحكام والظلمة وأعوانهم على محاصرته، حتى وصل الدور إلى سجنه وقتله.

وفي هذا السياق نقل عن السيد الصدر نفسه أنه في إحدى الجلسات تأوّه وقال لطلابه : " ما لقيته من أهل العلم أشد مما لقيته من حزب البعث "، وكان بعضهم قد سعى لقتله مع الحكومة العراقية. كما نُقل عنه قوله :" إنّ محاربة أمريكا وروسيا وأساطيلهما أهون عليّ من بعض عمائم السوء". وحتى وصل به الأمر أنه كان من المرارة والألم والغصة، وما يعيشه من اتهامات بالتسنن بسبب كتاباته حول الإمامة حاول أن يقسم ويثبت للعلماء والطلبة بأنه من خلص الشيعة والعارفين بمذهب التشيع، يقول هذا وهو الإمام الصدر العَلم في مدرسة التشيع، والذائب حبا في أهل البيت (ع)، إذ يقول لواحد من طلابه : "وعلى أي حال فاعلم يا ولدي أنّ ما مر به أبوك من مراحل في حياته وما شاهده بعينه وسمعه بأذنه ووصل إليه من الضجيج والكلمات حوله واتهامه حتى بما يشبه التسنن، وهو أعرف خلق الله بأنّه من أبعد خلق الله عن ذلك، وأنّ التشيع يجري في عروقه كما يجري الدم ... "، وقد اتهم بأنّه فاسد العقيدة بسبب اشتغاله بالفلسفة ومباحثها !!.

وعلى الرغم من متانة العلاقة التي كانت تربط بين السيد الصدر وبين السيد محسن الحكيم، فقد كان الأول يتأسف من موقف حواشي الأخير منه ومن بعض تلامذته، وكان السادة مهدي ومحمد باقر وعبد العزيز الحكيم يشكلون استثناء منهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى حواشي أستاذه السيد الخوئي رغم متانة العلاقة الشخصية بينهما، والتي بقيت مع ما عصف بها من أحداث عامة مكللة بالاحترام الشديد المتبادل إلى آخر أيام السيد الصدر. وقد أخذت الحملة ضد السيد الصدر تتصاعد حتى بلغت ذروتها عندما فكر أن يطرح نفسه مرجعا قبالة مرجعية السيد الخوئي، وعندما طبع رسالته العملية "الفتاوى الواضحة" هاجت عليه الحواشي وتهجم عليه المعممون الذين لا يرتبطون به، ولا ينتهجون بمنهجيته وخطه، وعلت أصوات الرافضين لمرجعيته، وصاروا يسقطونه ويتهمونه بأبشع التهم، وينعتونه بأسوأ النعوت في جميع المحافل الحوزوية والمجالس النجفية، وأينما تجمعوا في محفل أو مناسبة، وكاد السيد أن ينهار وصار يبكي ويبث همّه وحزنه إلى الله أولا وإلى المقربين منه ثانيا، بل وصل به الأمر أنّه وصل إلى حالة من الضعف والانهيار أمام هذا السيل الجارف وصار يفكر في الهجرة من النجف معتزلا إلى قرية من القرى العراقية المغمورة، ولا يبقى في النجف مرمى لسهام المشايخ وأجواء الحوزة الخانقة. وكانت الاتهامات والتسقيطات والسهام تأتيه من كل مكان، ومن جميع الحواشي، فلم يسلم السيد الصدر حتى من حواشي السيد الخميني ، وذلك عندما كان الإمام منفيا في النجف، فعندما أعلن السيد الصدر عن دعمه لمرجعية السيد الخوئي بعد رحيل السيّد محسن الحكيم، وعندما أعلن بأنّ

الأعلمية لدى السيّد الخوئي على حساب الخميني قام عليه كثير من حواشي السيّد الإمام، بل وصل بواحد من هؤلاء أن أعلن وأمام حشد من المعممين وطلبة الحوزة أنّ السيّد الصدر وابن عمه السيّد موسى عميل للإمبريالية وللصهيونية العالمية، لم هذا الاتهام الرخيص، والتشنيع والقذف ؟! كل هذا فقط لأنّه لم ير بأنّ الخميني أعلم من الخوئي، كل هذا لأنّه رأى أنّ المرجع بعد السيّد الحكيم هو السيّد الخوئي وليس السيّد الخميني. أبعد هذا كله نقول بأنه ليس لدينا عنف فكري، وأنّ التسامح يسود أوساطنا، ولدينا تقبل للآخر، ونعرف كيف نختلف وندير اختلافاتنا بروح متسامحة ؟!!.

وفي هذا الصدد كتب السيد إلى أحد طلابه متألما لما آلت إليه الحوزة وحواشي السيد الخوئي من الموقف المخزي منه ومن مرجعيته، ورفضهم حتى تفكيره في المرجعية في ظل وجود السيد الخوئي، قائلا : " ونحن لم نكن نفكر في شيء من هذه المرجعية التي تمت للجهة، غير أنّ ظروف الأمة هي التي فرضتها من ناحية، وأما قبولنا بها من الناحية الأخرى فقد كان بسبب موقف مرجعية السيد الخوئي نفسها وسلبياتها الخاصة التي أوجبت الاختناق. وأما الصيغة الثانية فلم تكن مقدورة، لانغلاق السيّد الخوئي علينا انغلاقا نهائيا، ومقاطعة جهازه لنا مقاطعة شاملة.

أوضاعي النفسية جيّدة ما دمت أشعر بأني أعيش من أجله سبحانه وتعالى، والمتاعب التي تنشأ من الخصوم الآخندية تتزايد تبعا لشعورهم بتزايد الوجود في الأمة.

فلو كنت تعلم ما نواجهه هنا من مزعجات وإيذاءات من أشخاص كثيرين مما لا يمكنني أن أستعرضه لهان عليك ما ذكرت، فهو ليس -عَلِم الله- إلا شيئا يسيرا من المزعجات التي نواجهها، والتي جعلتني في بعض لحظات الضعف التي تنتاب كل إنسان: عدا من عصمه الله، أودّ أن أهاجر من النجف إلى قرية من القرى، ولكن لابد من التحمّل على أي حال".

وفي موضع آخر يشير السيد إلى الدافع الذي حذا به إلى أن يطرح نفسه مرجعا، وما الذي جعله يفكر في المرجعية وتقليد الناس له والرجوع إليه في ظل وجود السيد الخوئي، مع علمه بما سوف تجر عليه هذه الخطوة من آلام وحرب لا نهاية لها مع الحواشي والمعممين والتيارات الأخرى التي تموج بها أرجاء النجف. يقول :

" واتّساع تعاطف الأمّة وإقبالها على مرجعها يضاعف من الهموم والآلام والمشاعر التي أجد السلوة في أنّها بعين الله تعالى ومن أجله. وقد تحققت بدايات بعض الآمال التي أسعى إلى تحقيقها، فإني كنت أفكر أن المرجعية النائبة عن الإمام الصادق (ع) إذا استطاعت أن تقدم أحكام الشريعة في إطار

فقه أهل البيت (ع) إلى العالم بلغة العصر ومنهجة العصر وبروح مخلصة، فسوف تستطيع أن تقنع عددا كثيرا من أبناء السنة بالتقليد للمجتهد الإمامي باعتباره اجتهادا حيا واضحا على مستوى العصر، وبذلك يعود نائب الإمام الصادق (ع) مرجعا للمسلمين عموما كما كان الإمام كذلك، ويكون هذا التقليد مرحلة للانتقال إلى التشيع الكامل، وهذا ما تحققت بعض بوادره لأن بعض المدرسين المثقفين من السنّة في بغداد راجعوني طالبين تحويل تقليدهم من أبي حنيفة إلى الفتاوى الواضحة".

وسوف نسرد للقارئ مجموعة من المواقف التي عاشها السيد الصدر في محيط الحوزة في النجف الأشرف، وفي محيط العلماء من أقرانه ومن حواشي الفقهاء والمراجع، ولن نعلق عليها بشيء، فذكرها يكفي للدلالة على الغصص والآلام التي تجرعها الصدر، وهي مما يدمي فؤاد المتلقي ويشجي فؤاده، ويقذي عينه، وهي تنبئ عن مقدار العنف الذي نعيشه في أوساطنا متى ما اختلفنا في الرؤى، ومتى ما توطن الحسد والجهل في داخلنا، ولله المشتكى.

١. لقد أدّت الضغوطات التي كان يتعرض لها طلاب السيد الصدر إلى انفصال بعض تلامذته عنه، كما حدث مع الشيخ مفيد الفقيه الذي كان يتألم لذلك ويكاد يبكي أحيانا لأن قلبه مع أستاذه، ولكنّ الضغوط كانت شديدة عليه.

٢. كما أنّ السيد محمد باقر الحكيم انقطع عن درس السيد الصدر لمدّة سنتين، فسأل الشيخ محمد إبراهيم الأنصاري أستاذه السيد الصدر عن سبب ذلك، فأجابه :" لقد سألت السيد أبا صادق عن ذلك فقال لي: إنّه متحير بين أن يأخذ بأفكار والده وبين أن يأخذ بأفكار أستاذه، فأجبته بأن المسألة ليست من قبيل مانعة الجمع". وقد استمر انقطاع السيد محمد باقر الحكيم عن الدرس حتى هجرة السيد الخميني إلى النجف الأشرف.

٣. وتعرض السيد عبد الهادي الشاهرودي إلى ضغوط شديدة جدا من ذويه من أجل ترك درس السيد الصدر ألجأته إلى دار السيد محمود الهاشمي، ولما لم ينجحوا في ثنيه تم الاتفاق على التخفيف من تردّده على السيد الصدر.

٤. كما تعرض السيد محمود الهاشمي إلى ضغوطات من هذا القبيل من قبل أعمامه. وقد طلب من السيد الصدر أن يدفع السيدين الشاهرودي والهاشمي إلى ترك درسه، وكان يعتذر بأنه لا يمكنه أن يمنع أحدا عن الاستفادة. وقد سعى إلى تليين هذا الموقف، فكان يزور أعمام السيد الهاشمي أثناء زيارتهم إلى النجف، وكانوا تجارا في بغداد، وكانوا يلمسون حسن أخلاقه، الأمر الذي ساهم في تليين موقفهم.

٥. وأشرنا سابقا إلى احتمال تعرّض السيد كاظم الحائري إلى بعض الضغوطات من آل الشاهرودي، وكان السيد الحائري على علاقة قوية بهم نتيجة تتلمذه وبروزه في درس زوج خالته السيد محمود الشاهرودي. وكم عانى السيد كاظم الحائري من ضغوط بخصوص إرشاد الطلاب المؤهلين لحضور الدراسات العليا (بحث الخارج) إلى درس السيد الصدر.

٦. وكانت ضغوط قد مورست على الشيخ عبد العالي المظفر بسعي من خاله الشيخ محمد حسين حرز الدين من أجل إبعاد ابن أخته عن أستاذه، إضافة إلى سعي أوساط السيد محمد الروحاني الذي مورس في الاتجاه نفسه، وقد أدّى هذا الأمر بالسيد الصدر إلى الانهيار أو كاد.

٧. هذا فضلا عن عدد هائل من الاتهامات والإشاعات التي طالت السيد الصدر وطلابه، وكان يكفي أن يكون الطالب موضوعا لها إذا حضر درس السيد الصدر ولو مرّة واحدة.

٨. لقد جرى تصنيف طلبة العلوم الدينية إلى جماعات كان في مقدمتهم طلاب السيد الصدر ومن كان له أدنى اتصال بهم، وقد منع السيد يوسف الحكيم صرف الرواتب والمعونات لطلبة إحدى المدارس ذات الصلة بالسيد الصدر، إذ نُقل أنّ أحد طلبة العلوم الدينية كان فقيرا لا يملك المبلغ الذي يدفعه بدلا عن الخدمة العسكرية، ومقداره مائة دينار، فأعطاه السيد الخوئي خمسين دينارا بينما امتنع السيد يوسف الحكيم معللا ذلك بأنه ربما كانت للطالب المذكور علاقة حزبية. كما لم يخف جهاز الفقيه المذكور تذمره من تجمع هؤلاء الطلاب حول السيد الصدر ومواظبتهم على الصلاة خلفه في الحسينية الشوشترية.

٩. وعندما طلب أحد الطلاب المحسوبين على السيد الصدر من أجل الالتحاق بالجندية، سعى السيد جواد العذاري - أحد طلاب السيد الصدر- لتوفير بدل الالتحاق، فأمّن نصف المبلغ من السيد الخوئي، وسعى لتأمين الباقي من السيد يوسف الحكيم الذي اعتذر عن ذلك بعد وعد له بأنه ربما كان للمطلوب له علاقة حزبية، وقد قيل: إنّ ذلك كان على خلفية معرفته بنحو علاقة للطالب بالسيد الصدر.

١٠. كان السيد كاظم الحكيم نجل السيد محسن يصرف مساعدة الزواج التي كان يقدمها أخوه السيد يوسف إلى الطلاب، وكان قبل أن يقدم المبلغ يسأل الطالب عمّا إذا كان قد حصل على إعانة من السيد باقر؟! ويقصد السيد الصدر، وذلك بحسب المصدر لمعرفة طبيعة العلاقة معه وترتيب الأثر اللازم على اكتشاف علاقة من هذا القبيل.

١١. وعندما توفي الحاج عدّاي العطية عم الشيخ خالد العطية -نسبيا وسببيا- وأحد وجهاء الشامية، قام الشيخ خالد العطية بدعوة السيد الصدر إلى الصلاة على الجنازة، فلبّى دعوته، وكان هذا الطلب بتخويل من كبار الأسرة، ومنهم والده وخاله الحاج شلتاغ آل جحالي والدكتور حميد نجل المرحوم وحسن والدكتور عبد الحسين نجلي شقيق المرحوم، بينما اقترح الشيخ مهدي النجّار على محمد نجل المرحوم - الذي لم يكن على علم بالتنسيق مع السيد الصدر- أن يقوم بدعوة السيد يوسف الحكيم إلى الصلاة على الجنازة، وكان ذلك قبل وصول الجنازة إلى النجف الأشرف.

وعندما وصل السيد الصدر كان في استقباله عند باب الطوسي الشيخ خالد العطية والحاج شلتاغ، وبعد شروعه في أداء الصلاة وصل السيد يوسف الحكيم إلى الصحن محاطا بأسرته وإخوته -منهم السيدان محمد باقر وعبد العزيز الحكيم- وكان المؤذن يفرج له الجموع، ولما وصل وجد الصلاة قائمة فرجع (غضبانا). وإثر ذلك تعرض السيد الصدر لهجوم كلامي باعتباره تصدى للصلاة على جثمان الميت مع أنّ وليه كلف السيد يوسف الحكيم، بينما كان السيد قد اعتبر أنّ تكليفه من قبل الشيخ خالد العطية يدلّ على أنّ المسألة قد حسمت لدى أولياء الميت.

وعلى أية حال فقد كلف السيد الصدر السيد حسين هادي الصدر بالذهاب إلى بيت السيد يوسف من أجل تقديم الاعتذار، إلا أنّه استدرك وقال :" فلنذهب معا"، وذهب معه أيضا السيد عبد الغني الأردبيلي، وكذلك السيد عبد الكريم القزويني، إلا أنّ السيد صادق الحكيم فتح الباب وقال : "ماذا تريد؟ "، فقال :"السيد والدكم موجود ؟"، فقال :"نعم"، فقال السيد : "هل يمكن زيارته؟"، فقال :" لا، إنّ والدي نائم وغير مستعد لمقابلتك، ألا يكفي ما فعلته صباحا ؟!".

وقد أعادا الكرة بعد صلاة المغرب، والتقيا بالسيد يوسف الحكيم، فقدّم له السيد الصدر شديد اعتذاره معللا ما حصل بأنه لم يكن على علم بأنهم قد دعوه (أي السيد يوسف)، وقد أجابه السيد يوسف : " إنّ الإهانة كانت علنية ولكنّ الاعتذار شخصي، وقد وقع نظيره سابقا، فإنّ عبد الهادي الجلبي كانت له حاجة عند السيد أبو الحسن الأصفهاني فوسّط السيد محمد الصدر لذلك، ولما قصد السيد محمد الصدر منزل السيد الأصفهاني لم يكن في استقباله، الأمر الذي أزعجه. ولما اطلع السيد الأصفهاني على انزعاج السيد الصدر قام بعد صلاة الصبح بزيارته مع جماعة في مقر إقامته في بغداد، وبعد أن اعتذر السيد الأصفهاني أجابه السيد محمد الصدر بأنّ الإهانة كانت علنية بينما الاعتذار شخصي".

عندها أعلن السيد الصدر عن استعداده لتقديم الاعتذار علنا في الصحن الشريف. وبعد هذه الحادثة ذهب السيد حسين هادي الصدر إلى الشامية من أجل تقديم التعازي وحضور الفاتحة، وهناك أبلغ الشيخ خالد العطية بشيء مما جرى، فجاء وفد من الشامية ضمّ: الحاج أبا ذر العطية، والحاج شلتاغ آل جحالي، الأستاذ حسن الحاج ودّاي العطية، الدكتور عبد الحسين الحاج ودّاي، محمد نجل المرحوم، والشيخ خالد العطية، وأوضحوا للسيد يوسف الحكيم أن قرار صلاة السيد الصدر على الجثمان كان قرار العشيرة ولم ينفرد به شخص.

١٢. وقد دفع أحدهم أخاه ليشهر بالسيد الصدر وينتقص منه ويكيل إليه - بحسب المصدر- ألوان التهم والأكاذيب المخجلة، ويحول دون إقبال العلماء حضور بحثه. كما عوتب أحد الفقهاء لكونه يوصي العلماء والطلبة بحضور بحث السيد الصدر. بل إنّ هذا المذكور لم يكتف بما أسنده لأخيه، بل تبرع ليصف السيد الصدر بأنّه وهّابي إثر صدور كتابه (بحث حول الولاية)، وحاول التشكيك ببعض عبارات ذلك الكتاب.

١٣. ولمّا أدرج الكتاب المذكور ضمن قائمة الكتب التي رفعت الدولة الحظر عنها، علق أحد العلماء من آل الحكيم، على الموضوع بأنّ السبب في ذلك هو أنّ الكتاب يخدمهم، ولما بلغ ذلك السيد الصدر تأذّى، وحول أصل الموضوع كتب فيما بعد لأحد طلابه: " وعلى أي حال فاعلم يا ولدي أنّ ما مر به أبوك من مراحل في حياته وما شاهده بعينه وسمعه بأذنه ووصل إليه من الضجيج والكلمات حوله واتهامه حتى بما يشبه التسنن، وهو أعرف خلق الله بأنّه من أبعد خلق الله عن ذلك، وأنّ التشيع يجري في عروقه كما يجري الدم ... " .

١٤. وذات يوم دخل السيد الصدر مجلس درسه يبدو الحزن على وجهه، فسأله السيد ذيشان حيدر جوادي عن سبب ذلك، فأجاب :" إنّ الوضع في الحوزة قد بلغ حدا لا يمكن فيه للعالم أن يعيش حياة علمية ذات صبغة فكرية حرّة: الآن كنت في أحد مراسم الفاتحة، وجرى الحديث عن كتاب صدر حديثا في الأصول المقارن بين مختلف المذاهب الإسلامية. وقد استدل المؤلف على أصالة الفكر الشيعي بأنّهم يتبعون أئمتهم على أساس عصمتهم، واستدل على عصمتهم بآية :" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، بأنّ الإطاعة فيها مطلقة، والإطاعة المطلقة لا تصلح إلا للمعصوم. فقلت: إنّ هذا الاستدلال قد يرد عليه أنّ الإطلاق إنما يؤخذ به إذا لم يكن هناك قدر متيقن، والقدر المتيقن هنا أنّ أولي الأمر يجب إطاعتهم إذا لم تكن أوامرهم مخالفة لأمر الله والرسول، وفي هذه الحالة كيف يؤخذ بالإطلاق ويستدل به على عصمة أولي الأمر. فبدل أن يجيب أحد الأشخاص عن هذا الإشكال ردّ علينا بأنك فاسد العقيدة، وإنّ إنكار العصمة لا يتأتى إلا من قبل إنسان فلسفي يشتغل

بالمسائل الفلسفية .. فإذا بلغ الوضع هذا الحد من السذاجة والعصبية فعلى الإسلام السلام".

١٥. وذات مرّة دعي إلى مجلس فاتحة أقامه الحاج عوّد الكسّار عن روح والدته، وقد هيّأ الحاج غرفة في بيته لوجهاء العلماء. ولما وصل السيد الصدر اصطحبه إلى هذه الغرفة، وما إن فتح الباب ومدّ رأسه، وكان قد جلس فيها بعض آل الحكيم، حتى ضحكوا بوجهه، فأطبق الباب وفي وجهه علامات الخجل، وقال للحاج الكسّار: " حجي ما يخالف أنا أجلس هنا"، فقال :" سيّدنا ما يصير، تفضلوا"، فأجابه : " لا عليك، هنا زين".

١٦. وذات مرّة حضر مجلسا وكان القارئ هو السيد جواد شبّر، فامتنع عن الدخول داخل المجلس كي لا يقوم أحد ويربك المجلس، فجلس أول الدار حيث مجموعة من شباب آل الحكيم، وصاروا يتهامسون فيما بينهم كي لا يجلس هنا و هناك.

١٧. كما أنّ إغلاق (مدرسة العلوم الإسلامية) كان على أساس الموقف السلبي الذي حكم علاقة آل الحكيم بالسيد الصدر.

١٨. دخل السيد الصدر إلى مجلس تأبين السيد محسن الحكيم في ذكرى رحيله الأولى، وكان في صدر المجلس جملة من كبار العلماء الذين لم يستقبلوه استقبالا مناسبا، ولم يجد السيد الصدر مكانا ليجلس فيه فجلس فوق الأحذية، ولم يعره السيد محمد رضا الحكيم أية أهمية زائدة. وقد التفت إلى الموضوع أحد المشايخ الأفغانيين وطلب من السيد الصدر تغيير مكانه ولكنّ السيد الصدر أصرّ على البقاء حيث هو.

١٩. وفي الإطار نفسه جرى رصد طلاب السيد الصدر وحرمانهم من تمثيل المرجعية. وينقل السيد جواد العذاري أنّه حرم من ذلك على هذه الخلفية، وقد مارس يومذاك السيد مرتضى الحكمي صهر السيد الخوئي محاولات عديدة من هذا القبيل.

٢٠. وكانت حاشية السيد الخوئي تثير الغوغاء ضد السيد الصدر على مستوى الدرس وعلى مستوى صلاة الجماعة التي أقامها في الحسينية الشوشترية.

٢١. وعندما كان يدخل إلى مجلس أستاذه السيد الخوئي ليزوره، لم يكن أحد من جماعة الأخير يقيم له وزنا فيقوم له، فكان يتوجه إلى السيد الخوئي فينحني إليه ويقبل يده.

٢٢. وذات مرّة دخل إلى مجلس السيد الخوئي، ولمّا مدّ يده ليسلم على نجل الأخير لم يمد يده، فما كان من السيد الصدر إلا أن تابع سلامه دون أن يبدو منه شيء.

٢٣. وبلغه ذات مرّة أنّ السيد جمال الدين الخوئي قال لمدير أمن النجف :" ماذا تنتظرون بالصدر، هل تريدونه خمينيا ثانيا في العراق ؟! لماذا لا تعدمونه ؟!" ، ولم يعلق السيد الخوئي على ذلك بشيء، فقال السيد الصدر لما بلغه ذلك : " غفر الله لك يا فلان، إن قتلوني اليوم، قتلوكم غدا ..". ولم يزد على ذلك شيئا، إلا أنّ السيد جمال الدين الخوئي اعتذر عن هذا الموقف بعد مجيئه إلى إيران معللا ذلك بأنّه لم يكن على علم بحقيقة حزب البعث.

٢٤. وقد صرّح السيد محمد حسين فضل الله بأنّ السيد الخوئي على الرغم من أنّه كان جيدا تجاه السيد الصدر إلا أنّ حاشيته والمحيطين به، وخاصة ابنه السيد جمال الدين كانوا لا يطيقونه، وربمّا تمنى السيد جمال الدين موته، وكان السيد جمال الدين لا يخفي امتعاضه من السيد الصدر وطلابه وأنصاره واتهامه إياهم بالحزبية.

٢٥. وسيأتي إن شاء الله تعالى الحديث عن ضغط السيد جلال فقيه إيماني على السيد الصدر إثر إرساله (الفتاوى الواضحة) إلى الطبع من أجل إصدار بيان ينفي فيه عرضية مرجعيته في مقابل مرجعية السيد الخوئي وكان ذلك .

٢٦. وذات مرّة ذهب إلى بيت أحد المراجع حيث لاقى استقبالاً بارداً، وقد قدّموا إليه كأساً من الماء، وعندما خرجوا قاموا بغسلها بناء منهم على تنجسها بعد أن شرب منها !!

٢٧. وكان شيخ من أقربائه ينتقص من أعلميته، وعندما يُسأل عنها كان يقول: " هل هو مجتهد؟!" وقد سأله بعضهم :" إن بعض المؤمنين يرجعون في تقليدهم إلى السيد الصدر، فما تقولون بذلك؟!"، فكان جواب الشيخ : " إن حبك للشيء يعمي ويصم، وإن هذا التقليد باطل، وهل أن السيد محمد باقر الصدر مجتهد أصلاً ؟ " . وعندما كان يُنقل كلام الشيخ إلى السيد كان يحاول استبعاد ذلك واحترامه أمام المؤمنين.

٢٨.لقد كانت أبسط الشبهات التي أثيرت حوله أنه عاطفي لا يصلح للمرجعية، والقيادة والمرجعية يجب أن تكون للأشدّاء الأقوياء فقط، أما للعاطفيين الذين ترق قلوبهم أو تدمع عيونهم لهذا أو ذاك فلا.

وكان السيد الصدر يتألم حينما تبلغه تلك الانتقادات لأنها تصب في إطار تهديم الحوزة والمرجعية، وهو ما كانت تستهدفه السلطة. وفي جوابه على

هؤلاء قال :" ماذا يريد هؤلاء مني، هل يريدون أن أتعامل مع الناس بجفاء وخشونة، هل يريدون أن لا أمنحهم حبّي، إذ كيف يمكن للأب أن يربي أبناءه بقلب لا يحبهم، أليس هؤلاء هم الذين سيحملون راية الإسلام ويدافعون عن كرامة القرآن، إذا كنا لا نسع الناس بأموالنا فلماذا لا نسعهم بأخلاقنا وقلوبنا وعواطفنا ؟". وقد صرّح السيد الصدر للسيد محمود الخطيب بأنّه لا يرضى أن يقال عنه إنه عاطفي، لأن الكلمة تحمل مدلولا سلبيا. هذا وقد فسّر بعضهم عاطفة السيد الصدر في إطار ما بات يصطلح عليه بـ (الذكاء العاطفي).

٢٩. وأحد أسباب الحملة ضده تعاطيه الفلسفة وكتابته فيها، حتى أن أحد أصدقاء السيد ذيشان حيدر جوادي في مدرسة البخارائي كان يستهزئ به لأنه يدرس عند السيد الصدر الذي أصدر كتاباً في الفلسفة، وكان يطلب من الطلاب مقاطعته ورفقاءه لأنهم صدريون.

٣٠. كما قيل: إنه حزبي، والحزبية تتنافى مع المرجعية. وكان حينما تبلغه الاتهامات والافتراءات التي توجه إليه من قبل بعض الأطراف في الحوزة يقول :" إنّ السلطة ما استهدفتني من بين المراجع الآخرين إلا بسبب ظروفي وأوضاعي الخاصة، وإلا فإنّ هدفها أكبر وأشمل، إنّها استهدفت الوجود العام كله، المرجعيات كلها والحوزات كلها، بغض النظر عن فكرة الاتهامات الحزبية، وما ذريعة الحزب إلا أداة لتضليل الناس".

٣١. وكان أحدهم يتكلم في مجالس النجف ويقول :" إنّ السيد الصدر جاءني يبكي فقال لي: ماذا يمكن أن أفعل للخلاص من هذه الورطة ؟! " فقلت له :" سيدنا إنّك تناطح جبلا- يعني السلطة- فهل يمكن أن تؤثر فيه، وكان المفروض أن لا تفعل ذلك منذ البدء"

٣٢. والبعض كان يزاحمه في مجلسه، فهاهو يحضر أحد المجالس التأبينية لأحد العلماء نهاية العام ١٩٧٢م، فيضايقه أحد المعممين عندما يحاول الجلوس؛ ولم يسمحوا له بالجلوس في ذلك المكان رغم توفر المكان، فحاول الجلوس في مكان آخر فضايقه آخران وبالأسلوب نفسه، فما كان منه إلا أن ابتسم وجلس في مكان آخر رغم أن البعض قام ليعطيه مكانه. وكانت هذه الحادثة على مرأى من بعض تلامذته الذين تأثروا غاية التأثر. فلما انتهى المجلس أخبره السيد محمد الحيدري بتأثره وإخوانه لما حصل، فشكر لهم عواطفهم ومحبتهم تجاهه وقال لهم :" هذه أمور بسيطة ينبغي أن نتحملها ولا ننشغل بها، فإن أمامنا مهام كبيرة علينا العمل على تحقيقها والتضحية من أجل الإسلام العظيم. وينبغي أن لا ننجر إلى مثل هذه الأمور الجزئية.. ".

٣٣. وذات مرّة دخل إلى مجلس في (دار الحكمة) وكان بعض كبار العلماء جالسين. وعندما وصل تزحزحوا لكي لا يجلس بينهم، فذهب إلى الداخل وجلس بين عموم الناس، فارتفعت أصواتهم بالصلوات و نهض الجميع للترحيب به، وانتقل المجلس كله إلى الداخل، فما كان من هؤلاء إلا أن أحرجوا والتمسوا منه الحضور للجلوس إلى جنبهم واعتذروا منه.

٣٤. والبعض كان يمسك كتاب (اقتصادنا) من وراء العباءة كي لا يمسه.

٣٥. وكان البعض يدير وجهه إلى الحائط إذا التقى به ماراً في الزقاق.

٣٦. وكان أحد مدرسي كتاب (المكاسب) يتحاشى الالتقاء به كي لا يضطر لرد السلام عليه.

٣٧. كان أحدهم يعبر عنه قائلاً : " نعم، إنه أحد أفاضل الطلبة العرب".

وهذه العبارة قد يحسبها القارئ غير المطلع على أوضاع الحوزات الداخلي مدحا، ولكنّها في الواقع مدح في مقام الذم، باعتبار أنّ هناك نظرة سائدة في الحوزة الإيرانية، وإن كنا لا نحبّب هذه التسمية، تفيد بأنّ الطلاب العرب ليست لديهم الطاقة والقدرة على الوصول إلى مرحلة الاجتهاد مثلا، فضلا عن المرجعية.

٣٨. وكان البعض ينعته بأنه صاحب الكتب الأدبية.

٣٩. وقد ضغط أحد المعممين على السيد محمد محمد الحيدري عند ذهابه إلى الحوزة سنة ١٩٧٢م من أجل الابتعاد عن السيد الصدر وحوزته بحجة أنّه مجرد كاتب إسلامي، وأنّه ليس مرجعا، وقد حاول بعضهم دفع والده السيد محمد الحيدري إلى الضغط عليه بالتهمة نفسها والدافع نفسه، إلا أنّه لم يستجب لذلك، ولم يذكر ذلك لولده إلا بعد سنوات، وعندما سأله ولده عن السبب أجابه :" الحسد، إنّ هذا الرجل له نبوغ مبكر، لهذا تتجه نحوه سهام الحسّاد وغيرهم".

٤٠. وذات مرّة وفي مجلس عقده الشيخ نصر الله الخلخالي في العشرة الأخيرة من شهر صفر، كان أحد علماء النجف الأشرف، وهو من أسرة علمية كبيرة، حاضرا ويتحدث مع بعض الحاضرين عن النجف ومكانتها، وأنّها حوت الطوسي ، وخرّجت السيد بحر العلوم والشيخ صاحب الجواهر، إلى أن آلت الأمور إلى أناس يدّعون العلم وهم ليسوا أهلا، ثمّ مثّل بالسيد الصدر الذي ما لبث أن دخل إلى المجلس، فقام له الحضور وكبّروا، فقام ذلك العالم معهم وبادله التحية وفسح له المجال.

٤١. وكان السيد يُنسب إلى الضلال لا لشيء إلا لأنه ينادي بإقامة الحكم الإسلامي على أساس الكتاب والسنة.

٤٢. وظل بعض موزعي شهريات المراجع يتعاملون مع السيد الصدر على أنه طالب عادي، فكانوا يقدمون له شهرية قيمتها خمسة دنانير كباقي الطلبة، ومرة قال للشيخ عفيف النابلسي وهم يسلمونه المبلغ:" تأمل هذا التعامل، لا يريدون الاعتراف بأني أوزع كل شهر أكثر من عشرة آلاف دينار على الطلبة، ولازالوا في هذه المعاملات المحقرة".

ولكن يبدو أنّ هذا خاص بما كان يرسل إليه بعنوان التحقير، وإلا فإنّه كان يستلم شهريات المراجع الخاصة ويقوم بدوره بإعطاء ما هو من هذا القبيل إلى الشخصيات الكبيرة، التي كانت مدرجة ضمن القائمة الخاصة. وهذا على أية حال يدل على أنهم كانوا يتعاملون معه على أنّه من الطبقة الثانية، لأن الطبقة الأولى تعطي الرواتب ولا تأخذ. وقد ذكر السيد جعفر نجل السيد الصدر أنّه عندما كان مؤخرا في النجف الأشرف، أواخر التسعينات الميلادية وقبل مجيئه إلى إيران، جاء الطلاب بأحد الدفاتر الكبيرة التي كانت مخصصة لتوزيع راتب السيد الخميني والتي كانت لا تزال محفوظة في إحدى المدارس، وكان في الدفتر قائمة خاصة برجالات الحوزة والشخصيات المعروفة، وكان والده الثاني أو الثالث في هذه القائمة.

وذات مرّة وحين كان الشيخ أديب حيدر خارجا من منزل السيد الصدر التقى بالسيد جعفر كريمي الذي كان منتدبا من قبل السيد الخميني لتقييم الطلاب من أجل إعطائهم الرواتب على ضوء ذلك، فأشار السيد كريمي للشيخ أديب حيدر وأعطاه ظرفا وقال له :" لو سمحت أعط هذا الظرف للسيد الصدر"، فحمله الشيخ حيدر إلى السيد الصدر الذي تناوله منه ودسّه تحت (الفرشة) دون أن يفتحه، وعندما همّ الشيخ أديب بالمغادرة طلب منه السيد الصدر البقاء، ثم أكمل حديثه العلمي مع السيد محمود الهاشمي الذي كان حاضرا مع جماعة.

وبعد انتهاء الحديث، تناول السيد الصدر الظرف وفتحه فوجد فيه مبلغا من المال، فقال مستغربا :" ها ! فلوس ! من أعطاك إياه"، فقال : " السيد جعفر كريمي"، فبدت على وجه السيد الصدر علامات الاستغراب. هنا ضحك السيد محمود الهاشمي وقال : " سيدنا هذا راتب الإمام الخميني، منذ كنتم ساكنين في بيت الشيخ نصر الله الخلخالي كان الإمام الخميني يعطيكم راتبا، وكنت أخجل من ردّه إليه، وفي الوقت نفسه أخجل من إعطائكم إياه، فكنت آخذه وأوزعه على الطلبة"، فقال الشيخ أديب حيدر: " سيدنا هل تحب أن أبلغ السيد جعفر كريمي بقطع هذا الراتب ؟! " فأجابه " كما تريد".

وعندما التقى الشيخ أديب حيدر بالسيد جعفر كريمي في مدرسة البروجردي، حيث كانت غرفة الشيخ حيدر ومحل إقامة السيد الخميني صلاة الجماعة، سأله عن قصة هذا الظرف، فقال له :" يا شيخنا، هذا الظرف من عجيب أدب هذين السيدين الجليلين، لقد قلنا للإمام الخميني: إنّ السيد الصدر صار عالما كبيرا وهو يوزّع الراتب، فلا داعي لتعطيه راتبا، فقال لنا : (أنتم أرسلتم إليه وهو ردّه ؟!) فقلنا : لا ، فقال : (وبأي داع أقطعه ؟! نحن نرسل) .. والسيد الصدر لم يرجعه ليقول لنا اقطعوه، فبقينا نرسل له، وكنت أعطيه إلى السيد محمود الهاشمي، وعندما التقيت بك خارجا من البيت قلت لك أعطه إلى السيد الصدر"، فقال له الشيخ أديب : " سيّدنا بعد ما في داعي، لأن السيد كان يعطيه إلى الطلاب"، ومن حينها انقطع هذا الراتب.

موقف الشهيد الصدر :

لقد كان السيد الصدر يدعو بالهداية لمن يؤذيه ويطعن فيه، وذات مرة جرى الحديث عن بعض الأشخاص الذين يتقولون عليه، فحاول أحدهم انتقاصه بذكر بعض عيوبه فمنعهم من الدخول في هذه الأمور التي تؤدي إلى الغيبة.

وانفصل أحد طلابه (وهو من السادة وكان ربما اتهمه بالعمالة) عن درسه وعن خطه الفكري الإسلامي، ثم بدأ يشتمه وينال منه في غيابه أمام الناس، وكان الكثير من كلماته يصل إلى مسامع السيد الصدر. وكان السيد كاظم الحائري ذات يوم جالساً عنده فجرى الكلام عن هذا الطالب، فقال السيد الصدر :" أنا لا زلت أعتقد بعدالة هذا الشخص وأن ما يصدر منه ناتج من خطأ في اعتقاده وليس ناتجاً من عدم مبالاته بالدين".

وسمع أحد تلامذته ينتقد السيد يوسف الحكيم فأنّبه مغتاظا وقال : " لماذا تتحدث عن هذا السيد ؟! هذا السيّد مقدس .. لا ينبغي لكم أن تتحدثوا ضد فلان أو فلان، قناعاتهم شيء ودينهم وقداساتهم محفوظة. القناعات قد تختلف". وكان أحدهم يتكلم عليه فقيل له :" اذهب وصارحه، قد تزول منك التعقيدات" فقال: " أخاف أن أذهب، وعندما أراه وأستمع إلى حديثه وأطلع على أخلاقه عن قرب أحبّه فيقع كلامه في قلبي".

ومن باب المثال: كان الشيخ محمد طحيني حاضراً في مجلس السيد بحر العلوم في شهر محرم الحرام حيث كان يُقام مجلس عزاء كبير، فجاء السيد الصدر إلى المجلس وجلس إلى جانب أحد المشايخ الذي أعرض بوجهه إلى الجانب الآخر، وكان الشيخ طحيني جالساً إلى جنبهما. وبعد لحظات أخذ السيد الصدر يحدّث الشيخ بأسلوب رقيق والشيخ ممتعض الوجه، ولكنه أكثر من الحديث والملاطفة والنقاش. وما هي إلا دقائق حتى

انفتحت أسارير الشيخ وأخذ يقبل بكله على السيد الصدر في الحديث والحوار. وبعد فترة راح الشيخ يتردد على دار السيد الصدر ويكن له كل احترام وتقدير وإعجاب وإجلال.

وكان السيد حتى بعد تصديه للمرجعية إذا التقى بالسيد الخوئي يقبّل يده، ولم يكن يسمح لأحد بذكره بشيء مع ما كان يلاقيه من حاشيته، وعندما سُئل عن السبب قال: " حتى أعلمكم كيف تحترمون أساتذتكم" . وكان شديد التحفظ في التعامل مع ملف حاشية السيد الخوئي ، وكان في هذه الأجواء يقول : " لو يُقال إن السيد الصدر يعتبر خادماً للسيد الخوئي فهو أهون علي وأحب إلي من أن يُقال إن بين السيد الصدر والسيد الخوئي حزازة".

حتى أنه لم يكن يقبل أن تحكى في مجلسه لطيفة (نادرة) عن السيد الخوئي يحكيها الأخير عن نفسه، ولما قيل له : " هو يذكرها ويتحدث فيها" قال : " منه لطيفة، ومنا وخصوصاً هنا ليست لطيفة".

تمني الموت:

كان السيد الصدر يقول عندما تتراكم عليه المشاكل الناشئة من هذا الوضع : " لقد بلغت من العمر ما بلغه أبي وأخي، فلم لا يعاجلني الموت ويريحني ؟! ".

وذات مرّة وعندما وصل إلى بحث حجّية الظهور من دورته الأصولية الثانية تحدّث عن قوله تعالى: "منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات، فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله". وأضاف : " .. لقد قسمت فيها الآيات القرآنية إلى قسمين: محكمات ومتشابهات، ثم عابت على أهل الزيغ والهوى من اتّباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والتأويل. وقد استفيد منه النهي عن اتباع المتشابه حيث اعتبرت ذلك طريقة أهل الزيغ، وإلا فلا نهي صريح عن اتباع المتشابه. ولكن من الواضح أن المتفاهم عرفا من هذا التعبير بعد تلك القسمة الثنائية أنّ النظر إلى الذين يختصمون باتّباع المتشابهات ويلتقطونها ويفصلونها عن المحكمات ابتغاء الفتنة والمشاغبة وتشويش الأذهان من خلال ذلك التشابه كما هو شأن من يريدون الفتنة والمشاغبة". ثم استطرد قائلا : " وبعض الناس لأنّ لديهم موقفا مسبقا منك يغضّون النظر عمّا تقوم به من جهد و ... فحتى لو كنت من عائلة علمية وتشتغل بفقه الإمام الصادق (ع) منذ نعومة أظفارك، وتبحث في الرجال وفي وثاقة هذا وذاك ... ولكنّهم يقطعون النظر عن هذا كله، ويأخذون مقطعا من كلامك يكون متشابها غير واضح، ويقتطعون جملة منه فقط لأنهم يريدون أن يتهموك، وتكون هذه الجملة أعظم عندهم من كل هذه القرائن التي تدل على هويتك

وشخصيتك وانتمائك ومضمونك، فيقال عنك إنّك فلان شيء". وكان واضحا لطلابه أنّه يقصد نفسه.

وعندما صدر كتاب (الحلقات) راجع الشيخ عبد الحليم الزهيري مطلب حجّية الظهور ليرى ما إذا كان شيء من ذلك قد انعكس على الكتاب، فعثر على قوله : " الثاني : لو سلمنا أنّ الظاهر من المتشابه، فلا نسلم أنّ الآية الكريمة تنهى عن مجرد العمل بالمتشابه، وإنّما هي في سياق ذمّ من يلتقط المتشابهات فيركز عليها بصورة منفصلة عن المحكمات ابتغاء الفتنة. وهذا مما لا إشكال في عدم جوازه حتّى بالنسبة إلى ظواهر الكتاب، فمساق الآية مساق قول القائل: إنّ عدوي يحاول أن يبرز النقاط الموهمة من سلوكي ويفصلها عن ملابساتها التي توضح سلوكي العام".

التنحي عن التدريس وعن صلاة الجماعة:

نتيجة لكل ما لاقاه السيد من ضغوط وجفاء ومعاملة سيئة من قبل المحيط الحوزوي قرّر الابتعاد وترك التدريس وإمامة الصلاة، فقد نفد صبره، وضاقت نفسه، بجانب هذا كله فقد شعر السيد أن هناك ضغطاً على طلابه من قبل حواشي باقي العلماء والمراجع، حيث كانوا يحذرون الطلاب من الحضور عنده بحجة أن هذا الرجل سياسي ويتدخل في الأمور السياسية وهو رجل حزبي، فكانوا يضغطون على طلابه. كانت هذه الأخبار تبلغ السيد الصدر، وكان حينها يدرّس في تلك الفترة في مسجد الطوسي حيث كان عدد طلابه كبيراً. وذات يوم في جمادى الأولى ١٣٩٨هـ جاء السيد الصدر إلى مجلس بحثه وأثار فجأة مسألة جديدة خارجة عن محل البحث، فتعجب تلامذته من ذلك. وكانت المسألة عبارة عمّا يتم بحثه في الفقه حول الرجل الذي يكون سفره أكثر من حضره، حيث يُبحث عن كيفية صلاته وصومه وما شابه.

كان موضع البحث عبارة عن مسألة أخرى لا علاقة لها بهذه المسألة كما ذكرنا، إلا أنّ السيد الصدر ذكر : " أنه أحصى في دورته الأصولية الثانية خمسمائة محاضرة ألقاها خلال خمس سنوات، وهذا يعني أنه مقابل كل يوم درس كان هناك يوما تعطيل، وهذا لا مثيل له في أية مؤسسة علمية، ثم ذكر أن والده لم يترك له إرثاً من عقار أو غيره، وأنه كان يعيش في بيت مستأجر، وكان يدخل في خزانة الحائط بعيداً عن ضوضاء الأطفال ويقضي عشر ساعات في الخزانة لا يخرج منها إلا لقضاء حاجته أو لأداء الصلاة.

ثم علّق السيد الصدر على ذلك بقوله: " إني أصبح مرضي أكثر من صحتي، وقد أديت ردحاً من الزمن دور التدريس العلمي وتربية الطلاب، وقد داهمتني اليوم عوارض الشيخوخة والأمراض، فعليكم أن تبحثوا عن أستاذ غيري تواصلون عنده الدرس .. " وأضاف :" في هذه الفترة الزمنية التي ربيت فيها تلامذة وطلابا، ربما استطعت أن أثبت الجدارة في هذا الأمر، وأنا أدعوكم الآن إلى أن تفتشوا عن أستاذ غيري، وأنا أترك البحث".

وبالفعل أعلن السيد الصدر عن تعطيل البحث وتركه التدريس، كما اعتزل صلاة الجماعة في الحسينية الشوشترية في وقت جد مبكر على خلفية المضايقات التي تعرض لها طلابه وأنصاره.

تحركات طلاب السيد الصدر:

وكانت هذه طامة كبرى على رؤوس تلامذته الذين لم يتحملوا ذلك وتألموا كثيراً، وكان قبل ذلك بمدة أو في وقت متزامن قد أعلن عن تعطيل صلاة الجماعة في الحسينية الشوشترية في النجف الأشرف للسبب نفسه.

وكان أن قصده السيد علي أكبر الحائري في منزله وجلس بين يديه باكياً وقال له:" سيدي خسرنا بالأمس نعمة الصلاة خلفك، وقد خسرنا اليوم نعمة درسك القيّم، إذن فقد فقدنا كل شيء، لماذا حرمتنا من درسك؟ ما هو السبب في ذلك؟ وماذا نصنع بعد هذا؟" فجعل السيد الصدر يسليه ويخفف عنه. وبعد ذلك عرفوا السبب الحقيقي وهو ضغوط حواشي باقي العلماء. وكذلك قصده السيد محمد الحيدري لمعرفة أسباب التعطيل، فأجاب:" إن الاتهامات التي توجه لنا كثيرة من قبل البعض في الحوزة ومنها الحزبية، وهذا الاتهام من شأنه أن يؤدي إلى اعتقال الطلبة وتعرضهم لأشد أنواع التعذيب.. وقد يؤدي إلى القتل. وحفاظاً على الطلبة وسلامتهم اتخذت هذا القرار".

زيارة الشيخ محمد جواد مغنية إلى النجف:

بعد اندلاع الحرب اللبنانية في ١٩٧٥/٤/١٣م صمّم الشيخ محمد جواد مغنية على مغادرة لبنان إلى النجف الأشرف ليمكث هناك فترة من الزمن. حتى أنّه أمّن زوجته بأكثر مما تحتاج إليه لمدة سنة. ثم حمل معه ملازم كتابه (علم أصول الفقه في ثوبه الجديد) وكان ذلك قبل طباعته. وقد نزل أوّل الأمر عند السيد الصدر ، وبقي عنده أياماً حتى أزعجته كثرة الزوار، فاستأذن من السيد الصدر وانتقل إلى أحد الفنادق، فقبل السيد لكن بشرط أن يكون ذلك على حسابه هو. ولما علم السيد محمد رضا السيد محسن الحكيم بقدوم الشيخ مغنية، وكان مدير وولي مدرسة دار الحكمة، ذهب لزيارته بإيعاز من بعض العلماء الذين علموا أن الشيخ مغنية نزل في

الفندق. فذهب السيد محمد رضا ودعا الشيخ مغنية إلى المدرسة وعين له غرفة في الطابق الأول وفرشها بالسجاد الثمين، وهيأ له حاجاته من حرامات وفرش وجميع آلات الشاي. وبعد استقرار الشيخ مغنية في المدرسة خصّه السيد الصدر بوفد يزوره باسمه، وكان السيد الصدر أول من قرأ كتابه (أصول الفقه في ثوبه الجديد) وقد قرأ منه فصولا وردّه دون تعليق.

الشيخ مغنية يستوضح أسباب تعطيل السيد الصدر درسه:

لم ينجح طلاب السيد الصدر في إقناع أستاذهم بالتراجع عن قراره بتعطيل الدرس، وقد بيّن أسباب التعطيل في مجلس التعزية الذي كان يقام في بيته في ليالي الخميس، وكان يحضره كثير من المؤمنين والطلبة والعلماء. وبعد المجلس أخذ الشيخ مغنية يعاتب السيد الصدر على تعطيله الدرس. ويبدو أن الشيخ مغنية لم يكن على علم بدوافع التعطيل، فألحّ على السيد الصدر بالسؤال ليعرف الأسباب. ولأول مرة قام السيد الصدر وتكلم بمحضر الشيخ مغنية عن الحملات التي يتعرض لها وعن طبيعتها وما يمكن أن تسببه لكيان النجف كله.. فانبرى قائلاً: " إن الأوساط الحوزوية أصبحت لا تتقبلني ولا تحب أن أستمر في التدريس، إذن لا داعي لأن أصر على استمراري في الدرس .. هناك معاداة كثيرة ومحاربة كثيرة من أبناء نوعنا عليّ وعلى طلابي في شتى الأنحاء الحوزوية. هذه الكلمات والاتهامات الكثيرة التي تروج ضدي وضد كل من يحضر الدرس، فما أن يحضر أحد من الطلبة حتى تقوم عليه القائمة، فيخوض حربا دفاعا عن نفسه وعن حضوره في الدرس، مما يضطر الكثيرين أن يهربوا من الدرس خوفا على سمعتهم وتجنباً لتلك الاشتباكات. وقبل أيام حدث هذا أيضاً لأحد الطلبة الذين حضروا الدرس جديداً. وقد حدّثني بأنني حضرت درسك ليوم واحد، وخلال هذا اليوم إلى موعد اليوم القادم تلقاني عدّة أشخاص وحذّروني بأنا سمعنا أنك حضرت درس فلان، وكيف تحضر درس فلان؟ فلان مثلا رجل سياسي ! فلان رجل خطر! " ثم أضاف : " هكذا يحاربوني ويحذّرون الطلاب مني، لذا إذا كنت مغضوبا عليه من قبل الأوساط الحوزوية ومن أبناء نوعنا إلى هذه الدرجة فلا داعي لاستمراري في الدرس، فليأخذوا راحتهم في اختيار من يريدون من الأساتذة الآخرين" .

وسرعان ما سكن السيد الصدر دون أن يتخلى عن قراره، لأنه يهدف إلى معالجة هذا الوضع بطريقة يمكن أن تشل نشاط الجهة المقابلة.

وراح الشيخ مغنية يعاتب السيد بأن هؤلاء أعداؤك وأنت حقّقت لهم هدفهم وأفرحتهم بهذا الموقف، والتمس منه باسم الطلبة اللبنانيين الرجوع إلى الدرس، لأن درس الأصول في النجف الأشرف متعين في درسه، فإذا توقف درسه فمعناه توقف المدرسة الأصولية في النجف. ثم استشهد الشيخ مغنية

بتاريخ علمائنا وما لاقوه من الأذى وصبروا في مواصلة الخط الإسلامي الكبير، فالمأمول من السيد الصدر أن يصبر ويتحمل أولئك البطالين. فقال السيد: " إنّني تحملت الكثير في ذلك، إلى أن توصلت إلى باب مسدود لا يمكن فتحه على هذه الحالة، والأفضل لي وللطلبة هو التوقف عن الدرس"، ثم أضاف : " إن الزهرة التي تُرمى على الانسان من الصديق أشد من الحجارة إذا رماها العدو".

وأصر على موقفه إنقاذا لطلابه من الحرج الشديد، ولم يقتنع بحديث الشيخ مغنية حينما حاول إقناعه بالتخلي عن قراره والرجوع إلى التدريس.

الشيخ محمد جواد مغنية ينادي إلى اجتماع علمائي لحماية السيد الصدر:

بعد أن اطّلع الشيخ محمد جواد مغنية على حيثيات الموضوع، نادى إلى اجتماع حضرته شخصيات علمائية معروفة، من بينها السيد جمال الدين الخوئي نجل السيد الخوئي والسيد يوسف الحكيم، ومما قاله لهم :" هذا الرجل أخرج النجف من الكتب الصفراء إلى الكتب البيضاء، هذا الرجل عرّف العالم على النجف الأشرف بعد أن كانت مطمورة ... إذا لم تعملوا على رفع الضغط عن السيد الصدر، فسأرجع إلى لبنان وأعقد مؤتمراً صحفياً أفضحكم فيه أمام الملأ، أنتم تستحقون الحياة؟! يجب أن تموتوا جميعاً .. يجب .. يجب .. " وقد أدّى كلام الشيخ مغنية هذا إلى تليين الوضع تجاه السيد الصدر.

رجوع السيد الصدر عن قراره:

تزامناً مع جهود الشيخ محمد جواد مغنية بدأت جولة المفاوضات مع جهاز السيد الخوئي، وكان السيد علي أكبر الحائري قد قصد مع بعض الطلاب - ربما السيد صدر الدين القبانجي- السيد حسين بحر العلوم ووسطوه ليتحدث مع السيد الصدر ليرجع عن قراره. كما بادر الشيخ محمد إسحاق الفياض إلى التفاوض مع السيد الصدر والسيد الخوئي وقد عكف السيد الخوئي على تلطيف الأجواء والحيلولة دون إصرار السيد الصدر. ولم يطّلع طلاب الصدر على مضمون المفاوضات ولكنهم عرفوا أن السيد الصدر بلّغ السيد الخوئي عتابه على حواشي الأخير. وقد تردّد الشيخ فيّاض عدّة مرّات بينهما، وما عرفه طلاب الصدر هو أن السيد الخوئي وعده بأن يسكت حواشيه. كما نقل الشيخ محمد جواد مغنية إلى السيد الصدر رجاء السيد الخوئي والحاجة إلى رجوعه عن قراره ومباشرة درسه من جديد، ثم اتصل السيد الخوئي بالسيد والتمس منه بشدة الرجوع إلى الدرس.

وأجبر الشيخ مغنية العلماء الكبار على أن يأتوا إلى بيت السيد الصدر وطلبوا منه إعادة نشاطه التدريسي، وقد استجاب آخر الأمر، ولكنه امتنع

عن صلاة الجماعة في الحسينية الشوشترية. وكان هذا التعطيل قد دام أسبوعاً أو أسبوعين. وقد قيل: إن السيد الصدر لم ينوِ تعطيل درسه بشكل كامل ونهائي، وإنما كان بصدد تنبيه السيد الخوئي من أجل التفكير بجدية أكثر فيما آلت إليه أوضاع الحوزة العلمية.

كما قيل إن الوضع لم يتغير، إذ اقتصر دور السيد الخوئي على معالجة الأمور بطريقة غير مباشرة، ولم يذهب إسهامه إلى أبعد من ذلك، فيما لم يكف جهازه المرجعي عن حساسيته المفرطة تجاه السيد الصدر، وفي هذا الاتجاه سعى هذا الجهاز إلى ترشيح خلف للسيد الخوئي، وتمّ الترويج للسيد نصر الله المستنبط الذي توفي فيما بعد عام ١٤١٥ هـ/ ١٩٨٥م.

إثارة الفتنة بين السيد الصدر وبين السيد الخوئي:

انتقلت الجبهة إلى إشعال الفتنة بين السيد الصدر وبين أستاذه السيد الخوئي. وكانت الكثير من الأخبار تلصق بالسيد الصدر، حتى عاتب السيد الخوئي في أحد الأيام السيد محمد باقر الحكيم على حديث نقل له عن السيد الصدر، وخلاصته أنّ السيد الصدر يكيل التهم للسيد الخوئي ويعمل على إضعاف مرجعيته. ومع أنّ السيد محمدٍ باقر الحكيم استبعد ذلك، إلا أنّه وعد بإبلاغ السيد الصدر بذلك. وعندما اطلع السيد الصدر على الموضوع، قصد السيد الخوئي واجتمع به ونفى له ما نقل له عنه، قائلا : إنّه ليس من منهجه. وكان جواب السيد الخوئي أنّ هذا ما أخبره به (ج.خ) عن السيد ذيشان حيدر جوادي أحد علماء الهند.

فقال السيد الصدر : " هل تثقون بالسيد ذيشان ؟"

السيد الخوئي : "نعم".

السيد الصدر : " نكتب له رسالة ونسأله عن صحة ما قال (ج.خ) " .

فتمّ الاتفاق على ذلك وكتب السيد الصدر رسالة بهذا الخصوص وعرضها على السيد الخوئي ثم أرسلها إلى السيد ذيشان.

وعندما جاء الجواب، فتح السيد الصدر الرسالة أمام السيد الخوئي، ومما جاء فيها أن (ج.خ) هو الذي تهجّم على السيد الصدر وأنّ السيد ذيشان لم يقل أي شيء حول الموضوع، وأنّ ما نسب إليه - أي السيد ذيشان - وإلى السيد الصدر فهو كذب. ثم قال السيد الصدر للسيد الخوئي : " يظهر أنّ (ج.خ) لم يترك منهجه في كيل التهم إلى الآخرين، وإنّكم سبق وأن طردتموه من مكتبكم البراني".

وبعد أن وصلته أخبار تفيد أنّ بعض طلابه حاولوا كسب السيد ذيشان حيدر جوادي إلى جانب مرجعيته، بعث إليه السيد الصدر برسالة أكد له فيها أنّه بريء من هذه الأعمال، وقد جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم

قرّة العين العلامة الجليل السيد ذيشان حيدر حفظه الله تعالى ورعاه ومن كل سوء وقاه.

السلام عليكم زنة دعائي لكم بالتأييد والتسديد ورحمة الله وبركاته.

وبعد فقد تسلمت قبل زمن رسالتكم التي تبشرون فيها عن إكمال ترجمتكم لكتاب البنك اللاربوي وكتبت إليكم الجواب على هذه الرسالة وابتهلت إلى المولى القدير سبحانه وتعالى أن يتقبل منكم هذا الجهد بأفضل ما يتقبل أعمال الصالحين إنّه ولي التوفيق.

قبل زمان نقل لي ناقل عن العلامة الجليل السيد جمال الدين نجل سيدنا الأستاذ دام ظله الوارف حديثا مؤدّاه أنّه دامت بركاته نقل عنكم أنّكم أخبرتموه بأنّ بعض تلامذتي أقاموا لكم ولائم وعقدوا بعض الجلسات وكانوا يحاولون إقناعكم بالعدول عن مرجعية سيدنا الأستاذ دام ظله والتوجه في الإرجاع والتقليد إلينا، وأنّكم قابلتم هذه المحاولات بثبات ولم تستجيبوا لها. وحينما سمعت الخبر في البداية كنت متأكدا من عدم خلو ذلك من التباسات أوجبت الاشتباه وكان تأكدي على ضوء ما سمعته أنا منكم من الأحاديث التي دارت بينكم وبين السيد أبي عمّار جمال الدين دامت بركاته، ولكن لمزيد الاحتياط اتصلت مع التلامذة الذين احتفوا بكم ودعوكم إلى بيوتهم وقلت لهم إني بريء من كل شخص يمارس مثل هذا العمل، فكانوا كلهم يؤكدون عدم قيامهم بذلك وكانوا يريدون أن يكتبوا إليكم ليجعلوا منكم شاهدا لصدقهم أمامي، فأبرزت لهم اقتناعي وعدم الحاجة لتسبب المتاعب لكم. ولكنّ شعوري أخيرا ببعض الآثار جعلني أشعر بأنّ مقتضى الوظيفة الشرعية أن أكتب إليكم مستوضحا واقع الحال، وذلك لأني إذا ثبت لي أنّ شخصا ممن ينسب نفسه إليّ قد تكلم معكم لإقناعكم بالعدول في الإرجاع والمرجعية من سيدنا الأستاذ دام ظله إلي فإني أعتبر ذلك الشخص عدوا لي وأسحب ثقتي منه لأن المخلص لي هو من يسير كما أسير ويعظم من أعظمه ويقدس من أقدسه، وأنت تعلم علاقتي الروحية بسيدنا الأستاذ، وتعلم أنك رجعت إليه وأعلنت عنه على إثر السؤال مني، وأرجو الجواب في أسرع وقت وبأوضح صورة .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد باقر الصدر ".

السيد الصدر يبث همّه إلى الشيخ محمد باقر الناصري:

بعد أدائه صلاة الصبح في حرم الإمام علي بن أبي طالب (ع) فاتح السيد الصدر الشيخ محمد باقر الناصري، الذي كان يصلي إلى جانبه، عن مرارة ما يلاقيه مما يُنسب إلى مكاتب العلماء، وكادت الدموع تطفر من عينيه أو طفرت وهو يتحدث، ثم قال له :" أنّا يهمّني رأي سيّدنا الأستاذ السيد الخوئي، وأنا أتألم لأمرين: الأول: ما قد يُساء فهمه حول تحرّكي أو ما ينقله الناقلون، وأنا لا أريد أن يتكدّر صفو سيدنا الأستاذ، وأنا أعوذ بالله أن أكون مؤذيا للسيد الخوئي. والأمر الثاني: أن لا تتكدّر مسيرة العمل الإسلامي". وكأنّه- بل لعله قال ذلك بصراحة - أراد أن ينقل الشيخ الناصري ذلك إلى السيد الخوئي، فوعده الشيخ الناصري بذلك.

وبالفعل ففي اليوم نفسه زار الشيخ الناصري السيد الخوئي الذي اصطحبه معه إلى بيته في الكوفة حيث استقبل وفدا رسميا. وبعد انصراف الوفد ذكر الشيخ الناصري للسيد الخوئي أنّ قلب السيد الصدر كاد يخرج من الألم مما يلاقي من الناس المزايدين أو من الحواشي، فأبرز السيد الخوئي مشاعر الحب والاحترام والاعتناء بالسيد الصدر ودعا له، وقام بتحميل الشيخ الناصري رسالة إلى السيد الصدر مفادها أنّه يكنّ له كل حب وتوقير، ولم يشر إلى أية ملاحظة جزئية، خلافا لما كان يتوقعه الشيخ الناصري. كما أظهر السيد الخوئي تعجّبه كيف تبلغ السيد الصدر أمور قد يستاء منها أطراف قد تنسب إليه (أي السيد الخوئي).

الموقف من السيد الصدر يبلغ ذروته:

ذات مرّة دخل السيد حسن الكشميري على السيد محمد كلانتر وكان عنده السيد رؤوف كمّونة رئيس بلدية النجف الأشرف والشيخ محمد تقي الجواهري الذي كان حين دخول السيد الكشميري منفعلا ويقول :" كلك تلميذ عند السيد الخوئي، تريد أن تتناطح معه وتترفع عليه ..."، ولم يكن السيد محمد كلانتر على انسجام مع السيد الخوئي، فكان يناقش الشيخ الجواهري في ما يقوله، على الرغم من عدم انسجامه مع السيد الصدر. وكان السيد كلانتر قد استبعد مجموعة من الأساتذة المرشحين للتدريس عنده في جامعة النجف لأنّه وجد فيهم نَفَس السيد الصدر. ولكنّ السيد محمد صادق الصدر كان على أية حال إمام الجماعة في جامعته. وفي هذه المرحلة كان موقف جهاز السيد الخوئي من السيد الصدر قد بلغ ذروته، خاصة بعد أن خلق تلامذته جوا خاصا في سفراتهم إلى بلاد الخليج.

ومن هنا زار السيدَ الصدر السيدُ جمال الدين الخوئي والسيد جلال فقيه ايماني، ودخلا عليه في حالة غير طبيعية أسمعاه فيها كلاما قاسيا، منه ما

قاله السيد جمال الدين : " ترى الزم حدّك وتأدّب، وإلا أقول (لأبو) عدنان"، وكان أبو عدنان في مديرية أمن النجف يومذاك !! .

زيارة السيد جلال فقيه إيماني:

جاء السيد جلال فقيه إيماني صهر السيد الخوئي إلى بيت السيد الصدر في الكوفة، وكان يتكلم بانفعال وعصبية ويحاسبه على تصديه للمرجعية، وطبعه (الفتاوى الواضحة). هذا كان موقف الأباعد، وموقف حواشي المراجع، وفي الوقت ذاته، ومما زاد من ألم السيد الصدر وأشعل الحرقة في داخله وأجّج النار بين جوانحه أنّه رأى حتى بين طلابه ومريديه وحاشيته اختلافا حول طرحه لمرجعيته في هذا الوقت، ووجدهم مختلفين فيما بينهم، ما بين مؤيد لمرجعيته وما بين من له رأي آخر.

انقسام طلاب السيد الصدر حول تصدّيه للمرجعية:

كان طلاب السيد الصدر والمقربين منه منقسمين إلى اتجاهين:

فمنهم من كان يؤمن بضرورة انصراف السيد الصدر وبشكل أساسي إلى البحث والدرس والعمل الحوزوي المحض، شأنه شأن الفقهاء والمراجع الذين لا يشغلهم عن ذلك شاغل ولا يصرفهم عن ذلك صارف. وهو اتجاه كان يلمسه الشيخ خير الله البصري عند السيد محمود الهاشمي الذي كان يرى ضرورة أن يبرز السيد الصدر ويظهر إلى الناس كما هو حال السيد محمود الشاهرودي مثلا. خاصة أنّ من هؤلاء من يعتقد أنّ وضع المرجعية، أي مرجعية السيد الخوئي، قد صار ضعيفا بعد وفاة السيد محسن الحكيم، حتى اعتبر السيد عماد الدين التبريزي خلو (المسائل المنتخبة) من أحكام الاعتكاف شاهدا على عدم قدرة السيد الخوئي على تحمّل أعباء المرجعية.

بينما لم يكن يرى الشيخ البصري وآخرون ذلك للسيد الصدر، بل كانوا يرون له أن يكون مرجعا فكريا للمسلمين على مستوى ما صدر عنه من كتب، لأنّه ليس هناك من يقوم بهذا الدور سواه، بينما يوجد أكثر من واحد ممن يمكن أن يقوم بالدور الذي يقوم به السيد محمود الشاهرودي وأمثاله.

وفي هذا السياق صارح السيد طالب الرفاعي السيد محمود الهاشمي حول هذا الموضوع وذكر له أنّه وجهاز السيد الصدر ورّطوه في المرجعية التي لم تكن مكتملة العناصر، إلا أنّ السيد الهاشمي كان يعتقد أنّ الاتجاه نحو المرجعية يحصّن السيّد الصدر وينفي عنه تهمة السياسي ويلبسه ثوبا دينيا ومرجعيا بعيدا عن وضعه وتاريخه السياسي.

وكان السيد طالب الرفاعي سيء الظن ببعض أفراد جهاز السيد الصدر، وكان يحذّره من الشيخ علي كوراني والسيد محمد باقر الحكيم، الذي وصفه بأنّه حكيمي من قرنه إلى قدمه، ومراده من ذلك انّه لا يمكن للسيد الصدر الاعتماد على السيد الحكيم لأنه محكوم لآل الحكيم الذين ليسوا راضين من الأصل عن ارتباطه بالسيد الصدر، فمراده من أنّه حكيمي من قرنه إلى قدميه أنّه مرهون لهم ويريد مسايرتهم، فلا يتحصّل منه شيء لصالح مرجعية السيد الصدر. ومن السيّدين كاظم الحائري ومحمود الهاشمي. وقد أملى السيد الرفاعي رسالة عبر الهاتف على الشيخ منير الطريحي وحملها غالب الطريحي إلى السيد الصدر من القاهرة، ولم يكن لدى الرفاعي وقت ليكتبها بنفسه، كانت تحمل تعريضا بالسيدين الحائري والهاشمي وأنّهما لا ينفعان في مرجعيته. ولما قرأها السيد الصدر التفت إلى حاملها بشيء من الغضب لأنّ الخط ليس خط السيد الرفاعي.

السيد الصدر يقطع دابر الفتنة:

بعد الحادثة الأخيرة (زيارة إيماني وانفعاله وغضبه من السيد الصدر وثورته في وجهه وفي بيته بسبب طبعه للفتاوى الواضحة وطرح نفسه مرجعا في قبالة مرجعية السيد الخوئي) بيومين أو ثلاثة قصد السيد الصدر بيت السيد الخوئي ليقابله، وكان معه أحد المشايخ، ولكنّه لم يدخله معه، فبقي خارج الغرفة يستمع إلى ما يدور في الحديث الذي دام ما يقارب من عشرين دقيقة، وقد أبرز السيّد الصدر فيه تواضعه وأقسم للسيد الخوئي أنّه لا يناطحه.

ويبدو لي أنّه في هذه الجلسة لجأ السيد الصدر ومن أجل تهدئة الأوضاع إلى كتابة جواب عن سؤال مفترض أملاه هو على أحد الجالسين وبحضور السيد الخوئي، ونُسب إلى السيّد عبّاس الخوئي أنّه هو صاحب السؤال، وقيل إنّ السائل هو وفد من وفود البحرين، ولكنّ الصحيح أنّ السيّد جلال هو من طلب ذلك.

أمّا نص السؤال والجواب الذي يرجع تاريخه إلى ٨ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦/٥/٢٨م فهو ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

من المعلوم لدينا علاقتكم الروحية منذ القديم مع سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الأعلى السيّد الخوئي دام ظله الوارف، لكن هناك بعض المسموعات التي أوجبت الإجمال مما استدعى أن نتوجه إليكم بالسؤال مباشرة عن هذا الموضوع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ هذا السؤال الذي تتفضلون بتوجيهه إليّ يوجب شكري من ناحية إذ تتيحون لي بذلك الفرصة للتعبير عن واقع يعيش في نفسي، ويؤلمني من ناحية أخرى ألما شديدا لأنّه يوحي بأنّ علاقة هي من أشرف وأطهر وأقدس العلاقات في حياتي وكأنّها عرضة للشك والإجمال، وهي علاقتي بسيدنا وأستاذنا وسندنا، أستاذنا آية الله العظمى الإمام الخوئي دام ظله الوارف، هذا الأستاذ الذي أبصرت نور العلم في حوزته وذقت طعم المعرفة على يده، وإنّه أعظم ما ينعم الله به على الإنسان بعد الإيمان العلم. ولئن كنت قد حصلت على شيء من هذه النعمة فإنّ فضل ذلك يعود إليه، فلست إلا ثمرة من ثمرات وجوده وفيضه الشريف، وولدا من أولاده الروحيين.

وإذا كان هناك من يحاول غضّ النظر عن هذه الحقيقة أو ينسب هذا الغض إليّ إما لأجل صرف قلب الأب عن ابنه، أو لأجل استغلال مكانة هذا الابن للتأثير على المقام الأعلى للأب، فإني أغتنم فرصة سؤالكم الكريم لأقول لكم بكل وضوح: إنّي أتعامل مع السيّد الخوئي دام ظله وسأظل كذلك كما يتعامل الابن مع أبيه، والتلميذ مع أستاذه، والطالب مع مرجعه، وقد صرّحت بذلك مرارا للناس وللطلبة وللمسؤولين، ولا أرضى عن أي شخص إلا أن يعترف بذلك ويتعامل معي ومعه دام ظله على هذا الأساس، وإذا أراد شخص أن ينوّه باسم هذا الجانب فليعلم أنّ مما يزعجني أشدّ الإزعاج أن يخرج هذا التنويه من مقتضيات العلاقة الطولية بين الابن وأبيه والتلميذ وأستاذه، وكل خروج عن هذه المقتضيات مناقض لسلوكي وتعاملي، وقد جرى ديدن العلماء على التمييز بين الأمرين، بين الإفتاء وإصدار ما يتضمن ذلك لمن يحتاج إليه في عمله الديني الشخصي، وبين الالتزام بمتطلبات المرجعية العليا وصيانتها، ونحن نرى لزوم التمييز بين هذين الأمرين فلا يجوز الخلط بينهما، ولا يجوز مسّ مقام المرجعية العليا، ولا يجوز أي عمل يقصد به تفتيت الشمل المجتمع للمؤمنين على مرجعيتهم العليا وتمزيق كلمتهم.

وإنّي أبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يمتّعنا بدوام وجود السيد الأستاذ والاستظلال بظله الوارف والقيام بواجب البنوّة له ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٨ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ
محمد باقر الصدر "

ولم يكن السيّد محمود الهاشمي راضيا بما قام به أستاذه، ولو كان يعلم بما سيقدم عليه لتدخل، ولكن يبدو حساسيّات جهاز السيّد الخوئي كانت قد وصلت إلى ذروتها وأراد السيّد الصدر سحب الذرائع فكان منه ما كان.

وكان السيّد الصدر شديد التحفظ في التعامل مع هذا الملف، وكان في هذه الأجواء يقول :" لو يقال إنّ السيّد الصدر يعتبر خادما للسيّد الخوئي فهو أهون عليّ وأحب إليّ من أن يقال إنّ بين السيّد الصدر والسيّد الخوئي حزازة".

الاختلاف في التفكير ومحاربة الصدر:

ربما يرجع قسم من الخلاف بين السيّد الصدر وبين السواد الأعظم من حوزة النجف الأشرف إلى طريقة تفكير كل منهما، وإلى نظرة كل منهما إلى دور الحوزة وما هي مطالبة بتقديمه.

لقد كان السيّد الصدر يعتقد أنّ الحوزة العلمية هي منطلق التغيير، ولذلك يقول:

" الحوزة هي واجهة الإسلام في نظر الأمة وهي المعبّر الشرعي عن هذا الإسلام وأحكامه ومفاهيمه وحلوله لمشاكل الحياة، وهذه النظرة من الأمة إلى الحوزة ليست أمرا تلقائيا أو مدسوسا أو مصطنعا، وإنّما هي جزء من التخطيط الواعي الذي وضعه سيّدنا صاحب العصر (ع) حينما أنهى عهد النيابة الخاصة واستبدل ذلك بالنيابة العامة، وكان معنى الاستبدال بالنيابة العامة جعل الطليعة الواعية المتفاعلة مع الإسلام فكريا وروحيا وعاطفيا، جعل هذه الطليعة الواعية العاملة العادلة هي المسؤولة عن حماية الرسالة، وهي المؤتمنة على هذه الأمانة الغالية التي اضطر سيّدنا القائم أن يغادرها إلى غيبة قد تطول".

وإلى جانب إيمانه هذا، فقد كان يشدّد على طلابه بأنّ ما يتم تحقيقه والتدقيق به في الحوزة لا ينبغي أن يكون الغاية القصوى التي ينبغي أن يطمحوا إليها، ولذلك شدّد عليهم قائلا:

" قلنا تكرارا ومرارا إنّ كل هذه المطالب العلمية إنّما نريدها وإنّما نتسلح بها لأجل أن ننزل بها إلى ميدان الصراع والعراك مع أعداء الإسلام ومع أعداء الدين لحماية الإسلام، وإلا مجرد الاطلاع واستيعاب المطالب الأصولية والفقهية الدقيقة والتبحر في هذه العلوم تبحرا كاملا لا يغير من وضع الإسلام شيئا ولا يقدّم من وضع الإسلام خطوة، لا يحل من مشاكل المسلمين مشكلة ولا يقلل من آلام الأمة ألما من الآلام.

أي وضع يمكن أن يتغير لصالح الإسلام فيما لو فرضنا أنّنا توصلنا إلى أنّ السورة ليست جزءا من الصلاة بعد أن كانت السورة جزءا من الصلاة في فتوى العلماء الأخيار السابقين، هل بهذا نقوم بفتح من فتوح الإسلام ؟! هل

بهذا نحقق انتصارا للإسلام ؟!، هل بهذا نقلل من المآسي التي يعيشها المسلمون ؟! ..

لعلّكم ترون أنّي أشد الناس شوقا إلى هذه المطالب الصناعية واهتماما بها وحرصا عليها وسعيا وراءها، وأريد منكم أيضا هذا، ولا أقصد من هذا الكلام التزهيد في البحث الصناعي، وأنتم ترون أنّ وضعي الخارجي وعملي الخارجي مبني على الاهتمام جسدا بهذه المطالب الصناعية والتعب في سبيل تحصيلها وتدبرها، وأنتم يجب أيضا أن تكونوا هكذا، لكنّ الكلام في طبيعة النظرة إلى هذه المطالب".

وكان السيّد الصدر قد انجرّ إلى التوغل في بعض الأبحاث الصناعية على الرغم من عدم إيمانه بجدوى بحثها : فقد ذكر أمام الشيخ عبد الحليم الزهيري أنّه يعتبر الكثير من أبحاث علم الأصول مضيعة للعمر، وأنّه إنما اضطر إلى بحثها وفق الوتيرة المعهودة كي تعترف به الحوزة فحسب، وهو ما ذكره للشيخ محمد إبراهيم الجنّاتي بعد صدور الجزء الأول من كتاب (بحوث في شرح العروة الوثقى) مع ما ظهر منه في مقدّمة الكتاب من عدم رضاه عن أسلوب البحث الفقهي الذي سار عليه في الكتاب والذي جاء وفقا للأساليب المعهودة، حيث قال له :" لقد كتب هذا الكتاب لكي لا ينكروا علمنا". كما سمع منه السيّد كمال الحيدري وصفه علم الأصول بأنّه طغى ثم طغى ثم طغى.

وعلى أي حال فإنّه من الواضح أنّه لم يكن راضيا عن أداء الحوزة العلمية في عصره، ولذلك يقول : " لماذا تعيش الحوزة في هذا البلد مئات السنين، ثمّ بعد هذا يظهر إفلاسها في نفس هذا البلد الذي تعيش فيه ؟! في نفس هذا البلد الذي تعيش فيه يظهر إفلاس هذه الحوزة، وإذا بأبناء هذا البلد، وإذا بأبناء هذا البلد أو ببعض أبناء هذا البلد يظهرون بمظهر الأعداء والحاقدين والحاسدين والمتربصين بهذه الحوزة !!!.

ألا تفكرون في أنّ هذه جريمتنا قبل أن تكون جريمتهم؟ في أنّ هذه هي مسؤوليتنا قبل أن تكون مسؤوليتهم؟ لأننا لم نتعامل معهم، نحن تعاملنا مع أجدادهم ولم نتعامل معهم! فهؤلاء، هذه الأجيال التي تحقد علينا، تتربص بنا اليوم، تشعر بأنّنا نتعامل مع الموتى، لا نتعامل مع الأحياء! ولهذا يحقدون علينا، ولهذا يتربصون بنا، لأننا لم نقدم لهم شيئا، لأننا لم نتفاعل معهم".

بل وربما كان يائسا من إصلاح الحوزة آنذاك، ولذلك - وفي مرحلة الثمانينات الهجرية على ما يبدو- عبّر للشيخ عبد الهادي الفضلي في مجلس خاص عن هذا اليأس بقوله: إنّ علينا أن نصبّ عليها النفط ونحرقها ثم نعمل على تأسيس حوزة جديدة. وعلى الرغم من التزامه

سياسة سحب الذرائع، إلا أنّه كان يحذر من أنّ الوقوف التحطيمي بوجه أعمال الصلاح سوف لن يعود بالخير، بل سيؤدي إلى الدمار الشامل، وفي هذا يقول: " اليوم أمام كل واحد منّا صار واضحا أنّ أي انحراف عن خط الإسلام في سلوكنا، في وضعنا، في أخلاقنا، في عواطفنا، هذا الانحراف، هذا التكاسل، هذه النزعة التحطيمية التحريمية لأي نوع من العمل الصالح في الحوزة، هذا الذي يؤدي بنا إلى ما أدّى، وسوف يؤدي إلى الدمار حتما إذا لم يتغير الوضع الداخلي في الحوزة. لا يكفي أن يتغير الوضع الخارجي، يحتاج الوضع الداخلي إلى التغيير، تحتاج ضمائرنا إلى تطهير، تحتاج نفوسنا إلى تطهير، نحتاج أن نشعر بمسؤوليتنا اليوم ...".

يقول الشيخ محمد رضا النعماني :" لقد استغل بعض الأطراف حالة العداء الدائمة بين السيّد الشهيد والسلطة لعزله وتهديد مرجعيته، وكانت هذه الأطراف في نشاطها وفعّاليتها أقوى من السلطة وأخطر منها في أحيان كثيرة، فعلى مستوى الحوزة العلمية استطاعت أن توجد حالة من الرعب والخوف عند الطلبة أدّت إلى امتناع بعضهم أو الأصح عدد كبير منهم من حضور أبحاث السيّد الشهيد الصدر العلمية التي لا علاقة لها بأي عمل سياسي أو جهادي، وكذلك التردد على منزله وحضور مجلسه العام.

وعلى مستوى الأمة والجماهير، فإنّ ما وقع ليس أيسر ممّا وقع للطلبة في الحوزة. وأتذكر أنّ رجلا من المناطق الجنوبية في العراق جاء إلى النجف لزيارة أمير المؤمنين (ع) فحدّث السيّد الشهيد بما جرى له، فقال: كنت لا أعرف أين يقع منزلكم، وكانت رغبتي شديدة أن أزوركم وألتقي بكم، فوقفت في الصحن الشريف أنتظر من يدلني، فمر بقربي أحد المعممين، فسألته عن منزلكم فقال لي: إنّ منزل السيد الصدر مطوّق من قبل سلطات الأمن، وسوف تعتقل حال وصولك. ثم سألت آخر وآخر فكان الجواب واحدا، إلا أنّ أحد الطلبة الشباب دلني على منزلكم، وأخبرني بأنّ الأمور طبيعية، وقال لي: لا تخف، وأتى بي إلى هنا، وأنا الآن أرى الأمور طبيعية. فلماذا يفعل هؤلاء هكذا.

هذا النموذج يعبر عن مئات أو آلاف النماذج المشابهة التي كانت تصلنا أخبارها بين الحين والآخر، وما خفي أكثر وأكبر، وكانت السلطة تغذّي هذا الطرح وتدعمه، وتحاول إرهاب أكبر عدد من الناس من خلال الحملات النفسية المشابهة.

اعتمدت السلطة في حربها النفسية على أمرين:

الأول: الاعتقالات التي تعرّض لها السيّد، وكذلك أنصاره وأعوانه من بين المراجع والمرجعيات التي كانت قائمة آنذاك في النجف الأشرف، فكان يُشاع

بين الناس أنّ السلطة لم تكن لتعتقل الصدر لولا تورّطه بأمور خطيرة، وإلا فلماذا لا تعتقل المراجع الآخرين؟

الثاني: مقاطعتها السيّد الشهيد، وهو أمر في غاية الأهمية، فكان يُقال: إنّ السلطة لا تعترف بمرجعية الشهيد الصدر وتعتبره عدوها، بدليل أنّ فلانا عضو مجلس قيادة الثورة مثلا زار المرجع الفلاني ولم يزر السيّد الصدر، وهكذا.

وأفرزت الحملة النفسية بتفاصيلها الواسعة حالة من تطويق شديد للشهيد الصدر، فكان مجلسه اليومي محدودا بعدد من الطلبة الشباب لا يتجاوزون عدد الأصابع، وكان بحثه كذلك، وكانت صورة قاتمة ترتسم في الأذهان عن المستقبل إن استمرّ الوضع على هذا الشكل، بل أستطيع أن أجزم بأنّ مرجعية السيد الشهيد كانت على وشك الانهيار التام، أو لا أقل الانزواء الكامل، حتّى أنّه اضطر إلى ترك التدريس فترة من الزمن، وكان على وشك أن يغلق باب داره.

وتصدّى الراشدون الأبرار من الطلبة للعمل من أجل الدفاع عن هذه المرجعية وحماية كيانها، وانضمّت إليهم الطلائع الواعية من المؤمنين في صفوف متّحدة متراصة وجهود متواصلة. ورغم الأخطار التي كان من المحتمل أن يتعرضوا لها، كان في طليعة هؤلاء سماحة العلامة حجة الإسلام الشيخ أديب حيدر، فقد لعب دورا كبيرا في مجال إحباط مخطط الحرب النفسية مستفيدا من وجود ابن عمّه زيد حيدر في عضوية القيادة القومية لحزب البعث الحاكم في العراق. وتمكن السيّد الشهيد أن يشق الطريق بثبات وعزم، فامتد إلى أعماق الأمة، فاضطرت السلطة فيما بعد، رضوخا للأمر الواقع، إلى الاعتراف بمرجعيته والتعامل معه تعامل الندّ للند، وكانت الخطوة الأولى في هذا المجال زيارة زيد حيدر عضو ما يسمى بالقيادة القومية لحزب البعث".

وهناك أمر ربما ساعد على تكريس هذه الظاهرة تجاه السيّد الصدر، تلخّصه قصّة جرت مع الشيخ محمد إبراهيم الجنّاتي الذي كان قد عاد لتوّه من لبنان في فترة المواقف الشديدة التي اتخذها الشيخ محمد جواد مغنية من السيّد موسى الصدر. ولما دخل إلى مجلس السيّد الصدر، وكان جملة من طلابه حاضرين من قبيل السيّد محمد باقر المهري والشيخ محيي الدين المازندراني، سأله السيّد الصدر عن حقيقة الخلاف بين الشيخ مغنية وبين ابن عمّه، فأجابه الشيخ الجنّاتي:" لا يخلو ذو كمال من نقص، إنّ الشيخ مغنية أعصابه تعبانة".

وبعد أخذ ورد قال السيّد الصدر :" لقد قلت قبل قليل إنّه لا يخلو ذو كمال من نقص، أنا نقصي شنو حتى أصلحه ؟!"، فقال الشيخ :" سيّدنا أخاف أن

تتأذّى مما سأقول وتزعل"، فأجابه " لا بابا .. أنت قل"، وبعد إلحاح شديد من السيّد الصدر قال الشيخ : " شدّة تواضعك".

السيّد الصدر يقنع السيّد الخوئي بضرورة تقوية المرجعية:

إنّ دعوة السيد الصدر إلى مرجعية السيّد الخوئي كانت مبنية على لزوم الارتفاع بجهازها إلى مستوى تصبح فيه قادرة على تحمّل مسؤولياتها الحقيقية. ومن هذا المنطلق فاتح السيّد الصدر السيّد الخوئي حول موضوع ضرورة احتفاظ المرجعية بقوّتها في مقابل النظام كما كان الوضع أيام السيّد محسن الحكيم، وعرض عليه مشروع المرجعية الرشيدة وعرض عليه إمكانياته والتزم بدعمه. وقد شاركه في هذا اللقاء وفي هذه الأفكار خاله الشيخ مرتضى آل ياسين والسيّد محمد باقر الحكيم.

وقد تحدّث السيّد الصدر عن ضرورة الاستمرار من النقطة التي وصل إليها السيّد الحكيم في مشروعه الاجتماعي ووكلاء المناطق، وعرض إمكانيّاته واستعداداته ليكون بنفسه ضمن جهازه المرجعي لكن بهذا الشرط. وفي الوقت نفسه تحدّث آخرون مع السيّد الخوئي في الاتجاه المعاكس، وأنّ على مرجعية السيّد الخوئي أن تنتهج منهجا آخر مختلفا عن منهج مرجعية السيّد الحكيم.

ومن جمل ما اقترحه السيّد الصدر على السيّد الخوئي أن يشكل جهازا للتبليغ يضم الباقرين (الصدر والحكيم) وجهازا لشؤون الحوزة تحت إشراف الشيخ آل ياسين. وقد وافق السيّد الخوئي على ذلك واهتم السيّد الصدر بتطبيقه. ولكن بعد فترة تحرّك بعض الأشخاص ليغيروا سياسة المرجعية، وقيل: إنّ الذي ترأس هذه اللجنة هو السيّد عبد الكريم القزويني.

وروي أن السيّد الصدر عندما سعى إلى الاتصال المباشر بالسيّد الخوئي قصده في بيته واقترح عليه تشكيل مجلس للإرشاد والتبليغ، وقد اقترح السيّد الخوئي مشروعا يقضي انعقاد مجلس من العلماء الأفاضل بإشراف السيّد الصدر، ويتحمّل هذا المجلس مسؤولية التبليغ والإرشاد في الأمة، ويتكفل اختيار الوكلاء والمبلغين الأكفاء وتلبية نداءات جماهير الشعب المسلم في مختلف مناطق العراق، على أن تناط المسؤولية الحقيقية بالسيّد الصدر، بينما يلتزم السيّد الخوئي برعاية هذا المجلس ويتبنّاه، فصار ترشيح الوكيل يتم عبر السيّد الصدر أو أهل المنطقة وأحيانا من قبل شخصيات حزب الدعوة الإسلامية، من قبيل الشيخ مهدي العطار مثلا، ثم طرحه على السيّد الخوئي الذي كان غالبا ما يمضي هذا الترشيح ويوافق عليه. إلا أنّ أمورا مريرة حالت دون المضيّ في هذا المشروع.

انعكاس الموقف الجديد على العلاقة مع بعض أصحاب السيّد الخميني:

إثر إعلان السيّد الصدر عن أعلمية السيّد الخوئي، اتخذ بعض عناصر جهاز السيّد الخميني موقفا سلبيا منه، بينما بقي آخرون على وضعهم، خاصة السيّد أحمد الخميني الذي كان يوافق السيّد الصدر على موقفه نظرا إلى الظروف، بينما يبدو الانطباع سلبيا عند السيّد علي أكبر محتشمي حين تناول موضوع دعم علماء النجف مرجعية السيّد الخوئي، وتعرض إلى موقف السيّد الصدر، والسيّد عبّاس خاتم يزدي الذي اعتبر السيّد الصدر (استبصر) في الفترة الأخيرة، والسيّد حميد روحاني. وكذلك اتّسمت العلاقة تجاه السيّد موسى الصدر.

فبعد أن كانت العلاقة بين السيّدين مصطفى الخميني وموسى الصدر علاقة طيّبة وحسنة، مالت نحو الفتور إثر إعلان السيّد موسى الصدر عن أعلمية السيّد الخوئي. وقد كلف السيّد موسى الصدر في إحدى المرّات الدكتور إبراهيم اليزدي بالسفر إلى النجف من أجل محاولة التقريب بين طرفي السيّد الصدر والسيّد الخميني، وكان السيّد الصدر قد شدّد على طلابه بعدم الرد بالمثل، كما أن السيّد الخميني كان كثير التشدّد إزاء الموضوع كما سيأتي.

ومن أمثلة هذا الانعكاس على العلاقة مع السيّد الصدر أنّ الدكتور صادق طباطبائي، ابن أخت السيّد موسى الصدر، كان في زيارة إلى النجف الأشرف قادما من أوروبا، وقد جمعه بالسيّد حميد زيارتي (روحاني) مجلس في منزل الشيخ الكرّوبي، أخي رئيس البرلمان السابق، ضم السيّد علي أكبر محتشمي وآخرين، وقد جرى في المجلس حديث عن السيّد الصدر، فحمل عليه السيّد حميد روحاني وعلى ابن عمّه السيّد موسى الصدر، واتّهمهما بالعمالة للإمبريالية والصهيونية، وقد استدل على ذلك بأمور:

١. أنّهما لم يطرحا مرجعية السيّد الخميني ولم يدعموها، والسيّد الصدر يريد طرح مرجعيته.
٢. أنّهما ضغطا سابقا على السيّد محسن الحكيم للإفتاء بطهارة أهل الكتاب، وهذا ما يفعلانه حاليا مع السيّد الخوئي، وهذه الفتوى عبارة عن مطلب إمبريالي.
٣. أنّ السيّد الخميني عندما شرع في بحث الحكومة الإسلامية لم يبادر السيّد الصدر إلى بحث الموضوع، وإنّما استمر في درسه الاعتيادي.

وبعد أن انفضّ المجلس، ذهب الدكتور الطباطبائي إلى منزل السيّد الصدر، ولما اجتمع به قال له: " لقد علمت للتو أنك إمبريالي" فقال: " وماذا هناك ؟!"

فسرد له ماذا جرى معه، فتبسّم السيّد الصدر وقال له: " أمّا أنّنا ضغطنا على السيّد الحكيم والسيّد الخوئي ليفتيا بطهارة أهل الكتاب، فلا أدري هل هذا ذم لنا أم للمراجع الذين يمكن أن يفتوا تحت ضغوطات تمارس عليهم ؟! وأما درس الحكومة الإسلامية فإنهم عندما طبعوا الكرّاسات ووزّعوها على الدروس التي تقام في النجف الأشرف كل الدروس رفضتها وطردتهم إلا درسي، فقد استقبلتهم وشجّعتهم ووزّعت الكرّاسات، وقلت لطلابي إنّه عندما ينتهي بحثنا فإننا سنبحث الحكومة الإسلامية. وأما أنّني لم أطرح مرجعية السيّد الخميني، فذلك لا يعني أنّني لا أؤيّد مرجعيته، بل لأن السيّد الخوئي أكثر شهرة في العالم الإسلامي والعربي، وأنا أرى الآن أنّ من واجبي الدعوة إلى مرجعيته، وإلا فلا شك بأن السيّد الخميني مرجع".

وبعد أن خرج الدكتور الطباطبائي من منزل السيّد الصدر ذهب إلى منزل السيّد الخميني، حيث كان مقررا أن يسجّل له السيّد الخميني بيانا أو شيئا مشابها، والتقى به ثم قال له:" إذا كنت لا تسمح بأن يتحدث أحد في مجلسك عن العلماء، فكيف تسمح للمحسوبين عليك بالنيل من العلماء واتهامهم بالعمالة للإمبريالية والصهيونية ؟!"، فسأله السيّد الخميني عمّا حدث، فقصّ عليه ما كان من أمر السيّد حميد روحاني وموقفه من السيّدين محمد باقر وموسى الصدر، فظهرت علامات الغضب الشديد على وجه السيّد الخميني، واعتذر عمّا كان مقررا بينهما لأنّ مزاجه لم يعد يسمح له، فخرج الدكتور. وبعد صلاة المغرب والعشاء كان الدكتور في منزل أحد أصدقائه، ولما دخل الشيخ كرّوبي ورآه قال له :" هل حدّثت الإمام بشيء؟"، فقال له :" ولماذا تسأل ؟!" ،فأجابه : " لقد كان مضطربا إلى درجة أنّه ولأول مرّة صلى المغرب أربع ركعات"، فقال له: " لقد ذكرت له ما كان من أمر السيّد حميد روحاني".

وبعد أيّام قليلة تعرض السيّد الخميني إلى هذه الحادثة في درسه، ومما جاء في كلامه ما ترجم إلى ما يلي:

" أحد الشبّان الذي كان قد قدم من أوروبا جاء وبقي هنا حوالي الأسبوع، بقي هنا مدّة قصيرة جدا، جاء للقائي مرة أو مرتين. قال لأحدهم ولم يقل لي أنا، بل قال لأحد الروحانيين، حسنا كان أنّ الذي جاء للنجف هو أنا، فأنا ابن أحد العلماء وأستطيع أن أقدّر الموقف، ولو أنّ شخصا غيري جاء وأبصر هذا الموقف فماذا سيكون ردّ فعله؟

يا للأسف ؟! إنّي لا أعلم ما الذي عاينه هذا الطالب الجامعي، الدارس في الخارج، في هذه الحوزة المباركة، وهو ليس روحانيا مثلنا، وإن كان أبوه عالما .. ما الذي رآه خلال هذه الأيام القلائل؟ وبأي أشخاص اتصل؟ وما الذي

نقله إليه هؤلاء، حتى جعله وهو الطالب الغريب عن أجوائنا أن يبدي أسفه على وضع النجف، ويتساءل عن علة هذا الوضع؟

... إذا قمتم بتسقيط بعضكم البعض هكذا، وإذا اشتبكت الجامعات العلمية فيما بينها، وحاولت إحداها تسقيط الأخرى، وقام البعض بقذف البعض الآخر بشائن الألفاظ وفسّقه وكفره، وثار الهرج، وعمّت الفوضى، إذا حطمنا أنفسنا بأنفسنا، وقضينا على أنفسنا، فلا يبقى لكلامنا الفاعليّة في ترسيخ الإسلام في المجتمع، ولن نتمكن من نشر الإسلام.

... أنتم أهل دين الله ولله الحمد، غير أنّ الدين لا نزاع فيه. إنّ السبب الأساس في كل هذا النزاع يعود إلى الدنيا، ويخدع نفسه من يقول: " إني صرت في الجبهة الفلانية لما اقتضاه مني التكليف الشرعي"، وإلا كيف يقتضي التكليف الشرعي من الإنسان أن يوجه الإهانة للمسلمين ؟! أن يوجه الإهانة للعلماء ولزملائه؟ أهذا تكليف شرعي؟ إنّها الدنيا يا إخوة، وأهواء النفس. لو أنّ الطالب المشغول بتحصيل العلم تقدّم خطوة باتجاه تهذيب النفس تقارنا مع العلم، لبقيت الحوزات في منأى عن أمثال هذه الأحداث ... إنّ هذه التحزّبات خطأ وفسق، هذه الممارسات تدمر الحوزات، كفوا عن أمثال هذه الأمور الشائنة...

... كان تكليفي اليوم أن أستعرض هذه الأمور أمامكم، وأن أقوم بإبلاغ السادة المحترمين بما عندي لكي ينتبه الأخوة إلى أنّ تلك الممارسات التي وقعت، أو التي ستقع، لينتبهوا أنّها ستؤدي إلى ضياع حيثية واعتبار مجتمع بأسره، وشعب بأسره، بل إنّها ستؤدي إلى ضياع حيثية وهيبة الإسلام كله، وسوف تتعرضون إلى مسألة شديدة إذا لم تهبّوا لمنع وقوع هذه المفاسد .. كفوا عن هذه الاختلافات الجانبية والجزئية وأمثالها مما هو تافه جدا، تافه إلى أقصى حد، نحن لا ندرك كم نحن تافهون، نحن تافهون .. ".

صدور (بحوث في شرح العروة الوثقى):

حوالي شهر شعبان ١٣٩١هـ، أكتوبر ١٩٧١م صدر الجزء الأول من كتاب (بحوث في شرح العروة الوثقى) الذي صدر منه من حيث المجموع ٤ مجلدات. وكانت الأجزاء الثلاثة الأولى بتحقيق السيّد محمود الهاشمي، والرابع بتحقيق الشيخ زهير الحسّون. يُشار إلى أنّ السيّد الصدر عندما كان يكتب أبحاثه الفقهية كان يعرضها على بعض تلامذته كالسيّد الهاشمي والسيّد محمد باقر الحكيم لمراجعتها والملاحظة عليها.

وبعد صدور هذا الكتاب قال السيّد الصدر للشيخ محمد إبراهيم الجنّاتي: " لقد كتبت هذا الكتاب لكي لا ينكروا علمنا". ويُشار إلى أنّ التشكيك في علم السيّد الصدر بلحاظ الجانب الحوزوي الكلاسيكي كان أحد أساليب

محاربته. حتى ولّد كما يبدو عقدة في نفس السيّد الصدر، وصار كلما كتب كتابا حوزويا تخصصيا يورد عبارته " حتى لا ينكروا علينا علمنا" !!.

مخابرات من المعممين في الحوزة ترفع تقارير حول حركة السيّد الصدر:

جاء فاضل البرّاك مدير الأمن العام مع مساعده مدير الشعبة الخامسة لزيارة السيّد الصدر وكان متخفيا، فكل السيارات التي كانت معه تحمل أرقاما خليجية ومعظم الأفراد الذين جاؤوا لحمايته كانوا بزيّ خليجي، وكان يظهر الحب والمودّة، حتى أنّه قال للسيّد الصدر في المكالمة الهاتفية من بغداد والتي طلب فيها موعدا للزيارة: إنّه يريد أن يحضر معه مائدة عشاء، وحصر هدف الزيارة بذلك ليظهر نوعا من المودّة.

وبعد أن حضر طلب اجتماعا ثنائيا خاصا، وكانت خلاصته كما نقل الشيخ محمد رضا النعماني عن السيّد الصدر: أنّ البرّاك أعطى للبكر انطباعا حسنا عن السيّد الصدر، وأنّ البكر يكنّ بالغ الاحترام له، وأمثال هذه العبائر .... ثم قال البرّاك :" أرى من صالحنا جميعا أن نتفق على أن لا نتدخل في شؤونكم وأن لا تتدخلوا في شؤوننا"، ثم قال:" إنّني أستطيع أن أهمل جميع التقارير التي تكتب عنكم وترفع إلينا من قبل مديرية أمن النجف وغيرها، إلا أنّني لا أستطيع أن أفعل شيئا للتقارير التي ترفع للقيادة مباشرة من قبل أشخاص في الحوزة نفسها، فأرجو أن لا يصدر منكم شيء يسبب لي إحراجا أمام القيادة". وذكر للسيّد أسماء بعضهم ونموذجا من تقاريرهم. ولم يفصح عن أسمائهم إلا في فترة الحجز.

تأسيس (جماعة العلماء) ومحاولة تسقيط علمائها:

على الرغم من أنّ السيّد الصدر لم يكن عضوا رسميا في (جماعة العلماء)، إلا أنّ دوره قد برز فاعلا وقويا إلى حد كبير يمكن معه اعتباره العقل المدبر للجماعة، وكان يعدّ الجندي المجهول في هذه الجماعة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ اسم السيّد الصدر كان غائبا عن الساحة، وكان نفسه وراء هذا التغييب، حتّى أنّ أحد إخوانه ذكر اسمه في احتفال من الاحتفالات، فقال له السيّد الصدر:" أنا بريء منك إذا ذكرت اسمي مرّة ثانية".

لقد تمثّل دور السيّد الصدر أولا إلى جانب كونه مستشارا لخاله الشيخ مرتضى آل ياسين بكتابته منشور (الجماعة) الذي لم يكن من كتابة خاله كما توهّمته بعض المصادر. وقد سمح النظام لـ (جماعة العلماء) باستعمال الإذاعة الحكومية من باب ردّ الجميل على عدم تعرضّها لنظام قاسم بادئ الأمر. وكان المنشور منشورا أسبوعيا يوزّع على نطاق واسع داخل العراق وخارجه ويذاع من الإذاعة الرسمية، وكلن يلقيها أسبوعيا السيّد هادي

الحكيم أحد خطباء المنبر الحسيني، وكان نشر البيان من الإذاعة شيئا مهما جدا في ذلك الوقت الذي سيطر فيه الشيوعيون على الشارع.

كما كان يتم توزيع المنشور عن طريق البريد أو مع المبعوثين إلى المناطق العشائرية ممن تبعثهم (الجماعة)، أو مع الوفود التي تؤم النجف الأشرف للزيارة، وكان السيّد الصدر يشارك بنفسه في توزيع المنشور، وكان ذلك بإشراف (لجنة المنشور) في الجماعة والتي كانت تقوم بطبع المنشور وتوزيعه، وأبرز أعضائها:

١. السيّد محمد النوري.
٢. الشيخ محمد رضا الجعفري.
٣. الشيخ مهدي السماوري.
٤. الشيخ عبد الهادي الفضلي.

وقد أصدرت (جماعة العلماء) سبعة منشورات كتبها السيّد الصدر جميعا، وكان السيّد محسن الحكيم يقوم بمراجعتها قبل طباعتها، وربما عدّل بعض الكلمات ولم تكن ترسل إلى الطبع إلا بعد موافقته، أو أنّ السيّد الصدر كان يكتبها بتوجيه من السيّد محسن الحكيم الذي كان يدعم نشاطات الجماعة ويصرف عليها.

وقد لقيت (الجماعة) حربا، ومحاولات تسقيط مستعرة، وتشويه لصورة أعضائها، حتى وصفها البعض بـ (جماعة العملاء) وليس (جماعة العلماء) !! مع أنّ (جماعة العلماء) قد ضمّت في تشكيلتها عددا من الفقهاء والعلماء بلغ عددهم عشرين عالما، وكانوا جميعهم من المجتهدين، ولكنّ أحدا من المؤرخين لم يسمّ هذا العدد منهم. لقد روعي في تشكيلة (جماعة العلماء) أن تضم جميع أطراف الحوزة من عرب وعجم، فاختير الشيخ مرتضى آل ياسين معتمدا لها، لأنه لم يكن محسوبا على طرف معيّن وكان مرضيا عليه من قبل الجميع. واختير الشيخ خضر الدجيلي عضوا للجنة التوجيهية من طرف العرب، واختير الشيخ حسين الهمداني العضو الآخر للجنة التوجيهية من طرف العجم. وكذلك روعي في الهيئة العامة لـ (جماعة العلماء) أن تضم مختلف الأطراف ممن هم محسوبون على المراجع أو على المؤسسات. ولم تكن هذه الهيئة منتخبة، فإنّه لم يكن لها نظام داخلي مدوّن لا من حيث التشكيلات ولا من حيث تسيير الأعمال، إذ كانت أعمالها تدار بقرارات شفهية تقرر خلال اجتماعات دورية كانت تعقد كل مرّة في بيت أحد الأعضاء. أما اللجنة المشرفة على (جماعة العلماء) فكانت تضم كلا من:

١. الشيخ مرتضى آل ياسين.
٢. الشيخ حسين الهمداني.
٣. الشيخ خضر الدجيلي.

أما أعضاء الجماعة فهم:

١. السيّد محمد تقي بحر العلوم.
٢. السيّد موسى بحر العلوم.
٣. السيّد محمد باقر الشخص الأحسائي.
٤. الشيخ محمد رضا المظفر.
٥. السيّد مرتضى الخلخالي.
٦. الشيخ محمد طاهر آل شيخ راضي.
٧. الشيخ محمد جواد آل شيخ راضي.
٨. السيّد محمد صادق الصدر.
٩. السيّد إسماعيل الصدر.
١٠. الشيخ محمد حسن الجواهري.
١١. الشيخ محمد تقي الأيرواني.
١٢. السيّد علي الخلخالي.
١٣. الشيخ عبّاس الرميثي.
١٤. الشيخ محمد طه الكرمي.
١٥. السيّد محمد جمال الهاشمي.
١٦. الشيخ عبد الوهاب الشيخ راضي.
١٧. الشيخ إبراهيم الكرباسي.
١٨. السيّد محمد الحلي.
١٩. الشيخ حسن الخوجة.

تراجع بعض الأعضاء بسبب الهجمة على الجماعة:

كانت (جماعة العلماء) تشكيلا لا يملك وحدة الفكر، وإنّما كان الشعور بوحدة الخطر يتملك أعضاءها دون وضوح في الفكر والخطة، وبعضهم كان يعيش الصدمة عندما يواجه بالكلمات فحسب من التيارات الأخرى، أو حين يتهمهم البعض الآخر، كالشيخ الهمداني مثلا الذي كان يستكثر

الشتيمة، فكان على جلالة قدره واشتهار استقامته يعيش الصدمة لمجرد أن يتعرض لبعض الكلمات التي تطاله أو تطال والده، كما أبدى ذلك وبانزعاج للشيخ مرتضى آل ياسين وهو يحثّه على مواصلة دعمه للجماعة.

ولذلك عمل بعضهم على التراجع خاصة بعد دخول العناصر التي لا تعرف خلفياتها على الخط، لتنتهي الجماعة ويختصرها الشيخ مرتضى آل ياسين والسيّد إسماعيل الصدر وإن لم يحصل انسحاب رسمي من قبل الآخرين، خاصة وأنّ الجماعة كانت خليطا غير متجانس في الوعي والإدراك والاهتمام، ولذلك سرعان ما نشأ الخلاف، ومن هنا فإنّها لا تعتبر نقلة نوعية في الطبيعة الحركية للحوزة، بل هي حالة طارئة فرضتها ظروف معيّنة وأنهتها ظروف معيّنة، وإن كانت أعطت عناوين حركية لطلبة العلوم الدينية وللمنفتحين منهم على مستوى تحدّي الممنوعات، ومنها العمل السياسي.

وحتّى السيّد الصدر الذي تشكلت الجماعة بجهوده وجهود أخيه إلى جانب خالهما كان يرى أنّها لم تكن بمستوى الطموح ولم تكن قادرة على تغيير الأوضاع، ولم تستطع تحقيق ما كان يرجو هو تحقيقه، ولذلك فإنّها لا تمثل له شيئا كبيرا.

مراجع النجف وكربلاء يحمون (جماعة العلماء):

على الرغم من الهجمة التي تلقتها (جماعة العلماء) من المحيط الحوزوي ومن بعض المشايخ، إلا أنّها حظيت برعاية ودعم السيّد محسن الحكيم الذي أعلن عن موقفه الصريح تجاهها بعد أن كثرت الأقاويل حولها، خاصة بعد الهجمة التي قادها الشيوعيون والقوميون ضدّها عبر بعض المشايخ من قبيل الشيخ عبد الكريم الماشطة الذي ألف وجماعة معه (رجال الدين الأحرار)، فيتصدى الشيخ مرتضى آل ياسين إلى جمع هذه التأييدات لجماعة العلماء.

١. بيان السيّد محسن الحكيم:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ جميع ما أصدره فريق من أعلام أهل العلم أيّدهم الله تعالى باسم (جماعة العلماء) في النجف الأشرف وما سيصدر منهم من نشرات وغيرها مما يتضمن الدعوة إلى الدين والإسلام لهو من أهمّ الوظائف الشرعية التي يجب القيام بها في سبيل إعلاء كلمة الدين وترويج مبادئه الشريفة وتعاليمه القيّمة المقدّسة. فعلى عامة المسلمين العمل على مؤازرتهم والوقوف إلى صفهم ومشاركتهم في تحمّل أعباء هذه الدعوة الدينية

المباركة ووفّق الله سبحانه الجميع لما يحب ويرضى، إنّه حسبنا ونعم الوكيل.

محسن الطباطبائي الحكيم ٢٧ج٢ ١٣٧٨"

٢. بيان السيّد عبد الهادي الشيرازي:

" بسمه تعالى شأنه

إنّ (جماعة العلماء) في النجف الأشرف ثلة من أعلام الدين والعلم وقد دفعهم الواجب الشرعي إلى القيام بأعباء الدعوة الدينية بإصدار النشرات وغير ذلك من أساليب الخدمة في سبيل الإسلام، فإلى المولى سبحانه نبتهل أن يسدد خطاهم، وعلى المسلمين كافة مساندتهم والتقرب إلى الله تعالى بتأييدهم في هذا العمل العظيم إنّه ولي التوفيق.

٥ رجب المرجّب ١٣٧٨هـ.ق الأقل عبد الهادي الحسيني الشيرازي"

٣. بيان السيّد الخوئي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ النشرات الدينية التي يتولى إصدارها (جماعة العلماء) والتي أقبل عليها المسلمون في كل مكان وعرفوها أنّها دعوة إسلامية خالصة لوجه الله تعالى لهي بلا ريب تستمدّ دعوتها من القرآن وتأخذ أهدافها من تعاليم الدين، فعلى أبناء المسلمين أن يسترشدوا بها أبدا ويتدبّروا حقائقها ويعملوا بما جاء فيها من نواميس إسلامية تسعد حياة المسلمين، وعليهم أن يدفعوا عنها كل غائلة ويجتهدوا في نصرتها: "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، وأسأل الله تعالى أن يوفق الجميع لذلك ليعيشوا في ظل عدالة الإسلام ونواميسه الخالدة وهو سبحانه وليّ التوفيق.

في ٦ شهر رجب المرجّب ١٣٧٨ أبو القاسم الموسوي الخوئي"

٤. بيان السيّد مهدي الحسيني الشيرازي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ جماعة العلماء في النجف الأشرف أدام الله تأييدهم هم من أعلام أهل العلم المعروفين بدينهم وصلاحهم وإخلاصهم، وإنّ جميع ما صدر عنهم وما سيصدر من الدعوة إلى الدين والإسلام ليس إلا القيام بوظيفتهم الدينية التي هي من أهمّ وظائف رجال الدين المكلفين من الله تعالى بإرشاد

الأمة وتوجيهها إلى منهاجها القويم. فالمرجوّ من المسلمين أن يقفوا إلى جنبهم مؤيدين ومؤازرين ومعاضدين والله تعالى الموفق وهو المستعان.

كربلاء ٦ رجب ١٣٧٨هـ مهدي الحسيني الشيرازي"

٥. بيان الشيخ عبد الكريم الجزائري:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ ما أصدره (جماعة العلماء) في النجف الأشرف، وهم من علماء الدين العاملين، وما سيصدرونه من نشر أحكام الإسلام والدعوة للدين هو من صميم الواجب الشرعي. فعلى كافة إخواننا المسلمين تأييدهم ومؤازرتهم مؤازرة للإسلام وصالح الأمة، والله ولي التوفيق.

٧ رجب ١٣٧٨هجرية عبد الكريم الجزائري"

٦. بيان السيّد إبراهيم المعروف بميرزا آغا الشيرازي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ جماعة العلماء في النجف الأشرف عدّة من عيون حملة العلم قد أقاموا استجابة للحكم الشرعي بأعباء الدعوة الدينية بإصدار النشرات وغير ذلك من وسائل الهداية والتوجيه، فسدّد الله خطاهم ووفقهم في مرماهم، وعلى المسلمين الاستنارة بإرشاداتهم ومؤازرتهم في أعمالهم، والله ولي التوفيق.

١١ رجب ١٣٧٨ الأحقر إبراهيم الحسيني الشيرازي الإصطهباتي"

٧. بيان السيّد محمد البغدادي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومنقذ الإنسانية الأعظم من الظلم إلى النور (محمد بن عبد الله) وآله الطاهرين. وبعد، إنّ ما صدر من المنشورات الداعية إلى الدين وإلى وحدة الأمة ووحدة الكلمة باسم جماعة العلماء، فإنّه عمل مشكور، ونحن نؤيده لأنّه لم يخرج عن الحق والواقع، وفق الله الجميع لخدمة الإسلام والأمة، إنّه ولي التوفيق.

محمد الحسيني البغدادي"

٨. بيان السيّد محمد الجواد الطباطبائي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :" إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، وإلا فعليه لعنة الله". غير خاف أنّ ما قام به فريق من الأعلام في النجف الأشرف من إصدار منشورات باسم جماعة العلماء لا تحسبوه هيّنا وهو عند الله عظيم، فإنّ الهدف فيها ليس إلا الدعوة إلى الدين ومحاربة العبث والفساد المنتشر في الأقطار والقضاء على المبادئ الهدّامة، فيجب على كل مسلم غيور مؤازرتهم ومساهمتهم في هذه الخدمة الدينية.

الأحقر محمد الجواد الطباطبائي التبريزي"

اتهامه بالترويج لنفسه:

أراد السيّد الصدر طبع (فلسفتنا) باسم (جماعة العلماء) في النجف الأشرف بعد عرضه عليهم متنازلا عن حقه في وضع اسمه على هذا الكتاب. إلا أنّ الذي منعه عن ذلك هو أنّ (جماعة العلماء) أرادت إجراء بعض التعديلات في الكتاب، وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي السيّد الصدر، ولم يكن يقبل بإجرائها فيه، فاضطر إلى أن يطبعه باسمه.

وقيل إلى جانب ذلك أنّه قد اتهم من بعض الأشخاص بأنّه يريد بذلك الترويج لنفسه عبر استغلال اسم (جماعة العلماء) فعدل عن ذلك.

السيّد الصدر ومحنة (الأضواء):

في رسائله مع السيّد محمد باقر الحكيم الكائن يومذاك في لبنان، بدأ السيّد الصدر يحدثه عن هجمة قاسية وشرسة قام بها حزب البعث محركا بعض أهل العلم من أعضاء (جماعة العلماء) وغيرهم. وكانت الواجهة في هذه الهجمة عبارة عن بعض من ينتسب إلى أهل العلم، ولكن كانت يد حزب البعث وراءها، حيث يصرّح السيّد الصدر في بعض رسائله أنّ المحامي حسين الصافي كان وراء هذه الحملة، وقد تحدّث إلى بعض الأشخاص بهدف إثارتهم.

وقد كتب السيّد الصدر في صفر/١٣٨٠هـ (تموز-آب ١٩٦٠م) يقول:

" لقد كان بعدك أنباء وهنبثة وكلام وضجيج وحملات متعددة جُنّدت كلها ضد صاحبك وبغية تحطيمه ... ابتدأت تلك الحملات في أوساط الجماعة التوجيهية المشرفة على الأضواء أو بالأحرى لدى بعضهم ومن يدور في فلكهم، فأخذوا يتكلمون وينتقدون، ثم تضاعفت الحملة وإذا

بجماعة تنبري من أمثال (حسين الصافي) ولا أدري ما إذا كانت هناك علاقة سببية وارتباط بين الحملتين أو لا، تنبري هذه الجماعة، فتذكر عني وعن جماعة ممن تعرفهم شيئا كثيرا من التهم من الأمور العجيبة ...".

وكتب في الفترة نفسها يقول:

" كما أنّ هناك زحمة من الإشكالات والاعتراضات لدى جملة من الناس أو الآخونديّة في النجف على النشرة، وخاصة (رسالتنا) باعتبار إنّها كيف تنسب إلى جماعة العلماء مع أنّها لم توضع من قبلهم ولم يطلعوا عليها سلفا، وأنّ في ذلك هدرا لكرامة العلماء، هذا في الوقت الذي يقول الأخ ... إنّ الكلمة في بغداد متفقة على أنّ رسالتنا كتابة تجديد وابتكار تختص بمستواها الخاص عن بقية الأضواء".

اعتزال السيّد الصدر كتابة (رسالتنا) في (الأضواء):

قلنا سابقا: إنّ أشخاصا عديدين منهم حسين الصافي قاموا بحملات واسعة لثني السيّد الصدر عن ممارسة السياسة بدعوى أنّها كانت تضر الحوزة العلمية. وكانت مقالة السيّد الصدر الافتتاحية في (الأضواء) من أكثر المسائل المثيرة للجدل، حيث إنّ هذه المقالات التي كانت معنونة بـ (رسالتنا) تحمل مغزى سياسيا، فقد تساءل أعداء السيّد الصدر فيما إذا كانت هذه المقالات تمثّل وجهة نظر (جماعة العلماء) أم لا.

وقد مارس السيّد محمد الروحاني ضغوطا صعبة على السيّد الصدر من أجل إبعاده عن السير في هذا الاتجاه الذي بدأ يفرض نفسه على الساحة الإسلامية في صيغة سياسية إسلامية منظمة. وكان رأيه في حواره مع السيّد الصدر هو أنّ ذلك قد يترك أثرا سلبيا على مستقبله المؤمّل للمرجعية الدينية.

وقد دفعت هذه الضغوطات بالسيّد الصدر إلى ترك كتابة (رسالتنا)، وكان هذا القرار بين ١٥ صفر و ١ ربيع الأول ١٣٨٠هـ، أي بين صدور العددين الخامس والسادس. وبعد هذا القرار انتقل مؤقتا إلى الكاظمية، فقصده جماعة منهم السيّد محمد حسين فضل الله يطلبون منه الرجوع إلى الكتابة، إلا أنّه كان يعيش ضغوطا غير عادية، فلم ينزل عند رأيهم.

ولكنّه ظل مشرفا على الأضواء من مقر إقامته في الكاظمية، وكان هناك شخصان يقومان بنقل مواد المجلة إليه من النجف من أجل الاطلاع عليها، فكان يضع الخطوط العريضة لمقالة الافتتاحية في فترة الاعتزال. وقد أعطى السيّد الصدر فكرة افتتاحية العدد السادس إلى السيّد محمد حسين

فضل الله وهي (رسالتنا يجب أن تكون قاعدة للوحدة) وكلفه بكتابة المقالة، إلا أنّ الفرصة لم تسنح للسيّد فضل الله للقيام بذلك، فأعطيت إلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين. وبعد فترة قصيرة من العزلة في الكاظمية، عاد السيّد الصدر إلى داره في النجف الأشرف، وظل مواظبا على مساندة المجلة ومتابعة نشاطها، حيث كان يراجع ما يكتب في المجلة من أفكار ويبدي ملاحظاته عليها.

والذي يبدو أنّ الذي تولى مسؤولية كتابة (رسالتنا) هو الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ولكن تحت مراقبة السيّد الصدر. ومن المؤكد أنّ المقالتين السادسة والسابعة من (رسالتنا) هما من أفكار السيّد الصدر، وقد قام بكتابتهما الشيخ محمد مهدي شمس الدين بعد أن كان السيّد محمد باقر الحكيم ينقل فكرة السيّد الصدر إلى الشيخ، أما ما تلاهما إلى آخر أعداد السنة الأولى فالمؤكد هو أنّه بقلم الشيخ شمس الدين، ولكن من غير المعلوم هل أنّه من أفكار السيّد الصدر أم لا، وإن كان يظهر من بعض المصادر أنّ فكرة (رسالتنا) التي كان يكتبها الشيخ شمس الدين هي فكرة السيّد الصدر مطلقا. وعلى أية حال، فقد استمر في كتابة بعض المقالات القرآنية.

وفي ٦ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠/٨/٢٩م) كتب إلى السيّد محمد باقر الحكيم:

" لا أستطيع أن أذكر تفصيلات الأسماء في مسألة جماعة العلماء وحملتها على الأضواء ... ولكن أكتفي بالقول بأنّ بعض الجماعة كان نشيطا في زيارة أعضاء جماعة العلماء لإثارتهم على الأضواء وعلى (رسالتنا)، حتى لقد قيل إنّ الشيخ الهمداني الطيّب القول قد شوهت فكرته عن الموضوع ... وهذا الذي حصل بالنسبة للشيخ الهمداني حصل بالنسبة إلى جملة من الطلبة مع الاختلاف في بعض الجهات ...".

وكتب أيضا :

١. " فإنّني أجيبك على سؤالك فيما يخص من موقف الخال، فإنّ الشيخ الخال كان في الكاظمية بعيدا عن الأحداث نسبيا ولم يطلع إلا على سطحها الظاهري، وهو ماض في تأييده للأضواء ومساندته لها وقد طلب ... أن يكتب إلى بعض جماعة العلماء لتطييب خاطرهم وجلب رضاهم عن الأضواء ... فكتب إلي ... وأخبره بأنّ الأضواء لم تكن تصدر إلا بعد مراقبته وإشرافه وأنّها تناط الآن ... كما أخبره بأنّ كاتب (رسالتنا) سوف ينقطع عن الكتابة ..".

٢. " فقد حدّثني شخص في الكاظمية أنّه اجتمع به في النجف الأشرف فأخذ يذكر عني له سنخ التهم التي كالها حسين الصافي من دون مناسبة مبرّرة. وعلى كل حال عسى أن يكون له وجه صحة في عمله إن شاء الله".

٣. " وأما واقع الأضواء هنا فهو واقع المجلة المجاهدة في سبيل الله، وقد هدأت والحمد لله حملة جماعة العلماء عليها بعد أن تمّ إشعارهم بأنّهم المشرفون عليها، غير أنّ حملة هائلة على ما أسمع يشنّها جملة من الطلبة ومن يُسمى بأهل العلم أن يحسب عليهم، وهي حملة مخيفة وقد أدّت على ما قيل إلى تشويه سمعة الأضواء في نظر بعض أكابر الحوزة حتى كان جملة ممن يسميهم المجتمع الآخوندي مقدّسين أو وجهاء لا يتورعون عن إلصاق التهم بالأضواء وكل من يكتب فيها .. (وهكذا فإنّ جملة من العوامل والأسباب اجتمعت لتوليد مثل هذه النتائج، والسلبية اتجاه الحملات وأسبابها ودوافعها هي السبيل الوحيد لتسكينها وتهدئتها) ".

وكان أعضاء اللجنة التوجيهية يتسامحون في تقديم ما يكتبونه إلى (الجماعة) للإشراف المباشر عليه خوفا من ملاحظات تبديها (الجماعة) تمسّ الصيغ الجديدة التي كانوا يقدّمونها للأفكار الإسلامية والتي كانت تمدّ التيار الإسلامي الواعي بالوقود والعطاء، ولكنّ التجربة التي مارسوها بعد الضجّة دلت على أنّ (جماعة العلماء) كانت على درجة من الوعي تجعلها لا تعارض مثل هذه الأفكار بل تمنحها التأييد والقبول، لأنّ السيّد الصدر كتب في تاريخ ١٨ ربيع الأول ١٣٨٠هـ (١٠/٩/١٩٦٠م) يقول:

" وأسرة الأضواء التي لا غبار عليها وجه من الوجوه مورد للاطمئنان الكامل، وهم يعرضون مقالاتهم على الثلاثة ولم يصادفوا حتى الآن مشكلة مبدئية في هذا المقام والحمد لله رب العالمين".

" حدسي أنّ الأضواء سوف تستمر إن شاء الله تعالى لأنّها تتمتع الآن برصيد قوي من الداخل والخارج، فمن الخارج بلغت عدد الاشتراكات ... ومن الداخل تتمتع برضا جماعة العلماء".

وهكذا تمكن السيّد الصدر بحكمته وصموده وصبره أن يواصل طريقه مع إخوانه وتلامذته في الجهاد، وأن يقفوا جميعا في وجه هذه الهجمة، وتمكن من أن يستمر في تفاعله مع الأمّة والتأثير فيها.

الموقف من السيّد الصدر:

واجه السيّد الصدر حملة منظمة لتوزيع الاتهامات وإشاعة الأباطيل بحجة حماية جامعة النجف الأشرف، وأنّها مهدّدة بأخطار عديدة لا تحمد عواقبها. وتحرّك أصحاب الحملة على المراجع وأكابر العلماء يومذاك من

أمثال السيّد محسن الحكيم والسيّد الخوئي لتشويه شخصية السيّد الصدر في أذهانهم، فأوعزوا إلى بعض مريديهم بهذه المهمّة.

وعلى هذا الأساس قام شخص من أهل العلم من الكاظمية بزيارة السيّد محسن الحكيم في بيته وقال له:" إنّ السيّد محمد باقر الصدر أسّس حزبا، وهو حزبي" .. وكان هدفه أن يتخذ السيّد الحكيم موقفا من السيّد الصدر، إلا أنّ السيّد الحكيم أجابه بطريقة أورثت في نفسه الخوف، فقصد هذا الرجل منزل السيّد إسماعيل الصدر واعتذر منه على ما بدر منه بحجة أنّه لم يكن يقصد شيئا. بينما ذهب آخر إلى السيّد الخوئي ورام الطعن في شخصية السيّد الصدر وأنّه أسّس حزبا إسلاميا فأجابه السيّد الخوئي :" لو أسّس السيّد محمد باقر الصدر حزبا فإني أول من يسجل اسمه فيه".

كما أنّ مجلسا انعقد في إيران حضره جمع من العلماء منهم السيّد عبد الكريم الموسوي الأردبيلي، وقد جرى في المجلس حديث عن وضع السيّد الصدر، فما كان من أحد مناوئيه إلا أن انتقده لأنّه أسّس حزبا، وهذا ما لا يليق بشأنه، فبادره السيّد الأردبيلي قائلا :" إنّي كنت أعرف عن الصدر الكثير من محامده، ولكنّني لم أكن أعرف أنّه بلغ من ذكائه والتفاته للأمور وعلاجه للأوضاع إلى مستوى أن يؤسس حزبا إسلاميا يعمل في سبيل الإسلام، فهذه نقطة قوّة وليست نقطة ضعف". ✸

✸ نقلنا هذا الفصل بتصرف من كتاب " محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق" أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان، ط١/٢٠٠٧م . وذلك من الأجزاء متفرقة.

محمد حسين فضل الله



لا أتصور أنّ هناك عالما حوزويا تعرض للتنكيل والتسقيط، ومحاربة مرجعيته وأفكاره وشخصه في وقتنا الراهن المعاصر كما حدث مع السيد محمد حسين فضل الله .. لقد تعرض لأبشع النعوت والصفات، وشتى أشكال التوهين والتسقيط والمحاربة، ولمختلف ألوان القذف والإقصاء والتشهير بما لا يتصوره عاقل في ظل الدعوة لتقبل الآخر، والدعوة للتعدد والانفتاح على الآخرين، وفي ظل ترسيخ مبدأ الحرية الفكرية، وفي الأخير لا تعدو قضية السيد محمد حسين فضل الله إذا محصتها جيدا قضية اختلاف في الفكر والمنهج، بينه وبين مخالفيه، وهي مساحة للآراء المتباينة التي لم يتحملها خصومه، حتى أطلقوا على آرائه وتوجهاته الفكرية المخالفة للسائد بأنه مشروع انحراف في الفكر والعقيدة والمذهب، وصدر كتاب ضخم في إدانته وحربه والترصد له أطلق عليه مؤلفه الكاتب محمد علي الهاشمي المشهدي اسم " الحوزة تدين الانحراف " وهو عنوان دال وصادم، فالمؤلف يريد أن يقول بأن السيد قد انحرف وضل في أفكاره وما ذهب إليه في جل آرائه، وهو محل نقد وإدانة ومحاربة من قبل المؤسسة الأولى لمذهب التشيع، ومركز المراجع والفقهاء والزعامة المذهبية، ونعني بها الحوزة العلمية في قم والنجف. إذا هو في نظر العلماء ضال ومضل ومنحرف وفاسق وجاهل وخارج عن الإجماع والعقيدة والمذهب. وأميل إلى أنّ الكتاب خرج بدعم ومساندة وتحريض من السيّد جعفر مرتضى العاملي الخصم اللدود لفضل الله، ففي الكتاب عشرات المراسلات الخاصة التي كانت تتبادل بين العاملي وفضل الله، فكيف وقعت في يد الهاشمي لولا مساندة وتشجيع ودعم من العاملي نفسه.

قضية السيد فضل الله مثال صارخ ومعبر للعنف الفكري الذي نتقصاه في كتابنا هذا، والذي ينطلق من المجتمع الشيعي بكلا محوريه وشقيه، العلمائي والمجتمعي، فالعلماء لم يستطيعوا تحمل متبنياته الفكرية التي تنطلق من رؤى مختلفة عن الفكر الشيعي السائد، والتي لا تخرج عن الاجتهاد، والاستقلال الفكري، وهو المنهج الذي نتباهى نحن الشيعة بأننا من أصحابه، ونعيب الآخرين على أنهم نبذوه وأغلقوا أبوابه بعد الأئمة الأربعة، وإذا بنا نصبح من حيث لا نشعر أو من حيث نقصد من أصحاب الفكر الداعي لإغلاق باب الاجتهاد أمام كل من يفكر أو تسول له نفسه بأن يفكر ويناقش ويطرح المسلمات على بساط البحث !! وبذلك أصبحنا وهم على خط المساواة في نبذ الاجتهاد، وعدم تقبل النقد والرؤى المتباينة.

قضية السيد فضل الله تقول للجميع وبصوت صارخ وجارح، وترسخ مبدأ خطيرا مفاده: الويل والثبور لكل من يفكر من العلماء والباحثين الشيعة بأن يطرح مسألة عقائدية أو فكرية أو قضية تاريخية شيعية بمختلف اتجاهاتها للبحث والنقاش، والويل لكل من أراد أن يؤمن برؤية تخالف ما هو سائد ومتداول عند الجميع، وعند العوام وغير العوام. سواء كانت تتعلق بالعقائد أو التاريخ أو الشعائر أو سيرة الأئمة أو حياة العلماء أو التفسير أو الفقه وغيرها من أبواب الفكر المتشعبة. لكي تنال الرضا والقبول والصيت والشهرة عند الجميع، عند العلماء وطلبة العلوم الدينية والعوام عليك أن تؤمن بكل ما هو سائد، وبكل ما هو متداول وتقر بكل ما هو شائع، وتؤيد كل ما جاء على لسان أتباع المذهب الشيعي، سواء وافق معتقدك ووجدانك وقناعاتك أم لا، حتى لو بحثت ونقبت وسألت وقرأت كما هائلا من الدراسات والبحوث والتي أوصلتك لقناعات مغايرة ربما آمن بها بعض العلماء الشيعة الكبار من قبلك، كل هذا غير مسموح به، وليس شفيعا لك، وإذا لم تكتم ما اعتقدت به، واحتفظت بقناعاتك لنفسك همسا بينك وبين ذاتك، ولم تسمع كلام من يحذرونك فإن مصيرك لا محالة إلى الهاوية والتسقيط، ونبذ المجتمع، وستتوجه إليك سهام قاتلة، حتى ولو كنت من قبل من كبار العلماء، ومن أعاظم المفكرين،ومن أبرز المجاهدين، وفطاحل المؤلفين، ومفاخر الطائفة، ومن كبار المجتهدين .. كل هذه الألقاب والمناصب والأسماء لا تستطيع أن تكون شافعة لك أمام هذا التفكير المبني على محاربة كل ما هو مختلف، وتكفير وتسقيط كل من تسول له نفسه أن يعمل فكره، ويؤمن بما يعتقد به حسب اجتهاده. والأمثلة أمامنا من التاريخ الشيعي مكتظة بالعشرات، إن لم تكن بالمئات !!. وإلى القارئ نماذج من كبار العلماء والمراجع الشيعية ممن تمت محاولة تسقيطهم وتشويه صورتهم العلمية ، كل ذلك تم بسبب الاجتهاد الفكري المستقل، الذي لا يقيم اعتبارا للرأي السائد، ولثورة العوام، ومحاربة أشباه العلماء، مما يعني أن السيد فضل الله لم يكن الأول، ولن يكون الأول في قافلة العلماء الشيعة المجتهدين، وأحرار الفكر ممن يتلقون طعنات التكفير والتخوين، والاتهام بالمروق من المذهب، والزيغ والضلال، ولكن يبقى ربما هو النموذج الأقوى والمثال الأبرز للمفكر المستقل الذي تمت محاولة تمزيقه وطعنه من كل مكان ، ومحاربته من جميع الأطراف إلا من الندرة ممن يقيمون وزنا واعتبارا لتقبل الاختلاف الفكري، ويتحمسون للاجتهاد وضرورة التأمل وإعادة التفكير في كل المسلمات، ولا يرون أي ضرر في البحث الحر، والخروج بما يخالف السائد المعروف، وإن تسالم عليه الكل لحقب ممتدة.

" والواقع أنّ من يدرس حركية المرجعية في العقود الأربعة الماضية، يلاحظ أنّه بمجرد أن تتقدم مرجعية تحمل الطابع الحركي الإسلامي إلى الواجهة حتى تتحرك ماكينة الإشاعات والتلفيقات والأكاذيب

لتنهال عليها من جميع الجهات، وكلها طبعا بقصد التقرب إلى الله وأداء التكليف الشرعي!.

مرجعية الشهيد الصدر الحركية تثير بعض الأوساط:

وعندما نحاول أن نتصفح أوراق ذاكرتنا لما قبل عشرين سنة تقريبا، نشاهد بوضوح الحملات المكثفة التي ووجهت بها المرجعية الحركية الرشيدة للشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر، الذي دفع بالفكر الشيعي إلى الواجهة في العالم الإسلامي، بما أذهل الكتّاب والمفكرين حيث احتلت كتبه : اقتصادنا -فلسفتنا - الأسس المنطقية للاستقراء والبنك اللاربوي في الإسلام، الصدارة في ذلك الوقت ولازالت. وقد تضاعفت الحملة عليه رحمه الله بشكل واضح إبّان صدور رسالته العملية (الفتاوى الواضحة) وكان قد أصدر تعليقات على المنهاج قبل ذلك. وقد اتخذت الحملات أسلوب التشكيك بقدرته الفقهية، وأن فكره الفقهي والأصولي عبارة عن فكر جرائد، كما حاولوا اللعب على وتر غرائز البسطاء حيث حاولوا على طريقة الحرتقات أن يصوروا فتاواه وأفكاره وكأنها متأثرة بالفكر السني، بدءا من اعتبار أصول الدين ثلاثة إلى القول بطهارة النواصب، وجوا التكتف بالصلاة إذا لم يكن بقصد الجزئية، وعدم قتل المرتد الفطري، واعتبار سهم المؤلفة قلوبهم من الأمور المتحركة حيث اتهم بموافقة عمر في هذه المسألة كجزء من اللعب بالألفاظ إلى غيرها من الأمور. وهذه الحملات ضده رحمه الله وإن كان لها مفعول عكسي حيث لفتت الأنظار إلى مرجعيته إلا أنها بسبب صدورها من داخل الحوزة للأسف أدّت إلى إضعاف موقفه في مواجهة السلطة الحاكمة وانتهى الأمر بشهادته المباركة.

السيد الحكيم وحملة مضادة ضد مرجعيته:

وقبل الشهيد الصدر شهد العالم الشيعي مرجعية كبيرة أطلت على الواقع الإسلامي الحركي بكل قوّة، وهي مرجعية السيد الحكيم رحمه الله التي امتدت لتتواصل مع الحركات الإسلامية الأخرى وتتعاون معها، والتي انفردت برعاية الحركة الإسلامية الصاعدة في الداخل، وكان الموقف البارز تحريم الانتماء إلى الحزب الشيوعي إبّان تصاعد المد الأحمر، وقد انتقمت السلطة منه بعد ذلك بإعدام عدد من كبار العلماء من عائلته.

وقد أثارت مرجعية السيّد الحكيم حنق بعض المجهولين فأصدروا كتابا بعنوان: "الوهابية في فتاوى الحكيم" ، مستغلين بعض الفتاوى التي يمكن من خلالها خداع السذّج من الناس والتشهير بها، كقوله رحمه الله بعدم مبطلية التكفير، وهو وضع إحدى اليدين على الأخرى كما يتعارف عند غيرنا للصلاة، وكذلك عدم مبطلية قول آمين بعد الفاتحة للصلاة،

وطهارة أهل الكتاب، والتي كانت في ذلك الوقت من الغرائب، وقد نقل لنا بعض الفضلاء الذين عاصروا تلك الحقبة أنّه عندما صدرت تلك الفتوى علق بعض الحاسدين من المعممين قائلا: فليقل بطهارة الخنزير أيضا!.

هذا، وقد شهد العالم الشيعي حدوث بعض الحملات التشهيرية بوجه بعض الشخصيات الفكرية الكبيرة التي لم تتصد للمرجعية كالشيخ محمد جواد مغنية الذي حاولوا إضفاء لقب الشيخ الأحمر عليه نظرا لحواره مع الشيوعيين، وكالشهيد مرتضى المطهري الذي عانى الكثير من جراء ذلك، ويمكن للقارئ اقتناء كتاب "أجوبة الأستاذ المطهري على كتاب مسألة الحجاب" ليعرف حجم تلك الحملات، وقد أشاعوا بأنّ كتابه "مسألة الحجاب" قد أدّى إلى انتشار السفور، ولكنّ الإمام الخميني رحمه الله أجابهم بأن المطهري رجل عقائدي وفاهم، وأنّ كتابه سوف يؤدي إلى انتشار الحجاب.

الإمام الخميني وحملات المتحجرين:

كما أن الخميني رحمه الله بدوره لاقى الكثير من الحملات القاسية قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعدها من داخل الحوزة، حتى قال رحمه الله :" إنّ ما قطعته هذه الفئة المتحجرة من أنياط قلب أبيكم الشيخ العجوز لم تستطع أبدا أن تقطعه كل ضغوط الآخرين عليّ، والمشاق التي سببوها". ثم قال : " فإضافة إلى مواجهة ذاك الرصاص والمدافع، كان هناك رصاص ينطلق من الجبهة الداخلية، كانت هناك رصاصات المكر والتظاهر بالقدسية ورصاص التحجر ... كانت هناك رصاصات التعريض، واللمز والنفاق، وكانت هذه أشدّ ألف مرّة من البارود والرصاص، فهي تحرق الأكباد والقلوب وتمزقها". إلى أن قال: " وطائفة أخرى من المتلبسين بزي العلماء، كانوا قبل انتصار الثورة يقولون بفصل الدين عن السياسة، ويتمسحون بأعتاب البلاط الملكي، تحولوا فجأة إلى متدينين، يوجهون تهم الوهابية وما هو أسوأ منها لعلماء الدين الأباة والنبلاء الذين تحملوا أشكال الأذى والتشريد والنفي. وبالأمس كان المتظاهرون بالقدسية عديمو الشعور يقولون بعزل الدين عن السياسة ويحرمون معارضة الشاه؛ أما اليوم فهم يقولون إن مسؤولي النظام الإسلامي أصبحوا شيوعيين" (مرجعية المرحلة وغبار التغيير، جعفر الشاخوري البحراني، ط١/١٩٩٨م، دار الأمير- بيروت، ص: ٢٠-٢٣).

ولتلاحظ أيها القارئ هنا بأن كل الذين تبرز لهم اجتهادات فكرية مستقلة خارجة عن السياق من علماء الشيعة يتم اتهامهم بأنهم صاروا وهابية، ومن أتباع هذه الحركة التي تحارب التشيع، التهمة ذاتها تكررت هنا عند الإمام الخميني والسيد فضل الله ومحسن الأمين والشهيد الصدر ومحمد

جواد مغنية، فالتاريخ يعيد نفسه في كل مرّة، والعوام والمعممون هم هم، بالتفكير نفسه، والموقف ذاته، مما يدلك على أنهم لا يتعلمون من التجارب، ولا يتعظون من التاريخ الشيعي السابق عليهم، ولا يفكرون حتى في التغيير والإصلاح، وقلع جذور العنف والتكفير لأبناء مذهبهم، وحملهم محمل الخير، وحسن الظن بهم، بل يصرون في كل مرة، وفي كل حقبة، ومع كل عالم أو مفكر مجتهد مخلص على التعامل معه من منطلق أنه عدو ومارق وضال، مما يجب ساعتها محاربته وإقصاؤه وإخراجه من حظيرة التشيع.

صاحب كتاب " الحوزة تدين الانحراف" اعتبر السيد فضل الله نسخة ثانية من ابن تيمية، وأن كل ما جاء في كتبه الكثيرة يتطابق تماما مع ما جاء في كتاب ابن تيمية المعروف " منهاج السنة" .. هكذا مرة واحدة، وبجرة قلم، يساوي بين ابن تيمية الذي بلغ ما بلغ من النصب والعداء لأهل البيت (ع) وللتشيع، وللانحراف العقائدي وبين السيد فضل الله، لم كل هذا ؟! لأنه قال بأمور لا تتوافق مع ما كان سائدا ومعروفا في الأوساط الشيعية، وأعمل فكره بكل حرية واستقلالية. يقول:

" ثم إنّه قد تبيّن لنا – وبالمقارنة بين آرائه الموجودة في كتبه وغيرها، وبين آراء ابن تيمية في كتابه (منهاج السنّة) – أنهما يلتقيان في كثير من القضايا والمعتقدات، كمسألة العصمة، ومسألة الشفاعة، ومسألة إقامة المآتم، ومسألة آية المباهلة ....، وهذه نقطة مهمة جدا نلفت إليها أنظار الباحثين، وتبيّن أيضا من المقارنة بين أساليبهما في البحوث أنّ لصاحبنا داعية التجديد في المذهب الشيعي، كما كان لابن تيمية داعية التجديد في الإسلام، فكان عاقبة ذلك أن ظلله علماء المذاهب الأربعة، وعاقبة هذا أن ظلله علماء المذهب الإمامي ... " (الحوزة العلمية تدين الانحراف، محمد علي الهاشمي المشهدي، ط٣/٢٠٠١م، دار الحسيني-بيروت، ص٧)

وما اكتفى الهاشمي بنعت السيد فضل الله بأنّه نسخة ثانية مطابقة لابن تيمية وفكره ومدرسته العقائدية، بل وصمه بنعوت لاذعة لا تليق حتى بواحد من العوام، فضلا عن عالم من العلماء، فالسيد فضل الله في ميزان المشهدي وفي ميزان من يؤمن برؤيته صاحب بدع كثيرة، وهو بفكره ممن يخدمون الأعداء والأجانب من حيث يشعر أو لا يشعر. وهو واحد ممن يدّعون العلم والإصلاح والفضل والتجديد. "والأنكى من ذلك أن يكون من بينهم من يدّعي العلم والفضل، أو يكون فيهم من ينتمي إلى الأسرة الهاشمية وينتهي نسبه إلى العترة الفاطمية، فبدلا من أن يقف مدافعا عن مذهب آبائه، حاميا للشريعة الغرّاء، مروجا لتلك العقائد الحقة في أوساط الشباب والعوام، فإذا به يقف في صف الأعداء، ناقضا عرى المذهب عروة بعد أخرى، من خلال التشكيك في المسلمات، والإيحاء إلى العوام بأنّ علماء

الطائفة قصّروا في تشييد مبانيه الفكرية، أو أنّ من الضروري إعادة النظر في جميع ما تبنته الطائفة من عقائد إلى يومنا هذا!" (المصدر نفسه، ص ٤).

ومتى ما حاكمنا العلماء والمفكرين بهذا الميزان، وهو ميزان الاختلاف عن آراء علماء الطائفة، أو التفرد ببعض التوجهات والمتبنيات والآراء الفكرية المستقلة، أو تبني آراء توافق مباني علماء أخواننا السنة فإننا سنخرج عشرات العلماء الشيعة من حظيرة التشيع، وسوف نوصمهم بأنهم من أتباع السنة والوهابية! لأننا بذلك لا نعد العالم عالما إلا إذا جاء في آرائه موافقا تماما للآراء السائدة للطائفة والمتداولة، سواء في الفقه أو التاريخ أو العقائد وغيرها، وهذا تفكير معوج، لا يلتقي مع الحرية الفكرية، والدعوة للنظر والتأمل، والحرص على التجديد، ونبذ التقليد، وإنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون، فإما أن أكون نسخة ثانية مطابقة تماما ممن سبقني و من مجتمعي وطائفتي، وإلا أصبح منبوذا ومنحرفا وضالا ومبتدعا، ولا فهم لي ولا علم ومدعيا للفضل والمعرفة، إذا كان الأمر كذلك فللقارئ أن يتأمل في هذه القائمة من العلماء الشيعة الفضلاء وأساطين المذهب ممن تبنوا آراء مخالفة ومغايرة تماما، وإليك أيها القارئ أمثلة متعددة لكثير من الفتاوى والتي خالفوا فيها المشهور منذ زمن الشيخ الصدوق إلى زماننا هذا:

(١) بعض مخالفات الشيخ الصدوق للمشهور:

فالشيخ الصدوق يرى:

١. وجوب الوضوء بالنسبة للحائض خلافا للمشهور الذي يرى الاستحباب (مفاتيح الشرائع، ج١، ص١٦).

٢. لا يستحب في شهر رمضان صلاة ألف ركعة زيادة على النوافل المرتبة خلافا للمشهور (المفاتيح، ج١، ص٣٦).

٣. عدم مبطلية النوم للوضوء إما مطلقا أو من المجتمع (المفاتيح، ج١، ص٤٠).

٤. مس باطن الفرجين يبطل الوضوء (المفاتيح، ج١، ص٤٠).

٥. إذا توضأ قبل الاستنجاء بالماء فيعيده بعده، وأوجبه الصدوق إذا كان من البول (المفاتيح،ج١، ص٤١).

٦. وجوب تقديم مسح الرجل اليمنى على اليسرى (المفاتيح، ج١، ص٤٦).

٧. جواز الوضوء بماء الورد (المفاتيح، ج١، ص ٤٧).

٨. عدم مفطرية البقاء على الجنابة من شهر رمضان (المفاتيح، ج١، ص٥٢).

٩. تحقق الغروب بسقوط القرص (علل الشرائع، ص٣٣).

١٠. الشهادة الثالثة في الأذان من وضع الغلاة والمفوضة (علل الشرائع، ص٣٣).

١١. وجوب غسل الجمعة خلافا للمشهور الذي يرى الاستحباب (المفاتيح، ج١، ص٥٤).

١٢. طهارة القليل من الدم (المفاتيح، ج١، ص٦٦).

١٣. عدم وجوب تقديم الجانب الأيمن على الأيسر في الغسل (المفاتيح، ج١، ص٥٦).

١٤. استثناء خرء وبول الطير من النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٦٥).

١٥. يحرم الجمع بين بنت أخت الزوجة وبنت أخيها جمعا (كالأختين) (المفاتيح، ج٢، ص٢٣٩).

١٦. طهارة الخمر (المفاتيح، ج١، ص٧٢).

١٧. نجاسة عرق الجنب من الحرام (المفاتيح، ج١، ص٧٣).

١٨. لا فرق بين بول الصبي والصبية في النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٧٤).

١٩. إذا مضى أكثر مقدار الصلاة أول الوقت وجبت الصلاة (المفاتيح، ج١، ص٩٥).

٢٠. تحرم الصلاة في مكان فيه خمر.

٢١. مع فقد العلم أو الظن بجهة القبلة صلى إلى أي جهة صلاة واحدة والأكثر على وجوب الصلاة إلى أربع جهات (المفاتيح، ج١، ص١٤).

٢٢. الاعتبار بالغيبوبة بعد الشفق في الثانية (المفاتيح، ج١، ص٢٥٨).

٢٣. حلية ذبائح أهل الكتاب إذا سمّوا عليها (المفاتيح، ج١، ص٢٥٨).

٢٤. إنّ عدم أكل الكلب من الصيد ليس بشرط في حلية صيده (المفاتيح، ج٢، ص٢١٠).

٢٥. حرمة عقد المولود على قابلته والمشهور الكراهة (المفاتيح، ج٢، ص٢٥٥).

٢٦. عدم وجوب الصلاة على محمد وآل محمد في التشهد (المفاتيح، ج١، ص١٥١).

٢٧. جواز السهو على الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

(٢) بعض مخالفات الشيخ أبي محمد الحسن بن أبي عقيل العماني للمشهور:

١. أكثر مدّة النفاس بالنسبة للمبتدئة واحد وعشرون يوما (المفاتيح، ج١، ص١٦).

٢. الاستحاضة غير المثقفة للكرسف لا يجب بها وضوءا ولا غسلا (المفاتيح،ج١، ص٤٠).

٣. الغسل للإحرام واجب خلافا للمشهور الذي يرى الاستحباب (المفاتيح، ج١، ص٥٤).

٤. جواز التيمم بغير الأرض كالكحل والزرنيخ (المفاتيح، ج١، ص٦١).

٥. طهارة أهل الكتاب (المفاتيح، ج١، ص٧١).

٦. طهارة العصير العنبي إذا غلا واشتد (المفاتيح، ج١، ص٧٣).

٧. عدم انفعال الماء القليل بملاقاة النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٨١).

٨. مع فقد العلم بجهة القبلة صلى إلى أي جهة صلاة واحدة والأكثر على وجوب الصلاة إلى أربع جهات (المفاتيح، ج١، ص١١٤).

٩. جواز الصيد بما أشبه الكلب من الفهد والنمر وغيرهما لعموم الآية وللصحاح "الكلب والفهد سواء" (المفاتيح، ج٢، ص٢٠٧).

١٠. جواز الجمع بين بنت أخت الزوجة وبنت أخيها جمعا من دون تقييد بالرضا (المفاتيح، ج٢، ص٢٣٩).

(٣) بعض مخالفات الشيخ أبي علي محمد بن أحمد بن الجنيد الكاتب (الإسكافي) للمشهور:

١. الغسل مطلقا يجزي عن الوضوء (المفاتيح، ج١، ص٤٠).

٢. يجب الوضوء بالمذي الواقع عقيب الشهوة، والقبلة بشهوة، والقهقهة في الصلاة، والحقنة، ومس باطن الفرجين (المفاتيح، ج١، ص٤٠).

٣. يجوز المسح في الوضوء بالماء المستأنف (أي بغير بلة الوضوء) (المفاتيح، ج١، ص٤٦).

٤. استحباب النية في الطهارات (المفاتيح، ج١، ص٤٨).

٥. استحباب الغسل لكل مشهد أو مكان شريف أو يوم وليلة شريفين، وعند ظهور الآثار في السماء، وعند كل فعل يتقرب به إلى الله ويلجأ فيه إليه (المفاتيح، ج١، ص٥٥).

٦. عدم وجوب تقديم الجانب الأيمن على الأيسر في الغسل (المفاتيح، ج١، ص٥٦).

٧. جواز التيمم بالغبار مطلقا (المفاتيح، ج١، ص٦١).

٨. طهارة بول الرضيع (المفاتيح، ج١، ص٦٥).

٩. نجاسة روث الحمير (المفاتيح، ج١، ص٦٥).

١٠. طهارة القليل من الدم (المفاتيح، ج١، ص٦٦).

١١. طهارة جلد الميتة بالدباغ (المفاتيح، ج١، ٦٩).

١٢. طهارة أهل الكتاب (المفاتيح، ج١، ص٧١).

١٣. يجوز إزالة الدم بالبصاق (المفاتيح، ج١، ص٧٧).

١٤. إذا أضيف الخمر إلى الخل وانقلب الجميع خلا طهر (المفاتيح، ج١، ص٨١).

١٥. تحقق الغروب بسقوط القرص (المفاتيح، ج١، ص٩٤).

١٦. يجب الصلاة عاريا، مع نجاسة الثوب وعدم حصول غيره، والقيام واستيفاء الأفعال مع الستر (المفاتيح، ج١، ص١٠٧).

١٧. كراهة قول آمين بعد الحمد (المفاتيح، ج١، ص١٢٩).

١٨. جواز الإتيان بعبارة "الصلاة خير من النوم" في أذان الفجر ووافقه في ذلك الجعفي (المفاتيح، ج١، ص١١٩).

١٩. يجب رفع اليدين في تكبيرة الإحرام والمشهور على استحبابه (المفاتيح، ج١، ص١٢٦).

٢٠. يستحب قراءة سورة بعد الحمد (المفاتيح، ج١، ص١٣١).

٢١. امتداد نية الصوم الواجب إلى أن يبقى جزء من النهار (المفاتيح، ج١، ص٢٤٤).

٢٢. لا يحل التحليل (بالنسبة لخمس أرباح المكاسب) إلا لصاحب الحق في زمانه ولا يسوغ تحليل ما يملكه غيره، ورد المحقق بأن الإمام لا يحل إلا ما يعلم أنَّ له الولاية في تحليله (المفاتيح، ج١، ص٢٢٥).

٢٣. يكفي في الرضاع المحرم واحدة تملأ الجوف إما بالمص أو الوجور (المفاتيح، ج٢، ص٢٣٨).

٢٤. لا تُحرم الزوجة من الدار والعقار (المفاتيح، ج٣، ص٣٢٩).

٢٥. حلية ذبائح أهل الكتاب إذا سمّوا (المفاتيح، ج٢، ص١٩٥).

(٤) بعض مخالفات السيد المرتضى علم الهدى للمشهور:

١. وجوب التكبير بعد صلاة العيدين خلافا للمشهور الذي يرى الاستحباب (المفاتيح، ج١، ص٢٩).

٢. الغسل يجزئ عن الوضوء مطلقا (المفاتيح، ج١، ص٤٠).

٣. جواز غسل اليدين منكوسا كما يفعل السنّة (المفاتيح، ج١، ص٤٥).

٤. استحباب غسل مس الميت (المفاتيح، ج١، ص٥٢).

٥. جواز التيمم بنداوة الثلج (المفاتيح، ج١، ص٦١).

٦. يشترط علوق التراب في التيمم (المفاتيح، ج١، ص٦٢).

٧. إذا أحدث بعد التيمم بدلا عن الغسل وكان قادرا على الوضوء وجب (المفاتيح، ج١، ص٦٥).

٨. نجاسة المخالفين خلافا للمشهور الذي يرى الطهارة (المفاتيح، ج١، ص٧١).

٩. طهارة ما لا تحلّه الحياة من الكلب والخنزير والكافر كالشعر وما إلى ذلك (المفاتيح، ج١، ص٧١).

١٠. جواز تطهير الأجسام الصقيلة بالمسح (المفاتيح، ج١، ص٧٧).

١١. جواز إزالة النجاسة بالماء المضاف(المفاتيح، ج١، ص٧٧).

١٢. المفطرات التي تبطل الصوم أربعة: الأكل والشرب وإنزال الماء الدافق والجماع (رسائل الشريف المرتضى، ج٣، ص٥٤).

١٣. عدم ثبوت وجوب الحبوة بل استحبابها (المفاتيح، ج٣، ص٣٢٩).

١٤. عدم الإفطار بما ليس معتادا كالرمل (المفاتيح، ج١، ص٢٤٧).

١٥. ترث الزوجة من قيمة الأرض والعقار (المفاتيح، ج٣، ص٣٢٨).

١٦. شمول خيار الحيوان للبائع(المفاتيح، ج٣، ص٦٨).

١٧. جواز تقديم خطبة الجمعة على الزوال(المفاتيح، ج١، ص٩١).

١٨. الثوب المنسوج من القطن أو الكتان إذا كان طاهرا يكره السجود عليه كراهة التنزيه وطلب الفضل، لا أنه محظور محرم (رسائل الشريف المرتضى، ج١، ص١٧٤).

١٩. لو انكشف عدم دخول الوقت أعاد الصلاة مطلقا حتى إذا دخل الوقت وهو متلبس بالصلاة (المفاتيح، ج١، ص٩٥).

٢٠. إذا مضى أكثر مقدار الصلاة في أول الوقت وجبت (المفاتيح، ج١، ص٩٥).

٢١. حرمة التنفل بالنوافل المبتدئة عند طلوع الشمس وغروبها وقيامها وبعد صلاة الصبح والعصر (المفاتيح، ج١، ص٩٨).

٢٢. يكره أخذ الأجرة على الآذان والأكثر على تحريمه (المفاتيح، ج١، ص١٢).

٢٣. يجب رفع اليدين في التكبير والمشهور على استحبابه (المفاتيح، ج١، ص١٢٦).

٢٤. المشهور على جواز الأكل لمن مرّ بنخل أو فاكهة أو زرع اتفاقا والسيد على تحريمه (المفاتيح، ج٣، ص٢٢٣).

٢٥. يستحب الجهر في قراءة صلاة الصبح والعشاءين (المفاتيح، ج١، ص١٣٤).

٢٦. يجوز أن يغلب النوم الأنبياء في أوقات الصلاة فيقضونها، ولا يعد ذلك نقصا أو عيبا (الأنوار النعمانية، ج٤، ص٣٤).

(٥) بعض مخالفات شيخ الطائفة الشيخ الطوسي للمشهور:

١. المشهور اشتراط العربية في الطلاق خلافا للنهاية (المفاتيح، ج٢، ص٣١٥).

٢. اعتبار الصفرة حتى في أيام العادة كما في النهاية (المفاتيح، ج١، ص١٤).

٣. وجوب الاستبراء من البول (المفاتيح، ج١، ص٤٣).

٤. لا يجب الغسل بوطء المرأة في الدبر (المفاتيح، ج١، ص٥٣).

٥. عدم جواز التيمم للمجنب المتعمد وإن خاف التلف (المفاتيح، ج١، ص٥٩).

٦. عدم مطهرية الأرض لباطن الخف ولكن تجوز الصلاة (المفاتيح، ج١، ص٧٩).

٧. إذا تحولت النجاسة إلى دخان لا تطهر (المفاتيح، ج١، ص٨٠).

٨. تزول الملكية بالإعراض (المفاتيح، ج٣، ص٣٦).

٩. إذا أضيفت الخمر إلى الخل وانقلب الجميع خلا طهر الجميع (المفاتيح، ج١، ص٨١).

١٠. لا شيء على الموجور في حلقه بلا خلاف، ولا على المكره عند الأكثر خلافا للمبسوط لأنه يفعل باختياره (المفاتيح، ج١، ص٢٥٢).

١١. عدم جواز أكل السمك حيا خلافا للأشهر (المفاتيح، ج٢، ص٢٠٥).

١٢. يجوز بيع المنفعة خلافا للمشهور (المفاتيح، ج٣،ص٥٠).

١٣. أول الوقتين للمختار والثاني للمضطر (المفاتيح، ج١، ص٥).

١٤. الأكثر على صحة الفضولية في النكاح والشيخ على الحرمة (المفاتيح، ج٢، ص٢٦٤).

١٥. استثناء ما لا يدركه الطرف من الدم من النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٧٤).

١٦. يجوز إمامة الصبي المميز العاقل (المفاتيح، ج١، ص١٦٠).

١٧. أول العشاء ذهاب الشفق الغربي (المفاتيح، ج١، ص٨٨).

١٨. إذا نوى يوم الشك بنية أنّه من رمضان فبان منه صح (المفاتيح، ج١، ص٢٤٦).

١٩. يصح الصوم من المغمى عليه مع سبق النية وخالف الأكثر (المفاتيح، ج١، ص٢٣٨).

٢٠. يجوز بيع الصبي إذا بلغ عشرا عاقلا (المفاتيح، ج٣، ص٤٦).

٢١. وقت صلاة العيد من ارتفاع الشمس إلى طلوعها (المفاتيح، ج١، ص٩٠).

٢٢. حرمة الصلاة في الحديد ولو الخاتم (المفاتيح، ج١، ص١١٠).

٢٣. تحقق الغروب بسقوط القرص كما في المبسوط.

٢٤. يستحب قراءة سورة بعد الحمد في أحد قوليه (المفاتيح، ج١، ص١٣١).

٢٥. إذا وقع في القدر قدر أوقية من الدم فالمشهور نجاسة المرق ووجوب تطهير اللحم ولكنه حكم بالطهارة لأن النار تأكل اللحم (المفاتيح، ج٢، ص١٩٣).

٢٦. يجوز طلاق من بلغ عشرا عاقلا (المفاتيح، ج٢، ص٣١٣).

٢٧. الزنا بأم الزوجة إن كان سابقا لم ينشر الحرمة إذا كان بغير العمة والخالة خلافا للمشهور (المفاتيح، ج٢، ص٢٤١).

٢٨. موضع عضة الكلب في الصيد طاهرة لظاهر "فكلوا مما أمسكن عليكم" (المفاتيح، ج٢، ص٢١٦).

٢٩. يحرم العقد على الزانية قبل أن تتوب والمشهور الكراهة (المفاتيح، ج٢، ص٥٤).

(٦) بعض مخالفات الشيخ محمد بن إدريس الحلي (صاحب السرائر) للمشهور:

١. جواز النكس في غسل اليدين كما يفعل أهل السنّة (المفاتيح، ج١، ص٤٥).

٢. نجاسة الكلب والخنزير المائيين (المفاتيح، ج١، ص٧٣).

٣. اختصاص حكم ما لا يتم الصلاة فيه منفردا بالملابس (المفاتيح، ج١، ص١٠٧).

٤. نجاسة مطلق من لا يعتقد الحق ولا يدين الله بمذهب الشيعة الإمامية (روضات الجنّات، ج٦، ص٢٨٩).

٥. نجاسة ولد الزنا وإن كان من الشيعة الإمامية (روضات الجنّات، ج٦، ص٢٨٩).

٦. يكفي في الركوع مطلق الذكر (المفاتيح، ج١، ص١٣٩).

٧. هل يجب تعقيب صلاة الاحتياط للصلاة من غير تخلل المنافي؟ الأكثر نعم، والحلي: لا (المفاتيح، ج١، ص١٧٩).

٨. عدم اشتراط الفقر في استحقاق يتامى أولاد هاشم الخمس عملا بظاهر الآية (روضات الجنّات، ج٦، ص١٧٩).

٩. كل من وجبت زكاة فطرته على غيره سقطت عن نفسه وخالف الحلي في الضيف فأوجب عليه أيضا (المفاتيح، ج١، ص٢١٦).

١٠. الجاهل بالحكم ليس عليه شيء إذا ارتكب المفطر (المفاتيح، ج١، ص٢٥٢).

١١. يكره الارتماس في شهر رمضان (المفاتيح، ج١، ص٢٤٧).

١٢. عدم إيجاب تعمّد القيء في الصيام القضاء فضلا عن الكفارة (روضات الجنّات، ج٦، ص٢٨٩).

١٣. يستحب الاستقلال في الصلاة مع الاختيار، والأكثر على وجوبه (المفاتيح، ج١، ص١٢١).

١٤. لا يضر الطبيب مع الحذاقة والأمن خلافا للمشهور، بل ادّعى المحقق وابن حمزة على الإجماع (المفاتيح، ج٢، ص١١٦).

١٥. لا يجوز الجلوس على طعام يُعصى الله عليه (المفاتيح، ج٢، ص٢٢٥).

١٦. لو كان غاصبا لها (الوديعة) يمنع منها وينكر ويعيد على صاحبها إن عرف، وإن جهل عرّف سنة ثم جاز التصدّق بها، ويضمن مع كراهة صاحبها على المشهور للخبر، خلافا للحلي حيث أوجب ردّها إلى إمام المسلمين، ومع التعذر يبقى أمانة ثم يوصي بها إلى عدل إلى حين التمكن من المستحق، وقوّاه في المختلف (المفاتيح، ج٣، ص١٦٥).

١٧. وجوب النفقة على الصغيرة مع عدم جواز وطيها، وبعدم إيجاب وطي الصغيرة تحريمها المؤبد (روضات الجنّات، ج٦، ص٢٨٩).

١٨. عدم جواز امتناع المعقود عليها غير المدخول بها من تسليم نفسها حتى تقبض مهرها مع إعسار زوجها (روضات الجنات، ج٦، ص٢٨٩).

١٩. القول بالقرعة مع اشتباه المطلقة من الأربع وتزوّج الزوج بالخامسة ثم موته قبل تعيين المطلقة (روضات الجنّات، ج٦، ص٢٨٩).

٢٠. عدم جواز النظر إلى شعور أهل الذمة وبالأولى النساء الذين لا ينتهين إذا نُهين (راجع السرائر، ج٢، ص٦١٠، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي). بالإضافة إلى قوله بعدم حجية خبر الواحد الذي تترتب عليه الكثير من الخلافات الفقهية بينه وبين الفقهاء الآخرين.

(٧) بعض مخالفات الشيخ المفيد للمشهور:

١. صحة المعاطاة خلافا للمشهور (المفاتيح، ج٣، ص٤٨).

٢. لا يردّ على الزوجة أصلا على المشهور خلافا لظاهر المفيد (المفاتيح، ج٣، ص٣٠٤).

٣. يجوز طلاق من بلغ عشرا عاقلا (المفاتيح، ج٢، ص٣١٣).

٤. استحباب الغسل إذا أهرق عليه ماء غالب النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٥٥).

٥. لا ينبغي الارتماس في الماء الراكد (المفاتيح، ج١، ص٥٧).

٦. عدم جواز التيمم للمجنب المتعمد وإن خاف التلف (المفاتيح، ج١، ص٥٩).

٧. جواز إزالة النجاسة بالماء المضاف (المفاتيح، ج١، ص٧٧).

٨. أول الوقتين للمختار والثاني للمضطر (المفاتيح، ج١، ص٨٨).

٩. أول العشاء ذهاب الشفق الغربي (المفاتيح، ج١، ص٨٨).

١٠. وقت صلاة العيد من ارتفاع الشمس لا طلوعها (المفاتيح، ج١، ص٩١).

١١. حرمة الصلاة في القباء المشدود (المفاتيح، ج١، ص١١١).

١٢. كراهة استقبال واستدبار القبلة في الخلاء.

١٣. الثروات المعدنية في الأرض يشترط في أخذها إذن الإمام (المفاتيح، ج٣، ص٢٥).

١٤. إذا وقع في القدر قدر أوقية من الدم فالمشهور على نجاسة المرق ووجوب تطهير اللحم ولكن المفيد حكم بالطهارة لأن النار تأكل اللحم (المفاتيح، ج٢، ص١٩٣).

١٥. الزنا بأم الزوجة إذا كان سابقا على العقد لا ينشر الحرمة في غير الزنا بالعمة والخالة خلافا للمشهور (المفاتيح، ج٢، ص٢٤١).

١٦. تحرم الزوجة إذا أصرّت على الزنا لفوات فائدة التناسل معه لاختلاط الأنساب خلافا للمشهور (المفاتيح، ج٢، ص٢٤٥).

١٧. يصح الصوم من المغمى عليه مع سبق النية وإن خالف الأكثر (المفاتيح، ج١، ص٢٣٨).

(٨) بعض مخالفات الفيض الكاشاني للمشهور:

١. التوفيق بين الأخبار اختلاف معنى البلوغ بحسب السن بالإضافة إلى أنواع التكاليف، كما يظهر مما روي في باب الصيام: أنه لا يجب على الأنثى قبل إكمالها الثلاث عشرة سنة (المفاتيح، ج١، ص١٤).

٢. وجوب صلاة الجمعة (المفاتيح، ج١، ص١٧).

٣. تعريف العدالة بحسن الظاهر وعدم ظهور الخلاف (المفاتيح، ج١، ص١٨).

٤. يحتمل حرمة السفر يوم الجمعة قبل الزوال (المفاتيح، ج١، ص٢٣).

٥. تجب صلاة العيدين على الأعيان (المفاتيح، ج١، ص٢٨).

٦. يجزي غير الأحجار في الاستنجاء (المفاتيح، ج١، ص٤٢).

٧. جواز النكس لليدين في الوضوء وفاقا للسيد المرتضى والحلي (المفاتيح، ج١، ص٤٥).

٨. جواز الوضوء بماء الورد (المفاتيح، ج١، ص٤٦).

٩. عدم اشتراط الغسل من الجنابة في غير رمضان وقضائه (المفاتيح، ج١، ص٥٢).

١٠. لا يشترط غسل مس الميت في شيء من العبادات (المفاتيح، ج١، ص٥٣).

١١. تحديد الرمي بغلوة سهم في الحزَنَة وسهمين في السهلة كما هو المشهور ليس بشيء (المفاتيح، ج١، ص٥٦).

١٢. طهارة الجلد بالدباغ (المفاتيح، ج١، ص٦٨).

١٣. طهارة أهل الكتاب (المفاتيح، ج١، ص٧١).

١٤. طهارة الخمر على نحو الاحتمال (المفاتيح، ج١، ص٧٢).

١٥. طهارة العصير العنبي إذا غلا (المفاتيح، ج١، ص٧٣).

١٦. عدم تنجيس المتنجس (المفاتيح، ج١، ص٧٥).

١٧. طهارة الأجسام الصقيلة بالمسح (المفاتيح، ج١، ص٧٧).

١٨. إذا أحدث بعد التيمم بدلا عن الغسل وقدر على الوضوء توضأ (المفاتيح،ج١،ص ٦٥).

١٩. لومزجت الخمر بالخل فانقلبت خلا طهرت (المفاتيح، ج١، ص٨١).

٢٠. صلاة الجمعة وقتها مضيق بمقدار الآذان والخطبة وركعتي الفرض (المفاتيح، ج١، ص٩١).

٢١. تحقق الغروب بسقوط القرص (المفاتيح، ج١، ص٩٤).

٢٢. عدم انفعال الماء القليل بملاقاة النجاسة (المفاتيح، ج١، ص٨١).

٢٣. جواز الصلاة في الأرض المغصوبة وفاقا للفضل بن شاذان (المفاتيح، ج١، ص٩٩).

٢٤. عدم استثناء ثوب المربية للصبي(المفاتيح، ج١، ص١٠٧).

٢٥. لا دليل على وجوب إبدال قطنة المستحاضة لكل صلاة (المفاتيح، ج١، ص١٠٧).

٢٦. التشكيك في الحكم المشهور بعدم جواز الصلاة في شيء مما لا يؤكل لحمه (المفاتيح، ج١، ص١٠٩).

٢٧. حرمة التحنك (في العمامة) لأنه من لباس الشهرة (المفاتيح، ج١، ص١١١).

٢٨. كراهة الإتيان بالشهادة الثالثة (المفاتيح، ج١، ص١١٨).

٢٩. الأكثر على وجوب الاستقلال في الصلاة مع الاختيار خلافا للحلي فاستحبه ولا يخلو من قوة (المفاتيح، ج١، ص١٢١).

٣٠. يكره التكفير (وضع اليدين على بعضهما في الصلاة) والأكثر على تحريمه بلا بطلان الصلاة فيه (المفاتيح، ج١، ص١٢٢).

٣١. زيادة تكبيرة الإحرام مبطلة على المشهور وفي مستنده نظر (المفاتيح، ج١، ص١٢٥).

٣٢. كراهة قول آمين (المفاتيح، ج١، ص١٢٩).

٣٣. يستحب قراءة سورة بعد الحمد (المفاتيح، ج١، ص١٣١).

٣٤. تقوية عدم اشتراط علو الإمام في صلاة الجماعة (المفاتيح، ج١، ص١٦١).

٣٥. عدم مفطرية الغبار (المفاتيح، ج١، ص٢٤٨)

٣٦. المشهور عدم جواز التداوي بشيء من المسكران والأنبذة، وأطلق القاضي جواز التداوي بها إذا لم يكن عنده مندوحة، والأصح جوازه مع خوف التلف خاصة (المفاتيح، ج٢، ص٢٢٩).

٣٧. التشكيك في حرمة ما ليس له فلس إلا الجري (المفاتيح، ج٢، ص١٨٤).

٣٨. إذا وجد لحم ولا يدري أذكي هو أم ميت فالمشهور أنه يطرح في النار فإن انقبض فهو ذكي وإن انبسط فهو ميت للخبر وفي مستنده وقف وجهالة (المفاتيح، ج٢، ص١٩٢).

٣٩. لا يشترط المص في الرضاع (المفاتيح، ج٢، ص٢٣٨).

٤٠. يجوز نكاح الكتابية دواما (المفاتيح، ج٢، ص٢٤٩).

٤١. التشكيك في اشتراط اللفظ في النكاح (المفاتيح، ج٢، ص٢٦٠).

٤٢. المشهور اشتراط الإيمان في الزوج ولكن الأصح الاكتفاء بالإسلام (المفاتيح، ج٢، ص٢٥٣).

٤٣. المشهور اشتراط تجريد الطلاق عن الشرط والصفة مطلقا، ولا دليل عليه، والإجماع لم يثبت (المفاتيح، ج٢، ص٣١٦).

٤٤. المشهور إن ما يجب فعله لا يجوز أخذ الأجرة عليه، كتغسيل الموتى وتكفينهم ودفنهم ولكن الصحيح اختصاص الحكم بما يشترط فيه نية التقرب (المفاتيح، ج٣، ص١١).

٤٥. المشهور اشتراط الصيغة في البيع ولكن الصحيح صحة المعاطاة (المفاتيح، ج٣، ص٤٨).

(٩) بعض مخالفات السيد الخوئي للمشهور:

١. جواز الإجهاض بالنسبة للمرأة في حال الخوف على الحياة.

٢. عدم اشتراط حضور الإمام في الجهاد الابتدائي.

٣. عدم جواز الكذب على الزوجة على الأحوط وجوبا.

٤. عدم التفريق بين القرشية وغيرها في مسألة الحيض على الأحوط وجوبا.

٥. جواز خروج المرأة من غير إذن زوجها إذا لم يناف حق الاستمتاع. (كتاب النكاح ٤٠/١ تقريرات بحث السيد محمد حسين فضل الله).

٦. من زنا بذات بعل فلا تحرم عليه مؤبدا. (كتاب النكاح ١٧٣/١، تقريرات بحث السيد محمد حسين فضل الله).

٧. جواز الأكل بالنسبة لطالب الصيد لهوا.

٨. وجوب دفع الخمس إلى الأعلم على الأحوط وجوبا.

٩. عدم ثبوت استحباب كثير من الأغسال.

١٠. عدم وجوب الترتيب بين الجانب الأيمن والأيسر في الغسل.

١١. جواز القتل حال الإكراه، إذا كان الطرف المكرَه أهم من الذي يراد قتله.

١٢. عدم وجوب الوضوء لكل صلاة بالنسبة للمستحاضة الكثيرة.

١٣. عدم ثبوت الكثير من أحكام الحائض من الواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات بالنسبة للنفساء (قراءة الآيات- المكث في المساجد- وضع شيء فيها).

١٤. حصول المغرب بسقوط القرص على الأحوط بل الأظهر بالنسبة لانتهاء وقت العصر.

١٥. جواز حلق اللحية بالنسبة لمن يُستهزأ به أو يتوقف عليه عمله.

١٦. جواز حلق العارضين مع عدم الإفتاء بحرمة أصل الحلق.

١٧. عدم اشتراط الاجتهاد في القاضي.

١٨. جواز بقاء العامي على تقليد الميت في المسائل التي تعلمها من فتاواه حال حياته ولم ينسها خلافا للمشهور الذي يجوّز البقاء مطلقا.

١٩. إذا توضأ بماء فانكشف بعد الفراغ أنّه لم يكن مباحا فالأظهر البطلان خلافا للمشهور الذي يرى الصحة.

٢٠. عدم اشتراط العدالة في من يؤم صلاة الميت.

٢١. الأحوط ترك المعاملة الربوية بين الوالد وولده وكذا بين الزوجين خلافا للمشهور الذي يرى الجواز.

٢٢. الأحوط وجوبا حضور صلاة الجمعة إذا أقيمت.

٢٣. بطلان الصلاة بالتكلم بحرف واحد وإن لم يكن مفهما خلافا للمشهور الذي يشترط الحرفين.

٢٤. عدم التفريق بين من كان عمله السفر وعمله في السفر.

٢٥. عدم ثبوت الكفارة حتى في النومة الثالثة بالنسبة للصائم.

٢٦. يجوز للمرأة أن تشترط لنفسها التوكيل في الطلاق.

٢٧. جواز أخذ الأجرة على الواجبات على تفصيل.

٢٨. جواز العقد الدائم على الكتابية وجواز الرقص غير الجنسي.

٢٩. الجلود المشكوكة التذكية التي تأتي من بلاد الغرب محكومة بالطهارة.

٣٠. يجوز أكل السمك الذي مات في الشبكة حتى ولو كان داخل الماء (راجع المنتخبة وصراط النجاة).

وغيرها كثير - مما يعني أنّه ما من فقيه إلا وله آراء يتفرد بها أو يخالف بها المشهور، ولو لم يأت بشيء جديد لما صدق عليه عنوان المجتهد أصلا. وإذا تجاوزنا مخالفة المشهور في بعض الفتاوى، فإننا نجد أنّ لدى الفقهاء المتأخرين بعض الفتاوى أو الآراء التي خرقت ما أجمع عليه كل العلماء السابقين، بل لا يكاد العقل الفقهي أن يقترب منها " آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله وحركية العقل الاجتماعي لدى فقهاء الشيعة الإمامية، جعفر الشاخوري البحراني، ط١/١٩٩٨م،دار الملاك-بيروت، ص ٣٢-٤٨) ".

أرأيت هذه الآراء التي تبناها كبار علماء المذهب، قدامى ومعاصرون ؟! وكيف ذهبوا في بعضها إلى حد الموافقة لآراء مدرسة أخواننا السنة، فهل سنخرج الشيخ الصدوق- وهو من هو- من المذهب ونوصمه بأبشع النعوت ونسقطه ونكفره ونقول عنه بأنه وهابي كما قالوا عن الشيخ محسن الحكيم ومحسن الأمين والسيد فضل الله وكما قال صاحب كتاب " الحوزة تدين الانحراف" في حقه، وغيرهم ، فهو (الشيخ الصدوق) أولى بهذا الإخراج من المذهب من السيد فضل الله، وهو أحق بنعته بأنّه وهابي إذا كنا سنحاكم علماءنا بهذا الميزان، وبهذا المعيار الظالم، وهذا التوجه الإقصائي والذي يمتاز بقلة الوعي .. فالشيخ الصدوق يقول عن الشهادة الثالثة والتي يقيم البعض الدنيا ولا يقعدها على التمسك بها في الأذان، ويراها هي والتشيع واحد لا يفترقان، فهي هوية كل شيعي، فبدونها لا يكون شيعيا، هذه الشهادة يقول عنها الشيخ الصدوق بأنّها من وضع الغلاة والمفوضة، فنحن نسلك مسلك الغلاة والمفوضة في رأيه ومبناه بذكرنا للشهادة الثالثة في الأذان، فهل سنخرجه من المذهب ونعده عدوا للطائفة بقوله هذا

؟! فتهمة الغلو تهمة خطيرة، وحكمها خطير، وهي أشد من النصب والعداء لأهل البيت (ع).

وإذا كان الشيخ الصدوق يرى الشهادة الثالثة بأنّها من وضع الغلاة والمفوضة فإن الفيض الكاشاني يرى أنّ الإتيان بها من المكروهات، هل سنتهم هذا العالم الجليل بالجهل وبأنه وهابي وعدو للمذهب، بدلا من أن نقول بأنه مجتهد وقد أدّى به اجتهاده وإعماله للعقل لهذا الرأي وهذه النتيجة ؟!

والشيخ الصدوق وافق السنة في أمور كثيرة، ليس فقط في الشهادة الثالثة، فالغروب عنده يتحقق بسقوط القرص، والسهو جائز على الأنبياء والأئمة المعصومين (ع)، أما ابن الجنيد فيرى الرأي نفسه في الغروب وتحققه، فهو يتحقق بسقوط القرص، وعند ابن الجنيد يجوز للشيعي أن يأتي بعبارة " الصلاة خير من النوم" في أذان الفجر كما يفعل أخواننا السنة في أذانهم للفجر، والتي نقول عنها بأنها بدعة، وليس هو فقط من يتبنى هذا الرأي، فقد وافقه عليه الجعفي.

والسيد المرتضى علم الهدى يرى جواز النكس في غسل اليدين في الوضوء كما يصنع أخواننا السنة، ووافقه في هذا الحلي والفيض الكاشاني .. فهل سنقول عنهم بأنّهم علماء سنة، أو وهابية، متأثرون بالسنة في أقوالهم ونخرجهم من المذهب بجرّة قلم وبضيق أفق من الوعي والسماحة الفكرية ؟! بل الأكثر من هذا كله أنّ السيد المرتضى يقول بجواز أن يغلب النوم الأنبياء في أوقات الصلاة فيقضونها ولا يعد ذلك نقصا أو عيبا.

أما التكفير (وضع اليدين على بعضهما في الصلاة) كما يفعل أخواننا السنة فإن الأكثر من علمائنا على تحريمه، أما الفيض الكاشاني فهو على خلاف هذا الرأي، فعنده هو مكروه وليس حراما، وهذا يعني أنّه لا يبطل الصلاة لو قام به شيعي، وهو يرى أن قول آمين كما يصنع السنة لا يبطل الصلاة أيضا، فهو مكروه فقط، وليس حراما !!.

إن لم نتقبل الرأي الآخر، ونتعايش مع الحرية الفكرية التي تنطلق من علمائنا المخلصين وأحرار الفكر فإننا سوف نحارب أغلب العلماء، وسوف نسقط ونكفر وندين مجموعة كبيرة من علمائنا، ونوهن المذهب من حيث لا نشعر بدلا من الحفاظ عليه وتقويته من خلال سعة العقل، ورحابة الصدر والفكر في كيفية التعامل مع المختلف مع السائد، فالجمع ليس معيارا للصواب، وتقادم الزمن على الأفكار لا يعطيها صكا للرجحان أبد الدهر، وإذا راجعنا آراء السيد فضل الله والتي من خلالها تم تسقيطه وتوهينه ومحاربة مرجعيته فإننا سنجدها ماثلة عند مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء، ممن سبقه أو عاصره أو ممن سيلحق به،ولم يكن متفردا

بالأخذ بها، ولا أول من يقول بها، فهو لو كان الوحيد في الأخذ بها لوجب أن نحترم رأيه واجتهاده، فكيف الحال وهو واحد من بين الكثير؟!

ولكن للأسف نحن لن نتعايش ولن نتقبل أن يختلف مع فكرنا أحد، مهما يكن هذا المختلف، ومهما تكن مكانته، ولن يشفع له علمه وتاريخه، فإن مصيره سيكون تحت الأقدام، ويشهر به، ولن نتورع عن ارتكاب كل المحرمات من غيبة ونميمة وتسقيط وعرض في سبيل إقصاء هذا الذي تجاسر وأعلن عن اختلافه وعدم قناعته بكثير من المسلمات في المذهب، فقد خرجت عشرات الكتب والدراسات في الرد على السيد فضل الله، وفي بيان ضلاله وزيغ فكره حسبما يقولون. إذا كان الرد ردا علميا، ويعالج الفكرة بالفكرة، من دون التعريض بالقائل، وبالشخص وعقيدته وتكفيره وتسقيطه والاستهزاء به فهذا لا بأس به، بل هو من الأمور المطلوبة والمرجوحة، والتي ندعو لها، ولكن الردود لا تكتفي بهذا في الأغلب الأعم منها مع أي مفكر نختلف معه، للأسف الشديد، بل تذهب بعيدا في الرد والاختلاف، إلى حيث التسقيط والاستهزاء والتوهين وسوء الظن، وهذا يذكرني بكتاب خرج في الرد على الشيخ والمفكر حيدر حب الله في بعض متبنياته واجتهاداته وآرائه المستقلة في الفكر الإسلامي وفي المذهب والعقيدة، كتبه شيخ مثله اسمه الشيخ محمد موسى حيدر، حيث كان عنوان الكتاب " أنفلونزا التغيير" هكذا !!، والعنوان دال وصارخ في الإقصاء والسخرية بالآخر، ومحاولة توهينه وتشبيه فكره واختلافه واجتهاده بأنّه لون من ألوان الأمراض المستعصية، وقد بدأه بعبارة دالة أيضا للسيد الخامنئي حيث يقول: " يجب علينا عدم فسح المجال أمام الأعداء لنفث سمومهم الفكرية ومحاولة الإطاحة الصامتة وهذه قضية لا علاقة لها بضرورة وجود الحرية وحرية التفكير".

والكتاب مملوء بألوان من السخرية والاستهزاء والكلام الجارح الذي لا يليق بواحد من العوام من المؤمنين فكيف الحال بعالم معمم، فضلا عن المقصود به وهو عالم أيضا ومن رجال الدين المخلصين المشهود لهم بالعلم والمكانة والفضيلة ؟!

ففي الكتاب تجد العبارات التالية : بل يحاول إخفاء "دياثته" هذه بالاختباء خلف شعارات خدّاعة من قبيل الانفتاح والعصرنة والحداثة والحرية واحترام الرأي الآخر، وهو يقصد بالطبع حيدر حب الله. وحيدر حب الله بكل بساطة وبجرة قلم أعدى أعداء النبي وعترته الطاهرة، وهو يتهجم على كثير من المعتقدات الحقة، ويشكك في جملة من الضروريات الفقهية، وينشر الأمور الباطلة، ولا يختلف عن العلمانيين الملحدين في شيء. وهو مدعي للفقه وأنّه من علماء الفقه .

وهو يستهزئ به من خلال مجموعة من العبارات المشحونة بالسخرية مثل قوله:

هو وأمثاله من أصحاب النظر الثاقب، الكاتب المفوّه المنبّئ، والأكثر قوله وهو واحد من المعممين خريج الحوزة العلمية: ولكنّ الحمار نفسه وأعتذر من القارئ سلفا لا يصدق بأنّ إفساح المجال للباطل بالانتشار يؤدي على المدى البعيد لاستبعاده. كاتبنا الألمعي، مهندس إعادة صنع العقول، بحسب زعم النابغة حيدر حب الله، فريد الدهر حيدر حب الله، هذا المدعي المغرور .. إلى غيرها من عبارات جارحة لا تليق به وبحيدر حب الله معا.

هذا الأسلوب من النقد هو السائد في الردود على كل من نختلف معه، ننزله إلى قعر مظلم، ولا نعرف الوسطية ولا الاعتدال في النقد والاختلاف، وهو نفسه ما وجدناه في كثير من الردود التي كتبت حول السيد فضل الله وحول آرائه التي نادى بها وأعلنها.

ومن أهم ما كتب من دراسات في الرد على السيد فضل الله نذكر التالي:

1. ملاحظات على منهج السيد محمد حسين فضل الله، ياسين الموسوي، دار الصدّيقة الكبرى - بيروت.
2. مأساة الزهراء .. شبهات وردود (ج١، ج٢)، جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة – بيروت.
3. ظلامات فاطمة الزهراء في السنة والآراء، عبد الكريم العقيلي، المؤلف- قم.
4. إحراق بيت فاطمة في الكتب المعتبرة عند أهل السنة، حسين غيب غلامي، المؤلف - قم.
5. الفضيحة، محمد مرتضى، دار السيرة - بيروت.
6. لماذا كتاب مأساة الزهراء (ع)، جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة - بيروت.
7. خلفيات كتاب مأساة الزهراء (ج١،٢)، جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة – بيروت.
8. جاء الحق، محمد أبو السعود القطيفي، دار السيرة – بيروت.
9. حتى لا تكون فتنة، نجيب مروة، دار أمجاد - بيروت.
10. فتنة فضل الله، محمد باقر الصلح.
11. البرهان القاطع، المرجع الديني الشيخ بهجت، دار الإيمان - بيروت.
12. اعتقاداتنا، المرجع الديني الميرزا التبريزي.

١٣. الولاية التكوينية، جلال الدين علي الصغير، دار الأعراف - بيروت.

١٤. الثابت والمتغير في الإسلام، السيد صادق السيد يوسف الحكيم، حوزة أهل البيت - دمشق.

١٥. الغيبة والتغييب، عباس بن نخي، دار الإمام - الكويت.

١٦. ماذا جرى في بيت فاطمة، أبو الحسن الحسيني، أنوار الهدى - قم.

١٧. من عنده علم الكتاب، جلال الدين علي الصغير، دار الأعراف - بيروت.

١٨. الزهراء لِمَ لمْ تذكر مأساتها، فاضل الفراتي، المؤلف.

١٩. ردود على الشبهات البيروتية، المرجع الديني الشهيد السيد محمد الصدر، دار الملاك الأصيل - بيروت.

٢٠. عبقات ولائية، محاضرتان للمرجعين التبريزي والخراساني، دار الصدّيقة الشهيدة - قم.

٢١. رسالة مختصرة في النصوص على الأئمة، بأمر المرجع الديني الميرزا التبريزي، دار الصدّيقة الشهيدة - قم.

٢٢. الأجوبة العقائدية، المرجع الديني السيّد محمد الشاهرودي.

٢٣. حوار مع فضل الله حول الزهراء، هاشم الهاشمي، دار الإمام- الكويت.

٢٤. كشف الرمس عن حديث رد الشمس، محمد باقر المحمودي، مؤسسة المعارف - قم.

٢٥. الإمامة، جلال الدين علي الصغير، دار الأعراف - بيروت.

٢٦. دين بلا إسلام، مسلم غيور، دار الهدى- بيروت.

٢٧. لهذا كانت المواجهة، الحلقة الأولى، دار الهدى- بيروت.

٢٨. نفي السهو عن النبي (ص)، المرجع الديني الميرزا التبريزي، دار الصدّيقة الشهيدة - قم.

٢٩. الهجوم على بيت فاطمة، عبد الزهراء مهدي.

٣٠. الشهادة الثالثة، مائة فتوى للمراجع العظام، حوزة أهل البيت - السيدة زينب(ع)، مؤسسة البرهان - بيروت.

٣١. إحراق بيت الزهراء في مصادر أهل السنة، محمد حسين السجاد، دار الصادقين - قم.

٣٢. الصديقة الزهراء بين المحنة والمقاومة، عبد الزهراء عثمان محمد، المؤلف.

٣٣. سند الزيارة الجامعة، ياسين الموسوي، دار الصديقة الشهيدة - قم.

٣٤. سند زيارة عاشوراء، ياسين الموسوي، دار الصديقة الشهيدة - قم.

٣٥. سند دعاء الندبة، ياسين الموسوي، دار الصديقة الشهيدة - قم.
٣٦. مقتل فاطمة الزهراء، ياسين الموسوي، دار الصديقة الشهيدة - قم.
٣٧. ردود عقائدية، المرجع الديني السيد مهدي المرعشي، دار الصديقة الشهيدة - قم.
٣٨. ردود عقائدية، المرجع الديني السيد تقي القمي، دار الصديقة الشهيدة - قم.
٣٩. ردود عقائدية، المرجع الديني السيد محمد الوحيدي، دار الصديقة الشهيدة - قم.
٤٠. مقتطفات ولائية، المرجع الديني الشيخ الوحيد الخراساني، دار الإمام - الكويت.
٤١. الولاية ركن التوحيد، محمد سند البحراني.
٤٢. النوري الهمداني يدين الانحراف، المرجع الديني النوري الهمداني، دار الملاك الأصيل -بيروت.
٤٣. فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى (ص)، الشيخ أحمد الرحماني، المرضية – طهران.
٤٤. الحوزة العلمية تدين الانحراف، محمد علي الهاشمي المشهدي.
٤٥. الأنبياء فوق الشبهات، محمد محمود مرتضى العاملي، دار السيرة - بيروت.

هذه أهم الكتب التي كتبت في الرد على السيد فضل الله، أو قل في تسقيطه وفضحه وإعلان ضلاله كما يحب أعداؤه أن يطلقوا عليه، وخصوصا رجال الدين والمعممين. وأتذكر هنا أني كنت يوما في مكتبة تجارية، وإذا بي ألاحظ أنها ممتلئة بكل أصناف الكتب الدينية والثقافية، حتى كتب ابن تيمية وابن حجر وابن كثير والسيوطي لا تخلو منها، وكتب طه حسين والعقاد، وكتب العلمانيين واللادينيين، وكتب فرويد وماركس المترجمة، وكتب الفلسفة بشتى أصنافها، إلا كاتبا لا أجد له ولا كتابا واحدا على الإطلاق، وهو السيد فضل الله، لا يوجد ولا كتاب واحد، سواء عنه، أو له، أما الكتب التي تدور حول تسقيطه فنعم، فدهشت مما رأيت، فبادرته بالسؤال حول هذه الظاهرة الغريبة الملفتة، بحكم ما تربطنا من علاقة وثيقة، فكان جوابه: نعم .. فأنا لا أسمح بدخول كتبه لمكتبتي، لأنّها من كتب الضلال، ولا يجوز بيعها ولا شراؤها، أو اقتناؤها، وهو رجل ضال ومضل، أما كتب البقية فهي لا شيء أمام ما يروجه السيد من ضلال وشكوك في المذهب، لذا فهو أخطر من البقية، ولا مقارنة بينه وبينهم، لذا لا يمكن أن أبيع مثل هذا الفكر الضال والمنحرف، لرجل يدّعي العلم والفقاهة وهو خلو منهما !!.

هكذا يتعامل المخالفون مع السيد، وهكذا ينظرون لفكره وتوجهاته وآرائه، فهي كلها ضلال، وزيغ، وقد ترقى بعضهم كثيرا كثيرا، وأعلن بأنّ الرجل كافر .. نعم السيد وصل لحد الكفر، وليس الاختلاف أو الشك.

وفي المقابل لم يسكت أنصار السيّد ومريدوه وأتباعه ومن يرون فيه العلم والفقاهة والتجديد والفكر الناصع النقي، فبادروا للدفاع عنه، وبيان فضله ومكانته، وتسليط الضوء على أفكاره وتوجهاته في العقيدة والفقه والتاريخ والفكر وكل مناحي توجهاته وفكره، والدراسات التي كتبت حول السيد وحول فكره أكبر من أن تحصى، أو تسجل، وهي دراسات في كتب كثيرة، ومجلدات واسعة، نكتفي برصد مجموعة منها، لبيان أنّه في الوقت الذي يجد فيه البعض السيد ضالا ومضلا وزائغا ومنحرفا وكافرا ومتسننا ووهابيا ومحاربا للعقيدة والمذهب، يذهب البعض إلى أنّ السيد مجدد ومفكر وفقيه ومخلص وداعية وعالما ومجاهدا وقلّ نظيره، وقد ردّوا كل التهم التي وجهت للسيد، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وأحاطوا بها، دراسة وبحثا وتعليقا وردا وإيضاحا ودفاعا، وبيّنوا مراد السيد، ومن يوافقه من العلماء فيها، ليثبتوا في الأخير بأنّ السيّد ليس كما يحاولون أن يصوروه، فهو مجدد وليس مدع، وهو فقيه وليس بجاهل، وهو يذوب حبا في أهل البيت (ع) وليس منتقصا لحقهم ومكانتهم، وهو خبير في الرواية والمسائل والمباحث وليس دخيلا عليها كما يدّعون، وهو مقدّس وليس متشككا ومحلا للاتهام والتضليل، وأمّا المسائل التي طرحها السيد فكلها لها جذور في العقيدة الشيعية، ولكن الفرق بينه وبين غيره من العلماء أنّه يملك الجرأة في طرحها، ولا يخشى في الله لومة لائم، وأنه يرى بأنّ العالِم الحق هو الذي يظهر علمه وقت الفتن، ولا يخاف أو يخشى من العامة والغوغائيين ومدعي العلم.

وهنا مكمن الخطورة، وسوء التقدير، وغياب الميزان الحق في التعامل مع الرجال، فنحن لا نتعامل بالوسطية في كل شيء، وإنّما نتبع التطرف، والاندفاع، فإذا كرهنا فإننا نندفع بلا هوادة، ونحطم كل ما أمامنا، ولا نتورع عن أي محرم أو ممنوع، وإذا أحببنا اندفعنا في حبنا إلى حد الهوس والتقديس والتعامل بمنطق العصمة والنزاهة والملائكية.

أما ما كتب حول السيد فأهم ما يمكن رصده هو الدراسات التالية، من باب المثال وليس الحصر:

١. مراجعات في عصمة الأنبياء، عبد السلام زين العابدين.
٢. مطارحات في قضايا قرآنية، محمد الحسيني، دار الملاك، بيروت.
٣. العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، علي حسن سرور، دار الملاك، بيروت.

٤. مأساة كتاب المأساة، السيد نجيب نور الدين، دار المحجة البيضاء-دار الرسول الأكرم،بيروت.
٥. أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله، علي حسن غلوم، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت.
٦. هوامش نقدية، محمد الحسيني، مؤسسة العرف للمطبوعات، بيروت.
٧. الفقيه المجدد المقدس السيد محمد حسين فضل الله .. من الذات إلى المؤسسة، حسن بركة الشامي، دار الإسلام، بيروت.
٨. إشراقة العقل .. أفكار ورؤى وتطلعات، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت.
٩. السيد محمد حسين فضل الله مفسرا، محمد الحسيني، دار الملاك، بيروت.
١٠. السيد الحبيب، د. محمد رضا فضل الله، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت.
١١. بوح ولكن، سركيس نعّوم، الدار العربية للعلوم، بيروت.
١٢. العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله .. مشروع نهضة الأمة، محمد حسين ترحيني، دار المحجة البيضاء، بيروت.
١٣. آية الله السيد محمد حسين فضل الله .. شمس لن تغيب، الشيخ مصطفى صبحي الخضر الحمصي، الشيخ مهدي خليل جعفر، دار المحجة البيضاء، بيروت.
١٤. محمد حسين فضل الله .. العقلانية والحوار من أجل التغيير، مجموعة مؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت.
١٥. في حياة السيد، نجيب نور الدين، دار الملاك، بيروت.
١٦. المرجعية المؤسسة، جعفر محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت.
١٧. العقائد القرآنية، محمد أديب قبيسي، دار الملاك، بيروت.
١٨. تفسير من وحي القرآن .. منهجه ومعالمه، عبد السلام زين العابدين، دار الملاك، بيروت.
١٩. مقاصد الشريعة، حسن جابر، دار الملاك، بيروت.
٢٠. العبادات، محسن عطوي، دار الملاك، بيروت.
٢١. المنهج الفقهي، محمد طاهر الحسيني، دار الملاك، بيروت.
٢٢. السيرة النبوية، موسى فضل الله، دار الملاك، بيروت.
٢٣. الإمام علي والإسلام، محمد طي، دار الملاك، بيروت.

٢٤. أهل البيت، محمد طي، دار الملاك، بيروت.
٢٥. مدرسة الإمام الحسين (ع)، جعفر محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت.
٢٦. الصحابة في رؤية السيد، حسين الماجد، دار الملاك، بيروت.
٢٧. الشيعة والتشيع، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٢٨. التقية من وجهة نظر السيد فضل الله، دار الملاك، بيروت.
٢٩. الإمامة والخلافة، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٣٠. التاريخ الإسلامي، عبد الغني عماد، دار الملاك، بيروت.
٣١. الدعاء، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٣٢. الفكر السياسي، عدنان السيد حسين، دار الملاك، بيروت.
٣٣. القضية الفلسطينية، محسن محمد صالح، دار الملاك، بيروت.
٣٤. القضية اللبنانية، محمد طي، دار الملاك، بيروت.
٣٥. الثورة الإيرانية، مصطفى الحاج علي، دار الملاك، بيروت.
٣٦. الأزمة العراقية، محمد طي، دار الملاك، بيروت.
٣٧. المقاومة والجهاد، هاني عبد الله، دار الملاك، بيروت.
٣٨. الفكر الاجتماعي، عبد الغني عماد، دار الملاك، بيروت.
٣٩. المرأة في نظر العلامة السيد محمد حسين فضل الله، د. أمان كبارة شعراني، دار الملاك، بيروت.
٤٠. الأخلاق، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٤١. إنسانية الإنسان، نجيب نور الدين، دار الملاك، بيروت.
٤٢. الفكر التربوي، محمد منير سعد الدين، دار الملاك، بيروت.
٤٣. الحضارة الإسلامية، محمد مالكي، دار الملاك، بيروت.
٤٤. الفكر الإسلامي، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٤٥. الدعوة والدعاة، عبد الجليل زيد المرهون، دار الملاك، بيروت.
٤٦. الحركة الإسلامية، محمد مالكي، دار الملاك، بيروت.
٤٧. حقوق الإنسان، محمد مالكي، دار الملاك، بيروت.
٤٨. الأصولية والإرهاب والتطرف، عبد السلام طويل، دار الملاك، بيروت.
٤٩. الوحدة الإسلامية، محمد سليم العوا، دار الملاك، بيروت.

٥٠. أهل الكتاب والحوار الإسلامي المسيحي، محمد منير سعد الدين، دار الملاك، بيروت.
٥١. الطائفية والمذهبية، أبو قاسم شعيب، دار الملاك، بيروت.
٥٢. العلم والثقافة، عبد السلام طويل، دار الملاك، بيروت.
٥٣. الأدب والفن، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٥٤. شاعر النور، محمد حمود، دار الملاك، بيروت.
٥٥. في وداع السيد، المركز الإسلامي الثقافي.
٥٦. رحيل الحبيب، المركز الإسلامي الثقافي.

السيد محمد حسين فضل الله من الشخصيات الإشكالية والجدلية في الوسط الشيعي، والتي يقف أمامه الآخرون مواقف متناقضة، ومتباينة إلى حد الإفراط، والإغراق في البعد، ففي الوقت الذي يصفه البعض بالجهل وادعاء العلم، وبأنّه ضال ومضل، وخارج عن المذهب، تجد البعض ومن العلماء المعتبرين، والأسماء الثقيلة في التشيع المعاصر تصفه بآية الله، وبأنّه مجدد ومناضل ومفكر من الطراز الأول، مثله مثل المفكر علي شريعتي، موقفان متباينان ومتناقضان أمام فكره وشخصيته، هكذا السيد فضل الله، وهكذا وقف أمامه العلماء، بين من يهوي به إلى الحضيض وإلى خانة الكفار وأهل الضلال، ومن يرفعه إلى مصاف القديسين والمراجع العظام.

فبعد موته قال فيه السيد **علي الخامنئي** معزيا:" أتقدم بالعزاء إلى عائلة فضل الله الكريمة وإلى جميع مريدي ومحبي المرحوم في لبنان والجاليات اللبنانية في إفريقيا وأميركا اللاتينية، ومن كافة الشيعة في لبنان برحيل العالم المجاهد آية الله الحاج السيد محمد حسين فضل الله رحمة الله عليه. لقد قدّم هذا العالم الكبير والمجاهد الكثير في الساحات الدينية والسياسية وكان له الأثر الكبير على الساحة اللبنانية والتي لن تنسى خدماته وبركاته الكثيرة على مر السنين.

إنّ المقاومة الإسلامية في لبنان والتي لها حق كبير على الأمة الإسلامية كانت على الدوام تحت رعاية ودعم ومساعدة هذا العالم المجاهد. لقد كان الراحل الرفيق المخلص والمقرب من الجمهورية الإسلامية ونظامها، وكان وفيا لنهج الثورة الإسلامية، وأثبت ذلك قولا وعملا على مدار الثلاثين سنة من عمر الجمهورية الإسلامية.

ويقول فيه **الشيخ ناصر مكارم الشيرازي**:" إنّ نبأ الرحيل المؤسف للعالم الجليل سماحة آية الله العلامة السيد محمد حسين فضل الله بعث موجة من الحزن والأسى في العالم الإسلامي والعالم الشيعي بوجه خاص. إنّ

الفقيد السعيد كان مرابطا قديرا في الساحة اللبنانية أمام حملات أعداء الإسلام الحاقدة، فإنّه بحسن تدبيره وشجاعته حمى هذه القلعة الصامدة".

أما **الشيخ يوسف الصانعي** فقد كتب مؤبنا :" (إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء) .. ببالغ الحزن تلقينا نبأ رحيل العالم الربّاني والفقيه المتقي آية الله العظمى السيّد محمد حسين فضل الله (رحمة الله عليه)، وبهذه المناسبة نعزّي بقية الله الأعظم (أرواحنا له الفداء) والحوزات العلمية وجميع الشيعة في العالم وبخاصة الشعب اللبناني وعائلته المحترمة.

لا شك أنّ رحيل عالم من هذا القبيل، الذي سعى من خلال صراعه مع التحجّر والرجعية لعرض صورة رحمانية عن الإسلام والدفاع الواعي والشامل عن المظلومين والمقاومة أمام الظلم، دون النظر إلى دين المظلومين وقومياتهم، يعدّ ثلمة لا يسدها شيء للحياة السلمية للبشرية.

إنّه حقا فقيه شجاع وبصير بزمانه ومكانه في عالم اليوم المتلاطم، فقد كان يشري نفسه ابتغاء الآراء الفقهية لينير بها درب المجددين والمفكرين الملتزمين".

الشيخ عبد الهادي الفضلي يقول في موته وفي حقه :" ببالغ الحزن والأسى تلقيت نبأ رحيل أخينا العزيز العلامة المجاهد المرجع السيّد محمد حسين فضل الله طيّب الله ثراه. إنّ رحيل المرجع السيّد محمد حسين فضل الله خسارة كبرى، كان عالما طليعيا وفقيها يعيش هاجس البحث عمّا يلبي حاجات عصره في وعي وانفتاح .. كان مثال العالم العامل الذي عاش العطاء حتى الرمق الأخير من عمره الشريف".

وعلى إثر رحيل السيد فضل الله أصدر مكتب **السيد كاظم الحائري** البيان التالي :" ببالغ من الحزن تلقينا خبر التحاق سماحة المجاهد العالم الكبير السيد محمد حسين فضل الله (قده) بالرفيق الأعلى فإنّا لله وإنا إليه راجعون. نعزّي الأمة الإسلامية وخصوصا الحوزات العلمية وعائلة الفقيد بهذه المناسبة.

لقد شكّل رضوان الله عليه ظاهرة بين أقرانه في الدفاع عن الإسلام ورفد الوعي المتنامي في أوساط مفكري الأمة ومثقفيها فأدّى مسؤولياته، ونهض بها بشكل يسجل له دعمه للمقاومة وحمايته لها.

أمتنا اليوم تعيش مخاضا عسيرا، تشرف فيه على إنجاب حملة الإسلام، يوطئون للمهدي (عجّل الله فرجه) سلطنه وينتظرون دولته انتظار الصابرين، المصابرين، المرابطين، على ثغور المسلمين، رافعين راية الإسلام،

ثابتي الأقدام في مواجهة الأعاصير الثقافية العاتية، التي يقودها الصهاينة والصليبيون، الذين اتفقت كلمتهم على محاربة الإسلام وحملته ..

نحن اليوم بحاجة إلى الراحل (قده) وأمثاله، في أسلوبه وبيانه، لرفع مستوى اليقظة وفضح مخططات العدو الغادر والوقوف في وجه خداعه ومكائده ...".

وكتب **الشيخ محمد الآصفي** مؤبنا فضل الله :" إنّني أكتب هذه الكلمات بتأثر بالغ وأسى عميق. فقد كان فقيدكم وفقيدنا وفقيد الأمّة قمّة في الأخلاق والأخلاقيات والقيم والمعايير.

وإذ أشارك الحزن مع أبناء الأمة في كل مكان على فراق فقيدنا العظيم. فإنّني أستذكر بكل اعتزاز عقلانيته المستنيرة وإنسانيته العميقة وتاريخه المشرف ومواقفه النبيلة. ولن أنسى ما حييت نزاهته وأصالته وأريحيته.

لقد مثّل الراحل الكبير أفضل ما في الأمّة من الخلق القويم، والعلم الغزير، والأدب الجم. وكان مدرسة نادرة، إذ لم يكتف بالفكر المجرد وبالتنظيري ولو على أرفع مستوى وإنّما أغنى القول المأثور بالمساعي العملية الخيّرة والأفعال الجريئة المؤثرة".

أخيرا يقول فيه **الشيخ حسن الصفّار** : " بعد حياة حافلة بالجهاد والعمل في سبيل الله، زاخرة بالعطاء في ميادين العلم والمعرفة، مشرقة بمواقف التضحية والصمود في الدفاع عن مبادئ الإسلام وقضايا الأمة. انتقل اليوم إلى رحمة الله تعالى العلامة المرجع آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، رضوان الله تعالى عليه.

لقد سطّر الفقيد الراحل بمواقفه العلمية والجهادية، صفحة من أروع صفحات العلم والجهاد في هذا العصر، حيث لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يأبه لمختلف الضغوط التي انهالت عليه، ومحاولات الاغتيال التي استهدفت شخصه وشخصيته.

إنّ نتاجه الفكري الغزير، وآراءه العلمية التجديدية، ومواقفه السياسية الواضحة، ومؤسساته الاجتماعية الشامخة، ودعمه الدائم الثابت للمقاومة الإسلامية، هي أصدق برهان على نفاذ بصيرته، وصدق إخلاصه، وقوّة إيمانه. حقا لقد فقدنا به مرجعا رائدا، وفقيها مجددا، وعالما مصلحا، ومربيا عظيما، تخرّجت على يديه أجيال من المؤمنين العاملين، والرساليين المجاهدين".

من خلال كلمات وشهادات الأعلام في حق السيّد محمد حسين فضل الله، والتي أوردناها أعلاه، نستطيع أن نرسم ملامح السيّد بدقة، ونتعرف على

ملامحه جيدا، فهو في نظر السيد علي الخامنئي والشيخ ناصر مكارم الشيرازي والسيد كاظم الحائري والشيخ يوسف الصانعي والشيخ عبد الهادي الفضلي والشيخ محمد الآصفي والشيخ حسن الصفار وغيرهم، هو في نظر هؤلاء بإجماع يحمل الصفات التالية:

هو العالم المجاهد وآية من آيات الله، ولقد قدّم هذا العالم الكبير والمجاهد الكثير في الساحات الدينية والسياسية. وكان الرفيق المخلص والمقرب من الجمهورية الإسلامية ونظامها، وكان وفيا لنهج الثورة الإسلامية، وأثبت ذلك قولا وعملا على مدار الثلاثين سنة من عمر الجمهورية الإسلامية. وهو العالم الربّاني والفقيه المتقي .. ولا شك أنّ رحيل عالم من هذا القبيل، الذي سعى من خلال صراعه مع التحجّر والرجعية لعرض صورة رحمانية عن الإسلام والدفاع الواعي والشامل عن المظلومين والمقاومة أمام الظلم، دون النظر إلى دين المظلومين وقومياتهم، يعدّ ثلمة لا يسدها شيء للحياة السلمية للبشرية. وهو حقا فقيه شجاع وبصير بزمانه ومكانه في عالم اليوم المتلاطم، فقد كان يشري نفسه ابتغاء الآراء الفقهية لينير بها درب المجددين والمفكرين الملتزمين.

وكان عالما طليعيا وفقيها يعيش هاجس البحث عمّا يلبي حاجات عصره في وعي وانفتاح .. كان مثال العالم العامل الذي عاش العطاء حتى الرمق الأخير من عمره الشريف. ولقد شكل السيّد ظاهرة بين أقرانه في الدفاع عن الإسلام ورفد الوعي المتنامي في أوساط مفكري الأمة ومثقفيها فأدّى مسؤولياته، ونهض بها بشكل يسجل له دعمه للمقاومة وحمايته لها. وكان قمّة في الأخلاق والأخلاقيات والقيم والمعايير. ولقد مثّل الراحل الكبير أفضل ما في الأمّة من الخلق القويم، والعلم الغزير، والأدب الجم. وكان مدرسة نادرة، إذ لم يكتف بالفكر المجرد وبالتنظيري ولو على أرفع مستوى وإنّما أغنى القول المأثور بالمساعي العملية الخيّرة والأفعال الجريئة المؤثرة.

وحياته تُعد حياة حافلة بالجهاد والعمل في سبيل الله، زاخرة بالعطاء في ميادين العلم والمعرفة، مشرقة بمواقف التضحية والصمود في الدفاع عن مبادئ الإسلام وقضايا الأمة. لقد سطر الفقيد الراحل بمواقفه العلمية والجهادية، صفحة من أروع صفحات العلم والجهاد في هذا العصر، حيث لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يأبه لمختلف الضغوط التي انهالت عليه، ومحاولات الاغتيال التي استهدفت شخصه وشخصيته. إنّ نتاجه الفكري الغزير، وآراءه العلمية التجديدية، ومواقفه السياسية الواضحة، ومؤسساته الاجتماعية الشامخة، ودعمه الدائم الثابت للمقاومة الإسلامية، هي أصدق برهان على نفاذ بصيرته، وصدق إخلاصه، وقوّة إيمانه. حقا لقد فقدنا به مرجعا رائدا، وفقيها مجددا، وعالما مصلحا، ومربيا عظيما، تخرّجت على يديه أجيال من المؤمنين العاملين، والرساليين المجاهدين.

إنّ هذه الصورة المشرقة للسيد فضل الله والتي سطّرتها شخصيات علمائية كبيرة، لها وزنها وثقلها في الساحة العلمية والجهادية المعاصرة، وهي ليس نكرات، هذه الصورة تغاير تماما، وعلى النقيض بالكامل من الصورة التي ينقلها مناوئو السيد والكتابات التي يكتبها من يقف له بالمرصاد، والذين يحاولون تسقيطه ومحاربته، والعمل على إنكار مرجعيته، فهو في نظرهم يصل إلى حد الكفر والضلال، في الوقت الذي هو لدى هؤلاء مجاهد وآية من آيات الله، ومفكر جريء ومخلص وموته يُعد ثلمة في الإسلام، ما هذا التناقض والإغراق في البعد في الموازين، وتقييم الرجال، إلى هذا الحد نصل في تقييماتنا للعلماء، أيعقل هذا ؟!! أيكون كافرا وضالا وفي الوقت نفسه مرجعا وآية من آيات الله ؟! إما أن يكون هؤلاء على خطأ وسوء تقييم وعدم معرفة بالرجل أو يكون من يسقطه ويضلله هو الذي لا يعرف الرجل ولا يقدره حق قدره وهو يكتب من باب الحقد والضغينة، ولكن كيف ذلك وهؤلاء مراجع وفقهاء وعلماء ومؤلفون في كل شؤون الدين، وهؤلاء أيضا هم كذلك، مراجع وفقهاء وعلماء ومؤلفون ؟!! القضية هي هي، والقصة تتكرر في كل مرة، ومع كل عالم جديد يختلف مع السائد، ويخرج على التفكير العام، هذا ما جرى مع محسن الأمين وعلي شريعتي والشهرستاني والشهيد الصدر ومحمد جواد مغنية وموسى الصدر، وسيحدث مع كل العلماء المجددين والخارجين على النمط السائد، والذين لا يبالون متى ما درسوا وقرءوا وفكروا وأعملوا عقولهم بما يقول الآخرون عنهم، وإن كانوا من مذهبهم وأصدقاء الأمس.

بداية الاختلاف مع السيد والتشهير به وتسقيطه:

كان السيد قبل أن يطرح نفسه مرجعا، ويخرج رسالته العملية، كان في نظر العلماء وكل شرائح المجتمع عالما مجاهدا ومفكرا ومجددا لا نظير له، وكان الكل يتسابق في اقتناء كتبه والتعرف على الجديد منها، وقراءة أفكاره، وآرائه المتجددة، العلماء والمثقفون والعوام، حتى أعداء اليوم، كانوا بالأمس من أشد الناس تقديرا وإجلالا للسيد، وحماسا للدعوة لقراءة كتبه والارتباط بشخصه، ولا يجدون في أفكاره وكتبه ومحاضراته وأقواله أي مجال لمغمز أو محلا لاختلاف في الرأي، نجد هذا مثلا لدى السيد جعفر مرتضى العاملي، وهو يعد من أشد العلماء حربا ومشاكسة وتحشيدا ضد السيد، وله دور كبير في توهينه، والوقوف ضد مرجعيته، وآرائه، وعلى الأخص في العقيدة، " لقد كان السيد العلامة جعفر مرتضى العاملي من العاشقين الذين يجلون السيّد إلى درجة جعلته يدعو قرّاءه إلى قراءة كتبه قبل أن يراها ويطلع عليها ! وهذا ما نجده في كتابه (الصحيح من سيرة النبي الأعظم)، في الفصل الأول، من الجزء الأول، وقد كان بعنوان (الجهاد في الإسلام)، حيث يتساءل في نهاية الفصل: هل الإسلام قام بالسيف؟

وبعد أن يجيب على السؤال بصورة موجزة، يقول السيّد العاملي:

" وقد صدر مؤخرا كتاب للعلامة الجليل السيّد محمد حسين فضل الله باسم: (الإسلام ومنطق القوة)، ولم تتوفر لي الفرصة للاطلاع عليه بعد .. ولكنّني على ثقة بأنّ فيه ما ينقع الغلة، ويشفي الغليل في هذا المجال .. فمن أراده فليراجعه" !!.

هذا ما كتبه السيد العاملي عام (١٤٠٠هـ)، أي قبل أكثر من عشرين عاما !!

لست أدري كيف يدعو كاتب قرّاءه إلى كتاب لم يقرأه، ولم يره بعد ؟! وهل تكفي الثقة الكبيرة بالكاتب إلى دعوة كهذه ؟! ومن أين جاءت هذه الثقة المطلقة بالكاتب والكتاب، وسماحته يخبرنا في أول سطر من كتابه (خلفيات)، قائلا : " لم أكن أقرأ له .." ؟!!. هذه هي مخاطر عين الرضا والعشق، التي لا تقل عن مخاطر عين الكراهية والسخط" (مراجعات في عصمة الأنبياء من منظور قرآني، عبد السلام زين العبدين، ط٢٠٠١/٤م، ص٤).

حتى في بداية الخلاف مع السيّد، وبدء الإثارة حول ما طرحه في مسألة ضرب الزهراء (ع) كان العاملي يجل السيد فضل الله ويحترمه ويخاطبه بحجة الإسلام، وبأنه من خدمة الدين، وبالسماحة وغيرها من عبارات التبجيل والتقدير والاعتراف بالمكانة والمنزلة العلمية والجهادية. يقول العاملي في رسالة كتبها للسيد فضل الله في بداية الخلاف الذي سيتحول إلى حرب طاحنة فيما بعد : "بسمه تعالى، وله الحمد، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين. سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد محمد حسين فضل الله دام تأيده .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد .. فإنّني أسأل الله سبحانه أن يحفظكم ويرعاكم ويسدد في سبيل الله خطاكم، وينصركم ويطيل في عمركم لخدمة دينه، وإعزاز عباده، إنّه ولي قدير وبالإجابة جدير. هذا ... والغرض من مزاحمتكم هو الاستفسار عن أمر يتداوله البعض هنا عن موقفكم من موضوع إحراق بيت الزهراء، وإسقاط جنينها، وكسر ضلعها، وغير ذلك مما جرى عليها، فالرجاء أن تتكرموا علينا بإيضاح هذا الأمر لتظهر الحقيقة ويسفر الصبح لذي عينين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ٢/ج١٤١٤/٢هـ . ق " (الحوزة العلمية تدين الانحراف، ص٨٧).

البداية:

بدأت قضية الخلاف حول فضل الله في عام ١٩٩٣م . حدث ذلك في شتاء ١٤١٤هـ، ففي هذا العام تمّ تداول شريط مسجل يتحدث فيه السيد فضل الله حول الزهراء (ع)، وكسر ضلعها وما جرى عليها من هجوم الدار وإثبات المسمار ولطمها على خدها وإسقاطها للجنين واقتياد بعلها علي (ع) ملببا .. وغيرها. أنصار السيد فضل الله لهم رأي حول هذا الشريط، والذي يعد الشرارة، والبداية لحرب بدأت ولم تنته، ورحلة طويلة من الشتائم والتسقيط والاتهام والتكفير، وآلاف الصفحات وعشرات الكتب، كل يدلي بدلوه، ويقول رأيه، أنصار السيد يرون بأنّ وراء الشريط أناسا مغرضين، ورجالا مشبوهين، وبعضهم أعداء للجمهورية الإسلامية، وقادته أياد تعمل في المخابرات، وقد عملوا على تشويه كلام السيد وتحريفه وتزويره، هذا ما نجده لدى حسن بركة الشامي، وهو ما كتبه تماما ونصا في كتابه حول السيد فضل الله ومرجعيته، مسلطا الضوء على أزمته وما جرى له من محاولات التسقيط بسبب ذلك الرأي المسجل في ذلك الشريط .. يقول :

" في مطلع التسعينات أثار بعض المغرضين، أزمة حادة استهدفوا بها سماحة السيّد فضل الله، وكانت الأزمة تقوم على أساس أنّ سماحة السيّد فضل الله "عليه الرحمة" تحدّى المشاعر الشيعية فيما يتعلق بسيدة النساء فاطمة الزهراء (ع).

وقد أثار الأزمة بعض المشبوهين الذين كشفت التجارب فيما بعد أنّهم أعداء الحركة الإسلامية وأنّهم يعملون ضد الجمهورية الإسلامية في إيران، وضد قائدها السيد الخامنئي "حفظه الله"، وقد لاحق بعضهم القضاء الإسلامي في إيران فاضطروا إلى الهروب. كما أنّ بعضهم الآخر ترك إيران وأخذ يتحدث علنا في الصحافة بما يسيء إلى الجمهورية الإسلامية وإلى قياداتها البارزة. لقد استغل هؤلاء مشاعر الناس البسطاء وشوّهوا آراء السيّد فضل الله، وحرّفوا أقواله في عملية تزوير مبرمجة وهي مخالفة للشرع والأخلاق والأمانة العلمية.

ما هو السبب أو الأسباب التي جعلت هذه الأزمة تستعر ضد آية الله العظمى السيّد فضل الله، لاسيما وأنّها كانت تسير بشكل مخطط ومنظم، ولم تصدر بشكل عشوائي. في تقديرنا أنّ التأمل في تاريخ انطلاق هذه الأزمة يلقي الضوء على بعض دوافعها.

فلقد بدأت لأول مرة عام ١٩٩١م، وكان محركها شخص كان يعمل ضابطا في الشرطة الكويتية، حيث وزّع شريطا صوتيا لسماحة السيّد فضل الله في جلسة صغيرة، وقد أجاب سماحته على سؤال وجه إليه حول صحة رواية كسر ضلع الزهراء (ع) وإسقاط جنينها، إثر هجوم عمر بن الخطاب

على الدار لأخذ البيعة لأبي بكر. وقد أجاب السيّد بأنّ الرواية عنده موضع دراسة وهو لم يقطع برأي حولها.

لقد استغل هذا الشخص التسجيل الصوتي، ووزعه على نطاق واسع في مدينة قم المقدسة على وجه التحديد، وكان معه من راح يردد أنّ السيّد فضل الله يقول إنّ عمر بن الخطاب لم يكسر ضلع الزهراء ولم يسقط جنينها، فهو عدو للزهراء، وهو ليس شيعيا، وغير ذلك من الكلام الذي يتنافى مع لغة العقل والمنطق والحوار العلمي.

كانت هذه الحركة وكما أشرنا تستند إلى جماعة منظّمة تهدف إلى إثارة الأزمة ضد سماحة السيد على نطاق واسع، فبعد هذه البداية بأسابيع أصدر أحدهم كتابا يكيل فيه التهم للسيد فضل الله، والكتاب هذا يذكرنا بما كتبه ذلك الرجل في هجومه على السيّد محسن الأمين، والذي ضمّنه أقوالا لا تستحق النقاش، لكنّ السيد الأمين قدس سره، ردّ عليه ردا علميا أظهر فيه بعد صاحبه عن المنطق العلمي، والبحث الموضوعي كل البعد، فقد كان عبارة عن تهم انفعالية لا تصمد أمام لغة الدليل والحوار العلمي.

كان هذا الكتاب ضد السيد فضل الله، قد هُيئ قبل فترة من إعلان الأزمة، وعندما تمّ إعلانها، صدر الكتاب في مدينة قم المقدسة، وقد تضمّن آراء غريبة، اعتبرها مؤلفها على أنّها مؤاخذات علمية ضد السيّد فضل الله. فمنها على سبيل المثال أنّه يأخذ على السيّد فضل الله قوله :" وكان الإمام الصادق يحدّث بعض حديثه ويفتي ببعض فتاواه ويقول إنّه من مصحف جدّتي الزهراء".

فيعترض الكاتب اعتراضا حادا ويعتبر هذا الكلام تحريفا، لأن اسم المصحف هو مصحف فاطمة! ومنها أيضا اعتراض الكاتب على السيد فضل الله وصفه للزهراء (ع) بأنّها إنسانة وأنثى !. وعلى هذه الشاكلة كتب هذا الرجل كتابه، وبإمكان القارئ أن يتصور معنى الحملة والإشكالات المزعومة على سماحة السيّد فضل الله.

وقد فرّ هذا المسكين من الجمهورية الإسلامية بعد إصدار كتابه بأسابيع، لأنّه كان ملاحقا من قبل القضاء الإسلامي، والجدير بالذكر أنّ التهمة التي لاحقه القضاء الإسلامي عليها، كانت لها جذور وبدايات منذ كان في النجف الأشرف. ولا أريد الحديث هنا عن هذا الموضوع. كما فرّ أيضا الضابط الكويتي الذي كان يموّل الحملة ماليا وأقام خارج الجمهورية الإسلامية ليمارس نشاطه المعادي من هناك، بعد أن أغدق الأموال بسخاء على كل من يتعاون معه ضد السيّد فضل الله.

أما دوافع هذه الأزمة المفتعلة فيمكن حصرها بما يلي:

أولا: العداء للحركة الإسلامية ولخط الإمام الشهيد الصدر.

ثانيا: الخوف من المرجعية الحركية الواعية.

ثالثا: الموقف العدائي من الثورة الإسلامية في إيران.

هذه هي أهم وأبرز دوافع الأزمة التي أكلت من الجسم الشيعي، وشغلت أوساطه عن التحديات الكبيرة التي يواجهها، وعن مسؤوليات علماء ومراجع الدين ودورهم الحقيقي في معركة الإسلام الحقيقية ضد أعدائه. وسنتحدث باختصار عن كل عامل من هذه العوامل" (الفقيه المجدد المقدس السيد محمد حسين فضل الله .. من الذات إلى المؤسسة، حسن بركة الشامي، ط١/٢٠١٠م، دار الإسلام، بيروت، ص١١٥).

أرأيت كيف يصور بعض أنصار السيد فضل الله الأزمة، وبدء الخلاف حول السيد؟! يفسرون الأمر بعيدا عن الخلاف الفكري والعقائدي، والتباين في طريقة التفكير، وعدم الالتقاء في المدرسة الفكرية، فهم يرون أنّ وراء هذا الهجوم والحرب للسيد أيد خفية، وتوجهات من قبل المخابرات، هذا المعنى نفسه هو ما يقوله السيد فضل الله عينه، وأتصور أنّ أنصاره ومريديه أخذوه منه، فهم يتبنون أفكاره وتحليلاته وتوجهاته، فالسيد يكتب معلقا بعد أن زادت الكتابات والمراسلات التي تشكل عليه كلامه في قضية ضرب الزهراء (ع) واسقاط جنينها، كتب يقول مؤكدا هذا المعنى بعد أن أورد وجهة نظره في الموضوع، مخاطبا السيد جعفر مرتضى العاملي في بعض مراسلاته معه :

" إنّني أعتقد أنّ إثارة مثل هذه المسألة التي مضى عليها وقت طويل في مجلس محدود حتى أنّها ليست معروفة عندنا في لبنان بشكل عام، لم ينطلق من غيرة على الزهراء (ع)، لأنّ مثل هذه القضايا لا تعالج بهذه الطريقة، إنّني أخشى أن يكون وراء هذه الحملة أجهزة مخابراتية تعمل على إرباك الواقع الإسلامي لا سيّما في الظروف الحاضرة التي يخوض فيها المسلمون المعركة الصعبة ضد الاستكبار الأمريكي، ونخوض فيها في لبنان المعركة ضد إسرائيل، لأنّه ليس من الطبيعي إثارة هذه القضايا بالشكل الغوغائي الذي لا يقف عند حدود الله. وإنّي أدعو الجميع إلى أن يتقوا الله في الإسلام والمسلمين، وأن يعالجوا القضايا التي قد تثار في مثل هذه الأمور بالطريقة المسؤولة. وليس لي من كلمة في التعليق على كل أنواع الإثارة التي استهدفتني ظلما وعدوانا إلا أن أقول ما قاله جدنا رسول الله (ص) : اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون". (الحوزة العلمية تدين الانحراف، ص١٥٢).

هذا الشريط تم تداوله وانتشر في قم بين طلبة العلوم الدينية وأوساط العلماء فيها، في هذا الشريط يقول السيد : " أنا لا أتفاعل مع كثير مما يُقال عن كسر ضلعها.." فأحدث ذلك موجة عارمة من الاستياء والاستنكار في أوساط أهل العلم وعامة الناس، مما حدا بجماعة من العلماء ورجال الدين والحوزة إلى المسارعة في الكتابة إلى السيد مستفسرين عما بدر منه من أقوال غريبة غير مألوفة تتعلق بما جرى على الزهراء (ع)، شارحين له حساسية الوضع وخطورة تلك التصريحات الصادرة منه، وهم : الشيخ هادي آل راضي، والشيخ حسن الجواهري، والشيخ باقر الأيرواني، حيث اجتمعوا عند السيد جعفر مرتضى العاملي في منزله بقم، وشرحوا له خطورة الأمر، ولم يستبعدوا احتمال تصدي آية الله العظمى السيّد الكلبايكاني لتلك الأقوال ولصاحبها بشكل عنيف، وكتبوا إلى السيّد فضل الله بهذا المضمون، من ثم كتب جعفر مرتضى العاملي رسالة للسيد فضل الله يستفسر منه عن المتداول، وفحوى ما قاله في ذلك الشريط المسجل. وذلك بتاريخ ٢ جمادى الثانية ١٤١٤هـ، الموافق يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٩٣م، إذ كتب العاملي لفضل الله :

" بسمه تعالى، وله الحمد، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.
سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد محمد حسين فضل الله دام تأيده .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد .. فإنّني أسأل الله سبحانه أن يحفظكم ويرعاكم ويسدد في سبيل الله خطاكم، وينصركم ويطيل في عمركم لخدمة دينه، وإعزاز عباده، إنّه ولي قدير وبالإجابة جدير. هذا ... والغرض من مزاحمتكم هو الاستفسار عن أمر يتداوله البعض هنا عن موقفكم من موضوع إحراق بيت الزهراء، وإسقاط جنينها، وكسر ضلعها، وغير ذلك مما جرى عليها، فالرجاء أن تتكرموا علينا بإيضاح هذا الأمر لتظهر الحقيقة ويسفر الصبح لذي عينين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

بعد أن تلقّى السيد فضل الله ذلك الكتاب من السيّد العاملي أجابه برسالة في اليوم الثاني مباشرة، يوم الثلاثاء ١٦ نوفمبر ١٩٩٣م، الموافق ٣ جمادى الثانية ١٤١٤هـ بما ملخصه بأنّه تحدث عن كسر الضلع وإسقاط الجنين لا على نحو الجزم بل على نحو التساؤل وإثارة الاحتمالات. كتب السيد مجيبا :

" أخي العلامة حجة الإسلام والمسلمين السيد جعفر مرتضى .. حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع محبتي وتقديري واحترامي ودعائي.

وبعد: فقد تسلّمت رسالتكم المتضمنة ما يتداوله البعض عمّا يعتبرونه موقفي من موضوع ما جرى لسيّدتنا سيدّة النساء (ع) من ظلمها والعدوان عليها، مع طلب تعيين الموقف.

أولا: لقد كانت المسألة كلها أنّ لدي تساؤلات تأريخية تحليلية في دراستي الموضوع كنت أحاول إثارتها في بحثي حول هذا الموضوع، لا سيما أني كنت قد سمعت من الإمام شرف الدين جوابا عن سؤال له حول الموضوع أنّ الثابت عندنا أنّهم جاؤوا بالحطب ليحرقوا البيت، فقالوا: إنّ فيها فاطمة، فقال: وإن .. ولذلك فقد أجبت عن سؤال حول الموضوع أنّ السند محل مناقشة في بعض ما ورد ولكنّه أمر ممكن.

وعن سؤال حول إسقاط الجنين أنّه من الممكن أن يكون طبيعيا، لأني كنت آنذاك أحاول البحث في الروايات حول هذا الموضوع، وقد عثرت أخيرا على نص في البحار عن دلائل الإمامة للطبري مرويا عن الإمام الصادق (ع) إنّ إسقاط الجنين كان بفعل وخزها (ع) بنعل السيف بأمر الرجل، كما أنّ الشيخ الطوسي ينقل اتفاق الشيعة عليه، والنظام يؤكده.

ثانيا: إنّ هناك كثيرا من الارتباك في الروايات حول وقوع الإحراق أو التهديد به، كما أنّ الملحوظ أنّ شخصية الزهراء (ع) كانت الشخصية المحترمة عند المسلمين جميعا، بحيث أنّ التعرض لها بهذا الشكل قد يثير الكثير من علامات الاستفهام، وذلك من خلال ما نلاحظه من تعامل الجميع معها في أكثر من خبر.

ثالثا: إنّ المسألة كلها تدخل في نطاق التساؤلات التحليلية لمثل هذه المسألة في أبعادها التاريخية، سواء من ناحية السند أو المتن أو الأجواء العامة.

وإنّني أعتقد أنّ إثارة هذه التساؤلات تدفع الكثيرين للبحث ولتركيز المسألة من ناحية علمية. لأنّنا إذا استطعنا أن نصل بها إلى التحقيق الدقيق الذي يضع القضية في نصابها الصحيح، فإنّنا نركز علاقتنا بالمأساة على أساس علمي خاضع للنقد والتحليل، وأنّ التهويل بالطريقة الانفعالية لن يثبت حقا ولن يهدم باطلا، وإنّ إثارة العامة بالوسائل الغوغائية لا يمكن أن يخضع لتقوى الله.

وخلاصة الأمر: إنّه حديث في مجال إثارة التساؤلات التحليلية من أجل الوصول إلى الحق، وليس موقفا حاسما، لأنّنا لا نملك عناصر الرفض قطعا، ولكنّنا نتحرك بالطريقة العلمية في تجربة الإثبات، وأتصور أنّ حرصنا على مصلحة الإسلام الحق في خط أهل البيت (ع) أقوى من كل الكلمات التي لا تخاف الله .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد حسين فضل الله بيروت ١٤١٤/٦/٣" .

بعد أن تلقى السيّد جعفر العاملي هذا الجواب من قبل السيد فضل الله، ردّ عليه برسالة مطولة أشبه بالدراسة والبحث في الموضوع، وتعد كتابا مستقلا لطوله. حشد فيها كما هائلا من المصادر والبحوث والآراء التي تؤكد حسب وجهة نظره ضرب الزهراء (ع) وإسقاط جنينها، حتى أنّه يكتب في آخرها العبارة التالية : " بقية الجواب أرسله لكم في وقت لاحق إن شاء الله، لأنّ الساعة الآن تقترب من الثانية من بعد منتصف ليلة الجمعة، وقد تعبت . فعذرا لهذا التأخير" هذا الرد جاء تقريبا في ٤٠ صفحة، وقد ذكر فيه السيد العاملي كل ما لديه من إلمامات في الموضوع، وبيّن آراء علماء الشيعة والسنّة معا في قضية ضرب الزهراء (ع) وإسقاط جنينها.

تحوّلت القضية فيما يبدو، وبعد ذلك إلى سجال ومراسلات لم تعد تتوقف بين السيّد فضل الله من جهة ، وبين السيّد جعفر مرتضى العاملي من جهة أخرى، فبعد أن تلقى السيّد فضل الله تلك الرسالة المطولة، لم يسايره في رده وفي منحاه في البحث والخوض في أدق التفاصيل، وبيان المراجع المختلفة، وآراء المؤرخين القدامى والمعاصرين في القضية، صفحة صفحة، ورأيا وراء رأي، ومصدرا وراء مصدر، والغريب في الموضوع هنا أنّه من خلال الرسالة التي سيكتبها السيّد فضل الله للعاملي يظهر أنّه تراجع عن رأيه حول ضرب الزهراء (ع) وأنّ كل الذي جاء في قضيتها فهو صحيح، بناء على ما جاء في كتاب "دلائل الإمامة" للطبري، و"تلخيص الشافي" ومصادر كثيرة عالجت القضية بأبعادها المختلفة. وبيّن للعاملي بأنّه لم يكن مطلعا على المصادر، وأنّه بعد اطلاعه عليها بلغ عنده الأمر إلى حد التسالم وضروريات المذهب. فانتشر هذا الجواب في قم وساهم إلى حد كبير في تهدئة العلماء والعلماء حوله.

مما يدلل بالفعل أنّ السيد في صدد الإثارات، والتساؤلات، وليس في مجال الخوض في التفاصيل، والقطع بالرأي، وحسم اليقين في القضية برمتها. وأنّ السيّد فضل الله يهمه بالدرجة الأولى من الموضوع بكله هو الحرية الفكرية، و ضرورة أن يبحث الباحث في كل المسلمات دون خوف، ودون أن تترصده العيون والأسلحة التي تكفره وتخرجه من العقيدة والمذهب لأنّه رأى خلاف ما عليه الجميع، وتبنى رأيا لم يأخذ به من سبقه من العلماء والمؤرخين، وأن يتمتع الجميع بهذه الروح العلمية النظيفة، والتي تنطلق بهدوء، فعلينا أن لا نتخوف من البحث والتساؤل، وإن كنا نظن أنها مسائل يقينية، أما التفاصيل فليس هي محل اهتمامه بالدرجة الأولى، ويدل على ذلك ردّه على السيّد جعفر مرتضى العاملي على تلك الرسالة المطولة، إذ كتب له الجواب التالي، وتأمل كيف يبدي السيّد ألمه وتأسفه على ما لقيه من العلماء، بمجرد أن أبدى تساؤلا مشروعا، يهدف من ورائه التحقيق

والتأمل في قضية تاريخية ليس إلا، أهكذا يكون التعامل معه ومصيره في أوساط علمية هي الأولى بأن تكون نموذجا للتسامح العلمي، والحرية الفكرية، والنقاش الفكري الرزين، بعيدا عن التراشق والاتهام والتكفير والتسقيط؟!.

يقول السيد فضل الله في رده على السيد العاملي:

" أخي حجة الإسلام والمسلمين السيّد جعفر مرتضى حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد.

لقد كان الحديث عن الصديقة الزهراء (ع) منطلقا من إثارة احتمالات تحليلية، من أجل الوصول إلى نتائج علمية في هذه الأمور وغيرها، ولم يكن حديثا جماهيريا، وكانت هناك ملاحظات وتساؤلات كنت أعمل على الوصول من خلالها إلى جواب شاف، وقد رأيت أنّ الكثيرين من علمائنا رووا هذه الروايات في كتبهم، بحيث أنّه إذا ناقش البعض في سندها، فإنّ عمل العلماء مع الشهرة التي تصل بالقضية إلى مستوى التسالم وضروريات المذهب قد يجبر هذا الضعف. وقد لاحظت وجود هذه الأحاديث في أكثر من مصدر من مصادرنا المهمة كدلائل الإمامة للطبري وتلخيص الشافي والبحار وغيرها.

وإذا كنت قد تحدّثت عن سقوط الجنين بأنّه قد يكون في حالة طبيعية طارئة فإنّني لم أكن آنذاك مطلعا على مصادره، ولذلك أثرت المسألة على سبيل الاحتمال، لا سيّما أني رأيت الشيخ المفيد يقول في الإرشاد ما نصّه :" وفي الشيعة من يذكر أن فاطمة صلوات الله عليها أسقطت بعد النبي (ص) ولدا ذكرا كان سمّاه رسول الله (ص) وهو حمل محسنا، فعلى قول هذه الطائفة أولاد أمير المؤمنين (ع) ثمانية وعشرون والله أعلم". وقد رأيت أخيرا أنّ الحديث عن محسن السقط ورد في كتب الخاصة والعامة، كما أنّ حديث الإسقاط بالاعتداء جاء في رواية دلائل الإمامة للطبري وهكذا وردت أحاديث متعدّدة حول كسر الضلع ونحوه من الفظائع.

إنّني أعتقد أنّ إثارة مثل هذه المسألة التي مضى عليها وقت طويل في مجلس محدود حتى أنّها ليست معروفة عندنا في لبنان بشكل عام، لم ينطلق من غيرة على الزهراء (ع)، لأنّ مثل هذه القضايا لا تعالج بهذه الطريقة، إنّني أخشى أن يكون وراء هذه الحملة أجهزة مخابراتية تعمل على إرباك الواقع الإسلامي لا سيّما في الظروف الحاضرة التي يخوض فيها المسلمون المعركة الصعبة ضد الاستكبار الأمريكي، ونخوض فيها في لبنان المعركة ضد إسرائيل، لأنّه ليس من الطبيعي إثارة هذه القضايا بالشكل الغوغائي الذي لا يقف عند حدود الله. وإنّي أدعو الجميع إلى أن يتقوا الله في

الإسلام والمسلمين، وأن يعالجوا القضايا التي قد تثار في مثل هذه الأمور بالطريقة المسؤولة. وليس لي من كلمة في التعليق على كل أنواع الإثارة التي استهدفتني ظلما وعدوانا إلا أن أقول ما قاله جدنا رسول الله (ص) : اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون". (الحوزة العلمية تدين الانحراف، ص١٥٢).

يبدو أنّ السيّد كتب عليه منذ تلك اللحظة أنّه سيخوض صراعا لا نهاية له، ومعركة ستستنزف كل طاقاته وأعصابه، وستشغله شغلا لا نظير له، وستأخذ كل وقته، على حساب سمعته وعرضه ومكانته، ولم يكن في الحسبان، أو طرأ على باله أنّه سيقف هذا الموقف الذي لا يحسد عليه. موقف المدافع عن نفسه وعقيدته ورأيه وتاريخه العريض الممتد ليبرئ نفسه من تهم لا حصر لها، تهم تراكمت وأخذت تتراكم عليه كل يوم، وصارت الجبهات المعادية فوق العد والحصر، والسهام تأتيه تترى من كل مكان، وصار الكل يتنافس على نهش لحمه، وقذفه، وسبه ومحاولة تسقيطه والبحث عن عثراته وكتاباته القديمة والمدفونة والظاهرة، فما إن انتهى من رده على السيد جعفر مرتضى العاملي حتى صار عليه الآن أن يتوجه للجواب على المراجع، والذين هم أعلى مكانا وشهرة وتأثيرا من جعفر مرتضى العاملي، وإذا توجهوا له بالحرب والتوهين فهذا يعني نهايته، والحكم عليه بالموت.

هذه المرّة ارتفع سقف الاعتراض والترصد من سماحة إلى مرجعية. حيث كتب إليه السيّد جواد الكلبايكاني رسالة حسب أمر مرجع عصره السيد الكلبايكاني عاتبه فيها على طرح مثل تلك الأمور التي توجب البلبلة والتشويش دون طائل، وذلك بعد أيام قليلة فقط من رده على السيد جعفر مرتضى العاملي، وتحديدا بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٤١٤هـ، الموافق الأحد ٥ ديسمبر ١٩٩٣م.

وهذا نص رسالة الكلبايكاني للسيّد فضل الله:

" بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ العلامة حجة الإسلام والمسلمين السيّد محمد حسين فضل الله دام فضله.

تحيّة طيبة ودعاء .. وبعد

منذ مدّة لم نوفق لزيارتكم راجين المولى أن يكون المانع خيرا، وأن تكونوا كما أنتم موفقين في جهودكم وجهادكم في سبيل إعلاء كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، متمتعين بنعمة الصحة الكاملة والعافية التامة.

قبل أيّام جاءتنا ورقة منقولة عن خطابكم المسجل بمناسبة الأيام الفاطمية، وتحليلكم للقضايا، مما أثار استغرابنا لتلك التحليلات والتعليلات، وأنتم ممن لا يخفى عليه محاذير إثارة مثل هذه القضايا في الوقت الراهن من على منبر الخطابة، أمام الحشود المتحمسة لقضية جدتنا الصديقة فاطمة الكبرى (ع)، المروية عن ثقات المحدثين الذين لا يرتاب في أحاديثهم.

فالمأمول أن تتداركوا الموقف بما ترونه مناسبا، لئلا تثار ضدكم الأقاويل، ولا يجرح شعور المؤمنين، وأنّكم أعرف بالقرار المناسب الذي تتخذونه، ودمتم مؤيدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قم المقدسة في ٢٢/ج٢/١٤١٤هـ

سيد جواد الكلبايكاني".

ليس أمام السيد في ظل توجه المرجعية له في هذا الظرف الصعب، والموقف الذي يمتاز بالشدة إلا أن يجيب، وليس له من مفر أمام هذا التساؤل الأشبه بالمحاكمة والعقاب والحساب إلا أن يرد ويبين ويفصل، وإلا أصبح موقفه معقدا، وسيحاسب بشدة، ويحكم عليه بالزيغ والضلال، ويثبت كل التهم والأقوال التي تقال عنه في المنتديات والتجمعات واللقاءات في قم وخارجها في تلك اللحظة العصيبة من حياته وتاريخه. له الله، وأعانه على محنته أمام هذا السيل الجارف من الحرب الضروس، وهي أشد قوة وعنفا وسطوة من حرب الحكومات.

قام السيّد بكتابة رسالة للكلبايكاني يوضح فيها موقفه، وملابسات ذلك الشريط وما جاء فيه من رأيه حول قضية الزهراء (ع) .. والكلام لا يخرج في مجمله عما قاله في رده على السيد جعفر مرتضى العملي، يقول السيد فضل الله في رسالته تلك :

" حضرة الأخ العلامة حجة الإسلام والمسلمين السيد جواد كلبايكاني .. دام عزه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع المحبة والدعاء وبعد، فإني أشكر لكم عواطفكم الأخوية في رسالتكم الكريمة، سائلا المولى سبحانه أن يحفظكم مع جميع المتعلقين في رعاية سيّدنا ومولانا دام ظله.

أما عن الملاحظة حول حديثي في قضيّة جدتنا الصديقة الطاهرة المعصومة الزهراء (ع)، فلم يكن في حشود جماهيرية متحمسة، بل كان حديثا قبل أكثر من سنة في مجتمع نسائي صغير جوابا عن سؤال، وكنت في ذلك الوقت في حالة بحث تاريخي حول الموضوع انطلاقا من كلمة سمعتها قبل

خمس وثلاثين سنة أو أكثر من المرحوم الإمام شرف الدين جوابا عن سؤالي حول الموضوع، فقد قال لي: إنّ الثابت عندنا أنهم جاؤوا بالحطب ليحرقوا الدار فقالوا: إنّ فيها فاطمة. قال الرجل: وإن، كما أنّ الشيخ المفيد في الإرشاد تحدّث عن إسقاط محسن بنحو الاحتمال، بعنوان أنه روى بعض الشيعة حديثا حول هذا الموضوع، لذلك كنت أحاول دراسة الموضوع تاريخيا من جهة السند ومن جهة المتن، ومن خلال بعض التحليلات التاريخية.

فكان الجواب في ذلك المجتمع النسائي مختصرا وسريعا على نحو إثارة الاحتمال، ولكنّي عثرت في أبحاثي بعد ذلك على كثير من النصوص التي تتحدث عن الموضوع في تلخيص الشافي، وفي دلائل الإمامة للطبري.

إنّني أحب أن أبين لكم أنّ المسألة لم تأخذ بعدا جماهيريا كما تذكرون، وإنّ إثارة الاحتمال انطلاقا من بعض الملاحظات لا يمثل أية مشكلة من هذا القبيل، و لا يجرح شعور المؤمنين، ويمكن بعض الناس حاولوا أن يثيروا هذه المواضيع بعيدا عن تقوى الله ليحرّفوا الكلم عن مواضعه من دون تحقيق أو تدقيق. لقد أرسلت رسالة للعلامة السيّد جعفر مرتضى حول الموضوع جوابا عن سؤاله.

إنّني أعتقد أنّ علينا أن نبحث هذه الأمور بطريقة علمية قبل أن يبحثها غيرنا من أعداء أهل البيت بطريقة عدوانية، ولا أتصور أنّ البحث العلمي في هذه الأمور يختلف عن البحث العلمي الأصولي والفقهي والكلامي، ولا أتصور أنّ النتائج فيه أيا كانت تختلف عن النتائج هناك.

فإذا كانت الغوغاء هي الأساس في تقويم الأمور فإنّ ذلك يمنع من كثير من الأبحاث التي تؤكد الحقائق، وإنّني أدعو جميع إخواني من العلماء والباحثين إلى دراسة هذه الأمور بالدقة والتحقيق، لأنّ ذلك هو سبيل الوصول إلى الصواب، وهو الطريقة المثلى لتأكيد كل تراثنا، بالطريقة المثلى على أساس الحق والواقع.

ختاما أقبل أنامل سيّدنا آية الله العظمى السيّد الكلبايكاني دام ظله، راجيا دعاه، وأبعث بتحياتي إلى أخيكم الجليل وإلى أولادكم وإلى جميع المتعلقين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٤١٤/٦/٧هـ محمد حسين فضل الله "

كل هذه المراسلات والضجة والتساؤلات وتبادل الرسائل والخطابات تمت والسيّد فضل الله في لبنان، فكان يجيب العلماء في قم ممن يستفسر منه حول ما جاء في ذلك الشريط من خلال وجوده في مكان إقامته في لبنان، ولكن بعد هذه المراسلات بشهرين، حدثت تطورات جديدة في قضية فضل

الله، إذ تلقى السيد دعوة من بعض العلماء في إيران للمشاركة في بعض المؤتمرات المقامة في طهران، فاستجاب لتلك الدعوة غير عابه ولا مكترث بالضجة المثارة حول رأيه وما أبداه من تساؤلات حول قضية الزهراء (ع) قبل شهرين فقط، ولا خائف أو وجل مما سيلقاه من تجهم العلماء وردود أفعالهم اتجاهه في قم مما صدر منه من آراء مخالفة .. وهذا ما حدث تماما، فقد ذهب برجليه ولقي في إيران عشرات العلماء ينتظرونه للحساب وللتساؤل والمواجهة، ولتحذره من الذهاب لمسجد الشهيد الصدر وإلقاء المحاضرة، وقد لقيهم بكل جرأة، وحاورهم، وأجاب عن تساؤلاتهم واستفساراتهم، وبعضهم لقاءاته معه أشبه ما تكون بالمحاكمة والإدانة وإصدار الأحكام في حقه. وهكذا تحول أصدقاء الأمس إلى أعداء اليوم إن صحّ التعبير، والبعض لّمح له باحتمال الاعتداء عليه من قبل بعض العوام إن ذهب لإلقاء المحاضرة بالمسجد المذكور، مما يعني أنّ هناك نية للاعتداء عليه، وربما ضربه والترصد له في تحركاته !!.

فبعد أن انتهى من أعمال المؤتمر في طهران لقي دعوة من الشيخ مهدي العطار للذهاب لقم، لإلقاء بعض المحاضرات هناك، وذلك في مسجد الشهيد الصدر، فاستجاب للدعوة ملبيا، وقد جاء لقم والقلوب مشحونة عليه، وممتلئة بالغيظ والحنق، والأفواه تنتظره لتسمعه عبارات الرفض وجمل الإدانة والاستنكار لما صدر منه في حق الزهراء (ع) وسيرتها المتداولة منذ مئات السنين، حيث ضربها وإسقاط جنينها وإحراق منزلها واقتياد بعلها من المسلمات التي لا تقبل النقاش أو حتى التفكير في إعادة النظر فيها. وهذا كله قام به فضل الله أو فكر فيه، لذلك هو يستحق تلك المواجهة والترصد والعنف من جميع شرائح المجتمع. بدءا من العلماء ورجالات الحوزة والكتاب والمفكرين وانتهاء لأبسط رجل من العوام، رجالا ونساء.

وكعادته نزل ضيفا على السيّد جعفر مرتضى العاملي في قم، وهذا له أكثر من دلالة، وأهمها أنّ حبل الود بينهما مازال متصلا، وأنّ التقدير والاحترام ما يزال موصولا على الرغم من الاختلاف و تبادل الرسائل التي

تشير إلى إنكار العاملي لما بدر من السيد فضل الله، وعلى الرغم من كل ما جرى.

أما ما جرى بعد ذلك من لقاءات وأحداث وتبادل الاستفسارات والإجابات بين السيد فضل الله وبين مجموعة من العلماء في قم، فإني سأذكره نقلا عن كتاب "الحوزة تدين الانحراف"، والمشكل هنا أنّ الكاتب لا يذكر لنا مصدرا لما جرى، ومرجعا لكل تلك الأقوال، سوى قوله "منى لسان بعض الحاضرين" والله أعلم بمدى صدق تلك المحادثات من كذبها، ومطابقتها للواقع من مبالغاتها وتزويرها له، سنذكره للعلم ولتتبع القضية أولا بأول، وليكون

القارئ على إحاطة بكل ملابسات المعضلة التي حلت بالشيعة والتشيع في عصرنا هذا. وإن كنت أميل إلى أنّ مصدر الكاتب في هذا النقل هو السيّد جعفر مرتضى العاملي نفسه. يقول الكاتب :

" وكعادته نزل ضيفا على السيّد جعفر مرتضى، فاستغلّ مجموعة من أهل العلم فرصة وجوده في قم وقصدوه في منزل السيّد جعفر مرتضى، والتقوا به لمدّة تزيد على الساعة، ودار في تلك الجلسة نقاش صريح وجريء. وهذا مجمل ما جرى في تلك الجلسة من لسان بعض الحاضرين فيها :

" كان ذلك في الساعة الواحدة ظهرا من يوم ٢١ شعبان ١٤١٤هـ ، وكان الحاضرون هناك : الشيخ محمد مهدي الآصفي، والشيخ باقر الأيرواني، والسيّد علاء الموسوي، والسيّد حسين التبريزي، والسيّد أحمد الحكيم الخطيب، والشيخ مصطفى المنصوري، والسيّد علي البدري، إضافة إلى السيّد جعفر مرتضى العاملي.

- بدأ الشيخ الأيرواني الحديث قائلا : لقد أخطأوا بدعوتهم إياك لإلقاء محاضرة في مسجد الشهيد الصدر، وأخطأت بقبولك لدعوتهم، فإنّ الجو خصوصا بين العراقيين متشنج جدا ولا يستبعد حصول مشاكل واعتداء.

- فأجاب : إني استشرت الأخوة الإيرانيين في ذلك فلم يمانعوا.

- فأجابه الأيرواني: إنّ الذي ينبغي أن يُستشار في هذا الأمر هم العراقيون لا غيرهم لأنّهم الأعرف بالساحة العراقية في قم.

- فأجابه بانتقاد الهجمة التي تعرض لها في قم بسبب حديثه عن كسر الضلع. وكان مما قال : " لا يوجد عالم شيعي أكثر شهرة مني في العالم "، " إنّ المخابرات الأمريكية والعالمية هي التي أحدثت هذا التحرك ضدي"، " لقد تكلمت حول كسر الضلع على نحو التساؤل وإثارة الاحتمالات العلمية للنقاش ولتحريك الروح العلمية ... لماذا أنتم طلبة ؟! ألا ينبغي لكم أن تبحثوا وتفكروا ؟! ".

- فتكلم الموسوي قائلا : من الملاحظ وجود منهج في التشكيك في قضايا أهل البيت (ع) وفضائلهم عندك، لماذا يا ترى ذلك ؟!

- فأجاب : لا يوجد عندي ذلك المنهج، وإنّما أريد أن أفتح أبواب التحقيق العلمي. ألا ينبغي أن تفكروا وتبحثوا في الأمور ؟!

- فقال السيّد علاء الموسوي : هل تريد للبحث العلمي والتحقيق أن يكون في جميع الأمور، أم في بعضها دون البعض الآخر ؟!

- أجاب : بل في جميعها.

- فقال الموسوي : إذن أخبرني عن قول من أقوالك ما هو مستنده العلمي : أخبرني عن قولك عن قبر الزهراء (ع) إنّه عرف، أين هو بالضبط وما هو الدليل على ذلك ؟

- فلم يحر جوابا، ومرّت لحظات من الصمت المحرج، بادر بعدها السيّد جعفر مرتضى محاولا إنهاء الحرج فقال:

- يقصد أنّه لم يعد قبرا من أربعين قبرا، بل هو إما في الروضة أو في البقيع أو في منزلها.

- وعاد هو يتحدث عن شهرته في العالم، فقاطعه السيّد حسين التبريزي قائلا: سيّدنا أنت لست أعظم ولا أشهر في العالم من الشيخ المنتظري.

- فقال : صحيح.

- فقال التبريزي: فاعلم أنّ المنتظري انتهى إلى ما انتهى إليه من جرّاء تعرضه لحق الزهراء (ع) في فدك، وأنت اليوم في أنظار الإيرانيين منتظري آخر، إنّ قول الرسول (ص) فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ... الخ، قول سار إلى يوم القيامة.

- فقال : إذا كانوا يسبونني فقد سبّوا قبلي جدي أمير المؤمنين (ع).

- فأجابه السيّد التبريزي : إنّ الذي سبّ أمير المؤمنين هم الأمويون، وأما الذين يسبونك الآن فهم الشيعة.

- فقال : الشيعة هم الذين قتلوا الحسين (ع).

- فأجابه المنصوري : بل قتله شيعة آل أبي سفيان.

وفوجئ الحاضرون بهذه الإجابة منه والتي هي من مقولات الوهابيين التي يطلقونها لمحاربة الشيعة، واستغربوا صدور ذلك من عالم شيعي بهذا المستوى. وحصل شيء من الأخذ والرد في المجلس. فتدخل السيّد علاء الموسوي قائلا:

- سيّدنا لم نحضر لهذا ... إنّما جئنا لنطلب منك عدم الاستجابة لدعوة مسجد الشهيد الصدر، لأنّ ذلك قد يسبب فتنة بين الناس. وإذا كان ولابد من التكلم فليكن ذلك في منتدى جبل عامل للبنانيين. فلم يوافق على ذلك وقال:

- لابد من ذلك، لكنّني لن أقول إلا ما يرضيكم.

- فقال له السيّد أحمد الحكيم : بل قل ما يرضي جدتك الزهراء (ع).

وبعد كلمة من هنا وكلمة من هناك قام السيّد جعفر مرتضى ودعا الجميع لوجبة الغداء، فقام السيّد فضل الله للخروج من الحجرة فاعترضه الشيخ مصطفى المنصوري وقال له:

- سيدنا هناك سؤال باق في قلبي أريد منك الإجابة عنه بوضوح وصراحة.

- فقال السيّد فضل الله : اسأل.

- فقال المنصوري: هل كسر الضلع ثابت عندك أم لا ؟

- فقال: المشهور عند الشيعة ...

- فقاطعه المنصوري وقال : دعنا من المشهور أخبرني عن رأيك أنت؟

- فقال له: أنا لم أحقق في هذا الموضوع. وأردف قائلا: هذه فتنة.

- فقال المنصوري: أنت أثرتها.

- فقال: المخابرات الأمريكية من ورائها.

- فقال السيّد علاء الموسوي: بل شيعة الزهراء (ع) والمخابرات الأمريكية قد تستفيد من ذلك كما تستفيد من أي مشكلة أخرى. وخرج الجميع وانتهى اللقاء".

ألقى السيّد فضل الله محاضرته في موعدها في مسجد الشهيد الصدر، وبعد أيام قليلة عاد للبنان من دون أن يتعرض لأذى.

بعد هذه الحادثة واللقاءات المتعاقبة بالسيّد، والمراسلات بينه وبين العلماء وعلى الأخص السيّد جعفر مرتضى العاملي صار فضل الله محلا للنظر، والمتابعة، فلم تعد القضية بعدها قضية التساؤل حول كسر ضلع الزهراء (ع) أو الحديث عن صحة دخول القوم عليها البيت أولا ، القضية بدأت تتسع وتتسع، والفتق زاد، والحفرة بدأت تتجه للعمق والبعد أكثر فأكثر، وراحت صوب الظلمة والعتمة، ومن خلال ذلك أخذ العلماء والباحثون وطلبة العلوم الدينية والمثقفون يترصدون للسيّد ويحفرون ويتابعون كل ما صدر عنه من كتب ومقالات ولقاءات وبحوث وسيرة وبيانات وإجابات وتساؤلات وتاريخ ممتد من جهوده وجهاده وتحركاته، فالذي يشكك مرّة يشكك مرات، والذي ينكر أمرا لابد أنّه أنكر قبله أمورا كثيرة، وسينكر

بعده أمورا أخرى، هذا حسب رأي مناوئي السيّد، والمنكرين له توجهاته وأفكاره.

وإذا كان الأمر في أوله مع جعفر مرتضى العاملي فإنّه الآن خرج عن ذلك النطاق ليتجه صوب العلماء والمراجع والفقهاء والحوزات والرأي العام والجماهير الممتدة، مما يجعل القضية تدخل العقدة، ولا حل لها. وصار عليه أن يواجه طوفانا جارفا وليس لقاءا مغلقا في بيت ينتظرون من بعده وجبة الغداء. وبات عليه أن يهيئ نفسه لمواجهة تيار عاصف من النقد والتسقيط والحرب التي سيشترك فيها الكل، وبأسلحة لا تعرف الهوادة فيها. حتى أقرباء الأمس سوف يكونون له بالمرصاد، ومن يتوسم فيهم الفهم والمناصرة والتأييد لن يقفوا معه، وعليه أن يحارب الجميع وحده، ومن الواضح أنّ القضية صارت فتنة، وصارت حكما على عالم سيتهم بالزيغ والضلال والخروج على مسلمات العقيدة في كل شيء، من أصغر الأمور حتى أكبرها.

وتكونت مجموعات ولجان لا شغل لها إلا أن ترصد مقولات السيّد فضل الله، وآراءه في كل مناحي الحياة، وعليها أن لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وتحصيها، وتسجل عليه كل ما تفوه به، أو سطره، أو ذكر حوله رأيا، في القرآن والأنبياء والرسل والأئمة والتاريخ والتقليد والفقه و المرأة .. وكل شيء يدور حوله السيّد ويدور حول السيّد. وهكذا ظهرت قضية فضل الله إلى الرأي العام في كل مناطق الشيعة، في لبنان وإيران والعراق والخليج، بما عرف بقضية فضل الله. وأخذت الكتابات تصدر تباعا، وبغزارة، الكتاب بعد الكتاب، عشرات الكتب صدرت حول بيان ضلال السيّد وانحرافه وغيه وكذبه وتناقضاته كما يعبرون، وادّعائه للمرجعية حينما تصدّى لها بعد ذلك، مما ألب عليه النفوس، وأغراها بالقذف في شخصه، وجعله يتمزق من الألم، ويذرف الدموع دما، ونفسه تكاد أن تهلك مما يرى من بني قومه ومذهبه، فبالأمس كان في نظرهم المجاهد والعالم والمحور والمنارة والهادي والمجدد والمستنير والنابغة والأمل والسائر على خط الشهيد الصدر، أما اليوم فهو على خلاف الأمس، وشتّان بينهما، فهو قد أضاع الطريق، وانغمس في الضلالة والزيغ وابتعد عن عقيدة قومه، وانسلخ من فكر الأئمة المعصومين النقي الأصيل، والذي ورثناه من أساطين المذهب، وفي المقابل تكونت جبهات مضادة، وتكتلات عديدة لا شغل لها، ولا وهمّ لديها إلا الدفاع عن حياض السيّد فضل الله الذي استبيح من الجهلة ومدعي الفكر والحفاظ على العقيدة، وحرّاس المذهب المدافعين عن الزهراء (ع)، فالسيّد هو أمل الأمة، ومجدد القرن، والمفكر المخلص، الذي يجب الدفاع عنه، ويتطلب التكليف الشرعي حمايته ورعايته والدفاع عنه بكل السبل والوسائل ، من كتب ودراسات وردود ولقاءات وشروح ومقابلات، والكل في القضية ينطلق من التكليف الشرعي، من يتهجم على السيّد ومن يدافع عنه !!.

لا يهمنا هنا ما قيل في رصد مخالفات السيّد، وما أخذ عليه من مخالفات للعقيدة، والمسلمات، فقد بينا موقفنا في الصفحات الأولى من المخالفات التي صدرت من أقطاب علماء المذهب، وكيف نتعامل معها، المهم في الموضوع كله هو رصد كيفية التلقي مع قضية فضل الله، وكيف يتعامل العلماء والعوام وأهل التشيع مع من يخرج على السياق العام، ومع من يتبنى رأيا مخالفا للمألوف، ويقوم على إعمال الفكر، ويتبنى الاجتهاد الحر منهجا، وهذا ما وجدناه بارزا في قضية فضل الله، وغيره من الأعلام ممن تميز بالاستقلالية في التفكير في قضايا المذهب والعقيدة والفكر الإسلامي. فما إن شذ عن السياق حتى رجموه بالحجارة، وحكموا عليه بالزيغ والضلال، وبالارتداد الفكري، ولم يعد كما كان، فالتاريخ يتوقف عند اللحظة التي يخرج فيها على المألوف، ويُنسى تاريخه كله، مهما كان حجم هذا التاريخ، فالعنف الفكري لا يعترف بالماضي، وانما نظره على اللحظة الآنية، وعلى الساعة، وتحول فضل الله إلى مرمى للسهام، وهدفا للرماح، الكل يقذفه ويرميه ويتعدى عليه ويشتمه بأقذع الألفاظ .. ولا أظن بأنّ هذه لغة القرآن في التعامل مع المخالفين فضلا عن المجتهدين، وليست هذه سياسة وتعامل أهل البيت (ع) مع من يخالفهم في الرأي وهم المعصومون، ولكن لا نقول إلا إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا يعني كلامي هنا أنّ كل ما قاله فضل الله فهو صحيح، يهمني الموضوع ذاته، وإلا فالكل يخطئ، ولا يخلو عالم من سقطات وهفوات وأخطاء ، لب الموضوع كله هو منهجية التعامل مع من يتفرد ومن يخرج على الرأي العام، ومن يجتهد ويستقل بفكره، وإن خرج برأي صادم غير متوقع.

يؤسفني أن أقول إنّ كل من كان على هذه الشاكلة فإنّ مصيره الذي ينتظره هو العنف الفكري الذي ينطلق من الداخل، من البيت الشيعي نفسه، وليس من الخارج ومن الآخرين البعيدين. وهذا ما حدث مع السيّد فضل الله، ومع من كان قبله، ومع من سيأتي بعده، فالمنهج هو المنهج، والتفكير هو التفكير، والناس هي هي، لا تتغير، ولا تتطور ولا تستفيد من أخطاء من سبقها، ولا تحاول أن تصحح أخطاءها، والنماذج تتكرر أمامنا كل يوم، في قرانا ومدننا ومجتمعنا مع عشرات الأسماء التي قررت أن تعلن عن بعض أفكارها المغايرة، فما كان من المجتمع إلا الحكم عليها بالإقصاء والنبذ، بدلا من التشجيع والاحتواء وتفهم الموقف، وأنّ الناس يجب أن يكونوا هكذا مختلفين. لا نسخ مكررة، وكل واحد يقلد الآخر، والبقية تنقاد كالقطيع، والعامل الأكبر في تجذر هذه الظاهرة، ورسوخها في بنية المجتمع هم المعممون للأسف الشديد، وطلاب الحوزات الدينية، فبدلا من أن يكونوا منارات في التسامح، والخلق، ونبذ العنف، وتقبل الآخر، ونماذج للحوار العلمي، فإنّهم لا يعرفون إلا لغة لا أريكم إلا ما أرى، لا لغة لكم دينكم ولي دين، لغة كل من يخالفنا فهو زائغ وضال، لا لغة إنا أو إياكم لعلى هدى

أو في ضلال مبين، ومن هنا يسير العوام والناس البسطاء على دين ومنهجية وسلوك علمائهم، فلا يتصور هذا العامي البسيط أنّ هذا العالم المعمم الذي يراه في قريته ومدينته على ضلال، أو يخطئ في تصرفاته وسلوكه، فهو يتكلم باسم الدين، ويعرف في الدين أكثر منا، وقد درس في الحوزات سنوات، مما يعطي سلوكه وأفكاره الشرعية والقبول والتأثير، خصوصا إذا اجتمعت العمائم وتكالب العلماء كلهم أو الغالبية منهم على إسقاط واحد، عندها الويل له، وينتظره مستقبل غامض وسوداوي.

وهنا من المفيد أن نسأل: هل ما قاله السيّد فضل الله حول الزهراء (ع) وكسر ضلعها وإسقاط جنينها ولطمها على خدها من القوم كان متفردا به ؟

" وسأقسمه إلى قسمين:

القسم الأول: نقل ما تساءل عنه سماحة السيّد فضل الله (قدس سره) وماذا قال:

وهناك بعض الحوادث التي تعرّضت لها مما لم تتأكد لنا بشكل قاطع وجازم كما في مسألة حرق الدار فعلا، وكسر الضلع، وإسقاط الجنين، ولطم خدها وضربها ... ونحو ذلك مما نقل إلينا من خلال روايات يمكن طرح بعض علامات الاستفهام حولها، إما من ناحية المتن أو من ناحية السند، وشأنها شأن الكثير من الروايات التاريخية، ولذا فقد أثرنا بعض الاستفهامات كما أثارها بعض علمائنا السابقين (رضوان الله عليهم) كالشيخ المفيد الذي يظهر منه التشكيك في مسألة إسقاط الجنين، بل في أصل وجوده وإن كنا لا نوافقه على الثاني، ولكنّنا لم نصل إلى حد النفي لهذه الحوادث كما فعل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قدس سره) بالنسبة لضربها ولطم خدها، لأن النفي يحتاج إلى دليل كما أنّ الإثبات يحتاج إلى دليل، ولكن القدر المتيقن من خلال الروايات المستفيضة بل المتواترة تواترا إجماليا، هو الاعتداء عليها من خلال كشف دارها والهجوم عليه والتهديد بالإحراق، وهذا كاف للتدليل على حجم الجريمة التي حصلت ... هذه الجريمة التي أرّقت حتى مرتكبيها، ولذا قال الخليفة الأول لما دنته الوفاة : "ليتني لم أكشف بيت فاطمة ولو أعلن علي الحرب". وفي رواية أخرى : " وددت أني لم أكشف بيت فاطمة وتركته وأن أغلق علي الحرب".

القسم الثاني: استعراض ما قاله بعض علمائنا السابقين (رضوان الله عليهم) في كسر ضلع الزهراء (ع) وحرق الدار وإسقاط الجنين:

١. الإمام الأكبر (كما يلقب) الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (قدس سره):

يقول سماحة الإمام الأكبر آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (قده) في كتابه جنة المأوى ص ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧ وسأنقلها حرفيا:

" ولكن قضية ضرب الزهراء ولطم خدّها مما لا يكاد يقبله وجداني ويتقبله عقلي، ويقتنع به مشاعري، لا لأنّ القوم يتحرجون ويتورعون من هذه الجرأة العظيمة، بل لأنّ السجايا العربية والتقاليد الجاهلية التي ركزتها الشريعة الإسلامية وزادتها تأييدا وتأكيدا تمنع بشدّة أن تُضرب المرأة أو تمد إليها يد سوء، حتى أنّ في بعض كلمات أمير المؤمنين (ع) ما معناه: أنّ الرجل كان في الجاهلية إذا ضرب المرأة يبقى ذلك عارا في أعقابه ونسله.

ويدلك على تركيز هذه الركيزة بل الغريزة في المسلمين وأنّها لم تفلت من أيديهم وإن فلت منهم الإسلام: أنّ ابن زياد وهو من تعرف في الجرأة على الله وانتهاك حرماته لما فضحته الحوراء زينب (ع) وأفلجته وصيّرته أحقر من نملة، وأقذر من قملة، وقالت له: ثكلتك أمّك يا بن مرجانة، فاستشاط غضبا من ذكر أمّه التي يُعرف أنّها من ذوات الأعلام، وهمّ أن يضربها، فقال له عمرو بن حريث وهو من رؤوس الخوارج وضروسها إنّها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها، فإذا كان ابن مرجانة امتنع من ضرب العقيلة خوف العار والشنار وكله عار وشنار، وبؤرة عهار مع بعد العهد من النبي (ص) فكيف لا يمتنع أصحاب النبي (ص) مع قرب العهد به من ضرب عزيزته، وكيف يقتحمون هذه العقبة الكؤود ولو كانوا أعتى وأعدى من عاد وثمود، ولو فعلو أو همّوا أن يفعلوا أما كان في المهاجرين والأنصار مثل عمرو بن حريث فيمنعهم من مد اليد الأثيمة، وارتكاب تلك الجريمة، ولا يقاس هذا بما ارتكبوه واقترفوه في حق بعلها سلام الله عليه من العظائم حتى قادوه كالفحل المخشوش فإنّ الرجال قد تنال من الرجال ما لا تناله من النساء.

كيف والزهراء (ع) شابّة بنت ثماني عشرة سنة، لم تبلغ مبالغ النساء، وإذا كان في ضرب المرأة عار وشناعة فضرب الفتاة أشنع وأفظع، ويزيدك يقينا بما أقول أنّها ولها المجد والشرف، ما ذكرت ولا أشارت إلى ذلك في شيء من خطبها ومقالاتها المتضمنة لتظلمها من القوم وسوء صنيعهم معها، مثل خطبتها الباهرة الطويلة التي ألقتها في المسجد على المهاجرين والأنصار، وكلماتها مع أمير المؤمنين (ع) بعد رجوعها من المسجد، وكانت ثائرة متأثرة أشد التأثر حتى خرجت عن حدود الآداب التي لم تخرج من حظيرتها مدّة عمرها، فقالت له: (يا بن أبي طالب افترست الذئاب، وافترشت التراب، إلى أن قالت : هذا ابن أبي فلانة يبتزّني نحلة أبي وبلغة

ابني، لقد أجهد في كلامي، وألفيته الألد في خصامي) ولم تقل إنّه أو صاحبه ضربني، أو مُدّت يد إلي، وكذلك في كلماتها مع نساء المهاجرين والأنصار بعد سؤالهنّ كيف أصبحت يا بنت رسول الله ؟ فقالت: أصبحت والله عائفة لدنياكنّ، قالية لرجالكنّ. ولا إشارة فيها إلى شيء عن ضربة أو لطمة، وإنّما تشكو أعظم صدمة وهي غصب فدك وأعظم منها غصب الخلافة وتقديم من أخّر الله وتأخير من قدّم الله، وكل شكواها كانت تنحصر في هذين الأمرين، وكذلك كلمات أمير المؤمنين (ع) بعد دفنها، وتهيّج أشجانه وبلابل صدر لفراقها، ذلك الفراق المؤلم: حيث توجه إلى قبر النبي (ص) قائلا: السلام عليك يا رسول الله عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك .. إلى آخر كلماته التي ينصدع لها الصخر الأصم لو وعاها، وليس فيها إشارة إلى الضرب واللطم ولكنّه الظلم الفظيع والامتهان الذريع، ولو كان شيء من ذلك لأشار إليه سلام الله عليه، لأنّ الأمر يقتضي ذكره ولا يقبل ستره، ودعوى أنّها أخفته عنه ساقطة بأنّ ضربة الوجه ولطمة العين لا يمكن إخفاؤها" انتهى النقل.

٢. الشيخ المفيد (ابو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي):

يظهر الشيخ المفيد التشكيك في مسألة إسقاط الجنين، بل في أصل وجوده. حيث يقول: " وفي الشيعة من يذكر: أنّ فاطمة (ع) أسقطت بعد النبي (ص) ولدا ذكرا كان سمّاه رسول الله (ص) وهو حمل محسنا. فعلى قول هذه الطائفة أولاد أمير المؤمنين (ع) ثمانية وعشرون".

الخلاصة:

لماذا هوجم سماحة السيّد فضل الله (قدس سره) واعتبر ضالا ومضلا عندما أبدى رأيه في موضوع كسر الضلع، علما أنّه لم ينف أو يثبت موضوع كسر الضلع، ولم يجرؤ أحد على التكلم عن العلامة الإمام الأكبر آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، أو الشيخ المفيد وغيرهم ؟؟

الجواب سأستعين به من كتاب جنة المأوى بعنوان (شيوع الافتراء). وكان يُقصد به الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (قده) إلا أنّه يسري على كل العلماء المصلحين على مر التاريخ. قال تعالى: " إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون". من ينعم النظر إلى أحوال الأكابر والنوابغ من علماء الدين ورؤساء المذهب يرى أنّه لم يكد يسلم أحد منهم من تشنيع الأعداء والنقول والطعن عليهم من الخصماء، وقد وقعوا أهدافا لسهام اللوم والطعن والتفنيد ولم يسلم كثير من الشخصيات العالمية من هذه السهام المسمومة، ولم يشذ أحد منهم عن القذف والمروق والشذوذ وما شابه ذلك وأكثرهم، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم لم يسلموا عن الكلمات الخاطئة في حقهم والتحامل عليهم بالقول الزور وبكل أفيكة.

وغير خفي على الباحث المنقب أن رميهم بالأقوال الشائنة والقوارص الموبقة وبالأفائك والمفتريات، كان في الزمن السالف ناشئا في الأغلب من الحسد والحقد ومن افتراءات الخصوم وأهل الغرض والأهواء أو المخالفين في المذهب والعقيدة، ولذا نجد بعد البحث والتنقيب وإمعان النظر والتحليل الصحيح، أن كل تلك الأقوال عارية عن الصحة وخالية عن الحقيقة ولا قيمة لها عند الباحث المنقب والمتحري للحقائق، نعم هكذا كان الأمر في الزمن الغابر، ولكن في عصرنا الحاضر نجد أن شيوع الافتراء والاختلاق والتهمة على علماء الدين وكبراء المصلحين، ليلوثوا بزعمهم ساحة قدسهم وليحطوا عن مقامهم في أنظار الناس.

غفرانك اللهم من هذا البهتان العظيم، والإفك الصريح، والجرأة العظيمة في حق رجل عظيم من عظماء العالم الإسلامي والمجتمع المذهبي" (العلامة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله .. مشروع نهضة الأمة، محمد حسين ترحيني، ط١/٢٠١١م، دار المحجة البيضاء، بيروت، ص ٢٧٠ - ٢٧٦).

عودة جعفر مرتضى العاملي للبنان:

بعد عام تقريبا من ذلك اللقاء الذي ضم السيّد فضل الله بمجموعة العلماء في بيت السيد جعفر مرتضى العاملي، غادر إيران للبنان ليستقر فيها، مما جعله قريبا من السيّد فضل الله، وهذا ما حفزه لأن يتابعه في جميع تحركاته العلمية، من محاضرات وندوات واستفتاءات وبيانات وغيرها من أنشطته الكثيرة والمتعددة، ومن خلال ذلك تكونت حصيلة كبيرة لدى العاملي حول فكر فضل الله، وهو في رأيه فكر أكبر من أن يكون مرتبطا فقط بتساؤل بريء حول مدى صدق حادثة كسر ضلع الزهراء (ع) أو لا، بل القضية أكبر من ذلك كما يرى العاملي، فهو عندما اقترب من السيّد وتابعه من قريب جدا وجد أنّه مجموعة من الأخطاء، وكتلة من الزيغ والضلال، وكم هائل من التخبطات الفكرية، والخروج على القواعد والأسس العلمية المعتبرة لدى جميع العلماء، هذا ما يقوله العاملي .. وفي البدء حاول العاملي أن يعالج الموضوع بهدوء، عن طريق المراسلات، فأخذ يبعث للسيّد فضل الله الرسالة تلو الرسالة، إلا أنّ السيّد فضل الله لا يرد عليه، ثم طلب منه المناظرة الصريحة لينقطع بذلك العذر وتتم الحجة، فرفض السيّد فضل الله هذا الأمر، مما ألجأه بعد ذلك للمواجهة العلنية والصريحة، مواجهة تحمل في طياتها كل أنواع الشدة واستخدام كل أنواع الأسلحة الفكرية في تسقيط الآخرين، واتهامهم بكل صفات الضعة والزيغ.

ضجّة واعتداءات بالأيدي في دمشق :

السيّد ياسين الموسوي رجل دين عراقي، وقد تنقل بين أكثر من بلد حتى استقر في دمشق قبل أن ينتقل أخيرا إلى موطنه العراق، وفي سوريا تعرض

الموسوي لاعتداء بالأيدي بسبب ما كتبه حول فضل الله وتهجمه عليه، وكاد أن يُقتل في ذلك الاعتداء وكان ابنه معه، وقد تعرض لاعتداء سافر خطط له أفراد من حزب الدعوة، بعدما أصدر كتابا في نقد منهج السيّد فضل الله، ومناقشته في موضوع "الزهراء". وهي ظاهرة خطيرة من ظواهر العمل الحزبي الذي بلغ حدّا من الانزلاق في مهاوي السياسة الدينية، دون أن يعير الالتزامات التربوية والخلقية أي معيار.

وقد كتب السيّد الموسوي تلك الحادثة بقلمه، ورواها بنفسه، ننقلها للقارئ على طولها لما فيه من فوائد وتفاصيل تضيء كل ما حوالي القضية من أبعادها المختلفة، والغريب أنّه يرى كتابه في فضل الله وفضحه تساوي عنده كمن يتقدم للشهادة في سبيل الله، وأنّه يحمد الله على أن وفقه لكتابة كتابه في الرد على فضل الله!! :

" ووصلت إلى سوريا مرة أخرى، وهنا بدأت قصة جديدة في حياتي. حيث كنت قد اطلعت سنة ١٤١٤هـ على خطاب للسيّد محمد حسين فضل الله يتحدث به عن السيّدة الزهراء سلام الله عليها بشكل غير لائق، وكنت سابقا متابعا لكتاباته وخطاباته، وقد حصلت عندي قناعة خاصة من خلال دراستي لمنهجه الفكري بأنّ الرجل صاحب منهج خطير، فسجّلت قناعتي وبشكل علمي في كتاب طبع تحت عنوان (ملاحظات على منهج السيّد محمد حسين فضل الله)، وكنت مقتنعا أنّ الأفضل أن يطبع الكتاب تحت عنوان (ملاحظات على منهج). وبيّنت خلال الكتاب أسباب عدم ذكر اسمه، ولكنّه نشر تحت العنوان الأول، ولست حاليا نادما على كتابة ذلك البحث ولا على نشره. ولا أريد أن أتخلى عن مسؤولية ذكر اسمه، وإنّما أريد هنا أن أثبت للتاريخ حقيقة ما جرى مع تمام قناعتي بأنّ ذلك العمل كان صحيحا مائة بالمائة، وقد أرضيت ضميري وربي به. كما إنّي أقول للتاريخ إنّي لم أحصل على ربح أو مال من أي شخص أو جهة إزاء ما كتبته، كما أنّي لم أكتبه استجابة لرغبة أحد ما، كما يحاول الآخرون أن يشيعوا ويقولوا، وإنّما كتبته بما أملاه عليّ ضميري واعتقدته من واجب شرعي كنت ومازلت أخاف من عقاب الله عزّ وجل لو لم أفعل ذلك. والحمد لله على توفيقه.

كما أنّي كنت أعلم علم اليقين بأنّ القوم سوف لا يتركونني، وسوف يحاربونني بشتى الأساليب، ولكنّني صممت على الإقدام كمن يتقدم إلى الشهادة في سبيل الله تعالى. وهذا ما حدث بالفعل، فما أن طبع الكتاب وظهر في الأسواق حتى هبّ القوم بحربهم العدوانية وبشتّى الأساليب، أحدها أن طلب مني السيّد محمد باقر الحكيم أن أكتب منشورا أعتذر فيه عن الكتاب، ولكني رفضت وبيّنت له بأنّ المسألة لا تتعلق بالأوضاع السياسية، وإنّما هو موضوع عقائدي بحت، وأنا مسؤول عنه.

كما تلقيت في صبيحة أحد الأيام مكالمة قال المتحدث بأنّه من (الاطلاعات)، ويريد أن يأتي إليّ فأعطيته عنوان مكتبي وحدّدت له الساعة التي يمكنه أن يزورني بها. وبالفعل جاءني إلى المكتب اثنان، أحدهما شيخ والآخر سيّد معمّم، وكان المتحدث هو السيّد، وتكلم بأدب واحترام، وذكر أنّه كان يرغب باللقاء بي من قبل ولكن كثرة أشغاله كانت السبب في عدم حصول ذلك، ثم ذكر أنّه من حقي تأليف الكتاب (منهج) ولا اعتراض لهم على ذلك، ولكن هناك ضجيج يقوم به بعض اللبنانيين وهدّد السيّد جعفر مرتضى بأنّه إذا لم يسحب الكتاب من الأسواق فإنّ اللبنانيين سوف يتظاهرون في شوارع قم، ولذلك رجاني بأدب أن أقوم بسحب الكتاب من الأسواق. فقلت له أولا إنّني لست ناشر الكتاب، ولذلك فلابدّ من الاتصال بالناشر وأعرض عليه هذا الموضوع، وأما ثانيا فإنّ الكتاب قد نفد من الأسواق. وبعد أن انتهينا من هذا الحديث ذكر السيّد المتحدث بأنّ لديهم قريبا اجتماع يتعلق بموضوع الداخل، وطلب مني أن أذكر رأيي واقتراحاتي ليعرضها في المؤتمر، ولذلك قمت أبين له بعض الملاحظات، ثم ودّعوني وخرجوا.

ومن الأعمال العدوانية التي صدرت في تلك الأيام أن نشر الآخرون منشورا مبتذلا يهددوا به أصحاب المكتبات التي تبيع الكتاب بالحرق. ومن الأعمال العدوانية نشر الأكاذيب والإشاعات السوقية المبتذلة، والتهديد بواسطة التلفون للأطفال والنساء بالقتل والتعذيب، وغير ذلك. ولم يتركوا أسلوبا رخيصا إلا ارتكبوه ولا إثما إلا اقترفوه، لكنّهم لم يتمكنوا أن يتمادوا بالاعتداء الشخصي الفعلي في إيران.

وحينما وصلت إلى سوريا وعلم القوم بوصولي استنفروا قواهم، وسافر السيّد حسن النوري إلى إيران لتوحيد الموقف، ثم أعلنوها حربا ضروسا ابتدأت بعملية مبتذلة بنشر الإشاعات والأكاذيب الساقطة، وعندما أعوزهم الدليل وسقط ما في أيديهم انتقلوا يخططون للعنف، وكان أول ذلك حيث تحدّث نفس السيّد محمد حسين فضل الله في إحدى محاضراته السبتية عن العفو في القرآن الكريم، وذكر أنّ هناك من الناس من يضر بهم العفو، ولذلك يلزم اتخاذ العنف معهم، ثم انتقل بحديثه عن مؤلف كتاب (ملاحظات على منهج السيّد فضل الله)، وذكر أنّه قد يكون ممن يضر معه العفو.

وكان ذلك البيان الرسمي للتخطيط للعنف وتبريره. ولذلك صعد السيّد أبو جعفر العلاك على منبر الحسينية الحيدرية التابعة لحزب الدعوة، وذكر بأنّهم سوف يضربون بيد من حديد كل من يتطاول على السيّد فضل الله.

وصادف تلك الأيام أن طلب مني السيّد أحمد الفهري أن أتحدث في صلاة الجمعة عن السيّدة الزهراء عليها السلام، وبعد إصراره المتكرر وافقت وتكلمت عن بعض مناقب السيّدة الزهراء عليها السلام، وقد تحرّك بعض الحاضرين من أجل أن يعترضوا على صعودي المنصة وإيجاد حالة فوضى، ولكنّهم خرجوا من المصلى. وكان للكلمة أثر إيجابي في نفوس الحاضرين وانتشرت بشكل واسع بين الناس في المنطقة مما أزعج (الدعوة) بشكل ملحوظ.

وفي يوم الأحد كعادتي ذهبت بعد صلاتي المغرب والعشاء إلى حرم السيّدة زينب (ع) للزيارة، وكان معي ولدي، وله من العمر حوالي تسع سنوات، وبعد الزيارة خرجت من الحرم الشريف حوالي الساعة السابعة والربع مساءً، وفي الطريق إلى البيت رأيت أم أطفالي ومعها طفلي الآخر علي، وكان عمره أربع سنوات تريد أن تشتري الخبز فأخذته منها، واشتريت الخبز ورجعت عائدا إلى البيت، وهو يقع في أزقة، فرأيت من بُعد أنّه يقف على أحد الطرق المؤدية إلى البيت عدّة أشخاص فغيّرت اتجاهي إلى الطريق الآخر ورأيته كذلك قد وقف عليه عدّة أشخاص فتوسمت أنّ الشر قادم.

مشيت على مهل حتى إذا وصلت إلى آخر الزقاق، وكانت العتمة تغطيه تقدّم إلي اثنان فعرفت الشر بأعينهما، وتوقعت أن يسباني أو شيئا من هذا القبيل، فسلم أحدهما وقال السلام عليكم، فرددت عليه السلام وبسرعة وقوّة انهال بالضرب واللكم والسباب هو وصاحبه في كل مكان في وجهي وجسمي، وهما يسبّان ويشتمان ويمجّدان بصاحبهم، وسلبا العمامة وهربا بعدما وقعت إلى الأرض مضرجا بدمي، وحولي طفلاي يصرخان في ظلمة الليل ويبكيان، وكان محمد يبحث في الأرض عن حجارة يريد أن يدافع بها عن أبيه ببراءة طفولته.

وبعد فترة تمكّنت أن أجمع بعض قواي وقمت إلى البيت، والبيت قريب والدماء تسيل من وجهي وجسمي، فعندما وصلت إلى البيت بعثتُ زوجتي إلى بعض أصدقائي ليأتي ويأخذني إلى المستشفى، وبهذه الأثناء سمعت ضجيجا في الباب فدخل مجموعة من المؤمنين على رأسهم السيّد محمد رضا شبّر نجل آية الله السيّد علي شبر، وهو شيخ كبير تعلوه الهيبة والوقار بهي الطلعة شديد الولاء لأهل البيت عليهم السلام، لم يكن تربطني به سابقا علاقة، وقد رأيته مرة واحدة، فحينما رأوني بتلك الحالة أسرعوا بنقلي إلى مستشفى الإمام الخميني في منطقة الذيابية المجاورة لمنطقة السيّدة زينب (ع) في دمشق. وأدخلت المستشفى، وبدأت العلاج.

وبعد مرور حوالي الساعة على دخولي المستشفى جاء ضابط مخفر السيّدة زينب (ع) لتسجيل ما حدث، وفي الأثناء جاءت مفرزة من الأمن السياسي ودخل مسؤول المفرزة وذكر بأنّه أرسله (المعلم) من أجل حمايتي، وإذا طلبت شيئا فهم موجودون في الغرفة المجاورة.

وما أن أصبح الصباح الثاني حتى انتشر الخبر في المنطقة، وكان بعض شباب (الدعوة) قد تبجحّوا بأنّ هذا جزاء من سوّلت نفسه الوقوف أمام السيّد محمد حسين والدعوة، ولكنّ النتائج انقلبت عكس ما كانوا يأملون وخططوا، فإذا الجمهور استنكر هذا الاعتداء بقوّة واحتجّت الحوزات العلمية والمدرّسون والعلماء وتعطلت الدروس والحوزات، وتحدّث المدرسون في مجالس دروسهم محتجين على هذا الاعتداء كالشيخ محمد الخاقاني مدرس خارج، والسيّد صادق نجل آية الله السيّد يوسف الحكيم مدرس خارج، والسيّد أحمد الفهري ممثل السيّد القائد آية الله الخامنئي وغيرهم.

وبعدما كان الناس قبل ساعات من الحادث يحملون الإشاعات، ويجهلون حقيقة ما يجري لتلاعب أولئك بالحقائق وتضليلهم، فإنّ الحادث كان الناقوس الذي أفاق النّاس من نومتهم وأيقظهم على ألاعيب القوم، فانهال الجمهور على المستشفى وزارني جميع علماء المنطقة، وصدرت البيانات الاستنكارية. فقد أصدر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ومؤسسة التبليغ الإسلامي والحوزات العلمية في السيّدة، ورفعت لافتات الاستنكار في قم المقدسة، واتصلت مكاتب المراجع العظام، فاتصل سماحة الشيخ جعفر التبريزي أكثر من مرّة، وقد نقل استنكار والده سماحة آية الله العظمى الميرزا جواد التبريزي، وكذلك اتصل سماحة السيّد جواد الشهرستاني الممثل العام لسماحة آية الله العظمى السيّد السيستاني مستنكرا ما حدث، وكذلك سماحة السيّد رياض نجل آية الله العظمى السيّد محمد سعيد الحكيم مستنكرا، وسمعت أنّ سماحة آية الله العظمى الشيخ لطف الله الصافي اتصل أيضا. وهكذا فقد استنكرت الحوزة العلمية العراقية في قم. كما بعث لي رؤساء عشائر جنوب العراق برقيات مساندة واستنكار لما حدث. كما استنكر سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما حدث محتجّا بشدّة، وقد زارني في بيتي بمنطقة السيّدة زينب (ع)، وأصدر المجلس الشيعي الأعلى في لبنان بيان استنكار كما بعث لزيارتي بوفد من المجلس. وهكذا انهالت الشخصيات العراقية والإسلامية تستنكر الحادث البشع.

ولم يظهر من السيّد محمد حسين أي استنكار، فذهب إليه الشيخ حسن الراضي، وكان محسوبا عليه وطلب منه استنكار الحادث فكان جوابه أنّه مع الحوار، ولكن هناك أسلوب آخر عند العوام، فإنّ هناك من يتعلق به ويؤمن به، وحوارهم مع الآخرين هو هذا الأسلوب.

وبعد خروجي من المستشفى جاءني جواد الخالصي وهو من المتحركين ضمن خطة السيّد محمد حسين، وأخبرني بالحديث وجواب السيّد محمد حسين فأجبته أخبره بأنّ الرسالة قد وصلت واعتبرته تهديدا جديدا " (تاريخ القزويني، ط١/٢٠١٢م،الخزائن لإحياء التراث، بيروت، مجلد ٣٠، ص٣٤٩-٣٥٤).

ما هذا الذي يحدث؟ وما هذا العنف الدموي والنفسي؟ ما هذه الأساليب التي تصدر من أناس هم الأولى بالخلق والسماحة والأدب الرفيع والصفح والعفو؟!! وما هذه اللغة ؟! منشورات وابتذال وحرب داخلية وإشاعات سوقية وتهديد وإدماء واعتداء بالأيدي من رجال دين وعلى رجال دين ومن أحزاب ترفع شعار الإسلام والانتماء لخط أهل البيت (ع) وبعد ذلك إذا قلنا أنّ هناك عنفا داخليا في البيت الشيعي، انتفض البعض وثار احتجاجا على هذا الوصف ؟!!، بلى هناك عنف شديد في الداخل، فيما بيننا، مع كل من يختلف معنا، مع من يتبنى رأيا مغايرا، ومصداق ذلك عشرات الشواهد التي أذكرها في هذا الكتاب والتي لا يسع المجال لذكرها وتسطيرها، وهي في مظانّها لمن أرادها.

الشيخ فاضل المالكي يتهجم على السيّد فضل الله من على المنبر في الكويت:

بعد مدة من قضية فضل الله في إيران، وقصة لقائه بالعلماء، ومراسلاته مع السيّد جعفر مرتضى العاملي، خرجت القضية إلى نطاق أوسع، وانتقلت أصداؤها إلى الخليج وإلى العراق ولبنان ومختلف المناطق والبلدان الشيعية، وصارت تطرح في كل تجمع، وتثار في كل منتدى، ويأتي ذكرها في كل محفل واجتماع، وصار الكل يتساءل: ما قصة قضية فضل الله وإنكاره لكسر ضلع الزهراء (ع)؟ ، والذي زاد الطين بلة دخول بعض الخطباء على الخط، ومن بين هؤلاء الخطيب الشيخ فاضل المالكي، إذ كان في شهر محرم الحرام عام ١٤١٤هـ خطيبا بالكويت، يعتلي منابرها، وفي يوم الخامس من شهر محرم صعد المنبر وفي حديثه تهجم على السيّد فضل الله، وكان يعبر عنه بكلمة "البيروتي" وقد وصفه بالضال والمضل وغيرها من نعوت تقدح في الرجل وفي علمه وتدينه وتشيعه، وأنّه يجب أن لا نعده من العلماء ولا المقدسين المحترمين، ثم تهجم على مؤسسة "دار الإسلام"، ويبدو أنّها مؤسسة تابعة للسيد فضل الله وتحظى بدعمه ورعايته، مقرها بريطانيا. مما أثار ضجة في أوساط الشباب والحاضرين في ذلك المجلس، وخلق زوبعة من الفتنة والصراخ وتبادل الاتهامات والأراء بين مؤيدي فضل الله ومناوئيه في الكويت، وعلى إثر ذلك بعث بعض أنصار السيّد برسالة يخبرونه فيها بما حدث وبما صدر من المالكي اتجاهه، واستغلاله للمنبر في الطعن بالعلماء على حسب قولهم، وقد كتب الرسالة تلك كاظم عبد الحسين، وكان نصها كالتالي:

" سماحة آية الله العظمى المجاهد السيّد محمد حسين فضل الله دام ظلّه الوارف.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا شكّ أنّ المنبر الحسيني كان ولا يزال من نعم الله تعالى على عموم المسلمين وعلى أبناء الطائفة بوجه خاص، به يهدي الله القلوب وتعطف الأنظار نحو نبي الرحمة محمد (ص) وأهل بيته الطاهرين، وبه نعرف فضلهم وحقوقهم ومظلوميتهم عبر التاريخ، وقد وفق الله لذلك رجالا سجّل التاريخ أسماءهم في الخالدين، حفظوا للمنبر قدسيته وكرامته وأدّوا وظيفتهم خير أداء، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير جزاء.

ومما يؤسف له مؤخرا استغلال المنبر لأغراض شخصية وجعله ظرفا لإثارة الفتنة والبغضاء بين أبناء الطائفة والانتقاص من أعلام الأمة والتعرض للمؤمنين وتحريك بعضهم ضد البعض الآخر بدوافع العصبية أو الهوى، مما ينحرف بالمنبر الشريف عن مهمته السامية، ويقدّم لأعداء الأمة والمتربصين بالطائفة خدمات مجانية تلحق بالمؤمنين الضرر والأذى.

وبهذا الصعيد ومما يؤسف له أن يتحدث الخطيب الشيخ فاضل المالكي في الخامس من شهر محرم هذه السنة ١٤١٧هـ، في مجلس عام بالكويت يحضره مختلف الناس، ومن على المنبر الشريف بحديث مؤلم هاجم فيه بعض العلماء العاملين وبعض المؤسسات الشيعية المعروفة بخدمتها للطائفة والعاملة برعاية المراجع العظام وتأييدهم، وأثار في حديثه الفتنة والتفرقة بين الأمة، محركا ضغائن وأحقادا عصبية، كما تحدث عن قضايا تغري سلطات البلدان المختلفة بالمؤمنين بطرح ادعاءات مفتعلة تحرّك فيهم روح التوثب والخطر بالعاملين، وغير ذلك مما استوجب سخط عموم المؤمنين، والمهم في هذا التوجه المنافي لحرمة المنبر ومما يؤسف له أنّ هذه الأوضاع الشاذة تكررت منه ببلاد مختلفة كالإمارات وقطر، وتسببت في طرده منها، إضافة إلى أوضاع مهينة في عمان أساءت إلى سمعة عموم اللابسين لزيّ طلاب العلم الكرام.

ونحن إذ يؤسفنا إزعاج أسماعكم الشريفة بمثل هذه القضايا نأمل منكم أن تتفضلوا بتوجيه الساحة لما ترونه يصلح الأمة ويدفعها نحو المعروف وينهاها عن المنكر أعاذنا الله منه، ومن أجل حصر مثل هذه الظواهر المؤسفة وعدم تفشّيها في الأمة.

وننتظر من مقامكم الشريف إبداء رأيكم الشرعي بشأن حفظ حرمة العلماء، وحرمة المؤمنين ونفوسهم، فهل يجوز لا سمح الله إعانة الظالمين

وتحريضهم على المؤمنين، وإثارة الفرقة والفتنة بين صفوفهم والتشهير بهم على المنابر.

ونحن بانتظار توجيهاتكم الكريمة وآرائكم المباركة، نسأله تعالى أن يديم وجودكم ويحفظكم علما للدين وملاذا للمؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كاظم عبد الحسين

١١ محرم ١٤١٤هـ ٢٩/٥/١٩٩٦م"

ما إن تلقى السيّد فضل الله تلك الرسالة حتى أجاب عليها سريعا في الكتاب التالي:

" لا يجوز هتك حرمة العلماء الأعلام المجاهدين في سبيل حفظ الإسلام في عقيدته وشريعته وحركته في الواقع الإنساني العام. كما لا يجوز التعرض للمؤمنين العاملين في سبيل الله والإساءة إلى كرامتهم وتعريضهم للأخطار لدى الظالمين، كما يحرم إثارة الفتنة بين صفوف المجتمع الإسلامي والتشهير بالمؤمنين، لا سيما إذا كان ذلك باستغلال المنبر الحسيني الذي أعدّه أئمة أهل البيت (ع) للوحدة بين المسلمين، ولإحياء أمر الإسلام في خط أهل البيت (ع) ولإطلاق الذكرى في مدى الزمن من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز المجاهدين من العلماء والمؤمنين في الخط الإسلامي الحسيني، وعلى ضوء ذلك فلا يجوز ومن الناحية الشرعية للمؤمنين إفساح المجال في الاستفادة من المنبر الحسيني لأي شخص يمارس هذا الأسلوب، كما لا يجوز تأييده.

التوقيع/ محمد حسين فضل الله"

يقول الباحث جودت القزويني:

" سخّر المالكي منبره في بعض الأحيان، بالاقتصاص من خصومه، وتوجيه النقد اللاذع لهم. وقد شمل نقده جملة من السياسيين المتصدين للعمل الإسلامي الذي كانت تعج بهم الساحة الإيرانية قبل سقوط النظام البعثي العراقي عام ٢٠٠٣م. كما هاجم عام ١٩٩٥م السيّد محمد حسين فضل الله، ونقده نقدا لاذعا بعد ترشيحه للمرجعية في لبنان، وعبّر عنه بالفقيه البيروتي. وقد أحدث نقده لمسلك السيّد فضل الله ضجّة في الأوساط الشيعية وتصدّى له بعض أفراد حزب الدعوة بإرسال بعض النسوة الدعاة، والاعتداء عليه في مجلس عام، وهو على منبره، وذلك برشه بقنينة من الحبر، وضربه بالسماعة التي كانت معدّة لإيصال حديثه للحاضرين.

وكانت قيادات الدعوة قد أقامت تحالفا مع السيّد فضل الله، بتثبيت مرجعيته والدعوة له. لكنّ السنوات التي تلت غيّرت من هذه المعادلات، خصوصا بعد سقوط نظام حزب البعث في العراق، وانضمام الدعاة للعملية السياسية، فلم يعد فضل الله المرجع الذي يرجعون إليه، خصوصا بعد نقد فضل الله لمسلكهم في العمل مع المحتلين، ورفضه مبدأ التعامل معهم. كما لم يعد المالكي نفسه يدور في دوائر النقد والحماسة الخطابية والانفعال، فقد هيّأ نفسه وأعدّها للمرجعية الدينية، وأخذ بتدريس بحوث الخارج، ونشر رسالته العملية.

وكما أصيب فضل الله بالخيبة والانحسار بعد ترشيح نفسه للمرجعية العليا، فإنّ المالكي كان نفسه قد وقع بنفس "الفخ" الذي وقع فيه سلفه (البيروتي) من قبل، ولم يجلب له منصب المرجعية سوى الانحسار عند جميع معارفه وأصحابه، حتى القدامى منهم" (تاريخ القزويني، ط١/٢٠١٢م،الخزائن لإحياء التراث، بيروت، مجلد ١٩، ص٣٠٨).

مؤسسة دار الإسلام تستنكر الأزمة المفتعلة ضد السيّد فضل الله:

دار الإسلام هي إحدى المؤسسات الخيرية في بريطانيا افتتحت عام (١٤١٤ هـ) (١٩٩٣ م) في ذكرى المولد النبوي الشريف. وهي مؤسسة إسلامية تفتح أبوابها لجميع المسلمين، وتمارس أنشطة ثقافية واجتماعية متعددة وتتصدى لحل مشاكل الجالية الإسلامية في جوانبها الاجتماعية والتربوية والعائلية وغيرها.

الأهداف : من أهمّها:

١. الدعوة والتبليغ إلى الإسلام وفق مبادئ مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)، إضافة إلى تعليم اللغة العربية وآدابها والتاريخ الإسلامي.
٢. إنشاء مراكز للبحوث تهتم بنشر فكر مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) إضافة إلى دراسات مقارنة للأديان والمناهج الفكرية الأخرى ،وذلك لتلبية الحاجات الثقافية للمسلمين في المملكة المتحدة وفي بقية مناطق العالم.
٣. تنمية الكفاءات العلمية وعقد المؤتمرات والندوات وغيرها من البرامج والنشاطات التي تحقق الأهداف الثقافية للمؤسسة.
٤. إصدار الكتب والمجلات والدوريات وغيرها من المطبوعات، وكذلك إنشاء المكتبات وإيصال الكتب الإسلامية إلى القراء المسلمين وغيرهم.

٥. جمع التبرعات والمساعدات وإيصالها إلى مواردها المحددة، واستلام الاشتراكات والمساهمات لدعم نشاطات المؤسسة وأعمالها.

مؤسسة دار الإسلام عندما رأت الحملة الضارية التي يتعرض لها السيّد فضل الله، من على المنابر والكتب والنشرات والتجمعات، قامت على الفور بنشر بيان استنكار، وحاولت أن تبرئ ساحة السيّد فضل الله من كل ما قيل عنه، وخصوصا لدى الجالية الإسلامية الشيعية في الغرب، ورأت أنّ ما يتعرض له السيّد فضل الله من تشويه وتسقيط مؤامرة خطيرة، وكل ما يُقال عنه فهو محض كذب وافتراء، ومخطط خبيث يستهدف إشغال الأمة الإسلامية عن الجهاد. وهذا نص البيان:

" بسمه تعالى: " واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أنّ الله شديد العقاب" الأنفال:٢٥

يا أبناء الأمة الإسلامية المجيدة

أيها المؤمنون المهاجرون في بلاد الغرب

يتعرض كيان المرجعية الدينية إلى مؤامرة خطيرة تستهدف تشويه سمعة مراجعنا العظام، والإساءة إلى مكانتهم في نفوس أبناء الأمة المرتبطين بهذا الخط المبارك. فلقد شهدت الأيام القليلة الماضية توزيع أوراق ومنشورات تفوح منها رائحة الكذب والافتراء والنفاق، وتكشف عن خيوط مخطط خبيث يستهدف إشغال الأمة الإسلامية، التي تخوض جهادها ضد أعداء الدين بمعارك جانبية بالنيل من أبرز رموز المرجعية الدينية الواعية سماحة آية الله العظمى السيّد محمد حسين فضل الله دام ظله الوارف. وإثارة الفتنة بين أبناء مدرسة أهل البيت (ع) وتصويرهم وكأنّهم خطوط متصارعة يكفر بعضها البعض الآخر، والأخطر من ذلك هو الزجّ بأسماء مراجع الدين وعلماء المسلمين في هذه الفتنة والذي هو مسلسل خبيث لا يستثني أحدا من المراجع العظام والعلماء المتصدّين في الساحة الإسلامية.

... إنّنا إذ نستنكر هذه الحملة الحاقدة والمنشورات المشبوهة، نحذر إخواننا المؤمنين وعلماء الدين المجاهدين وأبناء الأمة وخاصة الجاليات الإسلامية في المهجر من الوقوع في شراك هذه المؤامرة الخطيرة.

وفي نفس الوقت نناشد مراجعنا العظام وممثلياتهم في العالم بتحمّل مسؤوليتهم الشرعية باستنكار ونفي ما نُسب إليهم زورا في تلك المنشورات الصفراء. والتي جاء فيها ما يسيء إلى أحد مراجع الدين المجاهدين والإساءة إلى سمعة النجف الأشرف العلمية وهي تعاني من محنتها التاريخية في

هذا الحصار الظالم والانقطاع عن المؤمنين في الخارج. ونطالب العلماء الأعلام والشخصيات الإسلامية الواعية وأبناء الأمة بالتصدي لهذا المخطط الخبيث، وإطفاء نار الفتنة التي يحاول مروجو تلك المنشورات اشعالها في أوساط الأمة.

وإنّنا لعلى ثقة تامة من أنّ وعي أبناء أمتنا الإسلامية وتمسكهم بالمرجعية الدينية الرائدة لكفيلان في إفشال أي مخطط خبيث مهما كانت الجهة التي تقف خلفه، وأنّ أمثال هذه الأساليب الدنيئة لأعجز من أن تضعف العلاقة الفكرية والروحية التي تربط بين المؤمنين وعلمائهم الربانيين.

.. إنّنا في الوقت الذي نحيّي فيه مواقف آية الله العظمى السيّد فضل الله الشجاعة في خدمة الإسلام والدفاع عن فكر أهل البيت (ع) ومدرستهم الأصيلة، وترفعه عن الرد على تلك الوراق المشبوهة نؤكد بأنّ أبناء الأمة الواعين لهذا المخطط، والمدركين لأبعاده الشريرة، يشدّون على يده ويعاهدونه على أنّهم جنود أوفياء للإسلام وقيادته الحكيمة، وأنّهم ماضون قدما في التصدي لكل العابثين بمقدسات المسلمين، والساعين إلى تفريق كلمتهم، واستعدادهم للدفاع عن المرجعية المجاهدة التي كانت دوما هدفا لسهام أعداء الإسلام ومؤامراتهم الحاقدة.

العزّة والنصرة للإسلام والمسلمين والخزي والخسران لأعداء الإسلام، أعداء المرجعية. "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران:١٣٩) الأمين العام ".

تصدي فضل الله للمرجعية:

بعد عام فقط من الضجّة التي أحدثها السيّد فضل الله من جراء انتشار ذلك الشريط الذي يتحدث فيه حول تساؤلاته المتعلقة بكسر ضلع الزهراء (ع) وما جرى عليها من القوم، والزوبعة التي أحدثها، والصراع الدائر بينه وبين العلماء في قم، والقضية في ذروتها تفاجأ العلماء وهم في غليانهم عليه وعدم تقبلهم إياه لما لمسوا لديه من أفكار لا تتوافق مع متبنياتهم ورؤاهم العقائدية، وتوجهات المذهب، تفاجأوا ووصل لعلمهم بأن السيّد قد طرح نفسه مرجعا ومقلدا لأتباعه، ورأى في نفسه الكفاءة العلمية، والقدرة على استنباط الأحكام، كيف يكون ذلك حسب رأيهم، وهم لا يرونه صاحب قدرة وكفاءة حتى في أبسط الموضوعات المتعلقة بالعقيدة والتاريخ، فكيف الحال في الفقه والشريعة ؟! مما جعل العلماء يتصدون له، ويقفون أمامه صدا منيعا، ويحاربون مرجعيته بلا هوادة، ويندفعون بكل قوة وغليان وثورة للتهجم عليه ومحاربة مرجعيته المزعومة والمتوهمة كما صرّح لي أحد العلماء في لقاء حواري معه حول مرجعية السيّد فضل الله.

وها أنا ذا سأنقل ملابسات وحيثيات طرح السيّد لمرجعيته في تلك الظروف من خلال أنصاره وأتباعه فيما كتبوه من دراسات، وما جرّت عليه من متاعب ومنغصات وصدود وحرب ضروس قلّ أن شهدها عالم ومرجع من قبله بهذه الصورة والوحشية والقسوة :

" في عام ١٩٩٤م طرح سماحة السيّد فضل الله (قدس سره) مرجعيته بعد غياب الصف الأول من مراجع التقليد كالشهيد السيّد محمد باقر الصدر، والسيّد الخوئي، والسيّد الإمام الخميني، والسيّد الكلبايكاني وغيرهم (قدّس الله سرّهم).

وبعد أن أخذ المؤمنون يستفتون سماحته (قدس سره) في المسائل الفقهية وإلحاحهم عليه لطرح مرجعيته ليستفيدوا من آرائه الفقهية الميسّرة على قاعدة أنّ (الدين يُسر لا عُسر). فكان أن أخرج آراءه الفقهية بشكل أولي عبر كتابات جمعت فتاواه بشكل عام أطلق عليه اسم "المسائل الفقهية" في جزأين، وقد كتب السيّد في مقدمة الجزء الأول العبارات التالية التي تدل على اجتهاده، وأنّه يرى نفسه مجتهدا مطلقا والعمل برأيه مبرئ للذمة. يقول:

" فإنّ هذا الكتاب "المسائل الفقهية" هو مجموعة من الأسئلة والاستفسارات الشرعية الفقهية التي وُجّهت إلي من المؤمنين في أكثر من بلد من بلدان العالم الإسلامي والبلدان غير الإسلامية التي تضم الجاليات الإسلامية، طالبين فيها إبداء آرائي وفتاواي الفقهية في المسائل المتنوعة ذات الاهتمام والابتلاء عندهم.

وقد رغب إلي جمع من المؤمنين في إصدارها في كتاب ليسهل الاطلاع عليها والعمل بها، ممن يرون فيها براءة للذمة من جهة، وإطلالة جديدة من جهة أخرى، وقد استجبت لرغبتهم لأنّي أرى في ذلك الحجة والعذر بيني وبين الله والبراءة لذمة العاملين بها، راجيا من الله أن ينفعني بها وينفع المؤمنين، شاكرا للأخوة العلماء الذين توفروا على تنظيمها وترتيبها وإصدارها بهذا الإخراج الجيد.

والله المسؤول أن يوفقنا جميعا للعمل للإسلام في جميع مجالاته العامة والخاصة، وأن يلهمنا الصواب في اجتهاداتنا الإسلامية حتى نكون على بصيرة من أمرنا في كل شؤون ديننا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسم الله وله الحمد .. لا بأس بالعمل بهذه الرسالة فإنّه مجزئ ومبرئ للذمة إن شاء الله

محمد حسين فضل الله"

ثم علّق على كتاب "الفتاوى الواضحة" للشهيد السيّد محمد باقر الصدر، على إثر رغبة من بعض المؤمنين، وأخيرا أصدر كتابه الكامل المتكامل "فقه الشريعة" في ثلاثة أجزاء، ضمّ آراءه الفقهية الكاملة، ليسترشد بها مقلدوه في مختلف بلدان العالم.

ويجب الإشارة هنا أنّ سماحته (قدس ره) لم ينقطع أبدا من وقت مجيئه من النجف إلى لبنان عن مواصلة التدريس على مستوى بحث الخارج وتطوير الفهم المعمق للفقه والشريعة الذي أسهم في مناقشاته ومباحثاته وحواراته العلمية مع الفقهاء والمجتهدين في مؤتمراته في إيران وسوريا ولبنان وغيرها... ويعتبر سماحته (قده) أنّ تصديه للمرجعية تكليف وليس تشريفا، وقد يسأل البعض: هل أنّ سماحة السيّد (قده) عندما خرج من النجف كان مجتهدا أم لا ؟

إنّ لسماحة السيّد (قده) إجازة في الاجتهاد من السيّد الخوئي (قده)، وكلمة الشهيد الصدر فيه " دليل على تفوقه في مجالات عديدة " ووصوله إلى أعلى الدرجات التي يعطي من خلالها علما واسعا كباقي الفقهاء والمجتهدين. وكان السيّد الخوئي (قده) قد أعطى وكالة مطلقة لسماحة السيّد فضل الله (قدس سره) والتي لا تُعطى إلا للعالم المجتهد عادة. في الثمانينات عندما بدأ ببناء مبرة السيّد الخوئي (قدس سره) في الدوحة جنوبي بيروت، أرسل البعض إلى السيّد الخوئي (قدس سره) اعتراضهم على السيّد فضل الله (قده) بسبب ارتفاع ميزانية بناء المبرّة، فردّ السيّد الخوئي (قدس سره): " إنّ وكيلنا المطلق السيّد فضل الله هو مجتهد وله رأيه، ويده يدي ولسانه لساني".

إنّ عملية الانتقال من المرشد والعلامة إلى المرجع والفقيه وطرح المرجعية أدّى إلى جفاء بينه وبين حزب الله، وهذا الجفاء كان في جانبه الديني واختلاف النظرة إلى نظرية (ولاية الفقيه) فهو لم يؤيدها لأنها غير متضمنة بالفقه الإسلامي كما يقول معظم المراجع، ولكنّه تفهم هذه الولاية في إيران ضمن حدود حماية النظام الإسلامي، ولم يرَ سماحته (قدس سره) أنّ ذلك النموذج (ولاية الفقيه) يمكن تعميمه في لبنان أو العراق وبقية مناطق التواجد الشيعي والإسلامي بسبب التنوع الديني والمذهبي في تلك البلدان، وربما كانت هذه الخصومة (بل الأكيد) الأشد قسوة عليه من الصعوبات الماضية التي واجهها كونه كان الأب الروحي والمرشد لكل هذا الجيل، وقد كان يقول سماحته (قدس سره): " إنّ في كل بيت قد يختلف الأبناء مع آبائهم والعكس، ولكن يبقى الأب أباً، ويجب أن يستوعب أبناءه، وعلى الأبناء أن يبروا آباءهم". ولكن بعض هؤلاء الأبناء انجرفوا مع التيار ضد سماحته (قدس سره) بعد إعلان مرجعيته، وإنّ هؤلاء على أقسام كما يصنفهم سماحته (قدس سره):

القسم الأول:

الذين انطلقوا من أجل طموحاتهم أو مطامعهم الشخصية التي رأوها لدى الفريق الآخر ماليا أو جاهيا أو سياسيا أو تعصبيا، فانجرفوا في هذا التيار، لأنّه أريد لهم أن يبتعدوا أو يهاجموا أو يتهموا (وهم القسم الأكبر).

القسم الثاني:

الذين تحدّث الله عنهم :" ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون".

القسم الثالث:

وهناك الأشخاص البسطاء الطيبون الذين لم يستطيعوا الثبات أمام هذه الهجمة، ولم يملكوا الثقافة التي يستطيعون بها على أن يواجهوا الأمور من موقع دراسة عميقة، أو من الذين سقطوا تحت تأثير الإرهاب الفكري والتهديد في أرزاقهم وفي مواقعهم. وانطلقت مسابقة محمومة لاستقطاب الجمهور الشيعي العام واستدرار تأييده، إلا أنّ سماحته (قده) لم يكن يكترث، ومضى بعيدا عن ذلك الصراع ... وقدّم سماحته (قده) الصورة الإسلامية المثالية مستندا لجرأته في الحق وشجاعته.

إنّ هذه الحملة وبشكل مباشر وغير مباشر ساهمت بالتجرؤ على العلماء، فأصبح الصغير والكبير يطال سماحته (قده) وبعض العلماء بعد أن شُرّعت الأبواب لذلك ... !! بالإهانة والسباب والشتيمة والتشهير، والهدف الأساس تحجيم مرجعية السيّد فضل الله (قده) وإضعافها وعدم انتشارها والتقليل من تأثيرها. إلا أنّ سماحته (قده) استمر رغم كل المؤامرات التي حيكت ضده من تزوير للحقائق والعقائد واستهدفت حتى طهارته ومأكله، ونعته بـ (الضال المضل والمارق .. وغيرها) بقي صامدا مثل الجبل، لم تهزّه عواصف التخلف، ولم تهزّه الزلازل الداخلية أو الخارجية. وطرح نفسه مرجعا لم يعجب قطاعات من الإسلاميين الذين أسرّوا في دوائرهم للمقربين عدم أهلية السيّد ولياقته للمرجعية، وتلاقى عند هذه النقطة جماعة من الإسلاميين المسيّسين وأخرى من التقليديين المتزمتين.

كان يواجه الحملات التشويهية من بعض الجهلاء والمتعصبين بالصبر والمحبة والحكمة والموعظة الحسنة، وكان دائما يردد كما كان يردد رسولنا الأكرم (ص): " اللهم اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون" " اللهم اغفر لقومي إنّهم لا يعلمون".

وواجهها أيضا بالسكوت والإهمال وعدم التحدث فيها، ولم يكترث لها ولم يرد على أبواقها، وأهمل كل رموزها مرددا الحكمة القائلة :" إنّ الصمت إجابة بارعة لا يتقنها الكثيرون" "... وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما".

والنتيجة ؟!

جاء الكثيرون مجموعات وأفرادا وهم يعتذرون ويطلبون المسامحة، والآن هناك الكثير ممن يعيش عقدة تأنيب الضمير، بعد أن ارتحل (قده) من دون أن يُطلب منه المسامحة في حياته. كما ولم تتمكن الخصومات من استدراجه إلى مربع العصبيات بمختلف أشكالها، وقد مكنته ذخيرته العلمية والمعرفية العميقة وعقله الفذ من إدارة هذا الخلاف بحكمة قلّ نظيرها، وكان سماحته (قدس سره) دائما يردد: " إن كان هذا الفكر لله فالله يتكفل به، وإن لم يكن لله فأنا لا شغل لي به فليذهب مع الرياح ...".

والشيء المفاجئ أنّ سماحته (قدس سره) استطاع أن ينتصر على كل تلك الحملات، وهي حقيقة أثبتتها نتائج نفوذه وفي أعداد مقلديه ومحبيه ومريديه في العالم من المسلمين وغير المسلمين، وكل منّا يرى كثيرا قوّة ذلك النفوذ وحضور سماحته (قدس سره) المميز ومكانته الرفيعة في المشهد الفكري والديني والإنساني إقليميا وعالميا، إلا الذين لا يريدون أن يروا ذلك ... !!

ففي التاريخ المرجعي ظهر ما يشبه ذلك حيث كانت بعض المرجعيات هدفا لهرطقات العوام وتحريض بعض الخطباء والعلماء، لكن مرجعيات الإصلاح والتجديد بقيت، ونُسي الآخرون، وهو ما تكرر وسيتكرر بقوّة اليوم.

إنّ تمترس بعض المعممين وبعض المرجعيات تحت زيف الادعاءات ضدّه (قدس سره) دون التأكد من صحّة الأقوال المنسوبة أو زيفها، أفقدها المصداقية وأسقط شرطٌ أساسي من شروط رجل الدين والمرجعية وهو التقوى والورع والخوف من الله (سبحانه وتعالى) حين صدّروا فتاوى وحكموا غيابيا من دون أن يقرأوا قراءة واعية أو يسألوا! والحكم من دون سماع ولا قراءة لا دين فيه، لأنّ الحق أن تقول رأيت، والباطل أن تقول سمعت، وأكثرهم بنوا أحكامهم على السماع، والشيطان يكون موجودا عندما تحكم على شخص دون أن تسمع منه، وأبسط قواعد القضاء قبل إصدار الحكم أن تسمع من الطرفين ... !! وكما يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع) : " ما بين الحق والباطل أربع أصابع".

إنّ محاولة إسقاطه من خلال اتهامات باطلة ترتبط بالسمة الحركية المنفتحة التي تميّزت بها مرجعية السيّد فضل الله (قدس سره) والتي خرجت عن المألوف والموروث عند الناس من خلال اجتهاداته التجديدية

المعاصرة حيث شكّلت عقبة أمام امتداد للمرجعيات الأخرى من خلال تمايزه عن المرجعيات التقليدية، بانفتاحه على الناس ومعايشتهم وحمل همومهم وحل مشاكلهم، ولقائه بهم في كل المناسبات، وتصديه للكثير من الواجبات اليومية، وعيشه مع الناس، وانفتاحه على كل المسلمين وغيرهم من خلال موقعه في لبنان، مرجعية تتحرك في كل الساحات وتتصدى لكل المشكلات وتواكب العصر.

وبعد ذلك شارك في الحملات التشويهية المتخلفون والحاقدون والمتزمتون وأصحاب العقول الضيّقة، والخرافيون والمغالون وأصحاب المصالح المادية وغيرها، وأيضا الذين لم يفهموا القرآن ولا الإسلام إلا معلبا في أطر السياسة الحزبية والتبعية العمياء.

لقد أعطى سماحته (قدس سره) درسا مهما في السياسة، فرغم ظهور وجود اختلاف يتعلق بالمرجعية وقضايا فقهية سياسية بينه وبين "حزب الله" إلا أنّ هذا الاختلاف لم يدفعه إلى تشكيل حالة مضادة، رغم الإمكانات المادية والمعنوية. وهذه نقطة جوهرية في تقييم حياته وسيرته. لذلك لم يكن لديه مشكلة أن يكون بينه وبين "حزب الله" الرسمي مسافة، دون أن يؤثر ذلك سلبا في مواقفه من المقاومة والتي برزت واضحة وجلية في حرب تموز ٢٠٠٦م. وفي كل المحطات التي كانت تتعرض فيها المقاومة للضغط والتآمر.

لقد كان سماحته (قدس سره) يتحرك بمنطق العالم الذي يمكن للجميع الاستفادة منه، على أساس قاعدة أرساها للجميع (الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية) وهذه هي سمة القائد الحكيم ورجل الدين في بعده الإنساني والإسلامي" (آية الله محمد حسين فضل الله شمس لن تغيب، الشيخ مصطفى صبحي الخضر الحمصي، الشيخ مهدي خليل جعفر، ط١/٢٠١٠م، دار المحجة البيضاء،بيروت، ص٤٦، العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله مشروع نهضة الأمة، محمد حسين ترحيني، ط١/٢٠١١م،دار المحجة البيضاء،بيروت، ص٤٤).

أرأيت أيها القارئ اللغة التي باتت متداولة بين أنصار فضل الله والمدافعين عنه وعن مرجعيته وأفكاره ومدرسته من جهة، والذين يحاربون مرجعيته ولا يؤمنون بأفكاره ولا به مفكرا أو عالما من جهة أخرى ؟! فكل من لا يؤمن بمرجعية فضل الله، سواء من المراجع أو العلماء أو المعممين أو المثقفين فهم في نظر أنصار فضل الله والمدافعين عنه باستماتة، كل هؤلاء متخلفون وحاقدون ومتزمتون وأصحاب عقول ضيّقة وخرافيون ومغالون وأصحاب مصالح مادية، ولا يفهمون القرآن ولا الإسلام إلا من خلال التحزب والسياسة والتبعية العمياء للرموز والأشخاص. وهم يؤمنون ويتمسكون باتهامات باطلة ضد السيّد، وهو بريء منها كلها، والمعممون الذين

يتهجمون على السيّد فضل الله يأخذون بادعاءات زائفة، من دون تحقيق، ومن هنا فهم لا مصداقية لهم، وهم أبعد ما يكونون عن حقيقة رجل الدين، حيث لا تقوى ولا ورع ولا خوف من الله تجد لديهم. يُضاف لهذا كله هم جهلاء ومتعصبون، ومسيسون وتقليديون لا يؤمنون بمن يجدد لهم دينهم كالسيّد فضل الله.

وأغلب الذين هاجموا السيّد فضل الله انطلقوا من أجل طموحاتهم أو مطامعهم الشخصية التي رأوها لدى الفريق الآخر ماليا أو جاهيا أو سياسيا أو تعصبيا، فانجرفوا في هذا التيار، لأنّه أريد لهم أن يبتعدوا أو يهاجموا أو يتهموا.

ما عاد للتقوى مجال، ولا للخلق مكان، ولا للأعراض حرمة، في ظل الصراع على الأسماء، واتباع الهوى والتفرق لأتفه الأسباب، وصار أصحاب المذهب الواحد وهو المذهب الذي يقولون عنه بأنّه المذهب الحق يتصارعون وكل يكفر الآخر، ويتهم الآخر ويشتمه بأقذع الألفاظ على آراء ووجهات نظر، ونتائج رؤى وبحوث، فالفريق الثاني في المقابل لا يتورع عن استخدام كل الأسلحة والعبارات والشتائم في حق السيّد فضل الله، فهو ضال ومضل وكافر وخارج من المذهب، بل عميل للمخابرات الأجنبية، هكذا بكل بساطة.

وفي ظل هذه الاتهامات كان السيّد صابرا محتسبا على الأذى في جنب الله، ففي الوقت الذي يحاربه الجميع، ويحكم عليه بالضلال والإضلال وكتبه يعدها بعض المراجع من كتب الضلال، كان السيّد يقول : " لقد تعلمت من رسول الله (ص) ذلك، عندما قرأت سيرته، ورأيت أنّه كان مفتوح القلب لكل الناس، وأنّه كان يقول :" اللهم اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون". وتعلمت ذلك من علي (ع) عندما كان يقول : " احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك".

إنّني أتألم مما يتحرك به هؤلاء، ولا أدّعي لنفسي أنّي أبتعد عن الأحاسيس والمشاعر، فقد كان رسول الله (ص) كما حدّثنا الله تعالى عنه يحزن، وكان يعيش الضيق مما يمكرون، لذا قال الله له: "ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون"، لكنّي أحاول دائما أن أدرس نقاط الضعف التي فرضت عليهم ذلك .. كنت أدرس التخلف الذي يعيشون فيه، والجهل الذي يعيشون فيه، والذاتيات التي يدورون في فلكها، ولذلك كنت أشفق عليهم من أنفسهم أكثر مما أشفق على نفسي منهم.

إنّني أؤمن بحقيقة وهي أنّ عليك أن تحب الذين يخاصمونك لتهديهم، وتحب الذين يوافقونك لتتعاون معهم. إنّ الحياة لا تتحمل الحقد .. الحقد موت والمحبة حياة، وأنا أريد أن أحيا ولا أريد أن أموت. من حقد عليّ

أستطيع أن أقول إنّني لا أحقد عليه، وربما يتحول هذا اللاحقد إلى شيء من المحبة العقلية .. رغبة في أن يبتعد هذا الإنسان عما هو فيه من خطأ، أو عمّا هو فيه من تخلف." (شمس لن تغيب، مصدر سابق، ص٦٨).

ولنستمع الآن لرأي حول ملابسات طرح فضل الله لمرجعيته في تلك الظروف، وذلك من قبل عنصر محايد، واسم لا يُعد من أنصار فضل الله وتلامذته، ولا من أعدائه ومحاربيه، وهو الباحث الدكتور جودت القزويني، يقول:

" وفي عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، دفع مجموعة من تجّار الشيعة الخليجيين السيّد فضل الله إلى التصدي للمرجعية الدينية، فأعلن مرجعيته، ودخل في تحالف مع بعض التنظيمات الحزبية الإسلامية. وكان حزب الدعوة الإسلامي العراقي قد طرح اسمه، وروّج له وكافح أفراده في الدفاع عنه، حتى دخلوا في صراعات مع أطراف وشخصيات كانت تقف في الصف المناوئ له. بعد إعلان السيّد فضل الله مرجعيته الدينية تصدّى له مجموعة من المراجع الدينيين، فأصدروا ضدّه الفتاوى والبيانات واتهموه بانحراف العقيدة من خلال التشكيك ببعض القضايا التاريخية التي أصبحت وكأنّها مفردات عقائدية لا جدال فيها.

وتحرّك السيّد جعفر مرتضى العاملي للرد على السيّد فضل الله في موضوع تنزيه السيّدة فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد عليهما السلام، من الاعتداء عليها من قبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، الذي استبعد السيّد فضل الله حدوثه، وشكك في المرويات التي نسبت حوادث الاعتداء هذه إليه. فأصدر السيّد جعفر سبعة كتب في مناقشة هذه المسألة، كما أصدر السيّد ياسين الموسوي كتابا ناقش فيه منهج السيّد فضل الله في الموضوع نفسه. وقد تصدّى مجموعة من أفراد حزب الدعوة إلى السيّد ياسين، واعتدوا عليه بالضر بمنطقة السيّدة زينب في دمشق، مما أثار حفيظة علماء الشيعة أكثر مما كانوا عليه.

وقد شغل هذا الصراع الساحات التي يعيش بها العراقيون في دول المهجر (إيران،بريطانيا،سوريا) وكأنّه صراع مبرمج، يراد به النيل من الجسم الشيعي وتبضيعه بالصراع الضدّي. كما حصل قبل هذه المرحلة من صراع السيّد محسن الحكيم مع الشيخ محمد الخالصي، والسيّد أبو القاسم الخوئي مع السيّد محمد الشيرازي. وبمقدار ما كان يتمتع به السيّد فضل الله من نفوذ وسطوة تميّز بهما في عقد الثمانينات الميلادية، فإنّ عقد التسعينات، وهو العقد الذي أعلن في منتصفه مرجعيته، قد حسره لدى القطاع الشيعي، وحوّله إلى ما يشبه الشخصيات الرسمية في تحركه وعلاقاته.

أما الطروحات الفكرية التي كان ينادي بها السيّد فضل الله في إصلاح المرجعية الدينية وغيرها، فلم يتمكن من تحقيقها بعد تصديه للمرجعية، بل أثقل بالحملة المنظمة التي استهدفته شخصيا، وأضعفت مركزيته لدى علماء الشيعة. وعندما حللت بيروت عام ٢٠٠١م، لم أرَ أثرا لأي نوع من التناحر على الساحة اللبنانية، في حين كان لهيب المنازعات يشتد عند إقامتنا في لندن بين بعض الروحانيين وبين مجاميع أفراد حزب الدعوة" (تاريخ القزويني، ط١/٢٠١٢م،الخزائن لإحياء التراث،بيروت، مجلد ٢٤، ص٢١).

أما السيّد حسن الكشميري فله رأي آخر مغاير تماما ومثير حول ملابسات مرجعية السيّد فضل الله، يكتبه في كتابه " محنة الهروب من الواقع ". يقول : " لقد سئلت مرارا عن طبيعة الخلافات بل (القطيعة) بين آل الحكيم والسيّد فضل الله ثم ما هي الخلافات بينه وبين الإيرانيين في الوقت الذي كان هو الشخصية اللامعة في صدر الوفود التي تدعى للحضور في المناسبات الإيرانية إضافة أنّه متضامن عنيد مع الجمهورية الإسلامية وخط الإمام الخميني فما الذي حصل ؟؟؟ طبعا سيكون جوابي صعبا وأرجو أن يحتمله القارئ الفطِن.

بالنسبة لعلاقة السيّد المرحوم فضل الله مع آل الحكيم فسبب ذلك هو أن المرحوم كان شديد التعلق العلمي بالمرحوم الخوئي، وسبق له أن أعلن حين وصوله إلى لبنان أعلمية الإمام الخوئي، وكان هذا بحياة السيّد الحكيم، مما فسّره الحكيميون بأنّه عدوان سافر عليهم، رغم أنّه ابن خالة أولاد السيّد الحكيم وأنّه لم يراع هذه الصلة السببية. لذا ما أن توفرت الفرصة حتى انتقموا منه أشدّ انتقام.

أما الإيرانيون: فإنّه بادر من اللحظة الأولى بالتضامن مع الإمام الخميني منذ بداية الثورة، لكنه لم يكن يرى ولاية الفقيه بنفس المساحة التي يراها الإمام رضوان الله عليه، بل ويتفق ورأي الإمام الخوئي بأنّها سلطة صغيرة وبسيطة، لكن الذي دحرج كرة الثلج بينه وبين الإيرانيين تصريحه في بعض اللقاءات بلبنان بأعلمية الإمام الخوئي رضوان الله عليه، فكان هذا التصريح القشّة التي قصمت ظهر البعير. وهنا يجدر أن أذكر أنّ الإمام الخوئي رحمه الله زوّده بوكالة خاصة ونادرة، ويقول فيها بأنّ قوله قولي ويده يدي ورأيه رأيي. ثم أنّ الإمام الخوئي أثبت هلال عيد الفطر لثلاث سنوات بموجب ثبوته عند السيّد فضل الله رحمه الله، ولم تحدث بين الرجلين أية برودة في العلاقات.

ولكن بعد وفاة الإمام الخوئي وتنصيب الإمام السيستاني خليفة له نشط الإيرانيون حينها للترويج لمرجعية المرحوم السيّد الكلبايكاني إلا أنّ السيّد فضل الله صرّح في إحدى تصريحاته القوية بأنّ السيستاني هو الأعلم. ثم

تكررت نفس الحالة بعد وفاة المرحوم السيّد الكلبايكاني حينما رشّح الإيرانيون مرجعية المرحوم الشيخ الأراكي، فتوالت مواقفه السلبية تجاه المرجعيات الإيرانية. وماذا بعد:

كان من المتوقع أن تقوم مرجعية النجف الأشرف بتقدير ذلك له، إلا أنّهم استصحبوا مواقفه الداعمة للإمام الخميني رحمه الله. وانفجر الموقف حينما أرسل له المرجع الجديد وكالة تافهة جدا كالوكالات التي ينشرها على من هبّ ودب. فرفضها وأعادها إليه كونه يرى نفسه تلميذا مبرزا للإمام الخوئي. وتصدّى بعد هذا للمرجعية بنفسه ثم أخذ يصرّح بعدم الأخذ بالأعلمية ولم يعد يراها شرطا في التقليد، وهنا حصل التصادم، حيث سعى الإيرانيون إلى نشر مرجعيتهم في الخارج على ضوء قاعدة ولي أمر المسلمين، وهذا التصدي من المرحوم في زمانه شكل تقاطعا صعبا، وجرى التفاوض معه عبر شخصيات زارته، لكنّه أصرّ على خياره فكان ما كان وحصل ما حصل.

لا يخفى أنّ هناك خطوط مرجعيات أخرى دخلت على الخط رغم خلافاتها، وأصبح المرحوم هدفا واحدا لكل هؤلاء الذين جمعتهم مصلحة مشتركة على تسقيطه !!! وكما يقول المثل :" حينما تسقط الضحية تكثر عليها السكاكين" (ط١/٢٠١٣م، دار ومكتبة الحقيقة، بغداد، ص١٨٧).

السيّد جعفر مرتضى العاملي يعاود مراسلة السيّد فضل الله ويرد عليه بالرسائل:

مازال السيّد جعفر مرتضى العاملي يحتفظ بحبال الود مشدودا بينه وبين السيّد فضل الله على ما يبدو، ولا يود أن ينقطع ذلك الحبل، ومازال يحمل له الود ويخاطبه بما يليق به من تقدير ومكانة وعبارات الإجلال من علامة وحجة وغيرها، وهي تعد من محاولاته الأخيرة حسب ما يذهب إليه مع السيّد فضل الله، لعله يتراجع عن آرائه في أقواله وما صدر منه في تفاصيل الهجوم على الزهراء (ع)، ثم يبين أنّه ما يبادر بالكتابة وذكر الملاحظات والمراسلات إلا من باب الحرص والمحبة على السيّد فضل الله، ومن أجل الحفاظ على الذهنية العامة من اللبس في فهم مراد السيّد من أقواله الملتبسة.

ففي يوم الأربعاء ٢١ أغسطس ١٩٩٦م، الموافق ٧ ربيع الثاني ١٤١٧هـ بعث السيّد جعفر مرتضى العاملي برسالة مطولة جدا إلى السيّد فضل الله، لم يترك فيها شاردة ولا واردة لها علاقة بفضل الله إلا ذكرها، وحتى الأمور الشخصية جاء على ذكرها، بجانب ما يأخذه عليه من أقوال وآراء عديدة، وقد ورد الجديد منها إضافة لما جرى على الزهراء (ع)، ومنها شرح فضل الله

لدعاء كميل، وعصمة الأئمة (ع)، واتهامه للعلماء، والشهادة الثالثة في الأذان، والشفاعة، وإقامته صلاة الجمعة ... وغيرها الكثير.

وهذا نص كتاب العاملي المطول لفضل الله، نورده كاملا على الرغم من طوله لأنّه يلخص محور الخلاف بين فضل الله ومناوئيه، بل إنّ هذه الرسالة تلخص قضية فضل الله كلها، وتذكر مواردها، ومواضع الاختلاف، وتمشي بالقضية من بدئها إلى ما وصلت إليه من تأزم، حيث كانت البداية حول الرأي الذي طرحه فضل الله حول الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة، وبعدها توالت أفكاره وآراؤه ومخالفاته التي هيّجت عليه العلماء فضلا عن العوام، فضلا أنّ فيها الكثير من التعريض بفضل الله، والإثارات الكثيرة، والتي من أبرزها التشكيك في أنّ السيّد من الممكن أنّه يستوفي دراسة ما يطرح دراسة معمّقة وموسعة، فهو يتناول الكثير من المسائل والأحكام والقضايا والبحوث، والتي يحتاج الواحد منها لدراسات موسعة وقراءات معمّقة، وهذا ما يستبعده العاملي، ولا يظن أو يميل إلى أنّ السيد فضل الله يقوم به، مما يعد قصورا واضحا :

" بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الطاهرين

سماحة العلامة الجليل الحجّة السيّد محمد حسين فضل الله حفظه المولى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد.

فإنّني أسأل الله أن يحفظكم ويرعاكم ويسدد في سبيل الخير خطاكم إنّه ولي قدير.

والغرض والسبب من مزاحمتكم هو أنّني استمعت إليكم في هذه الليلة وأنتم تجيبون على بعض الأسئلة في درس التفسير. وكان منها سؤال حول الثابت والمتحول، وما كتبتموه في شرح دعاء كميل حول دعاء الإمام علي (ع) بمغفرة ذنوبه، وكان استماعي إلى ذلك بصورة اتفاقية وعفوية.

والذي أثار اهتمامي هو إجابتكم على الشق الثاني، أني بقيت بحاجة إلى بعض التوضيح ولكنّها بشكل عام كانت جيدة، وقد كنت أتمنى أن أجدها مكتوبة في أول كتاب شرح دعاء كميل، مع التذكير والإلماح إليها بين الفينة والأخرى في ثنايا الكتاب وذلك لأنّ الناس العاديين لا يفهمون الأمور عادة إلا بعد التفهيم والإيضاح، ولا يلتفتون إلى هذا التوجيه الذي ذكرتموه في درس التفسير في هذه الليلة.

أما أهل العلم فإنّهم لن يصدقوا عليكم أنّكم لا تؤمنون إلا بالعصمة في التبليغ، وأنتم تصرحون بأنّ العصمة تكوينية، إلا إذا كنتم تقصدون: أنّها تكوينية في خصوص التبليغ. ولم يصدر منكم تصريح بذلك. واستفادة ذلك من أقوال أخرى لكم أو من لوازم أقوالكم لابدّ أن ينظر فيه ويناقش.

أما بالنسبة لسائر ما ذكرتموه في الإجابة على السؤال فإنّني لن أتوقف عنده، فإنّ المهم هو أنّ إجابتكم حول هذه النقطة كما قد جاءت سديدة إلى درجة كبيرة، ولكن يا حبذا لو أضيفت على شرح دعاء كميل في المقدمة، وفي أكثر من موضع آخر منه، ولا سيّما في الصفحات ٧٢ و٨٢ و ٩٤ و ١٦٩ وغيرها ، حتى لا يقع الناس في الالتباس من الناحية الأسلوبية في التعاطي مع أمير المؤمنين (ع). وهذا هو الذي يثير أولئك الحريصين عليكم، وعلى الذهنية العامة.

وأحب قبل أن أنهي حديثي عن هذه النقطة أن ألفت النظر إلى نقطة أخرى جانبية، وليست بذات أهمية، وهي أنّكم بادرتم وبدون مقدمات إلى اتهام بعض الناس وخصوصا من المشايخ بالتحامل عليكم. ولم أجد أحدا قد تحامل عليكم في موضوع السؤال لا من موقع العقد النفسية التي يعاني منها، ولا من أي موقع آخر. وقد تكررت مهاجمتكم للذين يحاولون نقد فكركم بطريقة علمية بأنّهم معقدون نفسيا، أو لا يفهمون أو ما إلى ذلك.

وفي رأيي أن ترفعكم عن هذا كان أولى وأجدر، إذ ليس الاتهام بهذه الطريقة، والتنقيص على أهل العلم والروحانيين بالأمر الذي يكون مقبولا، لا سيّما مع إلزامكم لهم بلزوم حسن الظن بكم، استنادا إلى الحديث المشهور: ضع أمر أخيك على أحسنه، وغيره من آيات وروايات. ومن الواضح أنّ هذا النحو من التعاطي الجارح قد يغري بمواصلة النقد وتحويل قضايا الفكر إلى قضايا شخصية قد يضر بالفكر، ويسيء إلى الجميع، ولا يحقق شيئا. المهم، أنّ نقد الفكرة لا يعني سوء الظن، ولا يعني أيضا وجود عقدة نفسية وما إلى ذلك. وليكن ثمة عقد أو عقدة نفسية، فهل يضر ذلك بالنقد العلمي الموضوعي والرصين؟! إلا إذا كنتم قد اتخذتم قرارا بمنع أي من الناس من ذلك أيضا.

أخي الكريم:

هناك أشياء كثيرة كنت أحب أن أقولها لكم، ومناقشتها معكم بصراحة ودقة، ولكنّني أخشى أن لا يتسع لها صدركم، فإنّكم تبدون أحيانا، ولا سيّما في المواقع العامة على درجة من الانفعال، ولا أدري السبب في ذلك، خصوصا إذا كان ثمة نقد لفكركم، ولتصوراتكم، وعلى الخصوص إذا ظهر هذا

النقد إلى العلن. مع إنّكم لا زلتم تدعون الناس إلى أن ينقد بعضهم بعضا بموضوعية ونزاهة.

وإنّني وإن كنت أؤيد فكرة أن يكون النقد للأشخاص الذين أصبحوا في نظر الناس في مستوى الرمز، في خلف الأبواب المغلقة، حتى لا تنتشر الفكرة قبل بلوغها مرحلة النضج، والوضوح التام .... ولكنّني أعتقد أيضا أنّ إطلاق الفكرة في الهواء الطلق، وطرحها للتداول فيما بين الناس سواء قبل أو بعد نضجها يستدعي المبادرة إلى طرح التصحيح أو التوضيح في العلن أيضا، وبنفس المستوى من الانتشار، وذلك من أجل تدارك الخلل الذي ربما ينشأ من طرحها قبل اكتمال نضجها، وقبل استجماعها لعناصر القبول أو الرد من وجهة نظر علمية. وذلك لأنّ الذهنية العامة للناس العاديين لا تستطيع هي أن تواصل عملية البحث العلمي للوصول بالفكرة إلى المستوى الذي يجعلها صالحة لأن تكون جزءا من مفاهيمها، ومن ثقافتها بصورة عامة.

أخي الكريم:

إنّني أحب لأي حوار أن ينتهي إلى وفاق إن أمكن ... وأحب كذلك له أن يستعمل الوسائل التي تعطي الفكرة المزيد من الوضوح والصراحة. فلا يحتاج لا إلى التأويل ولا إلى بيان المقصود. ولكي تكون قبل كل شيء على بينة من الأمر فيما يرتبط بحقيقة قناعاتي تجاهكم فإنّني أورد لكم بداية فهرسة سريعة وعابرة لعناوين بينة لتجربتي معكم، وتجاهكم، وذلك منذ أن عرفتكم في الماضي البعيد، وإلى يومنا هذا.

أخي الكريم:

لقد تأكدت معرفتي بكم في النجف الأشرف في الستينات، وقد كنتم في مقتبل حياتكم العلمية، وكنت أنا في بدايات دراستي، وقد ترسّخت في نفسي المحبة لكم، والثقة بكم، مع مزيد من الاحترام والتبجيل والتقدير. ثم تركتم النجف الأشرف في أواسط الستينات، ولعلّ ذلك قد كان في سنة ١٩٦٦م. ش. ثم غادرت أنا النجف إلى قم المشرفة في سنة ١٩٦٨م، أيضا. وكان التواصل فيما بيننا ضعيف (هكذا!) آنئذ. ثم زاد هذا التواصل بعد ظهور الثورة الإسلامية المباركة.

ولكنّ الشيء الذي أؤكد عليه هو أنّني كنت أسمع عنكم وعن نشاطاتكم، وعن عملكم الدؤوب ما يثلج صدري، ويزيدني حبا لكم وإعجابا بكم. وقبل سنوات يسيرة بدأت تطرق مسامعي تلميحات وتصريحات حول آراء لكم خاصة بكم في شؤون الدين، وفي قضايا العقيدة وغيرها، ولعلّ أول شيء سمعته عنكم هو مسألة الشهادة بالولاية لعلي (ع) في الأذان والإقامة.

وسألتكم أكثر من مرّة عن هذا الأمر، ولعلّ أول جواب سمعته منكم هو أنّكم تريدون التأثير على ذهنية الناس وترويضهم فيما يرتبط بقضايا الدين، حيث إنّ عليهم أن يفهموا: أنّ بالإمكان ترك هذا المستحب أو المباح، وأنّه كغيره من المستحبات والمباحات، أو غيرها يمكن لهم أن يتركوها، فقد كادت الشهادة بالولاية تصبح في ذهنية الناس كالأمور الواجبة التي يستنكرون تركها بحدّة وبشدّة.

وقد أقنعتني آنيا هذه الإجابة، ثم مرّت الأيام، وبدأنا نسمع إجابات أخرى حول هذا الأمر. لا سيّما بعد أن استمر الالتزام الصارم باستبعاد الشهادة من الإقامة، وتوالت الأسئلة حول سبب ذلك، مع أنّه قد كان بالإمكان أن تُذكر حينا وتُترك حينا، ليعلم الناس: أنّ تركها ممكن وأنّها ليست مفروضة. وسألتكم أنا شخصيا عن هذا الأمر في طهران وفي قم، وفي منزلكم في لبنان. فأجبتموني في لبنان بالإجابة السابقة. وفي قم وطهران اختلفت طبيعة الحوار، فمرّة قلتم لي هذا الأمر بأنّ هناك قولا بأنّ الإقامة جزء من الصلاة، وقلت لكم آنئذ: فاجتهدوا أنتم في المسألة وقولوا: إنّها ليست جزءا منها. هذا بالإضافة إلى أنّه ليس كلاما آدميا مبطلا للصلاة، ولذا يجوز الدعاء فيها.

وإذا لم تكن الإقامة جزءا من الصلاة فما المانع من إدخال قول الآدمي فيها لا بعنوان الجزئية، حتى لو لم يكن من الأمور الدينية الموجبة للمثوبة أصلا. وقلتم: إذن لماذا لا ندخل الشهادة هذه في التشهد أو في التسليم. وقلت لكم: أولا: إنّ البعض من المتقدمين كان يقول: السلام على النبي والوصي ورحمة الله وبركاته. فقد أدخل السلام على الوصي في التسليم. وثانيا: هناك بين الصلاة التي يبطلها كلام الآدميين إذا لم يكن دعاء أو نحوه، وبين غيرها كالأذان والإقامة. فإنّها لا يبطلان بذلك. وبعد أخذ ورد فقد صليتم عندنا في السرداب، وذكرتم الشهادة بالولاية وبعد فراغكم قلتم: لقد قلناها، زين ؟ الخ ...

فإن كان مبطلة فلماذا قلتموها، فهل أبطلتم عمدا أذانكم أو إقامتكم أو صلاتكم. وإن لم تكن مبطلة فلماذا الإصرار على تركها، وغرس هذا الترك بطريقة عمدية في أذهان العوام والناشئة، حتى يشب عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير. ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه القضية لم تحدث في نفسي أي أثر تجاهكم، وبقيت على حبي لكم، وعلى ثقتي وإجلالي وإكباري لمقامكم الشريف.

ثم جاءت قصة الشريط المسجل حول السيّدة فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام. وقد فهمت آنئذ أنّ الشيء الذي تشكون فيه حقا هو قضية كسر الضلع، حيث لا يمكن لأحد حلف الأيمان المغلظة بأنّ ذلك قد حصل قطعا،

لأنّ النصوص حوله أقل من النصوص التي تحدثت عن سائر ما جرى على الزهراء (ع) من مصائب. هكذا كنتم تقولون لنا وأنتم عندنا في البيت في قم المشرفة. مع أنّكم قد ذكرتم في رسالتكم الثانية التي أرسلتموها لي إلى قم: " .... وهكذا وردت أحاديث متعددة حول كسر الضلع، ونحوه من الفضائع ...". وقلتم في رسالتكم الثانية أيضا عن ما جرى على الزهراء (ع) من مصائب: " ... إنّ كثيرين من علمائنا رووا هذه الروايات في كتبهم: بحيث أنّه إذا ناقش البعض في سندها، فإنّ عمل العلماء مع الشهرة التي تصل بالقضية إلى مستوى التسالم، وضروريات المذهب، قد يجبر هذا الضعف". ثم قلتم :" إذا كنت قد تحدثت عن سقوط الجنين بأنّه قد يكون في حالة طبيعية طارئة، فإنّني لم أكن آنذاك مطلعا على مصادره".

ثم إنّكم كنتم في قم المشرفة تثيرون قبل ذلك وبعده بعض التساؤلات أمام طلاب العلوم الدينية، مثل مسألة العصمة في التبليغ، ومسألة الولاية التكوينية، ومسائل أخرى ... وتقولون لي: إنّ هدفكم هو تحريك الجو العلمي، لينشغل الطلاب في البحث والتحقيق، وكنت أنا شخصيا منسجما معكم في هذه النظرة، إذ من الضروري أن يعيش الطلاب أجواء البحث العلمي بكل ما لهذه الكلمة من معنى. وصارت بعد ذلك تتوالى عليّ المنقولات من المكتوب والمسموع عنكم: أنكم قلتم كذا، أو كتبتم كذا. وكل ذلك لم يغيّر في نظرتي إليكم، ولا في محبتي لكم، وثقتي بكم. واعتبرت: أنّ هناك مبالغات أو فهم خاطئ لكثير من تلك القضايا.

ثم جئت إلى لبنان قبل سنتين وأكثر من ثلاثة أشهر، وأنا في غفلة تامة عن كثير من الأمور، لأنني أساسا منصرف إلى عملي، وكانت تسنح لي أحيانا بعض الفرص للاستماع إلى المذياع، وكنت أفضل دائما صوت الإيمان على اعتبار أنها المنبع الصافي للإسلام الأصيل. وبدأت تمر على مسامعي بين الفينة والأخرى طفرات علمية وتفسيرية، ومفاهيمية، وعقيدية وغيرها. وكنت أعتبر أنّ ذلك يعود إلى تقصير المسؤولين عن الإذاعة.

ولكن الذي كان يفاجئني هو أنّني استمعت في أحيان كثيرة إلى بعض ما يبث لكم من تسجيلات، وخصوصا في هذا الشتاء المنصرم، فكانت تمر على مسامعي آراء وتحليلات وتفسيرات، وتشكيكات ببعض الأمور التي تختلف عن ذلك الذي عرفناه من علمائنا، ورموز مذهبنا الكبار. وكنت ألمح الكثير من اللفتات التي كنت أرى أنّها بحاجة ماسة إلى مزيد من التوضيح منكم أو إلى التثبت والمراجعة. ولا سيّما فيما يرتبط بما هو مروي عن المعصومين في عدد من القضايا.

ثم اتصلتم بي بالتلفون، وأظن أنّ اتصالكم كان من دمشق، لتخبروني أنّكم قرأتم ما كتبته في الصحيح من سيرة النبي (ص) عن موضوع "عبس وتولى" وقلتم: إنّكم تقبلون بكلامي. ولكنّكم تساءلتم: إنّه كيف يمكن تفسير قول النبي (ص) لابن أم مكتوم بعد ذلك وفي مناسبات كثيرة: مرحبا، والله لا يعاتبني الله فيك أبدا، فإنّه يدل كما قلتم على أنّه كان قد عاتبه في السابق، لأنّه استعمل لفظ المضارع، الدال على الحال والاستقبال. وقلت لكم: إنّ النفي عن الحاضر والمستقبل لا يدل على الثبوت والحصول في الماضي، بل الماضي مسكوت عنه. مع أنّها رواية لابد أن تخضع لموازين الرد والقبول، ومنها العرض على القرآن وعلى العقل. أضف إلى ذلك: أنّه إذا جاء هذا المضارع في سياق التعريض بمن صدر عنه ما يوجب العتاب، فإنّه يدل على انتفاء ذلك عن قائل هذه العبارة في الماضي والحاضر والمستقبل. ولم أتوقف أيضا عند هذه المسألة رغم أنّها تشير إلى عصمة النبي (ص) بأصبع الاتهام، ولم تكن توجيهاتكم للمسألة كافية بنظري لحل الإشكال.

ثم أقمتم صلاة الجمعة، وكان موقفي في بادئ الأمر منها هو التشجيع والحث على المشاركة فيها، حتى لأولادي، على اعتبار: أنّ ذلك يظهر قوّة الحالة الإسلامية، ويشير إلى امتدادها الشعبي، وذلك يمثل درجة من الحصانة لها أمام أعدائها، كما أنّه يقوي من عزيمة أهل الإيمان.

وقد أنست كثيرا للإقبال الكبير عليها رغم أنّ لدي كلاما في مشروعية إقامتها لغير السلطان العادل، الذي يرضى به الإمام المعصوم. فإنّني أرى أنّها من شؤونه وليست من شؤون المجتهد الجامع للشرائط وحسب، فلا بد من الاستئذان، والنصب منه، وهذه مسألة فقهية لا ربط لها بالموضوع، مادام أن لا مشكلة أساسية، إذا كان رأيكم هو جواز إقامتها للمجتهد، ولو لم يكن سلطانا حاكما بالفعل. وبعد ذلك سمعت كلامكم من جديد في موضوع مظلومية الزهراء (ع)، وكان كل ما استدللتم به بعنوان أنّه إثارة تساؤلات مثيرا لتعجبي. وكان العجب لما فيه تفسيركم لكلمة "وإن" الوصلية، التي يحذف ما بعدها لدلالة ما قبلها عليه، حيث يعاد ما قبلها بعينه. فقد جاء تفسيركم هذا مخالفا لقواعد اللغة العربية بصورة واضحة، حيث قلتم: ما لنا شغل بفاطمة نحن جايين نعتقل علي !!.

وزاد من دهشتي تنويهكم بعد ذلك وقبله بمقولة سهيل زكار، من أنّه لم يكن لبيوت المدينة أبواب أصلا، رغم تفاهة هذه الدعوى. الأمر الذي دعاني لمراجعة الصحاح الستة والبحار لاستخراج عدد هائل مما يدل على كذب دعواه هذه وزيفها. ورحت أضحك على نفسي أن أشغلها بأمر كهذا كما ضحكت على نفسي من قبل، حينما كتبت كتاب " المواسم والمراسم".

ثم سمعت تفسيركم للشفاعة، ورأيت أنّه تفسير يحتاج إلى إعادة نظر وإلى صياغة أفضل. واستوقفني كثيرا رأيكم الذي يقول: ماذا يفيد مسك شبّاك وقفص الحديد الموضوع على قبر النبي (ص). بالإضافة إلى كيفية طرحكم لمسألة الولاية التكوينية، ولموضوع المعجزات والكرامات للأنبياء، وأوصيائهم. ثم سمعتكم تنفون مناسبة الأربعين، وكأنّكم توافقون السائل على أنّها مسألة تسربت إلينا من قبل اليهود، وعطفتم من خلال ذلك على زيارة الأربعين للإمام الحسين (ع) وقلتم إنّه ليس كل ما عند اليهود باطل.

ثم تفضلتم بزيارتي في بيتي في الضاحية. وكانت جلسة سريعة، وغير كافية، وقد ذكرتم لي: أنّكم نشرتم مقالا تحدّثتم فيه عن مسألة التطهير من البول مرتين بالماء القليل، وقلتم إنّ المقصود من التطهير هو إزالة الاستقذار، فإذا زالت القذارة البولية في بدء صبّ الماء، فإنّ الماء المتواصل الآتي بعد إنّما يلامس محلا لا قذارة فيه بالفعل، فلماذا لا نحكم بطهارته والحالة هذه إذا كانت صبّة زائدة طويلة. وقلتم: إنّ الشيخ مفيد الفقيه قد اتهمكم بأنّكم تقولون بالقياس استنادا إلى ذلك. وأحببت مناقشتكم بأنّ من غير المعلوم أن يكون هدف التطهير هو مجرد إزالة الاستقذار، فقلتم: نبحث هذا في ما بعد.

ولم أكن أعلم إلى ذلك الوقت: أنّ لكم كتابة حول القياس. فدعاني ما قلتموه لي إلى البحث عن مقالتكم تلك، فوجدتها بعد أيّام عديدة، وقرأت أكثر تلك المقالة فوجدت: أنّ الفقرة التي ذكرتموها لي: قد وردت في أوائل البحث ولكن بقية البحث لم يطرح الموضوع فيه بهذه البساطة، ولا انتهى عند هذا الحد. ثم اطلعت في هذه الأيام الأخيرة على بعض ما ذكرتموه في عدد من مؤلفاتكم، فوجدت فيه مسائل كثيرة تثيرون حولها تساؤلات أو تعطون فيها رأيا بالنفي أو بالإثبات، أو بعدم الثبوت. وأخذتني الحيرة في ما يمكن أن أفعله تجاه كل هذا الذي ينتصب أمامي خلال هذه الأشهر القليلة الماضية.

هذا ... كله بالإضافة إلى أنّني قد سمعتكم وأنتم تقولون عبر إذاعة صوت الإيمان :" فقهاؤنا أو علماؤنا لا يهتمون بالقرآن، القرآن عندهم على الهامش، وسمعتكم أيضا حين بينتم كيف أنّ السيّد الخوئي (الله يغفر له) قد وقع في التناقض في كلامه.

إلى مسائل كثيرة يجري الحديث والسؤال عنها في معظم الندوات والسهرات والجلسات، وأجيب عنها. ولكنّ الذي يحرجني هو أنّ بعض النّاس يسألونني عن دليلكم الذي دفعكم إلى تبني الرأي الآخر، فأضطر إلى ذكره ثمّ إلى ردّه، إن كان ثمة دليل يزيد على جعله في دائرة التساؤلات. ولست أدري إن كانت بعض المسائل التي تطرحونها عبر وسائل الإعلام قد توفرتم

على دراستها بما تستحقّه من عناية، وبذلتم في سبيل ذلك ما توجبه من وقت طويل، وجهد مضن ؟!

وأنا أعلم أنّ منها ما يحتاج إلى عشرات الأيّام بحثا وتتبعا، وتحقيقا وتمحيصا، وتوفرا على سير كثير من المجاميع والموسوعات. ولا أظنّ أنّ عمر أحد من النّاس يكفي لدراسة القليل من تلك المسائل المطروحة بصورة عميقة ودقيقة ووافية. وتذكرت أنّكم حين صدر لي كتاب (حديث الإفك) قلتم لي (في باحة المدرسة الفيضية في قم المشرّفة) أهنئك على كتابك هذا، أهنّئك لأنّك بحثت الأمور الحسّاسة وأنت متفرغ لها، أمّا نحن فقد واجهنا هذه الأمور في ساحة العمل، فبحثناها على عجل، وبسرعة. وأنا الآن أقول لكم: إنّني رغم ممارستي للبحث والتحقيق طيلة عقدين من الزمن، فإنّني لازلت أجد أمامي عشرات بل مئات الموضوعات التي لم يصل إليها دور البحث والتمحيص والتحقيق، فهل سنحت لكم أنتم الفرصة لذلك، وكيف؟ ومتى؟!

أخي الكريم

ولا أريد أن أخفيكم شيئا، فلقد انزعجت كثيرا من أسلوب كلامكم مع علي وعنه في كتابكم في شرح دعاء كميل. من دون أي توضيح للعوام لا بالتلميح المفهوم لهم ولا بالتصريح، ولا سيّما قولكم في ص ٧٢ " .... ولذا، فإنّه (ع) يسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر له الذنوب التي لها أمثال هذه النتائج". وص ٨٤: " .. ولذا يسأل علي (ع) الله سبحانه وتعالى أن يغفر له الذنوب التي تميت القلب، والتي تضع القلب في التيه والضلالة الخ .... ". وص ٩٤ :" ألا تشعر: أنّ عليا لا يزال خائفا، ولا سيّما أنّ الذنوب والخطايا التي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفرها له هي من الذنوب الكبيرة التي يكفي ذنب واحد لينقصم الظهر منها. وص ١٦٩ :" فالإمام (ع) يقول: يارب: لقد خلقت لي الغرائز، ومن حولي أجواء تثير هذه الغرائز، تستيقظ غرائزي عندما تحف بها الروائح والأجواء الطيبة التي تثيرها. أعطيتني عقلا ولكنّ غرائزي في بعض الحالات تغلب عقلي فأقع في المعصية".

وقد ذكرتني كلمتكم الأخيرة بما تذكرونه عن يوسف وامرأة العزيز، من أنّه يندفع إليها كما يندفع الجائع إلى الطعام بصورة لا إرادية (أو إرادية) حسب تصريحكم في مجلس آخر. وفي نص آخر لكم: أنّه (ع) عزم على ما طلبته منه. فأنتم إذن لا تمنعون الانجذاب الطبيعي لكنّ الله يجعل المانع تكوينيا فهو يحجزه عن الوصول إلى ما يريد ... وهذا ما لم يقل به حتى القائلون بأنّ العصمة تكوينية.

أعود فأقول

إنّ أسلوبكم في الحديث عن علي والأنبياء، ولا سيّما في كتب يقرؤها عوام الناس لربما يخل الشك والشبهة على الكثيرين منهم. لا سيّما وأنكم أنتم الذين تقولون: إنّ بعض الأدعية قد توهم العوام بمقام للأئمة فوق مقام الإمامة لهم. ولأجل ذلك، فإنّني أسجل تحفظا على ما ذكرتموه في دعاء كميل من دون توضيح للصورة بما فيه الكفاية، ولا يكفي أن تقولوا بعد نشر الكتاب: كنت أقصد كذا، ومرادي كذا ... وقد شرح علماؤنا الأبرار أدعية الأئمة عليهم السلام، ومنها دعاء كميل بالذات، ولم يقعوا في هذا المحذور.

أخي الكريم:

كان ذلك باختصار عرضا خاطفا لتجربتي معكم وتجاهكم. ولأنّني أريد أن أكون منسجما مع قناعاتي، فقد آثرت بداية عرض الموضوع عليكم، فلعلي أجد عندكم حلا مقبولا ومعقولا، يرضي وجداني. فما هو هذا الحل المقبول يا ترى؟! وكيف تجيبون على ذلك الركام الهائل من الأسئلة التي تزداد يوما بعد آخر حول ما كتبتموه وقلتموه، أو ستكتبونه وتقولونه؟! وهل سوف نحتاج في كل يوم إلى التوضيح للمراد، ثم رمي الآخرين بعدم فهم ما ترمون إليه ؟! أو اتهامهم بالعقد، أو بالتخلف، أو بالذهنية القديمة في مقابل الجديد؟!

إنّني أنتظر منكم الإجابة بصراحة ووضوح تام. ولعلّ أسلوب الكتابة بالألفاظ الواضحة، بعيدا عن كل ما يحتاج إلى توضيح أو تأويل، وبعيدا عن الألفاظ الأدبية و الغائمة، واتساع الصدر للنقاش الواعي والهادف من دون رمي الآخرين بالتخلف، وبالذهنية الإيرانية أو بالتقليدية، ثم التوقف عند كل ما هو موضع شبهة وريب، وبحثه بتجرد وبموضوعية، وكذلك استخدام المصطلحات في محلها وفي مواردها بدقة وبمسؤولية، والأهم من ذلك هو تحديد منهج البحث ووسائله، بصورة واضحة ونهائية. هو الطريق الأمثل للحصول على نتائج باهرة في مجال التحقيق الدقيق للقضايا التي تسالم رموز المذهب على كثير منها، ثم هي الآن تتعرض لإثارة التساؤلات. مع إلفات النظر إلى أنّ مواجهة العوام بهذه التساؤلات ليس هو الطريق الأقوم ولا الأسلم. إنّني مع حبي لكم، وتقديري أحببت أن أكون صريحا وصادقا معكم ومع نفسي ومع ما أراه تكليفي الشرعي وقد يزعجكم ذلك. ولكن قد يكون هذا الانزعاج أساسا للرضا، وللتفاهم الحقيق.

أسأل الله سبحانه لي ولكم الرضا والتسديد على طريق الهدى والخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم: جعفر مرتضى العاملي" (الحوزة العلمية تدين الانحراف، ص١٦٤-١٧٨).

لدينا أكثر من ملاحظة ووقفة أمام هذا الكتاب المطول الذي بعث به العاملي لفضل الله، وأهمها:

١. من يتابع القضايا التي أثيرت حول الشخصيات العلمية والثقافية، في القديم والحديث، والتي تعرضت للعنف الفكري والمقاطعة والنبذ والتسقيط والتضليل والحكم عليها بالمروق من المذهب والعقيدة، يجد أنّ لب الموضوع وأساسه ينطلق أولا وقبل كل شي من التهمة بالخروج على النسق العام، والخروج على آراء العلماء، القدماء والمحدثين، وهذا ما أشار له العاملي بخصوص فضل الله، وما تابعته في كل القضايا التي انطلقت من مبدأ العنف من الداخل والتكفير والحرب على المفكرين الأحرار، ومستقلي الفكر والاجتهاد، وإعمال العقل ودراسة كل المعطيات بكل حرية. وكأننا يجب أن نكون مصداقا للآية " إنّا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف/٢٣) وهذا الذي تعيب به الآية أهل الجاهلية والمشركين والمترفين ونعيب به الناس والمقلدين صرنا للأسف مصداقا له، ونموذجا حيا لعنوانه، والويل كل الويل لمن يخرج على الآباء وعلى العلماء السابقين وعلى نظرية الإجماع وعلى ما تسالم عليه رموز المذهب، حتى التساؤلات اتجاهها سوف يؤدي إلى التكفير والحكم بالضلالة والخروج من المذهب والعقيدة والجهل. هذا السلوك وهذا العنف لا يصدر من العوام أو من البسطاء ممن لا علاقة له بالفكر الديني، وبالقرآن وآياته، بل أول ما يصدر من رجال الدين، وعلماء الحوزات!!

٢. دائما ما يرفض العلماء والحريصون على حراسة العقيدة، والمدافعون عن القديم وآراء علماء المذهب المتسالم عليها منذ عقود من الزمن، والمحاربون لكل مفكر حر، يرفضون أن يعلن العلماء آراءهم على الملأ، أو يذكر أفكاره أمام الناس في محاضرة أو ندوة عامة، هذا متى؟ إذا كان ما يؤمن به خلافا لكل الآراء السابقة، ورأيا فيها إعمال فكر، واستقلالية، ويخالف آراء العوام والعلماء، فهم يريدون أن تكون هذه الآراء مغلقة جدا، وتطرح بين العلماء في المجالس الخاصة، ولا تخرج للرأي العام، ويجب أن يبقى الناس على ما هم عليه.

٣. من خلال تتبعي وجدت أنّ أهم عبارة تُقال وقيلت وطرحت وقد تذرع بها من يسقط ويكفر ويضلل العلماء المستقلين في تفكيرهم وآرائهم هي عبارة " تكليفي الشرعي"، فكل من يحارب عالما ويسقطه ويضلله ويكفره ينطلق من عبارة تكليفي الشرعي، وعندما اتهم بعض المعممين في النجف الأشرف السيّد الصدر وابن عمه موسى الصدر بالعمالة للصهيونية والامبريالية

كان منطلقهم التكليف الشرعي، مما جعل الإمام الخميني يغضب ويهيج ويمرض ويوقف درسه، ويعلن أنّ المنطلق ليس التكليف الشرعي، فهذا توهم، وإنما كان منطلقكم الشيطان الرجيم وتسويلاته وهوى النفس. يقول السيّد الإمام : "... أنتم أهل دين الله ولله الحمد، غير أنّ الدين لا نزاع فيه. إنّ السبب الأساس في كل هذا النزاع يعود إلى الدنيا، ويخدع نفسه من يقول :" إني صرت في الجبهة الفلانية لما اقتضاه مني التكليف الشرعي"، وإلا كيف يقتضي التكليف الشرعي من الإنسان أن يوجه الإهانة للمسلمين ؟! أن يوجه الإهانة للعلماء ولزملائه؟ أهذا تكليف شرعي؟ إنّها الدنيا يا إخوة، وأهواء النفس. لو أنّ الطالب المشغول بتحصيل العلم تقدّم خطوة باتجاه تهذيب النفس تقارنا مع العلم، لبقيت الحوزات في منأى عن أمثال هذه الأحداث ... إنّ هذه التحزّبات خطأ وفسق، هذه الممارسات تدمر الحوزات، كفوا عن أمثال هذه الأمور الشائنة... ". والغريب في قضية فضل الله أنك تجد اثنين من المعممين، الأول يقوم بتسقيط فضل الله وشتمه ومحاربته والوقوف أمام مرجعيته واتهامه بالمروق من المذهب وأنّه ضال ومضل ويحرّم قراءة كتبه، وعندما تسأله ما الدافع لكل ذلك ؟ يجبك إنه تكليفي الشرعي. والثاني يقوم بالدفاع عن السيّد فضل الله، والدعوة لمرجعيته والاستماتة في تنزيهه واعتباره مجدد القرن وأنّه مفكر من الطراز الأول ويكتب فيه دراسات وبحوثا، ويقف في وجه كل من يحاربه، ويقوم بتقديسه، ويسفه كل من يتكلم عليه بسوء، وعندما تسأله ما الدافع لكل ذلك؟ يجبك إنّه تكليفي الشرعي !!.

وعندما كتب السّد جعفر العاملي كتبه ضد فضل الله كان الدافع لها هو تكليفه الشرعي، ومن قام بالرد عليه كان الدافع لرده هو التكليف الشرعي أيضا، يقول العاملي في مقدمة كتابه "خلفيات كتاب مأساة الزهراء" : " وكان خيارنا الوحيد لإنجاز التكليف الشرعي الملقى على عواتقنا تقديم نبذة يسيرة من مقولات يعرف كل عالم بصير أنّها لا تنسجم مع مدرسة أهل البيت (ع) ، فكان هذا الكتاب".

يبدو أنّ هذه الرسالة أزعجت السيّد فضل الله، ووجد أنّ العاملي أشبه ما يكون بمن يتربص به، ويراقبه في كل أقواله وتحركاته، وأنّه يضع نفسه موضع الموجه والمراقب والمحاسب، لذا رأى السيّد فضل الله أنّ الأسلم أن لا يرد على العاملي، وأن يسكت عنه، ولا يعطي أي اهتمام لتلك الرسالة، مع أنّ العاملي قال له بأنه ينتظر منه الإجابة بصراحة، إلا أنّ السيّد لم يجب، ولم يرد عليه. ومن هنا وجد العاملي بأنّ السيّد فضل الله ليس في محل من يطرح التساؤلات، بل هو في مصاف من يشكك في العقيدة، ولا يحترم العلماء، ولا يعير اهتماما لآرائهم ونقدهم، وما يؤمنون به، كأنّه يقول أنا وفقط، لذا بات السيد العاملي منذ تلك اللحظة وقد عقد العزم على مواجهة فضل الله على العلن، بعد أن كان يعتمد على المراسلات الخاصة،

وأن يعلن رأيه فيه وفي أفكاره للناس كافة، بعد أن كان يتبع أسلوب المكاشفة والمصارحة في مجلس خاص مغلق، ومن هنا بدأت ثورة العاملي على السيّد فضل الله، وصار يحرك الجميع ويثير الكل ويدعو الكافة لمواجهة فضل الله الضال والمضل والجاهل والمدعي والمتوهم، يدعو المراجع والعلماء والمثقفين والعوام لمواجهة هذا الفكر الضال والمنقطع والذي هو أخطر من أعداء الدين والعقيدة، وإذا كان من قبل يحافظ على سمعته ومكانته، ويحرص على أن تخدش هذه الشخصية، فإنّ اليوم لا محل عنده تجاه فضل الله لكل ذلك، ولن يلقى منه إلا المواجهة والتصدي والرصد والكشف عن كل ما في فكره من شكوك ومنزلقات خطيرة.

حينما وجد العاملي أنّ السيّد فضل الله يتجاهل كتابه إليه، ولا يرد عليه قام بكتابة رسالة أخيرة، وذلك بعد ٥ أيام فقط، ففي يوم الاثنين ٢٦ أغسطس ١٩٩٦م، الموافق ١٢ ربيع الثاني ١٤١٧هـ كتب إليه رسالة مختصرة مقارنة بما سبقتها، يقول فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

سماحة العلامة الحجّة السيّد محمد حسين فضل الله دام حفظه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد.

فإنّني أسأل الله سبحانه أن تكونوا بصحّة وعافية وسعادة، إنّه سميع الدعاء.

أخي الكريم.

لقد أرسلت إليكم رسالة قبل مدّة، ولم أتلق منكم أي جواب، وقد طلبت منكم ودعوتكم إلى حوار علمي موضوعي هادئ ومكتوب، يعتمد المصطلحات العلمية الواضحة بدقة وبمسؤولية، وينطلق إلى الفكرة من أجل بلورتها، وتوضيح وجه الصواب فيها، وفق المعايير الصحيحة والمعترف بها، وليمكن من ثمّ من حصحصة الحق، ووضع النقاط على الحروف في المسائل الكثيرة المتنوعة، التي لا زلتم تثيرونها بين الفينة والفينة، وكذلك الحال بالنسبة إلى تلك المسائل التي تثيرون حولها علامات استفهام، من شأنها إثارة هزّات خفيفة أو قوية في ثباتها وفي أصالتها في الذهنية العامة.

وفي اعتقادي: أنّ الاستمرار في طرح الأمور بهذا الشكل، واستهداف أمور حسّاسة في مختلف جهات الثقافة الإسلامية: في العقيدة والتفسير، والشريعة والمفاهيم، والتاريخ وغير ذلك، وإثارة جو من البلبلة الفكرية حولها، وهي تعتبر من المسلمات والواضحات التي تبنّاها وبنى عليها أساطين

العلم من رموز المذهب وأعلامه، استنادا إلى معطيات صريحة وصحيحة، وقاطعة للعذر، إنّ الاستمرار في ذلك من شأنه أن يربك الساحة الإسلامية في هذه الظروف الحسّاسة، التي تواجه فيها أخطر التحديات من الأعداء في الداخل والخارج.

أخي الكريم:

ولا أدري السبب في أنّكم في هذه الفترة الأخيرة قد عدتم إلى إثارة مسألة الزهراء، واعتداء الظالمين عليها وعلى بيتها، بصورة قد نقضتم فيها بصراحة كل ما كتبتموه لي إلى قم، وأرسلتموه من أشرطة لندوات وتصريحات إذاعية وخطابات في المحافل العامة. وقد نشرنا آنذاك ذلك كله بطلب منكم. هذا بالإضافة إلى توضيحات وإجابات مرفقة بكم هائل من النصوص كانت بيننا ولم تنشر، وتداولناها عبر الفاكس، ولم تعقبوا عليها آنئذ، واعتبرت أنّ القضية قد انتهت.

ومن الواضح: أنّ همي الوحيد كان في تلك الفترة الصعبة أمران:

أحدهما: الحفاظ على مكانتكم، وعلى موقعكم من موقع المحبة والإخلاص.

والثاني: أن لا يسجّل التأريخ: أنّ شخصية شيعية لامعة قد شككت أو سجّلت تحفظا على هذا الأمر، الذي تضافرت وتواترت النصوص الحديثية والتاريخية على نقله، رغم حرص الآخرين المتضررين من نشره على طمسه، وإخفاء ذكره.

ومن الواضح: أنّ هذا الأمر ليس كسائر حوادث التأريخ، لأنّ له مساسا في الناحية العقيدية، من حيث أنّه يقدم وثيقة دامغة فيما يرتبط بالحاكمية بعد الرسول، وبشروط، ومواصفات، ومؤهلات من يتصدى لذلك. وهو يعكس لنا الحقيقة فيما يتعلق بأمانته على دين الله، وحرصه على شريعته، وعلى عباده وبلاده.

ولست أدري لماذا هذا الحرص الظاهر على تبرئة أولئك الذين ظلموا، واعتدوا، وغصبوا، مع أنّ لحسن الظن حدودا. وحين كنت في بيتكم قبل أشهر وقلتم: لا يعقل أن يتجرأ القوم على الزهراء بملاحظة موقعها لدى الكافة، فالكل كان يحترمها ويجلها. حتى قلتم: إن كان قد صدر شيء فلابد أن لا يكون قبيحا في المستوى الذي نتصوره. قلت لكم: فقول القائل: إنّ النبي ليهجر لم يكن قبيحا. فقلتم: ليست هذه مثل هذه. فقلت لكم: ما الفرق.

ولم أستطع حتى الآن أن أعرف هذا الفرق، فإنّ من يواجه النبي الأعظم هذه المواجهة الشرسة من أجل الموقع والمنصب، هل يتورع عن شتم وضرب امرأة

تريد أن تمنعه من الوصول إلى ذلك الموقع والمنصب، ومن أجل الموقع والمنصب أيضا؟! ... وهل عار شتم النبي الأعظم (ص) أخف في نفسه من عار شتم امرأة ؟!! ...

لقد كنت أظن أنّ ما تثيرونه من تساؤلات، ما هو إلا محاولة لتحريك الجو العلمي، حسبما كنتم تقولونه لي ... ويفاجئني الآن أن أرى أنّ ذلك يعكس قناعات، أو يشير إلى وجود شكوك حقيقية في كثير من المسائل، التي هي فوق كل الشبهات لشدّة وضوحها، وسطوع البرهان فيها.

أخي الكريم.

قد أكون في رسالتي هذه وسابقتها قد تسببت لكم ببعض الإزعاج ، ولكنّني أحببت أن أؤكد لكم أيضا عن أنّني حين عرضت عليكم الحوار، ولم أتلق له جوابا في فترة كانت تكفي لذلك. فقد اعتبرت نفسي قد فشلت في محاولتي تلك التي كانت تهدف إلى رضا الله سبحانه، وإلى تجنيب الساحة من أن تُثار فيها أمور تحتاج إلى مزيد من التروّي قبل إثارتها. والأمر إليكم. والسلام عليكم ورحمة الله

جعفر مرتضى العاملي

١٢ ربيع الثاني ١٤١٧هـ" (الحوزة العلمية تدين الانحراف/١٩٤)

المراجع يتصدون لفضل الله:

بدأت القضية تخرج من نطاق العلماء والمراسلات الخاصة، ومن نطاق البلبلة والهمس لتخرج إلى العلن، وبدأ العلماء يضغطون على المراجع من أجل أن يكون لهم موقف حاسم وصريح من السيّد فضل الله، ومن المقولات التي يثرها بين الفينة والأخرى، وهي مقولات خارجة عن أسس المذهب، وما اتفق عليه العلماء. وهذا نموذج من ذلك الضغط، وذلك اللجوء للمراجع من أجل تحريكم ضد السيّد فضل الله، وهي رسالة كتبها الشيخ جلال الدين الصغير من سوريا إلى الميرزا جواد التبريزي، يطلب منه أن يكون للمرجعية موقف حاسم وجريء تجاه فضل الله، وإلا سيتعرض كيان الطائفة لضرر بالغ من أثر التشكيكات التي يطلقها فضل الله وأمثاله، ثم يطلب منه أن يحدد له تكليفه الشرعي أيضا !! وقد كتب الرسالة يوم الأحد ١٨ ربيع الثاني ١٤١٧هـ الموافق ١ سبتمبر ١٩٩٦م، وهذا نص الرسالة:

" سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الكبير الميرزا جواد التبريزي دام ظله الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في الوقت الذي ألثم فيه أياديكم المباركة ،وأبتهل إلى المولى القدير أن يديم حفظكم ويمتعنا بمد أفياء ظلكم على رؤوس المسلمين أود أن أعرض بخدمتكم الأمور التالية راجيا من جنابكم المبارك أن يشخص لنا التكليف الشرعي المناط بعاتقنا والله هو مولى التوفيق.

ما عرضته على جنابكم من أسئلة كلها متعلقة بمقولات طرحها مؤخرا السيّد محمد حسين فضل الله في لبنان وسوريا، بمعية فتاوى فقهية اعتمد فيها على شاذ الرأي أو أعمل الطرق المبنية على الاستحسانات والمصالح المرسلة، وما إلى ذلك من أمور لم يألفها فقه الطائفة من قبل، مستفيدا في ذلك من وسائل الاتصال الجمعي الواسعة كالراديو والتلفزيون والجرائد والمجلات الإسلامية وغيرها، والكتب وأشرطة الكاسيت المسموعة والمرئية، وقد أحدثت صخبا كبيرا بين أبناء الطائفة في البلدين إضافة إلى إيران والخليج وبعض بلدان أوروبا، وقد استفاد منها أبناء العامة بشكل كبير، وصدرت في سوريا عدّة بيانات تستشهد على ضلال الطائفة بمقولات الرجل، ولأنّه مسند سياسيا من جهة سياسية عرفت بالدفاع الأعمى عن كل ما يتعلق بها بعيدا عن مباني الحق أو عملا بها، ولأنّه يتمتع بموقعية حسنة في قلوب الناس فقد أثّرت هذه الأفكار في قلوب العديدين وانقلبوا للتبشير بها، مما أنذر ولازال ينذر بحدوث فتنة تضعف الصف وتعصف بكيان الطائفة، خصوصا وأنّ أطروحاته هذه تزامنت مع صيحات متعددة اختلفت منابعها ونواياها واتجاهاتها الفكرية إلا أنّها اتحدت في توجيه حركة التشكيك ضد الطائفة المحقة، وقد قيّض الله للبعض من خطباء المنبر وأساتذة الحوزة العلمية في قم وبيروت وسوريا قدرة الرد العلني على هذه الطروحات، وقد كان لي توفيق الإسهام في التصدي لذلك في محاضرات متعددة في سوريا، وكانت هذه المحاضرات تنتهي بجولة من الأسئلة التي قد يفوق وقت الإجابة عليها وقت المحاضرة، وكان السؤال اليومي الذي نواجهه هو: <u>إذا كان كل هذا التشكيك موجودا، فأين المراجع العظام من ذلك؟ ولماذا لم يتخذوا موقفا مما يجري ليحسموا دائرة الجدل ؟؟.</u>

إنّني من خلال متابعتي الفكرية لحركة المشككة، والذي يقابلها ضعف يستشري في صفوف الحوزة العلمية في كل مكان، منشؤه عدم العناية بالموضوعات العقائدية، وعدم اعتبارها مادة درسية إلى جانب المواد المتعارفة في المقدمات والسطوح، وانشغال السادة العلماء بما يجعلهم على مسافة مما يدور في الساحة الفكرية، إضافة إلى ما يكمل ذلك من ضعف الموارد الكفيلة بتنمية الكادر الفكري، فضلا عن دعم النخبة الفكرية الموجودة بالفعل .. ناهيكم عن توجه قوى الاستكبار العالمي وبشكل صريح لضرب كيان

الطائفة بعد أن برز التشيع بعنوانه الخطر الأكبر على بنية القدرة الاستكبارية ... كل ذلك يجعلني أدّعي أنّ حركة التشكيك يمكن لها أن تلحق خسارة أكبر في منتديات كيان الطائفة، سيّما وأنّ حركات المشككة لم تجابه كما كان يحصل من قبل بموقف حاسم من المرجعية يقطع أمامهم دابر التفكير بتخريب البناء العقائدي، فضلا عن قطعه لدابر من يفكر بالبدء بتشكيكاته ونفث سمومه ...

إنّني إذ أضع نفسي في خدمة المرجعية المباركة، أتمنى على مقامكم الشريف أن تشخصوا لنا طريق الحل، حدّدوا لنا تكليفنا الشرعي تجاه هذه المخمصة التي بدأت تضغط بثقل كلكلها على عاتق الجميع .. سائلا المولى العلي القدير أن يديم توفيقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، وإعلاء كلمة أهل البيت على أفياء المعمورة ، نعم المولى ونعم المستعان .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خادمكم المخلص الشيخ جلال الدين الشيخ علي الصغير

إمام مسجد براثا (بغداد) سابقا" (المصدر السابق/٢٠١).

فضل الله يثير ضجّة جديدة على صفحات مجلة المنهاج تتعلق بالإمامة :

من الواضح أنّ السيّد فضل الله يسير في اتجاه طرح كل آرائه، وكل ما يعتقد به، ويفكر فيه، ويؤمن بصحته ومبناه، غير عابه بردات الفعل، أو موقف العلماء والرأي العام، وما سيقوله الآخرون عن طرحه، فهم ما إن ينتهوا من رأي له مخالف حتى يفاجئوا برأي جديد أشد منه غرابة، والجدل قائم والاختلاف على أشده في مسألة الزهراء (ع) والشفاعة ومرجعيته وغيرها وإذا به يصدم الشعور الشيعي العام والخاص بمسألة خطيرة تتعلق بالإمامة، والسيّد بات لا يطرح رأيه في مجلس مغلق، أو في لقاء علمي للتداول والنقاش، وإنّما صار يطرح آراءه المغايرة والمختلفة عن النسق الشيعي العام، وعن آراء العلماء على الملأ، وفي المجلات والمنتديات واللقاءات العامة ومن على المنبر والتلفزيون والمقابلات.

ففي مجلة المنهاج العدد الثاني، السنة الأولى الصادر في صيف ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، كتب فضل الله مقالا بعنوان "الأصالة والتجديد" وفيه اعتبر الإمامة من الأمور المتحولة وليست من الأمور القطعية التي ثبتت بالدليل القطعي الموثوق من حيث السند والدلالة، بحيث لا مجال للاجتهاد فيها، مثل التوحيد والنبوة والمعاد، فالإمامة لا تندرج مع هذه الثلاثة القطعية، فهي من الأمور المتحولة والقابلة للتجديد والتفكير فيها من جديد ... هذا الكلام

وهذا الرأي خطير جدا بالنسبة للشيعي، ولعلماء المذهب، فما إن نُشر المقال حتى تحولت قم إلى ضجة وثورة عارمة، بين مسفه لفضل الله ولرأيه ومتهجم عليه ولتوجهاته، وبين مدافع عنه ومتحمس له ومبرر لمقولاته، وحين يتحول الشخص إلى محل للاختلاف العام، بحيث يلقى مؤيدين لحد التقديس ومعارضين لحد التكفير والتضليل هنا يتحول الشخص إلى قضية، وإلى مشكلة، وهذا ما نجده لدى قضية فضل الله بالفعل، وبالتالي بادر العلماء لمراسلته لدرء الفتنة، والحد من الشقاق الذي بدأ يظهر بين طلبة العلوم الدينية والمثقفين في قم، بسبب فضل الله، وأطروحاته وآرائه، فراسله أولا الحائري، ومن بعده السبحاني، وقدّم إليه النصيحة شفهيا مجموعة من كبار العلماء وفضلاء الحوزات العلمية في لقاءات معه في بيروت وسوريا وإيران منهم: الشيخ مصباح اليزدي، والسيّد محمد البجنوردي، والسيّد مهدي الخلخالي، والسيّد رضي الشيرازي، والسيّد علي الكلبايكاني، والسيّد كمال الحيدري، والشيخ هادي آل راضي، والسيّد صالح الحكيم، والسيّد حسين الحكيم، والسيّد علاء الموسوي، والسيّد علي الحكيم، والسيّد جعفر الحكيم، والسيّد صادق الحكيم، وغيرهم كثير ممن نعرف وممن لا نعرف.

يقول فضل الله في تلك المقالة :

" في داخل الثقافة الإسلامية ثابت يمثل الحقيقة القطعية، مما ثبت بالمصادر الموثوقة من حيث السند والدلالة، بحيث لا مجال للاجتهاد فيه، لأنّه يكون من قبيل الاجتهاد في مقابل النص. وهذا هو المتمثل ببديهيات العقيدة، كالإيمان بالتوحيد والنبوة واليوم الآخر، ومسلمات الشريعة، كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحرمة الخمر والميسر والزنا واللواط والسرقة والغيبة والنميمة وقتل النفس المحرمة ونحو ذلك. هذا بالإضافة إلى الوضوح في الموقف السلبي، أو الإيجابي، من المفاهيم المتقابلة من الظلم والعدل والكذب والصدق والخيانة والأمانة ونحو ذلك، فلا مجال لتحريكها في مستوى رفض المبدأ، بل قد يثور الجدل فيها على مستوى التفاصيل في المفردات الصغيرة المتناثرة في نطاق الظروف والطوارئ.

وهناك المتحول الذي يتحرك في عالم النصوص الخاضعة في توثيقها ومدلولها للاجتهاد مما لم يكن صريحا بالمستوى الذي لا مجال لاحتمال الخلاف فيه، ولم يكن موثوقا، بالدرجة التي لا يمكن الشك فيه. وهذا هو الذي عاش المسلمون الجدل فيه، كالخلافة والإمامة والحسن والقبح العقليين والذي ثار الخلاف فيه بين العدلية وغيرهم. والعصمة في التبليغ أو في الأوسع من ذلك بحيث يشمل الأفعال جميعها والآراء جميعها في شخصية الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وفي المسار الجسماني والروحاني.

وفي مستوى علم الأنبياء والأئمة، من حيث علم الغيب ووعي الأشياء في الكون والحياة وفي مسألة حدود الشرك والتوحيد وغير ذلك مما يتصل بالجانب العقيدي" (ص٦٠).

كلام السيّد واضح وجلي، فالذي لا يقبل الاجتهاد فيه عدّ التوحيد والنبوة واليوم الآخر، ولم يدخل الإمامة فيها، بينما الخلافة والإمامة والحسن والقبح العقليين وغيرها من الأمور المتحولة والتي تقبل الاجتهاد، فلا توجد إزاؤها نصوص قاطعة. وهذا كلام لم يألفه لا العلماء ولا العوام، فالشيعي من عقيدته أنّ الإمامة من النصوص القطعية التي لا تقبل الاجتهاد والنظر.

وعلى إثرها كتب إليه الحائري ناصحا، ومبينا الأثر الذي أحدثته مقالته تلك، والضجة التي صارت من إثر ما كتبه وما أذاعه حول الإمامة بين طلبة العلوم الدينية في قم، وقد بعث إليه اثنين من الثقات ليتكلموا معه.

السيّد كاظم الحائري يراسل فضل الله وينصحه ويوجهه:

في يوم السبت ٢١ جمادى الثانية ١٤١٧هـ، الموافق ٢ نوفمبر ١٩٩٦م، تلقى فضل الله رسالة من الشخصية العلمية البارزة، والتلميذ الأبرز للسيّد الشهيد محمد باقر الصدر، والمرجع والفقيه السيّد كاظم الحائري، يدعوه فيها من باب الحب والتقدير للابتعاد عن العبارات الموهمة والجمل الغامضة، والتي تؤول لأكثر من معنى، يقول الحائري مخاطبا فضل الله :

" بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الكريم سماحة العلامة الحجة السيّد فضل الله حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: إنّ المسؤوليات التي اضطلعتم بها ليست ملكا لكم، بل هي أمانة بيدكم المباركة، وإنّ الثغر الذي ترابطون فيه لهو ثغر مهم من ثغور الإسلام، وإنّ عبائركم الواردة في مجلة المنهاج وفي شرح دعاء كميل لهي عبائر موهمة لغير المقصود، وقد أوجب ذلك ثورة عارمة في قم المقدّسة ضد تلكم العبائر وضد شخصكم الكريم، وذلك يسيء أولا بمقامكم الكريم، ويؤثر ثانيا في تضعيف الثغر الذي تتواجدون فيه، فيصبح منفذا للأعداء، ويحرج ثالثا موقفي وموقف جميع إخوانكم المتواجدين في قم والمطلعين على واقع مقصودكم من تلكم العبائر، وقد أرسلت إليكم أخوين عزيزين من إخواننا الموثوقين يحملان هذه الرسالة ويشرحان لكم ما هو موجود الآن من ضجة هنا حول هذه المواضيع ومن الفتنة الكبيرة الواقعة بين المؤيدين والمفندين، أسأل الله تعالى أن يقي المسلمين شرّها، وإنّني أشعر أنّ الواجب

عليكم أولا معالجة الموضوع بشرح المقصود ونشره، وثانيا الالتزام بعدم تكرر هكذا عبائر موهمة لخلاف المقصود منكم في المستقبل، فهذا نصحي لكم نابعا من موقفي الحب والتقدير لشخصكم الكريم .. والسلام عليكم وعلى من بحضرتكم من المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

٢١ جمادى الثانية ١٤١٧هـ أخوكم كاظم الحسيني الحائري" (المصدر نفسه /٢٢٣).

حجم ومستوى الحائري في نظر فضل الله، وخطره ووزنه العلمي ليس بمستوى العاملي، وهو ممن لا يمكن السكوت عنهم، أو عدم الرد، لذا بادر السيّد فضل الله سريعا للرد على تلك الرسالة المبعوثة من الحائري في اليوم التالي مباشرة ومن دون تسويف. ففي يوم الأحد ٢٢ جمادى الثانية ١٤١٧هـ، الموافق ٣ نوفمبر ١٩٩٦م كتب فضل الله الرد التالي موضحا موقفه وملخص رأيه، وما قصده من تلك المقالة المنشورة في المنهاج، وما جرى من ضجيج حولها.

يقول فضل الله مخاطبا الحائري:

" أخي في الله سماحة العلامة الحجة السيّد كاظم الحائري حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مع محبتي ودعائي لسماحتكم بالصحة والعافية والتأييد والتسديد .. وبعد، فقد تسلمت رسالتكم الكريمة، وشكرت لكم هذه المشاعر الطيبة وغيرتكم الإسلامية على الحق وأهله وملاحظاتكم القيمة. وقد أحببت أن أشرح لكم حقيقة الموضوع الذي أشرتم إليه في التعبير الموهم لخلاف المقصود كما ذكرت. أما مجلة المنهاج، فلم أكن أتصور ولو بنحو الوهم أن يفهم منها بعض النّاس الفهم المذكور، لأنّها لا تتحدث عن المسألة في الدائرة الشيعية، بل في الدائرة الإسلامية التي يقع الخلاف فيها بين المسلمين في عدّة أمور منها الخلافة والإمامة، باعتبار أنّها عندهم من الأمور النظرية القابلة للتغيير بحسب طبيعتها الموضوعية كأية قضية مما يختلف فيها النّاس ليقدسها بعضهم ويرفضها آخرون، وليدعي البعض القطع بهذه النتيجة ويدعي الآخر القطع بخلافها ... ولم تكن بحثا في الإمامة أو حديثا عن رأيي فيها، تماما كما هو الحديث في الإشارة إلى تجرير محل النزاع، وقد حاول البعض إثارة الموضوع من خلال العقدة النفسية لا من حيث الظهور، ومع ذلك فقد طلب مني صاحب "مجلة المنهاج" إصدار توضيح للمسألة، فعهدت بذلك إلى المركز الإسلامي الثقافي، وهو يضم مجموعة من الشباب المثقفين، فكتبوا توضيحا، وصدر في "المنهاج" الذي وُزّع في بيروت العدد الثالث، ولكنّ الضغوط التي مورست على أخينا المعظم، السيّد الهاشمي من

خلال الضجة المفتعلة، جعلته يطلب من الشيخ خالد العطية حذف الموضوع من الطبعة الموزعة في قم. وأنا أرسل لكم التوضيح مع بعض الردود التي أجبت بها عن الموضوع في الندوة في الشام، ونشرت في جريدة "فكر وثقافة".

أمّا دعاء كميل، فقد كان شرحا للدعاء في المسجد، ونسّقه بعض الإخوان، وقد كان المقصود منه شرح المعاني لا بيان فلسفة استغفار الإمام (ع) مما قد بيّنته عشرات المرات، وأرسلت لكم بعض ذلك، إنّكم تعرفون أنّ لكل مقام مقالا، وأنّ مقام شرح الكلمات يختلف عن مقام بيان فلسفة مضمونها، وإلا كان الإشكال يتوجه إلى صاحب الدعاء، كيف يقول: اغفر لي على أنّ ما ورد في سياق شرح الدعاء أظهر بشكل بيّن ما أخبر عنه الإمام الصادق (ع) في تفسير آية "واعتصموا بحبل الله جميعا" من أنّ المقصود بحبل الله هم أهل البيت (ع) إذ قال : "نحن حبل الله". وهذا ما يوحي بأنّ العصمة إنّما تكون بالتمسك بأهل البيت مقرونا بكتاب الله. وهذا ما يكون دليلا على أنّ ما يوحي به التعبير الذي أسيء فهمه ليس مقصودا بالشكل الذي فهم على أساسه.

وختاما إنّني أشكر لكم هذا العقل العلمي الموضوعي، وهذه الروح الإسلامية المخلصة، وهذه الأخوة الطيبة الخالصة التي أعتز بها. خلافا لبعض إخواننا الذين استطاع المضللون أن يتجهوا بها إلى خلاف العدل والإنصاف وإلى الابتعاد عن الاتزان في كلماتهم غير الشرعية. والسلام على من بحضرتكم من المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

أخوكم محمد حسين فضل الله" (المصدر نفسه/٢٢٥)

الشيخ جعفر السبحاني يراسل فضل الله ويبدي له النصيحة:

بدأ فضل الله يتلقى سيلا من الرسائل والتوجيهات، وعشرات الأسهم الناقدة لتوجهه، وأخذ العلماء والمراجع وكبار أساطين المذهب يلتفتون لأقواله، ويتابعون آراءه وما يتلفظ به، وما عاد السيّد كما كان، رمزا من رموز المذهب، والفكرة تجاهه تتمحور حول كونه مفكرا ومجاهدا، بل أصبح الآن محطا للتوجس، ومركزا للريبة منه، ومن أقواله، وتوجهاته، وصار الكل يترصد له، وينتظر ما يصدر منه، وما عاد أثر أقواله من حيث الشك مقتصرا على القلة ممن رأوا فيه مشروعا مغايرا ومختلفا لتوجهات الطائفة، مثل السيّد جعفر مرتضى العاملي، وإنّما بات السيّد مركزا للشك من قبل الجميع، على اختلاف توجهاتهم الفكرية والعقائدية، فهاهو الشيخ والمفكر الإسلامي المعروف جعفر السبحاني يبعث له برسالة ذات أكثر من دلالة، ينبهه فيها لخطر أقواله وتوجهاته واهتماماته التي لا يجد فيها ما يفيد، من مثل الانشغال بالجدار والباب، والمسائل التي توجب الصدع والشقاق في الصف الشيعي، وتفرح الأعداء. وكان الأجدى منه أن يولي

اهتمامه لما هو أجدى وأهم، وهناك عشرات المسائل في الفكر والعقيدة والدين تحتاج منك الاهتمام بدلا من هذه المسائل التي لا جدوى منها، ويذكره بمقولة النبي (ص) ووصيته لأمير المؤمنين (ع) في هذا الصدد، وفي ظل هذا المعنى، إذا يقول رسول الله (ص) لعلي:" إذا اشتغل الناس بالنوافل فاشتغل أنت بالفرائض".

ففي يوم الاثنين ٢٠ شعبان ١٤١٧هـ الموافق ٣ديسمبر ١٩٩٦م تلقى السيّد فضل الله الرسالة التالية من السبحاني، وهذا نصّها:

" سماحة العالم الجليل حجة الإسلام والمسلمين السيّد محمد حسين فضل الله دام ظله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه لكم دوام الصحّة، والتوفيق المطّرد في ما ترومونه من خدمات صالحة للدين الحنيف والمجتمع الإسلامي. لا شك أنّ سماحتكم ممن توفرت فيه المواهب الفكرية والعلمية التي تتجلى في آثاركم المنتشرة ومحاضراتكم القيّمة في المؤتمرات الإسلامية، ولاشك أنّ هذه المواهب من ذخائر المسلمين. إنكم تحيطون علما بأنّ في الساحة الإسلامية خصوصا بين الشباب في الجامعات مسائل فكرية وعلمية تتطلب أجوبة علمية مقنعة، ولا يقوم بها إلا الأمثل فالأمثل من علماء الإسلام، ومنهم فضيلتكم. فإنّه لم تزل الأساتذة في الجامعات يثيرون هذه الأسئلة وقد كتب الغربيون حولها كتبا ورسائل عديدة وكثيرة، منها:

١. هل المعرفة البشرية تتجاوز حدّ الحس والمادة أو لا؟
٢. هل الدين يوافق الحرية الفكرية أو أنّه يعارضها ويقضي عليها أو يعرقل حركتها؟
٣. هل الدين ظاهرة مادية حدثت في المجتمع غبّ عوامل كالجهل بعلل الطبيعة، أو ضغط الإقطاعيين والرأسماليين على الفلاحين والعمّال، أو عوامل أخرى كالجنس وغيره من الأمور المذكورة في كتب الماديين؟
٤. هل الدين أمر إحساسي شهودي لا يخضع للبرهان، أو أنّه أمر عقلي برهاني خاضع له؟
٥. ماذا نفعل في مجال معارضة العلم مع الدين، مع أنّ الفروض العلمية ربما تعارض مقررات الدين أحيانا؟
٦. ما هي صيغة الاقتصاد الإسلامي على وجه التفصيل، وما هي الحلول الإسلامية للأزمات الراهنة في هذا الصعيد؟

٧. ما هي صيغة الدولة الإسلامية بين الصيغ المختلفة؟
٨. إذا كان الدين الإسلامي دينا جامعا فما هي صيغة سياسته الخارجية؟
٩. لقد ظهر في ميدان التجارة العالمية شركات عملاقة باعتبارات مختلفة ذكرها الفقه الوضعي وليس لها في الفقه الإسلامي أي أثر، وفي الوقت نفسه تطلب حلولا من منظار فقهي يعبر عن موقف الإسلام تجاهها، وقد ألف في ذلك المضمار شيء يسير لا يسمن ولا يغني.
١٠. إنّ الفقه الوضعي ككتاب الوسيط للسنهوري المصري يليق بأنّ يدرس من منظار شيعي؟

والقيام بهذه الوظائف يطلب جهدا حثيثا وأذهانا منوّرة. إلى غير ذلك من شبهات للمستشرقين الحاقدين في حياة الأنبياء والأولياء، إلى شبهات للوهابيين المتزمتين إلى تصادمات مع الصوفية التي تخدع شبابنا بمرونتهم في قضايا الحياة. أوليس من الفريضة على أمثالكم الاشتغال بهذه المباحث في إطار تربية جيل واع قادر على حل هذه المشاكل الخطيرة، تحت رعايتكم؟ وقد قال النبي (ص) لعلي (ع) : " إذا اشتغل الناس بالنوافل فاشتغل أنت بالفرائض". فهذا يفرض عليكم إيقاف البحث حول "الباب" و "الجدار" والمسائل التي توجب صدعا في الصف الشيعي أولا، ويفرح العدو المتربص ثانيا. فرجاؤنا الأكيد الاهتمام بما هو من الأمراض والأدواء الأصلية التي تضعضع الكيان الإسلامي وتهدد المسلمين بل الإلهيين قاطبة في صميم عقيدتهم. وشهيدي الله أنّي إنّما قمت بهذه الرسالة أداء للوظيفة وخدمة للوحدة، وتوقيرا لمقامكم وصيانة لشخصيتكم وتقبلوا فائق احترامي .

تحريرا في ٢٠ شعبان المعظَم ١٤١٧

قم- مؤسسة الإمام الصادق (ع) جعفر السبحاني" (نفسه/٢٢٨).

جواب فضل الله:

وقد أجاب السيّد فضل الله على رسالة السبحاني بتاريخ ٤ شوال ١٤١٧هـ يوم الثلاثاء، الموافق ١١ فبراير١٩٩٧م، وقد أعاد ما قاله سابقا من أنّ الضجة المثارة حوله ما هي إلا عمل مخطط له بإحكام من قبل المخابرات، ووراؤها تعقيدات حوزوية وأحقاد شخصية، وقد أجاب عن كل الشبهات التي تثار في كل مرة، وهو يعيد الجواب نفسه كما بيّن وأشار في رده، مع هذا فإنّ الإثارات هي هي، تعاد في كل مرّة، وهو يشعر بالمرارة من تأثر كبار الفقهاء والمراجع من الضجة المثارة حوله، والانسياق وراءها من دون تحقق وتثبت، ولا العمل بحسن الظن !!.

يقول فضل الله مخاطبا السبحاني:

" بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلامة المحقق حجة الإسلام والمسلمين الشيخ جعفر السبحاني دام ظله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع تقديري واحترامي وإعجابي بجهودكم العلمية وأبحاثكم القيّمة في مختلف الجوانب العقيدية والفقهية الإسلامية بتحقيق وتدقيق وشمولية.

وبعد .. فقد تسلمت رسالتكم الكريمة، وقدّرت لكم مبادرتكم الإسلامية في التعرف على واقع الحال في الضجة المفتعلة التي أثيرت حولي، مما دار الأمر فيه بين ما هو كاذب بنسبة ٩٠ ٪، وما هو تحريف للكلام عن مواضعه بنسبة ١٠٪، انطلاقا من بعض التعقيدات الحوزوية، والأحقاد الشخصية، والخلفيات المخابراتية، وقد أجبت عن الكثير منها وأوضحت واقع الحال، ولكنّ القائمين على الحملة لا يزالون يصرون على الاستمرار فيها بالرغم من كل شيء.

وقد شعرت بالمرارة لأنّ البعض من كبار القوم لم يحاولوا التثبت فيما لابد من التثبت فيه لاسيّما في موضوع يتصل بشخص لا يزال يقف في الساحة الإسلامية الثقافية والفقهية والسياسية منذ ما يقارب الخمسين سنة، مما يفرض الحمل على الأحسن، أو يقف بالإنسان عند الحجة بعد الاعتماد على ما لا حجية فيه من تسجيل جمعت عناصره على طريقة (ويل للمصلين) من عدّة محاضرات، أو ورقة لا توقيع فيها، ونحو ذلك.

أمّا ما ذكرتموه يا صاحب السماحة من الموضوعات الجديرة بالاهتمام، فإنّها هي التي توفرت ولا أزال أتوفر عليها في مؤلفاتي ومحاضراتي وحواراتي مع المثقفين والصحفيين في العالم الغربي والشرقي، كما أنّني أحاول التوفر على الفقه الوضعي ومقارنته بالفقه الإسلامي، وقد بدأت منذ أشهر في حوزة السيّدة زينب (ع) في تدريس كتاب الشركة على متن الوسيط للسنهوري في كل أسبوع. أمّا مسألة (الباب) و(الدار) فلم تكن موضوع اهتماماتي حتى بنسبة الواحد بالمائة، بل كان مجرد تساؤل في حديث عابر في مجلس خاص كجواب على سؤال، لم أنف فيه شيئا، بل تساءلت عن بعض القضايا، وأهملت الموضوع تماما، فلم أثره في مجلس عام، ونسيته كما نسيه الذين سمعوه، ولكنّ بعض الذين يصطادون في الماء العكر اطلعوا صدفة على التسجيل الصوتي للحديث، وحاولوا أن يستغلوه في المناسبة الفاطمية ويؤولوه وينقلوه بما لا واقع له.

إنّي أؤكد لكم أنّني لم أجعل هذا موضوع بحثي في أية حالة من الحالات، بل إنّ لديّ مجلسا للطلبة في كل أربعاء قد يقرأ فيه الخطيب واقعة

الزهراء(ع)، ويذكر كسر الضلع وغيره، من دون أن أقوم بالاعتراض عليه، لأنّ المسألة لا تمثل مشكلة لديّ في النفي أو الإثبات.

إنّني أشكر لكم رسالتكم وعواطفكم الطيّبة، وأرجو أن يقتدي إخواننا الكبار بكم في العمل على معرفة حقيقة الأمور قبل اتخاذ أي موقف، لأنّ المرحلة الحاضرة الصعبة التي يمر بها الواقع الإسلامي الفكري والسياسي والأمني لا تتحمل أية هزّة أو إثارة في إرباك الواقع الإسلامي.

وختاما أسأل الله أن يحفظكم ويؤيدكم ويديم ظلكم رمزا للعلم والحقيقة وللإسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع محبّتي ودعائي" (السابق/٢٢٩).

تدخل المرجعين الخراساني والتبريزي في قضية فضل الله والحكم عليه بالضلال والإضلال وفساد العقيدة ومحاربة الشريعة:

بدأت قضية السيّد فضل الله تتأزم يوما بعد يوم، وتتجه للتعقيد في كل ساعة تمر، وصار فضل الله في موقف لا يحسد عليه، فلم تعد القضية قضية كسر الضلع، أو الاختلاف في الرأي، أو الاجتهاد في بعض المسائل، وإنّما صار السيّد في نظر بعض المراجع والعلماء مصدرا للضلال والإضلال وفساد العقيدة الشيعية، ومحاولة نشر هذا الفساد في الوسط الشيعي ،بالتالي لابد من الحكم عليه بما يناسبه، ومن ثم وجوب التصدي له، وقد تحركت جماعات وجماعات من خلف المراجع، ولنستمع لصاحب كتاب "الحوزة العلمية تدين الانحراف" وكيف ينقل لنا ملابسات تصدي المرجعين الوحيد الخراساني وجواد التبريزي لفضل الله، والحكم عليه بالضلال. وسوف أنقل عباراته كما هي من دون تغيير، لا متابعة له، وإيمانا بها، وإنما حفاظا على الأمانة العلمية في النقل من المصدر كما وردت بنصها:

يقول المشهدي :" وفي شتاء عام ١٤١٧ نشر الشخص المذكور مقالا في مجلة المنهاج الصادرة في بيروت بعنوان (الأصالة والتجديد) اعتبر فيه الإمامة من الأمور المتحولة التي لم يقم عليها دليل قطعي، فانتفضت الحوزة في قم لكون ذلك تشكيكا في الإمامة الثابتة القطعية لأهل البيت (ع)، واتجه المراجع العظام إلى التفكير الجدي في مواجهة هذا الانحراف وغير ذلك من انحرافات وشبهات ألقاها خلال السنين المتأخرة، فأوعزوا إلى لجان خاصة من الفضلاء والأساتذة بدراسة الكلمات والنصوص الصادرة من الرجل بدقة وعناية للتأكد من حقيقة الأمر، والتحرك على أساس علمي متين في مواجهة هذه الظاهرة الخطيرة، واستمر عملهم لمدّة سنة تقريبا، وفي خلالها جرت مراسلات عديدة.

وجاءت مناسبة شهادة الصدّيقة الزهراء (ع) الفاطمية الثانية من هذه السنة، وكانت تقارير الفضلاء والأساتذة في الحوزة قد رُفعت إلى المراجع العظام حول انحرافات الرجل الواردة في كتاباته ومحاضراته، والتي درست بشكل تخصصي دقيق من قبل تلك اللجان التي أشرنا إليها، فتصدى العلمان الكبيران آية الله العظمى الوحيد الخراساني وآية الله العظمى الشيخ جواد التبريزي دام ظلهما الشريف، في مجلس درسهما في يوم ١٢ جمادى الأولى ١٤١٨هـ إلى استنكار تلك الانحرافات والتحذير منها وممن يلقيها في أوساط النّاس " (١٩)

وكان مما قاله التبريزي حول السيّد فضل الله وموقفه من الزهراء (ع) في ذلك اليوم السبت ١٢ جمادى الأولى ١٤١٨هـ الموافق ١٣ سبتمبر ١٩٩٧م قوله وبشكل واضح ومباشر، وذلك بعد أن يعدد ويذكر مظلومية الزهراء (ع) وما جرى عليها من القوم:

" ولكن ظهر أشخاص وبعضهم معممون ومنتسبون للسادات (ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، فهؤلاء ينكرون شهادة الزهراء عليها السلام، يعني ينكرون قول موسى بن جعفر عليه السلام من أنّها صدّيقة شهيدة، فاحذروا ونبّهوا غيركم! وقد سمعت - وإن شاء الله لا يكون الأمر كذلك- أنّهم في هذه الحوزة العلمية يريدون أن يعقدوا مجلسا باسم شهيد عظيم وأن يدعو ذلك الشخص الضال المضل ليخطب في تلك الجلسة، ونسأل الله أن لا يتم الأمر بهذا النحو، فهذه الحوزة هي ركن التشيع، والحوزة هي المكلفة بحفظ التشيع، وهؤلاء الذين هم على هذا الحال (من الضلال) يجب أن لا يتخذ معهم هذا النوع من التعامل في هذه الحوزة بحيث ينعكس الأمر عند الشباب ويكون دليلا لهم على حسن حاله، ويُقال إنّ مثل هذا الشخص ذهب إلى الحوزة وكانت له جلالة واحترام في مجلس ابن آية الله الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)، فقد جعلوا ذلك الشهيد العظيم "السيّد مصطفى الخميني" قميص عثمان، وهو الذي خدم الإسلام والشيعة وهذا البلد، إنّهم يريدون أن يعقدوا باسم هذا الشهيد مجلسا ومؤتمرا ليأتي مثل هؤلاء الأشخاص (المضلين) ويحاضروا.

إنّني أقول والله شاهد على ما أقول إنّ قلوبنا ممتلئة دما و(قيحا)، فهؤلاء يفسدون عقائد الشباب، والرسائل التي تصل إلينا من الخارج جعلتنا في حيرة من الأمر. إنّ الترويج لأولئك فيه إشكال شرعي وغير جائز إلا أن يعود هذا الشخص ويقول إنّ ما قلته من الكلام كان اشتباها، ولا عيب في ذلك، فالإنسان غير معصوم، وحينها سيكون أخا لنا وشخصا كبيرا، ولكنّه مادام باقيا على حاله فلا " (ص٢٤٠).

تعد هذه اللحظة لحظة فارقة في قضية فضل الله، ولحظة قاسية، ومنعطف خطير في مسيرة الخلاف حول فضل الله، وما يتداوله الناس والطلبة من أقواله في قضية الزهراء (ع)، فإذا كان من قبل يواجه العاملي والموسوي والإيرواني وغيرهم، فإنّه الآن أمام إعصار من التأليب والتأثير وقوة الكلمة والرأي والتأثير العام في المجتمع الشيعي برمته، إنّه الآن أمام قوة ونفوذ المرجعية، وصار المراجع هم الخصم أمامه، وليس العاملي، وإذا قال التبريزي كلمة ليس كما إذا قالها جعفر مرتضى العاملي بلاشك، وإذا حكم عليه المرجع وآية الله العظمى بالضلال ليس كما إذا حكم عليه باحث إسلامي، وهذا ما حدث، لذا كان هذا اليوم يوما فاصلا، ومشهودا في مسيرة السيّد فضل الله، وقضيته التي تعتبر فتنة وأزمة مرّ بها الشيعة في عصرنا. ولو كان التبريزي وحده من توجه لفضل الله لكفى، فما بالك إذا اجتمع معه المرجع الآخر، ونعني به آية الله الوحيد الخراساني، ففي اليوم نفسه وبالمناسبة ذاتها، ألقى هو الآخر خطابا طويلا في جموع من طلبة العلوم الدينية والحاضرين والمهتمين أكد فيها مظلومية الزهراء (ع)، وهو بذلك يعرض بفضل الله وتوجهه وآرائه فيها وما جرى عليها .. ومن الواضح والجلي أنّ المرجعين كانا متفقين على توقيت الخطاب، وبينهما بكل تأكيد تنسيق مشترك في الحديث والتعريض بفضل الله، وتسفيه أقواله. فكلاهما ألقى الخطاب في يوم السبت ١٢ جمادى الأولى ١٤١٨هـ الموافق ١٣ سبتمبر ١٩٩٧م، وباللغة ذاتها، والتوجه عينه !!.

التبريزي بجانب خطابه ذاك فقد أفتى وأجاب سائليه حول رأيه في فضل الله، وجواز تقليده، بأنّ الرجل ضال ومضل ومتلبس بلباس الدين، وهو عدو له، ولا يجوز تقليده ولا اقتناء كتبه ولا قراءتها ولا الترويج لها وله ولمرجعيته، وهو ممن لم يثبت اجتهاده، ومن الواجب التصدي له بكل قوّة وحزم من قبل المؤمنين والدفاع عن العقيدة في قبالة ما يروج له السيّد المذكور!!

يقول السائل موجها السؤال للمرجع التبريزي:

" سماحة الشيخ الجليل حضرة آية الله العظمى دام ظلكم العالي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لديّ سؤالان أرجو الإجابة المستعجلة عليهم:

ما هو رأيكم الشريف في فضل الله، وهل يجوز اتخاذه مرجعا للتقليد؟
خادمكم البار وابنكم المخلص.

بسمه تعالى

ذكرنا مرارا أنّ الرجل المذكور ضال مضل لا يجوز الترويج له ولا قراءة كتبه ولا ترويجها ولا يجوز تقليده لضلاله وعدم ثبوت اجتهاده، ويجب على كل مؤمن الدفاع عن العقائد الحقة للمذهب وتنبيه الغافلين من المؤمنين حتى لا يقعوا تحت تأثير المضلين المتلبسين بلباس أهل الدين والله الهادي إلى الصواب"

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتب سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

الميرزا جواد التبريزي (دام ظله)

سماحة الشيخ المحقق حضرة آية الله العظمى دام ظلكم العالي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لي سؤال أرجو الإجابة المستعجلة عليه

ما هو رأيكم الشريف في فضل الله وهل يجوز اتخاذه مرجعا للتقليد؟

موقف فضل الله من خطاب المرجعين التبريزي والخراساني:

ما إن تلقّى فضل الله ذلك الخطاب، وتلك العبارات والحكم عليه بالضلال وفساد العقيدة وحرمة كتبه وقراءتها من التبريزي والخراساني حتى شعر بالضيق والمرارة والألم، وخيبة الأمل، وكانت صدمة كبرى لم تكن تخطر على باله، وأصبح كأنّه يقطع قطعة قطعة، فقد بدأ المراجع يحاربونه، ويعملون على تسقيطه، ويشوهون صورته وتاريخه، ويصورونه عدوا لأهل البيت (ع) وللعقيدة، وهو أشبه ما يكون بالجاهل والمتربص بالمذهب. وكان أكثر ما آلمه أنّ المرجعين اعتمدا في حكمهما عليه على النقولات وآراء الآخرين، ولم يقوما بالاتصال به، ويعملان بالتثبت والتريث والتحقيق، وكان هذا أجدر بهما وهما علمان كبيران. ثم ذكرهما بضرورة التفريق بين ضرورات المذهب التي هي عند العوام، وبين كونها من ضرورات المذهب

عند العلماء، بعدها أخذ يتكلم بمرارة وحرقة وألم، وهو يعتصر ويتأوه مما قالاه في حقه، وما صدر منهما، ويشتكي إلى الله، فهو الذي سيحاسبهم على كل كلمة صدرت منهما في حقه، وما تفوها به في محضر من الملأ، وما قاما به من هتك حرمته، وفضحه، وإيذائه، ويدعو المؤمنين للحذر وعدم الانجرار للفتنة . وكان تعليقه وخطابه أو بيانه بعد ٦ أيام فقط من خطاب المرجعين، وذلك في يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى ١٤١٨هـ الموافق ١٩ سبتمبر ١٩٩٧م.

يقول السيّد فضل الله في بيانه:

" بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الجدير بالعلماء - لاسيّما الكبار منهم - التثبت والتريث والتحقيق فيما يُنقل إليهم أو فيما يقرأونه من خلال معرفة شخصية الناقل الذي قد يكون خاضعا لعقدة معينة أو لشبهة خاصة، ودراسة الكلمة المكتوبة من حيث ملاحظة المقام الذي قيلت فيه مقارنة بكلمة أخرى قيلت في مقام آخر، على أساس أنّ لكل مقام مقالا، مما يدخل بالقرائن المقامية أو الكلامية، هذا بالإضافة إلى الاتصال بالشخص وسؤاله، لاسيّما إذا كان في موقع المسؤولية، ولم يتصل بي أحد من هؤلاء. لا سيّما المراجع، ولم يسألني أحد منهم عن طبيعة هذه الأمور، مما يجعل المسألة في الكلمات الصادرة منهم بعيدة عن التثبت في الحكم ومبنية على الحمل على الأسوأ وعلى عدم الأخذ بقواعد الحجية في السند وفي المتن أو القضاء.

إنني أؤكد على ضرورة التعقل في مواجهة هذه الأمور، وأذكر الجميع بالله وباليوم الآخرة، كما أؤكد على حماية ضرورات المذهب وعلى التفريق بين الضرورات عند العوام والضرورات عند العلماء، وأقول لهؤلاء - ممن نحترم مقامهم - إنّي أوكل الأمر إلى الله، فهو الذي يحاسبهم على هذا الكلام الذي لا ينطلق من التقوى، وإنّي أشكوهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإلى جدتي المعصومة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) التي استخدموا اسمها لهتك حرمة المؤمنين ولإيقاع الفتنة بين المسلمين.

وأدعو الأمّة - ولا سيّما الجيل الواعي - إلى اليقظة والحذر وعدم الانسياق وراء الإثارات التي تمزق وحدة الأمّة وتضر بالطائفة المحقة التي لا خوف على عقائدها الحقة إلا من الذين لا يتعمقون في دراسة حقائقها من خلال المصادر الموثوقة في الكتاب والسنّة. اللهمّ إنّي أشكو إليك ما لقيت من الظلم وأنت الحكم العدل في الأمور . (اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون)." (٢٦٢).

موقف مناوئي فضل الله من خطاب المرجعين:

على عكس ما كان عليه فضل الله من غصة وألم وحرقة من خطاب المرجعين، فإنّ مناوئي فضل الله، والمتربصين به كانت فرحتهم عارمة لما سمعوه من التبريزي والخراساني، وقد وقفوا صفا واحدا في تأييد ما جاء في الخطابين من تعريض بفضل الله والحكم عليه بالضلال وتحريم كتبه. وقد أخذت كتبهم وبياناتهم المؤيدة للمرجعين تتالى الواحدة بعد الأخرى، وكانت البيانات كثيرة جدا، كلها تدعم وتؤازر وتقف في صفهما، في قبالة فضل الله، ولم يجد السيّد مناصرا، أو منافحا عنه، ومن يقف في صفه.

ففي يوم الأربعاء ١٦ جمادى الأولى ١٤١٨هـ، الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٩٧م أصدر أساتذة الحوزة العلمية العربية في قم بيانا في تأييد حكم المراجع في حق فضل الله، أي قبل خطاب فضل الله بيومين، وكان البيان موقعا من كل من:

١. حسين الشاهرودي
٢. أحمد المددي
٣. مصطفى الهرندي
٤. علي رضا الحائري
٥. محمد هادي آل راضي
٦. حسين النجاتي
٧. باقر الإيرواني
٨. حسن الجواهري

أما نص البيان فكان كالتالي:

" بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين لا يخفى على إخواننا المؤمنين أنّه قد طرحت في الآونة الأخيرة على الساحة أفكار وآراء تتعارض مع الضرورات المسلمة عند الطائفة الإمامية. وقد تصدّت الحوزة العلمية للرد على هذه الشبهات والتشكيكات، وكان من المبادرين للقيام بهذه الوظيفة العلمان الجليلان آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني وآية الله العظمى الشيخ جواد التبريزي دام ظلهما الشريف في مواطن عديدة دافعا فيها عن عقائد أهل البيت (ع) وضرورات المذهب.

ونحن إذا نطالب المؤمنين باليقظة والتنبه والابتعاد عمّا يستوجب مسّ الضرورات الثابتة عند الطائفة الإمامية نؤيد وندعم المواقف الشرعية

الصادرة من المراجع العظام حفظهم الله تعالى في هذا المجال. نسأل الله تعالى أن يقي الأمة شر هذه الانحرافات، ويأخذ بأيدي الجميع لما فيه الصلاح، إنّه سميع مجيب" (٢٥٨).

والغريب والمدهش والذي يحير اللبيب أنّه في الوقت الذي يدعو فضل الله المؤمنين لليقظة والتنبه والحذر وعدم الانسياق وراء ما يثار، تجد العلماء في المقابل يدعون المؤمنين لأخذ الحذر واليقظة وعدم الانسياق وراء ما يثار...، وفي الوقت الذي يدعو فضل الله للحفاظ على المذهب والعقيدة، تجد مناوئيه يدعون للحفاظ على المذهب والعقيدة، وبلا شك فإنّ ما يرمي له فضل الله هو على النقيض تماما مما يدعو له مناوئوه، وإن كانت دعوتهما واحدة، ويبقى المؤمنون من العوام والبسطاء من الناس في حيرة من أمرهم، ويقعون بين المطرقة والسندان، فهؤلاء علماء وهؤلاء علماء، هؤلاء معممون وهؤلاء معممون، وكل يرى أنّ الحق معه، والحقيقة ترافقه، وهو الأحرص على العقيدة والمحافظ على ضرورات المذهب، والحارس لها، أما الآخر فهو العدو والذي يهدم الأسس، ويحارب العقيدة، ولعمري فإنّ القضية أبعد ما تكون عن ذلك كله، القضية برمتها عنف فكري، وإقصاء للآخر، ولا أريكم إلا ما أرى، والعنف المدمر الذي ينطلق من الداخل، من الصديق والأخ والأستاذ والتلميذ!!.

ثم جاء بيان تأييد جمع من فضلاء وأساتذة الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة لحكم المراجع، أما عدد الموقعين على هذا البيان فهو أكثر من أن نورد أسماءهم هنا، فهم بالعشرات، أسماء لا حصر لها قامت بالتوقيع ضد فضل الله ودعما للمرجعين، عدد كبير، وكم هائل من طلبة العلوم الدينية في حوزة قم، وجاء في مقدمة البيان هذه العبارات: بيان جمع من أفاضل ومدرسي الحوزة العلمية في قم المقدّسة حول الأفكار المنحرفة المطروحة المنتشرة أخيرا في الساحة، وهي عبارات تحمل الكثير من الدلالات من قبل أن يُقرأ البيان، وفيه يرى علماء قم بأنّ فضل الله يُعد عدو من أعداء أهل البيت (ع)، وهو مريض القلب بالزيغ والضلال والانحراف عن خط أهل البيت (ع)!!. وهو يحاول أن يحرف الناس والشيعة عن خط أهل البيت (ع)، وعن الاعتصام بهم وبحبلهم، وليس هذا فحسب، بل فضل الله صار في نظر علماء قم المقدسة خائنا وعميلا، يتجلى ذلك في هجومه على المذهب والعقيدة والذي لا يتوقف.

وكان البيان كالتالي:

" الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعن على أعدائهم أجمعين.

للأسف البالغ قد أشيعت في السنوات الأخيرة أفكار منحرفة مغرضة، تهاجم على الدوام مقدسات وضروريّات المذهب الحق الاثني عشري، ولإيجاد مرض الريب في القلوب تجاه الثقل الثاني، أعدال القرآن الكريم، لزعزعة أساس حبل الاعتصام بهم، والحوزة المقدسة العلمية في قم حيث رست قاعدة للدفاع عن حريم المذهب والحافظة لمعالم التشيع في قبال الهجمات الخؤنة العميلة، أحسّت بوظيفتها في دعم موقف زعيمي الحوزة المرجعين آية الله العظمى الشيخ وحيد الخراساني وآية الله العظمى الميرزا الشيخ جواد التبريزي أدام الله ظلالهما الشريفة على رؤوس المسلمين في فتوييهما حول صاحب هذه الشبهات ومروجّيها بأنّه منحرف عن المذهب "وضال مضل" وحذّروا الطائفة الشيعية عن هذه الأفكار والعقائد المخالفة لصرح التشيع. فنحن إذ نحذر الحوزات العلمية والطلاب والفضلاء والمحققين العظام والخطباء الكرام، ندعوهم إلى اتباع المراجع العظام للطائفة حفظهم الله تعالى، وننبّه عموم الأخوة المؤمنين لليقظة في قبال هذا المخطط الخطير. ونسأله تعالى حفظ وصيانة مذهب حياة البشرية، المذهب الشيعي المظلوم من الأفكار المدسوسة المغرضة، وأن يوفقنا للكون في طريق رضاه وخدمة مذهب الحق" (٢٥٩).

مكتب السيّد فضل الله في دمشق يصدر بيانا ضد السيّد السيستاني نصرة لفضل الله:

ذكرنا في الصفحات السالفة العبارات التي أوردناها للخطيب السيّد الكشميري حول رأيه في قضية فضل الله، وقد أشار من بين ما أشار له الوكالة التي أعطاها السيّد السيستاني لمرجعية فضل الله، وقد جاء فيه : " ولكن بعد وفاة الإمام الخوئي وتنصيب الإمام السيستاني خليفة له نشط الإيرانيون حينها للترويج لمرجعية المرحوم السيّد الكلبايكاني إلا أنّ السيّد فضل الله صرّح في إحدى تصريحاته القوية بأنّ السيستاني هو الأعلم. ثم تكررت نفس الحالة بعد وفاة المرحوم السيّد الكلبايكاني حينما رشّح الإيرانيون مرجعية المرحوم الشيخ الآراكي، فتوالت مواقفه السلبية تجاه المرجعيات الإيرانية. وماذا بعد:

كان من المتوقع أن تقوم مرجعية النجف الأشرف بتقدير ذلك له، إلا أنّهم استصحبوا مواقفه الداعمة للإمام الخميني رحمه الله. وانفجر الموقف حينما أرسل له المرجع الجديد وكالة تافهة جدا كالوكالات التي ينشرها على من هبّ ودب. فرفضها وأعادها إليه كونه يرى نفسه تلميذا مبرزا للإمام الخوئي. وتصدّى بعد هذا للمرجعية بنفسه ثم أخذ يصرّح بعدم الأخذ بالأعلمية ولم يعد يراها شرطا في التقليد، وهنا حصل التصادم، حيث سعى الإيرانيون إلى نشر مرجعيتهم في الخارج على ضوء قاعدة ولي أمر المسلمين، وهذا التصدي من المرحوم في زمانه شكل تقاطعا صعبا، وجرى

التفاوض معه عبر شخصيات زارته، لكنّه أصرّ على خياره فكان ما كان وحصل ما حصل".

هذا ما ذكره الكشميري، إن صح الخبر والنقل، وعلى إثر ذلك ، قام مكتب السيّد فضل الله في دمشق بكتابة بيان مطول عبارة عن خطاب مفتوح للسيّد السيستاني، وهو خطاب يقرّح الفؤاد، خطاب مملوء بالعبارات التي لا تليق لا بالسيّد فضل الله ومكتبه من جهة، ولا بالسيستاني ومرجعيته وشخصه من جهة أخرى، ولكن العداوات والعنف متى ما دخلت في النفوس فإنّها ساعتها تعمي ويكون صاحبها كالتائه لا يبصر ما أمامه، حتى ولو كان أكبر العلماء وسيّد القوم.

وإلى القارئ نص البيان كما هو :

" بسم الله الرحمن الرحيم .. سماحة آية الله السيّد السيستاني (دام ظله)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد انتشر منشور في أكثر من مكان في العالم ينطق بلسانكم حول بعض القضايا المتعلقة بموقفكم من السيّد فضل الله.

أولا: يقول المنشور: " إنّي أخالف آراء السيّد فضل الله لأنّها تخالف آراء السلف من علمائنا".

التعليق: إنّ آراء السيّد محمد حسين فضل الله تتلخص بالإيمان بالأنبياء وبعصمتهم في كل الأمور، وبالأئمة الاثني عشر وبعصمتهم، وبإقامة العزاء على الحسين (ع) بالطرق المشروعة، وبعصمة الزهراء (ع)، وطهارتها مع إثارة بعض علامات الاستفهام العلمية حول بعض ما نُسب إلى مظلوميتها، مع التأكيد على الجريمة الكبرى في غصب الخلافة، وإذا كان قد نُقل إليكم كلام حول كون الإمامة من النظري والمتحول والمتغير فإنّ القوم لم يفهموا الكلام الذي كان يؤكد أنّها كانت كذلك بطبيعتها في مقام تحرير النزاع لا في مقام البحث الذي يؤكد أنّها من القطعيات بالدليل عند سماحة السيّد فضل الله، كما أنّ آراءه موجودة لديكم في الكتب الموجودة عندكم الصادرة عنه، فهل آراؤه هذه مما تخالفونه فيها يا سماحة السيّد، وقد أرسل إليكم أنّ ما نُسب إليه غير صحيح بل هو دعاية متحركة من بعض الحاقدين.

ثم هل اطلعتم على رده العلمي على "العلماء الغيورين حسب ما نُسب إليكم الذين أفتوا ضد هذه المقولات المنحرفة التي لا أساس لها" ؟ وهل يجوز لكم ولهم الإفتاء بغير علم؟

ثانيا: لم يتحدث أحد عنكم أنّكم تقولون إنّه مجتهد، وهو لم يطلب منكم إجازة اجتهاد، لأنّه يعرف بعدم وجود علاقة علمية بينه وبينكم لتعرفوه علميا، فلا داعي للقول :" أنا لا أقول بأنّه مجتهد" قبل ..... هذا القول منكم صحيح في الوقت الذي كانت تقريرات أبحاثه الفقهية موجودة بين أيديكم.

ثم، ما معنى أنّه "كان في الحوزة شخصا عاديا كبقية العاديين" في الوقت الذي لم تعرفوا عنه شيئا في ذلك الوقت ومدى نشاطه العلمي، حتى أنّ الشهيد السيّد الصدر (قده) قد طلب تقريراته لبحث السيّد الخوئي (قده) ليريها السيّد (قده) ليعرف أنّ في العرب فضلاء وهكذا كان. ولعلكم لم تسمعوا أنّه كان يدرس الكفاية والرسائل والمدارك، وكان معروفا بقوة الحجة في المذاكرة في مجالس أهل العلم، ولا أدري هل كان سماحتكم في ذلك الوقت "شخصا يُشار إليه بالبنان" في البحث العلمي أو "من أهل الحل والعقد" ؟ وهل يصلح في عالم التقييم أن يتحدث عن الشخص قبل أكثر من ثلاثين سنة أو يتحدث عنه في درجته العلمية الآن وقد كان ولا يزال يدرس بحث الخارج أصولا وفقها وتفسيرا منذ ربع قرن، فكيف تحكمون بما لا تعلمون، لو صحّ ما نُسب إليكم؟!

ثالثا: يقول المنشور: "أرسلنا إليه وكالة عادية حسب طلبه بواسطة وكيلنا السيّد جواد لكنه قال إنّها لا تليق به وطلب وكالة أوسع فسحبناها ولم نعطه إياها ولم نعطه غيرها". إنّ هذا الكلام مخالف للواقع جملة وتفصيلا، والسيّد جواد يعلم ذلك، لأنّه لم يطلب هذه الوكالة أولا، بل ردّها ردّا كريما من دون تعليق، ولم يطلب وكالة غيرها، فكيف تتحدثون بخلاف الواقع، إذا كان ما نُسب إليكم صحيحا ..؟ وكيف تحكمون بأنّه يأخذ الأموال بالباطل لأنّه ليس وكيلا، وقد أرسلتم إليه وكالة شفهية مطلقة قبل اتساع مرجعيتكم على لسان بعض الثقاة عندكم في النجف الأشرف؟

سيّدنا: إنّ أول علامات المرجعية والعدالة هو التثبت قبل التفوه بكلام يؤدي إلى التشهير بالمؤمن لدى النّاس، وقد كانت مبادرة طيّبة أن أرسلتم إليه ورقة تطلبون فيها الإجابة على بعض الأسئلة المتعلقة بالإمامة، وقد وصلكم جوابه الواضح الذي لا لبس فيه، مما لا ندري هل تخالفونه في الرأي فيه؟

لقد كان سماحة السيّد من بين القلّة في ذلك الوقت الذين جاهروا بالإرجاع إليكم بأنّ تقليدكم مبرئ للذمة، وقد أخذ الكثيرون في العالم الشيعي رأيه بذلك، وهو لا يمتن عليكم بذلك، ولكن ما معنى "الشخص العادي" و "الوكالة العادية" وهل ترضون أن يتحدث أحد عنكم بذلك؟

إنّ هذا المنشور يمثل خيبة ظن بالمرجعية، ولا ندري هل هو صحيح في صدوره عنكم أو غير صحيح، فلا بدّ لكم من تكذيبه من خلال مكاتبكم لتمنعوا الذين يكذبون على المرجعية من تشويه صورتها لدى النّاس بإظهارها بمظهر عدم التثبت والإساءة إلى رموز الإسلام والتشيع والكلام بما لا يتناسب مع مقامها الرفيع .. إنّ المؤمنين ينتظرون موقفكم قبل اتخاذ الموقف المناسب لذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

بلا شك، ومن الجلي أنّ هذا الخطاب المشحون بالتحدي والرد والجدل، والذي ينتهي بما يشبه التهديد لا يمكن أن يقبله أحد، لا من مقلدي السيستاني ولا ممن لا يرجع إليه، جميع الشيعة والعقلاء، حتى مع افتراض أنّ السيستاني قد صدر منه بيان، وقد أخطأ في ذلك البيان وفي تقديراته وفي موقفه من مرجعية فضل الله، ولكن مع هذا لا يمكن لأحد أن يتقبل تلك اللغة التي سادت الخطاب السالف، لغة لا تناسب عالما مازال في السطوح، فكيف وهو السيستاني، من الطبيعي والحال كذلك أن يثير ذلك الخطاب زوبعة وضجيجا، وتكون له ردات فعل غاضبة، ويطالب الكثيرون بتكذيب فضل الله له، أو على الأقل أن يوضح موقفه منه، أيقبل بما صدر من مكتبه في دمشق أو أنّ له رأيا آخر، أهو معه جملة وتفصيلا أم أنّه يرفض ما فيه من عبارات وتهديد وردود حادّة؟

وكانت الصدمة، وكانت المفاجأة والتي لم يكن يتوقعها أحد أنّ السيّد فضل الله أصدر بيانا يؤيد كل ما في ذلك البيان، وهو معه جملة وتفصيلا، ولا يرى أنّ فيه ما يسيء، وليس فيه أي عبارات يفهم منها التهديد أو الإساءة للمرجعية!!.

ففي يوم الأحد ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٨هـ، الموافق ٢١ سبتمبر ١٩٩٧م أصدر السيّد فضل الله هذا البيان، والذي ختمه بختمه، وكله مناصرة وتأييد لذلك البيان السابق، والصادر من مكتبه بدمشق، ولا أستبعد أن يكون للسيّد فضل الله يد في صياغته والإشراف عليه ومتابعته بل ودفع المكتب للرد، فالأفكار والعبارات والجمل هي هي التي قرأناها له في ردوده السابقة على مخالفيه، ويعيد مسألة التثبت والتي هي أهم خصال التقوى والعدالة والمطلوب توافرها في المرجع، لقد كررها كثيرا من قبل، ولكنّه في آخر البيان يبدي احترامه وتقديره لسماحة السيّد السيستاني .. يقول السيّد فضل الله:

" بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد صدر البيان من مكتبنا وليس فيه أي شيء سيء، فإنّه لم يقصد فيه التهديد كما فهم خطأ، ولكنّه أريد به كما ذكر لنا في المكتب إظهار حجم الفتنة التي أثارها البيان المنسوب إلى السيّد والآخرين ، وعلى كل فقد أغلق هذا الملف ولا مصلحة في إعادة فتحه من جديد لا سيّما أنّنا نحترم سماحة السيّد (مدّ ظله) وحوزة النجف الأشرف المباركة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (٢٦٦).

رسالة مؤسسة دار الإسلام الخيرية إلى الشيخ ميرزا جواد التبريزي:

مرّة أخرى تتدخل دار الإسلام الخيرية في الدفاع عن فضل الله، المرة الأولى في موقفها من الشيخ فاضل المالكي حين تعرض لفضل الله في أحد مجالسه الحسينية بشهر محرم، وقد أوردنا في الصفحات السابقة بيانها، والمرة الثانية حين وجدت الدار والمسؤولين فيها مدى الهجوم القاسي والفتاوى الشديدة من قبل التبريزي في حق فضل الله، حينها قامت الدار بكتابة خطاب استنكار واستياء إلى التبريزي، معلنة فيه براءة السيّد فضل الله من كل ما نُسب إليه، أو يُتهم به، وأنّه علم من أعلام الطائفة، وكل ما يقال عنه فهو كذب ويخدم أعداء الإسلام، وأنّ هذه الفتاوى الصادرة من التبريزي ما هي إلا بسبب تأثير المحيطين به، وأنّ التبريزي قال ما قال دون تثبت ولا تحقيق في القضية، وأنه بفتاواه تلك ضد فضل الله قد أنزل من مكانته لدى شريحة كبيرة من المؤمنين، ثم أنّ الغريب في الموضوع أن هناك العشرات ممن أساؤوا للمذهب وللعقيدة، وكتبوا عشرات الكتب مما تصدق عليها أنّها كتب ضلال، ومع هذا لم نجد موقفا منها شديدا ولا حتى ضعيفا، كما وجدنا من موقف حاد ضد فضل الله بالذات دون غيره !!.

وكان هذا الخطاب بيوم الأربعاء ٣٠ جمادى الأولى ١٤١٨هـ الموافق ١ أكتوبر ١٩٩٧م، وقد أرسل إليه من لندن حيث مقر المؤسسة، وهذا نص الخطاب:

" بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله وحده وصلى الله على محمد خير خلقه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

سماحة آية الله الشيخ ميرزا جواد التبريزي دام ظله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يمن عليكم بدوام الصحة والعافية وأن يديم بقاءكم الشريف لخدمة الحوزة الدينية، ونشر علوم أهل البيت (ع) ونصرة الإسلام والمسلمين.

شيخنا الكبير .. تلقى المؤمنون في بلاد الغرب وفي بلدان أخرى بياناتكم الأخيرة ضد سماحة آية الله العظمى السيّد محمد حسين فضل الله حفظه

الله، وقد أثار ذلك استغرابهم وقلقهم، على أساس أنّ ما تحدّثتم به عن سماحة السيّد فضل الله يدل على عدم سماعكم وقراءتكم لحقيقة آرائه وأفكاره في خصوص أهل بيت العصمة (ع) فسماحته خدم الطائفة منذ أكثر من نصف قرن مضى، وقدّم للعالم الإسلامي فكر أهل البيت (ع) ودافع عن ظلامتهم ومدرستهم وتصدّى لكل المحاولات التي أرادت النيل منهم، وتشهد على ذلك مؤلفاته القيّمة الكثيرة ومحاضراته التثقيفية ودروسه العلمية ومقابلاته الصحفية، كما أنّ سماحته مارس دوره المشكور على أحسن وجه في تعريف العالم بالشيعة والتشيّع، وانتصر لهم في المحافل والندوات العالمية، ودافع عن الحوزات العلمية وتصدّى لمحاولات النيل منها، وقارع أهل الضلال من أعداء الإسلام وأحبط حملاتهم التشهيرية ضد الإسلام ومدرسة أهل البيت (ع) خاصة، حتّى تعرّض سماحته لأكثر من محاولة اغتيال من قبل الاستكبار وأعداء أهل البيت، وما يزال يقف بوجه الأعداء بكل قوّة وصلابة، وهذا أمر معلوم للجميع ولا نظنّه خافيا على شخصكم الكريم.

إنّ سماحة السيّد فضل الله علم من أعلام الطائفة، ورمز من رموز الإسلام، له أمّة من المؤيدين والمقلدين المنتشرين في بلاد الغرب ومناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وهم على دراسة تامّة بعقائده وآرائه، وعلى معرفة أكيدة بخدماته وجهوده، فلذلك فإنّ التعرض له بتهم هو بريء منها يسيء إلى مشاعر المؤمنين من جهة، ويخدم أعداء المذهب والإسلام من جهة أخرى، عندما يجدون أنّ أعلام الشيعة يهاجم بعضهم البعض ويتّهم أحدهم الآخر، وهو توهين لموقع المرجعية العامة، وإضعاف في نفوس المؤمنين، وهذا ما يريده أعداء أهل البيت (ع) ويبذلون من أجله الأموال ويستخدمون الرجال.

شيخنا المعظّم ... إنّ مقامكم العلمي وموقعكم في الحوزة العلمية يستدعيان أن تكون آراؤكم وأحكامكم بحق الأشخاص والموضوعات صادرة عن تثبّت وتدقيق كامل، الأمر الذي جعل المؤمنين في بلاد الغرب يستغربون مواقفكم من سماحة السيّد فضل الله، على اعتبار أنّ ما تصفونه به من صفات يتعارض مع حقيقة أفكاره وكتاباته المدونة منذ عشرات السنين، وهذا ما دفع جموع المؤمنين إلى القول إنّ سماحتكم وقعتم تحت تأثير البعض ممن لا يتورع عن التشكيك والاتهام، أو أنّه غير ثبت في فهم مداليل الكلام، بل إنّ كلاما راح يُقال هنا وهناك يسيء بمجموعه إلى مقامكم العلمي الرفيع، على أساس أنّ قضايا الفكر والتاريخ والعقيدة لا تُطرح بهذه الصورة التشهيرية وعلى عامة الناس، وأنّ منهج العلماء هو المحاججة العلمية القائمة على قواعد التثبّت والأخذ والرد بالدليل والحجّة، كما هو منهج الحوزات العلمية في قم المقدّسة.

إنّ المؤمنين يتساءلون ما هي حقيقة القضية؟ وهل أنّ موضوعها حقيقة يختص بضرورات وثوابت المذهب، وما هي هذه الضرورات والثوابت؟ أم أنّها شأن تاريخي اختلف عليه علماء الطائفة منذ القدم كما اختلفوا على الكثير من القضايا التاريخية والفكرية والفقهية وغير ذلك، وكانوا أعلى الله مقامهم على طول التاريخ يتحاورون ويردّ بعضهم البعض بالدليل والحجة، لا بطريقة التشهير والنيل والاتهام، وإنّما بلغة الحوار العلمي الذي تفتخر بها حوزتنا على غيرها.

سماحة شيخنا المعظّم ... إنّ المؤمنين درسوا بدقة آراء وأفكار سماحة آية الله السيّد فضل الله، وهم يرون أنّ ما تتهمونه به لا ينطبق عليه بأي حال من الأحوال، لأنّ أفكاره مدوّنة ومسجّلة، وهي واضحة المداليل والمعاني في كونها تحكي عقائد مدرسة أهل البيت (ع)، ولم يعد الشيعة اليوم عواما متخلفين، بل بفضل بركات الصحوة الإسلامية وجهود العلماء العاملين وصلوا إلى درجات عالية من الوعي والفهم والإدراك بحقائق الأمور، وقد رجع المؤمنون بالسؤال والاستفسار في هذا الخصوص إلى طائفة من أعلام الطائفة، فنزّهوا سماحة السيّد فضل الله عمّا يُنسب إليه، واعتبروا ذلك فتنة يراد لها شق الصف وتوهين أعلام الشيعة الذين يتصدون لأعداء الإسلام بكل قوّة وثبات وصبر، كما يدل ذلك دلالة واضحة على هشاشة موقع المرجعية واهتزاز الفكر من خلال تفشّي الحسد والحقد والجهل بروّاد الإصلاح ورجال التغيير في مرحلتنا الراهنة الصعبة.

شيخنا الكبير .. إنّ هناك من أساء إلى المذهب حقيقة، ونشر كتاباته الضالة التي أنكر فيها ضرورات المذهب الأصيلة، ولكن للأسف لم يتصد له العلماء الأعلام .. وهناك الكثير ممن يمارسون التشكيك في التشيع بمختلف الصور والأساليب دون أن يظهر من رموز الحوزة العلمية من يردّ عليهم، وهذه هي المسؤولية التي ننتظرها من سماحتكم لما نعهده في شخصكم المبارك من حرص على خط أهل البيت (ع).

كما أنّ المؤمنين يتطلعون إلى مقامكم الشريف من أجل قتل الفتن وإحباط المحاولات الضالة التي تهدف إلى تمزيق الصف، وبثّ الخلاف بين رموز الحوزات العلمية، فسماحتكم تضطلعون بمسؤولية تاريخية شرعية في هذا المجال، كما هو الحال في كل أعلامنا أدام الله تعالى وجودهم وحفظهم من كل مكروه ذخرا لمدرسة أهل بيت النبوّة سلام الله عليهم أجمعين.

وفي الختام نبتهل إلى العلي القدير أن يسدد خطانا جميعا، وأن يبقيكم وسائر الأعلام عونا وناصرا للإسلام، إنّه ولي التوفيق، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم" (حسن بركة الشامي، مصدر سابق، ص١٧٠).

شمس الدين يدعم المراجع ويتهجم على فضل الله:

بعد هذه المشاحنات والردود والصراعات الطويلة بين فضل الله وخصومه، من العلماء والمراجع تدخل محمد مهدي شمس الدين أخيرا في أتون المعركة، ومن الطبيعي والمتوقع أن يكون في صف التبريزي والخراساني ضد فضل الله، ويكون لهما سندا وعونا، ويقف معهما بكل ما يملك، لأنّه لم يكن على وئام مع فضل الله، ولم يكونا على وفاق. وأخيرا أرسل شمس الدين رسالة إلى المرجعين كلها تأييد ودعم ومساندة، وفي الجانب الآخر كلها تسقيط وتهجم وقذف في فضل الله، واتهامه بالضلال والفساد والمتاجرة بالدين، إي والله، هذا ما جاء في رسالته بالضبط، مجتهد يصف مجتهدا بأنّه فاسد ومتاجر بالدين ومبتدع وضال ومنحرف وخطير وحزبي .. ماذا بقي للآخرين ؟! بعد هذا كله أنلوم العوام إذا تهجموا على العلماء، ورجال الدين، فهذا فقيه يسفه فقيها مثله، وهذا معمم يصف معمما قضى سنوات في الحوزة وبين أحضان الكتب والمراجع بالضلال والعمالة والمتاجرة بالدين، وإذا جاء واحد من العوام وقال هذا الكلام في حق عالم انتفضنا غضبا وحمية، وثرنا كرامة للعلم والعلماء، وهاهم العلماء كل يضع الآخر في الوحل ويدوسه بأقدامه، هذا أنسب تعبير وأليق وصف لما نقرأ ونرى ونتابع .

ففي يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية ١٤١٨هـ الموافق ٥ أكتوبر ١٩٩٧م، ومن بيروت يكتب شمس الدين رسالة يبعث بنسخة منها لكل من التبريزي والخراساني، وليتأملها القارئ جيدا، وليقرأ ما بين السطور بروية، هذا نصها:

" بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وأسأل الله تعالى أن يحفظ وجودكم الشريف المبارك حصنا للدين وملاذا للمؤمنين، وأن يدفع بكم عن عقيدة الإسلام وشريعته تضليل المضلين وبدع المتاجرين بالدين .. وبعد:

فإنّ موقفكم الذي عبّر عنه بيانكم الشريف الكاشف عن انحراف العقيدة عند (السيّد فلان اللبناني المبتدع) وضلاله في ذلك. وجوابكم على سؤال علماء الدين المتضمن لبعض عقائد هذا الرجل الفاسدة واتجاهاته الفكرية الضالة في العقيدة الدينية والمذهبية:

هو الموقف المنتظر من المرجعية الدينية الرشيدة التي تقوم بمسؤولياتها عن حفظ الدين في عقيدته وشريعته، وتحصين المؤمنين من الوقوع في شراك ضلالات أهل الانحراف الديني والدعاة إليه، وقد كان موقفكم المرجعي القيادي موضع تقدير كبير عند علماء الدين في لبنان وفي الحوزات الدينية المبنية على التقوى. وقد تبيّن لنا من شأن هذا الرجل في عقيدته وسلوكه

منذ سنين ما دعانا إلى التحذير من خطر أفكاره وسلوكه على الدين وعلى وحدة المؤمنين، ولكن المؤسف أنّ تحذيرنا لم يسمع، بل قوبل بالإهمال، واستمرت بعض الجهات في دعمه ماليا ومعنويا حتى تعاظم خطره بالصورة التي ظهرت أخيرا، وغدا خطرا على مذهب الإمامية وعلى سلامة بعض العقائد الإسلامية الأساسية، حيث أنّ انحرافاته لم تقتصر على آحاد القضايا العقائدية، بل تبلغ العشرات " ويقول بعض المتتبعين إنها مئات " وغدت أفكاره المعلنة وما يسميه "فتاواه" حجة يتسلح بها أعداء الدين من جهة وأعداء المذهب من جهة أخرى، والمتربصون شرا بالمرجعية الدينية للشيعة الإمامية من الأجانب وغيرهم من جهة ثالثة. كما غدا فتنة وحجة لأتباع المدنية الغربية من الشيعة من جهة رابعة.

ويضاف إلى خطر هذا الرجل في نفسه من الجهات المذكورة، أنّه ينطلق من قاعدة حزبية معروفة تعمل وتروج له، وتتبنى أضاليله "وهي تعتقدها" انسجاما مع موقفها من المرجعية الدينية للشيعة الهادف إلى السيطرة عليها واستخدامها في التوصل إلى أهدافها السياسية. هذا مضافا إلى شبهات قوية جدا عن علاقته بالجهات الأجنبية.

إنّ موقفكم المرجعي القيادي مع سائر المراجع العظام عامل قوي في تحصين العقيدة الحقة، وسلامة النهج المرجعي والتفاف المؤمنين حول مرجعيتهم الرشيدة رعاها الله بعنايته. حفظكم الله ورعاكم مرجعا للأمة وملاذا في الملمات .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (٣٣٦).

مجموعة من المراجع تفتي بضلال فضل الله وانحرافه وتتهجم عليه:

أخذت قضية فضل الله تتسع يوما بعد يوم، وتتفاقم ساعة بعد ساعة، وترتفع إلى أعلى المستويات، وتنتشر في كل الأوساط، حتى صار فضل الله مرمى لكل رام، وهدفا لكل ساع ومتحدث، عندها قام مجموعة من طلبة العلوم الدينية بإعداد ١٩ سؤالا كلها تتعلق بفضل الله ومقولاته وآرائه، وتم عرضها على مجموعة من المراجع والفقهاء، وكانت الإجابات كلها تصب في خانة التسقيط والهجوم على فضل الله، واعتباره ضالا مضلا، ولا يجوز قراءة كتبه، وهو بلا دين ولا ورع، ومشكوك فيه وفي هدفه، بل وصل الأمر بأحدهم أن حكم عليه بالكفر، نعم الكفر مرة واحدة!!. الأسئلة كثيرة كما قلنا، وكلها تدور حول فضل الله، وما صدر منه في اتجاهات كثيرة، ومن الضروري أن يرجع القارئ إلى كتاب "الحوزة العلمية تدين الانحراف" ويقرأ الأسئلة كلها وإجابات المراجع والفقهاء عليها، ليخرج بصورة متكاملة حول موقف الحوزة من قضية فضل الله، وكيف يفكر الفقهاء، وكيف يتعاملون مع الاختلاف، ومع من يرى رؤية تغاير المألوف.

وسوف أكتفي بالسؤال الخامس المتعلق بفاطمة الزهراء (ع) ورأي فضل الله في مسألة تدخل الغيب في مجريات حياتها، وماذا كان رد الفقهاء عليه، وموقفهم منه ومن رأيه، السؤال يقول نصا :

" س ٥- ما رأيكم فيمن يقول عن الزهراء (ع) وطبيعة ذاتها الشريفة، وكذا عن السيّدة زينب وخديجة الكبرى ومريم وامرأة فرعون (ع) ما نصه : " وإذا كان بعض النّاس يتحدث عن بعض الخصوصيات غير العادية في شخصيات هؤلاء النساء، فإنّنا لا نجد هناك خصوصية إلا الظروف الطبيعية التي كفلت لهنّ إمكانات النمو الروحي والعقلي والالتزام العملي بالمستوى الذي تتوازن فيه عناصر الشخصية بشكل طبيعي في مسألة النمو الذاتي ... ولا تستطيع إطلاق الحديث المسؤول القائل بوجود عناصر غيبية مميزة تخرجهنّ عن مستوى المرأة العادي، لأنّ ذلك لا يخضع لأي إثبات قطعي ..".

الأسئلة كلها أثارت الفقهاء والمراجع والمسؤولين، ولكن يبدو أنّ هذا السؤال على الخصوص، قد أحدث من ردود الأفعال الشيء الكثير في نفوس الفقهاء، وجعلهم يثورون بغضب، وينتفضون استنكارا لكلام السيّد فضل الله، حتى حكم عليه أحدهم بالكفر، فضلا عن الضلال والخروج عن المذهب والعقيدة. وكانت إجابات الفقهاء والمراجع على هذا السؤال، أو بعضهم كالتالي، مكتفين ببعض العبارات والأسطر، لكي لا يطول المقام، وتكثر الصفحات :

١. **التبريزي:**

" وما جرى عليها من الظلم أمر متواتر إجمالا بلا حاجة للاستدلال عليه كما يشهد له خفاء قبرها إلى الآن ودفنها ليلا. وما يُكتب ويُنشر في إنكار خصوصية خلقها وظلامتها فهو داخل في كتب الضلال".

٢. **اللنكراني:**

" وفي مصائبها راجع كتاب بيت الأحزان للمحدّث القمّي تجد أنّ المصائب المذكورة لا شبهة فيها وإنّ إنكارها إنكار التاريخ البديهي، ولا ينكرها إلا معاند مبغض، وقراءة تلك الكتب المذكورة في السؤال وبيعها غير جائز إلا لمن يريد الجواب والرد".

٣. **تقي القمّي:**

" من يقول بهذه المقالة في مثل الزهراء (ع) فقد خالف العقيدة الحقّة، وهذا الشخص على طبق رأي الشيعة الإمامية منكر لضرورة من الضروريات، ومنكر الضروري على بعض الفروض داخل في دائرة الكفر".

٤. مهدي المرعشي:

" كل من يتكلم بهذه الكلمات، وكان مصرا على ما يقول بعد ما اتضح بطلانها وأنّها مخالفة لما هو المتفق عليه بين أصحابنا وتشهد له رواياتنا وكتبنا المعتبرة، فإنّه يكون ضالا مضلا، ولا يمكن الاعتماد على أقواله وأفكاره وكتبه لأنّها كتب ضلال، فلا يجوز نشرها، ويجب على أهل المعرفة والدين القيام في مقابل هؤلاء النّاس، وتجنب النّاس عنهم ...".

٥. محمد الحسيني الوحيدي:

" المكذّب والشاك في ورود هذه المصائب منكر لما هو من الضروري، إذ ثبوت عصمتها وصدقها من الضروريات، وهذه النغمات تنتشر في الحوزة العلمية من حلقوم أيادي الاستعمار وأصابعه الخفية، حفظ الله الإسلام والمسلمين من شرورهم".

٦. الشهيد محمد الصدر:

" مثل هذا الشخص لا شك أنّه مشكوك في هدفه، مدخول في دينه، ولا ورع له، وقد ورد: من لا ورع له لا دين له. فيجب شرعا الابتعاد عن أمثال هؤلاء، والتحذّر من آرائهم وعدم الإصغاء لأقوالهم، ويحرّم تأييدهم عليها، لأنّ فيها انتهاكا للدين ومضادة للحق. وذلك من أعظم المحرمات".

الفرح والابتهاج لموت فضل الله:

لم تتوقف الهجمة الشرسة التي تعرّض لها السيّد فضل الله بموته، بل امتد الهجوم عليه وتسقيطه ومحاربته حتى بعد وفاته، ففي يوم رحيله قام مجموعة من المعممين والعلماء بإظهار الفرح والابتهاج، وأعلنوا أنّ ذلك اليوم يوم سرور وهناء، وأنّه قد هلك بموته، بل حرّم بعض الفقهاء إقامة التعزية ومجالس الحزن على رحيله !!. وإلى القارئ نماذج من تلك الفتاوى والكتابات:

١. السيد مجتبى الشيرازي يهنئ المؤمنين بهلاك "فضل الله":

تطرّق السيد مجتبى الشيرازي في يوم الخميس الموافق للخامس والعشرين من شهر رجب المرجّب، وفي بداية محاضرته الأسبوعية بمجلس الحديث الشريف إلى هلاك المدعو "محمد حسين فضل الله"، واعتبر يوم هلاكه عيداً إسلامياً عظيماً من أعياد البراءة ويوم فرح وسرور للمؤمنين والمؤمنات في

مشارق الأرض ومغاربها وإن كان ليس من نوعية أعياد البراءة. وأضاف بأن المدعو بالسيد محمد حسين بن عبد الرؤوف فضل الله - المعروف بفضل الشيطان - قد وُلِد على الفطرة في مدينة النجف المقدّس ولم يكن له من يقوم بتربيته وتعليمه إسلامياً كما لم يتسنى له صدفة من يقوم بتربيته وتعليمه إسلامياً فتعلم وتربى في مهب الرياح الموسمية في ذلك العصر وكانت الرياح آنذاك مادية وبكرية معاً فكانت هذه هي أجواؤه في سنواته الأولى، وحينما أصبح رجل دين قدّم في نتاجه الفكري إسلاماً مادياً وبكرياً معاً، وأشار إلى نص مكتوب بقلم فضل الله والذي فيه يتحدث فضل الله عن أول أطوار حياته، فيقول:"كنت أتحسس في نفسي أن لا أكون عالما دينياً "تقليدياً"، لأنني انفتحت مبكّراً على المجلات المصرية والمجلات اللبنانية وعلى الصحف العراقية وغيرها بحيث أستطيع أن اعتبر أن طفولتي الثقافية بدأت في سن التاسعة أو العاشرة، وكنت أقرأ في ذلك الوقت مجلة المصوّر المصرية ومجلة الرسالة التي كان يصدرها حسن الزيّات وربما ألمُ بمجلة الكاتب المصري التي كان يصدرها طه حسين، وهكذا كنّا نلتقي ببعض المجلات اللبنانية التي كانت تأتي إلى العراق بتنوعات متناقضة تختلف أوضاعها لأننا لم نكن نقرأ قراءة موجّهة، ومن هنا انفتحتُ على العالم المعاصر مبكراً في هذا المجال. (تحدي الممنوع، ص٢٧، لمحمد حسين فضل الله)

من هنا اكتشفت هذه الأحاسيس في نفسي عندما تقدمت بي الطفولة باعتبار أنها كانت تعيش في المنطقة العميقة من كياني فيما يختزنه الإنسان من أحاسيس ومشاعر بشكل لا شعوري، وهكذا كنت في مقتبل الطفولة أنجذب إلى هذه الأجواء بشكل عفوي وطبيعي محبب تارة ومتشنج أخرى من خلال مظاهر العنف التي كانت تتمثل في إدماء الرؤوس أو إدماء الظهور بهذا الشكل القاسي مما يعيش فيه الطفل هالة من الدهشة والألم الخفي لأنه لا يطيق منظر الدماء وهي تسيل من رأس شخص إلى الكفن الذي يلبسه وما إلى ذلك. ومن الطبيعي أن مثل هذه الأحاسيس المتناقضة كانت تترك تأثيرها في منطقة اللاشعور لتتحول بعد ذلك إلى رفض هذه الأساليب. (تحدي الممنوع، ص ٢٤، لمحمد حسين فضل الله) وبيّن أن فضل الله لم يكتفي بإعطاء تحليل مادي للإسلام أو تحليل بكري فقط بل لجأ إلى تشويه صورة العقيدة الشيعية وتلويثها بالأفكار المنحرفة والمادية والبكرية.

وختم كلمته بحمد الله سبحانه وتعالى أن قام بفضح فضل الله العديد من المراجع الكرام وخطباء المنبر الحسيني الشريف والكتّاب الإسلاميين والعلماء والمحاضرين ومدرّسي الحوزة العلمية ووصف جعفر مرتضى العاملي بأكثرهم نشاطا، ليؤكد بعدها أن الكلام حول فضل الشيطان طويل

ومتشعب ونصح بمراجعة كتب مرتضى جعفر العاملي بصورة خاصة."

المرجع الديني بشير النجفي يفتي بحرمة تأبين فضل الله :

ففي يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ، الموافق ١ يونيو ٢٠١١م، تلقى المرجع الديني بشير النجفي السؤال التالي والمتعلق بتأبين السيد فضل الله : " باسمه جلت أسماؤه .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: مرجعنا الكريم .. في عصر يخبو فيه سراج الحق شيئا فشيئا، ولا ملاذ لنا بعد التوسل بحجج الله عليهم السلام إلا بكم مراجعنا العظام .. ما هو رأيكم في إقامة مجالس التعازي والتأبين على روح السيد فضل الله بحجة الوحدة ونبذ الفتن بين الشيعة؟ أدامكم الله للمذهب ذخرا، وسددكم الله لبقر الباطل بقرا".

فأجاب المرجع الجواب التالي:" بسمه تعالى .. لو عرفت يا بني ما فعل الرجل بمذهب أهل البيت لما خطر في بالك السؤال الذي كتبت، فإن مصائب الرجل كثيرة. نشير إلى واحدة منها من باب المثال فإنه كتب في نهاية شرح دعاء كميل (في رحاب دعاء كميل - الطبعة الثالثة): ما معناه أن علي بن أبي طالب لو لم تشمله الرحمة الإلهية ولم يدركه العفو الإلهي يوم القيامة لما استحق إلا السخط والعذاب الإلهي. أليس هذا رأي عبد الرحمن بن ملجم اللعين أشقى الآخرين في حق علي بن أبي طالب (عليه السلام) فإن أقمت التأبين على هذا الرجل، يعني ذلك أنك مستعد لتأبين عبد الرحمن بن ملجم. استيقظ من نومك، هداك الله إلى سواء السبيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

٢. ياسر الحبيب يهنئ الإمام المهدي بموت فضل الله، ويدعو عليه بالعذاب في القبر !!:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. هل يجوز الترحم على فضل الله أو المشاركة في تشييعه أو إقامة الفاتحة على روحه ؟

الجواب : بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. بمراجعة الشيخ، لا يجوز الترحم على أهل الريب والبدع والضلالة، وإنما ينبغي إظهار البراءة منهم .. مكتب الشيخ الحبيب في لندن ٢٢رجب ١٤٣١

ما هو موقفكم من رحيل العالم محمد حسين فضل الله و كيف توجهون الناس في هذه المرحلة وبماذا تنصحونهم ... محمد رشيد".

الجواب:
بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . بمراجعة الشيخ.

نتقدم إلى مولانا صاحب العصر والزمان (عليه السلام) بالتهاني والتبريكات لهلاك هذا البتري المبتدع الذي طالما آذى قلب الصديقة الزهراء صلوات الله عليها. ونسأل الله تعالى أن يكون هلاكه بداية لمرحلة تنقية الأجواء الإسلامية من السموم التي بثها فيها. والمأمول من المؤمنين الدعاء بأن يضاعف الله تعالى عذابه ويحشره مع أبي بكر وعمر وعائشة. مكتب الشيخ الحبيب في لندن .. ٢٢ رجب ١٤٣١" . الموافق الأحد ٤ يوليو ٢٠١٠م.

٣. صدور كتاب ضد من شارك في تأبين فضل الله:

" تناولت بعض المنتديات الالكترونية كتاباً بعنوان " الجنازة الماسونية " نسبته إلى مؤلف يدعى محمد كاظم الغزي تهجم فيه بكلمات هابطة تجاه المرجعيات الدينية التي أبّنت أو شاركت في عزاء المرجع الشيعي الأعلى في لبنان آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله الذي توفي مطلع يوليو ٢٠١٠م. ووصف الكاتب أفكار فضل الله بأنها مأساة تهدد أصول المذهب وتستبطن التسنن مضيفا بأن كل الشيعة المنشغلين بالشأن السياسي في لبنان والعراق والكويت وإفريقيا والهند وباكستان وأفغانستان منساقون وراء هذه الأفكار الضالة، متأسفا للحال الذي وصل إليه بلد كالبحرين مثلا لتأثر غالبية الشيعة فيه وعلمائه بأفكار فضل الله. وأبدى الكاتب تخوفه من المدرسة التي خلفها الراحل فضل الله والتي تلقى رواجا هذه الأيام في أوساط الشباب الشيعة محذرا من المؤسسات الإعلامية التابعة لها كقناة الإيمان الفضائية وإذاعة البشائر والموقع الإلكتروني بينات. وقال بأن فكر فضل الله مازال ينتشر وبقوة وهذه محطاته الإعلامية تبث محاضراته وندواته على مدار الساعة .

المراجع العظام عديمو الشرف:

ووصف المؤلف المرجعيات الدينية التي أبّنت الراحل بأنها مرجعيات غير جامعة لشرائط التقليد وأنهم مجرد وعاظ سلاطين وأتباع حكومات في إشارة إلى كبير المرجعيات الدينية في مدينة قم المقدسة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الذي يعد من أبرز المرجعيات الداعمة للنظام الإسلامي في إيران والذي كان على علاقة متميزة مع المرجع فضل الله . وقال المؤلف بأن على الإسلام السلام بعد أن قاد آية الله الإمام السيد علي الخامنئي حملة العزاء والتأبين على روح المرجع الراحل، معتبرا ذلك تحدي

واضح للمرجعيات المناوئة لفضل الله .. واعتبر مراجع الدين العظام آية الله العظمى الشيخ يوسف الصانعي وآية الله العظمى السيد محمود الشاهرودي وآية الله اليعقوبي وآية الله المدرسي وآية الله الخاقاني بأنهم عديمو الشرف والنزاهة، مستهجنا في الوقت ذاته من الزيارة التي قام بها السيد هادي المدرسي إلى المرجع فضل الله قبل وفاته. ووصف المرجع المقيم في قم المقدسة آية الله العظمى السيد كاظم الحائري بالمسكين واستغرب منه تراجعه عن موقفه السابق حينما أجاز لمقلدي فضل الله البقاء على تقليده. كما اعتبر الكاتب أن المؤلف الشيعي المشهور الذي توفي في السنوات القليلة الماضية آية الله المحقق السيد مرتضى العسكري أحد أبرز تلامذة الإمام الخوئي عميلا لنظام الشاه الإيراني ومخابراته السافاك لتأييده لأفكار فضل الله .

وكلاء السيستاني يبيعون عقيدتهم:

واتهم مؤلف الكتاب المرجع فضل الله وبعض وكلاء المرجع السيستاني وبعض المنتمين إلى بيوتات المراجع بالانتماء إلى منظمة الماسونية العالمية، معتبرا المقرب من المرجع السيستاني والناطق الرسمي باسم المرجعية الدينية الحاج حامد الخفاف، ووكيل المرجعيات الدينية في الكويت السيد محمد باقر المهري بأن لا دين ولا شرف لهما، وأنهما قد باعا عقيدتهما من أجل مصالح مادية. وأضاف المؤلف بأن الحاج حامد الخفاف المقرب من المرجع السيستاني يعيش حياة برجوازية لم يرثها، إنما صنعها من أموال غيره متهما إياه بإساءة التعامل مع الطلبة وعلماء الدين ومستهجنا علاقته الوطيدة بالراحل فضل الله وأولاده. واعتبر الكاتب أن الادعاء الذي تم تداوله مؤخرا في بعض الأوساط الحوزوية حول عدم معارضة السيستاني لأفكار فضل الله هو غير صحيح، في إشارة إلى ما نقله أحد علماء الأحساء عن السيد محمد رضا نجل السيستاني أن والده رفض بشدة إصدار فتوى بضلال فضل الله رغم ضغوطات هائلة مارستها عليه مرجعيات دينية مناوئه لفضل الله. كما هاجم المؤلف الذي يُعتقد بأنه شخصية وهمية أبرز الشخصيات السياسية في العراق، واصفا رئيس الوزراء السيد نوري المالكي ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى السيد عمار الحكيم ورئيس التيار الصدري السيد مقتدى الصدر بالمرتزقة القادمين على الدبابات الأمريكية وأنهم عملاء وقعوا في الخيانة العظمى.

جريمة سماحة السيد حسن نصر الله:

من جهة أخرى وصف المؤلف وقوف حزب الله إلى جانب المرجع فضل الله بالطامة الكبرى والعار العظيم. مؤكدا أن تعظيم الحزب ونصرته لفضل الله جاءت بأوامر مباشرة من السيد حسن نصر الله الذي ارتكب بذلك جريمته هو وحزبه في وقوفه إلى جانب أهل الضلال. واتهم حزب الله

بانقلابه على أفكار الإمام الخميني بعد رحيله وقد جاء ذلك متناغماً مع تولي السيد الخامنئي للقيادة الذي انقلب هو الآخر على أفكار سلفه على حد وصفه. وقال مؤلف الكتاب أن السيد حسن نصر الله وشخصا آخر من مدينة الدمام في إشارة إلى المقرب من المرجع السيستاني ووكيله الخاص في السعودية آية الله العلامة السيد علي الناصر السلمان وشخص آخر لم يسميه من بغداد قد مارسوا ضغوطا وصلت إلى حد التهديد والوعيد على المرجعيات الدينية لإصدار بيانات التعزية برحيل المرجع فضل الله.

القنوات الشيعية:

كما هاجم الكاتب القنوات الشيعية التي واكبت رحيل المرجع فضل الله، وشدد في الوقت نفسه على قناة الأوحد الفضائية التابعة إلى مرجعية آية الله الأحقاقي مهاجماً مرجعها بعبارات غير لائقة مستنقصا في الوقت ذاته من مكانته العلمية. واعتبر أن رجل الدين المعروف العلامة الشيخ حبيب الكاظمي دجال ومنحرف لمشاركته في تأبين المرجع الراحل في سلطنة عمان ولصلته بأحد علماء الشيعة الكبار في النجف الأشرف آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي. وأضاف أن الشيخ الكاظمي يبث من خلال قناته الفضائية "المعارف" السم في العسل وذلك بسماحه لبعض الشخصيات والعلماء المؤيدة لفضل الله بالظهور على شاشتها. وأضاف بأن رجل الدين المعروف في القطيف السيد منير الخباز يسير في نفس الاتجاه الذي يسير عليه الكاظمي عندما أرسل برقية عزاء لرحيل المرجع فضل الله وأقام مجلس تأبين وفاتحه في حوزته.

تقدير واعتزاز:

وأمام هذا الكم الهائل من الشتائم والسباب تجاه كبار مرجعيات وعلماء الشيعة توقف الكاتب ليمتدح الشخصية الوحيدة التي نالت على اعتزازه وتقديره على حد وصفه وهو العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي الذي حاول أن يشارك في التشييع وتقديم العزاء لكن مقربين منه نصحوه بعدم المشاركة كونه غير مرحب به في معظم الأوساط الشيعية في لبنان والتي تحمّله مسؤولية حملة التسقيط والتجريح التي تعرض لها فضل الله، لكن المؤلف قال إن العاملي امتنع عن الحضور وتقديم العزاء حتى عندما ذكره البعض بحضور وتعزية فضل الله له عندما توفي والده ووالدته .

صفحة على الفيس بوك:

وفي السياق ذاته أنشأ الكاتب صفحة خاصة به على موقع الفيس بوك للترويج لكتابه لتتحول إلى صفحة لتبادل السباب والشتائم بين أتباع

المرجعيات الدينية المختلفة. وتفاجأ منشؤوا الصفحة على الموقع العالمي الشهير" فيس بوك " بمعارضة واسعة من خلال التعليقات الرافضة لهذا الأسلوب في النيل من المرجعية الدينية ليتدارك هذا الأمر بحذف معظم هذه التعليقات .

لائحة سوداء لكبار علماء الشيعة:

وفي الصفحة ذاتها على فيس بوك خصص قائمة تضم صور كبار علماء الشيعة في الخليج والبحرين والكويت والعراق وإيران ولبنان وبلدان متفرقة من العالم تحت عنوان " اللائحة السوداء " مع تعليقات ساخرة أسفل كل صورة، ومن أبرز من احتوتهم هذه القائمة هم : آية الله العلامة الشيخ عبد الهادي الفضلي (الأحساء)، آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي (البحرين)، آية الله الشيخ عبد الأمير قبلان (لبنان)، آية الله العلامة الشيخ عيسى قاسم (البحرين)، آية الله العلامة الشيخ حسين الراضي (الأحساء)، العلامة الحجة السيد عبد الله الموسوي (الأحساء)، آية الله العلامة الشيخ عفيف النابلسي (لبنان)، آية الله الشيخ أحمد جنتي (إيران)، آية الله الشيخ أبو القاسم خزعلي (إيران)، آية الله الشيخ محمد باقر الناصري (العراق)، العلامة السيد ساجد نقوي (باكستان)، العلامة الشيخ محمد علي العمري (المدينة المنورة)، العلامة السيد هاشم الشخص (الأحساء)، العلامة الشيخ محمد العباد (الأحساء)، العلامة الشيخ عبد الكريم الحبيل (القطيف)، العلامة السيد محمد باقر الناصر (الخبر)، العلامة الشيخ نمر باقر النمر (القطيف)، العلامة السيد حسن النمر (الدمام)، العلامة الشيخ عبد الله الياسين (الأحساء)، العلامة الشيخ عبد الله دشتي (الكويت)، العلامة الشيخ حسين المعتوق (الكويت)، العلامة الشيخ عبد الله المزيدي (الكويت)، العلامة الشيخ كاظم العمري (المدينة المنورة).

ردود فعل:

هذا وقد أبدى عدد كبير من المشاركين في منتديات إلكترونية مختلفة أسفهم للانحدار الذي وصلت إليه بعض الجهات في الواقع الشيعي من خلال اعتماد هذا الأسلوب الهابط مع من يختلفون معهم، معتبرين الكتاب عبارة عن مجموعة من الشتائم والاتهامات المجانية تجاه شخصيات عامه ويفتقر إلى الأدلة والوثائق. الكتيب الذي جاء تحت عنوان "الجنازة الماسونية" أعاد إلى الأذهان المنشورات التي كان يتم توزيعها في شوارع قم المقدسة والنجف الأشرف في بداية الحملة ضد المرجع فضل الله قبل سنوات ويتم نسبتها عادة إلى أسماء وهمية تدعي قربها من الحوزة، لكن الفرق أن تلك المنشورات كانت تنال من فضل الله وحده، أما هذا المنشور فقد نال من

أغلب المرجعيات والشخصيات الشيعية". (نقلا عن النت، شبكة الفجر الثقافية).

وعلى إثر صدور كتاب "الجنازة الماسونية" توجه مجموعة من أساتذة جامعات عراقية إلى الخطيب السيّد الكشميري يستطلعون رأيه في الكتاب وصاحبه، وقد بعثوا له برسالة أجابهم عليها في كتابه "ستون سؤالا" .. جاء السؤال كالتالي:

" سلام عليكم ودمتم ... سيّدنا الكريم أخيرا شاهدنا على موقع الأنترنت كتابا باسم (الجنازة الماسونية) وفي الكتاب نيل من كثير من الرموز الدينية والإسلامية. فإلى أين يسير بنا هذا الوضع نتيجة الاختلافات الدينية وما هو رأيكم؟ جمع من أساتذة جامعات وطلاب العراق، عنهم شبيب محمود ظافر الجبوري.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب: عزيزي السائل وأعزائي الأساتذة والطلاب: يقول الأديب:

ولـو كـان جرحـا واحـدا لاتقيتـه ولكنـه جـرح وجـرح ثالـث

لقد علمت بالكتاب وهو ليس أول كتاب، فهناك كتب عديدة صدرت ضد الجمهورية الإسلامية في إيران، وتهاجم الإمام الخميني الراحل وتحمل أسماء مستعارة وهي مثلا: (والآن جاء دور المجوس) وهكذا سلسلة كتب (لكيلا نخدع) وأمثالها مثل كتاب (الحوزة تدين الانحراف) وغيرها، هي بدون شك من صنع الاستكبار والصهيونية مستعينة بذوي النفوس الضعيفة في المؤسسة الحوزوية وغيرهم.

لكن الذي يحز في النفس أن أعداء الإسلام يستغلون دعامتين مهمتين: الأولى حالة التنافس والمواجهات بين الشخصيات والرموز الدينية، والدعامة الثانية بساطة بعض الشيعة وغبائهم. إنّ مشكلة حب الرئاسة والتعلق بالدنيا وراء ذلك. ولم يكن المرحوم السيّد محمد حسين فضل الله الضحية الأولى في هذا المنهج العفن، فخلال رحلتي في الحياة أدركت بعيني حينما يمر المرحوم الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء بسيارته السوداء يبصق عليه بعض المساكين من العوام السذج ويصفونه بالعميل الإنجليزي. وأدركت بعيني كيف تُكال اللعنات للمرحوم السيّد محسن الأمين، وأدركت بعيني كيف هاجم الحكيميون المرجع المظلوم السيّد حسين الحمامي ووصفوه بالشيوعي، ولم يسلم منهم حتى بعد موته، حيث دفعوا بصاحب المسجد أن يرفع الكاشي الذي حمل اسمه على قبره، وأدركت

بعيني كيف دبّروا التهم الأخلاقية للمرحوم الزنجاني لأنّه حلق واشتهر صيته خصوصا بعد رحلته إلى مصر والقدس. وهكذا انتهاء بالمظلوم الشهيد محمد باقر الصدر والشهيد محمد محمد صادق الصدر وأخيرا المرحوم السيّد محمد حسين فضل الله.

أيها الأخوة الأعزاء أنا لا أحمّل القمم الدينية مسؤولية هذه الأعمال وتدوين أمثال هذه الكتب التي لا تخدم إلا الصهاينة و النواصب وأعداء أهل البيت (ع) ولكن طالما أنّ القرار والأخماس بيد الحواشي والصبايا والمراهقين والمستفيدين ستبقى الأمور من سيء إلى أسوأ.

رحم الله السيّد الخطيب مهدي السويج، فقد رأيته أواخر أيام حياته في دمشق وقد نزع العمامة ولبس العقال ولما عاتبته أجابني بهذين البيتين:

وجـدت مـن العمـائم مـا دعـاني	لتبـديل العمامـة بالعقـال
ومـا كـلّ العمـائم أهـل سـوء	ولكـن عمّهـم سـوء الفعـال

وعزائي ومواساتي لأثرياء الشيعة في العالم الذين يبعثون بالملايين من أخماسهم إلى المرجع فتسقط الأموال بيد الحاشية والأبناء وتصرف على النزوات الشخصية ويحرم منها أهلها. لقد طبعت ما يقارب نصف مليون نسخة من كتاب (الحوزة تدين الانحراف) وكل نسخة كلفها على الأقل دولارين بمعنى أنّ مليون دولار من الأخماس صُرفت في هذا الأمر لتشويه سمعة هذا وذاك وهي من أموال الفقراء والمساكين فيحرم منها أهلها ومستحقوها وتصرف في إثارة الفتن وهتك حرمة الأشخاص. والسؤال هنا من المسؤول عن هذا الوضع ومن ينقذ الشيعة من هذه العصابات؟ حسبنا الله ونعم الوكيل. وشكرا" (ص١٨٤).

محسن الأمين



من أبرز قضايا التوهين والتسقيط للرموز والعلماء في عصرنا الحاضر قضية الثورة على السيّد محسن الأمين العاملي (١٨٦٧ - ١٩٥٢م)، تلك الثورة والقضية التي ضربت لنا أروع الأمثلة في مصداق العنف الفكري، والشدّة والغلظة التي لا يمكن تصورها من قبل الجميع، علماء وعوام، مثقفين وجهلة مع من يختلف في الرأي مع السائد، ويستقل برأيه القائم على الاجتهاد والدليل والحجة، لا القائم على الهوى والفراغ الفكري، والترف العقلي، إنّه العاملي الذي وقف أمام الجميع، وصمد أمام التيار الجارف بشجاعة وقوّة وتحمل، وكان في صبره وثباته على الرأي، والجهر به نموذجا يحتذى،و كان شيئا مدهشا قلّ نظيره، لله دره، حيث كان كالجبل الذي لا تهزّه الرياح، مع أنّ الرياح كانت عاتية، بل هي إعصار قاتل، ولو كان غيره مكانه لمات كمدا وحزنا، فهل بعد البصق عليه وتكفيره ولعنه في مواكب العزاء وعلى المنابر علانية من قبل الجميع وهن؟ وهل بعد تشبيهه بعبد الوهاب مبتدع الوهابية طعن وغصة وشتيمة؟! وكان البعض يلقبه علانية بسيّد الأمويين، والآخر يسقي الماء في المواكب وهو ينادي على الشارب: لعن الله حرملة، بل لعن الله الأمين!

يقول الدكتور علي الوردي : " يعجبني من المصلحين في هذا العصر رجلان هما: الشيخ محمد عبده في مصر، والسيّد محسن الأمين في الشام. فالشيخ محمد عبده قد نال في بدء دعوته الإصلاحية من الشتيمة قسطا كبيرا حتى اعتبروه "الدجّال" الذي يظهر في آخر الزمان، ولكنّه الآن خالد لا يدانيه في مجده أرباب العمائم مجتمعين.

وإنّي لا أزال أتذكر تلك الضجّة التي أثيرت حول الدعوة الإصلاحية التي قام بها السيّد محسن قبل ربع قرن. فقد أهانه النّاس وشتموه وقالوا إنّه زنديق، ولكنّه صمد لها وقاومها فلم يلن ولم يتردد، وقد مات السيّد أخيرا ولكن ذكراه لم تمت ولن تموت، وستبقى دهرا طويلا حتى تهدم هاتيك السخافات التي شوّهت الدين وجعلت منه أضحوكة الضاحكين! لست أشك أنّ كثيرا من أمثال الشيخ محمد عبده والسيّد محسن الأمين موجودون الآن بين رجال الدين، ولكنّهم ساكتون، بينما امتلأ الجو بأصوات رجال يتظاهرون بالدين والدين منهم بريء .. آن للساكتين أن يتكلموا فقد حان وقت الكلام !" (مهزلة العقل البشري،ط٢/١٩٩٤م،دار كوفان،ص٢٩٩).

كان للسيّد محسن الأمين اهتمام بالغ بسيرة الحسين (ع)، وتاريخ معركة كربلاء، وما كتب حول واقعة الطف من مؤلفات ودراسات، وكان يتابع

ما يلقى حولها من أشعار وروايات وقصص، بجانب هذا فقد ساهم بإسهامات كثيرة لها علاقة بتاريخ معركة الطف، وسيرة الحسين (ع) شعرا ونثرا وتحقيقا ودراسة. ومن الممكن أن نذكر له مجموعة من الكتب التي سطرها في تاريخ كربلاء وسيرة الحسين وقراءة التعزية بشكل عام.

١. لواعج الأشجان في مقتل الحسين (ع)/ ١٩١١م.
٢. أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار من أعداء الحسين (ع)/١٩١٢م.
٣. الدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد/١٩١٢م.
٤. المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ٥ ج/١٩٢٣م.
٥. إقناع اللائم على إقامة المآتم/١٩٢٥م.
٦. ملحق الدرّ النضيد.

وهذا يعني بكل بساطة أنّ السيّد الأمين ليس غريبا عن أجواء عاشوراء، وحادثة الطف، وليس متطفلا عليها وعلى مجريات أحداثها، بل هو ممن له متابعات وتقصي واهتمام بكل ما له علاقة بالموضوع، وله إسهاماته التي لم تتوقف يوما ما، لا بعد قضيته الشهيرة والمعروفة، وموقفه من ضرب القامة والشبيهات، و لا من قبل ذلك كله.

ولادته ودراسته:

"ولد السيّد محسن الأمين سنة ١٨٦٧م في شقراء، إحدى قرى جبل عامل في لبنان الجنوبي. بدأ دراسته في كتّاب ضيعته وكتاتيب الضيع المجاورة، وذلك في سنة ١٨٧٤م، وله من العمر ٧ سنوات، وهو "سن التمييز" حسب تعبيره. على أنّه سرعان ما يضيق صدره بالمكان، خصوصا شخصية المعلم المتجهم، والممتلئ قسوة، والذي نفر منه الصبي منذ أن وطأت قدماه عتبة الكتّاب. فلم يكد يمضي سحابة من النهار حتى انصرف وأبى العودة ثانية، ومن دون أن يُجبر وهو الوحيد على غير ذلك.

على أنّ صدمة الكتّاب لم تصرفه عن طلب العلم الذي وجد في البيت مناخا ملائما لتحصيله بعيدا عن التوتر في ظل سلطة الشيخ المتغطرس. ومثل هذا البيت لم يكن غريبا عن تقاليده أن يكون لسيّدته حظ من العلم، وأن تتعهد بنفسها رعاية الخطواتِ الأولى للصبي الوحيد. فتتولى تعليمه القرآن، حتى إذا اختتمه شرع في تعلم الكتابة، ثم النحو برعاية "شيوخ العشيرة". لقد وضع قدميه على الطريق، وأصبح في الجعبة من الزاد ما يشجّعه على المضي قدما فيه، لا سيّما بعد اقتناء ديوان أبي فراس الحمداني، والذي سيكون له تأثير في التكوين الثقافي للصبي الناضج قبل أوانه.

كانت الخطوة الأولى المهمة في المسار الصعب، حيث الاختيار وعدّة السفر والعزيمة المتوثبة. وإذ بلغ الثالثة عشرة من عمره، انتقل إلى عيتا الزط (الجبل) ليدرس على السيّد جواد مرتضى، ثم بعد أربع سنوات إلى بنت جبيل على الشيخ موسى شرارة، وكان هذا قد سبقته شهرته بوصفه واحدا من أبرز العلماء في جبل عامل. وعلى قصر تلك المدّة، فقد شكلت منعطفا مهما في حياة السيّد وتحديدا أكثر لحركة مساره. فقد بهرته شخصية الشيخ الإصلاحي المتنوّر، ووجد نفسه إلى جانبه، كذلك "الأستاذ" اكتشف تفوقا في تلميذه، ما دفعه إلى الاهتمام به وإلى تكليفه بقراءات ومساءلات يلقيهما على الطلاب، متخذا دور "المعيد" أو ما يشبه ذلك في التقاليد الجامعية.

ولم تدم هذه التجربة أكثر من عام، وقد انتهت بوفاة الشيخ، وبالتالي إقفال مدرسته، إذ كانت في الغالب هذه الصروح العلمية مرتبطة بأصحابها. على أنّ تأثيرها في نفس الطالب المتفوق كان عميقا، حيث المعاناة صهرت شخصيته، ولم تثنه الصعوبات عن متابعة مشروعه الذي تبلور في ذلك الوقت. فإذا كانت حوافزه قد تأثّرت من قبل بتقاليد الأسرة وموقعها العلمي البارز في جبل عامل، فإنّ تجربة بنت جبيل أضافت إلى حوافزه الرؤية الإصلاحية التي اقتبسها حينذاك من أستاذه الشيخ الكبير.

عاد السيّد وقد اقترب من الشباب منكسرا إلى شقراء، ولكنّ نفسه تضطرب بالآمال على خطى الشيخ الذي ترك فراغا، لم يستطع أحد ملأه في جبل عامل من خلال تلك الآونة. يتعثّر حينذاك مشروع السيّد الشاب، والتحدّيات تتعاظم في طريقه، فينكفئ إلى مواجهتها مثقلا بالمحن والشدائد. فقد طلب إلى الخدمة العسكرية، ثم توفيت الوالدة، وكفّ بصر الوالد نتيجة مرض أصاب عينيه. ولم يكن بدّ، وقد امتلأ قلبه أسىً، من مواجهة الواقع، وأصعب ما فيه كان الفقر الذي ما انفك يرهق البيئة العاملية ويخمد الطموح المتوهج لأبنائها. فتراجع عن مشروعه ليتعاطى "أمورا لم يسبق له تعاطيها" على حد قوله، والتجارة ما قصده السيّد من هذه الأمور، وكانت ممارستها صعبة وشاقة، واقتضت منه الترحال إلى أماكن بعيدة.

ولكنّ طالب العلم لم تؤثر التجارة في خياراته، فظلت هذه متقدّة في نفسه، خصوصا وأنّ بنت جبيل عادت توقظها من جديد، عندما قدم إليها السيّد مهدي الحكيم من العراق. فدرس عليه وقتا قصيرا، إذ شغل الأستاذ بالوعظ وإصلاح المجتمع، أكثر من انشغاله بالتدريس. فلم يطل السيّد، بسبب ذلك، مقامه في بنت جبيل. وتمر سنوات أربع عكف خلالها على القراءة، من دون أن تصرفه هذه عن "أموره" الأخرى، وذلك قبل أن يقرّر بالمصادفة الذهاب إلى العراق، وهو في الرابعة والعشرين من عمره (١٣٠٨هـ/١٨٩١م).

إلى العراق:

كانت هذه المحطة الثانية في مساره الذي كاد يتعثّر تحت تأثير الضائقة ويتحول إلى اتجاه آخر. ولكن إيمانه جعل الحلم حقيقة، وإذا به في النجف التي طالما شغف بها، محاولا ما أمكن تعويض المهدور من الأيام السالفة. ذلك أنّ بعض العامليين كانت تأخذ بهم المجالس الخاصّة، ويمضون أكثر الوقت في تناول الشاي وتبادل الأحاديث، فانصرف عنهم مواظبا على حلقات كبار العلماء الذين نوّه بعدد غير قليل ممن أصابوا شهرة في الفقه منهم. ولم ينس نقد الطرائق المتبعة، فدعا إلى إعادة النظر في مناهج التدريس التي انطوت على كثير من الخلل، ومن ذلك "إدخال مسائل الكلام في علم أصول الفقه"، أو "إهمال علم الحديث"، أو ماله علاقة بتنظيم الدراسة، إذ لم تكن حينذاك آلية خاصّة بإلقاء المحاضرات ومواقيتها، وإنّما كان الأمر خاضعا لمزاج الأستاذ وظروفه. فضلا عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في النجف، والتي تشجّع على الاسترخاء وتبطئ حركة الإنتاج على كافة الصعد فيها. مكث السيّد الأمين ١١ سنة في دراسة مكثفة لم يصرفه عنها أي اهتمام آخر، وهو الذي عُرف بإرادته الصلبة، وشدّة انضباطه في متابعة تحصيله العلمي. وقد ساعده ذلك على اختصار مسافة طويلة بهذا القدر من السنين، فضلا عن الذخيرة التي جاء بها، ممهدة أمامه الكثير من الصعاب. على أنّ الرحلة في طلب العلم لم تنته في العراق، عندما وجد نفسه يغادره تلبية لطلب من "شيعة العراق". فهذه ليست لها نهاية عند السيّد الذي دأب عليها حيث حلّ وحيث كان له ترحال، فقد كان همّه الاطلاع على المكتبات والتزوّد من ذخائرها، وكل ما يساعده على توفير المادة لأبحاثه ودراساته الغزيرة" (الشيعة في مسارهم التاريخي، محسن الأمين، ط١/٢٠٠٠م، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ص ١١).

إلى الشام:

غادر السيّد الأمين النجف وذلك استجابة لطلب الشيعة في دمشق، بأن يحضر إليهم ويسكن عندهم، لما لمسوه من الحاجة إلى عالم يوجههم ويكون مرجعا لهم، وما وجدوا خيرا منه لهذه المهمة، وقد غادر النجف لهذه المهمة متوجها لدمشق أواخر جمادى الثانية ١٣١٩هـ الموافق تقريبا شهر أكتوبر ١٩٠١م، وقد وصل دمشق في أواخر شعبان من سنة ١٣١٩هـ في أواخر الخريف، الموافق شهر ديسمبر ١٩٠١م تقريبا.

وعندما وصل دمشق واستقر فيها وجد كما يقول أمامه أمورا هي علة العلل، ولابدّ في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

١. الأمية والجهل المطبق. فقد وجد معظم الأطفال يبقون أمّيين بدون تعليم، وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢. وجد إخوانه في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣. مجالس العزاء وما يتلى فيها من الأحاديث غير الصحيحة، وما يُصنع في المشهد الزينبي في قرية راوية، من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وبعض الأفعال المستنكرة. وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيّما أنها ملبسة بلباس الدين.

عندما رأى كل ذلك أمامه قرّر أن يعمل على استئصال عادة ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وأن يجاهد في محاربة تلك البدعة مهما كلفه ذلك من تضحيات، وجرّ عليه ما سيجر من حروب وتسقيط وتوهين وتكفير وغيبة وغيرها.

يتحدث المعمّرون الذين عاصروا وصول السيّد محسن الأمين إلى دمشق بنية الإقامة فيها سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) عن تطور دعوته من سنة وصوله إلى دمشق في أواخر شعبان من سنة ١٣١٩هـ إلى سنة نشره "رسالة التنزيه" سنة ١٣٤٧هـ، فيقولون: لم يمض خمسة أشهر على وصوله إلى دمشق حتى جاء شهر المحرم سنة ١٣٢٠هـ، وجاء يوم العاشر منه، وكان قد عرف ما يجري هذا اليوم في مقام السيّدة زينب (ع) بضاحية دمشق من لطم الصدور وإدماء الرؤوس، حيث يجتمع القادمون من جبل عامل والبقاع مع الحاضرين من دمشق، فيقومون مجتمعين بما يقومون به من هذه الأعمال، فأعلن مقاطعته حضور ذلك المجتمع والاكتفاء بإقامة حفل تتلى فيه السيرة الحسينية بما فيها قصة الاستشهاد، فكان أن شاركه المقاطعة جماعة من الدمشقيين، وحضروا المجلس الذي أقامه في دمشق، ولما جاءت السنة الهجرية التالية وفي رأسها شهر محرم ازداد عدد المقاطعين وقلت مشاركة الدمشقيين في ما يجري في مقام السيّدة زينب وحضورهم هناك.

وفي السنة الثالثة وكانت قد ثبتت قدمه في دمشق وقوي أمره فيها عزم على منع الاحتفالات بصورتها المزرية الدامية مستعينا على ذلك بجمهور الدمشقيين الذين انطلقوا إلى مقام السيّدة زينب (ع) قبل بضعة أيّام من حلول العاشر من المحرم، يخبرون القادمين من الخارج أن لا احتفالات بعد اليوم على ما كانت تجري عليه، وأنّ عليهم العودة إلى بلدانهم. فكان الأفراد القادمون يمتثلون لذلك وهم يرون الشدّة في هذا الكلام والتصميم على تنفيذه بكل وسيلة. وهكذا فلم يأت اليوم العاشر حتى كان عدد

الموجودين لا يحتمل إقامة أي احتفال، فضلا عن وجود المصممين على المنع حتى بقوّة الساعد.

وهكذا بطلت تلك الاحتفالات واقتصر الأمر على اجتماع النّاس مصغين إلى ما يلقى عليهم من سيرة الحسين (ع) وفضائل أهل البيت، منتهيا بروعة الاستشهاد، وما في كل ذلك من العبر والمآثر التي ينبغي الاقتداء بها. ثم يختتم المجلس بتلاوة زيارة الحسين (ع) " (ثورة التنزيه، محسن الأمين، ط١/١٩٩٦م،دار الجديد، بيروت،ص١٢).

أحد الباحثين يلقي لنا الضوء على تلك الحقبة من حياة الأمين الإصلاحية عندما استقر في دمشق، وما لقي فيها من مخالفات وجدها مخالفة للشرع والعقيدة، وما كان منه من جهاد مستميت في سبيل إصلاحها وإقامة ما اعوجّ منها، يقول:

" لقد درس الأمين في النجف، وعندما عاد إلى جبل عامل التفت إلى ظاهرة رواج الخرافات الكثيرة والأخطاء الموجودة في نقل تاريخ عاشوراء وإحياء ذكرى شهداء الطف، من هنا عقد العزم وشمر لإصلاح هذه الأمور، وفي هذا الخط ترك لنا الأمين ثلاثة كتب صنّفها، لتكون خليفة وتحل محل كتب المقاتل السائدة التي كان يعتبرها مليئة طافحة بالكذب والتحريف.

أول أعماله في هذا المضمار كان كتابه "لواعج الأشجان في مقتل الإمام الحسين"، والذي نشره عام ١٩١١م، وسعى فيه للاعتماد على المصادر التاريخية المعتبرة، مقدّما تقريرا واضحا وفي الوقت عينه موجزا ومكثفا عن واقعة كربلاء، من خلال مقدّمة، وثلاثة مقاصد، وخاتمة. وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنّه استطاع أن يتحول إلى بديل مناسب لكتب المقاتل التي كانت بيد شيعة لبنان، وعدّت من الناحية التاريخية الضعيفة، مليئة بالحوادث الكاذبة.

بعد هذا الكتاب، صنّف الأمين كتاب "أصدق الأخبار في قصّة الأخذ بالثار" والذي نُشر بعد كتابه الأول بعام واحد، شارحا فيه تاريخ حركة التوابين.

أما الكتاب الثالث، فاشتمل على أشعار في رثاء سيّد الشهداء، وقد نشره الأمين في العام نفسه تحت عنوان "الدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد"، وبعد سنوات طبعت هذه الكتب الثلاثة في مجلد واحد صدر عن دار العرفان، لتكتب عنه مجلة العرفان بأنّه لا يمكن لأي شيعي أن يستغني عن هذا الكتاب، وبعد سنوات عدّة شرع الأمين في تأليف كتاب من خمسة مجلدات تحت عنوان "المجالس السنية في مصائب ومناقب العترة النبوية"، مشيرا في مقدمته في المجلد الأول إلى شرعية العزاء وصوابه، وفي الوقت عينه غامزا

من قناة قرّاء العزاء الذين يجعلون الأحاديث والروايات، ناقدا اللطم والتطبير (ضرب الرؤوس بالسيوف)، معتبرا ذلك خلاف الشرع وحراما.

إلا أنّه وقبل أن ينشر المجلد الخامس من هذا الكتاب صنّف الأمين كتابا مستقلا آخر تحت عنوان "إقناع اللائم على إقامة المآتم" ، مستعرضا فيه بحثا مركزا مفصلا لما أوجزه في مقدّمة المجالس السنية، وقد بيّن في مقدمة هذا الكتاب أن هدفه إقامة الأدلة العقلية والنقلية على حسن العزاء على سيّد الشهداء، كي يكون مصنّفه هذا مقدّمة أو تكملة لكتاب المجالس السنية.

بداية، يحدّد الأمين في هذا الكتاب مقصوده من إقامة العزاء أو المآتم، فمن وجهة نظره: العزاء عبارة عن البكاء على شهادة الإمام الحسين (ع)، وإظهار الأسى والغم، وإنشاد الأشعار وقراءتها في الرثاء، وسرد قصّة شهادته، وبيان أخلاقه الكريمة ومناقبه الرفيعة، وإطعام الطعام وإهداء ثوابه إلى الإمام، وإقامة المجالس الشبيهة بمجالس العزاء على الأموات، نعم إن القيام بهذه الأعمال مشروط بشرط أساسي وهو أن لا يشتمل أي واحد منها على عمل محرم، وإلا فلا نراه نحن الشيعة عملا شيعيا، ولا يصح أن يُنسب إلى الشيعة.

يقوم هذا الكتاب على منهاجية مقدّمة "المجالس الفاخرة" لشرف الدين، غير أنّه أكثر تفصيلا منه، ويحوي على ٢٢٢ صفحة، فبعد بحثه التفصيلي، يعمد الأمين في الفصل الثامن لجمع المباحث السابقة، ويجيب عن بعض الإشكالات، فأحد الإشكالات القديمة في مجالس العزاء والتي طرحها أهل السنّة هو القول بكون هذه الأعمال بدعة، إلا أنّ السيّد الأمين يستنتج بعد مروره على الأدلة المختلفة ما يلي: " وأما توهم بعضهم أنّ ذلك بدعة، فقد عرفت من مجموع ما تقدّم أنّه لا يشتمل إلا على السنن والمستحبات أو المباحات على الأقل، ولا مساس له بالبدعة التي هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، أمثال ضرب الدفوف، والتغنّي، والرقص ونحو ذلك بعنوان ذكر الله تعالى وعبادته".

والملفت في هذا الكتاب أنّه بعد تعداده الأعمال التي تُقام باسم العزاء، وهي تلك الأعمال الخمسة التي كان قد ذكرها شرف الدين في كتابه: البكاء على الموتى، ورثاء الميّت، وذكره بالخير، والجلوس للعزاء عليه، وإنفاق المال في وجوه البر له .. يصرّح محسن الأمين بانحصار العزاء بهذه العناصر الخمسة، فهو يقول :" إذا عرفت هذا، فاعلم أنّ المآتم التي تُقام على الحسين (ع) لا تعدو هذه الأمور الخمسة المتقدّمة في الفصول الخمسة، وقد دلت الأدلة السابقة على جوازها ورجحانها .. ".

إنّنا نتذكر في آلية الاستدلال في هذا الكتاب وفي بعض فصوله منهج السيّد شرف الدين، فإضافة إلى شرعية العزاء، يرى الأمين أنّ لهذه المجالس فوائد متعدّدة أخرى، من هنا يذكر تسع عشرة فائدة ويعدّدها، مثل الإحساس بآلام الرسول وأهل بيته ومواساتهم، ومعونة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعرف على أرفع الفضائل، وحفظ واقعة كربلاء في التاريخ، والحيلولة دون نسيانها، وذم الظلم والجور، وتربية حسّ الترحّم لدى الأفراد، كذلك حسّ الاعتماد على النفس والسعي لتعاليها، وتأسيس مدرسة عامّة يشارك فيها الجميع. فيتعرفون على التاريخ والأخلاق والتفسير والأحكام .. إنّها بذلك تتحول إلى منبر عام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقوية روح التعاون والتعاضد بين الشيعة.

ويرى الأمين أنّ مراسم العزاء يمكنها بشكل جيّد أن تلعب دور مؤتمر سنوي ديني ودنيوي، يجتمع فيه المسلمون كافة، ويتبادلون فيه الرأي والفكرة ويطرحون فيه بأقل كلفة ومؤونة قضاياهم لمعالجتها ودراستها، كما أنّ هذه المناسبات والمراسم توجب استفادة الناس من مراكز التعليم الديني وحسن استخدامها لوقت بدل قضاء الوقت في المقاهي ببطالة ودون عمل.

لقد دوّن كتاب المجالس السنيّة لهذا الهدف كي يحل مكان كتب المقاتل غير الصحيحة وتلك المحرّفة، فيُعتمد في المجالس الحسينية العزائية، لقد كان سماع الأمين ومطالعته للأكاذيب والأخطاء في هذا المجال باعثا مرغبا له على تدوين هذا الكتاب، إنّه ينقل في خواطره أنّه شهد في مدينة الكاظمين مجلس عزاء خلط فيه الغث بالسمين والصحيح بالباطل، حتى أنّ الكلمات والمفردات العربية لا تُنطق فيه على وجه صحيح، وقد سأل أحد العلماء الجالسين إلى جانبه: بالله عليك، هل يوجد في كلمات هذا الرجل شيء من صواب؟ فأجابه ذلك العالم بالنفي، فردّ الأمين عليه: لماذا إذا لا تبدون منعا عن مثل هذه الأعمال؟ فأجاب الآخر: لا يمكننا " (نصوص معاصرة، السنة الثالثة، العدد التاسع، شتاء ٢٠٠٧م، ص ١٤١).

أول الكلام:

لم يشر السيّد الأمين إلى موقفه من ضرب القامة والخطابة والتمثيل واللطم والسلاسل في كتبه الأولى، ولم يبد رأيا أو فتوى في كتبه المتقدمة، ولذلك مرّت بهدوء ولم تثر ضجيجا ولا اعتراضا، ونعني بها كتبه الثلاثة الأولى: "لواعج الأشجان في مقتل الحسين (ع)/ ١٩١١م" و"أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار من أعداء الحسين (ع)/١٩١٢م" و "الدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد/١٩١٢م"

كل هذه الكتب لم نجد بها إشارة إلى نقده واعتراضه وموقفه من ضرب القامة والسلاسل وما يجري في الشام يوم العاشر، ولكن أول إشارة أبداها

السيّد، وأول موقف له ورأي مكتوب وكان هو البداية والشرارة، نجده في مقدمة كتابه "المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ٥ ج/١٩٢٣م" إذ في تلك المقدمة أبدى السيّد رأيه بكل وضوح وصراحة، وقد وضع النقاط على الحروف، من دون خوف أو وجل من أحد، وكان يسمي الأشياء بمسمياتها، ولم يكن يواري أو يتردد في قوله، أو يقف في المنتصف، بل يقول ضرب القامة، والسلاسل، وكان يفتي ويعلن رأيه بكل جرأة، وهذا موقف لا يحسد عليه، ويحتاج لرجل جريء مندفع في قولة الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، ويحتاج لعالم يصدق فيه هو الذي يظهر علمه عند الفتن. ففي تلك المقدمة يقول .. وتأمل قوله واعرف أنّه كتب ذلك في عام ١٩٢٣م لا اليوم، كتبه والكل يقف ندا له وفي قبالته ولم يكن أحد معه :

" هذا .. ولكنّ كثيرا من الذاكرين لمصابهم قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف، ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقصوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها حتى حفظت على الألسن وأودعت في المجاميع واشتهرت بين الناس، ولا رادع وهي من الأكاذيب التي تغضبهم (ع)، وتفتح باب القدح للقادح، فإنهم لا يرضون بالكذب الذي لا يرضي الله ورسوله (ص)، وقد قالوا لشيعتهم كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا. وقد اكتسبوا هم ومن قبلها منهم وأقرهم عليها الإثم المبين، فإنّ الله لا يطاع من حيث يعصى، ولا يتقبل الله إلا من المتقين، والكذب من كبائر الذنوب الموبقة، لا سيّما إن كان على النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين.

كما أنّ ما يفعله جملة من الناس من جرح أنفسهم بالسيوف أو اللطم المؤدي إلى إيذاء البدن إنّما هو من تسويلات الشيطان وتزيينه سوء الأعمال فذلك مما يغضب الحسين (ع) ويبعد عنه لا مما يقرب إليه، فهو (ع) قد قتل في سبيل الإحياء لدين جدّه (ص) وهذه الأعمال مما نهى عنها دين جدّه فكيف يرضى بها وتكون مقربة إليه تعالى، والله تعالى لا يطاع من حيث يعصى كما ذكرنا آنفا. وانتحال بعض الجهّال عذرا لذلك بما ينقلونه من أنّ إحدى الطاهرات نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رئي الدم يجري من تحت قناعها هو من هذا البحر وعلى هذه القافية اللذين مرّت الإشارة إليهما، وهكذا ما يجري من التمثيل والتشبيه للوقعة فإنّه في نفسه مشتمل على كثير من الحر مات وموجب لهتك الحرمة وفتح باب القدح للذين يحاولونه بما استطاعوا فيكون منهيا عنه بقوله (ع) : ولا "ولا تكونوا شينا علينا". نعم التمثيل الخالي عن الحر مات والشائنات لا بأس به ولكن أين هو؟!

فعلى من يريد التقرب إلى الله تعالى ونبيه (ص) وأوليائه بالبكاء والحزن لمصاب الحسين (ع) أن لا يتعدى ما رسمه الرضا نقلا عن أبيه عليهما السلام

مما مر وإلا كان من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا" (ط٢/١٩٩٢م، دار التعارف للمطبوعات، ص١١).

هذا الكلام الصادر من السيّد الأمين يُعد هو الأول له، وأول رأي علني عام يشجب فيه تلك الأقوال والأعمال، وأول فتوى خطية تصدر من قلمه .. ولأنّ الفتوى والرأي والنقد الذي انطلق من السيّد الأمين كان مجرد أسطر قليلة ابتدأ بها كتابا موسوعيا، ولأن القلة من المتعلمين من سيقوم بقراءة تلك المقدمة والرأي الذي كتب ما بين الأسطر، لذا فإن الأثر كان ضعيفا، ولم يصل ذلك الرأي إلى العوام، ولم يحدث ضجّة تذكر، ولم يسبب الهياج والفوضى ويؤدي بالتالي للمواجهة والتحدي والتكفير. إذ لم ينتبه له أحد، ومرّ بسلام وهدوء. وإذا كانت هناك من ردود أفعال وأثر قد تركته تلك المقدمة فإنّ أبرز ما تواجدت فيه هي بيئة العلماء، أقران السيّد الأمين، والذي تابعوا كتابه، وقرأوا تلك المقدمة، وعرفوا رأيه الصادم والغريب والجريء معا، وقد انقسموا فريقين، كعادة العلماء والمثقفين والعوام أمام كل رأي جديد، وأمام كل مفكر حر وجريء، والسبب في ذلك كما نظن ونرى بأنّ الناس والعوام والمثقفين يعكسون ما بداخلهم من مواقف على العالم المصلح، فإذا كان هذا العالم يعبر عما بداخلهم وقفوا في صفه، وإذا كان ما ينادي به من إصلاح وآراء على خلاف رأيهم شتموه وأهانوه وثاروا ضده، وهذا ما نجده لدى مواقف الناس تجاه المصلحين، فعلى إثر كل رأي إصلاحي ينقسم الناس إلى فريقين في مواقفهم من هذا المصلح، لأنّهم في الحقيقة وقبل أن يظهر هذا المصلح وينادي بآرائه هم منقسمون إلى فريقين، ولكن هذا الانقسام مترسب في القاع، ولا يظهر إلى السطح إلا عندما يأتي عالم وينادي بفكرة أو بأفكار إصلاحية تجديدية عديدة، هذا ما حدث من العوام والمعممين تجاه علي شريعتي وفضل الله وكاشف الغطاء والصدر وغيرهم. وهو ما حدث تماما هنا مع السيّد محسن الأمين عندما أطلق أول صرخة في وجه الجهل والبدع في الدين والعقيدة، وعندما استنكر الكذب والفساد والاختلاق في الروايات المنسوبة لأهل البيت (ع) وخصوصا في حادثة كربلاء.

عندما كتب السيّد تلك المقدمة التي شجب فيها ضرب القامة والسلاسل والكذب في الرواية وقرأها مجموعة من العلماء انقسم هؤلاء العلماء في موقفهم من السيّد وما صدر منه من رأي حازم إلى فريقين، فريق وقف في صفه، وأيّد كل ما صدر منه، ودعمه واعتبره مصلحا جريئا، وسانده في موقفه من الحديث وضرب القامة والسلاسل، لأنّه في الأساس وجده يعبر عنه وعما بداخله، والفريق الآخر ثار وهاج واستنكر ما جاء في تلك المقدمة، واعتبر السيّد فاسد العقيدة، منحرف الرأي وخارجا على رأي الفقهاء والعلماء، ونقموا منه، ولكن هذه النقمة والثورة لم تتعد حديث المجالس وتناجي الندوات، ومنتديات العلماء الخاصة.

القامة ليست من الدين بل هي من المحرمات:

في إحدى السنوات كان السيّد محسن الأمين يمر ببيروت في طريقه من جبل عامل إلى دمشق، وكان ذلك قبيل حلول شهر المحرم سنة ١٣٤٧هـ، الموافق ١٩٢٧م على وجه التقريب. فزاره أحد الصحفيين وسأله فيما يجري من الاحتفالات الحسينية الدامية، من ضرب القامة والسلاسل، ومواكب اللطم وما إلى ذلك، فكان جوابه صريحا بأنّ هذا ليس من الدين، بل إنّ فعله حرام ومخالف للدين، وإنّه هو نفسه قد منعه منعا باتا حين كان يجري في مقام السيّدة زينب (ع) في ضاحية دمشق.

هذا الرد وهذا الجواب القاطع الذي لا يعرف الهوادة أو المجاملات أو الكلام المطاط الذي يحتمل الأوجه كلها كما يلجأ له غالبية العلماء في إجاباتهم وردودهم ومواقفهم من الظواهر الاجتماعية أثار زوبعة كبيرة في أوساط العلماء والعوام والشيعة بشكل عام، فإذا كان تصريحه الأول مختبئا في زوايا مقدمة واحد من كتبه، فإنّ هذا التصريح قاله من خلال مجلة سيّارة، وصحيفة منتشرة في ربوع الشام والكل يطلع عليها يوما بيوم، مما يعني أنّ هذا الرأي بلا شك سيثير ضجيجا وردات فعل ناقمة، وغضبا كبيرا في الأوساط كلها، وهذا ما حدث تماما، فثارت العامة والعلماء على السيّد الأمين لما بدر منه من كلام، اعتبروه كلاما غير لائق، وضد المذهب ويحارب فيه السيّد الشعائر الحسينية، ومواساة أهل البيت (ع) في مصابهم في كربلاء. واعتبروا السيّد الأمين بكلامه هذا أمويا وناصبيا وهو من أنصار أعداء أهل البيت (ع) وإن كان معمما ودارسا في النجف الأشرف.

" محاولات الإصلاح:

من الطبيعي أن يثير سلوك بعض قراء المجالس الحسينية وبعض طقوس المواكب وبخاصة ممارسات التعذيب والجلد الذاتي انتباه العلماء المتنورين والمجتهدين الكبار والمصلحين وعدد من المثقفين الذين دعوا إلى ضرورة تغيير وتطوير وتطهير ما دخل إلى مراسيم العزاء الحسيني من ممارسات سلبية وتحويلها إلى تظاهرات فكرية ومهرجانات حضارية متقدمة، وبصورة خاصة، ما يرتبط بمواكب التطبير بالقامات وضرب الظهر بالسلاسل الحديدية، وما يرتبط بها من طقوس وممارسات مبتدعة لا تلتزم بالحقائق التاريخية والوقائع العلمية والمنطقية التزاما دقيقا، بل تعتمد على قصص وأساطير مملوءة بالخرافات والأباطيل.

وينظر بعض علماء الشيعة إلى ما ابتدع من شعائر وطقوس على أنّها بعيدة عن روح الإسلام، كوسائل التعذيب الجسدي بالسيوف والسلاسل الحديدية على وجه الخصوص، غير أنّ العامة من الناس، وبخاصة من المدّعين بالتفقه بالدين، لا يبالون بأقوال الفقهاء والمجتهدين ويبررون

وجهة نظرهم بكونها شعائر "عقائدية" هدفها خدمة الحسين وأهل البيت ونشر أفكارهم، والتعبير بواسطتها عن حبهم وولائهم لهم ومواساتهم لما لاقوه من ظلم وجور، وهي في الوقت نفسه: إظهار للحق وإنكار للباطل، مع العلم بأنّ من يجلد نفسه بالسيف أو الزنجيل حتى تسيل الدماء من رأسه أو ظهره ويعرض نفسه للخطر، إنّما يخالف آراء العلماء والمجتهدين ولا يبالي بأقوالهم ويبرر ذلك بحجج منطقية.

وفي الحقيقة والواقع فقد أطبق الصمت على مثل هذه الممارسات السلبية طوال عقود طويلة مما تركها تنمو وتقوى وتنتشر، ما عدا بعض المحاولات الجريئة التي تصدّت لمثل هذه الممارسات، في محاولة لتنقية عاشوراء مما حلّ بها من شوائب وما ألحق بها خلال عصور الجهل والظلام والتخلف الحضاري. كما عمل استسلام بعض العلماء لهذا التيار الشعبي وإضفاء الشرعية عليه وتهاونهم في إصدار فتاوى يحسم أمر هذه الطقوس واتخاذ موقف صارم وموحد منها، أدّى إلى تطورها ونموها بشكل غير سليم.

وفي الواقع لم يصدر حتّى الآن، لا تحريم قاطع ولا جواز قاطع من قبل العلماء والمجتهدين. وقد يعود هذا الموقف إلى تغلب المصالح الشخصية لدى البعض منهم، وعدم وعي البعض الآخر بتأثير هذه الممارسات الخاطئة على أصالة الإسلام ونقاوته. كما يعود ذلك أيضا إلى أنّ كثيرا من علماء الشيعة يعتمدون في رزقهم على ما يقدمه الناس من حقوق شرعية إلى المرجعية الدينية أو إلى وكلائها المنتشرين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، الذين يوزعون بدورهم تلك الحقوق الشرعية على من يستحقها من المسلمين.

وفي الوقت الذي لاقت انتقادات العلماء والمجتهدين والمصلحين الاجتماعيين اهتماما بالغا وترحيبا كبيرا، فقد تعرضوا إلى حملات شعواء واتهامات باطلة. ومنذ الثلاثينات من هذا القرن قامت حركة إصلاح وتوعية تنويرية حملها بعض العلماء والمجتهدين والمصلحين من الشيعة ضد الأفكار والآراء الدخيلة والخاطئة التي وجدت لها منفذا في مراسيم العزاء الحسيني. وبخاصة تلك الممارسات الخاطئة وكذلك القصص والأساطير والخرافات الدخيلة على الفكر الشيعي والتي لا يمكن للعقل والمنطق السليم تقبلها وتصديقها، وهي تمارس باسم الدين والعقيدة. كما عزّزت انتقادات المفكرين والمصلحين الاجتماعيين مواقف العلماء والمجتهدين، إلى جانب ابتعاد كثير من الشباب المثقف عن مثل هذه الممارسات والطقوس المستهجنة.

وعندما استفحلت ممارسة التطبير بالسيوف والضرب بالسلاسل الحديدية، تواصلت الأصوات التي دعت العلماء إلى إصدار فتاوى تحرم مثل

هذه الممارسات الضارة، وقد انقسم الناس إلى فريقين، فريق يؤيد ضرب القامات وآخر يستنكرها، مما دفع بالسيّد محسن الأمين إلى أن يقود حركة إصلاحية لتقييم وتقويم مراسيم العزاء الحسيني التي تقام في عاشوراء، والتصدي لموضوع الطقوس الحسينية الخاطئة التي لا تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة، وبخاصة ممارسات "التطبير بالسيوف والقامات والضرب بالسلاسل الحديدي الجارحة من قبل بعض الجهلاء". كما أعلن حرمة المواكب "وما يجري فيها من بدع شيطانية مضرة".

كما وجّه السيّد الأمين انتقادات حادّة لمظاهر الإفراط في البكاء والنحيب ولطم الوجوه مؤكدا بأنّ هذه الطقوس المشينة إنّما تستند إلى الخيال في وصف مسيرة القديسين، وأنّ الممارسات التي تؤدي إلى إراقة الدماء وتلحق الأذى بضاربي القامات إنّما دخلت المذهب الشيعي الإمامي في وقت متأخر. كما أكد بأنّ المجتهد الأكبر السيّد محمد حسن الشيرازي المتوفى عام ١٨٩٥ قد حرمها، وأنّ الجهلة الذين يمارسونها يفرضون مشيئتهم على العلماء الذين كانوا ضعفاء بحيث لم يستطيعوا منع انتشارها. وفي مقدمة كتابه "المجالس السنية" قال السيّد الأمين بأنّ كثيرا من القراء "قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها حتى حفظت على الألسن وأودعت في المجاميع واشتهرت بين الناس ولا رادع، وهي من الأكاذيب التي تغضبهم (أي أئمة أهل البيت) وتفتح باب القدح للقادح، فإنّهم لا يرضون بالكذب الذي لا يرضي الله ورسوله (ص). وقد قالوا لشيعتهم "كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا". وقد اكتسبوا هم ومن قبلها وأقرهم عليها الإثم المبين، فإنّ الله لا يطاع من حيث يعصى ولا يتقبل الله إلا من المتقين. والكذب من كبائر الذنوب الموبقة لا سيّما إن كان على النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين. كما أنّ ما يفعله جملة من الناس من جرح أنفسهم بالسيوف أو اللطم المؤدي إلى إيذاء البدن إنّما هو من تسويلات الشيطان وتزيينه سوء الأعمال فذلك مما يغضب الحسين (ع) ويبعد عنه لا مما يقرب إليه. فهو (ع) قد قتل في سبيل الإحياء لدين جده (ص)، وهذه الأعمال مما نهى عنها دين جده فكيف يرضى بها وتكون مقربة إليه تعالى. والله تعالى لا يطاع من حيث يعصى ...". وفي الواقع، كانت دعوة السيّد الأمين الإصلاحية تستهدف ما هو أبعد من ذلك، وقد بدأت من القاعدة لتجتاز كل شيء وصولا إلى مراسيم العزاء الحسيني.

وقد تعرّض السيّد الأمين من جراء تصديه الجريء لهذه الطقوس الشائنة إلى حملات ظالمة واتهامات باطلة حيث هاج العامة عليه واعتبروه كافرا وزنديقا. وقد اتخذ مخالفوه دعوته الإصلاحية ذريعة لمهاجمته، وقد أيّدهم في ذلك كثير من العامة وقراء المجالس الحسينية، لأنّها جاءت متفقة مع

رغبتهم ومصالحهم في ذلك" (تراجيديا كربلاء، إبراهيم الحيدري، ط١/٢٠٠٢م، دار الكتاب الإسلامي، ص٤٤٥).

الضجة تصل العراق والعلماء ينقسمون إلى فريقين:

في الوقت الذي وقف فيه السيّد محسن الأمين ضد ضرب القامة والسلاسل وما يجري في العزاء من مخالفات مشهودة ومعروفة، كان السيّد عبد الحسين شرف الدين في صور والشيخ عبد الحسين صادق في النبطية قد وقفا ضد دعوة السيّد الأمين. وقد ذكر الزركلي بأنّه كان يؤخذ على السيّد عبد الحسين شرف الدين "إباحته للعوام ضرب أجسامهم بالسيوف والسلاسل في ذكرى سيد الشهداء الحسين".

وقد التف حول كل فريق منهم مؤيدون ومتحمسون، حتى وصلت الحملات الكلامية إلى العراق، فتفجّرت المناقشات والمعارك الكلامية بين مؤيد لهذه الدعوة ومخالف لها. وتناولت الصحف والمجلات هذه القضية، كل يدعو إلى فريق دون آخر، إلى درجة أنّ المصالح والأغراض والأحقاد الشخصية قد تدخلت وسيطرت في مناقشاتهم. كما تناول خطباء وقراء المجالس الحسينية ووعاظ الجوامع هذه القضية الحساسة وأخذوا يثيرون العامة ضد فتوى التحريم، حتى رجحت كفة العامة من الناس، الذين يشكلون دوما الأكثرية، وبذلك انقسم الناس إلى "حزبين" متخاصمين. وقد أطلق على الذين ناصروا السيّد محسن الأمين حزب "الأمويين"، في حين أطلقوا على المخالفين له حزب "العلويين". وقد تعرّض من جرّاء ذلك عدد آخر من العلماء إلى التنكيل والتهديد (السابق،٤٥١).

إلا أنّ السيّد محسن الأمين لم يكن ذاك الذي يستسلم بسهولة للواقع القائم، لهذا عمد إلى تدوين هذا الكتاب وترويجه، ولم تتوقف حركته الإصلاحية عند هذا الحدّ، بل عمد إلى تحريم كل أشكال التعزية والتشابيه التي كان يختلف معها اختلافا جذريا، مستثنيا الأعمال الخمسة السابقة، وذلك عندما سنحت له الفرصة. والذي يبدو أنّه عام ١٩٢٤م، وفي إحدى مناسبات أعمال الشبيه، وقع نزاع أدّى إلى مقتل شخصين، وقد استفاد الأمين من هذه الفرصة فأصدر حكما بتحريم أعمال الشبيه وسائر الأعمال الأخرى، مثل ضرب الجسد، بل عمل على منعها ميدانيا، مستفيدا من قوّة الدولة وجنودها لوضع حد لهذا الأمر.

ومجمل القصّة أنّ رجلين من أهل السنّة كانا في حالة سكر وثمالة، جاءا لمشاهدة مظاهر العزاء بالقرب من مرقد السيّدة زينب، وقد عدّ هذا الأمر نوعا من التوهين، الأمر الذي انجر إلى تصادم، وقد ضمّن محسن الأمين في فتواه: أن عمل الشبيه تواكبه أعمال محرمة، ولا يكون إحياء وتقدير ذكرى شهادة الإمام الحسين (ع) بالقيام بمثل هذه الأعمال، فقد ثار لإحياء

دين جدّه واستشهد لذلك، وقد توقفت هذه المراسم في دمشق طالما ظلّ السيّد الأمين حيًا، بعد ذلك بمدّة قصيرة انشغلت الصحف والنشريات البيروتية بتحليل آراء الأمين ، الأمر الذي ساعد على نشر فكرته أكثر فأكثر.

وفي عام ١٩٢٦م (١٣٤٥هـ) أصدر في البصرة عالم اسمه السيّد مهدي بن صالح القزويني (١٨٦٥- ١٩٣٩م) فتوى حرّم فيها أعمال الشبيه وضرب الصدور، وقد نشر القزويني مقالة في صحيفة الأوقات العراقية ذكر فيها أنّ بعض الأعمال التي تُقام باسم العزاء إنّما هي أعمال بدعة ووحشية، وبعد مدّة مديدة جدّد القزويني خطوته هذه بنشر مقالة حملت عنوان "صولة الحق على جولة الباطل في موكب التعزية "، مؤكدا فيها على موقفه السابق القائل بحرمة أعمال الشبيه المصاحبة بجملة محرمات أخرى، وقد تعرّضت هذه المقالة للنقد، فردّ عليها شخص باسم: الشيخ عبد الكاظم بن محمود الغباني (مولود عام ١٣٠٧هـ) عبر تأليف كتاب أطلق عليه: "البراهين القائمات" وقد نشر الكتاب بتقريظ في أوّله للعلامة محمد حسين آل كاشف الغطاء، وذلك عام ١٣٤٥هـ، وقد أكد فيه رجحان العزاء ومطلوبية أعمال الشبيه.

اتهم القزويني بالتعاون مع الحزب الأموي، ورغم أنّ الاثنين كانا مشتركين في الموقف، إلا أنّه لا يبدو أنّهما كانا كذلك في مسائل أخرى، أو أنّهما نسّقا سويا في هذه المسألة بعينها، مع ذلك فقد عدّ هذان الموقفان من مدينتين مختلفتين مؤامرة، لذا هبّ المدافعون عن أعمال الشبيه وما شاكلها والقائلون بإباحتها بل استحبابها ... هبّوا للمنافحة الشديدة بجهود ضخمة عن مواقفهم ليعلنوا رفضهم لمواقف الرجلين، فالشيخ عبد الحسين صادق العاملي ألف كتابا أسماه "سيماء الصلحاء في إثبات جواز إقامة العزاء لسيّد الشهداء"، وانتقد فيه دون أن يسمي كلا من الأمين والقزويني، وقد سطر في نهاية الكتاب أنّ العلماء الكبار عند الأمّة لم يخالفوا في الشعائر الحسينية، إلا رجلان أحدهما من جبل عامل والآخر من البصرة. (نصوص معاصرة،١٤٤).

تدخل المراجع والفتاوى في القضية:

وقد تحولت القضية من مشكلة إصلاحية إلى مشكلة شخصية، واندفعت كل جماعة إلى تبرير أقوالها وأعمالها وأهدافها بأساليب منطقية مما دفع بعض الأشخاص إلى التوجه إلى كبار المجتهدين يستفتونهم في أمر التطبير بالسيوف كتعبير عن الحزن والأسى يوم عاشوراء. وقد أصدر السيّد أبو الحسن الأصفهاني في النجف بحدود عام ١٩٢٦م فتوى يحرم فيها الضرب بالسيوف، كما أصدر السيّد مهدي القزويني في البصرة فتوى تؤيد تحريم التطبير أيضا. وقد تبعهم علماء آخرون. وكانت فحوى فتوى السيّد

أبو الحسن الأصفهاني "أن استعمال السيوف والسلاسل الحديدية والأبواق وما يجري اليوم في مواكب العزاء بيوم عاشوراء باسم الحزن على الحسين إنّما هو محرم وغير شرعي".

أما الميرزا محمد حسين النائيني فقد أفتى بجواز تلك المراسيم مؤكدا "جواز ما كان ضرره مأمونا"، جوابا على رسائل وبرقيات وردت إليه من بغداد "عن حكم المواكب العزائية". وقد عرضت فتواه على بقية العلماء فأيّده في ذلك أكثر من عشرة من كبار العلماء، منهم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيّد محسن الحكيم، والسيّد أبو القاسم الخوئي. ونورد هنا نص فتوى الشيخ محمد حسين النائيني حول جواز واستحباب إقامة الشعائر الحسينية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١. خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه وكونه من أظهر مصاديق ما يقام في عزاء المظلوم وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد.

لكن اللازم تنزيه هذه الشعائر العظيمة عما لا يليق بعبادة مثله، من غناء واستعمال آلات اللهو والتدافع في التقدم والتأخر بين أهل محلتين ونحو ذلك، ولو اتفق شيء من ذلك، فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرم. ولا تسري حرمته إلى الموكب العزائي، ويكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة، في عدم بطلانها.

٢. لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور إلى حدّ الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضا على الأكتاف والظهور إلى الحد المذكور، بل وإن تأدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى. وأما إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات فالأقوى جواز ما كان ضرره مأمونا (أي الانجرار إلى الموت أو الإصابة بمرض ذي ألم شديد دائم لا يُتحمّل عادة، أو استئصال فساد عضو من أعضاء الجسم) وكان من مجرد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها، ولا يتعقب عادة بخروج ما يضر خروجه من الدم ونحو ذلك كما يعرفه المتدربون العارفون بكيفية الضرب ولو كان عند الضرب مأمونا ضرره بحسب العادة، ولكن اتفق خروج قدر ما يضر خروجه، لم يكن ذلك موجبا لحرمته، ويكون كمن توضأ أو اغتسل أو صام أمنا من ضرره ثم تبين ضرره منه، لكن الأولى، بل الأحوط أن لا يقتحمه غير العارفين المتدربين ولا سيّما الشبان الذين لا يبالون بما يوردون على أنفسهم لعظم المصيبة وامتلاء قلوبهم من المحبة الحسينية، ثبّتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

٣. الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون، وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى.

٤. الدمام المستعمل في هذه المواكب مما لم يتحقق لنا إلى الآن حقيقة، فإن كان مورد استعماله هو إقامة العزاء وعند طلب الاجتماع وتنبيه الراكب على الركوب وفي الهوسات العربية ونحو ذلك، ولا يستعمل في ما يطلب فيه اللهو والسرور، كما هو معروف عندنا في النجف الأشرف، فالظاهر جوازه والله أعلم . ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٥هـ الموافق الأحد ١٢ سبتمبر ١٩٢٦م.

وقد أدّت فتوى الميرزا النائيني وفتاوى العلماء الآخرين إلى ازدياد هياج العامة في وجه مؤيدي دعوى السيّد محسن الأمين. وكان الخطيب السيّد صالح الحلي، وهو أحد مشاهير خطباء المجالس الحسينية آنذاك، قد هيّج عواطف الناس ومشاعرهم بخطبه الحماسية، مما جعل البعض يتخذ من هذه القضية وسيلة لمهاجمة أعدائه واتهامهم بـ "الأموية"، حتى ازداد اعتداء البعض على البعض الآخر المخالف. وقد وصل الأمر إلى أن يتطاول السيّد صالح الحلي على السيّد أبو الحسن الأصفهاني والسيّد محسن الأمين العاملي بالسب والشتم واتهام السيد الأمين بالزندقة. وكان جعفر الخليلي من المؤيدين لدعوة السيّد محسن الأمين فكتب في بعض الصحف والمجلات مقالات نقدية هاجم فيها العلماء الذين خالفوا فتوى السيّد أبو الحسن الأصفهاني والسيّد محسن الأمين، وقد لقي من جرّاء ذلك تهديدا بالاعتداء والقتل وكثيرا من الشتائم.

ومع ارتفاع درجة الهياج والتشهير، فقد وقف عدد من العلماء إلى جانب السيّد أبو السحن الأصفهاني والسيّد محسن الأمين، وكان على رأسهم السيّد هبة الدين الشهرستاني في الكاظمية والسيّد مهدي القزويني في البصرة، كما وقف إلى جانبهم الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محسن شرارة والشيخ علي القمي والشيخ جعفر البديري في النجف.

والحال، فقد سبقت فتوى الشيخ محمد حسين النائيني فتوى كان قد أصدرها الميرزا أبو القاسم الحسن الكيلاني المعروف بالفضل القمي المتوفى عام ١٢٣١هـ/١٨١٦م، الذي يُعد من كبار مجتهدي الشيعة في إيران زمن حكم القاجاريين. وكانت التعازي (التشابيه) قد انتشرت في جميع أنحاء إيران آنذاك. مما دفع بعض العلماء إلى إصدار فتاوى تبيح إقامتها. وكانت فتوى أبو القاسم القمّي هي أول فتوى تبيح بصراحة ووضوح إقامة الشعائر والطقوس الحسينية، ومما قاله "ليست مجالس التعزية والشبيه أعمال شرعية فحسب، بل هي أيضا غير محرمة، كما أنّها تعتبر من أعظم

الشعائر الدينية". وقد نشرت الفتوى لأول مرّة عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م في كتابه المعروف "جامع الشتات".

أما في العراق فكان الشيخ خضر بن شلال آل خدام النجفي المتوفى عام ١٨٤٠م أول من أشار في كتابه "أبواب الجنان وبشائر الرضوان" إلى جواز اللطم على الحسين والجزع على مصابه في مؤلفات الشيعة حيث قال :" الذي يُستفاد من مجموع النصوص، ومنها الأخبار الواردة في زيارة الحسين المظلوم، ولو مع الخوف على النفس، يجوز اللطم والجزع على الحسين كيفما كان حتى لو علم بأنّه يموت في نفس الوقت". ولم يذكر الشيخ خضر بن شلال التطبير بالسيوف والضرب بالسلاسل الحديدية، وكذلك الفضل القمّي.

والواقع، لقد ميّزت أغلب فتاوى العلماء المؤيدين للتطبير بالسيوف بين الإصابات التي تؤدي إلى الضرر البالغ كالموت، وبين الإصابات الخفيفة التي لا تؤدي إلى ضرر بالغ، وأجازوا كل أشكال الممارسات الأخرى التي تقام في عاشوراء، ما لم تكن موجبة للسخرية وتهيج عداوة الغير وإباحة الفساد، كما أنّهم لم يذكروا ضرب الرؤوس بالسيوف نصا في إباحتهم لتلك المراسيم والطقوس.

وعلى أغلب الاحتمالات، فإنّ أول إشارة على جواز التطبير بالسيوف وغيرها من الشعائر والطقوس التي تجري في عاشوراء إنّما جاءت ردّا على تساؤلات واستفسارات عديدة حول جواز أو حرمة مثل هذه المراسيم في العشرينات من هذا القرن، والتي لم تكن في الواقع متبعة من قبل العراقيين قبل هذا التاريخ، وهو ما يوصلنا إلى استنتاج هو أنّ طقوس التطبير بالسيوف (القامات) والضرب بالسلاسل الحديدية (الزناجيل) كانت معروفة في بداية هذا القرن، وأنّ أصولها ليست عربية. وما يؤيد قولنا هذا ما ذكره الشيخ كاظم الدجيلي من أنّ العرب لم يكونوا يشاركون في مثل هذه الطقوس حتى بداية هذا القرن، وأنّها كانت تقتصر أساسا على التركمان والدراويش وكذلك على إيرانيين وأكراد من جبال بشتكوه.

وقد أشار تقرير بريطاني عن "عاشوراء" عام ١٩١٩م في النجف، بأنّ "مجموعة من مائة شخص فقط كانوا يمارسون شق رؤوسهم"، "وكانت تقتصر على الشيعة الأتراك والفرس بالأساس". ويدعم هذا الرأي ما قاله السيّد محمد بحر العلوم : "أتذكر عندما كنت في النجف، وأنا الآن على أبواب السبعين، أنّه قبل خمسين أو ستين سنة كان هناك موكب "الترك" فقط، وكما أتذكر كانوا يذهبون إلى بيت السيّد بحر العلوم الكبير ويطلبون من شيبة العلم أن يقرأ أحدهم أبياتا شعرية مؤثرة في الإمام الحسين، وكان بعضهم يجرح نفسه جرحا خفيفا مواساة للإمام الحسين، ثم تطور وتوسع ولكنه لم يتوسع بالقدر الذي حصل بعد منع حكومة ياسين الهاشمي

للتطبير (١٩٣٥م) وردة الفعل عليه حيث تطورت وأصبحت ثلاثة مواكب ...". كما نُقل عن الحاج حيدر بن راضي بن أحمد، أحد معمري أبناء كربلاء، المتوفى عام ١٩٥٦م عن عمر ناهز المائة وعشر سنوات، قوله بأنّ ضرب القامات والزناجيل لم يكن موجودا في أيام شبابه في مدينتي كربلاء والنجف. كما أنّ روايات المعمرين الشفوية لا تشير إلى أنّ النجف وكربلاء شهدتا أي نوع من ممارسات ضرب السيوف أو السلاسل الحديدية قبل منتصف القرن التاسع عشر، وأنّ أول من مارس مثل هذه الطقوس في العراق كانوا زوارا أتراك من قزلباش الذين جاؤوا لزيارة الحسين في كربلاء واستخدموا سيوفهم الخاصة (القامات) في ضرب رؤوسهم.

وقد جاءت أول إشارة إلى ممارسة ضرب السلاسل الحديدية (الزناجيل) من النجف، حيث قيل بأنّ أول موكب لضرب السلاسل الحديدية حدث في حي المشراف عام ١٩١٩م لنعي وفاة المجتهد الأكبر كاظم اليزدي. ومن الملاحظات أنّ هذه الممارسات كانت تجري على نطاق ضيّق ومحدود وتقتصر على غير العراقيين. وفي الوقت الذي كانت ممارسة اللطم على الصدور في العراق متبعة ومعروفة منذ عدّة قرون، كانت ممارسة التطبير بالسيوف قد نشأت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، في حين نشأت ممارسة الضرب بالسلاسل الحديدية في العراق بعد الحرب العالمية الأولى.

وقد توسعت مواكب العزاء الحسيني وانتشرت في أغلب مدن وسط العراق وجنوبه بعد الحرب العالمية الثانية، مما دعا الشيخ محمد الخالصي في بداية الخمسينات من هذا القرن إلى نبذ البدع والخرافات وإعادة الإسلام إلى نهجه الصحيح، وأشار في خطبه إلى أنّ كثيرا من العادات والتقاليد والطقوس التي يقوم بها البعض هي "بدع" لا ترتبط بأسس العقيدة الإسلامية، كالتشابيه والتطبير بالسيوف وضرب الزناجيل وكذلك الطقوس التي يقوم بها الدراويش في حلقات الذكر والتكايا وغيرها، إضافة إلى تحريمه "علي ولي الله" إلى الأذان.

وقد أثارت أقواله وخطبه التي كان يلقيها في صلاة الجمعة غضب كثير من رجال الدين وخطباء المجالس الحسينية ورؤساء المواكب وغيرهم، واعتبروا دعوته باطلة. وقد نتج عن تلك الخلافات صراعات حادّة ومعارك شديدة بين المؤيدين لآرائه والمعارضين لها. (تراجيديا كربلاء،٤٥١).

ردود وعاصفة وهياج على الأمين:

بعد انتشار فتوى النائيني في الشعائر وجواز ضرب القامة والسلاسل، فهم منها الجميع أنها تعريض واضح بالسيّد الأمين، وما كتبه وما قاله حول الشعائر وضرب القامة والسلاسل،وأنّها ردّ صريح من قبل كبار المراجع

على فتاواه في تلك الطقوس، جرّت الفتاوى الصادرة بإباحة مراسم العزاء ومنها التطبير إلى نشر كتب عدّة أخرى ناقدة لكل من الأمين والقزويني، وهذه بعض الكتب التي نشرت آنذاك: كلمة حول التذكار الحسيني، لمحمد جواد الحجامي النجفي، وقد أجاز في هذا الكتاب أنواع المراسم العزائية، وكذلك نصرة المظلوم، لإبراهيم حسن آل مظفر النجفي، وقد أكد فيه على حلية الاستفادة من المسرحيات وأعمال الشبيه، حاملا بشدّة على المجددين المتسنّنين (أي المتأثرين بأهل السنّة) من الذين لا يجيزون سوى المسرحيات اللادينية المعدّة للتسلية، وأيضا النظرة الدامعة للشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي، فهو كسابقيه أباح مثل هذه الأعمال.

في هذه الأثناء، اشتدّت الحملات التي تعرّض لها السيّد محسن الأمين في جبل عامل، وهو يسكن في قريته "شقراء" في جنوب لبنان، وعلى حد قول جعفر الخليلي، فقد انبرى لمخالفته عبد الحسين صادق في النبطية وعبد الحسين شرف الدين في مدينة صور، وهو ما دفعه إلى تأليف كتابه المعروف في هذا المجال، والذي حمل عنوان "التنزيه لأعمال الشبيه"، لقد كانت هذه الرسالة مختصرة جدا تقارب العشرين صفحة فقط، وقد كتبت عام ١٩٢٧م، إلا أنّها لم تُنشر حتى نهايات العام ١٩٢٨م، وسبب هذا التأخير يمكن أن يكمن في تردّد المؤلف في النتائج التي يمكن أن تتركها أو خوف الناشر من ردود الأفعال عليها، وقد رحّبت مجلة العرفان بنشر هذه الرسالة على صفحاتها، وكتبت تصفها بأنّها رد محكم ضد البدع التي نشرها بعض العلماء في النبطية وجبع في لبنان، ما أوجب الاستهزاء بالشيعة، وهي - أي الرسالة- مستندة إلى الأدلة المحكمة الدينية والعقلية.

لقد عدّ السيّد محسن الأمين في هذه الرسالة عدّة منكرات راجت في شعائر عاشوراء وبعضها عنده من الذنوب الكبيرة، وهي:

١. الكذب ونقل الروايات التي لا أساس لها من الصحّة عن أهل البيت (ع).
٢. تعذيب النفس وإلحاق الضرر والأذى بها، على أثر جرح الرأس بالسيوف والخناجر.
٣. استخدام آلات اللهو، ومن جملتها الصنوج والدمام.
٤. تشبّه الرجال بالنساء أثناء إقامة المسرحيات.
٥. عرض النساء العاريات الرؤوس على الهوادج في مسرحيات بوصفهنّ بنات رسول الله (ص).
٦. أصوات النساء في محضر الرجال والذي إذا لم يكن حراما فهو لا يتناسب مع الآداب والمروءة، ولا بدّ من تطهير العزاء منها.

٧. إطلاق الأصوات المنكرة التي تقشعرّ منها الأبدان.

٨. وكل ما يوجب الهتك والسمعة السيئة، وهو ما يقبل الحصر.

ويرى محسن الأمين أنّ إدخال هذه الأمور في مراسم العزاء الحسيني هو من تسويلات الشيطان، ومن المنكرات التي تغضب الله ورسوله والإمام الحسين نفسه، فقد قام لإحياء دين جدّه، واستشهد لإزالة المنكرات، فكيف نرضيه بارتكاب مثل هذه الأعمال، سيّما مع جعلها عنوانا للطاعة والعبادة ؟!.

رسالة التنزيه وموجات النقد والنقد المضاد:

لقد شهدت هذه الرسالة أصداء واسعة وقاسية وحادّة وسريعة، فخلال أشهر عدّة على صدور هذا الكتاب ألفت في العراق العديد من الكتب في نقده، فقد كتب الشيخ عبد الحسين الحلي كتابه :"النقد النزيه لرسالة التنزيه في أعمال الشبيه"، وذلك عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، في مجلدين، ناقدا على الأمين، مسجلا أدلة مفصلة ضده. لقد استخدم محسن الأمين تعابير حادّة ضدّ مؤلف كتاب "سيماء الصلحاء" وأضاف أنّه لم يكن بصدد الردّ عليه، إلا أنّه غضب، و "من استغضب فلم يغضب فهو حمار"، وقد انتقد الحلي هذا الكلام بالقول: هذا الكلام إلى أيّ آية قرآنية أو سنّة يستند؟ إنّنا وجدنا في كتاب الله ما يليق أن يكون هو المستند، مثل :"وليعفوا وليصفحوا" (النور/٢٣)، و "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس" (آل عمران/١٣٤)، كما أنّ هناك روايات دالة على حسن العفو وجزالة الصفح، بعد ذلك يؤكد الحلي على أنّه لا يريد إهانة السيّد محسن الأمين ولا تضعيفه، مسجّلا نقدا دقيقا على ادّعاءاته في رسالة التنزيه.

وقد سعى الحلي معتمدا على الكتب المعروفة في المجال الفقهي، وهو ما يدل على حضور ذهنه ودقته وطول باعه في هذا المجال، لقراءة الأمر قراءة فقهية، كي يؤكد أنّ التطبير وخلافا لرأي السيّد محسن الأمين مشروع ومباح، بل حتى مستحب، وهذا أنموذج من أدلته ضد السيّد محسن الأمين، فقد كتب العلامة الأمين أنّ ثمة أمورا دخلت مراسم العزاء يحرّم المسلمون أكثرها بالإجماع، إلا أنّ الحلي يجيبه بأنّ أعمالا مثل اللطم على الصدور و .. مما عدّده الأمين وقعت موقع البحث والنظر لسنوات عدّة، وما تزال شرعيتها محل تساؤل، لهذا تعدّ في النتيجة من المسائل النظرية، فهل يمكن له (للأمين) أن يدلنا أي واحدة من هذه الأشياء أجمع المسلمون على تحريمها؟ وإذا كان الأمر كذلك كان على كل إنسان الرجوع إلى مرجعه الذي يقلده.

حول التطبير، استدل السيّد الأمين بأنّ هذا العمل حرام لما فيه من الضرر الذي يلحق بالإنسان، وحرمته تكون من العقل والنقل، أما الشيخ الحلي

فأجاب بالتفريق بين إلحاق الضرر بالنفس وتعريضها للمصاعب والمشاق، فليس في ضرب الرؤوس بالسيوف ضرر معتدّ به عند الناس، رغم أنّه من الممكن أن تكون فيه مشقة أو صعوبة، ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الكثير من العبادات والمستحبات فيها مشقة وتعب فلا يمكن الحكم بحرمتها لذلك، وإذ كان في التطبير في موضع ما ضرر فيمكن في ذلك المورد بخصوصه الحكم بالحرمة، لا التحريم بشكل مطلق. بل إنّ بعض العلماء عدّ بعض الأعمال العبادية المضرّة صحيحة، وعليه، فحتى مع فرض أنّ اللطم والتطبير مضران إلا أنّه لا يمكن لمجرد هذا الضرر الحكم بحرمتهما وعدم صحتهما.

وخلاصة القول: كل من يعتقد أنّ قيامه بعمل ما يلحق ضررا نفسيا- أي على نفسه - فيه يكون هذا العمل حراما عليه، فلا ينبغي أن يقدم عليه، إلا أنّه لا يُظن أنّ أحدا من هؤلاء المطبّرين يخشى ضررا من هذا النوع ثم يقدم عليه، وإذا كان هذا العمل بالنسبة إليه حراما فليس من الضروري أن يكون حراما على غيره.

وحول استخدام أدوات الموسيقى في مراسم العزاء، أجاب الحلي على نقد الأمين الذي كان قال فيه :" الطبل والزمر والدمّام والصنوج النحاسية وغير ذلك الثابت تحريمها في الشرع"، أجاب بأنّه على أي من هذه الآلات الثلاث يصحّ إطلاق عنوان آلات اللهو؟ فما ربط البوق بالمزمار؟ ما هو الهدف من إقحام كلمة الزمر هنا غير الإيقاع في الخطأ؟ إنّ الزمر في حالته المصدرية لا يعني سوى الغناء، لا النفخ، فأين النفخ في البوق من الغناء مع المزمار؟.

وهنا نجد الحلي ينتقد باحترام ودقّة السيّد الأمين بأنّه وقع في خطأ لما جعل البوق المستخدم في العزاء مع المزمار الوارد في الروايات واحدا، فالنفخ في البوق مختلف عن الغناء مع المزمار، الذي هو من نوع الناي. وهنا يضيف الشيخ الحلي إشكاله في مصداق آخر كان عدّده السيّد الأمين ، ألا وهو الصنوج، فهل للنحاسية تأثير على التحريم في الصنج بحيث لو كان حديدا لما كان حراما؟ إنّ هذا الإشكال وارد في الطبل أيضا، فلماذا لا يلتفت السيّد الأمين إلى الطبل المستفاد منه في الحملات والقوافل، والذي على جوازه اتفاق في الرأي؟ هل تعبير "الثابت تحريمها" ناظر لعنوان آلات اللهو أم للموارد الثلاثة التي عدّدها السيّد نفسه؟ فليس من المناسب للفقيه أن يدخل مسألة، فيأخذ بالنظر ومن دون تحقيق إلى جانب واحد منها، من هنا يرى الحلي نفسه مضطرا للحديث عن التمييز بين "طبل العزاء" و "طبل اللهو"، كي يؤكد أنّ حكم السيّد الأمين بحرمة الطبل السائد في العزاء الحسيني حكم غير مقبول. ولكي يُعلم أنّ طبل العزاء ليس واحدا منها، عمد الشيخ الحلي إلى استقصاء أسماء آلات اللهو الموسيقية، موضحا بشكل جيّد معلومات جيّدة عنها من ناحية اللفظ، والمقدار والحجم، والشكل، والجنس،

والصورة، والأداء، مع ذكر حكمها الشرعي، كالدفّ، والبربط، والطنبور، والمعازف، والمزهر، ثم يجر البحث إلى البوق كي يؤكد اختلافه عن المزمار، موضحا في نهاية المطاف أنّ الصنوج التي تستخدم في العزاء الحسيني لا إشكال شرعي فيها، وما ادّعاه السيّد الأمين في أمرها غير مقبول.

لقد كان الأمين ادّعى أنّ تشبّه الرجال بالنساء في العروض والمسرحيات العاشورائية أحد ألوان المحرّم في مراسم العزاء، إلا أنّ الحلي أجاب عنه بأنّ حرمة التشبه الواردة في الشرع لا تعني مطلق أنواع التشبه من الطرفين، وإنّما أن يترك الرجل زيّ الرجال ويسلك سلوك النساء وتصرفاتهنّ، أو تتعامل المرأة بطبع رجولي وتبتعد عن طريقة تعاطي النساء، أما أن يرتدي شخص لفترة محددة لباس الجنس الآخر فلا دليل على حرمته، وقد اعتقد الحلي أنّ ادّعاء حرمة ذلك شرعا خيانة للشرع نفسه، ثم يذكر أنّه وخلال الخمسين عاما الماضية التي راج فيها أسلوب التشبيه لم يرَ هو نفسه أي امرأة ترتدي لباس الرجال وأي رجل يرتدي لباس النساء.

النقد الآخر كان حول قضية صوت المرأة، حيث ذهب الأمين إلى أنّ أصوات النساء في حضور الرجال الأجانب محرّمة، لأنّ أصواتهنّ عورة، وهذا ما أثار تعجّب الحلي، حيث رأى أنّه لا يعلم ولا حتى المنجّم يدري في أيّ كتاب أ، سنّة كان صوت المرأة عورة حتّى نتصدى للحديث عن معنى هذا النص؟ والذي يبدو من الكاتب - أي الأمين - أنّه عثر على حديث أو على معقد إجماع أو قاعدة مستندة إلى الأخبار في هذا المجال، وإلا فما هو الوجه في تحريم صوت المرأة ؟!.

كان كتاب الحلي أنموذجا لنقد منهجي لفقيه مدافع عن أشكال العزاء وأنواعها، من بينها التطبير، كتب للرد على محسن الأمين، وهو كتاب مفيد في فهم هذا النوع من القضايا وتقييم المنهج الفقهي فيها أخذا أو ردّا لمقولة التطبير.

على خط آخر كتب ثم نشر السيّد علي تقي النقوي النصير آبادي كتابا أسماه "إقامة العاثر في إقامة الشعائر"، كما كتب الشيخ عبد الله سبيتي العاملي "رنة الأسى في تعظيم شعائر العزا"، وقد استند إلى فتاوى المجتهدين المعاصرين له لكي يجيب بأسلوب جاف وجارح على دعاوى السيّد محسن الأمين واحدة تلو الأخرى، مسجلا عدّة ملاحظات نقدية عليه، من بينها أنّ الأمين أهمل أمورا أكثر أهمية من مراسم العزا، كالجمعيات المسيحية التبشيرية والتوقف عن ممارسة وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما ساهم شخصان من آل المظفّر في الموضوع، هما الشيخ محمد حسين آل المظفر في كتاب "الشعائر الحسينية"، والشيخ عبد المهدي المظفر في كتاب

"إرشاد الأمة للتمسك بالأئمة"، كما كان لعبد المهدي كتاب آخر في هذا المجال حمل عنوان "السياسة الدينية لدفع الشبهات على المظاهرات الحسينية" كان نشره في النجف، كما كان هناك طالب عاملي (لبناني) آخر كان يدرس في العراق، وهو محمد علي شرف الدين، نشر كتابا أسماه "راية الحسين"، ناقدا فيه آراء السيّد محسن الأمين، لماذا حرّم الأمين الشعائر الحسينية ؟!.

على خط آخر في هذا الخضم، ألف محمد كنجي المناصر للسيّد محسن الأمين كتابا أسماه "كشف التمويه عن رسالة التنزيه" ونشره في مدينة النجف، رابطا بين قضية الأمين وقضية سابقة كان طرحها العالم الشيعي المصلح هبة الدين الشهرستاني، وتتعلق بنقل أجساد الموتى إلى النجف، وإلى جانب تركيزه على المكانة العلمية والسجل العملي للأمين، نقل كنجي فتاوى العلماء السابقين التي تصوّب حكم الأمين. كما صدر في دمشق عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م كتاب آخر يدافع عن السيّد محسن الأمين، كتبه الشيخ علي الجمّال تحت اسم: "دفع التمويه عن رسالة التنزيه في أعمال الشبيه"، لكن نظرا لعدم شهرة المؤلف ومحل النشر لم يتم تداول هذا الكتاب كثيرا.

ولم تقف هذه المساجلاتِ الكتابية عند تأليف الكتب والمصنفات، بل تعدتها إلى مجال النشريات، فكتبت مقالات بهذا الصدد، إلا أنّ أهم نشرية كانت فعّالة بهذا الخصوص، وكان رئيس تحريرها بنفسه من مناصري حركة الإصلاح، كانت مجلة العرفان، فقد كان أحمد عارف الزين، مدير هذه المجلة، في الخط نفسه الذي كان فيه الأمين معلنا مناصرته له جهادا، إلا أنّه مع ذلك فتح صفحات مجلته للطرفين معا، واستقبل مقالاتهما في هذا الخصوص، وهنا وصلت مقالة من جعفر نقدي - أحد المجتهدين - إلى المجلة، حملت عنوان "المنابر الحسينية"، وقد نُشرت المقالة التي لم تردّ بشكل مباشر على دعاوى السيّد الأمين، بل استبدلت ذلك بالرد على جهل بعض الوعّاظ وأهل المنبر، وهنا أرسل مهدي الحجّار، وهو من أنصار السيّد أبي الحسن الأصفهاني، الذي كان مقيما في البصرة، أرسل قصيدة في الدفاع عن الأمين، ونُشرت في مجلة العرفان، وفي الوقت عينه طبعت في مجلة العرفان -وقبل ذلك في إحدى المجلات المصرية - فتوى العالم الإيراني محمد تقي الأصفهاني، وفي هذه الفتوى ودون إشارة إلى السيّد محسن الأمين، انتقد الأصفهاني ألوان العزاء السائدة، وأعمالا مثل ضرب الذات وجلدها، واصفا إياها بالأعمال الوحشية، حاكما بحرمة أعمال مثل التشبيه وأمثاله.

وصول التصادم إلى الجماهير:

وتعدّى الأمر حدود الأبحاث العلمية والكتابية ليصل إلى الأسواق والشوارع، ولتبلغه عامة النّاس، وتدريجيا اشتدّ الأمر، وخرج عن أيدي الطلاب وفضلاء النجف ولبنان، ليصل حدّ التجريح والتهديد وإرسال الرسائل الخالية من التوقيعات و ... فسكان منطقة النبطية في لبنان انقسموا إلى فريقين: فريق مدافع عن السيّد محسن الأمين وآخر مخالف له، أجادوا في إقامة مراسم العزاء والأعمال التي حرّمها الأمين. وشيئا فشيئا بعد ذلك استبدل الشعر المعروف "لعن الله من ظلمك يا أبا عبد الله" ليحلّ مكانه بيت من الشعر للشيخ عبد الحسين صادق صاحب كتاب "سيماء الصلحاء في نقد كتاب التنزيه" وهو:

لعـــــن الله أناســــــا حرّمــــوا نـــدب الحســـين

ومن المؤسف حقا أنّ هذا البيت السابق كان ينشده لاطموا الصدور وضاربوا الرؤوس من شيعة لبنان، وهم يجولون في شوارع النبطية مما لقنهم إياه مهاجمو الحركة الإصلاحية. فما كان من أحد الشعراء الذين كانوا في صف الأمين، والمدافعين عن رسالته والواقفين مع رؤيته إلا أن أنشأ أبياتا في الرد على ذلك البيت، من الروي نفسه والبحر أيضا، فكان الرد الشعري:

أبعـــــد الله أناســــــا قـــولهم كـــذب وبـــين
ألصـــقوا بالـــدين ممـــا قـــد أتـــوه كـــل شـــين
أظهـــروا للـــدين حبـــا وهـــو حـــب الـــدرهمين
قـــط مـــا ســـالت عليـــه مـــنهم دمعـــة عـــين
قـــد أعـــادوا عصـــر عمـــرو يـــوم نصـــب الحكمـــين
ولكـــم ســـب علـــي المـــر تضـــى في الخـــافقين
أســـــد الله ببـــــدر وبأحـــــد وحـــــنين
بعلـــــي لبنيـــــه شـــبه في الحـــالتين
ولعثمـــان قمـــيص لم يـــزل في الـــزمنين
أنـــا لا أطلـــب فـــيهم أثـــرا مـــن بعـــد عـــين
كـــل عصـــر في الـــورى فيـــه يزيـــد والحســـين

ومن بين الشعراء الذين ناصروا السيّد الأمين في دعوته بشعرهم الشاعر الشيخ مهدي الحجار، وهو أحد علماء النجف، مخاطبا السيد الأمين من قصيدة:

يـــا حـــر رأيـــك لا تحفـــل بمنتقـــد
إنّ الحقيقـــة لا تخفـــى علـــى أحـــد

فهــل علــى الشــمس بــأس حــين لم ترهــا
عـــين أصـــيبت بـــداء الجهـــل لا الرمـــد
ومصـــلح فـــاه بالتنزيـــل لـــيس لـــه
غـــير الحقيقـــة أي والعـــدل مـــن صـــدد
تـــأسَّ يـــا محســـن فيمـــا لقيـــت بمـــا
لاقـــاه جـــدّك مـــن بغـــي ومـــن حســـد

لقد كان الشعر حربة جيدة لضرب الخصم، فحفظه عند الناس أسهل من الاستدلالات الصعبة أو الروايات، وفي النهاية، أنشد عبد الحسين صادق الخصم القديم لمحسن الأمين أبياتا تعليمية من الشعر وأشاعها في أوساط عامّة النّاس:

تــرى إقامــة العــزاء بدعــة ... جديــدة يــأبى الهــدى تجديــدها
أمــا درت أنّ الــنبي ســنّها ... لعمّــه مستحســنا فريــدها
ألا تــرى بــه صــحاح جمــة ... لا يجهــل ابــن ســنّه ورودهــا

وفي أشعار أخرى يقارن عبد الحسين الخطوات التي أقدم عليها الأمين بتلك التي أقدم عليها الوهابيون في مراقد البقيع، بل يراه أسوأ منهم:

فمـــا المعـــول النجـــدي أدهـــى مصـــيبة
مـــن القلـــم الجـــاري بمنـــع المـــآتم
كـــلا ذيـــن هـــدّام لمـــا شـــاد أحمـــد
ولكـــن يـــراع المنـــع أكبرهـــا دم

وحتى عندما زوّج عبد الحسين صادق ابنته، استفاد من هذه الفرصة وأنشد قصيدة قدّمها لصهره، معرّضا بنظر محسن الأمين، بالقول:

فارشـــف مـــن شـــفتيه اللمـــا
وأحظـــى مـــن تفاحـــة الـــوجنتين
تجـــدني إذن تاركـــا مـــذهبي
كمـــن ســـنّ تحـــريم نـــدب الحســـين

وقد قيل: إنّه بعد مرور قرابة القرن على هذه الأحداث ما تزال هذه الأشعار دائرة على ألسن بعض شيعة جبل عامل، وبسبب الشيخ عبد الحسين صادق، وتحريضه وأشعاره ضد السيّد محسن الأمين، وهو العاملي مثله، بلغ التناحر أشدّه في الساحة الشيعية في لبنان. وكانت السجالات كلها تدور بين المثبتين للشعائر والمتوقفين عنها. وقد امتدّ الخلاف إلى القطاع الشيعي، خصوصا في لبنان، وأصبح الشغل العام في تلك المرحلة التي بلغ بها حدّ التصادم مبلغا تعدّى الأقوال إلى المجابهات والاعتداءات. وقد أحدث هذا الأمر توارث القطيعة بين أبناء هذه الأسر في لبنان منذ تسعين عاما حتى يومنا هذا.

وهذا النوع من المواجهة كان رائجا في العراق أيضا، فقد أهان أحد المنبريين المشهورين وقرّاء العزاء المقتدرين النافذين، وهو صالح علي، من على المنبر السيّد محسن الأمين والسيّد أبا الحسن الأصفهاني، فأنشد يقول:

يـــــا راكبـــــا أمـــــا مــــــررت بجلـــــق
فابصـــــق بوجـــــه أمينهـــــا المتزنـــــدق

وشُبّه السيّد محسن الأمين بغاصب الخلافة الذي أمر بقتل الإمام علي (ع)، وبمخالف التشيع أحيانا أخرى، وبالقائل بحرمة العزاء على أهل البيت (ع) ثالثة، وربما لقب بسيّد الأمويين، كما أنّ السقائين كانوا يدورون في الشوارع وينادون : "لعن الله حرملة! بل لعن الله الأمين".

إنّه لمن غرائب الدهر أن يتهم شخص كذبا بتحريم العزاء وهو الذي وقف في مقابل أهل السنّة والوهابيين يدافع عن مشروعية العزاء في كتبه التي كتبها، وقدّم كتاب المجالس السنية لتصفية كتب العزاء والمقاتل من الأخبار الكاذبة، وأن يصبح عرضة للهجوم الشامل والواسع في المجتمعات الدينية في العراق ولبنان، فكتبه شاهد على حسن نيّته وصدقه وصحّة ما أقدم عليه. فلم يكن سوى بصدد تصفية المآتم الحسينية وتنقيتها من الأكاذيب والتحريفات والأعمال التي كان يراها مع كثير ممن قبله من البدع.

إنّ صعوبة عمل السيّد محسن الأمين كانت أنّه كان مضطرا في وقت واحد أن يحارب على جبهتين، ففي الوقت الذي كان فيه مخالفا للبدع الرائجة في العزاء، كان مدافعا عن العزاء أمّام النقاد من أهل السنّة، فقد كتب على سبيل المثال كتاب "كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب" في نقد آراء الوهابية ودفع شبهاتهم، والدفاع عن شرعية بعض المراسم الدينية التي صنّفها الوهابيون شركا. وكذلك صنّف كتاب "الحصون المنيعة في الرد على صاحب المنار" منتقدا محمد رشيد رضا الذي انتقد بدوره الشيعة، مع ذلك فقد اتهم بالزندقة وفساد العقيدة وانعدام

التدين، وكان يُلعن على الملأ العام وتُكال ألوان الفحش في حقّه، وقد ساهم الكثيرون بسكوتهم في إشاعة هذا الجو، والأكثر عجبا أنّ هذه التجربة مازالت تتكرر مرارا، ويتهم الأشخاص الأكثر تحرقا على الدين بأنّهم لا دين لهم. (نصوص معاصرة/١٥٠-١٥٧).

جعفر الخليلي:

الباحث والمؤرخ والأديب العراقي جعفر الخليلي ينقل لنا ما جرى في العراق من صراع مرير، وتصادمات وتسقيطات وإهانات بين العلماء بعضهم والبعض الآخر، والعوام والخطباء جراء دعوة السيّد محسن الأمين، بين أنصاره ورافضي دعوته، ينقل ذلك كله نقل مشاهدة ومعاينة لا نقلا عن الآخرين، كما نصنع الآن نحن في كتابنا هذا، وقد عاصر الأمين وجالسه واحتك بكل الذين هاجموه ولعنوه في العراق، وكان له موقفه الداعم والمناصر والمساند لحركة الأمين الإصلاحية، وبالذات في العزاء والمواكب الحسينية. ينقل لنا هذه المجريات كلها في كتابه المهم والثري "هكذا عرفتهم" .. يقول:

" وزاد من هياج الناس في وجه السيّد محسن الأمين تبني الخطيب الشهير السيّد صالح الحلي فتاوى العلماء، وشنّه الغارة الشعواء على السيّد محسن الأمين، وكان السيّد صالح من مشاهير الخطباء الذين قلما تجود الطبيعة بأمثالهم من حيث اللباقة، والخبرة، والجرأة. فصرخ بالنّاس وهاجهم ضدّ السيّد محسن الأمين، وانقسم الناس إلى طائفتين على ما اصطلح عليه العوام (علويين) و (أمويين) وعني بالأمويين أتباع السيّد محسن الأمين، وكانوا أقلية لا يعتد بها، وأكثرهم كانوا متسترين خوفا من الأذى ... واتخذ البعض هذه الدعوة وسيلة لمجرد مهاجمة أعدائه واتهامه إياهم (بالأموية) ... فكثر الاعتداء على الأشخاص، وأهين عدد كبير من الناس، وضرب البعض منهم ضربا مبرحا، وبلغت الجرأة بالسيّد صالح الحلي أن يتطاول على السيّد أبي الحسن، ويتناول السيّد محسن بالسبّ والشتم، وتجاوزت به الجرأة كل حد، حتى قال في السيّد محسن قولته المنكرة:

يـــا راكبـــا أمـــا مـــررت بجلـــق

فابصـــق بوجـــه (أمينهـــا) المتزنـــدق

وقد قيل إنّ البيت المذكور كان لأحد (العامليين)، وقد نُسب إلى السيّد صالح الحلي لأنه كان ألصق به من غيره لما هو معروف به من جرأة وعدم مبالاة.

ومثل هذه الجرأة وإن كانت قد أثارت نفوس الغيارى، وهاجت قرائح الشعراء المدركين والعارفين حقيقة الإصلاح فإنّها لم تفعل ولا بقدر الذرة في نفس السيّد محسن الكبيرة، خصوصا وكان قد استعرض مواقف النبي محمد (ص) وآل البيت في دعوته الإصلاحية فيما ألف من كتب مدرسية، ساق فيها الشواهد والأمثلة لما ينبغي أن يكون عليه الداعي إلى الإصلاح من استعداد لتقبل جميع صنوف الأذى وضروب العذاب.

وبدافع إعجابي بالسيّد محسن، وانطباعاتي عنه منذ الصغر، وإيماني بصحة دعوته، أصبحت (أمويا)، وأمويا قحّا في عرف الذين قسّموا الناس إلى أمويين وعلويين، وكنت شابّا فائر الدم، كثير الحرارة، فصببت حرارتي كلها في مقالات هاجمت فيها العلماء الذين خالفوا فتوى السيّد أبي الحسن والذين هاجموا السيّد محسن، ولما كنت يومذاك موظفا فقد نشرت مقالاتي في الجرائد بتواقيع مستعارة، وتبعني في عملي هذا عدد من (الأمويين) على حد ذلك الاصطلاح، ثم ما لبثنا أن تعارفنا نحن (الأمويين) وكان الشيخ محسن شرارة في الطليعة من أولئك المتحمسين لمبدأ السيّد محسن الأمين الإصلاحي، ولست أذكر شيئا كثيرا مما مر، إلا أنّني كنت قد أحسنت الدفاع عن السيّد محسن بقلمي، ولساني، حتى لقد هددت بالقتل والاعتداء حين انكشف أمري للبعض.

وكنت أجد في كثير من الأحيان رسالة أو أكثر، وقد ألقى بها من تحت باب الدار وهي تتضمن إلى جانب التهديد بالقتل شتائم بذيئة تدل على خسة، وجبن، فكنت أسعى لالتقاطها قبل أن يعرف أحد عنها شيئا، ذلك لأنّ لي أمّا كانت ملتهبة العاطفة، وكنت أخشى أن يصل إليها خبر التهديد فتجن وتنغص عليّ حياتي، وكان لي من حسن الحظ من يدفع عني الشر، ومن الحق أن أشير هنا بالثناء إلى الشيخ عبد الكريم الجزائري، فقد كان ممن ذبّ يومذاك هو والزاهد الناسك الشيخ علي القمّي، والفقيه الشيخ جعفر البديري، لقد ذبّوا عن السيّد محسن بحرارة ودافعوا عن رأيه دفاعا جريئا، وكان ذلك سببا لاتصالي الوثيق بالشيخ عبد الكريم الجزائري، ولكنّ التيار كان جارفا، والقوّة كلها كانت في جانب (العلويين)، وكان هؤلاء (العلويون) وأتباعهم يتفننون في التشهير بالذين سموهم (بالأمويين)، وبلغ من الاستهتار أن راح حملة القرب وسقاة الماء في مآتم الحسين بيوم عاشوراء ينادون مرددين: (لعن الله الأمين -ماء) بينما كان نداؤهم من قبل يتلخص في ترديدهم القول: (لعن الله حرملة- الماء)، فأبدلوا الأمين بحرملة نكاية، وشتما، وبعد عدّة سنوات، وحين أثرت هذا الموضوع، موضوع تحريم الضرب بالسيوف في جريدة الهاتف، هاجت النجف، وماجت، وكادت تحدث هناك فتنة، وهنا تحول النداء على الماء في المآتم الحسينية إلى المناداة باللعن على أفواه سقاة الماء صارخين: (لعن الله الخليلي - ماء).

ولا تسل عن عدد الذين شُتموا، وضُربوا، وأُهينوا بسبب تلك الضجّة التي أحدثتها فتوى السيّد محسن ألأمين يومذاك، وكان السبب الأكبر في كل ذلك هو (العامليون)، أعني أهل جبل عامل، الذين كانوا يسكنون النجف طلبا للعلم، وكان معظمهم من مخالفي السيّد محسن.

أما النجف وسائر المدن الأخرى فقد قابلت دعوة السيّد محسن، وفتوى السيّد أبي الحسن، برد فعل قوي، شديد، ظهر أثره في أوّل شهر محرم من تلك السنة، فقد ازداد عدد الضاربين بالسيوف والسلاسل، وازداد استعمال الطبول والمزامير والصنوج والأبواق ..! وكثرت الأهازيج والأناشيد التي تتضمن النقمة والتحدي لتلك الحركة ألإصلاحية، فخاف الأمويون واختفى الكثير منهم طوال العشرة الأولى من (المحرم) وبعدها بأيام، وانسحب البعض من الميدان كرها واختيارا ..."

ثم يؤكد الخليلي بأنّ السيّد محسن الأمين محيط بكل ما يجري في العراق من صراع، وتوهين، وانقسامات بسببه، ولديه دراية تامة بكل النشرات والكتب والأشعار التي أنشئت في حقه وتسقيطه وشتمه، ويعرف عن كل الأسماء التي هي معه في دعوته وتؤازره ومن كانت في صف المحاربين له، والذين يسمون أنفسهم بالعلويين!!.

"وبلغ السيّد محسن خبر هذه الضجّة، كما بلغه خبر الذين ذبوا عن رأيه، ودافعوا عن حركته، وظهر لي من شكره لي وثنائه عليّ يوم التقيته لأول مرّة: أنّه كان قد عرف كل شيء عن الحركة في العراق وفي النجف وهو في دمشق، فلقد كنت قد أصدرت (جريدة الفجر الصادق) وكنت يومذاك في ريعان الشباب وشدّته، وعصبيتهِ كما قلت، وكنت جريئا بقدر ما كانت تقتضيه طبيعة الشباب المؤمن بحقه إن لم أكن أكثر، فكانت لي مع السيّد صالح الحلي مواقف مشهورة ملأت بها (جريدة الفجر الصادق) واستطعت أن أنتقم للإصلاح الديني منه انتقاما ضجّ منه السيّد صالح الحلي وهاج، وضجّ معه أنصاره، وهاجوا، فهدّدوا، وأوعدوا، ولكني لم أبال بالتهديد، والوعيد، ولم يخفني الإبراق، والإرعاد" (ج١، ٢٠٨)

أرأيت أيها القارئ إلى هذه اللغة، وعشت بحسك وأنت تقرأ هذا الجو الخانق، والفاسد الذي عاشه المتدينون، الذين يخرجون بالآلاف يلطمون على صدورهم في عاشوراء في سبيل الحسين (ع)، وإذا بهم يكيد بعضهم لبعض، ويهين بعضهم بعضا، هذا ينهش في لحم ذاك، وهذه الفئة تكيد لتلك، وتلك تهدد هذه، وهكذا يعيشون ويستخدمون كل الأسلحة الفتاكة التي تقتل الأخوة والمحبة والعلاقات الإنسانية، والمودة التي جاء من أجلها الإسلام والدين، إذ يقول الله تعالى في محكم كتابه : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم

فأصبحتم بنعمته إخوانا" آل عمران/١٠٣، وكأنّهم يعملون على خلاف ما يأمر القرآن، مع أنّ فيهم علماء دين، بل جلهم معممون، وفقهاء، وخريجو النجف الأشرف والمعاهد والحوزات الدينية، وليسوا من العوام والجهّال، أو ممن لا عهد لهم بالتدين والصلاح، الحسين (ع) يخرج لطلب الإصلاح وهم يفسدون في المجتمع بصراعهم، ويمزقون كل الروابط وحبال الود والترابط.

ضجة وعصبية وجرأة وانتقام وخوف وإرعاد وإبراق وتهديد وهيجان .. هذا باختصار جو النجف وعلماء النجف ومتديني الشيعة فيها وفي لبنان للأسف الشديد، كل ذلك بسبب رأي من فقيه ذهب إلى أنّ ضرب القامة بدعة وحرام ... عنف ما بعده عنف، وغلظة ما بعدها غلظة، ووحشية لم تكن متوقعة أو مؤمّلة من مذهب أبرز سماته الهدوء والتسامح والخلق القويم مع المخالفين، فكيف الحال مع أبناء المذهب والموافقين ؟! استنفذوا الطاقات والجهود والكوادر في سبيل توافه الأمور، وسفاسف الغايات، العزاء مستحب أما الوحدة والترابط وألفة المؤمنين فهي أوجب الواجبات، قلناها مرارا ونقولها تكرارا عشرات المرات، ليت المؤمنين يدركون بأنّه ليكن لديهم الاستعداد والتهيؤ للتخلي عن العزاء وكل مستحب إذا توقف على هذا المستحب ما هو واجب وضرورة ومن صلب الدين والعقيدة . أيجوز في شرع الإسلام أن يتنازع المؤمنون ويتقاتلوا ويهتك كل منهم عرض الآخر وتصبح البلاد في ضجيج ولا يأمن الواحد على نفسه، والسبب أمر مستحب وهو العزاء، وما يصاحبه من شعائر مختلفة تتغير مع الزمن، وتتحرك حسب المعطيات، وآراء العلماء، والعرف العام ؟!!. هكذا يصنع العنف والعصبية والجهل العام، والمتلبسون بلباس الصلاح والتدين، لا يهمهم لو تمزق المجتمع، وتفكك الكيان الاجتماعي، المهم الحفاظ على المكانة والوجاهة والتحدث باسم الدين والشرع.

موقف السيّد الأمين من الضجّة:

وقد تحدّث العلامة الأمين عن ردّ الفعل ضدّ هذا الإجراء الفتوائي والإصلاحي من قِبَل التقليديّين، فقال: "وقد عملت في ذلك رسالة التنزيه، وقام لها بعض الناس وقعدوا، وأبرقوا، وأرعدوا، وجاشوا، وأزبدوا، وهيّجوا طغام العوام والقشريّين ممن ينسب إلى الدّين، فذهب زبدهم جفاءً، ومكث ما ينفع الناس في الأرض ... لقد أشاعوا في العوام أن فلانا حرّم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروجِ من الدين، واستغلوا بذلك بعض الجامدين من المعمّمين، فقيل لهم إنّ فلانا هو الذي شيّد المجالس في دمشق، فقالوا: قد كان هذا عن أوّل أمره، لكنه بعد ذلك خرج من دين الإسلام".

في صميم معركة الإصلاح:

تجاوبت بثورة التنزيه أنحاء العالم الإسلامي، وعمّت دعوتها المسلمين في كل مكان، وترجمت إلى أكثر من لغة، ووجد فيها المخلصون فرصة ثمينة للتخلص من الشوائب والأباطيل، فأرادوها نقطة انطلاق نحو نهضة إصلاحية شاملة، كما وجد فيها الآخرون خطرا يهدد بعضهم بما هم فيه من جمود ورجعية، وبعضهم بما لهم من مصالح ومآرب، وأصبحت البلاد الإسلامية تغلي غليانا بها، فكثرت الردود عليها وانهالت الهجمات على صاحبها، وصاحبها صامد كالطود مؤمن بانتصاره في النهاية. ونذكر أنّ فريقا من محبيه المخلصين هالهم أن يتعرض شخصه لمثل ما تعرض له، فكتبوا إليه يرجونه بسحب الرسالة من المكتبات، وإخفائها عن العيون إلى أن تهدأ الضجّة وتخمد العاصفة، فكان جوابه أن ضاعف الكميات المطروحة وزوّد المكتبات بأكثر ما يستطيع تزويدها من النسخ، وقال لمن حوله: إذا كان لابدّ من التضحية فإنّي لمغتبط أن يكون شخصي هو الضحية.

وإنّنا للتاريخ لنورد هنا مثالا مما كان يدلي به خصوم الدعوة وأنصارها على السواء من حجج وبيانات، مستشهدين بأقوال من حاولوا أن يناقشوا الموضوع ويردوا على الرسالة دون أن يوغلوا في الشتائم والسباب، ودون أن يعتمدوا على البذاءة وحدها ... فكان ممن أيّد الدعوة بحماسة في الهند الكاتب الهندي محمد علي سالمين صاحب جريدة "ديوان ميسج" التي تصدر في بومباي باللغة الإنكليزية، فكتب مقالا نُشر باللغة العربية قال فيه:

" ... وكتب العلامة المجتهد الأكبر آية الله السيّد محسن الأمين أيّده الله كتابا ردّ به على من يضربون الصدور. والكتاب بصورة رسالة جمع فيها من الشارد والوارد إلى ما شاء الله على أنّ هذا العلم لم يأتنا من إمام أو وصي، بل هو بدعاية الجهلة بدعة ابتدعوها، وكما قال النبي الكريم : "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار" فبأي حديث بعده يؤمنون؟ ظنّوا حب آل محمد بهذه الأعمال، فهذا لعمري ليس حبا، لأنّ من أحبّ شيئا أعزّه واحترمه. وهل اللطم والضرب والتشبيهات في الشوارع أمام المجوس والوثنيين يدل على حبكم يا محبي آل محمد اليوم؟".

ولم ينم أعداء الدعوة فتناوله منهم السيّد نور الدين شرف الدين، فردّ عليه بمقال قال فيه:

" لم يكن في الحسبان أنّ الشعائر الحسينية التي اتخذتها الشيعة سنّة من عهد آل بويه إلى يومنا هذا تُجعل مسألة نظرية تتضارب فيها الأفكار وتختلف الأنظار، إذ لاشك في فوائدها التي تعود بالنفع العميم على هذه الطائفة، وليت من ناقش في ذلك أدلى بحجّة واضحة، وبرهان قاطع لنتبعه، فإنّ الحق أحق أن يتبع".

وبعد أن يمضي الكاتب على هذا المنوال يعدد أسماء بعض المخاصمين لدعوة الإصلاح، ويعدد أسماء كتبهم التي تخالف الدعوة وهم: عمّه السيّد عبد الحسين شرف الدين، وصهر عمّه الشيخ عبد الله سبيتي، وابن عمّه السيّد محمد علي شرف الدين، وقريب عمّه الشيخ مرتضى آل ياسين، ثم الشيخ عبد الحسين الحلي، والشيخ محمد حسين المظفر، يذكر هؤلاء ليدعم قوله بهم، ثم يستشهد ببعض الأقوال إلى أن يصل إلى الرد الصريح على خصمه فيقول: " ومما عجبت له جدا - بل أسفت - أن محمد علي سالمين اقتفى أثر المهووسين، فغدا يضرب على ذلك الوتر الذي تغلق المسامع دون ألحانه ونغماته". ثم يقول:

" والأستاذ أنكر على الشيعة تمام الإنكار ما يقومون به من لطم الصدور والتمثيل والنياحة على الحسين، وزعم أنّ ذلك محرم بل بدعة وضلالة، إنّها حملات شديدة ولهجة غريبة ظهرت بمظهر الإصلاح". ثم يقول مريدا أن يبرهن أن لا ضرر جسديا من الضرب : "نحن نلتمس من الأستاذ سالمين أن يلطم صدره لزمن ساعة أو ساعتين، فإن حصل له شيء من ذلك (أي الأذى) فأنا ضمين له كل ما يقترح" !!. ثم يختم كلامه بقوله : "لم أقصد بكلمتي هذه إلا الذود عن الحقيقة ...".

كما أنّ أنصار الدعوة كانوا يقظين، فتناول نور الدين منهم كاتبان، وقّع أحدهما مقاله بتوقيع حبيب بن مظاهر، ووقعه الثاني بتوقيه أبو فراس. وقد جاء في مقال الأول:

" نكتب هذه الكلمة الموجزة ليعلم أنّ الطائفة الإسلامية الشيعية قد ابتليت كغيرها من الطوائف بفئة خاصّة من الخلق، دأبها قلب الحقائق والمكابرة لدى الدليل حينما يؤوب إليها رشدها أنّ تلك الأعمال قد اتخذها أمراء الشيعة سنّة من عهد القرن الرابع إلى يومنا هذا، فإذا قيل لها إنّ عمل الأمراء وأتباعهم من الرعاع لا يصلح أن يكون حجّة شرعية، قامت وأعادت تمثيل تلك الرواية وزادت عليها قول : "وا سنّة نبياه" وإذا اعترضت عليها بأنّ الشيء لا يكون سنّة نبوية إلا إذا صحّت روايته عن النبي (ص)، كما أنّ عمل غير واجب العصمة لمصلحة اقتضته لا تبرر العمل المضر، جابهتك بالسباب والتفسيق والتكفير، فيخيل إليك أنّها من بقايا رؤساء الكنيسة في القرون الوسطى، ولا تحسبن أنّ هذه الفئة اكتفت بالقول السيء، بل اجتهدت في إضرام نار الفتنة حتى بين الأخ وأخيه، والولد وأبيه، فكانت العائلة وهي في مسكن واحد منقسمة إلى قسمين، قسم يحبذ تلك الأعمال البربرية وقسم ينكرها. ثم بعد هذا كله إذا جاءها أحد المصلحين الغيورين وأثبت لها بالحجّة الراهنة الدامغة حرمة الكذب في المأتم الحسيني، وحرمة إضرار النفس بضرب الزنجير (السلسلة) وشج الرأس واللطم الدامي وإدخال الأقفال في الأبدان وتشبه الرجال بالنساء، إلى غير ذلك من الأعمال

الهمجية قامت عليه وأعادت تمثيل رواية القذف والسب". إلى أن يقول : "هذا مجمل ما أحدثته هذه الفئة،وقد طبعت في ذلك وريقات كلها سباب وشتائم شأن صبيان الأزقة".

وجاء في مقال الثاني:

"كنا نحسب أنّ كلمة الداعية الإسلامي المفضال الأستاذ محمد علي سالمين ستكون الأخيرة من نوعها في موضوع المأتم الحسيني، وأنّها سيكون منها مقنع لجماعة التهويش فيفهمون أنّ الأمّة قد اقتفت أثر مصلحيها، وأنّ هذا الذي يستندون إليه من الضوضاء والضجيج لا يحسدون عليه. ولكن كلمات جاءت بتوقيع نور الدين شرف الدين جعلتنا نعلم أنّهم لا يزالون يحسبون أنّ التهويل يوصلهم إلى ما يأملون!

إنّني لا أريد هنا أن آتي بأدلة جديدة أقدّمها بين يدي القارئ الكريم، ولكن الذي أريده هو أن أفهم صاحب تلك الكلمات ومن لفّ لفه ونفخ في بوقه ومن حرّضه ودفعه، أنّنا بعد اليوم لن نعير كل ما يصدر من هذا القبيل أقل اهتمام،وأنّنا نضنّ بأوقاتنا وأوقات القراء أن تُشغل بهذه الأمور التي أصبح مفروغا منها، فلينضحوا كل ما في نفوسهم ويسوّدوا ما يشاؤون من الصحف، وسيرون أنّ هذه البدور الإصلاحية التي تعهّدها أفاضل الأمّة وساداتها بالرعاية ستنمو وتأتي أكلها في وقت قريب. ولن يضير هؤلاء الكرام أن يقول عنهم نور الدين إنّهم مهووسون".

وهاجم الدعوةَ وصاحبَها الشيخ عبد المهدي المظفر في البصرة، فأصدر رسالة سمّاها "إرشاد الأمّة للتمسك بالأئمة"، قال فيها:

"... وهذا السيّد - يعني مؤلف رسالة التنزيه- قد كنّا نسمع عنه أنّه من أهل المآثر الحسان، وذوي المكانة السامية في العلم، ولكن لما اطلعنا على هذه الرسالة وقعنا في حيرة الشك، لما اشتملت عليه من التهجمات على الشيعة والتهويلات الفارغة على مظاهر الشريعة، والاستدلال على مقصوده بما لا يليق أن ينسب إلى مثله، وليته اكتفى بذلك، وكف عن قدس صاحب الشريعة وأهل بيته المعصومين (ع)، ولم ينسب إليهم عدم العصمة عن فعل المحرمات جهلا بمواقعها، أو سلب الاختيار منهم عند وقوعها، وهذا مما يخالف إجماع الإماميين، لأنّهم عندنا معصومون عن المعاصي عمدا وخطأ، إذ لو وقعت منهم جهلا بها أو لغلبة الطباع البشرية عليهم لم تكن أفعالهم حجة، بل ولا أقوالهم، ولم يثبت بهم اللطف الكامل علينا، فإنّ من لا يملك نفسه عن فعل المعاصي لا يكون مقربا في كثير من الأحوال إلى الطاعات، بل مبعدا عنها، وإنّي لا أريد الرد عليه في مقاصده، وإثبات رجحان تلك المظاهر الشريفة، أو وجوبها الكفائي لكفاية ما كتبه للرد عليه جماعة من أخواننا الأفاضل، ولكن أتعرض لبعض ما كتبه استغرابا له، وإن كان كل

ما فيها غريبا. فمن غرائبها: نفي العصمة عن حجج الله وهداة دينه كما سلف، ومنها نفي العصمة عن شبل أمير المؤمنين العبّاس (ع) مريدا به إثبات المعصية له في حال الوفود على ربه، فالسيّد يثبت له المعصية، والإلقاء بالنفس إلى التهلكة بلا وجه شرعي، والإمام (ع) يصفه بصلابة الإيمان، والسيّد ينقم عليه رمي الماء من يده، والإمام يمدحه بالمواساة، ومنها استدلاله على حرمة تلك الشعائر المحترمة بقوله تعالى :" ما جعل عليكم في الدين من حرج" فإنّي لا أعرف كيف يكون الحكم لغير الإلزامي حرجا وتكون الحرمة ليست بحرج، ومنها استدلاله على الحرمة بقوله :"لا يطاع الله من حيث يعصى"، فإنّه جعل محل النزاع مفروغا عن حرمته حتى صيّره من مصاديق الحديث .. فيا عجبا، أهذه المظاهر التي مضت عليها القرون الكثيرة وهي شعار للشيعة، حتى أنّ بعضها مضى عليه ألف سنة، تكون بنظر السيّد محرمات مفروغا من حرمتها، والشيعة بأجمعهم في جميع الأزمنة بين مرتكب للمحرم وبين تارك للنهي عن المنكر، راض به، فيحق لنا أن نستسعد بدعائه ودعاء جماعة المصلحين بالغفران لأخواننا المؤمنين، ونستشفع بهم إلى الله في خلاص رقابهم من النار. ومنها جعله التذكار الحسيني بأطواره وشؤونه مجلبة للنقص والعار، ومحلا للاستهزاء عند الأغيار، بربك أيّها المنصف البصير هل تصلح أمثال هذه التلفيقات دليلا على حكم شرعي، ومنها إنكاره مجيء زين العابدين من الحبس لدفن أبيه (ع)، فإنّه ما أنكر إلا أمرا مسلما. وقد بلغني أنّ جماعة انتصروا للسيّد محسن وأيّدوه في إنكار دفن زين العابدين لأبيه بدعوى أنّه مخالف لمقدورات البشر، ولعمر الحق هذا هو الأمر الموجب للخروج عن الإسلام. (انتهى).

وتتابعت الرسائل في الهجوم على رسالة التنزيه، وقد عدّد بعض أسماء أصحابها نور الدين فيما تقدم من كلامه وكل الرسائل لا تخرج عن هذا المنطق ومنطق نور الدين المتقدم، وإن كان بعض الرسائل تعمد البذاءة والإيغال في الشتائم وسيئ القول، ومثل ذلك القصائد والمقاطع الشعرية، وقد اكتفى أنصار الدعوة بإخراج رسالة واحدة للرد على الجميع، هي رسالة "كشف التمويه عن رسالة التنزيه" لمؤلفها الشيخ محمد الكنجي، ولكنّهم اتخذوا من الصحافة الحرّة ميدانا رحيبا لأقلامهم المتوثبة، وكان ممن أبدع في ذلك الشيخ محسن شرارة والأستاذ سلمان الصفواني وغيرهما.

ومن أشرس من قاوم الدعوة في لبنان كان السيّد عبد الحسين شرف الدين، الذي كتب رسالة عنيفة أسفّ بها إلى سيئ القول، ونحلها صهره الشيخ عبد الله سبيتي، كما أوعز إلى ولده السيّد محمد علي بأن يصدر رسالة، وإلى ابن شقيقه السيّد نور الدين بأن يوالي حملاته. وقد استغلّ موت إحدى قريباته من آل الصدر في العراق، فأقام لها أربعينا في صور، حشد له من استطاع من الناس، وألقى هو بصوته الجهوري خطابا هاجم فيه الدعوة

وصاحبها. كما ألقيت قصيدة هجومية لصاحب الكتيب المار ذكره.(ثورة التنزيه، محسن الأمين، ط١/١٩٩٦م،دار الجديد، بيروت،ص٤٧).

نبذة حول أثر رسالة التنزيه وموقف العلماء منها:

وما هذه الرّسالة "التنزيه" إلاّ واحدة من تلك الصيحات المخلصة التي تعالت مطالبةً بتنزيه الشعائر الحسينيّة ممّا لحقها من شوائب أخرجتها عن مسيرها الصحيح، أطلقها أحد علماء أتباع أهل البيت (عليهم السلام) قبل سبع وسبعين سنة تقريبا، هو السيّد محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١هـ).

السيّد محسن الأمين

فنقول: "هو السيّد محسن بن السيّد عبد الكريم بن السيّد علي بن السيّد محمّد الأمين بن أبي الحسن موسى بن حيدر بن أحمد الحسيني العاملي المعروف بالأمين. ولد في قرية شقرة من جبل عامل سنة ١٢٨٣هـ ونشأ فيها وأكمل مقدّماته العلميّة بها، ثمّ هاجر إلى العراق قاصداً الإقامة في النّجف الأشرف بلد العلم والهجرة للمجتهدين، وأقام فيها سنين يطلب العلم والمعارف الإسلاميّة والكمالات الأخلاقيّة، وجدَّ في دراسته حتّى حضر دروس الأعلام، وكان قويّ الحافظة فطناً ألمعيّاً لبيباً شاعراً ينظم الشعر المتين، وربّما أسمعنا بعض نظمه في المديح والرثاء والغزل. ولما بلغ رتبة الاجتهاد والفضل الواسع غادر النجف داعيا إلى الحقّ مبشرا بالإيمان والصدق، وبثّ مكارم الأخلاق والفضائل الإسلاميّة، وأقام في دمشق والشام بطلب من وجوه المسلمين، وجعلها وطنه الدائمي. وهناك ظهرت علومه الجمّة وأخلاقه الساميّة، وطار صيته في الآفاق الإسلاميّة عامّة والأقطار العربيّة خاصّة. كما ألفَ وصنّف الكثير، وكانت الأسئلة والانتقادات من المخالفين تردّ عليه بمختلف ألوانها وصورها فيجيب عنها.من مؤلفاته: "أعيان الشيعة في تراجم طبقات أعلام الشيعة"، و"معادن الجواهر" و"المجالس السنيّة" و"الدرّ المنتقاة" و"الدرّ الثمين" و"لواعج الأشجان" و"كشف الارتياب في أتباع محمّد بن عبد الوهّاب" و"مفتاح الجنّات" و"الرحيق المختوم" و"الدروس الدينيّة" و"الدرّ النضيد في رثاء الشهيد" و"حاشية على كتاب القوانين". توفي(رحمه الله) ليلة الأحد الرابع من شهر رجب سنة ١٣٧١هـ الموافق لليوم الثلاثين في شهر آذار سنة ١٩٥٢م.

أثر الرّسالة في المجتمع:

في عام ١٣٤٤هـ صرّح السيّد محسن الأمين من مقرّ إقامته في العاصمة السوريّة دمشق بمعارضته لبعض الشعائر الحسينيّة التي يُقيمها بعض محبّي أهل البيت (عليهم السلام)، وكان لضرب الرؤوس بالسيوف القسط الأوفر من هذه المعارضة. ولم يكتفِ الأمين بالتصريح فقط، بل دوّن آراءه في رسالة ألفها سمّاها "التنزيه في أعمال الشبيه"، إذ أثبت فيها لزوم تنزيه مجالس العزاء ومحافلها عن الأعمال غير المشروعة، ووجوب التحرّز عن إدخال بعض المحرّمات في التعزية وفساد هذا الأمر الخطير. وقد طبعت هذه الرّسالة أوّلاً بمطبعة العرفان سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ثم توالت طبعاتها، وتُرجمت إلى عدّة لغات. وما أن انتشرت هذه الرسالة حتّى أحدثت ثورة عارمة، ليس في الشّام فحسب، بل في العالم الإسلامي عموماً، وعمّت دعوتها المسلمين في كلّ مكان، ووجد فيها الموافقون لآراء السيّد الأمين فرصتهم للتعبير عن رأيهم ورفع أصواتهم عالياً، وكأنّهم كانوا ينتظرون من يقوم بهذا الدور على مستوىً عال، فجاءت هذه الرسالة لتكون لهم درعاً واقياً، لا سيّما أنّ صاحبها علم من الأعلام لا يشكّ أحد في ولائه وإخلاصه وتفانيه من أجل الدين الحنيف. ووجد فيها المخالفون لآرائه خطراً يُهدّد مستقبل هذه الشعائر، فعارضوها عن طيب نفس وخُلوص نيّة، وهم يعتقدون أنّ واجبهم الدينيّ يُحتّم عليهم ذلك. واستغلها البعض الآخر ذريعة لتمرير ألاعيبهم على النّاس، واستثمار مصالحهم وحساباتهم الشخصيّة، فكيف كانت بداية تلك المعركة الثقافيّة ؟

بداية المطاف:

نستطيع أن نُقسّم الفترة الزمنيّة التي سبقت وصاحبت الأحداث التي أثارتها هذه الرسالة إلى أربع مراحل، هي:

المرحلة الأولى:

وهي التي بدأ فيها السيّد مهدي البصري (ت ١٣٥٨هـ) بكتابة عدّة مقالات في الصحف العراقيّة، ينتقد فيها بعض الشعائر الحسينيّة، وذلك بعد عودته من الكويت واستقراره في مدينة البصرة سنة ١٣٤٣هـ، وكانت لصحيفة "الأوقات" التي تصدر في البصرة آنذاك مساهمة كبيرة في نشر تلك المقالات. ولم يكتفِ السيّد مهدي ببيان آرائه في الصُحف، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فألف رسالة مستقلة دوّن فيها جميع انتقاداته وإشكالاته على بعض الشعائر الحسينيّة، سمّاها "صولة الحقّ على جولة الباطل" التي طبعت في

العراق سنة ١٣٤٣هـ وقد وجّه السيّد مهدي في مقالاته ورسالته انتقاده لبعض الشعائر الحسينيّة كضرب الرؤوس بالسيوف، وضرب الظهور بالسلاسل، وتمثيل واقعة الطفّ يوم العاشر من المحرّم، وخروج المواكب في الأزقّة والشوارع. وإنّي لم أعثر على تلك المقالات ولا على رسالة "الصولة" لكي أقف على ما فيها من انتقادات بشكل واضح، نعم وقفتُ على فقرات منها في رسالة "نصرة المظلوم" للشيخ إبراهيم المظفر، التي يردّ فيها على السيّد مهدي البصري، والتي طبعت في شهر ربيع الأوّل سنة ١٣٤٥هـ/سبتمبر ١٩٢٦م. ولم تكن رسالة "نصرة المظلوم" الوحيدة التي ردّت على السيّد مهدي، بل كافة الرسائل التي ألفت في الرّد على السيّد محسن الأمين، وجّهت انتقادها أيضاً للسيّد مهدي ولرسالة "الصولة".

ونذكر هنا نبذة مختصرة عن حياة..

السيّد مهدي البصري:

فنقول: هو السيّد مهدي بن السيّد صالح الموسوي القزويني الكاظمي البصري، ولد بالكاظميّة سنة ١٢٧٢هـ، ودرس فيها العلوم الإسلاميّة، ثمّ هاجر إلى سامراء سنة ١٣٠٠هـ، وحضر دروس الميرزا إبراهيم بن المولى محمّد علي المحلاتي الشيرازي، والشيخ إسماعيل الترشيزي، ثمّ حضر بحث الخارج عند السيّد الشيرازي. وفي سنة ١٣١٤هـ سافر إلى إيران لزيارة مشهد الإمام الرضا (عليه السلام)، ومنها ذهب إلى الكويت وأصبح مرجعاً للأمور الشرعيّة فيها إلى سنة ١٣٤٣هـ، فتركها وعاد إلى العراق واستقرّ في مدينة البصرة يمارس واجباته الدينيّة في الوعظ والإرشاد وإقامة الصّلاة جماعة والتأليف. وكان (رحمه الله) مكثراً في التأليف، إذ خلف مجموعة من الكتب والرسائل منها: "برهان الدين الوثيق في نقض عمدة التحقيق" و"بوار الغالين" في الردّ على الشيخيّة، و"خصائص الشيعة التي جاءت بها الشريعة" و"صولة الحقّ على جولة الباطل" و"ضربات المحدّثين" و"مخازي الشيخيّة ومفاخر الشيعة" و"هدى المنصفين إلى الحقّ المبين" الذي سمّاه شيخ الشريعة الأصفهاني بـ"إلقام الحجر لمن تجبّر وجحد وتكبّر". وتوفي (رحمه الله) يوم الاثنين السادس من شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٨هـ وحُمل جثمانه إلى مدينة النجف الأشرف ودفن في الصحن الشريف في الحجرة التي على يسار الداخل إلى الصحن من باب المغرب المعروفة بيان السلطاني.

المرحلة الثانية:

وهي التي تلت المرحلة السابقة، فبعد أن كتبَ السيّد مهدي البصري رسالته "الصولة" وكتب أيضاً عدّة مقالات في الصحف العراقيّة ينتقد فيها بعض الشعائر الحسينيّة، وجّه أهالي البصرة عدّة استفتاءات إلى علماء النجف الأشرف يطلبون منهم بيان الحكم الشرعي لهذه الشعائر، فكان جوابهم بين مؤيّد لها ومعارض. فأيّدها الميرزا حسين النائيني (ت ١٣٥٥هـ) والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ)، وعارضها السيّد أبو الحسن الأصفهاني (١٣٦٥هـ) .وتصدّى الشيخ إبراهيم المظفر لردّ الانتقادات التي أوردها السيّد مهدي البصري في رسالة "الصولة" فألّف رسالة مستقلّة في ذلك سمّاها "نصرة المظلوم" طبعت في أربع وستّين صفحة في ربيع الأوّل سنة ١٣٤٥هـ/ سبتمبر ١٩٢٦م في المطبعة العلويّة في مدينة النّجف الأشرف. وقام السيّد محسن الأمين بالدفاع عن الآراء الواردة في رسالة "الصولة"، فشرع بكتابة عدّة مقالات في الصحف البيروتيّة، ينتقد فيها بعض الشعائر الحسينيّة كضرب الرؤوس بالسيوف وضرب الظهور بسلاسل الحديد. ثمّ قام بتأليف كتابين مهمّين في هذا الموضوع هما: "إقناع اللائم على إقامة المآتم"، و"المجالس السنيّة في مناقب ومصائب العترة النبويّة" ، طبعاً معاً سنة ١٣٤٣هـ و"المجالس السنيّة" كتاب كبير يقع في خمسة أجزاء، ألفه السيّد الأمين لكي يكون مرجعا لخطباء المنبر الحسينيّ، إذ ضمّنه الوقائع التاريخية الصحيحة في حياة الأنبياء وأهل البيت (عليهم السلام) وواقعة الطف، الجزء الأوّل منه في واقعة الطف، والثاني في قصص الأنبياء وغزوات نبيّنا (ص)، والثالث في حروب أمير المؤمنين (ع)، والرابع في أخبار معاوية والإمام الحسن (ع)، والخامس في أخبار جميع المعصومين وتواريخهم. طبع عدّة مرّات، وتُرجم جزؤه الخامس إلى اللغة الفارسيّة.

المرحلة الثالثة:

تنحصر هذه المرحلة في وقوف الشيخ عبد الحسين صادق العاملي (ت ١٣٦١هـ) ضد الآراء التي أبداها السيّد الأمين حول بعض الشعائر الحسينيّة، التي نشرها في بعض الصحف البيروتيّة. فتصدّى هذا الشيخ الجليل وهو آنذاك أكبر رجال الدين في النبطيّة لتلك الآراء قولا وعملا، فألف رسالة مستقلة في ذلك سمّاها "سيماء الصلحاء" طبعت سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. وشجّع الشعائر التي انتقدها السيّد الأمين وفي مقدّمتها ضرب الرؤوس بالسيوف، مما أدّى إلى توسّع هذه الظاهرة وانتشارها وكثرة الضاربين رؤوسهم. وإنّي لم أعثر على هذه الرسالة حين كتابة هذه الأسطر؛ لأقف بشكل دقيق على

محتواها، نعم وقفتُ على فقرات منها، نقلها السيّد الأمين في رسالته "التنزيه" في معرض ردّه على الشيخ عبد الحسين صادق. ونذكر هنا نبذة مختصرة عن حياة..

الشيخ عبد الحسين صادق العاملي:

فنقول: هو الشيخ عبد الحسين بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ صادق الخيّامي النبطي العاملي النّجفي، ولد سنة ١٢٧٩هـ، وقرأ بعض مقدّمات العلوم في جبل عامل، ثمّ هاجر إلى النّجف بلد العلم والهجرة وعمره آنذاك إحدى وعشرون سنة، أعني سنة ١٣٠٠هـ في السنة التي توفي فيها زعيم الإماميّة السيّد مهدي القزويني ورفيقه العالم الشيخ نوح القرشي.وأكمل مقدّماته في النّجف على الشيخ محمود ذهب (ت ١٣٢٤هـ)، والشيخ علي الخاقاني (ت ١٣٣٤هـ) والسيّد علي بن السيّد محمد البحراني الغريفي (ت ١٣٢١هـ).وحضر دروس الأعلام وتخرّج على المراجع العظام في النجف، حتّى صار مجتهدا وعالما، شهد بفضله جلّ أساتذته. وكان كاملا، أديبا شاعرا. خفيف الرّوح، مستقيم الذوق، أريحي الطبع، على غزارة علمه وفضله وقداسته وتقاه، ويُعدُّ في عداد الطبقة الأولى من شعراء عصره. له شعر كثير محفوظ لمتانته وحسن سبكه، فيه النكات الأدبيّة والمناسبات.من أساتذته: الشيخ محمّد حسين الكاظمي، والميرزا الخليلي، والميرزا حبيب الله الرشتي، والشيخ محمّد طه نجف، والملا محمّد الشرابياني، والشيخ رضا الهمداني، والآخوند الخراساني.

ومن مؤلّفاته: "المواهب السنّية في فقه الإماميّة" و"جامع الفوائد" و"الشذرات في مباحث العقود والإيقاعات" و"منظومة في علم الكلام" و"منظومة في المواريث" و"كتاب في الإجارة والوصيّة والقضاء" و"أجوبة على مسائل عمر الرافعي" و"سيماء الصلحاء" و"رسالة في الرّد على القسّ الحلبي صاحب كتاب المشرح" و"ديوان شعر". وخرج الشيخ عبد الحسين من النجف حدود سنة ١٣١٥هـ عائدا إلى بلده وهو عالم فقيه، أديب ماهر، متضلع في الأدب، صلب الإيمان، ورع ثقة عدل، كريم النّفس دمث الأخلاق، يقوم بواجبه الديني إلى أن وافاه الأجل في شهر ذي الحجّة سنة ١٣٦١هـ ودفن في النبطيّة.

المرحلة الرابعة:

وهي التي كتبَ فيها السيّد محسن الأمين رسالته "التنزيه" ردّاً على الشيخ عبد الحسين صادق العاملي، إذ نقل عبارات من "سيماء الصلحاء" ثمّ بدأ بردّها وبيان آرائه في الشعائر الحسينيّة.

ردود الفعل على الرسالة:

جاءت ردود الفعل على رسالة "التنزيه" من مختلف طبقات المجتمع: علماء، وفضلاء، وخطباء، وشعراء، وعامة الناس. واختلفت هذه الردود حسب مستوى الناس وثقافاتهم: فمنهم من اكتفى بكلمات الاستغفار والدعوة لصاحب الفتوى بالهداية، وأظهر آخرون معارضتهم لها باللسان والكتابة والشعر، وتجاوز البعضُ الحدودَ فاتّهم السيّد الأمين بتُهم باطلة، وتجاسر آخرون عليه وعلى مؤيّديه بالسب واللعن. فأحاول في هذه الأوراق أن أبين ردود الفعل من المعارضين والمؤيّدين، وعلى عدّة مستويات:

رجال الدين:

عارض السيّد الأمينَ عددٌ كبير من رجال الدين، وفي مقدّمتهم مراجع دين، ومجتهدون، وكتّاب معروفون، منهم:

(١) المرجع الدينيّ الكبير الميرزا حسين النائيني (ت ١٣٥٥هـ)، عارضه في النجف الأشرف بإصدار فتوى بالجواز.

(٢) المرجع الديني الكبير الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ)، عارضه في النجف الأشرف بإصدار فتوى بالجواز.

وكانت لفتوى هذين المرجعين أثر كبيرٌ في نفوس الناس في العراق وخارجه، حيث استغلها بعض المغرضين لتأليب الرأي العام على السيّد الأمين.

(٣) المجتهد الكبير الشيخ عبد الحسين صادق العاملي (ت ١٣٦١هـ)، عارضه في النبطيّة بإصدار فتوى بالجواز، إضافة لكتابته رسالة "سيماء الصلحاء".

(٤) المجتهد الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدين (ت ١٣٧٧هـ)، عارضه بإصدار فتوى بالجواز. وكانت لفتوى هذين العلمين أثرٌ كبيرٌ في لبنان.

(٥) المجتهد والكاتب المعروف المجاهد الشيخ محمّد جواد البلاغي (ت١٣٥٢هـ)، وكانت معارضته فعليّة، فلم يُسمع منه أيّ كلام ضدّ السيّد الأمين، بل كان هذا الشيخ الجليل على ضعفه وكبر سنّه يخرج أمام مواكب العزاء يضرب على صدره ورأسه وقد حلّ إزاره وطيّن جبهته. وكان له مجلس عزاء كبير جداً يُقيمه في كربلاء المقدّسة يوم عاشوراء، لازال الناس يتحدّثون عنه. قال معاصره المؤرّخ الشيخ جعفر محبوبة (ت ١٣٧٧هـ):

"وكم له أمام المناوئين للحسين (ع) من مواقف مشهودة، ولولاه لأمات المعاندون الشعائر الحسينيّة والمجالس العزائيّة، ولكنّه تمسّك بها والتزم بشعائرها وقام بها خير قيام" . وقال الشيخ محمّد هادي الأميني (ت ١٤٢١هـ) بعد أن حكى قول الشيخ جعفر محبوبة السابق: "فحين أفتى بعض العلويّين في الشام وتبعه علويّ آخر في البصرة بحرمة الشعائر الحسينيّة، وَزَّمَرَ وطَبَّلَ على هذه الفتوى كثير من المغرضين المعاندين، شُوهد هذا الشيخ الكبير على ضعفه وعجزه أمام الحشد المتجمهر للعزاء يمشي وهو يضرب على صدره وقد حلّ إزاره، وخلفه اللطم والأعلام، وأمامه الضرب بالطبل. ومن آثاره إقامة المآتم في يوم عاشوراء في كربلاء، فهو أوّل من أقامه هناك، وعنه اخذ حتّى توسّع فيه ووصل إلى حدّه اليوم".

(٦) الحجّة الشيخ إبراهيم المظفّر، عارضه بتأليف رسالة مستقلّة في ذلك، وكذلك الأسماء الواردة بعده كلهم عارضوا السيّد الأمين بتأليف رسائل، يأتي الحديث عنها قريباً.

(٧) الحجّة الشيخ عبد المهدي الحلّي.

(٨) الحجّة الشيخ عبد المهدي المظفّر.

(٩) الحجّة السيّد علي نقي اللكهنوي.

(١٠) الحجّة الشيخ محمّد جواد الحجامي.

(١١) الحجّة الشيخ محمّد حسين المظفّر.

(١٢) الحجّة الشيخ مرتضى آل ياسين.

(١٣) الحجّة السيّد نور الدين شرف الدين.

ومن المراجع ورجال الدين الذين أيّدوا السيّد محسن الأمين في فتواه:

(١) المرجع الدينيّ الكبير السيّد أبو الحسن الأصفهاني (ت ١٣٦٥هـ)، أيّده بإصدار فتوى بالتحريم.

(٢) المجتهد المجاهد الشيخ عبد الكريم الجزائري (ت ١٣٨٢هـ)، أيّده بإصدار فتوى بالحرمة، وقد أثّرت فتواه كثيراً في أوساط الشباب.

(٣) المجتهد المجاهد السيّد هبة الدين الشهرستاني (ت ١٣٨٦هـ)، أصدر فتوى بالحرمة، وقد أثّرت فتواه في بعض مدن إيران .

(٤) المجتهد الحجّة الشيخ جعفر البديري (ت ١٣٦٩هـ)، أيّده وسانده كثيراً.

(٥) الحجّة السيّد حسين الحسيني البعلبكي (ت ١٣٩١هـ)، أيّده كثيراً عندما كان في النجف الأشرف، وكذلك في لبنان. قال الأستاذ جعفر الخليلي: "ومنهم أي الذين أيّدوا السيّد الأمين الجريء العامل، والموالي المؤيّد بالعقيدة، السيد حسين البعلبكي، وهو صهر لأخت السيّد محسن الأمين".

(٦) الحجّة الشيخ عبد المهدي الحجّار (ت ١٣٥٨ هـ).

(٧) الحجّة الزاهد الشيخ علي القمّي (ت ١٣٧١ هـ) وقد أظهر تأييده علناً وفي المجالس والمحافل.

(٨) الحجّة الشيخ محمّد الكنجي، أيّده بتأليف رسالة مستقلّة.

قال الأستاذ جعفر الخليلي: "وكان من أبرز دعاة التحريم بعد طبقة العلماء الكبرى من النّجفيين الشيخ محمّد الكنجي، الذي سخّرَ قلمه ولسانه وكلّ نشاطه في شجب الضرب بالسيوف، وقد شجّعت جرأته الكثيرين على الالتفاف حوله".

(٩) الحجّة الشيخ محسن شرارة (ت ١٣٦٥هـ) أيّده بالكتابة في الصحافة. قال الأستاذ جعفر الخليلي: "أمّا البارزون من غير النجفيين أي الذين أيّدوا السيّد الأمين فقد كان الشيخ محسن شرارة، وكان من العناصر المليئة بالإيمان وحرارة الدعوة في تحريم هذه التقاليد، وهو رجل لم ينل بعد يومذاك درجة الاجتهاد، فالتفّ حوله من أهل بلده من العامليين جماعة".

رسائل أُلّفت حول هذا الموضوع:

تضمّ حوزة النجف الأشرف التي أسّسها الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) قبل ألف عام تقريباً علماء كبار، ومراجع دين أتقياء، وكتّاباً لامعين، يَصِلُونَ الليل بالنهار في عمل دؤوب، لا يعرفون الملل والضجر، همّهم الأوّل والأخير مرضاة الله سبحانه وتعالى، وذلك عَبرَ المحافظة على الدين الإسلاميّ الحنيف وصونه عن أيّ تغيير يطرأ عليه، أو أيّ أفكار دخيلة تصل إليه. وما إن وصلت إلى النّجف الأشرف رسالة "التنزيه" حتّى انقسم الكتّاب فيها إلى معارضين وهم الأكثر، ومؤيدّين وهم القلة القليلة، فألّف بعضهم رسائل ردّاً على رسالة الأمين، منها:

(١) رسالة "إرشاد الأمة للتمسّك بالأئمة (ع) "، للحجّة الشيخ عبد المهدي المظفر، طبعت في النجف الأشرف سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) رسالة "إقالة العاثر في إقامة الشعائر"، للحجّة السيّد علي نقي اللكهنوي، طبعت في النجف الأشرف سنة ١٣٤٨هـ.

(٣) رسالة السيّد نور الدّين شرف الدّين، التي نشرَ بعضها في الصُحف اللبنانيّة على شكل مقالات .

(٤) رسالة "الشعائر الحسينيّة"، للحجّة الشيخ محمّد حسين المظفّر، طُبعت في مطبعة النجاح ببغداد سنة ١٣٤٨هـ.

(٥) رسالة "كلمة حول التذكار الحسيني"، للحجّة الشيخ مهدي الحجّار .

(٦) رسالة "نصرة المظلوم"، للحجّة الشيخ إبراهيم المظفّر .

(٧) رسالة "النظرة الدامعة"، للحجّة الشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي.

(٨) رسالة "النقد النزيه" للشيخ عبد الحسين قاسم الحلّي، طُبعت في النجف الأشرف سنة ١٣٤٧هـ.

وأمّا الكتّاب المؤيّدون للسيّد الأمين وكانوا قلّة قليلة فقد واجهوا موجةً عارمةً ملتهبة من كلّ حدب وصوب، أدّت إلى ابتعاد بعضهم عن الأنظار خوفاً من النّاس. ومع ذلك كله فقد جمعوا قواهم وأوعزوا إلى أحدهم تأليف رسالة مؤيّدة للسيّد الأمين، فقام الحجّة الشيخ محمّد الكنجي بجمع فتاوى العلماء والمجتهدين المؤيّدين لما في رسالة "التنزيه"، وطبعها في رسالة مستقلّة سمّاها "كشف التمويه عن رسالة التنزيه"، طبعت في المطبعة العلويّة في النجف الأشرف سنة ١٣٤٧هـ . وفي الترجمة المفصّلة الكاملة لحياة السيّد الأمين التي كتبت أكثرها بقلمه الشريف المطبوعة في آخر موسوعته الكبيرة "أعيان الشيعة" وردت عدّة عبارات لكتّاب معروفين، أيّدوا فيها آراء السيّد الأمين في رسالته "التنزيه": قال الدكتور علي الوردي: "يعجبني من المصلحين في هذا العصر رجلان: الشيخ محمّد عبده في مصر، والسيّد محسن الأمين في الشام... وإنّي لا أزال أذكر تلك الضجّة التي أثيرت حول الدعوة الإصلاحيّة التي قام بها السيّد محسن قبل ربع قرن. ولكنّه صمد لها وقاومها باسلا، فلم يلين ولم يتردّد. وقد مات السيّد أخيراً، ولكن ذكراه لم تمت ولن تموت، وستبقى دهراً طويلا حتّى تهدم هاتيك السخافات التي شوّهت الدّين وجعلت منه أضحوكة الضاحكين" .

وقال الشيخ محمّد رضا الشبيبي: "شنّ السيّد الأمين حرباً شعواء على الخرافات والأوهام الشائعة، وعلى العادات التي اعتبرت ديناً عند بعض الطبقات، وما هي من الدين ولا من الشرع الشريف في شيء، فهو في طليعة المنادين في الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في الشرق العربي وفي غيره من الأقطار".

الصُحف:

ولأهميّة هذه القضيّة وحساسيّتها؛ لأنّها تُعدُّ من الشعائر والمعتقدات التي لا يمكن المساس بها عند عامّة الناس، نرى أنّ الصحف وفي مختلف البلدان الإسلاميّة قد ألقت بدَلْوِها وأعطت رأيها فيها، والمؤيّدون للسيّد الأمين لجئوا إلى الصحف أكثر من المخالفين له؛ لأنّهم القلّة القليلة، وقد سُدّت الأبواب في وجوههم، ولا وسيلة للدفاع عن آرائهم؛ لذلك اتّخذوا من الصحافة الحرّة ميداناً رحيباً لأقلامهم، فكتبوا فيها وكتبوا، حتّى أنّ البعض منهم كتب بأسماء مستعارة كـ"حبيب بن مظاهر" و"أبي نؤاس". والذي ظهر لي من المصادر التي راجعتها أثناء كتابة هذه الأسطر أنّ عددا ليس قليلا من الصحف شارك في هذه المعركة الفكريّة، إلا أنّي لم اعثر إلا على صحيفتين كان لهما الدور الرئيسي في ذلك، هما: صحيفة "ديوان ميسج" التي كانت تصدر باللغة الإنكليزيّة في الهند، وقد كتب صاحبها محمّد علي سالمين مقالات عديدة مؤيّدة للسيّد الأمين، وترجم بعضها إلى العربية. وصحيفة "الهاتف" وإن كانت صدرت متأخّرة عن زمان الفتوى، إلا أنّ صاحبها الأستاذ جعفر الخليلي كان له دور فعّال في مناصرة السيّد الأمين سنة ١٣٤٤هـ وما بعدها، إذ يقول: "ولمّا كنتُ يومذاك موظفاً فقد نشرتُ مقالاتي في الجرائد بتواقيع مستعارة"، وهكذا فعل الشيخ محسن شرارة، والأستاذ سلمان الصفواني، إذ كتبا مقالات في الصحف اللبنانيّة بأسماء مستعارة.

وأمّا المعارضون للسيّد الأمين فلم يلجأوا إلى الصحف كما قلنا، لوجود قنوات كثيرة لهم يُبيّنون فيها آراءهم، ومع ذلك فقد كتبَ أحدهم وهو السيّد نور الدين شرف الدين مقالا في صحيفة لبنانيّة يردُّ فيها على السيّد الأمين ورسالته "التنزيه"، فانبرى له في هذه المرّة السيّد الأمين وردّ عليه بمقالة مفصّلة، كما وانبرى للرّد عليه بمقالة مفصّلة أخرى شخص آخر وقّع مقالته باسم "حبيب بن مظاهر".

الشعراء والخطباء:

من الطبيعيّ جدّاً أن يشارك الخطباء، وبعضهم شعراء في نفس الوقت في هذه المعمعة الفكرية، فيؤيّد بعضهم السيّد الأمين ويعارضه آخرون، وهو حقّ من حقوقهم، كغيرهم من العلماء والكتّاب والمثقفين الذين أيّدوا وعارضوا، لكن أن يأتي شاعر ويتعدّى الحدود المرسومة ويتجاسر على السيّد الأمين ومؤيّديه وينعتهم بنعوت باطلة، ويتلاعب بعقول الناس ويحاول تمويه الحقائق عليهم، فهذا غير مسموح به، ولا أعتقد أنّ التأريخ

سوف يمحو هذا عن صفحاته. وعلى كلّ حال، فمن الشعراء الخطباء الذين كان لهم دور بارز في هذه الأحداث، هو الشاعر الكبير والخطيب المفوّه السيّد صالح الحلي (ت ١٣٥٩هـ)، الذي مدحه وأثنى عليه وعلى مقدرته الخطابية محبّوه ومبغضوه. ومع ذلك كله نرى أنّ السيّد الحلي يقف موقفاً معارضاً بل معادياً ومعانداً للسيّد الأمين، ويتعرّض له في مجالسه بالتصريح تارة وبالإشارة أخرى، ويصفه بصفات باطلة، ومما قاله فيه:

يا راكباً أما مَرَرتَ بـ (جِلقِ) فابصق بِوَجهِ (أمِينها) المتَزَندِقِ

(جلق: دمشق) ولم يكتف بذلك فقط، بل شنّ حملة شعواء على كلّ المؤيّدين والمناصرين للسيّد الأمين، فأخذ ينهال عليهم بالطعن والاتهامات الباطلة، حتّى وصل به الأمر إلى أن تجاسر على المرجع الدينيّ الكبير السيّد أبي الحسن الأصفهاني؛ لأنّه أيّد السيّد الأمين. "فشنّ عليه غارة واسعة عنيفة بكلّ معنى العنف، ولم يترك لوناً من ألوان الزراية بالكناية والتصريح إلاّ وصبغ به السيّد أبا الحسن من فوق المنابر التي كان يرقاها، فكان يتصرّف من فوقها بعقول المستمعين تصرّف المالك، ويميل بها أنّى شاء، بما كان يملك من مقدرة وموهبة وجرأة رفعته إلى أعلى الدرجات في سماء الخطابة والبلاغة". فأصدر السيّد أبو الحسن الأصفهاني فتوى حرّم بها الاستماع لقراءة السيّد صالح الحلي، فأرّخ ذلك الشاعر الشيخ علي بازي قائلا:

أبو حسن أفتى بتفسيقِ (صالح) قراءته أرّختها (غير صالحة)

وقال أيضاً يهجوه:

مُـــذ تـــردّى الشـــقيّ بـــالغَي جهـــلا
وإمـــام الزمـــان طـــرا جفـــاه
قلـــتُ: يـــا مَـــن قـــد أرخـــوا (أحقيـــق
قـــد رمـــى الله صـــالحا بشـــقاه)

ويقال: إنّ السيّد رضا الهندي كان من المعارضين للسيّد الأمين، وقد قال فيه:

ذريّـــة الزهـــراء إن عـــددتَ
يومـــا ليطـــري النـــاس فيهـــا الثنـــا

فــــــلا تَعــــــــدوا (محســــــنا) مــــــنهم
لأنّهــــــــا قــــــــد أســــــــقطت محســــــــنا

وقيل: إنّ هذين البيتين في السيّد محسن أبو طبيخ .

ووقف الشاعر الشيخ مهدي الحجّار (ت ١٣٥٨هـ) موقف المؤيّد للسيّد محسن الأمين، فأنشأ قائلا:

يــــــا حُـــــر رأيـــــك لا تحفـــــل بمنتقـــــدِ
إنّ الحقيقـــــة لا تخفـــــى علـــــى أحـــــدِ
إن تلـــق ذمّـــا علـــى رأي تجـــد مـــدحا
وأنـــــت في الـــــبين لم تـــــنقص ولم تـــــزد
وهـــل علـــى الشـــمس بـــأس حـــين لم ترهـــا
عـــين أصـــيبت بـــداء الجهـــل لا الرمـــد
يـــا أيهـــا الـــوطن المحبـــوب رحلتنـــا
وقفـــا عليـــك غـــدا أو لا فبعـــد غـــد
آســـى علـــى ضـــيعة الأخـــلاق منـــك وذا
قلـــبي لأجلـــك مطـــويّ علـــى الكمـــد
هـــذي بنـــوك صـــواد عـــن معارفهـــا
وكيـــف يمكـــث ذو ري بجنـــب صـــدي
لـــيس المقـــام علـــى الإرغـــام مـــن شـــيمي
أقصـــى الـــبلاد أدنـــى الإبـــا بلـــدي
إنّـــي أقـــول ونظـــم الشـــهب مـــن كلمـــي
كمـــا أصـــول ونصـــر الله مـــن مـــددي
عـــن كـــل شـــائنة في معطســـي شمـــم
لكـــن علـــى بيعـــة الرضـــوان هـــاك يـــدي
عنـــدي مـــن المتـــنبي خـــير عاطفـــة
روح الحماســـة حلـــت منـــه في جســـدي
ومصـــلح فـــاه بالتنزيـــه لـــيس لـــه
غـــير الحقيقـــة إي والله مـــن صـــدد
تـــأسّ يـــا محســـن فيمـــا لقيـــت بمـــا
لاقـــاه جـــدّك مـــن بغـــي ومـــن حســـد
إنّـــا علـــى عامـــل نأســـى لأنّ بهـــا
مـــن لا يفـــرق بـــين الزبـــد والزبـــد
ســـيروا شـــبيبتنا لكـــن علـــى خطـــط
قـــد ســـنّها الـــدين في منهاجـــه الجـــدد

لا تجعلــــوا لســــقيم الــــذوق منتقــــدا
علـــيكم واحـــذروا مـــن أعـــين الرصــد
إنّـــا لنأمـــل فـــيكم أنّ شـــعبكم
يعـــود ملتئمـــا في شملـــه البـــدد

هذا ما عرفتهُ عمّا دار في حلبة الشعر حول هذا الموضوع، ولعلَّ المستقبل يُطلعنا على أكثر من ذلك.

ولما حاول وجوه الحلة استرضاء السيّد الأصفهاني ملقين بالسيّد صالح على قدميه، أبى التراجع عن موقفه، وقال :" إنّ السيّد صالح كحرف (أي) التي قيل عنها (أيُّ كذا خُلقت)، فكان أن اعتذر السيّد صالح عمّا بدا منه في حشد حافل في الصحن الحيدري، حيث اعتلى المنبر وقال:" أيّها النّاس إنّي أستغفر الله عمّا قلته وعمّا سأقوله". ثم نزل.

يقول السيّد محسن الأمين :" لقد أشاعوا في العوام أنّ فلانا حرّم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج من الدين، واستغلوا بذلك بعض الجامدين من المعممين، فقيل لهم: إنّ فلانا هو الذي شيّد المجالس في دمشق، فقالوا: قد كان هذا أوّل أمره، لكنّه بعد ذلك خرج من دين الإسلام. وعمدوا إلى شخص من الذاكرين يسمّى السيّد صالح الحلي، بذلوا له مالا على أن يقرأ في مجلس أنشأوه كمسجد الضرار، ليقرأ فيه السيّد صالح ويقدح فينا، ورهن بعضهم لذلك داره، وأنفق المال الذي رهنها به في ذلك السبيل".

عامّة الناس:

لم يكن النّاس، سواء في العراق أو لبنان أو غيرهما من البلدان الإسلاميّة، بعيدين عن هذه المعركة الفكرية القائمة آنذاك، ومن طبيعة عوامّ الناس أن تحرّكهم العاطفة، خصوصا إذا كان المتحدّثون أو القائمون على عمل معيّن من الذين يُجيدون التلاعب بعقول البسطاء. فكيف إذا كانت القضيّة تتعلق بالشعائر الدينيّة؟! فمن الطبيعي أن يُشارك الناس فيها مشاركة فعّالة، ومن المتسالم عليه أن يخسر المصلحون الساحة لوقت ما؛ لأنّ كلّ حركة إصلاحيّة لابُدَّ لها من تضحية.وفي هذه القضيّة بالذات كانت هنالك عدّة شخصيّات علميّة واجتماعيّة بارزة قد أعطت رأيها، وعملت على تحريك الساحة ضدّ فتوى السيّد الأمين: فبعض المراجع أصدرٍ فتوى بالجواز، وبعض الكتّاب ردّ على "التنزيه" برسائل طبعت ووزّعت مجانا.

والعلامة الجليل المجتهد والمصلح الشيخ محمّد جواد البلاغي على كبر سنة وضعفه يتقدّم مواكب العزاء بشكل مؤثّر جداً، والخطيب البارع المفوّه السيّد صالح الحلي يُحرّض الناس على السيّد الأمين من فوق المنابر التي يعتليها، وهكذا. فكانت ردّة الفعل عنيفة جداً، يصوّرها لنا أحد المعاصرين لها، وهو الأستاذ جعفر الخليلي قائلا:"وانقسم الناس إلى طائفتين على ما اصطلح عليه العوام "علويّين"، و"أمويّين"، وعُني بالأمويين: أتباع السيّد محسن الأمين، وكانوا قلة قليلة لا يعتدّ بها، وأكثرهم كانوا متستّرين خوفاً من الأذى، واتّخذ البعض هذه الدعوة وسيلة لمجرّد مهاجمة أعدائه واتهامه بالأمويّة، فكثر الاعتداء على الأشخاص، وأهين عدد كبير من الناس، وضُرب البعض منهم ضرباً مبرحاً. وبدافع إعجابي بالسيّد محسن، وانطباعاتي عنه منذ الصغر، وإيماني بصحة دعوته، أصبحتُ أموياً وأموياً قحاً في عرف الذين قسّموا الناس إلى أمويّين وعلويّين،وكنتُ شاباً فائر الدم كثير الحرارة، فصببتُ حرارتي كلها في مقالات هاجمتُ بها العلماء الذين خالفوا فتوى السيّد أبي الحسن والذين هاجموا السيّد محسن، وكنتُ أجد في كثير من الأحيان رسالة أو أكثر وقد ألقي بها من تحت باب الدار، وهي تتضمّن إلى جانب التهديد بالقتل شتائم بذيئة تدلّ على خسة وجبن، وكان التيّار جارفاً، والقوّة كلها كانت في جانب العلويّين، وكان هؤلاء العلويّون وأتباعهم يتفننون في التشهير بالذين سمّوهم بالأمويّين. وبلغ من الاستهتار أن راح حملة القِرب وسُقاة الماء في مأتم الحسين يوم عاشوراء ينادون مردّدين: "لعن الله الأمين ـ ماء"، بينما كان نداؤهم من قبل يتلخّص في ترديدهم القول: "لعن الله حرملة ـ ماء"، فأبدلوا "الأمين" بـ"حرملة" نكاية وشتماً. ولا تسل عن عدد الذين شُتموا وضُربوا وأهينوا بسبب تلك الضجة التي أحدثتها فتوى السيّد الأمين يومذاك، وكان السبب الأكبر في كلّ ذلك هو العامليّون أعني أهل جبل عامل الذين كانوا يسكنون النجف طلباً للعلم، وكان معظمهم من مخالفي السيّد محسن". وقال الخليلي أيضاً:

"لم يكن يمرّ على صدور هذه الرسالة أسبوع أو أكثر وتنتقل من الشام حيث تمّ طبعها إلى العراق حتّى رافقها كثير من الدعايات ضدّها. ووجدت هذه الدعايات هوىً في نفوس البعض، فأشعلوها فتنة شعواء تناولت السيّد محسن الأمين وأتباعه بقساوة لا تُوصف من الهجاء والذمّ والشتم المقذع، وخاف الذين آمنوا بقدسيّة هذه الرسالة وصحة فتاوى العلماء، لقد خافوا أن يُعلنوا رأيهم في وجوب الذبّ عن موضوع الرسالة والدفاع عن شخص مؤلفها. ومَن الذي كان يجرأ أن يُخالف للناس رأياً؟! ومن كان يستطيع

الظهور بمظهر المخالف في ذلك اليوم؟!". والغريب في الأمر أنّ تسمية المؤيّدين لآراء السيّد محسن الأمين بـ"الأمويّين" و"المتسنّنين" لم يصدر من عوامّ الناس فحسب، بل صدر من بعض العلماء والفضلاء أيضا: فالشيخ ابراهيم المظفر قال في رسالته "نصرة المظلوم":"فعلمتُ من أين جاءت هذه البليّة التي تقضي إن تمت على حياة الشيعة، وتيقنتُ أنّ كيد المموهين والمنافقين وخاصّة أفراد "الجمعيّة الأمويّة" ذلك الكيد الذي لا ينطلي إلا على السُذّج والبسطاء". وقال المتتبّع الكبير الشيخ الطهراني (ت ١٣٨٩هـ) عند ذكره لهذه الرسالة "نصرة المظلوم": "كتبها جواباً على بعض المتجدّدين المتسنّنين". وقال أيضا عند ذكره لرسالة "النظرة الدامعة" التي ألفها الشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي ردّاً على السيّد الأمين: "كتبه ردّاً على بعض المتسنّنين المتجدّدين".والأغرب من ذلك كله أنّ الشيخ عبد الحسين قاسم الحلي، في مقدّمة رسالته "النقد النزيه لرسالة التنزيه" أشار إلى السيّد مهدي البصري باعتباره من أهل البصرة، وإلى السيّد محسن الأمين باعتباره من أهل الشام بقوله: "إنّ الحسين (ع) لما قتل بكى عليه جميع ما خلق الله مما يُرى ومما لا يُرى إلاّ ثلاثة أشياء لم تبك عليه: البصرة، والشام، وآل الحكم بن أبي العاص".

رسالة التنزيه:

انتهى السيّد محسن الأمين من تأليفه هذه الرسالة في بيروت في الثامن عشر من شهر محرّم سنة ١٣٤٦هـ الموافق الأحد ١٧ يوليو١٩٢٧م، وطبعت أوّلا في مطبعة العرفان سنة ١٣٤٧هـ في اثنتين وعشرين صفحة، ثمّ توالت طباعتها في لبنان والعراق وإيران، وتُرجمت إلى عدّة لغات، وطبعت أكثر هذه الرسالة في الجزء الأخير من موسوعته "أعيان الشيعة" في الحقل المخصّص لترجمة السيّد الأمين، والنسخة الموجودة عندي والتي اعتمدت عليها في تصحيحها قد طبعت في مطبعة دار الهداية للطباعة والنشر، تقع في اثنتين وثلاثين صفحة، خالية من تأريخ الطبع، ويظهر من مقدّمتها أنّها طبعت سنة ١٣٩٢هـ.وطبعت هذه الرسالة أخيرا في كتاب "الاختلاف والنقد ثمّ الإصلاح" لمؤلفه مختار الأسدي، سنة ١٤١٨هـ، في مؤسسة الأعراف للنشر في مدينة قم المقدّسة. والظاهر أنّ الطبعتين الأخيرتين لهذه الرسالة قد سقطت منها عدّة عبارات وجُمل، وقفتُ عليها عند مقابلتهما مع الطبعة الأولى لها، التي اعتمد عليها وحكى عباراتها الشيخ عبد الحسين قاسم الحلي في رسالته "النقد النزيه"، والشيخ محمّد الكنجي في رسالته "كشف التمويه". (مركز الأبحاث العقائدية، قراءة في رسالة التنزيه، محمد الحسّون، بتصرف، محمد باقر الصدر..السيرة والمسيرة في حقائق

ووثائق،أحمد عبد الله أبوزيد العاملي ط١/٢٠٠٧م،ج١،ص٦٥،مؤسسة العارف للمطبوعات).

العودة للنجف بعد الضجّة:

الضجة والحرب على السيّد الأمين ابتدأت عام ١٩٢٨م وذلك عندما أصدر كتابه " رسالة التنزيه"، كما بيّنا في الصفحات السابقة، وله من العمر آنذاك ٦١سنة، وكان مقيما في الشام منذ أن ترك النجف، ليستقر في سوريا، ومازالت الضجّة تتصاعد حوله، والنار تلتهب، والكتابات تتالى، والردود لا تتوقف، والعوام تغلي من الحقد والنصب اتجاهه، في ظل كل هذه الأجواء يقرر السيّد محسن الأمين زيارة النجف، وتجديد العهد بها، وبمقامات المعصومين (ع)، وكان ذلك في عام ١٩٣٣م، وله من العمر ٦٦ سنة تقريبا، أي بعد إصداره لكتابه "رسالة التنزيه" وبعد الضجة التي أحدثها بخمس سنوات فقط، وهي مدة لا تكفي لأن ينسى الناس ما تركته من آثار، وما خلفته من حروب فكرية طاحنة ، وعداءات وانشقاقات لا حصر لها في المجتمع النجفي واللبناني، والشيعي بشكل عام. وكانت زيارته تلك للنجف بعد ٣٤ سنة من مغادرته لها طالبا فيها، ولم يعد إليها لا زائرا و لا أستاذا ولا باحثا إلا بعد هذه المدة المديدة، وفي ظل تلك الظروف الحالكة التي أحاطت به وطوّقته من كل مكان.

ومن الواضح أنّ اسمه كان معروفا في الأوساط النجفية خاصة، وفي الأجواء العراقية عامة بصفته المحارب والمحرم للشعائر الحسينية حسب ما وصفه شانئوه في كتاباتهم، والفتاوى التي كتبت حوله. عالم بهذه الصفة لا شك أنّ محبيه سيتوجسون من هذه الزيارة، ولن يرتضوا له التعرض للأذى والإهانة التي لا تبعد أن تصدر من بعض العوام في النجف، والجهلة بتحريض العلماء، لذلك حذّره البعض من مغبة تلك الزيارة إلا أنّه أصرّ على الذهاب للنجف وزيارة المعصومين (ع)، والالتقاء بالمراجع والعلماء، والتنقل في أرجاء العراق. وكان تحركه للسفر إلى العراق يوم الخميس ١٣ شعبان ١٣٥٢هـ، الموافق ٣٠ نوفمبر ١٩٣٣م.

والغريب أن الذي حدث للسيّد محسن أثناء وصوله للنجف كان على خلاف المتوقع تماما، إذ لقي كل الحفاوة والتقدير والمكانة التي تليق بمكانته ومثله وعلمه، وكأن الثورة التي قامت عليه لم تكن، ولم تترك أثرا في الجماهير المحتفية به، حتى جاءه الكثيرون يعتذرون مما بدر منهم اتجاهه، ويبينون له بأنّهم كانوا مخدوعين ومضللين.

يقول الخليلي مصورا تلك الزيارة وتداعياتها في النجف:

" وجاءت الأخبار تنبئ أنّ السيّد محسن قادم إلى العراق، فاختلف أنصاره في أمر هذا القدوم، فمنهم من رجّحه، ومنهم من لم يرجحه، ذلك أنّ الفتنة، فتنة (الأمويين) و (العلويين) لم تكن قد خمدت بعد تماما، وإنّ رد الفعل وإن كان بدا أخف من السابق ولكنّه لم يكن بحيث يُستهان به، أو تتجاهل عواقبه، وقد كتب البعض إلى السيّد محسن ينصحه بتأجيل قدومه إلى وقت أنسب، وذلك خشية أن يلقى ما لا يليق به من الإعراض، والتنديد، والتحرش، بصفته البطل الأول في تلك الدعوة التي مسّت السواد في الصميم، ولكنّ السيّد محسن كان جريئا، وكان غير هيّاب، فتحرك من دمشق ... ولست أدري كيف، كيف انقلب الوضع مرّة واحدة؟ وكيف دبّت في النفوس روح جديدة؟! فإذا بالجماهير كلها تتحرك، وتستعد لاستقباله، وجاءت إشارة السيّد أبي الحسن بوجوب التهيؤ لاستقبال السيّد محسن ملهبة لشعور النّاس، فإذا به يُستقبل استقبالا لم تشهد النجف نظيرا له في كل المناسبات الماضية ! وإذا بالسرادق الكبير وهو أكبر ما تملك النجف يقام خارج المدينة ... فلم يبق عالم، أو تاجر، أو وجيه، أو وضيع، دون أن يخرج إلى استقباله على نحو من الجلال الذي لا يُوصف ... وإذا (بكلو الحبيب) وهو من الزعماء، ومن وجوه الطبقة التي يسمونها (بالمشاهدة) والمعروفة باستخدامها السلاح في حل مشاكلها، إذا (بكلو الحبيب) الذي كان أكبر دعامة (للسيّد صالح الحلي) وأكبر خصوم (السيّد محسن الأمين) إذا به يدنو من السيّد محسن، ويأخذ يده، وينهال عليها بالتقبيل، مرّة بعد أخرى، وهو يقول ويردد هذا المضمون : "لعن الله من غشّني فصوّرك لي (أمويا) فهاهو ذا وجهك النوراني يشع بالإيمان فاغفر لي سوء ظني، واعف عنّي، فإنّما كان الذنب ذنب أولئك المغرضين المارقين الذين شوّهوا الحقائق، وقالوا عنك ما قالوا".

وكان وجه السيّد محسن يشع بالإيمان حقا، وكان بهيا وفي غاية البهاء، فقد كانت له جاذبية، وسحر، يشعرك بنفس وادعة بعيدة عن التعقيد، لا غموض فيها ولا إبهام، فلا يكاد يراه الرائي إلا وأحبّه.. ونزل في ضيافة السيّد أبي الحسن أول ما نزل، ثم انتقل إلى بيت الشيخ خليل مغنية على ما أذكر، وقد زرته هناك، وكان محله غاصا بطبقة كبيرة، ومن بينهم عدد ممن كان قد تألب عليه، أو كان يؤلب النّاس عليه إلى عهد قريب، ولكنّهم ما كادوا يرونه حتى ذابوا أمامه كما يذوب الثلج أمام شمس الصيف الساطعة، وبالغ الحاضرون في استقبالي وجاملوني وأنا أدخل مجلسه سترا

لمواقفهم النابية، وخوفا من أن أشير وأنا العارف بفعلتهم إلى ما كانوا يبذلون من مجهود ومساع للنيل من السيّد محسن والحط من شأنه، وكان معظمهم من (العامليين) كما قد أشرت إلى ذلك. وبولغ في إكرام السيّد محسن والاحتفاء به، وكثرت الولائم والدعوات التي أقيمت تكريما له، وفرضت شخصيته نفسها على خصومه فرضا، فبالغوا هم الآخرون في تكريمه، وتبجيله، ولم يخرج من النجف حتى سقط اسم (العلويين) و(الأمويين) نهائيا من سجل الاستعمال ...!" (هكذا عرفتهم، ج١، ٢١٥)

السيّد محسن الأمين نفسه أرّخ لنا هذه الرحلة المذكورة، ودوّنها بقلمه في كتابه "رحلات السيّد محسن الأمين" .. يكتب السيّد مؤرخا ومفصلا ما ذكره جعفر الخليلي:

" وعلى نحو من مسافة ثلاثة فراسخ، لاحت لنا القبّة الشريفة العلوية كالجبل الشاهق في الجو، تتلألأ على ذهبها الإبريز الناصع أشعة الشمس، وتملأ العيون والقلوب بالأبهة والجلال والخشوع. ففاضت العين دمعا لفرط السرور والفرح، ويا لها من نعمة عظمى هي مشاهدة تلك الأنوار الشريفة بعد أربعة وثلاثين عاما، فأنشأت أقول من قصيدة:

إلى الجانـــب الغربـــي مـــن أرض بابـــل

حنـــيني وأشـــواقي وفـــرط بلابلـــي

ولـــي نحـــو كوفـــان تبـــاريح وامـــق

وبـــالنجف الأعلـــى لبانـــات آمـــل

توطنتـــه دهـــرا وغصـــن شـــبيبتي

بنيـــل الأمـــاني ناضـــر غـــير ذابـــل

وفارقتهـــا كرهـــا ثلاثـــين حجـــة

ونيفـــا فـــردّتني إليهـــا وســـائلي

وفيها أقول:

فمـــا هـــي إلا ســـاعة إذ بـــدت لنـــا
يلـــوح ســـناها قبّـــة المرتضـــى علـــي

تلـــوح كطـــود شـــامخ في ارتفاعـــه
وتبـــدو كبـــدر لاح في الأفـــق كامـــل

ولمـــا بـــدت للعـــين عـــن بعـــد غايـــة
أهلـــت بـــدمع كالســـحائب هاطـــل

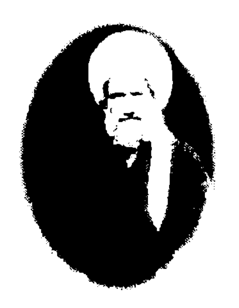
وبوصولنا إلى النجف قصدنا الحرم العلوي المطهر، ثم خرجنا إلى دار حجّة الإسلام السيّد أبي الحسن الأصفهاني، فتعشينا على مائدته المباركة.

وكان أول من زارنا في الدار التي نزلناها بعد انتقالنا من دار السيّد الأصفهاني الميرزا حسين النائيني، وله مع السيّد أبي الحسن الأصفهاني المار ذكره الرياسة الدينية في العراق من التقليد والتدريس وسواهما. والنائيني طاعن في السن قد أصابه الصمم لا يسمع، إلا أن يضع المتكلم فمه في أذنه، ويرفع صوته، له مؤلف في الأصول مطبوع وله معرفة تامة بالأدب الفارسي، وله كتاب في تحسين السلطنة المشروطة، وذمّ المستبدّة، لكن سمعت أنّه جمع نسخه أخيرا وأتلفها. وهو يكثر من شرب الشاي والتدخين، وقد سأله عاملي ونحن في مجلس عن الحضانة هل فيها خلاف؟ فقال لرجل أمامه بالفارسية (ببين خلاف دارد يا نه) أي انظر فيها خلاف أم لا. ففتح كتاب الجواهر وطالع المسألة، وقال له، نعم فيها خلاف.

ورأيناه مع أنّه قد قارب التسعين صحيح البصر، يقرأ ويكتب بدون منظرة. وقال لنا في حديثه: أنا أعرفكم لما كنتم في النجف، وكنتم تسكنون في هذه ال حلة (يعني محلة العمارة) وقد صار لسفركم من النجف ما يزيد على ثلاثين سنة. فقلنا له: نعم كما أنّنا نحن نعرفه من ذلك الوقت. وقال لنا أيضا: إنّ رسالتكم قد وصلتني، وصرت ممتنا منها كثيرا (يشير إلى رسالة معلومة بيننا) ، ثم زارنا مرارا ورددنا له الزيارة)"(رحلات السيّد محسن الأمين، ط١/٢٠٠١م، الغدير، بيروت، ص٩٠).

الخالصي (الأب /الابن)

١. محمد الخالصي ـ الأب (١٨٦٠/ ١٩٢٥م، ١٢٧٦/١٣٤٣هـ) وعيد النيروز:



محمد مهدي الخالصي (الأب)



محمد محمد مهدي الخالصي (الابن)

محمد الخالصي الأب من أهم وأبرز علماء العراق الذين برزوا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين على ساحة العراق السياسي، وكان له دور بارز ومشهود في مقاومة المستعمر بكل ما أوتي من قوّة وشراسة وتضحية، وعلى صعيد آخر كان لا يقل قوّة واندفاعا في مقاومته للعقائد المستشرية في الأمة والتي يراها خلافا للعقيدة الصحيحة، والمغايرة لما جاء في سيرة أهل البيت (ع)، ولما ورد في الشرع. كان مناضلا وثائرا عنيدا. مشاكسا للبريطانيين في العراق، حتّى قرروا في الأخير نفيه لإيران هو وابنه، وظلّ فيها بقية عمره حتى رحيله، ودفن في منفاه.

عانى الخالصي الأمرين من الإنكليز ومن الداخل من أبناء مذهبه بسبب آرائه ومواقفه الإصلاحية. ومع الشدة والغلظة والتهجير والاعتقالات التي لقيها من الإنكليز إلا أنّه في الأخير يصرح بأنّ الذي لقيه من الداخل من الشيعة أكثر ألما مما لقيه من الإنكليز،وأنّ أهل خراسان أهانوه أكثر من إهانة الإنكليز إيّاه. حتى سئم من خراسان وضاقت نفسه ذرعا وقرر الهجرة منها .. ولتقريب تلك الصورة التي يذكرها الخالصي سنذكر الاثنين معا، ما لقيه من الإنكليز وما لقيه من قومه، ليدرك القارئ مدى قوّة العنف حين يأتي من الداخل، وماذا يصنع في العالم المصلح، وما يسببه في نفسه من جرح عميق لا يدركه أحد سواه، إلا هو .

كتابنا هذا يدور حول محور واحد، وخطة لا يحيد عنها وهو محور العنف الفكري الذي يتلقاه المصلح من قبل أبناء مذهبه، والشدّة والغلظة التي تتوجه له من بني قومه وعشيرته والطعنات الجارحة التي يتلقاها من أصحابه ورفقاء الأمس، حتى تصل للعنف والتكفير والتسقيط والإهانة دون اعتبار لتاريخ هذا الإمام المصلح، والشيخ المخلص، والسيّد المجاهد، كل

هذا يكون من ورائه، والشرارة له فكرة، أو أفكار خرج بها هذا المصلح أو الكاتب أو الشيخ أو الإمام عن السياق العام لاعتبارات اجتهادية هو يتبناها، ويخالف بها المشهور .. ونحن لا نرى في ذلك أية غضاضة أو منكر، أو مغمز، أو داع لهذا العنف المرصود، والوحشية التي تظهر علينا مرّة واحدة بعد تلك الوداعة المتصنعة، مادام الإخلاص رائده، والاجتهاد العلمي أداته ووسيلته، ولكن العلماء والعوام لا يعرفون لغة الاختلاف الفكري، وحرية الفكر والاجتهاد، وإن نادوا لذلك، وأصّلوا له بكل الوسائل والكتابات المستفيضة، والرسائل المتعددة، إلا من رحم ربك من علماء الأمة الربانيين، المتبصرين والمتفهمين لرسالة الإسلام الحقة، وجوهر الدين ولبه لا قشوره.

ومن هنا سوف نسلط الضوء فقط إلا لماما على الجانب الإصلاحي من حياة الخالصي الأب، دون الوقوف كثيرا على صراعه السياسي، لأنّ هذا ليس من ضمن اهتمامات الكتاب، فهو يُتناول في كتاب آخر له صلة بحياته السياسية والثورية.

ولد الخالصي الأب آية الله الشيخ محمد مهدي في الكرخ بالعراق، والده الشيخ حسين وجدّه الشيخ عزيز، وكلاهما من العلماء. واسمه كاملا: مهدي بن حسين بن عزيز بن حسين بن علي الأسدي، الخالصي الأصل، الكاظمي. مدينة خالص تقع شرق بغداد على شاطئ النهر.

كان فقيها كبيرا، أصوليا، مجاهدا، من مشاهير علماء الإمامية. تتلمذ أوّلا على يد والده، وعلى عبّاس بن محمد حسين الجصّاني وغيره. وحضر في النجف الأشرف وسامراء أبحاث الأعلام: محمد حسين الكاظمي، وحبيب الله الرشتي، والسيّد محمد حسن الشيرازي، ومحمد كاظم الخراساني. ورجع إلى الكاظمية، فتصدّى بها للبحث والتدريس والتأليف، وأنشأ مدرسة كبيرة لطلبة العلوم الإسلامية سمّاها مدرسة الزهراء، وخصّص لها أساتذة ماهرين وكتبة جمة. وذاع صيت الخالصي، والتفّ حوله أهل العلم، وأصبح مرجعا للتقليد والفتيا، ومن الشخصيات البارزة في العراق.

وكان قد خاض المعترك الجهادي والسياسي، فأفتى كسائر الفقهاء بوجوب الجهاد ضد الإنكليز الذين هاجموا العراق عام ١٣٣٣هـ وسار بنفسه إلى ميدان القتال، وقاد المجاهدين في محور الحويزة. ثم أفتى بعد احتلال العراق وإعلان الملكية بحرمة المشاركة في انتخابات المجلس التأسيسي التي تجري تحت الانتداب البريطاني، ودعا الأمّة إلى مقاطعتها، مبيّنا من خلال خطاباته وبياناته مساوئ الاستعمار وفاضحا أساليبه الملتوية، فقررت الحكومة القائمة آنذاك إبعاده عن أرض العراق، فاعتقل في ١٠ذي القعدة ١٣٤١هـ الموافق الأحد ٢٤يونيو١٩٢٣م، وسيّر إلى الحجاز، ومنه إلى إيران،

فاستقر في مدينة مشهد المقدسة، وواصل نشاطاته الإسلامية فيها. (موسوعة طبقات الفقهاء، السبحاني، ٢/١٤، ص٨٤٨).

ترك الخالصي مجموعة من المؤلفات، نذكر منها:

١. القواعد الفقهية.
٢. الشريعة السمحاء في أحكام سيّد الأنبياء، وهي الرسالة العملية لتقليده، ٣ج
٣. رسالة في تداخل الأغسال.
٤. رسالة في الإرث.
٥. حاشية على الرسالة الألفية في الفقه للشهيد الأول.
٦. الدراري اللامعات في شرح "القطرات والشذرات" في الفقه لأستاذه الخراساني.
٧. عناوين الأصول.
٨. حاشية على "الكفاية" في أصول الفقه لأستاذه الخراساني.
٩. تلخيص "الرسائل" في أصول الفقه لمرتضى الأنصاري.
١٠. المنحة الإلهية في رد مختصر ترجمة التحفة الاثني عشرية. ٨ج
١١. بيان تصحيف المنحة الإلهية عن النفثة الشيطانية.
١٢. حاشية على "الرسالة في تداخل الأغسال" أثر المحقق الأول.
١٣. الحسام البتّار في جهاد الكفار .. وهو مجموع مقالاته في وجوب جهاد المحتلين الإنكليز في الحرب العالمية الأولى، وقد نُشرت في جريدة " صدى الإسلام".
١٤. الوجيز في المواريث.
١٥. مختصر الرسائل العلمية والأصول الدينية.
١٦. ردّه على الشيخ محمد حسن في مسائل التقليد.
١٧. أشعاره وهي تربو على ألف بيت في علوم العربية.
١٨. وغير ذلك من مؤلفات مختلفة ومتنوعة.

نفي الخالصي لإيران:

ذكرنا أعلاه بأنّ الخالصي أفتى بعد احتلال العراق وإعلان الملكية بحرمة المشاركة في انتخابات المجلس التأسيسي التي تجري تحت الانتداب البريطاني، ودعا الأمّة إلى مقاطعتها، مبيّنا من خلال خطاباته وبياناته

مساوئ الاستعمار وفاضحا أساليبه الملتوية، فقررت الحكومة القائمة آنذاك إبعاده عن أرض العراق، وقد جاءت فتواه بمقاطعة الانتخابات التي تجرى للمجلس التأسيسي ردًا على قرار ودعوة وزير الداخلية آنذاك عبد المحسن السعدون لإجرائها والمشاركة فيها بكل قوّة .. ففي يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٢٢م أصدر عبد المحسن السعدون بصفته وزير الداخلية أوامره إلى المتصرفين بالشروع بإجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي. وفي ٢٤ منه أعلن السعدون بلاغا عاما ورد في ختامه ما نصّه:

" وهنا أكرر القول وألتمس من أفراد شعبنا النجيب أن لا يحفلوا بالتمويهات والأباطيل، التي ربما يتجاسر عليها بعض من لا تهمهم مصلحة الشعب الحقيقية، ويوحدوا آراءهم، ويضعوا ثقتهم بمن يتوقعون منه السعي لتحقيق رغباتهم ... إنّ القول الفصل هو للمجلس التأسيسي الذي يباشر الآن بانتخابه، وفق الله الجميع لما فيه خير البلاد".

معارضة الخالصي والفقهاء للانتخاب والمجلس التأسيسي:

بعد تلك الدعوة للانتخابات أصدر مجموعة من الفقهاء فتاوى تحرم المشاركة فيها .. كان الإنكليز والملك يظنون أنّ المعارضة قد انتهى أمرها، وأنّ الانتخابات ستجري حسب الخطة المرسومة. ثم تبيّن لهم في خلال أيّام معدودة أنّ ظنّهم هذا كان خاطئا. فلقد انبعثت المعارضة من جديد وبزخم شديد، وكانت في هذه المرّة بزعامة المجتهدين في الكاظمية والنجف وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي.

ظهرت أولى بوادر المعارضة بشكل استفتاء موجه إلى المجتهدين في ١٥ ربيع الأول ١٣٤١هـ الموافق ٥ نوفمبر ١٩٢٢م، وهذا نصّه:

" حضرات علمائنا الأعلام وحجج الإسلام متعنا الله تعالى بظلهم مدى الأيام، بلغنا أنّكم بمقتضى وظيفتكم الدينية ورئاستكم الروحانية حرّمتم على كافة الأمّة العراقية المداخلة في هذا الانتخاب، وحرّمتم المساعدة فيه بكل وجه، وجعلتم المساعدة فيه محادّة لله ولرسوله، فنسترحم أن تبيّنوا صحّة ذلك حتّى نمتثل أوامركم التي أمر الله تعالى بامتثالها .. أدام الله ظلكم".

وقد ذيل هذا الاستفتاء بأجوبة المجتهدين الثلاثة الكبار وهي كالتالي:

" بسم الله الرحمن الرحيم .. نعم قد صدر منّا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو غير خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه أو ساعد عليه فهو كمن حارب الله ورسوله وأولياءه صلوات الله عليهم أجمعين .. الأحقر أبو الحسن الموسوي الأصفهاني".

" بسم الله الرحمن الرحيم .. نعم حكمنا بحرمة الانتخاب وحرمة الدخول فيه على كافة الأمة العراقية، وأنّ من دخل في هذا الأمر أو ساعد عليه أدنى مساعدة فقد حادّ الله ورسوله والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، أعاذ الله الجميع عن ذلك .. الأحقر محمد حسين الغروي النائيني".

" بسم الله الرحمن الرحيم .. نعم قد صدر منّا الحكم بتحريم الانتخاب على كافة الأمة العراقية، فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حادّ الله ورسوله، وقد قال عزّ من قائل في كتابه المجيد " ألم يعلموا أنّه من يحادد الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم" أعاذ الله الجميع من ذلك .. الراجي محمد مهدي الكاظمي الخراساني الخالصي عفى عنه".

وأصدر الشيخ الخالصي فتوى فيها إشارة واضحة إلى ما فعله كوكس من نفي وتشريد وقصف بالطيارات، وإلى تأييد حزب النقيب له، وهذا نصّها:

" لما كانت الانتخابات مبنية على أساس مخالف لرغائب الأمة العراقية بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحر المعتدل الذي أسس بالقهر والقوّة وسدّ الأحزاب الموافقة لرغائب الأمة، وتسويق أهلها وتشتيت جمعها وإصابة المتخلف عن حزب الحر بالطيارات حتى قتل بقنابلها الأطفال والعجزة والأبرياء والنساء وغير ذلك مما لو مات المسلم دونه أسفا لما كان عندي ملوما بل كان به جديرا. إن المداخلة بالانتخابات وكل ما يبتني على هذا الأساس المضرّ بمستقبل العراق، بل بجميع شؤونه محرمة شرعا بإجماع المسلمين، ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين. ومن الله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل". والملاحظ أنّ أكثر علماء الكاظمية، أو كلهم تقريبا، أيّدوا الخالصي في تحريم الانتخاب. فهم قد تناسوا خلافاتهم الشخصية ومنافساتهم المحلية وصاروا جميعا في صف واحد تجاه الحكومة.

وقد وجدنا تواقيعهم على الفتاوى التي صدرت، وهم السيّد حسن الصدر، والشيخ عبد الحسين آل ياسين، والسيّد محمد مهدي الصدر، والشيخ مهدي المراياتي، والشيخ مهدي جوموقة، والسيّد مهدي الخراساني، والميرزا إبراهيم السلماسي، والشيخ إسماعيل الأسدي، والشيخ محمد الأسدي، والسيّد أسد الله الحيدري. وهذا دليل على قوّة المعارضة التي ظهرت آنذاك.

وأخذ الشيخ مهدي الخالصي يجاهر بذم الملك، ويشجب موقفه من المعاهدة، ويصفه ناكثا بوعده الذي وعد به في بداية قدومه إلى العراق. وذكر محمد مهدي كبة في مذكراته أنّ الخالصي أعلن في جمع حاشد في مدرسته قائلا :"بايعنا فيصل ليكون ملكا على العراق بشروط، وقد أخلّ بتلك الشروط ، فلم تعد له في أعناقنا وأعناق الشعب العراقي أية بيعة".

فكان لهذا التصريح من الخالصي دوي في الأوساط المختلفة، وبلغ مسامع الملك فاستاء منه أشدّ الاستياء وأضمر له لحقد.

اعتقال آية الله الخالصي ونفيه :

بسبب ذلك الموقف الذي وقفه الخالصي من الانتخابات ومن المجلسي التأسيسي ، وكذلك موقفه من الملك، تقرر نفيه وإبعاده من العراق، ولكن جرى كل ذلك على خطوات متتالية مدروسة، وعن طريق التدرج وجس النبض، نبض الجماهير وأتباع الخالصي، وقد تبع ذلك بعض التطورات المتسارعة في الكاظمية وفي العراق بشكل عام.

حاول الملك فيصل الاتصال بزعماء الفرات الأوسط وهي مناطق تعتبر من الناحية الإستراتيجية مصدر تهديد للإنكليز من أجل استئناف العملية الانتخابية، وتفاوض معهم حول الموضوع، حيث استطاع كسب موافقتهم باستثناء محسن أبو طبيخ، ومبرر أبو طبيخ في امتناعه هو معارضة العلماء وقد ذكر الملك فيصل بأنّ مسعاه في امتناع العلماء سيكون فاعلا.

وبعد إتمام المفاوضات أرسل الملك فيصل اثنين من زعماء الفرات الأوسط إلى الشيخ الخالصي لسحب فتواه، ولكنّ الزعيمين أخفقا في إقناع الشيخ، الذي جدّد إصدار فتواه السابقة حول الانتخابات، وعندما تمّ الاستفتاء من المراجع أجابوا أنّ فتاواهم السابقة ما تزال على قوتها، وقد خشي الملك فيصل من موقف محسن أبو طبيخ من مسألة الانتخابات، ولذا طلب منه مغادرة العراق لحين عودة الأوضاع إلى حالتها العادية، ولذا تقرر أن يغادر العراق في ١٤ يونيو ١٩٢٢م نحو سوريا.

قرّر الخالصي أن يحول توديع محسن أبو طبيخ إلى تظاهرة في الكاظمية وتهديد فيصل وحكومته بالثورة. ففي صباح ١٤ يونيو تدفقت حشود الجماهير إلى الصحن الكاظمي في الحرم المقدس حيث حضر الخالصي ومعه جمع كبير من زعماء العشائر وزعماء الثورة وانطلقت شعارات ضد الحكومة وحدثت اشتباكات مع الشرطة. ومع أنّ إبعاد محسن أبو طبيخ قد نفذ وعادت الحياة إلى طبيعتها العادية إلا أنّ الحكومة استشعرت خطرا من هذه الحادثة، ولذا قررت إبعاد بعض أنصار الخالصي وأولاده لتضع حدّا لهذا التهديد. وقد كانت القائمة المطلوبة لدى الشرطة مؤلفة من علي نقي الخالصي حفيد شقيق الخالصي، وحسن وعلي نجلا الخالصي، وسلمان القطيفي وهو من المقربين للشيخ الخالصي.

اعتقاله:

لاحظت الحكومة عدم حدوث ردود فعل حول اعتقال أولاد وأنصار الشيخ الخالصي، لهذا قرر السعدون اعتقال شخص آية الله الخالصي نفسه، فاتصل بالملك فيصل وأخبره بأنّ الخالصي هو وراء كل تلك الحوادث، فقد كان يحرّض علنا في الكاظمية وبغداد على الثورة ضد الحكومة وأن الحكومة لن تقف مكتوفة الأيدي إزاءه، ولذا من الضروري الإسراع في نفيه مع أولاده مع القطيفي. وبعد موافقة فيصل اعتقل آية الله الخالصي في ليلة ٢٦ يونيو ١٩٢٣م. حوصر منزل الشيخ الخالصي، وكان بإمكانه الاستغاثة بالناس لكنه لم يرد إراقة الدماء، فسلم نفسه إلى رجال الشرطة. وبعد اعتقال الشيخ الخالصي قامت الشرطة بنقله مع أولاده والشيخ سلمان القطيفي إلى قطار البصرة.

ردود الفعل:

بعد انتشار نبأ اعتقال آية الله الخالصي أغلقت المحال التجارية أبوابها وتجمعت حشود الجماهير في الصحن الكاظمي، وقد قامت الشرطة بإرهاب الناس وتفريقهم وأرغمت أصحاب المحال التجارية على فتح محلاتهم، كما برز اختلاف بين العلماء حول الطريقة التي يجب التعامل فيها مع الحكومة، وهكذا لم تثمر هذه الحركة شيئا.

أما ردود الفعل في بغداد فقد كانت كما هي عليه الكاظمية، وفي النجف تعطلت الأسواق وأعلنت الجماهير تضامنها مع آية الله الخالصي، كما أعلن العلماء والمجتهدون وقوفهم إلى جانبه، وأنّ إبعاده عن الوطن هو إهانة لكل المسلمين، ولهذا قرّر أبو الحسن الأصفهاني والنائيني عزمهم على مغادرة العراق إلى إيران احتجاجا على إقدام الحكومة بإبعاد الخالصي، وبعد وصولهم كرمنشاه انطلقوا إلى مدينة قم المقدسة، وكان العلماء المحتجون يقابلون باستقبال شعبي في كل مدينة يصلون إليها أو يمرّون بها، وكان بعضهم يلقون بأنفسهم أمام السيارات التي تقلهم تعبيرا عن استعدادهم للفداء والتضحية.

وفي مدينة الحلة قام الشيخ محمد سماكة عالم المدينة ووكيل أحد المجتهدين فيها بقيادة الاحتجاجات اعتراضا على خطوة السعدون في إبعاد آية الله الخالصي، ولكنّ الاحتجاجات الشعبية خمدت مع اعتقال الشيخ سماكة.

من البصرة إلى مكة:

كان قصر السيّد جعفر السكن المؤقت لآية الله الخالصي ورفاقه بعد وصوله البصرة، وقد برّر المسئولون الحكوميون إسكانه في هذا المكان بسبب توفر الإمكانات اللازمة لإقامته، ولقد كان ذلك عملا دعائيا، ذلك أنّهم أسكنوا داخل سرداب القصر، ولم يكن مفروشا، فيما كانت درجة الحرارة عالية في ذلك القيظ اللهب، كما لم يزودوا لا بالغذاء ولا بالماء، وكان المكان مليئا بالبعوض، إضافة لرائحته النتنة ووجود حراس غلاظ وعنيفين، وهذا ما دفع بآية الله الخالصي ورفاقه إلى الإضراب عن الطعام مدّة ثلاثة أيام، وبعدها بدأ التخفيف عنهم قليلا.

وبعد مدّة نقل آية الله الخالصي ورفاقه إلى مدينة جدّة، وفي أثناء الطريق وصلت مخابرة من قبل الحكومة الإيرانية تتضمن دعوته ومن معه إلى البلاد ولكن الشيخ الخالصي اعتذر عن قبول الدعوة بسبب قرب موسم الحج ومن الواجب أن يزور بيت الله الحرام ثم يقرر في مسألة الدعوة بعد ذلك. وفي مكة لم يقم آية الله الخالصي بزيارة الملك حسين خلافا للعادة، وكما تقتضي به التقاليد الرسمية، فقد كان يؤمن ومن مبدأه أن العلماء لا يجوز لهم زيارة الملوك، ولا ينبغي لهم الوقوف على أبوابهم، بل الواجب على الملوك زيارة العلماء.

الخالصي في قم:

بعد إتمام فريضة الحج وزيارة قبر النبي (ص) قرّر الخالصي تلبية دعوة الحكومة الإيرانية. فركب باخرة أقلته مع رفاقه إلى بوشهر، وقد افترق عنهم سلمان الصفواني حيث ذهب إلى البصرة ومنها إلى بغداد في قصة طويلة لا مجال هنا لذكرها.

عند وصول الخالصي إلى بوشهر جرى له فيها استقبال عظيم جدا، إذ خرج أهل البلدة كلهم لاستقباله، كما جاءت وفود كثيرة من المناطق المجاورة لهذا الغرض. وقد حدثت في أثناء الاستقبال حادثة عجيب يصعب تعليلها: هي أنّ رجلا إنكليزيا كان يعمل في شركة النفط بعبّادان اخترق جمهور المستقبلين وتعلق بسيارة الخالصي ثم أطلق عليه رصاصة من مسدسه أخطأته، وقد انثال الجمهور على الرجل يريدون قتله، غير أنّ الجنود أسرعوا لاستخلاصه منهم. وحين علم السير أرنولد ويلسون بالأمر، وكان يومذاك مديرا لشركة النفط، أرسل إلى الخالصي يبدي أسفه لما جرى ويعتذر بأنّ الرجل كان أثناء الحادث سكران لا يعي، وأنّه قد عزله من وظيفته وأعاده إلى لندن. وبعض المصادر تؤكد أنّها محاولة اغتيال باءت بالفشل، ولم يكن الإنكليزي الذي باشر بالعملية سكران، أو فيه مس من

الجنون، بل كانت خطة للتخلص من الخالصي عن طريق قتله ورميه بالرصاص.

ولما وصل الخبر إلى طهران حدث هياج بين الناس، بجانب الهياج والمسيرات التي خرجت في بوشهر نفسها، وكادت تقع فتنة، غير أنّ الحكومة عمدت إلى تهدئة الناس، حيث أكدت لهم بأنّ الخالصي لم يصب بسوء، وأنّ الرجل قد غلبت على عقله الخمرة ولم يتعمد ذلك العمل، فسكت النّاس. وبعد أن مكث الخالصي في بوشهر قليلا غادرها إلى شيراز، ومنها إلى أصفهان، ومنها إلى قم .. وقد جرت له استقبالات عظيمة في جميع المدن والقرى التي مرّ بها. وكان وصوله إلى قم أواخر أكتوبر ، وفيها التقى بالمجتهدين الذين كانوا قد وصلوا قبله.

ولم يكد الخالصي يستقر في قم حتى نشب الخلاف بينه وبين المجتهدين، فقد كان هؤلاء يرغبون في العودة إلى العراق، وكانوا قد أرسلوا إلى الملك فيصل رسولين منهم لمفاوضته في الأمر، هما الميرزا مهدي الخراساني والشيخ جواد الجواهري. وحين علم الخالصي بإرسال هذين الرسولين تأثر أشدّ التأثر، وقيل إنّ عدّة مشاجرات حصلت بينه وبين المجتهدين، وقد أشار الشيخ محمد الخالصي إلى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصّه:

" لما ورد أبي إلى قم ورأى ما أصاب العلماء من الوهن والخوف بمراجعتهم لفيصل، وعزمهم على العودة إلى العراق لامهم أشدّ اللوم، وبيّن لهم أنّ التكليف الشرعي والأمر الإلهي لا يساعدان على هذا العمل، وأنّه يجب البقاء في إيران والسعي في إصلاحها ثم إصلاح العراق وسائر البلاد الإسلامية بواسطتها، لأنّها إذا صلحت تكون مركز الحركات الإصلاحية في جميع البلاد الإسلامية، لموقعها الجغرافي واستقلالها التام، وأنّه يحرم التسليم إلى الإنكليز وفيصلهم ولا سيّما بعد ما أقدموا عليه من نفي العلماء جميعهم، وعدم رعايتهم، وحرمة أحد منهم، وبيّن لهم أنّ رضوخهم إلى الضيم واستسلامهم إلى الذل برجوعهم إلى العراق يوجب يأس العالم الإسلامي واستسلام سائر الطبقات من المسلمين إلى مثل ما استسلم إليه العلماء، وفي هذا هلاك المسلمين عامة والعراق وإيران خاصة، وأنّ ذلك من أشدّ المحرمات الشرعية ولا يقدم على مثله أبيّ للضيم أو عاقل عرف قدر الحياة ومنزلتها.

ولم يزل ينصح للعلماء ويرشدهم فلا ينفع ذلك حتّى يئس منهم وقال: ليتكم لا جئتم إلى إيران ولا اشتركتم معي، وتركتموني وحدي والإنكليز، واليوم إذا صمّمتم على ما يخالف مصلحة الإسلام وأقدمتم على أمر أراه من أشد المحرمات، فلا بدّ لي من مفارقتكم والبقاء في إيران حتّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. وفارقهم مغضبا وقصد خراسان، وبقي

العلماء في قم يستعدون للرجوع إلى العراق مستسلمين لأمر الإنكليز راضين بالذل والهوان، منتظرين لصدور الإذن من فيصل والإنكليز بالرجوع إلى العراق. وحسابهم في ذلك على ربهم وهو أعلم بحالهم".

يعزو الشيخ محمد الخالصي الابن رغبة المجتهدين في العودة إلى العراق إلى أسباب ثلاثة هي :

أولا: إنّ المجتهدين كانوا سيئي الظن بالإيرانيين، ولا سيّما السيّد أبو الحسن الأصفهاني، إذ هو لم يكن يذكر إيران بخير.

ثانيا: إنّ المجتهدين كانوا يظنون أنّ الرئاسة لا تتم إلا في النجف، وقد علموا أنّ السيّد محمد الفيروز آبادي بدأ يعمل للانفراد بالرئاسة فيها، وصار يكتب الرسائل إلى إيران ينتقص فيها من شأن المجتهدين المبعدين، ويذكر أنّ الحوزة العلمية في النجف مشغولة بالبحث والدرس وأنّ العلماء فيها على أحسن حال.

ثالثا: إنّ الشيخ عبد الكريم اليزدي الذي كان كبير المجتهدين في قم لا يرغب في بقاء المجتهدين فيها، لأنّهم يزاحمونه في الرئاسة، فهو كان يعارضهم من وراء ستار. (نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه "بطل الإسلام").

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أنّ السر برسي لورين أشار إلى مثل هذا التعليل في رسالته إلى اللورد كرزن المؤرخة في ٣٠ أغسطس ١٩٢٣م، حيث قال: إنّ المجتهدين يملكون في العراق دورا وأملاكا خيرية للتوزيع كثيرة، ولهذا فإنّ من مصلحتهم العودة إلى "مراتعهم" بأسرع ما يمكن، يضاف إلى ذلك أنّ كبار المجتهدين في إيران وإن كانوا مضطرين للترحيب بالمجتهدين المنفيين واحترامهم غير أنّهم يعتبرونهم متطفلين عليهم، يزاحمونهم على مقاماتهم وامتيازاتهم.

الخالصي في خراسان/مشهد:

قرر الخالصي الانفصال عن المجتهدين، والذهاب إلى خراسان. وفي منتصف ديسمبر ١٩٢٣م غادر قم. وعند وصوله إلى بلدة الشاه عبد العظيم التي تقع إلى الجنوب من طهران جاءت إليه الجماهير من طهران للسلام عليه وتقبيل يديه، كما جاء رضا خان الذي كان قد تولى رئاسة الوزارة منذ عهد قريب واختلى به أكثر من ساعتين. وصل الخالصي خراسان في أوائل عام ١٩٢٤م، وبعد أن أتمّ زيارة مرقد الإمام الرضا (ع) نوى الاستقرار في البلدة، واستخار الله بالقرآن فخرج قوله تعالى :" بلدة طيبة ورب غفور". وبهذا عقد العزم على سكناها.

أوّل عمل قام به الخالصي في خراسان هو تأسيس جمعية سماها "جمعية استخلاص الحرمين وبين النهرين". وفي ٢٦ يناير ١٩٢٤م أصدر بلاغا باللغة العربية دعا فيه المسلمين في جميع البلاد الإسلامية للانتساب إلى الجمعية وحثّهم على السعي لتطهير الأماكن المقدسة في الحجاز والعراق من لوث الكفار. وقد تُرجم هذا البلاغ إلى اللغات الفارسية والتركية والبشتو والأوردو، وطبع في كتاب صغير نشر بين الناس، كما أرسل عن طريق التهريب إلى الهند.

واهتم الخالصي بتقوية الحكومة الإيرانية، وتنمية قواتها المسلحة ليجعلها ركيزة للمسلمين في محاربة الكفار. فهو عندما كان في شيراز في طريقه إلى قم أصدر فتواه بتفويض الحكومة الإيرانية بجباية أموال الزكاة والخمس من المسلمين وإنفاقها على القوات المسلحة المكلفة بحماية الثغور. ولما استقر في خراسان أصدر فتوى ثانية في إنفاق واردات أوقاف الرضا (ع) لسد العجز المالي الذي كانت الحكومة الإيرانية تعاني منه في تلك الأيّام.

لا حاجة بنا إلى القول إنّ إصدار هاتين الفتويين خلق للخالصي خصوما كثيرين لا سيّما بين رجال الدين. فقد كان هناك عدد كبير من رجال الدين وغيرهم ينتفعون من أموال الخمس والزكاة وواردات أوقاف الرضا (ع)، ولم يهن عليهم أن تتصرف الحكومة بتلك الأموال دون أن يكون لهم نصيب منها. أضف إلى ذلك أنّ كثيرا من رجال الدين، ولا سيّما في خراسان، وجدوا في الخالصي منافسا لهم يهدد مقامهم الديني في أوساط العامّة ويتفوق عليهم بانجذاب القلوب إليه.

أخذ خصوم الخالصي يتحينون الفرصة للكيد له والإيقاع به، وقد واتتهم الفرصة في ٢٣فبراير ١٩٢٤م حين أصدر الخالصي فتوى بجعل عيد النيروز يوم حداد ديني. ففي ذلك اليوم أخرجت جريدة "شرقي إيران" التي كانت تصدر في خراسان عددا خاصا كتبت في مقدمته بحروف بارزة هذه العبارة: " عيد قومي أو يوم حداد إسلامي". وذكرت الجريدة استفتاءا موجها إلى الخالصي هو : هل يجوز الاحتفال بعيد النيروز القادم في الوقت الذي تكون فيه مكة والمدينة والنجف وكربلاء والكاظمية وسامراء تحت حكم أعداء الإسلام وتدوس تربتها المقدسة خيول الأجانب؟ ثم أوردت الجريدة جواب الخالصي إذ يقول: إنّ الاحتفال بعيد النيروز في هذه السنّة يجب أن يكون كما لو كان قد حلّ في شهر محرم، وفي يوم مقتل الحسين (ع) وأخيه أبي الفضل العبّاس (ع).

لا يخفى أنّ عيد النيروز كان ولا يزال يعتبر عيدا قوميا عظيما في إيران، وهم يروون فيه الأحاديث والمأثورات الدينية. ومن غرائب الصدف أن كان النيروز في تلك السنّ موافقا ليوم منتصف شعبان وهو اليوم الذي يحتفل

فيه الشيعة بميلاد صاحب الزمان (ع)، وكان كذلك موافقا لليوم الذي يحتفل فيه البهائيون بذكرى وفاة عباس أفندي. فأخذ خصوم الخالصي يشيعون بين النّاس أنّ الخالصي بهائي، وأنّه يريد أن يقلب العيد مأتما حزنا على عباس أفندي. وقد راجت هذه التهمة بين كثير من الناس، خصوصا بين أولئك الذين كانوا يمقتون الخالصي لفتاواه الجريئة. انشق أهل خراسان إلى فريقين متعاديين، فريق مع الخالصي وآخر عليه. ومما زاد في العداء بين الفريقين أنّ القنصلية الروسية كانت تؤيد الخالصي بينما كانت القنصلية البريطانية تؤيد خصومه.

وعندما اقترب يوم النيروز في ٢١مارس جاء إلى الخالصي بعض مقلديه يطلبون منه الإجازة للاحتفال بميلاد صاحب الزمان، فأجاز لهم ذلك على أن يكون الاحتفال في اليوم التالي ليوم النيروز. وقد أقيم الاحتفال في اليوم التالي فعلا، حيث جرى مساء في مسجد كوهر شاه، وحضره الحاكم العام وكبار الموظفين وأعيان البلدة. وحينذاك جاءت مظاهرة معادية تحمل تماثيل عبّاس أفندي وعلي محمد الباب، فاقتربت من مكان الاحتفال وأخذت تحيي عيد النيروز وتشتم البهائية. ثم توجهت نحو بيت الخالصي وصارت تهتف ضدّه، وأطلقت بعض المفرقعات. وانطلقت بعدئذ تتجول في بعض شوارع البلدة، واعتدت على أفراد من البهائيين، ثم تفرقت بعد أن أشعلت النار في التماثيل التي كانت تحملها. لم يسكت أتباع الخالصي عن هذه الإهانة فأخرجوا في اليوم التالي مظاهرة لتأييد الخالصي، وأخذ المتظاهرون يهتفون ضد البهائية وضد فكرة الجمهورية، ذلك لأنّ الخالصي كان يومئذ يحارب فكرة الجمهورية التي كان بعض الإيرانيين ينادون بها، وكان يعدها مكيدة للقضاء على الإسلام. ومرّت المظاهرة بصحن الرضا (ع) وبعض الشوارع الرئيسة، واعتدت على بعض البهائيين على نحو ما فعلت المظاهرة السابقة. فاستدعيت قوّة من الجيش لتفريق المظاهرة، وحصل تدافع بالأيدي بين الجنود والمتظاهرين، وأطلق الجنود النّار في الهواء. ثم تفرقت المظاهرة بعد ما تمّ إلقاء القبض على عدد كبير منهم، ولكنّه أفرج عنهم في اليوم التالي.

وقد ناصب جمع من العلماء ورجال الدين في مشهد آية الله الخالصي العداء، كما تعرّض لإهانات من قبل العوام، ما جعله يشعر بالمرارة والحرقة، والغصة من الداخل على ما لقيه ويلاقيه من أبناء مذهبه، والعارفين بمقامه وجهاده ودوره .. لذلك سئم الخالصي من خراسان وأهلها، وقرّر مغادرة البلدة إلى طهران، وصرّح أنّ الخراسانيين أهانوه أكثر من إهانة الإنكليز له. وحين شاع خبر عزمه على الرحيل جاء إليه الكثير من الخراسانيين يعلنون ندمهم على ما فعلوا ويصرون عليه بالبقاء. وذكر التقرير البريطاني السرّي أنّ القنصل الروسي كان له دور في إقناع الخالصي بالبقاء في خراسان.

وفاة الخالصي:

توفي الشيخ مهدي الخالصي بالسكتة القلبية في مساء ١١رمضان ١٣٤٣هـ، الموافق ٥ أبريل ١٩٢٥م، وقد جرى لجنازته في خراسان تشييع لم تشهد له البلدة مثيلا من قبل. وعطلت الأسواق والدوائر الرسمية أعمالها في ذلك اليوم، كما أعلنت القنصليتان الروسية والأفغانية الحداد. وفي مساء ٧ أبريل وصلت إلى الكاظمية برقية من خراسان تنبئ بوفاة الخالصي، فارتجت البلدة لهذا النبأ، وارتفع صوت البكاء والعويل فيها. وفي اليوم التالي أغلقت الأسواق حدادا وخرجت مواكب اللطم من المحلات المختلفة قاصدة مدرسة الخالصي وهي تنوح وتلطم الصدور.

أقيمت مجالس الفاتحة على الخالصي في أكثر المدن العراقية، وظلت تتوالى مدّة طويلة، كما أقيمت حفلات التأبين وكانت أولاها حفلة حزب النهضة التي جرت في مساء ٩أبريل وشارك فيها عبد الرزاق الرويشدي وجميل صدقي الزهاوي ونعمان الأعظمي وعبود الكرخي ومحمد عبد الحسين وإبراهيم حلمي العمر وحسون القزويني وخميس آل تويج. وفي مساء ٢٠ أبريل أقام نادي الإصلاح ببغداد حفلة ثانية شارك فيها جعفر الشبيبي ومهدي البصير وعبد الحسين الأزري وقاسم العلوي ومعروف الرصافي.

أصبحت مدرسة الخالصي في الكاظمية كأنّها سوق عكاظ لكثرة الشعراء الذين أخذوا يتوافدون عليها لإلقاء قصائدهم من على منبرها. ولم تتخذ الحكومة أي إجراء لمنع الشعراء من إلقاء قصائدهم هناك، بل تركتهم يفعلون ما يشاؤون كأنّها أدركت أن ليس هناك أي خطر منهم.

يا سبحان الله، الآن يتسابق الناس في تشييع الخالصي، وتكون جنازته من أعظم الجنائز، ويلقى تشييعا مهيبا لم يلقه أحد قبله في خراسان، بينما كان بالأمس القريب يعاني الآلام والقروح، ويتجرع الغصص المؤلمة من القريبين الذين يتكالبون الآن على حمل جنازته، وكان الأولى بهم صنع كل ذلك في حياته، وإظهار التقدير وتفهمه وتقبل آرائه وحمله محمل الخير ، والاختلاف في الرأي، وحرية الاجتهاد والفكر التي كفلها الإسلام .. ولكن هيهات أن يتعظ الناس، ويأخذوا الدروس والعبر، أو تستقيم لهم قناة وراية .. ويعجبني في هذا المقام ما قاله الدكتور علي الوردي حين عرض لموت الخالصي وموقف النّاس منه، إذ كتب يقول:

" كنت يومذاك صبيا في الثانية عشرة من عمري، ومن طريف ما أذكره أنّ النّاس حين كانوا يتحدثون عن نفي الخالصي وموته يشبهون ذلك بمقتل الحسين (ع)، فكانوا يقولون إنّ يزيد بن معاوية هو اليوم جورج الخامس، وعبيد الله بن زياد هو فيصل، وعمر بن سعد هو عبد المحسن

السعدون، أمّا شمر بن ذي الجوشن فهو عبد الرزاق الفضلي. ونسى النّاس أن يذكروا أنّهم هم أنفسهم أهل الكوفة".

٢. محمد الخالصي ـ الابن (١٨٨٨ – ١٩٦٣م) والشهادة الثالثة:

محمد الخالصي الابن عالم، فقيه مجدد، وقائد من قواد ثورة العشرين بالنجف، وثائر بارز ، نفي وسجن وأوذي في جنب الله، وبذل وضحى من أجل دينه وعقيدته ومجتمعه، وقد حارب البدع والضلالات والاستعمار بعزيمة لا تلين، ولا تعرف الهوادة، ولكن هذا التاريخ والجهاد والنضال والسمعة والتضحية لم تكن كافية لتشفع له في أخريات حياته، وذلك حين أفتى بحرمة الشهادة الثالثة في الأذان، لأنها بدعة في رأيه، ومخالفة لسنّة النبي (ص) وأهل بيته المعصومين (ع)، فما كان من العوام وبعض المعممين والمجتمع العراقي إلا أن يقوم بتوهينه وتسقيطه وتكفيره، وإخراجه من المذهب والملة، وتكتب الكتب وتنتشر الفتاوى ويتعرض للأذى، ويموت في الأخير بغصّته وقلبه يعتصر ألما مما لاقاه، وهو أعظم أثرا مما لقيه من الاستعمار والنفي والتشرد عن الوطن.

ولد الخالصي سنة ١٨٨٨م بالكاظمية ببغداد، وبها نشأ على والده المرجع الديني، ونبغ مبكرا، فكان الساعد الأيمن لوالده في مواجهة الاستعمار البريطاني، بل في رأي الإنكليز كان هو المحرض لوالده على النهضة والثورة عام ١٩٢٠م، حيث كان لوالده دور ريادي، فنفاه الإنكليز قبل والده إلى إيران. وكان عام ١٩١٧م على رأس مجموعة من المجاهدين المتطوعين لمواجهة الإنكليز الزاحفين نحو بغداد، فلما سقطت بغداد انسحب بمن معه شمالا، متنقلا بين المدن، فأرسل إلى والده من هناك قصيدة تعد من روائع الأدب في تلك المرحلة: أولها:

كفى حَزَنـًا أن أترك السيف مغلولا
ولي في قراع المرهفات اليد الطولى

ثم أقام بالموصل مدّة، مارس هناك تدريس "صحيح البخاري" في جامعها الكبير، وعند اندلاع ثورة العشرين كان الشيخ محمد الخالصي هو الذي ألقى بيان الثورة في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٢٠م، في حشد عظيم يتزعمه الميرزا الشيرازي وأعمدة الثورة، وبعد فشل الثورة بقي مع والده رأس الحربة في مواجهة حكومة الانتداب حتّى تقرر نفيه خارج العراق، فتمّ ذلك إلى إيران في ٢٨ أغسطس ١٩٢٢م، ثم نفي والده في يونيو ١٩٢٣م، وهناك واصل حياته السياسية الناشطة ضد شاه إيران وحكومته بأعلى مستويات التحدي، وأتقن الفارسية وألف فيها العديد من الرسائل السياسية والعقيدية والفقهية، وتعرض هناك للنفي من بلد إلى آخر وسجن أيضا، لكنّه ظلّ يتحدى حتّى منع من إدخال جثمان الشاه إلى إيران حيث مات في جزيرة

موريس، وهدّد بإحراقها، فلم يُنقل إلى إيران حتى عودة الشيخ الخالصي إلى العراق سنة ١٩٤٩م. ولم يكف عن نشاطه السياسي داعيا للإسلام حتى وفاته عام ١٩٦٣م.

أما في الفكر الديني فقد كان مصلحا متعدد الآفاق، فقد انتقد الفقهاء التقليديين، ودعا بقوّة إلى التجديد في الفقه، وإلى التمييز بين فقه كانت تتطلبه القرون الأولى في تاريخ الإسلام، وبين فقه يتطلبه الحاضر والمستقبل. وله على هذا الصعيد أثر كبير الأهمية مع الأزهر ودعاة الوحدة الإسلامية في العراق ومصر والحجاز وغيرها من بلدان الإسلام، فقد كان بجدارة رائدا لهذا الاتجاه في عصره.

ولشدّة انتقاده الفقهاء الذين سايروا العوام في تقاليدهم ومعتقداتهم، ولما كشفه من بدع العوام التي سكت عنها كبار الفقهاء، ولشأنه الخطير الذي تخشاه الحكومات المتعاقبة، فقد أثيرت عليه زوبعة تصدّرها العوام والمرتزقة وبعض المغفلين الذين لم يفقهوا لعب السياسة والمتاجرة بالدين، فثاروا عليه عام ١٩٥٥م في وقت تحضير الحكومة لحلف بغداد المشؤوم، في مواجهة فتواه التي نشرت منذ سنة ١٩٥١م، ثم أعاد نشرها في كتاب آخر عام ١٩٥٣م في شأن الشهادة الثالثة في الأذان، الأمر الذي لم يرده أحد من الفقهاء والمجتهدين لا قبل هذه الزوبعة ولا حتّى بعدها، لمعرفة كبار الفقهاء بأصول البحث العلمي وبأنّه لم يخرج عن هذه الأصول في بحثه. وقد ردّ هو على تلك الزوبعة برسالة جريئة بعنوان "الحق يدفع الباطل"، وبقي بتأثير تلك الزوبعة من كبار رجال التاريخ الذين تجهل الأمم قدرهم. ترك من المؤلفات الكبيرة والصغيرة، وباللغتين العربية والفارسية أكثر من تسعين عنوانا.

نقل الشيخ همام الدباغ في كتابه الإمام المجاهد محمد مهدي الخالصي في الشهادة الثالثة بأنه كان يرى أن البدعة تبقى والإثم يقع سواء نوى صاحب الزيادة الجزئية أم لم ينو ، وأن النية هنا لا تغير من الموضوع شيئا ، كمن يصلي نافلة الصبح ثلاث ركعات مع النية بأن الركعة الثالثة ليست جزءا من تلك الصلاة ، علما بأن الصلاة والإقامة عبادة والعبادات في الإسلام توقيفية لا يجوز تعديها بزيادة أو نقصان لهذا كان يتوقف وينهى عن إضافة أي فصل أو ذكر أي جزء لم يرد به النص وأنه لا فرق في كون هذه الزيادة من الأمور الاعتقادية كالشهادة بالولاية لعلي أو غيرها لأن الأذان حكم شرعي لذاته ولقد اشتبه على بعض العوام ، أو شبه عليهم ،بأن عدم ذكر شيء في الأذان يعني إنكاره أو رفض الاعتقاد به وإلا فإن كل مسلم يعتقد بالمعاد ، والحساب ، والعقاب ، والثواب ، والجنة، والنار وغيرها من العقائد فعدم ذكرها في الأذان والإقامة لا يعني أبدا إنكارها أو عدم الاعتقاد بها ، وكذلك كل مؤمن يعتقد بولاية الإمام علي ويشهد له

بذلك وعدم الإتيان بتلك الشهادة فيهما لا يعني إنكار الولاية لعلي والواجب اتباع النص ولما لم يرد على الإتيان بهذه الشهادة نص في الأذان فلا يجوز الإتيان بها وان كانت حقا وعقيدة.

مواجهة الخالصي والترصد له ومحاربته ومحاربة أقواله وآرائه وتوجهاته بدأت في إيران، وكانت مستمرة لم تنقطع، وفي أنحاء مختلفة قبل مجيء الشيخ للعراق من منفاه في إيران، ولكن بمجرد أن عرفوا بمجيئه بدأت تلك الحرب عليه، ولكن في كل فترة يثيرون أمرا بشكل أو بآخر. وعلى سبيل المثال قضية الشهادة الثالثة التي لم تكن في الأذان كما هو معروف، ولا يوجد أي حديث أو دليل أنّ الشهادة الثالثة موجودة في الأذان، وكل الفقهاء متفقون على أنّها ليست جزءا من الأذان ولا يجوز إدخال زيادة في الأذان باعتبارها عبادة توقيفية، والشيخ له رأي واضح في الأذان في مساجده وصلواته بلا هذه الشهادة، فحاولوا إثارتها، ولكنّ الشيخ بجهوده لم يدع محاولة الإثارة هذه أن تنضج أو لم تنجح.

وعندما جاء إلى العراق بدأ بكتابة عدّة مؤلفات منها تحت إلحاح المقلدين والنّاس بإصدار رسالة عملية، فأصدر رسالته الأولى في العراق أوّل مرّة "إحياء الشريعة في مذهب الشيعة"، الجزء الأول سنة ١٩٤٩م، وذكر أنّ هذه بدعة مثبّتة وموجودة. ولكن لم تثر هذه إلا في أواخر ١٩٥٢ - ١٩٥٣م وبشكل حاد. وكنت تجد أنّ هذه النغمة يُدقّ على وترها في الشمال والجنوب، في القرى والأرياف من معمّمين مختلفين مما يدل على أنّ ذلك شيء منظم وليست مسألة عفوية.

وكانت الناحية قضية سياسية، لأنّ الدول الغربية كبريطانيا وأمريكا وغيرها في صدد إقامة حلف بغداد. وكان يومئذ يدعى إلى أول لقاء في بغداد للتمهيد لتوقيع "حلف بغداد"، وفي تقدير الدوائر الأجنبية أنّ الشخص الوحيد الذي قد يتصدى لهذا الحلف هو الشيخ محمد الخالصي، وربما هناك آخرون يتعاونون معه، ولكنّ الخطورة تأتي من هنا، فلابدّ من مشاغلته بما لهم من خبرة في الساحة الشيعية والعراقية، وبما لهم من عملاء مندسين. فالطريقة الوحيدة لإثارة الموضوع أن يثار شيء هائل ضد الشيخ، وأحسن شيء الشهادة الثالثة.

فبدأوا بالدق على هذا الوتر، وأرسلوا الكثير من المعممين المرتزقة إلى العشائر لإثارتهم مع الافتراءات، إذ لم يقولوا إنّ هذه الشهادة ليست جزءا من الأذان، بل قالوا عن الشيخ إنّه صار سنيًا، أنكر عليا، بل كانوا يضيفون الكثير من الافتراءات التي لم تخطر ببال الشيخ، فكانوا يقولون إنّ الشيخ يقول إنّ "عائشة" أفضل من "فاطمة"، وخالد بن الوليد أفضل من العبّاس،

هذه الأشياء التي تثير العامة، يعني نوع من التدجيل على الناس في محاولة لمشاغلة الشيخ، وفي محاولة لتمرير (حلف بغداد) في غفلة عن الأمة.

هذه حقيقة الشهادة الثالثة من الناحية السياسية، وتوقيت إثارتها وتضخيمها في هذا الوقت بالذات. وقد حدثت هذه الأمور بصورة خاصة في المدن المقدّسة، ووصلوا إلى حد أنّهم كانوا يضعون (حبوب) الماء، ويوقفون عليها بعض عملائهم ينادون: "اشرب الماء والعن الخالصي"!!. تماما كما حدث من قبل مع السيّد محسن الأمين في العراق، وكيف كان المعزون يلعتونه وهم يوزعون الماء في المواكب أيام عاشوراء، ويأمرون الناس بلعنه وهي تشرب الماء بدلا من لعن يزيد أو حرملة، الموقف ذاته يتكرر هنا مع الخالصي، وكأنّ النّاس أخذت عهدا على نفسها أن لا تتعظ بالتاريخ، ولا تأخذ الدروس والعبر ممن سبق، وبدلا من أن يتقدم الناس ويتجهوا نحو الدين النقي كلما مر الزمن تراهم يتراجعون ويزدادون عصبية وجهلا وابتعادا عن الدين وقيمه، وعن قيم التسامح وتقبل الآخر، والابتعاد عن فهم الدين، ويقودهم في ذلك جملة من المعممين الذين يفعلون ذلك كله باسم الدين ومحبة أهل البيت (ع).

نستطيع أن نقول بأنّه بسبب فتوى الخالصي حول الشهادة الثالثة ورأيه في الإتيان بها أحدث فتنة في الكاظمية وغيرها من الحواضر العلمية الشيعية، وانقسم الناس إلى فريقين، أو حزبين كعادتهم أمام أي رأي وظاهرة جديدة، خصوصا حينما تقوم على الاجتهاد والرأي المخالف للسائد والمألوف، حتى علماء الأسرة الخالصية انشطروا إلى فريقين، مع وضد الخالصي، وفريق رأى أن السلامة تكمن في العزلة والابتعاد عن تلك الفتنة والصمت حيالها، ومن هؤلاء الشيخ محمد صادق الخالصي (١٩١١- ١٩٩٠م) ، والذي لم يسلم بدوره من الأذى والحرب على الرغم من صمته وعزلته أمام تلك الفتنة والصراع، فقد وقف موقفا متزنا بعد أن أعلن الخالصي أنّ الشهادة الثالثة ليست جزءا من الأذان، ولم يتدخل بشؤون الصراع لعلمه أنّ مثل هذه المداخلات تهدف إلى إحداث الفوضى بين العلماء لتنسحب إلى العوام، لكنّه مع هذا لم يسلم من تبعاتها، فأصابه شيء من رذاذها، ومنع من الصلاة جماعة في الصحن الكاظمي الذي كانت فيه السطوة للجماعة الخالصية الذين يقف الشيخ محمد صادق خارج توجهاتهم. حتّى سحب بعض مؤيدي الإمام الخالصي سجّادة الصلاة من تحت قدميه رغم مقاومته لهم.

لم يقف العلماء والمؤلفون وأصحاب الأقلام مكتوفي الأيدي أمام رأي الخالصي الذي يعد صدمة للوسط الشيعي، فكتبت عشرات المؤلفات في الرد عليه، ومن المؤكد أنّه عقدت عشرات الندوات في إبطال ما ذهب إليه وأشاعه وتفنيده ومحاربته باللسان والقلم والمواجهة، بجانب مئات البحوث

والدراسات .. حتى وصل الأمر بأحدهم أن أطلق عليه "مسيلمة القرن العشرين"!!

نذكر من هذه المؤلفات العناوين التالية:

١. الخالصي وأمير المؤمنين (ع) أو مشروعية الشهادة الثالثة بالولاية لأمير المؤمنين علي في الأذان والإقامة، مير محمد القزويني.
٢. الشيعة وفتاوى الخالصي، مير محمد القزويني.
٣. الشيعة والخالصي، محمد رضا شمس الدين.
٤. أشهد أنّ عليا ولي الله، عبد الهادي عبّاس الأسدي.
٥. الخالصي مسيلمة القرن العشرين، محمد علي النجّار الكاظمي.
٦. الخالصي والشهادة الثالثة، عبد العزيز القديفي.
٧. رمز الإيمان في الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة، سيف الدين العلوي الكاظمي.
٨. رمز التشيع في الشهادة الثالثة في الأذان، فرج الله آل عمران القطيفي.
٩. سر الإيمان .. دراسة عن الشهادة الثالثة في الأذان، عبدالرزّاق المقرم.
١٠. شهادة ثالثة، عبد الرضا إبراهيمي.
١١. الشهادة بالولاية في الأذان، الشيخ إبراهيم بن ناصر المبارك البحراني.
١٢. الشهادة الثالثة بالولاية في الآذان، جاسم الكلكاوي.
١٣. الشهادة الثالثة، عبد العزيز القديفي.
١٤. الشيعة وفتاوى الخالصي، محمد كاظم القزويني.

وكما أنشأ الشعراء الأبيات في شتم الأمين وترديدها في مواكب العزاء التي تخرج بعنوان مواساة أهل البيت (ع)، وكسب الثواب في التعزية على الحسين وأهل بيته (ع)، نجد الشعراء هنا أيضا أنشاوا القصائد والأبيات التي قام المعزون بترديدها في مواكب العزاء، وكلها شتم وتجريح في شخص الخالصي، وسبه وتوهينه، والنّاس تلطم وهي تشتم الخالصي، بدلا من أن تلطم على الحسين وما جرى عليه في كربلاء وهي تبكيه!!.
بعض العملاء المندسين في المواكب والذين كانوا يأخذون الرواتب من القنصلية البريطانية بالذات كانت مهمتهم أن يعملوا "ردات" خاصّة ضد الشيخ. ومن هذه "الردّات" نذكر المقطع الأخير منها، وهو :" هذا الخالصي بدنياه وجهنم مقاله". وكانوا يفعلون ذلك بشكل علني وحماية، ويوزّعون منشورات لإثارة الرأي العام بأسماء مستعارة. ومن غباء الشيوعيين أنّهم ساهموا في ذلك أيضا من بين من ساهم في الحرب والتحريض وتسقيط الخالصي، الشيوعيون الذين ينكرون الله ورسوله وعليا وكل شيء يمت للدين بصلة، أصبحوا يدافعون عن الشهادة الثالثة في الأذان. وأكثر من هذا كان أحدهم يأتي سكرانا من بغداد آخر الليل وهو يلعن الخالصي لأنّه ناكر لعلي، هذه كانت وسائل الإثارة. مختلف المسميات أطلقت على

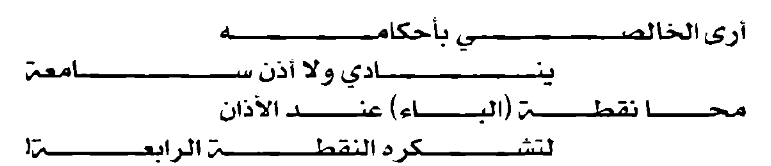
الشيخ الخالصي، مثل: محمد علي الدجّال، مسيلمة الكذّاب، الأعور الدجّال، ولكنّهم لم يأتوا بدليل واحد على ما يقولون، بل كلها سب وشتم على غرار ما يردّده عملاء السفارة البريطانية في طهران. هذه الإثارات هدفها تمرير حلف بغداد، ولتحجيم الشيخ من الخطر المستقبلي، ولحجب النّاس عن خطواته الإصلاحية.

هناك آخرون لعبوا دورا كبيرا في هذا الموضوع، وهو الهجوم على الخالصي واحتقاره، أهمهم الشيوعيون. كما أنّ هناك من كتب كتبا كثيرة مثل عبد المهدي الفايق "الشهادة الثالثة في الميزان". حصل هذا في مرحلة الخمسينات ١٩٥٣-١٩٥٦م.

الشاعر عبد الحميد سليمون وانتصاره للخالصي:

عبد الحميد سليمون الكاظمي شاعر أديب من أهالي مدينة الكاظمية، كان سليمون من المتحمسين لجمهور الإمام الشيخ محمد الخالصي والمتأثرين به، وكان من المدافعين عن آرائه وفتاواه في وجوب صلاة الجمعة التي كان يوجبها الخالصي خلافا لجمهور علماء الشيعة الإمامية الذين يتوقفون عنها في تلك المرحلة الزمنية، خصوصا قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩م.

وكان الشيخ الخالصي قد أشيع عنه أنّه أحدث في المذهب الشيعي، فاتهم بالتسنن لحذفه الشهادة الثالثة من الأذان، وفتواه في وجوب صلاة الجمعة. المؤرخ والخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي كان قد هاجم الخالصي بقصيدة شاع منها هذان البيتان:



أرى الخالصـي بأحكامـه
ينـادي ولا أذن سـامعة
محـا نقطـة (البـاء) عنـد الأذان
لتشـكره النقطـة الرابعـة!

وقيل حول ذلك إنّه نشر في كراس أصدره الأديب جاسم الكلكاوي في الردّ على الإمام الخالصي، بيتان من الشعر لم يفصح عن اسم قائلهما يومذاك، وهما للشيخ محمد علي اليعقوبي، والسبب في هذا الهجوم أنّ اليعقوبي كان من الموالين لمرجعية الإمام السيّد محسن الحكيم الذي كان يقف أمام الخالصي بشدّة. ونقطة الباء : إشارة لقول الإمام علي (ع) : "أنا النقطة تحت الباء". ويعني بها رفع الشهادة الثالثة "أشهد أن عليا ولي الله" من الأذان. والنقطة الرابعة: هي إحدى مراكز دوائر الاستخبارات الأميركية!

أرأيت إلى هذا التباين والتناقض والشتات في تقييم الأمور، ومجريات الأحداث؟! أنصار الخالصي يذهبون إلى أنّ ما جرى له من هجوم وتعدي كان خطة محكمة ودقيقة من قبل بريطانيا والاستخبارات. أما أعداؤه فيرون أنّ ما قام به من إسقاط الشهادة الثالثة من الأذان مؤيد ومسنود من قبل المخابرات الأميركية، هذا يرى بأن ما قام به تشكره النقطة الرابعة، والثاني يرى بأن تسقيطه والهجوم عليه هو ما أفرح النقطة الرابعة!!. والشعراء لابد أن تجد لهم حضورا قويا في كل قضية تسقيط وتكفير ليعملوا على التأجيج وإشعال الفتن بدلا من توعية الناس وإخماد الحرائق التي تعمل على التهام التوحد والألفة، وفي المقابل ينبري شعراء يؤيدون بكل اندفاع العالم الذي يتم تسقيطه، وهكذا ينشغل الشعراء والناس والمجتمع بالفتن وسفاسف الأمور بدلا من صرف الوقت في المفيد من الأعمال والأقوال، وما يخدم الناس ويرضي الله ورسوله والأئمة الطاهرين (ع).

ولهذين البيتين تشطير للشاعر الكاظمي عبد الحميد سليمون يرد فيه على اليعقوبي، قلب فيهما المعنى انتصارا للخالصي. ثم شطر التشطير السيّد عبد الرسول الكفائي الخطيب. يقولان في تشطيرهما لهذين البيتين:

أرى الخالصـــي بأحكامـــه	لقــد أسمــع الأمــة الطائعــه
أتـــى صـــادقا ناطقـــا بالهـــدى	يــبرهن بـــالحجج القاطعـــه
وثـــان يقـــوم بـــلا حجـــة	يضـــل بأوهامـــه تابعـــه
ومـــن ضـــلّ لـــيس لـــه حجـــة	يقـــول ولا أذن ســـامعه
محـــا نقطـــة البـــاء عنـــد الأذان	وأحيـــا مآثرهـــا الســـاطعه
وســـار علـــى نهـــج آل الرســـول	لكـــي يمحـــق البـــدع الشـــائعه
وآخـــر جـــاء بإثباتهـــا	يتـــابع أهـــواء مـــن شـــايعه
أثـــار بهـــا فتنـــة المســـلمين	لتشـــكره النقطـــة الرابعـــه

لم يكتف سليمون بهذا التشطير في نصرة الخالصي، بل كتب قصائد وأشعار كثيرة في خضم هذه المعركة، ومن بين قصائده في تأييد الخالصي وتثبيت معتقداته وأفكاره التجديدية كتب قصيدته " قصيدة الولاء

والطاعة والإنذار" وهي في مدح الإمام الشيخ محمد الخالصي، ومنتصرا له في الفتنة التي قامت ضده سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م:

ولاية الكرّار كيف تنكرُ
وذنب من يجحدها لا يغفرُ

حقيقة بيّنة واضحة
كمثل ضوء الشمس حين تسفر

حب علي المرتضى مفترض
حقائق الإيمان فيه تظهر

ومن غلا في أمره فمشرك
بكل آيات الكتاب يكفر

ما وافق الكتاب خذه واستقم
فإنّه الحق الذي لا يستر

وكل ما خالفه فباطل
تمحقه آياته والسور

يشكو الرسول للإله في غد
يوم إليه كل نفس تحشر

في ذلك الموقف يعلو صوته
يا ربّ قومي للكتاب هجروا

فيالها شكاية عظيمة
ينظر فيها الخالق المقتدر

فقل لمن كان الشفيع خصمه
بأي عذر في غد تعتذر

إنّ الأذان في الصلاة سنّة
قد أمر الباري به أن تجهروا

وعيّن الله لكم حدوده

فلعنة الله على من غيّروا

والحج والجمعة كل منهما
فريضة لها الجزاء الأوفر

قد خصّ كل منهما بسورة
فكيف للجمعة قوم أنكروا؟

هم بدّلوا أحكام دين المصطفى
وباسمه على الملأ تأمّروا

يا أيّها النّاس اتقوا بارئكم
فوضع ما أنتم عليه خطر

إنّ عذاب الله حقا واقع
في داركم هذا ألا فانتظروا

وهذه آثاره نازلة
هل فيكم مفكر يعتبر

أعلنتم عداء خير مصلح
فكنتم عونا لقوم كفروا

هل جاءكم ببدعة يعلنها؟
فأعلنوا الرد لها واستبصروا

تبّا لقوم جهلوا دين الهدى
فطبّلوا لغيره وزمّروا

إن أوغلوا فينا بسب عالم
فقبله سُبّ الإمام حيدر

وصولة الحق لها سلطانها
وجولة الباطل سوف تقهر
الخالصيّ مخلص لدينه

وغـــــير حكـــــم ربــــه لا يـــــذكر

لم يخـــــــش إلا الله في أعمالـــــــه
ومـــــن ســــواه أبـــــدا لا يحـــــذر

قـــــد أعلـــن الأحكـــام وهـــو واثـــق
بأنّـــــه مؤيـــــد منتصـــــــر

فحطـــــم الإلحـــــاد والنفـــــاق وال
شـــــرك وكـــــل بدعـــــة تســـــتنكر

كـــــم ســـــنّة أحيـــــا فهـــــذا الجهبـــــذ
الفـــــذ الإمـــــام الأكـــــبر

إذ أخـــــذ العلـــــم مـــــن البيـــــت الـــــذي
أبنـــــاؤه مـــــن كـــــل رجـــــس طهـــــروا

والحـــــق نـــــاداه مؤيـــــدا لـــــه
لا ملحـــــد يبقـــــى ولا مســـــتكبر

بالواحـــــد الفـــــرد اســـــتعن علـــــيهم
مؤرخـــــا (أهـــــل الغلـــــو انـــــدحروا)

الخالصي وعيد النيروز:

لم تكن قضية الشهادة الثالثة في الأذان هي القضية الأولى التي جعلت العلماء والعوام وكثيرا من المعممين والمراجع تقف له بالمرصاد وتعلن محاربته ونبذه، بل كانت قضية الشهادة الثالثة هي آخر المعارك التي خاضها الخالصي في طريقه الشائك والصعب، وطريق جهاده الطويل مع أكثر من طرف، وعلى أكثر من أرض. فقبل ذلك كانت للخالصي عشرات الآراء التي بثّها في كتبه وخطبه، وعشرات الفتاوى التي حارب من خلالها الغلو في الأئمة (ع) وفي رسول الله (ص)، ولكن من بين هذه الآراء والأفكار والفتاوى التي سبّبت له مصاعب وحروبا ما انتهت وما توقفت إلا بموته، لعل أبرزها ٤ ، وهي:

١. حرمة الشهادة الثالثة في الأذان.

٢. وجوب صلاة الجمعة.
٣. حرمة الاحتفال بعيد النوروز.
٤. حرمة ضرب القامات والسلاسل في عاشوراء.

ربما تكون هذه المسائل الأربع هي الأعنف والأكثر مواجهة من قبل العوام ومن قبل العلماء معا للخالصي، والترصد له، وكان الشيخ محمد الخالصي مع هذا جريئا، مقداما، يعلن رأيه ولا يبالي، وكان شديد النقد للعلماء والمراجع لخوفهم من العوام، وإحجامهم عن إعلان ما يعتقدونه. ولعل مما يميز شخصيته الفذّة والعملاقة هي شجاعته وجرأته الفائقة في بيان الحد بين التوحيد والشرك وبين السنّة والبدعة، وتوضيح ذلك بجرأة العالم الرباني الذي لا يخشى أحدا من دون الله، هذا في الوقت الذي يحجم العديد من المراجع عن قول ما يؤمنون به، ويرونه حقا وصحيحا خوفا من حكام الجور ومن ألسنة العوام، وربما كان خوفهم من ألسنة العوام أشد وأعظم. وقد حذف الخالصي من حسابه أي رد فعل من الظالمين والعامة معا، وكان يعلن ما يراه صحيحا، وكان يقول إنّ العالم الحق هو الذي يقود العوام وليس هو الذي يقوده ويوجهه العوام، وينبغي أن لا يخاف من أي ظالم كان. وقد كان هذا الأمر واضحا عند أقرانه، فهذا المرجع الديني آية الله العظمى السيّد المرعشي النجفي يقول وهو يتحدث عن الخالصي : " إنّه كان لا يخشى في الله لومة لائم، وإنّه كان لا يخشى من قولة الحقّ"، وقبل ذلك قال الإمام الشهيد عبد العزيز البدري : " أشهد أنّك لا تعرف الخوف".

وفي هذا السبيل، ولأنّه كان جريئا في قول ما يعتقد به، ويؤمن باستقلاليته أشدّ الإيمان، وعدم خوفه من العوام، وجهره بأفكاره أيا كان رأي العلماء والعوام والمجتمع بها، مادام يعتقد بحرمتها، انطلاقا من ذلك كله، فإنّ للشيخ الخالصي عشرات الآراء الجريئة، والصادمة، ولو قال واحدة منها لكفى في خلق جو من التصادم معه، ولكفت في تسقيطه، كحرمة ضرب القامة والسلاسل في عاشوراء، فكيف الحال وهو يعلن بكل جرأة آراء تتعلق بالأئمة (ع)والاعتقاد بهم، وآراء تتعلق بالغلو، وبالمواكب واحتفالات النيروز وصلاة الجمعة والتكسب من وراء الخطابة .. وغيرها العشرات.

أما أهم المسائل التي تطرق إليها في كتبه، وأعلن أنّها تعد من البدع والخرافات التي دخلت لمذهب التشيع النقي فأفسدته، وأضلت أتباعه، وكان للفرق الضالة دور في ذلك، ولسكوت العلماء خوفا من العوام عامل فيها، فهي :

١. نسبة علم الغيب لغير الله تعلى، وأنّ محمدا (ص) وعليا (ع) يعلمان الغيب.

٢. التعويل على مجرد ادّعاء المحبة دون الإيمان والعمل الصالح، والقول أن محب محمد (ص) وآل محمد (ع) ومن يبكي على الإمام الحسين (ع) لا يُعاقب يوم الحساب ولو ارتكب الآثام كلها.
٣. القول بأنّ الإمام علي (ع) قرأ القرآن قبل بعثة النبي (ص) بثلاثة عشر عاما.
٤. الاعتقاد بالموت الكفاري بالنسبة للأئمة (ع) كما تعتقد الكنيسة بالنسبة للمسيح (ع) وإدخال عقيدة المخلص النصرانية إلى المسلمين، والقول بأنّ الأئمة (ع) قتلوا حتّى ينقذوا الشيعة من عذاب جهنّم.
٥. تأكيد الغلاة على أنّ الله تعالى التحم بالبشر، والقول بأنّ الأئمة (ع) ذائبون في الله وأنّ الله ذائب فيهم.
٦. استبدال محبة أهل البيت (ع) محل الخبز والخمر المقدس في عشاء القربنة كما هو في المراسيم الكنسية الكاثوليكية.
٧. ترديد كتب الغلاة نفس تعاليم الكنيسة التي تغالي في المسيح (ع) بخصوص محمد (ص) وأئمة أهل البيت (ع)، ومنها القول إنّ المسيح (ع) إله في لاهوتيته، وإنسان في ناسوتيته، وتطبيق ذلك على الرسول محمد (ص)، وإعطائه صفتين إحداهما الألوهية والآخرى البشرية، والقول بألوهية الرسول والإمام علي وأولاده (ع).
٨. نسبة الخلق والرزق والتدبير للنبي (ص) والأئمة (ع). والقول بتفويض التدبير إلى الأئمة (ع).
٩. نسبة قيومية الخلق لغير الله تعالى، والقول إنّ الموجودات كلها متقومة بتخيلات الإمام (ع) وتصوراته، وإذا سكن عنها انعدم العالم، وأخذ هذه الفكرة من البراهمة.
١٠. الزيارة الموضوعية التي تبتدئ بجملة : (السلام على الأصل القديم).
١١. التفسير الخاطئ للآية الكريمة : "كل شيء هالك إلا وجهه"، باعتبار أنّ وجه الله هو محمد (ص) وآل محمد (ع).
١٢. حديث الغلاة الموضوع الذي يقول إنّ الله تعالى قال للنبي (ص): لولا وجودك لما خلقت الأفلاك، ولولا وجود علي (ع) لما خلقتك، وأنّ المراد من الأفلاك هو الإمام علي (ع).
١٣. الدعاء الموضوع الذي يُنسب إلى الإمام علي (ع) والذي يقول : "أنا صاحب الأزلية الأولية".

١٤. ادّعاء الغلاة بأنّ عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم موافقة للدين الإسلامي وللشيعة.
١٥. أنّ جميع العالم من نور حضرات النبي (ص) والأئمة (ع).
١٦. القول بأنّ النبي (ص) والأئمة (ع) إذا شاؤوا أن لا يموتوا لا يموتون.
١٧. خلط العقائد الإسلامية بالعقائد المجوسية.
١٨. عدم وجود ضوابط لتحديد الوعّاظ وأهل المنبر، لأنّ الكثيرين منهم من المعممين الجهال.
١٩. اتخاذ المنبر وسيلة للارتزاق.
٢٠. إشاعة الأحاديث الضعيفة للغلاة وإشاعة أفكارهم.
٢١. الدعاء الموضوع الذي يقول : "اللهم إنّه لا فرق بينك وبينهم -محمد وآله (ع)- إلا أنّهم عبادك ".
٢٢. الدعاء الموضوع الذي يقول : "يا محمد يا علي، يا علي يا محمد، أكفياني فإنّكما كافيان ...".
٢٣. الاعتقاد بتحريف القرآن الكريم، وأنّ قسما كبيرا منه قد أزيل.
٢٤. القول بأنّ القرآن الكريم لا يُفهم، ومعاداته واتخاذه مهجورا.
٢٥. القول في النبي والأئمة ما لم يقولوه في أنفسهم والخلط بين مقامات الألوهية والنبوة والإمامة، ووصف الرسول محمد (ص) والأئمة (ع) بالفضل في الدين والدنيا، إلى ما تجاوز الحد.
٢٦. ضرب السيوف والسلاسل على الرؤوس والظهور باسم عزاء الإمام الحسين (ع).
٢٧. الادّعاء بأنّ العلماء والحكماء يتلقون التكاليف من الإمام المهدي صاحب الزمان (ع) ويوصلوها إلى الشيعة.
٢٨. القول بأنّ الأئمة (ع) هم علّة خلق العالم.
٢٩. أنّ البدن العنصري ألحق بآدم (ع) في الوقت الذي نزل فيه من الجنة بسبب خطيئة أكل القمح وألحق بنسله وبالأئمة (ع) عرضا بسبب ذنوب شيعتهم، وبما أنّهم تحمّلوا ذنوب الشيعة فإنّهم سيتخلون عن هذا البدن عندما يرحلون من الدنيا.
٣٠. أنّ العالم كله على شكل أمير المؤمنين (ع).
٣١. القول بأزلية وأبدية محمد (ص) والأئمة (ع) وشيوخ الغلاة.
٣٢. نسبة شؤون الربوبية إلى الأنبياء والأئمة (ع).

٣٣. القول بأنّ الشفاعة أمر قهري، وأنّ الله ليس له اختيار في ذلك، لأنّ المؤمن يعود قهرا إلى بدنه الأصلي الذي هو نور الله ونور الأئمة (ع).

٣٤. القول بأنّ الله هو إله السماء. وأنّ الإمام هو إله الأرض.

٣٥. التفسير الخاطئ للآية الكريمة : "وأشرقت الأرض بنور ربها" أنّ الإمام هو رب الأرض.

٣٦. إحياء أعياد الجاهلية التي ألغاها الإسلام، وتفنيد الحديث الموضوع المتعلق بتعظيم يوم النوروز الذي هو عيد المجوس.

٣٧. القول بأنّ محمدا (ص) وآل محمد (ع) والنقباء والنجباء هم مظهر نور وعين وذات الله.

٣٨. القول بأنّ محمدا (ص) والأئمة (ع) وشيوخ الغلاة هم الخالقون والرازقون والمحيون والمميتون وبيدهم الحساب والعقاب والثواب يوم القيامة.

٣٩. أنّ أول ما ظهر من الله هو نور النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع).

٤٠. أنّ الأئمة (ع) كليون، وأنّهم يملؤون فضاء العالم بوجودهم الشريف.

٤١. القول بأنّ الأئمة (ع) قادرون على أي عمل يريدونه من دون أن يفوض شيء إليهم.

٤٢. القول بأنّ الله ظهر بين البشر على شكل النبي (ص) والأئمة (ع) والمراشدة والأقطاب، وأنّه حلّ فيهم والعياذ بالله.

سار الخالصي الابن على نهج أبيه آية الله الشيخ محمد مهدي الخالصي في موقفه الرافض للاحتفال بعيد النوروز، والإفتاء بحرمة مظاهر الاحتفال به، و عدم حليته لأنّه دخيل على المسلمين، وأنّه بدعة، كما أشرنا وبيّنا بالنسبة لأبيه وموقفه من هذا الاحتفال عندما كان منفيا في إيران. وهكذا كان الابن الشيخ الخالصي، وعلى إثر هذا الموقف لقي المصاعب وتحمّل الطعنات والسهام والجراح.

فبعد عودته من المنفى راجعا إلى العراق بدأ يفكر في تنظيم المدرسة التي كانت قد خرجت وأهملت وأصبحت مقرا لبعض الشيوخ والطلبة والعجزة، كما هو الشأن في تخريب أي عمل كالمدرسة التي أسّسها المرحوم الشيخ مهدي التي سمّاها (الزهراء) يومئذ وأرادها أن تكون مقابلة للأزهر في مصر كنوع من التعاون والتكييف الجديد للمدارس الدينية وتطويرها نحو الأحسن. بدأ الشيخ بإعادة تنظيم المدرسة وإخضاع الطلبة للامتحان لإبقاء الصالح فقط، وفكر ببناء المدرسة كجامعة، حيث كان هذا تفكيره في مرحلة من المراحل. كان مجيء الشيخ بهذه الصورة وهذا الاستقبال، قد

أثار حفيظة السلطة ومن وراءها من الدعم الخارجي، حيث بدأوا يشعرون بخطورته، فبدأوا وضع المخططات لغرض تحجيم الشيخ أو مشاغلته.

وكانت أول ملاحظة لاحظها الشيخ عند رجوعه إلى العراق أنّ الاستعمار خلال فترة الحكم الملكي قد استطاع من خلال غفلة وإبعاد العلماء وخروجهم أن يجعل نوعا من التفرقة الشديدة في المجتمع العراقي بين السنّة والشيعة، بل وحتّى بين الشيعة أنفسهم، كمعرفة النجف وكربلاء والكاظمية ودعبول وما شابه كانت جزءا من مخطط مرسوم لتفرقة الأمّة الإسلامية. لهذا فإنّ أوّل ما طرحه الشيخ بعد رجوعه للعراق هو موضوع وحدة الأمّة الإسلامية على أساس الإسلام.

من ناحية أخرى وجد أنّ الإلحاد والعلمانية والشيوعية قد اكتسحت الشباب مستغلة حقدهم ضد الاستعمار، وعوضا أن يكون هذا الحقد في مصلحة الوطن والإسلام استغل في مصلحة العلمانية والشيوعية وغيرها، فكان من مهمته مكافحة الشيوعية باعتبارها مبدأ هدّاما، فبدأ التعبئة الفكرية والسياسية ضدها. ومن ناحية أخرى التعبئة الاجتماعية، حيث بدأ بإقامة صلاة الجمعة في صحن الكاظمية والمسجد الصفوي بالذات. وقد وجد أنّ هذا التقاطع في تلك الفترة وصل إلى حد أنّ الشيعي لا يصلي في مسجد السنّي، والسنّي لا يفكر أن يدخل المسجد الشيعي، والتزاوج أصبح ممنوعا بينهما.

لهذا قام الشيخ بإحدى خطواته المعروفة تاريخيا، وأعلن أنّه سيقوم بمسيرة من الكاظمية إلى الأعظمية لإقامة صلاة الجمعة مع إخواننا السنّة وهذا الذي حصل. وكانت الصلاة حافلة، والعراقيون يأتون من الشمال والجنوب لإقامة الصلاة مع الشيخ. فهو رحمه الله بالإضافة إلى الدعوة النظرية إلى وحدة الكلمة والتآلف وتوحيد شمل المسلمين أمام الأعداء، كان يقوم بذلك عمليا. ثم الدعوة إلى التزاوج بين الشيعة والسنّة لإزالة هذه الوحشة، ثم الالتقاء بالعلماء من مختلف الطبقات، للقيام بهذه الإصلاحات.

وبمقدار ما كان الشيخ ينشط بهذه الإصلاحات كانت المخططات توضع لعرقلة جهوده وحجبه عن الجماهير وتشويه سمعته. ومن المؤسف أنّه لم يكن الجانب الاستعماري فقط، والسياسي يقوم بذلك، بل كان بعض المعممين الذين استشعروا الخطورة من وجود الشيخ لمراكزهم، فتعاونوا بشكل أو بآخر أو تعاطفوا مع الاتجاه المعرقل للشيخ. فأثيرت بوجهه عدّة موضوعات بما هو معروف عنه من أفكار إصلاحية ونفي البدع والخرافات التي كثيرا ما تداعب عواطف العوام، فكانوا يحاولون إثارة العوام بهذه الأمور.

كان منها على سبيل المثال أنّ الشيخ وجد أنّ بدعة النوروز بدعة مجوسية كان قد كافحها في إيران، وقال إنّ العيد في الإسلام حكم شرعي. وعندما جاء الإسلام قضى على جميع تقاليد الأمم السابقة ووحّدها في أعياد إسلامية. فكما أنّه صادر من الجاهلية الأولى عيد عاشوراء، ومن الفراعنة عيد شم النسيم. كذلك ألغى أعياد المجوس (مهرجان النوروز)، وجمعهم كلهم على عيدي الأضحى والفطر، والعيد الأسبوعي وهو يوم الجمعة.

ويرى أنّ إحياء النوروز هي بدعة مجوسية لا ينبغي أن تُحيى، وأنّ جميع التقاليد التي تجري في أعياد النوروز هي تقاليد مجوسية وعبادة للنيران، وكتب بذلك كتابا عنوانه " النيروز .. رسالة في بدعية عيد النوروز وسائر الأعياد غير الإسلامية". ومن كتبه المعروفة في النقد الديني كتاب "سبل السلام" وكتاب "النوروز" طبعه كفصل من هذا الكتاب تحت عنوان "النيروز وبدعة النوروز"، وذكر في ذلك الأحاديث الواردة عن الإمام علي والأئمة (ع) في رواية تقول : طلب المنصور من الإمام موسى بن جعفر أن يجلس في يوم النوروز يستقبل المهنئين، ويتلقى الهدايا باعتباره نائبا عن الخليفة في هذا الأمر. وكانت الهدايا يومئذ على غرار السنّة المجوسية القديمة التي تقدم الضرائب السنوية إلى الإمبراطور من قبل الملوك، فكان أبو جعفر المنصور يسير على هذه السيرة، وكانت هذه الهدايا تعتبر الدخل السنوي للدولة.

فطلب من الإمام موسى بن جعفر كما هو في الرواية أن يجلس ويستقبل المهنئين في يوم النوروز، ويستلم الهدايا، فقال له الإمام موسى بن جعفر :" لقد فتّشت أحاديث جدي فلم أجد لهذا اليوم أثرا، ومعاذ الله أن أحيي ما أماته الإسلام". مع هذا كنا نجد أنّ كثيرا من الجهّال أو بدوافع جهل أو تعصبات عنصرية فارسية يحاولون إحياء هذه البدع. فالشيخ كافحها في إيران، وفيما بعد أصدر كتابه حين وجد أنّ هذا الأمر تسرب إلى العراق أيضا.

وعندي نص أنّ أوّل من أحيى النوروز هو معاوية كما ورد في كتاب "الأوائل"، لأنّه كان من مهمته إحياء كل التناقضات لعهد ما قبل الإسلام، فعادوا إلى عاشوراء لأنّه كان عيدا في الجاهلية، واحتفلوا بمناسبة قتل الحسين (ع) إحياء للسنّة الجاهلية، قبل أن يكون قتل الحسين. ومعه أحيوا السنّة المجوسية حربا للإسلام. ولهذا كان من واجب الشيخ أن يحارب هذا،فأثاروا الرأي العام على هذه المسألة.

مثلا من آرائه الفقهية الأخرى، التي قد يختلف فيها اختلافات فقهية، فكانوا يبحثون عن أي رأي فقهي مخالف لما هو سائد بين النّاس يومئذ ومحاولة إثارتهم ضد الشيخ، وتأليب العوام عليه بأي شكل من الأشكال!!

وعلى سبيل المثال الأرنب، من فتاوى الشيخ أنّ الأرنب مكروه وليس حراما، لأنّه ليس هناك دليل قطعي على الحرمة، إنّما هو كراهة، فحاولوا أن يثيروا الرأي العام حول هذا الموضوع الذي لا يخرج عن كونه رأي اجتهادي من قبل فقيه جامع للشرائط حسب ما ورد في أصول المذهب.

حتّى أنّ بعض الشعراء الشعبيين من باب المزاح والنكتة كان يلقي قصيدة في المدرسة عند الشيخ محاكيا أو معبرا عن آراء هؤلاء المتمسكين بالبدع في اعتراضاتهم على الشيخ أن يقول هذا الشطر:

يــوم يحلــل الأرنــب، يــوم يحلــل النــوروز
لحــد يــا علــم زنكــي قابــل مــن الديانــة نجــوز

فيعتبر الدين كله نوروز وأرنب، ويتوسل بعلَم زنكي باعتبار أنّ الشيخ حرّم البدع كالقامات والزناجيل، وكل الأمور التي تجري باسم العزاء، وهي بعيدة عنه. فالشاعر يقول متهكما عن لسان أولئك: إنّ الدين كله يعتبر "أرنب ونوروز"، يعني اعتراضهم على الشيخ أنّه يوم يحلل الأرنب ويوم يحلل النوروز، والعلم الزنكي هو العلم الذي يحملونه أمام المواكب. حاولوا إثارة الرأي العام ضد الشيخ.

وهنا تعاون اليسار واليمين، يعني الشيوعيين واليساريين والإنكليز وعملاءهم في جرب الشيخ ومحاولة عزله عن الجماهير، وتعاون معهم بعض المعممين الظلاميين، إما بدوافع مشبوهة أو تحسسا للخطورة التي قد يكونها وجود الشيخ على مراكزهم.

الحرص على إقامة صلاة الجمعة:

نستطيع أن نقول بأنّ الخالصي الابن يكاد أن يكون نسخة ثانية من الخالصي الأب، في التوجه والثورة والأسلوب والغايات والاهتمامات والقضايا التي عالجها كل منهما، سواء منها ما يتعلق بالسياسة أو بالعقيدة أو بالمجتمع .. الحرص على إقامة صلاة الجمعة والوحدة والاحتفال بعيد النوروز ومجابهة الاستعمار والجرأة في الإعلان عن المعتقد .. كل هذه الأمور تجسّدت بقوة في الخالصي الأب، كما تجسدّت بقوة في الخالصي الابن فيما بعد.

عاد الشيخ من منفاه في إيران إلى بلده العراق عام ١٩٤٩م، وكان له من العمر حينذاك ٦١ سنة، وعند عودته مباشرة للوطن، بلد العلم والعلماء، والمراقد المطهرة، والحركة العلمية والمرجعية حاول الشيخ الخالصي الالتحام بعلماء النجف وبقية علماء المدن، كالكاظمية وكربلاء وسامراء

وغيرها من مدن العراق المختلفة، ويقوي علاقته بكل العلماء على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، خصوصا وأنّه كان غائبا عن ساحة العراق لأكثر من ٢٧ سنة، وقام بزيارتهم، واللقاء بهم والتحدث إليهم عن آرائه وتطلعاته وتوجهاته المختلفة. وهناك قضية معروفة تتعلق بحركة الخالصي عند عودته في أيامه الأولى - حسب ما جاء في كلام ابنه - ملخصها أنّه ذهب لزيارة بعض المراجع في النجف بالرغم من أنّهم لم يأتوا لزيارته، مع العلم أنّ هناك الكثير من العلماء قاموا بزيارته، والحرص على اللقاء به اعترافا بمكانته ودوره الديني والسياسي في العراق المعاصر، ولما بذله وقام به من تضحيات جسيمة في سبيل رفعة العراق والدفاع عن الدين بإخلاص وتفان قلّ نظيره. فعلى سبيل المثال نلاحظ هنا بأنّ السيد محسن الحكيم - رحمه الله - والذي لم يكن مرجعا آنذاك، لم يتعنَ لزيارة الخالصي، بل نراه من أشد العلماء محاربة للخالصي وتوجهاته!!.

والتقت هنا مصالح الشيوعيين والإنكليز وحكومة إيران في محاربة الشيخ. فمثلا عندما ذهب إليهم وزارهم وأقام صلاة الجمعة في أماكن مختلفة، منها الكاظمية لأنّها يقيم فيها، ذهب بنفسه إلى كربلاء وأقامها في صحن العبّاس وصحن الحسين (ع)، وقال :" ألقي هنا خطبة الجمعة في المكان الذي ألقيت فيه بيان إعلان ثورة العشرين". وذهب إلى النجف والكوفة وقال: عيب علينا نحن الشيعة أن تقام هذه الصلاة في كل مكان، حتّى في مدن الإلحاد، في موسكو، وعاصمة علي بن أبي طالب والشيعة خالية من صلاة الجمعة ؟!! لماذا يكون مسجد الكوفة الذي هو ثاني مسجد في التاريخ من حيث الأهمية السياسية والتاريخية معطلا؟! وذهب بنفسه ودعا العشائر المؤيدة له، وجاؤوا بخيم وأقاموها وصلاها، وذهب إلى (سلمان باك)، وأقامها تحت أروقة طاق كسرى.

في هذه الفترة كان الشيخ يقوم باتصالات بعلماء السنّة وعلماء في أماكن أخرى. وفي هذه الفترة أصدر مجلة (مدينة العلم)، وفيها أيضا دُعي إلى مؤتمر في (بحمدون) وقال: نحن ندري أنّ هذا المؤتمر بدوافع أمريكا ولغرض مكافحة الشيوعية، ولكن هذه فرصة، فالكلام الذي نقوله هنا نذهب ونقوله في (بحمدون)، وهذا ما كان. ذهب إلى مؤتمر بحمدون وتكلم، وخطبته هناك مصدّقة في التنديد بالصهيونية وأمريكا، ومنها قوله:

"إنّكم أصل البلاء لأنّكم مهّدتم للشيوعية، فمكافحة الشيوعية تبدأ بتغيير سياستكم نحو الشرق ونحو الإسلام". بينما حرّك بعض العلماء بإصدار كتاب كان الشيوعيون والإنكليز وراء هذه الإثارة من باب تشويه مواقف الشيخ الإيجابية، وهذه مثبّتة في التاريخ، وكل هذه الوقائع التي نذكرها عليها وثائق من الممكن الاطلاع عليها.

لمزيد من التفاصيل في حياة الخالصي (الأب/الابن)، وللاستزادة والتوسع في جهاده وجهوده العلمية، من الممكن الرجوع للمصادر التالية:

١. تاريخ القزويني، د. جودت القزويني، ط١/٢٠١٢م،الخزائن لإحياء التراث، بيروت، مجلد ٢٧، ص ٤٧.

٢. المنتخب من أعلام الفكر والأدب، كاظم عبود الفتلاوي، ط١/١٩٩٩م، مؤسسة المواهب،بيروت، ص ٦١٠.

٣. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، علي الوردي،ط١/٢٠٠٥م،دار الكتاب الإسلامي،ج٦ القسم الأول، ص٢٠١.

٤. تجارب العلماء في عصور الغيبة، ترجمة وإعداد كمال السيّد، ط١/٢٠٠٦م،مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر،قم، ج٢، ص ٤٥٩.

٥. موسوعة طبقات الفقهاء، جعفر السبحاني، ط١/٢٠٠٤م، دار الأضواء، بيروت، ج١٤/٢، ص ٨٤٨.

٦. معجم مؤرخي الشيعة، صائب عبد الحميد، ط١/٢٠٠٤م، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي،قم، ج٢، ص ٣٢١.

٧. علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين، محمد الخالصي، تحقيق وترجمة الشيخ هادي الخالصي، ط١/١٩٩٨م.

٨. من أعلام الفكر والقيادة والمرجعية، عبد الكريم آل نجف، ط١/١٩٩٨م، دار المحجة البيضاء،بيروت، ص١٥٢.

السيّد موسى الصدر

السيّد موسى الصدر ذاق الأمرين عند عودته للبنان، ولقي من العنت والمحاربة والمواجهة ما يهدّ أعتى الجبال، ويشيب الطفل الرضيع، حربا قاسية ومواجهات لا تتوقف، كل هذه المواجهات والتسقيط والعنف لقيه من أبناء بلده لبنان، وإخوة المذهب والعقيدة، وعلماء تخرجوا من النجف وقم، رجال الدين هم الذين قادوا تلك الحرب، وتلك الثورة العارمة التي انطلقت في سبيل إسقاطه وإخراجه من الملة والمذهب .. حتى أصبح في نظرهم العدو والمبتدع والضال، والذي يجب الوقوف أمامه بكل قوّة، ونلتقي مرّة أخرى مع مفردة التكليف الشرعي، والتي أصبحت متكأ لكل من يحارب العلماء المصلحين، ويدوس عليهم بأقدامه حتى الإدماء، ويتنقل من مكان لآخر في سبيل هذه الغاية، عانى السيّد الصدر مرارة هذه الحرب، وكان يتجرع الغصص تلو الغصص، ويسمع الكلمات الجارحة من علماء لبنان على الأخص، ومجايليه من المعممين، ولكنّه تسلح بالصبر والعزيمة التي لم تعرف اليأس، أو روح العداء والحقد على هؤلاء العلماء. مع أنّهم لم يتركوا خصلة من خصال السوء إلا ألصقوها به، واتهموه بها، تهم لا تليق حتّى بواحد من العوام فكيف الحال بهذا العالم العلم، المؤمن المصلح، والمجاهد في سبيل الدين والعقيدة ؟!

وتلاحظ أنّ القاسم المشترك بين هؤلاء غالبا أنّهم محاربون من السلطة ومن العلماء معا، فكانت السلطة تترصد لهم كل مرصد، والعلماء والعوام في المقابل تقعد لهم كل مقعد بكل أنواع المهانة والحرب، وتكون حرب أبناء المذهب والعلماء هي الأشد والأعنف والأقسى، والتي تترك آثارا عميقة، وتحفر في النفس حفرا، " كان السافاك الإيراني غاضبا كثيرا على الإمام موسى الصدر بسبب دعمه للفصائل الفلسطينية المناضلة، وكانت السفارة الإيرانية في بيروت غير راضية عن نشاطاته هناك، لذا كانت تثير العقبات دائما في طريقه .. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ بعض الناشطين السياسيين الإيرانيين مثل السيّد جلال الدين الفارسي، لم تكن له علاقة جيّدة مع خالي ويقوم دائما بنشر البيانات المناوئة للإمام الصدر ويرسلها إلى الإمام الخميني في النجف الأشرف .. بعد أن تعرف السيّد أحمد على خالي عن كثب، طلب منه أن يرد على هذه الاتهامات من خلال رسالة يبعثها إلى الإمام الخميني، فرفض خالي ذلك قائلا: " لا أرغب في الدفاع عن نفسي، وأظن أنّ الإمام الخميني يعرف الحقيقة تماما لأنّه لم يقطع عني مساعداته ودعمه حتى الآن".

تقول السيّدة رباب الصدر أخت السيّد موسى مبينة واحدة من وسائل حرب السيّد : " من أجل مواصلة النشاط الخيري، نحصل على المساعدات والمال من التجار الإيرانيين. آية الله الخميني، أيضا، كان يساعدنا دائما، على الرغم من المواقف المخربة لبعض المغرضين، ومنها أنّه في أحد الأيام ذهبوا لأحد علماء إيران وكانوا يقولون: إنّ السيّد موسى يحضر مجالس النساء وهنّ بلا حجاب، ولكنّهم كانوا على دراية وتعقل، ولم تنطل عليهم هذه المكيدة، وقالوا: السيد الصدر عالم مجتهد ويعرف كيفية مواجهة المسائل الاجتماعية".(ذكرياتي،الدكتورة فاطمة طباطبائي، ط١/٢٠١٤،دار المؤرخ العربي، ص١١٥).

وذكرنا في الفصل المتعلق بعلي شريعتي موقف السيّد مرتضى العسكري من السيّد موسى الصدر حين علم بتأبينه إياه في بيروت بمناسبة أربعينيته، فاستشاط غضبا، وثار ثورته العامرة ضد السيّد موسى، معلنا أنّه سوف يقف أمام الله لأشد الحساب لما قام به من تأبينه لفاسق، بل لو أبّن أكبر فاسق في الأرض لكان أهون من تأبينه لعلي شريعتي الضال والكافر بخاتمية الرسول (ص) !!. ثم يبين بكل وضوح رأيٍ بأنه تمنى لو كرّم أكبر فاسق على وجه الأرض ولم يكرم أكبر عدو للدين وأهله، وبالطبع المقصود بالعدو الأكبر هو علي شريعتي!! وهو (أي الصدر) بذلك يؤيد ويرسخ تحريف الإسلام باحتفائه بعلي شريعتي، لأن شريعتي يعد رمزا لتحريف الإسلام .. أرسل السيد مرتضى العسكري رسالة إلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين بتاريخ ١٨ رمضان١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧/٩/٦م جاء فيها: " بسمه تعالى .. فضيلة الحجة الشيخ محمد مهدي شمس الدين المبجّل .. السلام عليكم ورحمة الله .. وبعد، توالت عليّ اعتراضات وأخبار وشكاوى واستفسارات كتبا وشفاها ومخابرة عن احتفاء السيد موسى الصدر في موت علي شريعتي الكافر بخاتمية سيّد الرسل والمحرّف لشريعته، وأنه أخيرا أقام باسمه وباسم مجلسه مهرجانا تأبينيا كبيرا له، ومن قبل أقام الفاتحة على روح آخرين. وليته كان قد كرّم أكبر فاسق على وجه الأرض ولم يكرّم أكبر عدوّ للدين وأهله، فإنّ عمله هذا تأييد منه لتحريف الإسلام وتوسعة نطاق الإضلال، ولست أدري ماذا أعدّه للجواب يوم الحساب و "إنا لله وإنا إليه راجعون" . والسلام

مرتضى العسكري الثلاثاء ١٨ رمضان١٣٩٧هـ".

" في يوم ما ألقى أحد الأشخاص كلمة انتقد خلالها زيارة سماحة السيّد موسى الصدر إلى بعض الدول التي سماها بالمشركة وقد كان السيّد حاضرا في المجلس وقال : " إنّ الإسلام يرفض الأشخاص الذين يدّعون بأنّهم مسلمون ولكنّهم يزورون بلاد الكفر والإلحاد في وقت عصيب". وحين نزل المحاضر من على المنبر احتضنه خالي بمحبة، فاندهش الناس من

تصرف السيّد، وهمس المحاضر لخالي في أذنه قائلا : " بتصرفك هذا أبطلت مفعول كل نقدي لك". (ذكرياتي،الدكتورة فاطمة طباطبائي، ط١/٢٠١٤،دار المؤرخ العربي، ص١٠٩).

نقد السيد لدخوله الكنيسة ومن ورائه الصليب:

في محرم ١٣٨٥هـ: مايو ١٩٦٥م قام السيّد موسى الصدر بزيارة النجف الأشرف، وكان من المقرّر أن يشرع السيّد الصدر في بحث (المنطق الذاتي)، إلا أنّ انشغاله بابن عمّه وأمور أخرى حال دون ذلك. لقد كان السيّد الصدر وأصحابه مقتنعين بالعمل من أجل إقامة دولة إسلامية، بينما كان السيّد موسى الصدر يطرح العمل الإصلاحي من خلال العلاقة مع الدولة. وقد سئل السيّد الصدر كيف يؤيد السيّد موسى وهذه قناعاته، ولماذا لا يتم الحديث معه كي يتبنى قناعاتهم حول إقامة الحكومة الإسلامية، فطلب منهم أن يناقشوه وعقد جلسة غير رسمية لهذا الغرض طالبا من طلابه مناقشة السيّد موسى. وكان السيّد موسى في تلك الفترة قد افتتح الصوم في الكنيسة وظهر في الصور والصليب فوق رأسه، وكان هذا محل انتقاد شديد وجهه إليه الشيخ محمد جواد مغنية، فطلب السيّد الصدر من الشيخ علي كوراني أن يسأل السيّد موسى عن ذلك.

ومن هنا عقد اجتماع في منزل السيّد الصدر ضمّ إضافة إلى صاحب الدار كلا من السيّد موسى الصدر والسيّد إسماعيل الصدر ومجموعة من العلماء اللبنانيين، كان منهم: السيّد عبد المحسن فضل الله، الشيخ علي كوراني، الشيخ حسين كوراني، الشيخ حسن ملك، الشيخ حسن دبوق، وقيل الشيخ صبحي الطفيلي، كما كان السيّد محمد باقر الحكيم حاضرا. وبعد تناول طعام العشاء عقدت جلسة استمرت ما يقرب من ثلاث ساعات ونصف راح الشيخ علي كوراني وبتوجيه من السيّد الصدر يوجه فيها الأسئلة إلى السيّد موسى الصدر حول ما أنجزه في لبنان، وما قام به من أجل الشيعة في هذا البلد. وراح السيّد موسى الصدر يشرح كيف كان وضع الشيعة في لبنان عندما حلّ فيهم، وكيف استطاع أن يخلق جوا دينيا عاما. هنا تدخل السيّد الصدر قائلا :" جزيت عن هذا العمل خير الجزاء، ولكنّ هذا لا يكفي"، فسأله السيّد موسى : "وما المطلوب؟" فأجابه السيّد الصدر : " أن تبدأ بإنشاء جيل عقائدي".

وأثناء الحديث طرح الشيخ علي كوراني موضوع افتتاح السيّد موسى الصدر الصيام من الكنيسة، وسأله: " ما هو المبرر لتفتتح الصوم المسيحي وصورتكم تحت الصليب؟! "، فأجاب السيّد موسى : " أنا أذهب إلى الكنيسة لأبيّن المفاهيم الإسلامية"، فتدخل السيّد الصدر ليعلق قائلا :" إنّ المفهوم الإسلامي الذي يخرج من الكنيسة يخرج ذليلا، يجب أن يخرج المفهوم الإسلامي من المسجد ويذهب إلى الكنيسة"، وكان السيّد الخوئي قد دافع

عن موقف السيّد موسى الصدر بأنّه قادر على تشخيص المصلحة في ما يفعله. (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٢، ص٢٥).

تشويه صورته لدى الإمام الخميني:
في ديسمبر ١٩٦٥م (شعبان - رمضان/ ١٣٨٥هـ) رجع السيّد موسى الصدر من إيران مارا بالعراق حيث زار السيّد محسن الحكيم في الكوفة. وقد تحدّث السيّد موسى عن رحلته هذه إلى صحيفة (الحياة) في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٥/١٢/٢٩م. وقد قام السيّد موسى الصدر بزيارة السيّد الخميني وطلب منه الإذن له بصرف سهم الإمام في المصارف الكثيرة التي تثقل كاهله، ولكنّ السيّد الخميني لم يأذن له إلا بمقدار منه (لعله النصف). وقد تأذّى السيّد موسى الصدر من هذا الأمر مرجعا إيّاه إلى ما كان يقوم به جلال الدين الفارسي والسيّد الحسيني من تشويه صورته لدى السيّد الخميني. (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٢، ص٥٤).

الشيخ علي كوراني يتهم السيّد موسى الصدر بالعمالة لأمريكا:
كان الشيخ علي كوراني على خلاف سابق مع السيّد الصدر حول السيّد موسى الصدر، حيث كان الشيخ كوراني يتهجّم عليه ويتهمه بالعمالة لأمريكا، وكان السيّد الصدر يتحمّل منه ذلك، وكان يرى أنّ السيّد موسى الصدر مخلص وله أسلوبه الخاص في العمل السياسي. (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٢، ص١٤٩).

إرسال الشيخ علي كاشف الغطاء إلى لبنان لتحجيم نفوذ السيّد موسى الصدر:
في هذه الفترة قرّرت الحكومة أن ترسل الشيخ علي كاشف الغطاء إلى لبنان، وقد جنّدت السلطة كافة وسائل الإعلام لتسليط الضوء عليه بوصفه مرجعا أعلى للطائفة الشيعية، الأمر الذي صدم بعض الأوساط الشيعية اللبنانية وحملها على الاستياء. كما تقرر اغتيال السيّد موسى الصدر بفعل التحركات التي قام بها ضدّ حزب البعث، وكان ذلك تمهيدا لتعيين الشيخ علي كاشف الغطاء رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى. (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٢، ص٢٣٤).

وعلى الصعيد نفسه يذكر الباحث الشيخ صادق النابلسي ما يشبه ذلك، إذ يكتب : " ولا نريد نحن، أن نخوض في كل ملابسات تلك المرحلة التي أصيبت بعطل هائل وهبوط مروع في أخلاقيات الاختلاف، بقدر ما نريد أن نشير إلى أبعاد هذه العلاقة المأزومة بين الصدر والعديد من رجال الدين الذين كانوا يتوسلون إيجاد ذرائع للنقد والإدانة والاحتجاج، والتي تؤكد على التحولات المدوية في نظام القيم، وعلى وجود ضغوط داخلية وخارجية هائلة من أجل إيقاف حركة الصدر ودوره السياسي والاجتماعي وبالتالي إحباط مشروعه بالكامل. في هذا المجال كلفت السفارة الإيرانية في بيروت تظهير وتسويق شخصية علمائية (السيّد حسن الشيرازي) لها مواصفات الإقناع، ولباقة المنطق، وقوّة الحجة، والإرث الأسري والعلمي الكبير لتواجه "خطر الصدر"! . في وقت كان الجهد منصبا أيضا لنمو شخصيات دينية أخرى من التي سمح لها أن تزور إيران بتدبير وتسهيل من المخابرات الإيرانية للحصول على مساعدات مادية ودعم معنوي بهدف منع نفوذ الصدر من التمدّد. ذكرت صحيفة كيهان في عددها رقم ١٠٢٩٣ أنّ أربعة من علماء الشيعة اللبنانيين التقوا في طهران ممثلين سياسيين وروحيين عن الحكومة الإيرانية. والعلماء هم: السيّد أحمد شوقي الأمين، والشيخ سليمان يحفوفي، والسيّد محمد علي الحسيني، والشيخ يوسف عبد الساتر.
ولم يعد يخامر هذه الشخصيات شك في أنّه صار من الواجب مواجهة الصدر لاعتبارات شتّى، والاستعانة بحكومة الشاه أفضل طريقة لأخذ قسطها في إدارة الاجتماع الشيعي وتوفير مواقع نفوذ لها مقابل الصدر. والمفارقة أنّ زيارات الشخصيات الشيعية إلى إيران لم تلقَ معارضة جدّية في الأوساط العامة داخل الطائفة" (قيام طائفة ... أمّة موسى الصدر، صادق النابلسي، ط١/٢٠١٤م، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت، ص ١٠٩).

موقف الشيخ مغنية من موسى الصدر:

لم تكن العلاقة التي تجمع بين الشيخ محمد جواد مغنية وبين السيّد موسى الصدر طيبة، وكان مغنية على خلاف مع السيد موسى، ولم يكن يميل له، ويتبنى أفكاره وتوجهاته، هذا الموقف منه تجاه موسى الصدر أثر في كثير من العلماء وطلبة العلوم الدينية.
في نهاية هذا العام(١٩٧٢م) وصل إلى سمع الكاتب الكويتي عبد الصمد تركي - وكان ملحقا ثقافيًا في السفارة الكويتيّة في بغداد - ما يدور من تسقيطٍ وتضعيفٍ في حقّ السيّد موسى الصدر وحركته، ومما سمعه أنّ السيّد محمّد باقر الصدر لم يكن من المؤيّدين لحركة السيّد موسى الصدر بل كان ينتقدها. وأراد عبد الصمد تركي معرفة حقيقة موقف السيّد الصدر(رحمه الله)، سيما وأنّه كان من المتأثّرين بكتاباته. وفي هذا المجال، جاء (ع.ج.س) - وهو من أصدقاء تركي - إلى السيّد محمّد الحيدري وطلب منه معرفة حقيقة موقف السيّد الصدر من السيّد موسى الصدر بعد أن

روى له دواعي طلبه. وهنا، قام السيّد محمّد الحيدري بإطلاع السيّد الصدر على الأمر، فقال له: «إنّني أؤيّد حركة السيّد موسى الصدر ومنهجه، وهو مورد ثقتنا وتقديرنا». وكان الشيخ أديب حيدر من مريدي السيّد موسى الصدر، إلا أنّ الشيخ محمّد جواد مغنيّة زعزع له قناعته. فتوجّه إلى السيّد الصدر سائلا: «أنا لديّ شبهة حول العمل مع السيّد موسى الصدر»، فأجابه: «أنت تعرف تكليفك، ولكن أقول لك: آغا موسى كان لا يترك صلاة الليل، ولو بقي في النجف لكان مرجعا للشيعة بلا منازع» (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٢، ص٥١٠).

موقف حزب الدعوة من موسى الصدر:

" يُشار إلى أنّ علاقة السيّد موسى بحزب الدعوة الإسلاميّة في لبنان لم تكن جيّدة وكان لديه حساسيّة منهم، وكان يتعرّض لمجموعة من الانتقادات حول انفتاحه على الناس كافة. وقد أحال السيّد الصدر(رحمة الله)ذات مرّة بعض كوادر حزب الدعوة على السيّد محمّد الغروي ليدبّر لهم لقاءً مع السيّد موسى الذي استقبلهم بريبة نتيجة حساسيّته منهم. وقد نقل له السيّد الغروي ذات مرّة الإشكال الذي يوجّهه إليه بعضهم حول احتوائه فلانا وفلانا في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى مع عدم تديّنهم، فأجابه بأنّه يعيش على الأرض ولا يعيش في السماء، والذين على الأرض ليسوا ملائكة" (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق،أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج٣، ص٨٤).

وضع السيّد موسى الصدر في لبنان:

أما وضع السيّد موسى الصدر في لبنان فهو مظلم، وعاش في وطنه كالغريب بين أوساط العلماء، مضطهدا، ومحاربا من جميع الاتجاهات، ومن مختلف التوجهات العلمائية، لم يفهمه أحد منهم، ولم يتقبله واحد من هذه الفئة، حتّى السيّد فضل الله لم يستطع تقبله عند رجوعه للبنان، ولا بقية العلماء، فأصبح يتحرك وحده في وسط بيته .. لقد تكالب عليه علماء لبنان جميعا، المحافظون والإصلاحيون، التقدميون والرجعيون، الثوار وأصحاب التقية، اختلفوا في كل شيء لكنّهم على السيّد موسى اتفقوا، وتعاهدوا على محاربته وإسقاطه بأي شكل من الأشكال، حتى اتهموه بالعمالة، فهو في نظرهم عميل لأمريكا تارة، وأخرى لسوريا، وطورا للمكتب الثاني في الجيش اللبناني !!. ولم يعد لهؤلاء العلماء من شغل في لبنان إلا الكيد للسيّد موسى الصدر، والترصد ومراقبة تحركاته ومشاركاته وأقواله.

" قدّم الصدر، الذي أظهر الكثير من البراعة في أساليب عمله، نموذجا جديدا لتعاطي رجل الدين مع هموم وقضايا الإنسان الدينية والسياسية، ولفت الأنظار إليه بسبب جدّة وحداثة وجرأة الطروحات التي حملها ودعا لها خصوصا داخل الاجتماع الشيعي الموصول بجملة من التقاليد الدينية والثقافية المركبة. الأمر الذي عرّضه لشتى أنواع النقد والتحريض، ولألوان قاسية من المحاربة والطعن سياسيا واجتماعيا، بهدف إسقاطه والحد من دوره الذي طغى حتى على أدوار علماء كبار كان لهم تأثيرهم ونفوذهم على شريحة واسعة من أبناء الطائفة.

وقد أثار نجاحه الميداني الشعبي حفيظة العديد من رجال الدين الشيعة الذين لم يتمالكوا أنفسهم إزاء شخصية ذات بعد مسرحي وإيقاع سريع، كسرت السياق العام القائم على (الدروشة) والكسل السياسي والثقافي. ويلاحظ أنّ بعضهم قد عمل على تصيّد بعض مسلكياته في قلب مجراه ومسعاه الحي والمغامر، فنظر إلى أفعاله وكأنّها مرض سرطاني ينتشر في جسم البيئة الشيعية الهاجعة على ما هو مركوز ومتوارث. وتحوّلت بعض محطاته السياسية والثقافية، كإلقائه محاضرة في كنيسة، أو إقامة احتفال في قاعة سينما، مناسبة لإثارة الشكوك وتأليب الناس وتجييشهم ضدّه.

لقد شكلت مثل هذه الأفعال من قبل الصدر وسط فضاء اجتماعي وثقافي غائم، مادّة اشتعال بين الصدر والمعترضين على أدائه. والصدر الذي بدا ساخطا من هذا الواقع، عبّر في حوار مع قائمقام صور آنذاك (حليم فيّاض) عن بعض تفاصيل المعاناة تلك التي وصلت إلى حد التهتك الشخصي فيقول :" أنت تعلم أنّ بعض رجال الدين قد بدأ بمناوأتي والكيد لي، لا لسبب إلا لأنّ الجمهور بدأ يلتف حولي. إنّهم لا يتورعون عن خلق الشائعات المغرضة ضدي، وإنّهم بالطبع سيجدون مادة للهجوم عليّ من خلال هذا الاحتفال الذي سيقام في قاعة السينما. إنّهم سيقولون بكل صفاقة إنّ السيّد موسى قد وقف على الخشبة التي تقف عليها الأرتيستات".

في الواقع، إنّ الصدر وجد نفسه في مواجهة مجموعة من رجال الدين يكتنفها هاجس المناوأة لكل ما هو جديد، وتشعر بمزيد من التحفظ إزاء أفكاره المزدحمة بالمعاني الثورية والتصعيد الإيديولوجي وترفض العديد من مواضعاته الدينية والثقافية والسياسية، وذات مقدرة على تهييج الرأي العام الشيعي وتخويفه من (فاشية دينية!) يقودها موسى الصدر. ومن هؤلاء الذين كانوا الأكثر تهيؤا للوقوف في وجه حركة الصدر ومشروعه المحافظون التحفظيون المنطوون على قوقعة روحية وعلمية باردة ورتيبة، وأنصار حزب الدعوة وعلى رأسهم السيّد محمد حسين فضل الله، الذين لم

يعجبهم في البدء الأسلوب التدامجي بين الأطر السياسية والثقافية في مشروع الصدر.

وقد اعترف السيّد فضل الله بنفسه لاحقا أنّه لم يقدّر بعض طروحات الصدر التي اعترض عليها وتبيّن فيما بعد صحتها، خصوصا بعدما تدنّت جاذبية استقطابهم للنّاس، ومنهم أيضا المتحلقون حول الزعامات الشيعية التقليدية الإقطاعية، وأنصار التيارات التقدمية والعلمانية الذين لم يستسيغوا الخطاب المذهبي للصدر لكونه يعمّق الانقسامات الوطنية ويعزّز من القيمة المفترضة والمعلنة للطائفة، وغيرهم من رجال الدين ممن لم يرق موسى الصدر لذائقتهم وحصول تحوّل غير مأمول في المنطق الداخلي الذي يحكم طبيعة عملهم. وقد عزا (وضّاح شرارة) مخالفة رجال الدين للصدر وامتناعهم عن السير على قافيته وإيقاعه، إلى عمله السياسي في المرتبة الأولى " فهو توسّل غاياته بالعمل السياسي الجماهيري، وبتكثير العلاقات ونسج الروابط التي تجعل منه وسيطا وطرفا في شبكة الروابط اللبنانية والإقليمية".

وبهذا المعنى جاء هذا التنازع ليطيح بممكنات التطور الهادئ للاجتماع الشيعي، ونما تيار الشك في صفوف رجال الدين، وتحفز للاحتجاج على شرعية وصحّة الطريق الذي يمشي فيه الصدر. وشيئا فشيئا نمت حركته النشطة والدؤوبة المتصلة بكل شؤون الحياة، تأثيرا وتوجيها وإعدادا تربويا ونفسيا وفكريا، وتعاظم دوره الذي تميّز بالوضوح والمباشرة والمقاصدية في سياق مشاركته في العديد من الفعاليات والمناسبات الدينية والسياسية، وبرز حضوره الطاغي شاهدا على انفتاحه واندفاعه وجرأته، ودالا بقوّة على انتشارية واختراقية تياره الوافد على واقع شيعي راكد نال نصيبا وافرا من الإحباط والسأم. ولأنّ النجاح الذي حققه الصدر لاحقا، هو في الدرجة الأولى انعكاس لمستوى تطور الوعي المجتمعي والديني في الأوساط الشيعية، ولكون الأطراف المشيخية المناهضة للإمام بدأت تشعر بالانكشاف والقلق على فقدانها الساحة الثقافية والاجتماعية جرّاء هذا التحول في المزاج الشعبي الشيعي لصالح الصدر الذي أثار غيظها وغيرتها، وأبان تأخرها عن حركة الواقع والتاريخ وصار من المستحيل عليها بعدما فقدت مرجعيتها أن تعود إلى وضعها السابق. وقد قاد هذا الأمر، وعلى قاعدة (والضدّ يظهر حسنه الضدّ) إلى حملة تطاول وتشهير غير مسبوقة ضد رمز ديني شيعي، وإلى أزمة مكشوفة مع ثلة من رجال الدين يتبعون هذا الزعيم الإقطاعي أو ذاك.

وكان فريق آخر من علماء الدين المناوئين للصدر والمرتبطين بالخط الأسعدي والإقطاعي وراء الكثير من الحملات التي رفعت من حدّة الإشكاليات الدينية والسياسية داخل الساحة الشيعية، حتّى آل الوضع بين

الطرفين إلى صراع مكشوف لم تنحصر أسبابه، في الاختلاف حول مفاهيم فقهية وفكرية أو أساليب العمل السياسي، وإنّما حول مرجعية الشيعة الأساسية. فقد حاول هذا الفريق أن يضع الصدر تحت ضغط الشائعات، ونجح إلى حد ما بإلصاق تهمة العمالة به، تارة للمخابرات الأمريكية، وأخرى للسوريين، وطورا للمكتب الثاني في الجيش اللبناني. فيما كان الفريق المحسوب على اليسار، وأبرز وجوهه السيّد هاني فحص والسيّد محمد حسن الأمين، ينطلق في خصامه للصدر من اختلاف المقاربات حول الثقافة المذهبية والقضايا الوطنية والقومية. وقد كان لتأييدهما علمنة المجتمع اللبناني في مجتمع متموّه بسيطرة الإيديولوجيات العقائدية والدينية انعكاسه على العلاقة مع الصدر التي أخلت خللا كبيرا في شكل الصراع الداخلي السياسي وشروطه ومظاهره، ونوّعت في محتوياته الطائفية والاجتماعية.

وهنا لابدّ أن نشير إلى أنّ الصراع بين منهج يعلي من شأن تصدي رجل الدين للشؤون العامة، وبين منهج آخر يريد لرجل الدين أن تقتصر مهمته على طقوس عبادية روتينية وأعمال اجتماعية محدودة وقضايا روحية تتعلق بالحياة الآخرة، يستند في الواقع إلى منطلقات فقهية اجتهادية وتقلبات دلالية في فهم النصوص الدينية، وهو صراع انطوى على الكثير من المداخلات والجدالات والتوقفات في المسيرة العامة لعلماء الدين الشيعة. ولاشك أنّ العهود القديمة التي انطبعت صورتها العامة بطابع (التقية) والحذر من الخوض في المجالات السياسية، كان لها الأثر السلبي الكبير لجهة اتساع التفكير التحفظي والاختبائي والسكوتي الذي يطلب من رجال الدين إخلاء الساحة السياسية لأهلها، والمهادنة، والتعايش مع الواقع، والابتعاد عن المواجهة المفتوحة مع الحكومات المنصوبة لئلا يزيد ذلك من النقمة والتعسف على الشيعة. وقد وقف الصدر في وجه هذا المنهج الملتبس الذي يتعامى عن الموقف المبدئي للإسلام الرافض للخضوع لإرادة القوّة أو لأي إيديولوجيا أخرى.

وقد دخل الصدر في نقاشات فكرية وسياسية مع معظم رجال الدين الشيعة ممن كانوا ينظرون إليه بحذر أو كانوا يعتقدون أنّه ينفذ مشروعا خارجيا مشبوها. وقد نجح الصدر باستمالة العديد منهم، وقد يكون أبرزهم الشيخ سليمان اليحفوفي الذي أصبح نائبا لرئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في دورته الأولى، والشيخ محمد مهدي شمس الدين والشيخ عبد الأمير قبلان.

موقف الصدر من العلماء المناوئين له:

لم يقف السيّد موسى الصدر إزاء هذه الحملات، وهذا الهجوم، وهذه الحملة الشرسة ضده من علماء لبنان مكتوف الأيدي، ولم يكن من النوع الذي يؤمن بمبدأ من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، بل كان شديدا معهم، عنيفا في نقده لمسلكهم، وكان كالجبل الشامخ، لا تهزه أية عاصفة ،ولا يؤثر في توجهه وثورته أي ناقد أو محارب أو مخالف، أيا كان هذا المحارب والمخالف، فرادى أم جماعات. حتى وصل إلى مرحلة الكفر بهؤلاء العلماء، كما يعبر في واحد من خطاباته، بل يذهب إلى أبعد من هذا حين يرى بأنّ الإيمان بالله والإيمان بهؤلاء العلماء ورجال الدين في لبنان لا يجتمعان معا !!. حتّى يتخذ قراره بأن يذهب ويعمل ويكافح دون الالتفات لهؤلاء المعممين،فالالتفات لهم يقتل الروح ويثبط من الهمم، ويحطم القيم والمبادئ الحقة.

وفي هذا المجال يبدي جرأة غير عادية في نقد رجال السلك الذي ينتمي إليه، ويدفعه إلى ذلك حرصه على المنطلقات والقيم التي يجب أن تكون مصونة من كل عيب وزيف وتحريف. فيقول :" أحيانا الإيمان بالله يستدعي الكفر برجال الدين في بعض الظروف عندما يكونون منحرفين عن الخط الإلهي".

وبالتأكيد إنّ الصدر كان بسخطه هذا، يرمي إلى بناء الشخصية الناقدة التي تتحمل مسؤولية التصويب من جهة، وإلى إبراز الصورة النقية لرجل الدين (القدوة) الذي يتهيّب النّاس من ورعه وعلمه وذكائه ونضج منطقه وسلامة بصيرته من جهة أخرى، معلنا بوضوح رفضه لنموذج رجل الدين الذي ارتضى المنهج الانعزالي، ويظهر أنّه بلا حول ولا طول، لا يعترض ولا يثور وإنّما يقاد ويُتاجر به بغرض " .. أن يجعلوا من إيمان الناس إيمانا تجريديا". والصدر يسعى أن يحقق " .. إيمانا يرتبط مع الالتزام بالقيم والمبادئ، يعني إيمان فاعل ..". لأنّ " .. درب محمد لا يفرّق بين عبادة الله وبين خدمة الإنسان".

والصدر بهذا المعنى يقف فكريا ومنهجيا إلى جانب التوجّه الذي كان قد انطلق به الإمام الخميني في ستينيات القرن الماضي حين دعا رجال الدين الشيعة إلى تعريف " .. الناس على الإسلام لكي لا تتصور الأجيال القادمة أنّ رجال الدين قد جلسوا في زوايا النجف وقد يدرّسون أحكام الحيض والنفاس ولا دخل لهم بالسياسة". وعلى هذا الأساس يمكن إدراك اهتمام الصدر الشديد بأصول الدين ومحتواها الاجتماعي والسياسي، وبفلسفة العبادات، حيث بيّن من خلال محاضراته التي ألقاها على طلابه في معهد الدراسات الإسلامية وعلى كوادر حركة أمل، وفي أكثر من مكان، الذهنية المطلوبة في فهم العبادة وموقعها وفلسفتها. وتوقف مليا أمام

اضطراب الفهم إزاءها حين يتم حصر الأعمال العبادية في الإطار الفردي الضيّق من دون أن يكون لها آثار في رفع مستوى الحياة الاجتماعية، وفي تطوير نظام الحياة للإنسان، ملقي باللائمة على أولئك الذين يعملون لتكريس هذا الخط الفكري والديني عند رجال الدين.

ففي خطاب له في الكلية العاملية في بيروت قال الصدر : " .. أولئك الذين يدعون رجال الدين أن يبقوا تحت عمائمهم وفي مساجدهم، أولئك الذين دبّروا المؤامرات، أولئك الذين حبسوا ربهم في الكنائس والمساجد، وأرادوا أن يُترك لهم الميدان والساحة لطغيانهم ولعتوهم ولعبثهم بمصالح الناس. كلا إنّ الله موجود في المسجد، وهو موجود في السوق، وهو موجود في ساحة الحرب . ورجال الله .. يجب أن يهتموا بكل هذه الشؤون .. ". إنّ الصدر أراد أن يؤصل بعدا آخر للعقيدة وللعبادة بإعطائهما قوّة المضمون الاجتماعي، وفاعلية الوقوف في وجه الظلم وسلطة الجور والحافزية في منع الفساد وأنواع الانحرافات والاستغلالات المختلفة. وفي سياق متصل، وضع الصدر رجل الدين أمام مسؤوليات صميمية لا يمكن الانفكاك والتفلت منها، وأراد أن ينأى به عن الممارسة المهنية الوظيفية حتى تبقى له استقلاليته المعنوية فيقول :" نحن لسنا قادة سياسيين وإنّما خبراء بشؤون الدين نهتم بالقضايا الاجتماعية إلى جانب واجباتنا الدينية". (قيام طائفة ... أمة موسى الصدر، صادق النابلسي، ط١/٢٠١٤م، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت، ص ١٠٦ – ١١٥). مع شيء من التصرف.

الشهيد مطهري:

متى ما يُذكر الشهيد مطهري الآن، هنا لدينا في الخليج، أو في إيران فإنّ الجميع، علماء وفقهاء ومراجع وعوام وطلابا ينحني لذكره إجلالا واحتراما، ويعدّه من العلماء والمفكرين البارزين، ومن المناضلين الثوريين ضد الشاه، وأنّه علم بارز من أعلام الإسلام والتشيع، قلّ أن يجود الزمان بمثله، وأنّه مخلص للدين والعقيدة، وثائر رباني .. هذا هو الانطباع العام عن الشهيد مطهري لدى الجميع الآن، ولكني على يقين بأنّ الغالبية لا يعلمون وليس لديهم دراية وتتبع بأنّ الشهيد مطهري تجرع الغصص، وتكبد الآلام، وتلقى السهام، وقذف بشتى أنواع التهم، وقد أسقطوا سمعته في الوحل، وذلك في آخر أيامه قبل انتصار الثورة، حاربه أقرانه من العلماء والمعممين، ورجالات الحوزة، واتهموه بحب الدنيا والركون للراحة وعدم الثورية والتكالب على المال، وذلك على إثر ذهابه لطهران، مدرسا في جامعتها، وحاربه شباب طهران الثوري، وعاملوه بازدراء بعد أن كان فيهم العالم والمربي والهادي، حتى وصل الأمر بهم أن يستهزؤوا به كلما مرّ بهم في طريق، واتهموه بأنّه من أتباع النظام الملكي ومن أعوان الشاه، وبات في الأخير يصلي في مسجد نائي، ولا يصلي وراءه إلا عدد الأصابع من الشيوخ والكسبة، وهو الذي كان ملء السمع والبصر، والعالم الأول في طهران كلها، والأستاذ الجامعي البارز .. وأنا على يقين ولا يغالبني الشك على الإطلاق، بأنّه لو كنا في طهران في تلك الفترة لعاملنا مطهري بالمعاملة نفسها، ولم نتفهمه، أو نحمله على أي محمل من الخير، ولن نتوانى عن الإسراع في تسقيطه وتوهينه ومحاربته، بعنوان محاربة العلماء الخانعين، والقابعين في الجامعات بين الكتب والأقلام والمحاضرات، في الوقت الذي تسقط فيه الدماء والضحايا والشهداء، هذا هو منطق الإيرانيين وقتها، ونحن لن نختلف عنهم قيد أنملة، ولدينا من الواقع عشرات الأمثلة والشواهد المعاضدة لحالة مطهري، ولو كان الشهيد مطهري يعيش في أوساطنا الآن لعاملناه بالمعاملة نفسها التي عامله بها الإيرانيون، ولكان مصيره بيننا كمصيره هناك في تلك الحقبة.

وللتعرف على مظلومية الشهيد مطهري، ومدى الظلم الفادح الذي تعرّض له في أخريات حياته - بأبي وأمي هو - فليقرأ الصفحات القادمة بتأن وتأمل عميقين، وليأخذ منها العبر والعظة، وليقر بعدها بأنّ في تاريخنا الشيعي صفحات سوداء، ملطخة بالوحشية والقسوة والظلم، والافتراء على العلماء الربانيين، وكلها عنف وحقد بغيض يعمي القلب، ويقسي الروح، كان ضحيتها أمثال الشهيد مطهري، والذي لم يتفهمه الناس إلا بعد انتصار

الثورة، وذلك بعد أن رأوا الإمام الخميني يوليه المنصب تلو المنصب، ويعلن ثقته المطلقة به، ويبين مكانته ودوره الخطير في انتصار الثورة، وأنّه كان اليد اليمنى للإمام، وكان موضع ثقته وسرّه، ويأخذ بكل أقواله ومشورته واقتراحاته، عندها علم الإيرانيون بحق أنّهم كانوا في جهالة وعمى، وأنّهم كانوا قساة في حقه، وظلموه شر ظليمة، ورموه بما لا يستحقه، وهو صابر محتسب في جنب الله، حتى نال الشهادة في آخر حياته، والتي بوّأته مكانا باسقا في الثورة وفي نفوس الإيرانيين خاصة، ومحبيه عامة، وأعاد له الاعتبار الذي فقده في حياته، وذاق بدلا منه المرارة والغصص :

" من الضروري هنا معرفة علل ما تعرض له الأستاذ في الأعوام الأخيرة من حياته وحتى بعد استشهاده، من اتهامات وجّهها إليه البعض بنزوعه إلى الراحة والدعة واجتناب المواقف الثورية الحادّة والتهاون في النشاطات السياسية. ومثل هذه الاتهامات لم تتعرّض لها الشخصيات التي لم تصل إلى مستوى الأستاذ حتى من جهة النشاطات الثورية الظاهرية، والتعرض للسجون والمراقبة. وقد اتضح مما تقدم أنّ هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحّة، وأوضحنا سابقا أنّ إقدام الأستاذ على النشاطات الثورية الظاهرية والحادة ارتبط على الدوام بمدى مناسبتها لجهوده في الحفاظ على الهوية الإسلامية النقية للثورة.

وحسب تصورنا فإنّ لهذه الافتراءات علّتين أساسيتين ترتبطان كلاهما بموقعية الأستاذ وجهوده للحفاظ على نقاء الأساس العقيدي للثورة وحفظهما من الأفكار الأجنبية الدخيلة المغطاة بصبغة إسلامية ظاهرية.

ويصادف إلى هاتين العلتين علل أخرى - لسنا هنا بصدد تفصيل الحديث عنها - كإخلاصه العميق واجتنابه التظاهر، أو كحدّة ذكائه ويقظته ونظرته الثاقبة المؤدية إلى عدم إعطاء ذرائع للعدو. وبعبارة أخرى التزامه بالتقية بمعناها الحقيقي وهو العمل بصورة يستطيع معها توجيه أكبر وأكثر الضربات للعدو مقابل أقل الخسائر.

أما العلة الأولى من تلك العلتين مورد البحث، فترتبط بموقف الرفض الحازم الذي تبنّاه الشهيد المطهري تجاه أفكار المنظمة الموسومة بـ "مجاهدي الشعب الإيراني". فالأستاذ هو أول شخصية - بعد الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)- أدركت انحراف تلك المنظمة فكريا، وامتنع عن تأييدها ودعا الآخرين إلى عدم التعاون معها. ونشير هنا إلى أنّ الشهيد المطهري وصف منظمة "مجاهدي الشعب" بـ "منافقي الشعب"، وذلك في رسالته التي أرسلها إلى الإمام الخميني في عام (١٣٩٨هـق/١٩٧٨م) وسيأتي نصّها لاحقا.

لقد كان الأستاذ المطهري في تلك الأعوام، الشخصية الوحيدة - داخل إيران - التي اتخذت ذلك الموقف الصريح والحازم الواضح في رفض أفكار هذه

المنظمة إذ إنّ الآخرين إمّا كانوا ميّالين لها أو متجاهلين، ولم يدركوا موقف الأستاذ الحازم إلا بعد أن تبنّت المنظمة صراحة الأفكار الماركسية وتخلت صراحة عن الإسلام، أو بعد أن انتصرت الثورة الإسلامية في إيران واتّضحت حقيقتها بالكامل. وقبل ذلك لم يكن الكثير من المتصدّين والعاملين في نشاطات الثورة قادرين على إدراك انحراف هذه المنظمة النفاقية وهذا الأمر كان يؤذي الأستاذ ويجعله يعاني آلام الإحساس بالغربة.

وبسبب موقفه الحازم هذا تعرّض الأستاذ المطهري لسهام الاتهامات وشتّى الافتراءات من قبل أعضاء هذه المنظمة وأنصارها، فاتهموه بالنزوع للدعة والراحة وعدم الثورية. وهذه الاتهامات من السهل أن يصدقها الشباب المنبهرون بالمنظمة وعملياتها العسكرية التي كانوا يرون فيها برهان ثوريتها، وكانوا يستدلون بمغالطة هي "أنّ هذه المنظمة، هي منظمة ثورية والمطهري يعارضها فهو إذا ليس ثوريا".

أما العلة الثانية التي سبّبت اتهام الأستاذ "باللاثورية" على الرغم من سابقته الجهادية الطويلة سياسيا وثقافيا، فهي ترتبط بالانتقادات التي وجّهها الأستاذ لبعض آراء وأفكار المرحوم الدكتور عل شريعتي. وبطبيعة الحال نحن هنا لا نعتبر منظمة "مجاهدي الشعب الإيراني" والمرحوم الدكتور شريعتي من سنخية واحدة، كما أنّ انتقادات الأستاذ لتلك المنظمة ولآراء الدكتور شريعتي لم تكن من سنخية واحدة. فالمطهري كان يعتبر أفكار المنظمة ماركسية المنبع، في حين أنّه كان يعتقد بوجود أفكار صحيحة إيجابية لدى المرحوم شريعتي وأخرى سلبية غير صحيحة، وأفكار هذين الطرفين وأساليبهما متباينة أساسا.

مع الدكتور علي شريعتي:

في عام (١٣٩٨هـ. ق/١٩٧٨م)، وضمن سياق الاختلافات والمناقشات التي شهدها الشارع الثقافي في إيران حول المرحوم الدكتور شريعتي وأفكاره، صدر بيان موقع من قبل الأستاذ المطهري والمهندس بازركان. نبّه إلى الجوانب والنقاط السلبية في آثار المرحوم شريعتي ضمن الإشارة إلى الجوانب الإيجابية والتأكيد على احترام شخص الدكتور، ونشير هنا إلى أنّ المهندس بازركان قد سحب توقيعه بعد بضعة أيّام، ونصّ البيان هو:

" بسم الله الرحمن الرحيم

نظرا لأنّ القضايا المتعلقة بالمرحوم علي شريعتي مازالت منذ مدّة مثار لغط وتضييع لأوقات فئات عدّة وانصرافها وانشغالها عن القضايا الأساسية والضرورية، وكذلك نتيجة لاستغلال الأطراف المشبوهة والمغرضة لهذا

اللغط. لذا رأينا نحن الموقعَين على هذا البيان ضرورة التباحث حول الموضوع، وبعد سلسلة من اللقاءات والتباحث بهذا الشأن واتحاد وجهات النظر إلى درجة كبيرة توصلنا إلى أنّ الواجب الشرعي يستلزم منا إطلاع الرأي العام على آرائنا المشتركة بهذا الصدد - بصورة إجمالية أولا ثم تفصيلية فيما بعد - إيمانا منّا بواقع أنّ أكثر الذين أصيبوا بعدم وضوح الرؤية وإتلاف الوقت نتيجة ذاك اللغط هم من طلاب الحقيقة.

فقررنا إيصال آرائنا إليهم خصوصا لتكون وسيلة خير لإنقاذهم من ذاك الضياع والعودة إلى التزام عرى الوحدة والألفة بين المسلمين، ويقين أنّ في ذلك رضا الله تعلى. والمناط فيما يشاع بشأن المرحوم شريعتي أو يرتبط بميوله وقناعاته واستنباطاته وآرائه حول القضايا الإسلامية، هو ما تعكسه آثاره وكتاباته. ونحن لنا علاقة بشخصه إضافة إلى اطلاعنا على آثاره وكتاباته، واستنادا إلى هذه المعرفة، نؤمن بعدم صحّة ما يُنسب إليه من ميول (..)، كما لم تكن له آراء غير إسلامية تجاه أي من أصول الدين "توحيدا ونبوّة ومعادا وعدلا وإمامة".

ولكن وبحكم أنّ دراسته وثقافته كانت غربية، ولم تسنح له الفرصة الكافية والمجال اللازم للتحقيق الوافي في مجال المعارف الإسلامية، حتّى أنّه كان أحيانا يجهل بديهيات القرآن والسنّة والفقه والمعارف الإسلامية - لذلك وعلى الرغم من الازدياد المستمر في معلوماته في هذا المجال نتيجة لجهوده المكثفة، فإنّه وقع في أخطاء كثيرة لا ينبغي السكوت عنها فهو نوع من كتمان الحق ومصداق لقوله تعالى: " إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للنّاس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون".

واستنادا لما تقدّم وبملاحظة إقبال الشباب الواسع على كتب المشار إليه، وانتباهه هو نفسه إلى أخطائه بعد التذكير المستمر له بشأنها من قبل أشخاص نزيهين، وبعد اتّساع معلوماته، وتوكيله أحد أصدقائه وكالة مطلقة لإصلاحها.

وبالتوكل على القوّة الإلهية ومع حفظ احترامنا لشخصيته وتقديرنا لخدماته وجهوده في جذب الشباب إلى الإسلام، فقد قرّرنا بيان آرائنا حول محتويات مؤلفاته وآثاره في منشورات بلغة صريحة ودون مجاملة أو التفات إلى انفعالات الأنصار المتعصبين أو الأعداء المغرضين.

نسأل الله العون والتسديد، شاكرين لجميع الأفراد الذين يعينونا على ذلك من غير قصد سيء وعبر اطلاعنا على آرائهم المدعمة بالبراهين. والسلام على من اتبع الهدى" .

بعد نشر هذا البيان انهالت على الأستاذ المطهري سهام شتى التهم والافتراءات حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالتعاون مع النظام الملكي. ومفهوم انّ من الصعب على بعض الشباب الثوري المتحمس، الاقتناع بموقف الأستاذ هذا، فهم كانوا يرون في المرحوم الدكتور شريعتي الكثير من مظاهر الثورية وبسببها عشقوه. لذا كان صعبا عليهم التحرر من عواطفهم والتصديق بأنّ بعض أفكاره لا تنسجم مع المفاهيم الإسلامية، بل إنّ هذه الحالة شكلت أرضية مناسبة لاقتناعهم باتهامات اللاثورية التي روّجها الأنصار المتعصبون لشريعتي ضدّ الأستاذ المطهري.

فأولئك الشباب كانوا يتعاملون مع هذه القضية وفق المغالطة التي أشرنا إليها وهي أنّه مادام الدكتور شريعتي إنسانا ثوريا، والأستاذ يعارض أفكاره، إذا فالأستاذ المطهري ليس ثوريا!!

لكن الأستاذ المطهري لم يرهب هذه الهجمات التي شنّها ضدّه أمثال أولئك الذين كان لبعضهم ارتباط بالنظام الشاهنشاهي، واختار الصمت تجاهها دون أن يسمح لها بالتأثير عليه، فلقد كان مؤمنا بعمله ذاك ويراه واجبا شرعيا يساهم عبر القيام (به) في دفع مسيرة الثورة وفق أحكام ومفاهيم الإسلام النقي" (حكايات وعبر من حياة الشهيد مرتضى المطهري، حيدر بلال البرهاني،ط١/٢٠١٢م، دار الحوراء، بيروت، ص ١٧٦ وما بعدها)

المؤرخ الإيراني المعروف الشيخ علي دواني ينقل لنا في كتابه "ذكرياتي مع الشهيد مطهري" ملامح تلك الفترة العصيبة التي مرّ بها الشهيد مطهري، وذاق من خلالها الأمرين، وتجرع العلقم من أبناء مذهبه وأنصار الأمس .. ينقل معاينة ومشاهدة، حيث رافقه وعايشه واجتمع به، وشاهد العنف المرير الذي واجهه، حتى قال في الأخيرة بتحسر وألم لما رأى ما يُصنع بمطهري من قومه : " شعرت في تلك الليلة بالحرقة والألم الشديد لحال ذلك الأستاذ الكريم، بما يحمله من معارف وعلوم، لقد كان أكثر شعوري بالأذى نابعا من حالة عدم الثبات والاستقرار السائدة بين أوساط الحوزويين، وغياب التنظيم عن المجتمع الروحاني (المؤسسة الدينية وأوساط الحوزويين والعلماء) بحيث يصل الحال إلى ما آل إليه وضع شخص مثل الشيخ مطهري".

يقول الشيخ علي دواني مؤرخا وبأمانة وتجرد:

"في وقت تفاقم مسألة حسينية الإرشاد كنت واقفا في عصر أحد الأيام في الشارع القديم الذي ينتهي إلى "شميران" مقابل شارع "دولت" بانتظار سيارة التاكسي التي تقلني إلى بيتنا في شارع "أميرية".

مرّت أمامي سيارة سوداء من الطراز القديم، ثم توقفت على بعد خطوات من المكان الذي كنت أنتظر فيه. رأيت من يشير إليّ بالصعود من داخل السيارة السوداء، كان الذي يشير معمما يجلس في المقعد الخلفي. تأملت، فإذا هو الشهيد مطهري، كان يهم بالذهاب إلى مسجد الجواد. صعدت في السيارة، وبعد تبادل التحية والسلام، سألته: ما هي الأخبار الجديدة؟ أجاب: لم أنم الليلة الماضية! عدت لسؤاله: لماذا؟ قال: هل رأيت الكتاب الذي أصدرته منظمة "بيكار" وأعلنت فيه انفصالها عن منظمة "مجاهدي خلق" ؟ أجبت: كلا.

لقد شغلني في السابق وأثار قلقي كتاب "٢٣ سنة" حيث ظلّ يشغل فكري لمدّة، والآن هذا الكتاب، والذي أراه أنّه يجب كتابة رد على الكتابين معا، لكي لا يؤدي تأثيرهما إلى إضعاف الروحية العامّة للشباب وتشويش أذهانهم.

وذكر لي الشهيد مطهري أنّ من بين ما جاءت على ذكره مجموعة "بيكار" في هذا الكتاب، قولهم: لقد انفصلنا عن إسلامكم الجامد المتيبّس، ولم يعد إسلامكم بعد الآن قابلا للترقيع، وغير ذلك مما يشابهه. كان الأستاذ متألما بعمق، يأخذه الأسى من كل جانب.

عند هذه النقطة من الحديث كنا قد وصلنا إلى مقابل حسينية الإرشاد. كان الوقت عصر يوم الجمعة، فاجتمع عدد كبير من الشباب عند الحسينية، وجلس جمع آخر منهم عند سلالمها، وكانت جماعة ثالثة وقوفا، فيما كان بعضهم يمرّ من باب الحسينية داخلا إليها أو خارجا منها.

وبين مجموعات الشباب هؤلاء، كان عدد من الطالبات الجامعيات والنساء المحجبات اللائي يرتدين العباءة "الشادور" أو يكتفين بغطاء الرأس حجابا (وهنّ الأكثر) يمررن من بين الشباب وإلى جوارهم، إلى داخل الحسينية. توقفت سيارة الشهيد مطهري عند تقاطع للطرق قريب من الحسينية، فما كان من الشباب وقد رأوا الشهيد مطهري إلا أن أخذوا يضحكون وهم ينظرون إليه، بضحكة ذات مغزى. ثم أخذوا يتبادلون الإشارة فيما بينهم لينبه بعضهم بعضا للنظر إلى الشهيد مطهري وهو جالس في سيارته متوجها نحو مسجد الجواد. كانوا في الواقع يسخرون من الشهيد مطهري ويومئون إلى أنّه هرب من الدكتور وترك الحسينية وأخذ له موقعا في مسجد الجواد. كانت الضحكات تأتي أحيانا بصوت عال وتبدو متصنعة!

نظرت إلى الأستاذ الشهيد الذي كان بدوره ينظر إليهم، فوجدته متألما جدا، فقد كان ينظر إليهم وإلى حركاتهم للحظات، ثم يدير وجهه عنهم بهدوء وينظر للحظات أمامه. كان واضحا أنّه غير مرتاح في داخله ويشعر بالألم الشديد. عندما تحركت السيارة وتجاوزت التقاطع، التفت إليّ متسائلا: لا أدري إذا كنتَ قد انتبهت إلى الشباب أمام الحسينية، وهل

لاحظت كيف كانوا ينظرون إليّ، ويسخرون مني ؟ أجبت حتى لا أزيد من ألمه: أجل، إلى حد ما.

قال: أنا الذي جئت بعلي شريعتي هذا وبوالده إلى طهران بعد أن كانا في ضائقة مالية شديدة (فعليّ كان قد جاء للتو من أوربا ولم يكن لديه شيء، أما والده فقد كان يعيش بألف تومان شهريا فقط، يتقاضاها كراتب تقاعدي) لكي يحاضرا في حسينية الإرشاد ويكتبا المقالات، ويكون ذلك بمثابة معونة لتحسين وضعهما المالي، ويكون لهما في الوقت نفسه دور في جذب الشباب أكثر إلى دائرة الدين والمذهب.

بيد أنّهما رتّبا حالهما مع المشرفين على الحسينية وسارا معهما، وسلكا نهجا انتهى إلى أن أترك الحسينية، وفي الوقت نفسه أن يجرؤ الشباب الديني على أن ينتهك حرمة أحد الروحانيين (العلماء) ويتعاملوا معه بمثل هذه الطريقة، وقد كان حتى الأمس ينظم البرنامج التبليغي في الحسينية، ويقوم بجذبهم إليها!

وصلت السيارة إلى جوار مسجد الجواد في ساحة "٢٥ شهريور" (٧ تير حاليا) وعندما همّ الأستاذ بالنزول سألني: أين تذهب؟ هل تريد الذهاب إلى البيت؟ قلت: نعم، فتوجه إلى سائقه قائلا: أوصل الشيخ دواني إلى بيته وعد. قلت: كلا، دعني أستفيد من الفرصة، وأنزل معك لأداء الصلاة، ثم أعود إلى المنزل. دخلت إلى المسجد فتلقاني السيد (مرتضا يي فر) بالسلام، وما أن رآني حتى قال: أيها المؤمنون تهيأوا للصلاة، وبعد الصلاة سيرتقي الشيخ دواني المنبر للخطابة. وبدوري أبديت استعدادي لذلك. كان المصلون يتراوح عددهم بين (١٧- ١٨) مصل، أكثرهم من عمّال البناء، حيث كانوا يشتغلون في بناية بقرب المسجد، وكان بالإضافة إليهم عدد من النساء يقفن في الصف الخلفي خلف الستار.

أقمنا الصلاة جماعة بصفين قصيرين أغلب من فيهما من المؤتمين هم عمّال البناء، وذلك خلف شخص هو أستاذ في جامعة طهران، وعالم بارز، وأستاذ سابق للفقه والفلسفة في الحوزة العلمية بمدينة قم، ومؤلف كتاب "أصول الفلسفة والمذهب الواقعي" الذي كان له ذلك الصدى الواسع في داخل البلد وخارجه، أجل لم يصلّ خلفه أكثر من صفين صغيرين !

اعتليت المنبر بعد أن كان نصف الجمع قد انصرف مغادرا المسجد، في حين كانت حسينية الإرشاد في هذا الوقت بالذات تضج بأمواج الطلبة الجامعيين إناثا وذكورا، من طهران ومن المدن، والدكتور علي شريعتي يتحدث في الحضور ساعتين وثلاث ساعات دون أن يشعر أحد بالتعب.

قرأت مجلسا مختصرا يتناسب مع الجماعة الموجودة، التي لم أعرف منها إلا رجلا وامرأة رأيتهما عند باب المسجد، في حين لم أكن أعرف البقية، وقد بدا أنهم لا علاقة لهم بالأوضاع، وعندما انتهيت من المجلس ونزلت عن المنبر توجهت إلى الشهيد مطهري متسائلا: شيخنا، ما هذا المآل الذي آلت إليه الأمور؟

أجاب: ذهبت جميع المحاولات سدىً، فقد حاولت أن أجمع بين العلماء المعارضين والمتقدسين الجامدين، وبين الشباب المتطرف الجانح وحركات شريعتي، والهيئة الإدارية للحسينية فلم أفلح، والأدهى من ذلك والأمرّ أنّ جميع المشكلات عادت لتعصب برأسي!

فالمتقدسين يرون أنّني السبب في جلب الدكتور شريعتي والضجّة التي ثارت حول حسينية الإرشاد. والشباب المتحمس الحادّ (المتطرف) ذهبوا مما سمعوه إلى أنّني لا أوافق الدكتور شريعتي على تطرفه، لذلك أصبحوا في جبهة معارضة لي. أما الهيئة الإدارية في الحسينية فقد اختارت أن تماشي الأجواء السائدة وتأخذ بنظر الاعتبار ميول الجمع الكبير الذي يحضر الحسينية، وبذلك التزمت موقف الجانب الآخر.

أضاف الشهيد مطهري قائلا: من جهة أخرى تمّ اعتقال الشيخ أكبر رفسنجاني وهو في السجن الآن، أما الشيخان باهنر ومفتّح فقد اكتفيا بالنظر إليّ (يُفهم من التعبير أنّ موقفهما لم يكن فاعلا لصالحه في أزمة الحسينية) فيما اختار البعض الآخر أن ينسحب جانبا حينما رأى الطقس غير ملائم وأخذ يتهرب من التزام موقف مؤيد لي!

إزاء ذلك كله اضطررت للمجيء إلى مسجد الجواد، فهو يضم مكتبة مهمة، وفيه قاعة باذخة، لممارسة التبليغ، لذلك خشيت أن يقع بيد غير أهله، أو أن يضع النظام يده عليه، فقمت بالتزامه وأداء الصلاة فيه، وهكذا رحت أقضي وقتي مع هذا القدر من الناس الذين رأيتهم، حتى يقضي الله أمره. أجل، يتجمع في أيّام الجمعات فقط عدد من الأصدقاء ومن تلامذتي، فأقوم بإلقاء درس عليهم، وفي الليل يصعد بعض الأصدقاء المنبر ويلقون درسا في التفسير. نمضي على هذا البرنامج حتى يقضي الله بأمره.

استطرد الأستاذ مطهري: أما الحسينية والضجّة المثارة من حولها فقد تركناها لأهلها. فإن وجهوا لك الدعوة في بعض الليالي لصعود المنبر في هذا المسجد، فأجبهم، كما كنت تفعل في السابق، حيث كنت تأتي أحيانا وتجيبهم لطلبهم، وارتق المنبر في جمع أكبر لنستأنس بك أكثر.

شعرت في تلك الليلة بالحرقة والألم الشديد لحال ذلك الأستاذ الكريم، بما يحمله من معارف وعلوم، لقد كان أكثر شعوري بالأذى نابعا من حالة

عدم الثبات والاستقرار السائدة بين أوساط الحوزويين، وغياب التنظيم عن المجتمع الروحاني (المؤسسة الدينية وأوساط الحوزويين والعلماء) بحيث يصل الحال إلى ما آل إليه وضع شخص مثل الشيخ مطهري، إذ انهار التجمع الذي كان يؤطر الأعضاء الأصليين لحسينية الإرشاد، وتلاشت جماعة "حديث الشهر" وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه فعلا!

أما مصير الشباب فقد صار بيد "الأفندية" (غير المعممين) وهؤلاء لا يملكون بالتأكيد رؤية دينية نقية بنسبة مائة بالمائة، بل هم يتقلبون بين إفراط وتفريط وحب وبغض. قلت مع نفسي: الله وحده هو العالم بما ستؤول إليه الأمور وتنتهي إليه من نتيجة" (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ط١/١٤١٧هـ مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، تعريب: خالد توفيق، ص ٨٧ - ٩٣).

اتهام مطهري بحب الدنيا والتكالب عليها:

تنوعت السهام التي تلقاها الشهيد مطهري بعد أن استقر في طهران، ذكرنا بعضها أعلاه، وهو المتعلق باتهامه بعدم الثورية وركونه للدعة، وذلك على إثر نقده لمنظمة مجاهدي الشعب، ونقده لعلي شريعتي، لم يكن أثر الاتهام سهلا على رجل بوزن الشهيد مطهري، فكان يتألم أشد الألم، ويحترق من الداخل وهو يسمع ويعلم ويصله ما يقوله ويردده الكثيرون من اتهامه بالسلمية القاتلة، والخنوع، والدعة .. وزاد من آلامه وغصصه أنّه بدأ يسمع من بعض العلماء والمعممين من يتهمه بحب الدنيا والركون إليها، والاتجاه للعيش الرغيد بدلا من الزهد والقناعة والبساطة، خصوصا وهو عالم وفقيه ومفكر ومنظر إسلامي للقيم الدينية في أوساط الشباب، بينما هو على خلاف ذلك كله، ولا أدلّ من ذلك أنّه يعيش في العاصمة في منطقة تعد من أرقى المناطق، وفي منزل كبير، وبعيدا عن المساكين والمعوزين، والأحياء الفقيرة .. كل هذا كان يسمعه الشهيد مطهري ويتألم، ويكاد أن يموت كمدا وحزنا لما آل إليه سلوك المؤمنين والعلماء من سوء الظن، واضطهاد المفكرين الإسلاميين .. وكانت نقطة سوداء في تاريخ التعامل مع مطهري في تلك الحقبة من قبل الشباب الثوري، ومن قبل مجموعة من أقرانه العلماء.

هو بنفسه يتحدث حول ملابسات سكنه، واتخاذه هذا المنزل في هذا الحي من طهران دون سواه من الأحياء الفقيرة، وذلك عندما جاءه أحد المعممين من العلماء، ويدعى الشيخ آشوري، صاحب كتاب "التوحيد" والذي أثار ضجّة في إيران عند طباعته ونشره، جاءه هذا الشيخ في بيته، واستقبله الشهيد بكل حب وأريحية، فوجده ثائرا وناقدا ومحتجا على سلوكه باتخاذه المنزل الفاره، بدلا من السكن في أوساط الفقراء من أبناء طهران.

يقول متألما الألم كله:

" أنا أعرف هذا الشيخ، فهو شيخ وقح من أهالي مشهد، كان يصعد المنبر أحيانا في مسجد "قبا" بعد أن ينهي الشيخ مفتّح صلاته. أضاف: يبدو من حاله أنّ هناك من يدفعه ويشجعه على وقاحته أكثر. لقد جاء إلى بيتي مرّة، وقال أريد أن أتحدث معك نصف ساعة، بيد أنّه جلس وتحدّث أكثر من ساعة بحديث أثار قرفي وانزعاجي. مما قاله لي بوقاحة: لا يجب أن تسكن في منطقة "قلهك" في شمال المدينة، وإنّما عليك أن تسكن في جنوب طهران عند ساحة "شوش" بين النّاس العاديين.

أجبته: شيخنا، إذا ذهبت للسكن في منطقة "شوش" مع كثافة أعمالي والتزاماتي (العلمية والفكرية) فلا بدّ وأنّي سأصاب بالجنون لما تشهده ساحة "شوش" من ضجيج وأصوات واكتظاظ بالمارة. ثم هل تراني لا أعرف شخصيا تكليفي حتّى تأتي أنت وتعيّن لي تكليفي وما يجب أن أفعله؟" (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ط١/١٤١٧هـ، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، تعريب: خالد توفيق، ص ١٢٠).

وفي موضع آخر من الكتاب نرى الشهيد مطهري يبث شكواه وألمه من كلام الناس عنه، واغتيابه وغمزه ولمزه، كل هذا بسبب مسكنه الذي اختاره في طهران، مما يدلل على أنّ هذا الحديث كان يقض مضاجعه، ولا يجعله ينام الليل، من شدّة ألمه وحسرته .. ثم يبين كيف بنى بيته، ومن أي مصدر مالي استطاع من خلاله السكن فيه، وكلها قروض وديون من بعض المؤمنين!!

ألا ما أقسانا وغلظتنا وشدّة عنفنا وسوء تعاملنا مع علمائنا الأبرار، نجلهم ونبجلهم ونقدسهم متى ما رحلوا عنا، وفي حياتهم وهم أحوج ما يكونون لمن يتفهمهم ويساندهم ويحترمهم أو على الأقل يحملهم محمل الخير ولا يسيء الظن بهم، ترانا نحمل الرماح ونطعنهم بها، ونوجه السيوف ونقطعهم بها قطعة قطعة كما حدث للشهيد مطهري واخجلتاه !!

يقول الشيخ علي دواني حول هذه النقطة القاتلة في حياة الشهيد مطهري:

" ذهبت في أحد الأيّام لرؤية الأستاذ الشهيد في بيته، البيت الذي كان قد أتمّ بناءه للتو، وهو يتكون من طبقة واحدة، وقد فرشت غرفته الخاصّة ببساط أسود فاتح، حيث كان يتفرغ فيها للمطالعة والكتابة. حين رآني إلى جواره كانت الفرصة سانحة لكي يبثّ ما يعتوره من هموم ويعاني من آلام. قال لي: انظر شيخنا، بعد عمر طويل، استطعت أن ابيع بيتي الصغير الكائن في شارع "دولت" وأبني مكانه هذا البيت، الكائن هو الآخر في شارع "دولت" ولكن في مكان أهدأ من المكان السابق. أكثر ما كنت أؤكد عليه هو توفير مكان هادئ، بحيث أستطيع أن أنصرف بهدوء بال للبحث والمطالعة والكتابة. لقد

تركت عملي في كلية الإلهيات، كما انصرفت عن التزاماتي الأخرى، بأمل أن أتفرغ لكتابة شيء.

أضاف: إنّك تعرف جيدا أنّ الإنسان حين يمضي سنوات مديدة في العمل، يكون قد تأهل للتو لتدوين أفكاره وتنزيلها على الورق. هذا هو همّي وغمّي والهاجس الذي يشغلني. ولكنّهم أثاروا الضجيج ضدّي وبثّوا الأقاويل، وهم يقولون: لماذا لم يبن بيته في منطقة (شوش) جنوب طهران، ولماذا لم يسكن هناك؟ استطرد بعد برهة بانفعال وعصبية: أنا لم أبن بيتي من سهم الإمام أو من الاستجداء ونهب الأموال، بل أعطاني بعض الأصدقاء قروضا طويلة الأجل، فأضفتها إلى ثمن بيتي السابق، الذي بعته، وبنيت هذا البيت. لقد استطعت أن أسدّد حتّى الآن نصف القروض التي بذمّتي.

ثم قال بسرور: لقد حصلت في السنة الماضية (١٣٥٦، المصادف ١٩٧٨م) على مبلغ جيّد من حقوق التأليف. فقد بيعت مؤلفاتي بشكل جيّد نسبيا، كما أنّ بعضها طبع، وبعضها أعيد طبعه مجددا. وبهذه الوسيلة خفت مؤونة القروض التي بذمتي. بعد أن وقفت على قدمي معتمدا على نفسي، من دون أن أكون من أهل المحراب (إمام لصلاة الجماعة في المسجد) ولا من أهل المنبر، ومن دون أن يكون لي مصدر مالي ثابت، بل هناك ما يعود علي من مؤلفاتي وحدها وحسب، وهذا المصدر لا يمكن الاعتماد عليه بشكل كامل، لأنّه يعتمد على الأوضاع اليومية المتغيرة. بعد ذلك كله، وبعد استقراري في هذه الدار، وتفرغي للعمل، تراهم لم يتركوني أيضا، بل راحوا يتكلمون ضدّي بشكل منتظم، فهم لا يستطيعون أن يروا حتّى هذا المقدار منّي!

ختم الشهيد مطهري آلامه بالقول: من هذا الموقع رحت أتذكر البلاد الأجنبية، وكيف تبذل جهودها لترفيه حال علمائها وتيسير أمورهم، لكي تزيد من خلال تكريم هؤلاء، وحفظ هذه الذخائر العلمية، من إغناء رصيدها الثقلي، أمّا نحن فعلينا أن نعيش في إطار هذه الرؤى الضيّقة، والأعمال الجهولة " (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ص ١٤٠).

لم يقف الأمر معهم عند هذا الحد، ولم يكتفوا بتوهينه والحديث عنه بسوء بسبب بيته الذي بناه، وإنّما راحوا يغتابونه ويسقطون من مكانته هذه المرّة بسبب السيارة التي اقتناها، فبعد أن اشترى سيّارة ليست من الطراز الراقي، وإنّما هي بسيطة جدا، وقديمة، لتعينه في تنقلاته، وأنشطته المختلفة في أرجاء ومناطق طهران، لم يسلم من كلام النّاس حوله، وأخذوا يسلقونه بألسنتهم الحادة، وكأنما مكتوب على رجل الدين والعالم الحوزي أن لا يركب السيارة، ومحرم عليه ذلك دون بقية النّاس !! يقول الشهيد مطهري حول هذه النقطة بعد حديث طويل جدا، يهمنا منه العبارة الأخيرة:

" حصل أيضا في إحدى الليالي أن دعانا أحد الأصدقاء من أهل العلم، لتناول طعام العشاء في بيته، وقد كان أصبح للتو إماما لصلاة الجماعة في أحد مساجد طهران. كان المدعوون هم المجموعة نفسها، أي السادة: فلسفي، مطهري، محمد تقي جعفري، وأنا. لقد بادر أصحاب المسجد لشراء بيت جديد وجيّد لصديقنا الذي أضحى إماما للصلاة في المسجد، ووجيه المحلة، بالإضافة إلى سيارة من طراز "بيكان" كانت واقفة عند الباب أمام المنزل.

بعد أن تناولنا طعام العشاء في بيت هذا الصديق، وخرجنا، وقفت أنا والشهيد مطهري بانتظار سيّارة التاكسي التي تقلنا لبيوتنا. في هذه اللحظات القصيرة التفت لي الشيخ مطهري، وقال: انظر إلى هؤلاء النّاس عديمي الوفاء! لقد اشترى أصحاب المسجد لصديقنا هذا الذي كنّا الآن في بيته، منزلا وسيارة جديدتين، فهنيئا له ذلك، ولكن ألا يحسن بالنّاس أن يتوجهوا إلى القيم أيضا؟ إلى متى ينبغي أن يبقى النّاس بهذه البساطة والسذاجة؟

أضاف: لو أنّك أصبحت أشهر منبري وبلغت في ذلك الذروة، لبقيت رجلا منبريا وحسب، لا تزيد على ذلك أو تنقص. ولو أنّك أصبحت علامة الدهر، وكتبت أفضل الكتب، فإنّ النّاس لا تلتفت إليك ولا تعتني بك، ولا شأن لها بك! ولكن ما إن تصبح صاحب مسجد، وتكون إماما تؤم الناس بالمحراب، حتى تتحول - دفعة واحدة - إلى سيّد (وجيه)، وآية الله، وجناب السيّد! تُشترى لك الدار، وتبعث إلى الحج، ثم تراهم يشعرون بالفخر بتزويج بناتهم من ابنك، ويتقدمون إليك في خطبة ابنتك لأولادهم بامتنان وتواضع! وخلاصة الأمر تتهيأ لك جميع المزايا والأشياء، بالمسجد وإمامة الصلاة في المحراب، مع أنّ هذه الممارسة لا تحتاج إلى أيّة مؤونة ولا مؤهلات. أما أنا، وقد تملكت سيّارة قديمة، فهل تدري مقدار كلامهم ضدّي؟!" (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ص ١١٠).

حاشية البروجردي تثيره على مطهري وتألب ضدّه:

ذكرنا في النقطة الثامنة في الصفحات السابقة ما يشير إلى شيء من معاناة الشهيد مطهري مع حاشية البروجردي، وكيف حاربته تلك الحاشية المحيطة بالمرجعية، وكانت تعمل على تشويه صورته لدى البروجردي، حتّى ضجّ ولم يعد يتحمل البقاء في تلك الأجواء في قم، فقرر الهجرة منها والتوجه إلى طهران، وذكرنا التالي: "كما أنّ الشيخ مرتضى المطهري كان أحد الكوادر العاملة إلى جانب الإمام الخميني في سبيل إصلاح الحوزة ضمن ما عرضناه في النقطة السابقة. وبعد فشل المشروع، اتّخذ المقرّبون من السيّد البروجردي موقفا سلبيا منه، وكلما أراد توضيح موقفه كان يقابل برفض الاستماع إلى شهادته، فلجأ إلى كتابة رسالة إلى السيّد البروجردي يوضّح فيها الموقف ويعترض بأنّه في أي نظام تتمّ فيه

محاكمة المتهم غيابيا دون سماع شهادته ؟! وطلب من الشيخ حسين المنتظري تسليمه إياها شخصيا. ولما التقى به، رفض السيّد البروجردي استلامها، فكان من الشيخ المطهري أن انتقل إلى طهران، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته في الجامعة".

فرّ الشهيد مطهري من قم بعد أن بقي في أجوائها مدة تقرب من ١٧ سنة، وكان فيها أستاذا بارزا، وعلما يشار له بالبنان، ومشروع فيلسوف، وعالما ربانيا لا يمكن التفريط به بأي حال من الأحوال، هاجر قم عندما وجد أنّه محارَب من كل مكان، حتى من البروجردي نفسه، ولم يعد يطيق الجلوس معه أو النظر إليه، وصار لا يتحمل مشروعه الإصلاحي الذي كان متحمسا له، في سبيل بناء وتطوير الحوزة العلمية بقم.

وفي سبيل تفسير ذلك القرار الغريب والمفاجئ لعالم وفقيه ومفكر بوزن الشهيد مطهري، وفي سبيل تعليل قراره بالهجرة وترك أجواء الإيمان والعفة بجانب الحوزات والمدارس العلمية، وبالقرب من السيّدة المعصومة (ع)، إلى طهران بلد التيارات المتغربة والانحلال، وحيث البعد عن الدين، تلك الأجواء التي يفر منها العلماء الروحانيون، كيف بالشهيد مطهري يذهب إليها برجله؟! قيل في ذلك أكثر من تفسير، ولكن أقرب تعليل وتفسير هو ما ذكرناه أعلاه، وأكده أكثر من باحث، ويدل عليه أنّ الشهيد مطهري قد ذكره بنفسه معللا سبب هجرته من قم إلى حيث طهران في تلك الحقبة الصعبة .. يقول الشهيد مطهري متحدثا عن ذلك:

" بعد أن فشل البرنامج الإصلاحي للسيّد الخميني، في إصلاح الحوزة، أصبت بالضرر والأذى من قبل حاشية آية الله البروجردي، حيث كنت من تلامذة السيّد الخميني وأحد الناشطين الفاعلين في مجموعته. فقد عكست عني حاشية السيّد البروجردي صورة سلبية لديه، بحيث إنّ جميع جهودي في الالتقاء به مباشرة، وتوضيح الأمر له عن قرب، باءت بالفشل، فلم أستطع أن أتحدث إليه عن مسألتي. بل الأكثر من ذلك أنّي كتبت يوما رسالة ووجهتها إليه، قلت له فيها: في أية بقعة من العالم، يسود العرف الذي يُحكم على الإنسان غيابيا ؟ لقد قالوا لك عني أشياء، وذكروني بأمور، فابعث لإحضاري أمامك، حتى أوضح المسألة بما ينتهي إلى رفع سوء التفاهم. أعطيت الرسالة إلى الشيخ المنتظري الذي كان زميلا لي نتباحث معا الدروس، وكان يتردد على بيت آية الله البروجردي، وطلبت منه أن ينتهز الفرصة المناسبة ليعطيه الرسالة بيده دون واسطة. يقول الشيخ المنتظري: أعطيته الرسالة فرفض أن يتسلمها! إزاء ذلك اضطررت لترك قم والقدوم إلى طهران" (ذكرياتي مع الشهيد مطهري، ص١٢٩).

تحريض الإمام الخميني ضد الشهيد مطهري:

يبدو أنّ أعداء الشهيد مطهري من المعممين من الصعب عدّهم وذلك لكثرتهم، وكأنّما اتفقوا على محاربته بشتى الوسائل، وبمختلف الطرق، وعلى أكثر من صعيد، ومن بينها التوجه للمراجع، وكبار العلماء، وتأليبهم عليه، وتحريضهم ضدّه، ونقل الشبهات عنه، وذكر الهواجس التي تتعلق بشخصيته وفكره، ومن هنا قام بعض علماء طهران بإرسال شخص يمثلهم إلى الإمام الخميني في النجف، من أجل تشويه صورة الشهيد مطهري لديه، وذلك من خلال نقلهم ضرر كتاباته على الشابات، وعلى فتيات جنوب طهران العفيفات، وقد تمّ ذلك بزعمهم من خلال كتابه "قضية الحجاب"، الذي أدّى إلى أن تتجه النساء لنزع الحجاب، كما قالوا للإمام الخميني، فما كان من الخميني إلا أن أسكتهم وراح يدافع عن الشهيد مطهري وعن كتابه، ويؤكد بأنّ كتاب الشهيد مطهري "الحجاب" جعل الكثيرات من البنات السافرات يتجهن للحجاب الإسلامي الشرعي بسببه، وأنّه كتاب قيم ومفيد. كل هذا نقلا عن السيّد محمود دعائي والذي ينقل مباشرة وحضورا من الإمام الخميني نفسه. يقول:

" كنت يوما عند الإمام فقال: لقد أرسلوا شخصا من طهران لهدف واحد هو أن يأتي إلى هنا ويتحدّث ضدّ الشيخ المطهري والسيّد الشريعتي - وكانا كلاهما يومذاك على قيد الحياة - ، أنا أعرف السيّد المطهري وأعرف كيف يفكر، جاؤوني بكتابه "قضية الحجاب"، ووضعوه على منضدتي وقالوا: إنّ هذا الكتاب قد جعل نساء جنوب طهران أيضا ينزعن الحجاب! في حين أنني قرأت هذا الكتاب، فهو لم يجعل جنوب طهران خالية من الحجاب، بل إنّه جعل الكثيرات من السافرات يقتربن من الحجاب الشرعي" (حكايات وعبر من حياة الشهيد مرتضى المطهري، حيدر بلال البرهاني،ط١/٢٠١٢م، دار الحوراء، بيروت، ص ١٨٤).

الوسط العلمائي .. صراعات وتكفير وعنف

ما ذكرناه في الصفحات السابقة كانت فصولا مستقلة حول بعض الأعلام والعلماء في الفكر الشيعي، ممن تعرضوا لتكفير وإهانات لا حد لها، واستقبلوا من الشتائم والتوهين مما لا تتحمله حتى الجبال الراسية، فكيف بهم وهم أصحاب النفوس الوديعة ،والقلوب الرحيمة، والعاطفة الجيّاشة، أمثال الشهيد الصدر والسيّد محسن الأمين، والسيّد محمد حسين فضل الله وغيرهم ممن فصلنا الحديث عن قضاياهم ومعاناتهم والعنف الذي لا يمكن تصوره وتعقله، ولا يمكن بأية حال أن يصدر من الداخل، وهو الوسط الشيعي الذي نبت فيه لحم هؤلاء وفكرهم وعقيدتهم وكانوا من أبرز أعلامه ومفكريه وسدنة دينه ومذهبه، هذا العنف لم يتلقوه هؤلاء من العدو ولا من الخارج ولا من أعلام المذاهب الأخرى، ولا من الطوائف المناوئة، وإنّما من رجال قضوا معهم سنوات في ظل الحوزات، والمآتم الحسينية، ومساجد الله، وكانوا يعملون معا، سنوات وهم يدرسون ويكتبون ويتباحثون في الدين والعقيدة والرواية والتفسير وسيرة الأئمة الطاهرين (ع)، سنوات وهم يحاضرون في الناس حول آداب التعامل في الإسلام، وأنّ الدين والأخوة بين المؤمنين تقوم على حسن الظن والصفح والتسامح ومقابلة الإساءة بالإحسان والتواضع ومحبة المؤمنين وتوقير العلماء وخفض الجناح للمؤمنين كما كان يصنع رسول الله وهو من هو، ولكن كل هذا وكل الدروس والدراسات وسنوات العلم وتحصيله ذهبت أدراج الرياح، وسقطت القيم تحت القدم، وصار العلماء ذوي أسنان حادة، وقلوب سوداء (وعذرا على هذه الكلمة) ونفوس تمتلئ بالحقد والضغينة والمكيدة، على من كل هذا؟ ليس على عدو ينتقص من الدين، ولا على ملحد يتجرأ على العقيدة، ولكن على عالم مثله، وصار العلماء ينهش بعضهم لحم بعض، واشتعلت نيران الحقد ما بينهم، وصار كل واحد لا يأمن من الآخر، ويخاف منه، ويكيد بعضهم لبعض، ويؤلب العوام على العالم الآخر، حقدا وحسدا وتعاليا، والمصيبة أنّ هذا كله يفعل باسم الدين، والخوف على شريعة السماء، وحراسة العقيدة، وصارت تسفك الدماء، وتنتهك الأعراض، وتقتل الأنفس، وتحرق الديار، إي والله ودون وجه مبالغة، العالم ضد العالم، والمرجع ضد المرجع، والمعمم ضد المعمم، أبعد هذا نلوم العوام، والساقط من الناس، ونتحسف متى ما وجدنا واحدا من الجهال يتجرأ على مرجع أو فقيه أو عالم ؟! فالعلماء قبله تجرأ بعضهم على بعض، وكفر بعضهم بعضا، وكتبت فتاوى بالعشرات في التكفير والتسقيط والتفسيق، فلا لوم ساعتها على العوام من الناس، فالعلماء مشاعل وقدوة في كل شيء، فهم يتحركون تحت غطاء الدين والعمامة .. ولكن هكذا هي النفوس، متى ما تلبّست بلباس العنف والضغينة، ومتى ما لفظت من داخلها الرحمة والتسامح والتعقل، ولم تتخذ الدين الحق وسنة النبي (ص) وأهل بيته

الطاهرين مسلكا، فإنّه عند ذلك سيصدر منها ما يعقل وما لا يعقل، وما يمكن تصوره وما لا يمكن تصوره.

ونحن لا نلوم العوام، ولا الجهال من الأمة، فإنّ هؤلاء يغلب عليهم الجهل، والعصبية، وغياب الوعي والتعايش مع النبي والأئمة المعصومين (ع) دراسة وسلوكا .. هؤلاء الدين لعق على ألسنتهم، وفهمهم للدين لا يتجاوز القشور، والمظاهر، وتلعب بهم التيارات والأفكار والرموز في كل مكان، وتراهم مطية لكل راكب، لا يدركون من الدين لبه وجوهره، ولا يستنون بسنّة الأئمة (ع) .. أقول هؤلاء لا لوم عليهم، ونلاحظ من خلال التجارب كلها التي تعرض فيها العلماء بسبب اجتهاداتهم للتسقيط والتكفير والإهانات والسب والتجريح، كل ما جرى لم يصدر أول ما صدر من رجل من العوام، ولا من امرئ من السوقية والبسطاء من الناس، وإنما كان هذا العامي مشروعا لتحريض ولفتاوى ولبيانات ولخطب ونداءات من رجال دين، هؤلاء المعممون هم الشرارة الأولى لكل عالم تعرض للتكفير والتوهين والسب، إهانته وجرحه وتكفيره يتحمل مسؤوليته عالم مثله، ورجل دين كتب وألف وألب وحرض عليه، ومن ثم جاء الناس يتهافتون كالدواب، وينساقون كالماشية وراء تلك الكتابات ووراء تلك التحريضات والفتاوى ليضعوا هذا العالم في الوحل ويدوسوه تحت أقدامهم بلا رحمة، ولا احترام لمقام العلماء والمجتهدين والمفكرين الأحرار، الذين لا ينعقون مع كل ناعق، ولا وينساقون وراء كل فكرة وصيحة. وعلى القارئ أن يرجع للصفحات السابقة التي كتبناها، ليجد أنّ العالم لا يسقطه ويكفره أولا إلا عالم مثله، من أقرانه ومجايليه ومن المقربين منه، هذا إن لم يكن صديق وأخ الأمس. تجد فقيها يكتب في فقيه مثله بأنّه كافر !! إي والله، وعالما يدعو للهجوم على عالم بسبب الخلاف بينهما في المدرسة الفقهية والاتجاه في استنباط الأحكام، ومن ثم يهجم العوام عليه ويقتلونه هو وابنه بسبب تلك الفتوى، وفقيها يكتب أنّ محاربة الفقيه المعاصر له أعظم ثوابا وأجرا من الجهاد بالسيف في سبيل الله، وفقيها يرى بأن الكأس تتنجس لأنها لمست بيد الفقيه الآخر، وقس عليه عشرات الأمثلة الدالة على العنف والغلظة والشدّة في الاختلاف، هذا يحدث وأكثر منه في تاريخ العلماء ممن ينتمون إلى مدرسة أهل البيت (ع)، في الوقت الذي نعلن الحرب والعداء ونكتب الدراسات والبحوث ضد السلفيين، لم ؟ لأنهم اتخذوا تكفير الآخرين منهجا وسلوكا، ونأتي بعشرات الأدلة الدامغة في عدم جواز تكفير المسلم، وخطورة التكفير، وأنّ هذا منهج الخوارج، وإذا بنا نكون نسخة منهم، ولكن ويا للحسرة، لا نكفر الآخرين، وإنّما نكفر بعضنا، وهذا الفقيه يكفر ذاك، وهذا العالم يحكم بظلال ذاك، وهذا المعمم يفتي بأنّ كتب صاحبه صارت من كتب الضلال، ولا يجوز ابتياعها ولا قراءتها، ومن يقم بذلك فهو مأثوم، وسيكون مصيره عذاب جهنم !! وأحد الأعلام من الفقهاء يكتب كتابا عنوانه دال على تكفير

مخالفيه، إذ يسميه: (السلم المرونق في من تكفر وتزندق)، ويقصد بهم الأصوليين من العلماء، فهم في نظره كفار وزنادقة والعياذ بالله، ولم يسكت هؤلاء عنه وعن كتابه فأفتوا بجواز قتله، فهجم عليه الناس في داره وقتلوه شر قتلة هو وولده وبعض تلامذته وأنصاره !!!. وسوف ترى بأنّ مفردة كافر والكفر هي أكثر المفردات استخداما فيما بين الفقهاء والعلماء الشيعة المتخاصمين والمتصارعين فيما بينهم في الأفكار والاتجاهات العلمية، هذا الاختلاف يتحول إلى الحكم بالكفر وهو أعلى درجات الاتهام والردّة، ستراه صار أسهل ما يكون، والتلفظ به اتجاه الفقهاء والعلماء والفرقاء كلفظ الاسم تماما، لا فرق بينهما في ألسن المختلفين والمتخاصمين من المعممين والعلماء وحتى الفقهاء والمراجع العظام، والمدافعين عن بيضة الإسلام !!!.

ومن أجل أن يدرك القارئ ما قصدناه في الأسطر السابقة سوف نورد له عشرات النماذج للعنف الفكري الذي مارسه العلماء والمعممون قديما وحديثا، وخريجو النجف وقم والمعاهد العلمية المختلفة ، لم يتركوا وسيلة إلا امتطوها للنيل من بعضهم البعض، نماذج متنوعة من العلماء، فقهاء ومراجع وكتاب ومفكرين وخطباء ورجال دين، الكل انساق وراء العنف الفكري، ولم يتحمل الاختلاف، وتبادل وجهات النظر، وأنّ الله خلق الناس مختلفين ليكمل بعضهم بعضا، مواقف تدمي القلب، وتقرّح الفؤاد، وتجعل المرء في حيرة من أمره، مما يقرأ ويسمع ويتأمل في سيرة هؤلاء الأعلام، فلحظة تكفيره لأخيه العالم المؤمن أين كان دينه وورعه وتحرزه؟! وحين تحريضه الناس وتأليبه إياهم عليه وكتاباته أين كان تقواه وخوفه من الله لئلا يرمي مؤمنا ببهتان ؟! ليس هناك من تفسير لهذا إلا أن نتعامل مع العالم مهما كان هذا العالم ومنزلته ودرجته كما نتعامل مع بقية الناس، فهو بشر مثلهم، من الممكن أن يحقد ويحسد ويعادي ويذنب ويسقط في الرذيلة، فالمعاصرون ليسوا أفضل حالا من أصحاب بعض الأئمة (ع)، فبعض هؤلاء تمرد على الإمام المعصوم، وكفر به، وبعض هؤلاء سقط تحت إغراء المال، وبعضهم تحت إغراء السلطة، وكان بعضهم يحارب البعض الآخر، وكل منهم يقتل أخاه، وسقطت دماء وزهقت أرواح، كل هذا يصنع باسم الدين في الأخير .. يا للأسف !! أبعد هذا نستغرب متى ما سمعنا بأنّ أحد العلماء يكفر العالم الآخر المعاصر له؟! وننتفض غضبا إذا كتبنا ورصدنا ظاهرة التكفير الداخلي في البيت الشيعي من أجل التحذير وقلعها من الجذور ؟!!. ليكن القارئ على يقين، بأنّ المعمم بشر، وهو الشرارة في كل ظاهرة من ظواهر التكفير الداخلي لبعض أعلامنا، ولولا هذا العالم وكتاباته وبياناته وتحريضاته وخطبه ما كفر وأوذي كثير من علمائنا المعاصرين والماضين، فلولا العلماء ما أوذي الأمين ولا فضل الله ولا الصدر ولا شريعتي ولا الرشتي ولا الإحسائي ولا الخميني ولا يوسف البحراني ولا

غيرهم من القائمة الطويلة الممتدة، ما يتجرأ العامي على عالم معمم من علماء الدين الأجلاء المحترمين لولا تجرؤ عالم ومعمم عليه قبله، هذا مشاهد ومرصود ومسجل في صفحات التاريخ والبحث، فلا ينبغي الغضب وإنّما ينبغي التفهم والعمل على محاربة ظاهرة التكفير والعنف الداخلي التي تنخر في الكيان الشيعي، من أجل توحدنا وسمونا وأن نكون كالبنيان المرصود، يشد بعضنا بعضا في سبيل رضا الله، ورفعة دينه. وأرجو من القارئ أن يقرأ الصفحات القادمة بتمعن وتأمل وأن يجرد نفسه من كل شيء، إلا من التعقل وأخذ العبر ووزن الأمور بميزان الحق، ووضع كل شيء بمكانه، وما يستحقه، ومتى ما عرفنا الحق سنعرف أهله، ومتى ما عرفنا الباطل سنعرف أهله لا محالة كما قال أمير المؤمنين (ع)، وليمعن القارئ النظر ويتأمل بروية ويستقصي هذه الحوادث معنا، ليستنتج منها في الأخير بأنّها تنقدح من العلماء حين يعاصر بعضهم بعضا، فالمعاصرة تولد الحسد والشحناء وحب الزعامة والتصدر حتى يصل الأمر إلى التفسيق والتكفير والقتل أحيانا، بينما لا نجد كل هذه الشحناء والتكفير عندما يباعد الزمن بين العلماء والمجتهدين .. من الواضح أنّ المعاصرة عامل من أقوى العوامل للشحناء والعنف والتصادم والتحريض وغياب التدين والتعقل ما بين العلماء، للأسف هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة وإن كانت مرّة ومؤلمة وتجرح الفؤاد. يقول الشيخ بزرك الطهراني في ترجمة الشيخ رضا الهمداني: " .. وقد أصرّ علماء عصره على الطعن بالحجّة الجليل الشيخ هادي الطهراني حسدا لمكانته، إلا المترجم له ..". وفي ثنايا الأمثلة والشواهد ستجد أن هذا الفقيه ونعني به الشيخ هادي الطهراني لم يسلم منه الفقهاء، فهو يكفرهم، فما كان منهم إلا أن أصدروا الفتاوى في تكفيره، تكفير.. نعم، وليس تخطئة أو تسقيطا أو غيبة وتسفيها، هو يرى بأنّهم كفار، وهم يرون بأنّه كافر!! مما يعني أنّ العلاقة باتت في الوسط الداخلي لهذا الكيان قائمة على الحسد والتحزب والمكيدة والتكفير والدعوة للقتل والخصومة، وغيرها من ألوان الشقاق والتنابذ والتنازع. وستلاحظ أيها القارئ أنّ مفردة التكفير وكافر ستتكرر كثيرا أمامك، وسنبرزها لتسقط عليها عين القارئ وليتأملها.

" وإذا أوردنا من الروايات ما يُستفاد منه وجود خلافات بين العلماء، علت صيحات الاتهام بالوضع والتزوير والتحامل ... باعتبار أنّ لدى الناس مصادرات أوّلية قبلية حول الموضوع مفادها أنّ "العلماء لا يختلفون"، فكلما ورد خبر يفيد اختلافهم، حملوه على هذه الكبرى الأولية التي لا مجال لمسّها بحسب الظروف، باعتبارها أوّلية، فيتمّ طرح الخبر. وهذا شبيه ببحث المصادرات التي وقع في فخّه المنطق الأرسطي، الذي حسب أنّ التواتر يفيد اليقين لاعتماده على كبرى عقلية أوّلية مفادها "استحالة الاتفاق الدائمي"، إلى أن أتى دور السيّد الصدر الذي أرشد هذا المنطق إلى أنّ هذه

الكبرى هي بنفسها وليدة حساب الاحتمال، وأنّها بعدية لا قبلية، وأنّها حياتها تعتمد على مدى جود أو بخل الاحتمالات تبعا للدرجة الذي يوصل إليها تراكمها.

وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنّ إيماننا بقضية عدم اختلاف العلماء منوط بما يمنحه لنا الاستقراء، لا أنّنا نفترضها مصادرة من عندياتنا ثم نحاكم على ضوئها أعدادا هائلة من الاحتمالات المتراكمة التي تنازعها. ومن هنا، فإنّ جولة تاريخية ستوصلنا إلى ما يكاد يبلغ حد التواتر الإجمالي بوجود خلافات من هذا القبيل، علما بأنّ ما ينعكس في الكتب لا يعبّر بطبيعة الحال سوى عن جزء يسير مما كان يجري، خاصّة إذا لم يكن هناك قوّة إعلامية قائمة.

والخلافات التي نتحدث عنها ليست ناشئة فقط من الاختلاف في وجهات النظر المتعلقة بكبريات العمل السياسي والاجتماعي مثلا، لأنّنا نلمس توتر الأجواء حتى في مقام البحث العلمي، حتى أنّك تجد الشيخ صاحب (الجواهر) مثلا يطيل البحث كثيرا في بحث الوجوب العيني لصلاة الجمعة، ومما يقوله: " ومن مضحكات المقام دعوى بعض المحدثين تواتر النصوص بالوجوب العيني"، وكذلك قوله :" ولقد وقفت على جملة من الرسائل المصنفة في المسألة نسجوا فيها على منوال هذه الرسالة، وقد أكثروا فيها من السب والشتم، خصوصا رسالة الكاشاني التي سمّاها بـ (الشهاب الثاقب ورجوم الشياطين)، ولولا أنّه آية في كتاب الله لقابلناه بمثله، لكن لا يبعد أن تكون هذه الرسالة وما شابهها من كتب الضلال التي يجب إتلافها، اللهم إلا أن يرجح بقاءها أنّها أشنع شيء على مصنفيها لما فيها من مخالفة الواقع في النقل وغيره، بل فيها ما يدل على أنّهم ليسوا من أهل العلم كي يعتدّ بكلامهم ويعتنى بشأنهم ... ولقد قيل: إنّ بعضهم كان يبالغ في حرمتها حال قصور يده ولما ظهرت له كلمة بالغ في وجوبها".

ومن هنا - وبعيدا عن المثال المتقدم - يقول الشيخ مرتضى الأنصاري : " وقد وقع من بعض الأعلام بالنسبة إلى بعضهم ما لابدّ له من الحمل والتوجيه، أعوذ بالله من الغرور وإعجاب المرء بنفسه، وحسده على غيره، والاستيكال بالعلم". ويقول في موضع آخر :" وأمّا ما وقع من بعض الأعلام بالنسبة إلى من تقدّم عليه منهم بالجهر بالسوء من القول، فلم يعرف له وجه، مع شيوعه بينهم من قديم الأيّام"، وليس المقام مقام إحصاء كلماتهم الكاشفة عن ذلك ولو بعضا.

ونحن سنقوم بعرض بعض النماذج التي تؤكد على وجود خلافات تتفاوت عمقا وسعة، ولكنّنا نؤكد على أنّنا لسنا في مقام بيان حقيقة العلاقة بين علمائنا لتكون هذه النماذج معبّرة عنها، فإنّ هذا سيعني حينها تشويها

للحقيقة، لأنّ لدينا مئات الشواهد والحاكايا (هكذا!)التاريخية التي تكشف عن طهارة وعظمة العلاقات التي قامت بين الكثيرين منهم، وسيأتيك بعضها في هذا الكتاب. إذن نحن في مقام بيان أصل وجود خلاف بينهم فحسب، ولا ندّعي آنّ هذه النماذج تتكفل ببيان طبيعة علاقاتهم بشقيها الإيجابي والسلبي:

١. الخلاف الواقع بين المحقق الكركي وبين الشيخ إبراهيم القطيفي، الذي عارضه بشدّة حول دخوله في سلطان الدولة الصفوية، وهي علاقة وصفها السيّد الأمين بحالة (العداء)، وقال في موضع آخر :" عاب عليه معاصره ومنافسه الشيخ إبراهيم القطيفي قبوله جوائز السلاطين ... ونرجو أن لا يكون الباعث للقطيفي على ذلك الحسد، وهو ليس من رجال الكركي وأقرانه مع زيادة علمه وفضله. وبالجملة كانت بينهما منازعات وردود ونقوض صنعها القطيفي وأجابه الكركي، ذكرت ترجمتها ... ألف معاصره الشيخ إبراهيم القطيفي رسالة في الرضاع ردّ بها على المحقق الكركي، أساء فيها الأدب، وتكلم بما لا يليق بالعلماء، مع عدم إصابته في أكثر ما ردّ به. ولو فرض جدلا أنّه مصيب في ردّه لكان مخطئا كل الخطأ وخارجا عن طريقة أهل العلم في بذاءته". وكان الشيخ القطيفي قد ردّ على الرسالة الرضاعية للمحقق الكركي بما يوحي بطبيعة الموقف بينهما، حيث قال: " أشهد الله أنّ جهاد مثل هذا الرجل على الغلط والأغلاط في المسائل أفضل من الجهاد بالضرب بالسيف في سبيل الله"، وكان يصفه بـ "المعاصر القاصر".

٢. أضف إلى ذلك الخلاف الأصولي الأخباري الحاد الذي تجاوز ميادين الصناعة العلمية، حتى أنّ الشيخ عبد الله المامقاني يقول نقلا عن ثقات مشايخه بحسب ظاهر عبارته :" ومن غريب ما نقلوا مما يكشف عن قوّة ديانة صاحب الحدائق أنّ مسجد الوحيد كان محاذيا لمسجد صاحب الحدائق، وكان الوحيد يحكم ببطلان الصلاة خلف صاحب الحدائق، وكان صاحب الحدائق يحكم بصحّة الصلاة خلف الوحيد، وكانوا يخبرون صاحب الحدائق بما يقوله الوحيد، فكان يجيب بأنّ : (تكليفه الشرعي ذاك، وتكليفي الشرعي هذا، فكل منّا يعمل بما كلفه الله به)، وكان صاحب الحدائق يتحمل ذلك لأجل رواج مذهب الأصولية .. ". وفي الوقت الذي يكشف فيه هذا النص عن ديانة صاحب الحدائق، فإنّه يكشف عن أمور أخرى نحن بصدد الإلماح إليها.

وقد أودى الخلاف الأصولي الأخباري في بعض تجلياته العليا بحياة الميرزا محمد الأخباري الذي يُعرف بـ (المقتول)، فبعد أن حاول الميرزا المذكور إقناع فتح علي شاه القاجاري بتبنّي مذهبه الأخباري، سعى علماء النجف لقطع الطريق عليه، فألف الشيخ جعفر كاشف الغطاء رسالة في الرد عليه أهداها

ضمن من أهداها إليهم إلى فتح علي شاه القاجاري سنة ١٢٢٢هـ، ومما جاء فيها مخاطبا الميرزا الأخباري :" اعلم والله أنّك نقصت اعتبارك، وأذهبت وقارك، وتحمّلت عارك، وأججت نارك، وعرفت بصفات خمس هي أخس الصفات، و بها نالتك الفضيحة في الحياة، وتناولتك بعد الممات: أوّلها نقص العقل، ثانيها نقص الدين، ثالثها عدم الوفاء، رابعها عدم الحياء، خامسها الحسد المتجاوز للحد، وعلى كل واحد منها شواهد ودلائل لا تخفى عن العالم بل ولا الجاهل ...".

ويبدو من التفاصيل والحكايا التي ينقلها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أنّ الموقف تجاه الميرزا الأخباري كان متوترا إلى أبعد الحدود. وبعد استقراره في العراق، عقد درسا يباحث فيه في الرد على الوحيد البهبهاني أستاذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء، فاستاء الأخير لذلك، وإلى جانبه السيّد علي الطباطبائي صاحب (رياض المسائل) وهو صهر الوحيد البهبهاني، وكذلك الآغا محمد علي بن الوحيد، فعزموا على إخراجه من العراق، فاستفتوا الشيخ كاشف الغطاء : "ما يقول شيخنا في مبتدع بالدين يسعى بإتلاف شريعة سيّد المرسلين؟ وما جزاء من سعى في الأرض الفساد وحارب أولياء الله الأمجاد؟". فجاء في جواب الشيخ :" إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم". ولما بعثوا بحكم الشيخ إلى حاكم البلد، نفي الميرزا خارج العراق.

وبعد رجوع الميرزا مجددا إلى الكاظمية بعد وفاة الشيخ جعفر كاشف الغطاء، خطط السيّد محمد الطباطبائي المجاهد نجل السيّد علي صاحب (الرياض)، لقتله، فوجّه إلى الشيخ موسى كاشف الغطاء نجل الشيخ جعفر السؤال التالي :" ما رأي حجة الله على خلقه وأمينه في أرضه في رجل يؤلب على العلماء الصالحين، ويسعى في قتلهم إطفاء لنور الدين؟"، فوقع الشيخ موسى : " يجب على كل محب وموال أن يبذل في قتله النفس والمال، وإلا فلا صلاة ولا صيام له، وليتبوأ في جهنم منزله"، ثم حكم السيّد عبد الله شبر إمام الكاظمية آنذاك بوجوب اتباع حكم الشيخ موسى، وأيّده علماء آخرون، من قبيل السيّد محسن الأعرجي صاحب المحصول، والشيخ أسد الله. وبعد نشر الفتوى في الكاظمية، هجم الناس على الميرزا في بيته وقتلوه مع ولده الكبير السيّد أحمد وأحد تلامذته، وذلك يوم الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٢٣٢هـ ونهبت مكتبته العامرة بالكاظمية، وكانت تناهز الثمانين ألف كتاب!!.

وقد أرجع آغا بزرك الطهراني السبب في ذلك إلى كتابه (السلم المرونق في من تكفر وتزندق). وكان الميرزا قد كتب أيضا (معاول العقول لقطع أساس الأصول)، ردّا على كتاب (أساس الأصول) للسيّد دلدار علي بن

محمد معين النصير آبادي، فردّ عليه تلامذة الأخير بكتاب (مطارق الحق واليقين لكسر معاول الشياطين).

وفي السياق نفسه يكتب الدكتور علي الوردي حول قضية مقتل محمد الأخباري بسبب النزاع بين الأصوليين والأخباريين وتحريض العلماء والفقهاء عليه مما أدّى إلى سفك دمه ودم من معه تعديا وحرمة .. يقول : " ولعل من الممكن تشبيه هذا الخلاف بين الأخباريين والأصوليين بالخلاف الذي حدث في القرن الثالث الهجري بين الحنابلة والمعتزلة، فالمعتزلة كانوا يريدون أن يقيموا عقائدهم على أساس من قواعد المنطق بينما كان الحنابلة يستنكرون ذلك كل الاستنكار، وكان شعارهم : "من تمنطق فقد تزندق".

اشتدّ النزاع بين الأخباريين والأصوليين في أوائل القرن التاسع عشر، وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء حامل راية الأصوليين، بينما كان الميرزا محمد الأخباري حامل راية الأخباريين. وقد بلغ النزاع بين هذين الرجلين إلى حد التنابز بالألقاب وتبادل الشتيمة المقذعة. كتب الشيخ جعفر كتابا عنوانه "الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الأخباريين"، فردّ عليه الميرزا محمد بكتاب عنوانه "الصيحة بالحق على من ألحد وتزندق". وكتب الشيخ كتابا آخر عنوانه "كاشف الغطاء عن معائب الميرزا محمد الأخباري عدو العلماء". وكان جواب الميرزا محمد أنّه اتهم الشيخ بأنّه ينتمي في نسبه إلى بني أمية، وتلك تهمة فظيعة في نظر الشيعة كما لا يخفى، فكتب الشيخ يقول :"جنابكم أقرب إلى هذا النسب". (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، علي الوردي، ج٣،ط١/٢٠٠٥م،دار الكتاب الإسلامي، ص٨٨).

٣. الحالة المضطربة التي ذُكرت بين الشيخ صاحب (الجواهر) وبين الشيخ محسن بن خنفر العفكي، الذي يقول السيّد الأمين في ترجمته : " ... قال تلميذه السيّد محمد الهندي في (نظم اللآل في علم الرجال): (... وكان لغزارة علمه وإحاطته وتفرده بذلك ربما أنكر فضيلة بعض الأساطين، وكان خشنا في الله لا يداهن ولا يبالي، أقبل الناس عليه أم أعرضوا) ... وبعض الأساطين المشار إليه في كلام السيّد الهندي هو صاحب (الجواهر): فيحكى عنه أنّه كان يقول له : (أعط جواهرك هذه لبائعي الفلفل والكمّون يصرّون بها). ولذلك نسب إلى اعوجاج السليقة. ويُقال إنّ صاحب (الجواهر) كان يرميه بذلك، والله أعلم. ولا يبعد أن يكون رميه من علماء عصره باعوجاج السليقة لما كان يبديه من التحقيق ودقة النظر في المسائل. ويدل على ذلك ما يُقال: إنّ الشيخ مرتضى الأنصاري كان يرمى من بعضهم بمثل ذلك. ويُحكى أنّه حجّ عن طريق نجد، فزاره صاحب (الجواهر)، وقال لبعض الحاضرين: (سلوه عن هواء نجد الذي أجمع الناس كافة على حسنه، حتّى ذكرته الشعراء في أشعارها، لتعلموا حال سليقته)، فسألوه فذمّ

هواء نجد. وسأله صاحب (الجواهر) مرّة من باب (المطايبة) : (هل للمجتهد جميع ما للإمام؟! وكان يقول بذلك، وصاحب (الجواهر) لا يقول به، فقال: (نعم)، فقال صاحب (الجواهر): (اشهدوا أنّي طلقت زوجة الشيخ)، فقال الشيخ محسن : (ثبّت العرش ثم انقش). ومثل هذا قد يقع بين المتعاصرين كثيرا، ولا يقدح في جلالة شأنهم، تغمّدنا الله وإياهم بعفوه ورحمته".

٤. ومثال رابع: الشيخ هادي الطهراني الذي كاد أن لا يباري الآخوند الخراساني في زمانه إلا هو والميرزا حبيب الله الرشتي، حتّى سمع الشيخ صدر الإسلام محمد أمين الإمامي الخوئي بنفسه من بعض من كان ينتسب إلى الشيخ الطهراني وقرأ على بعض فضلاء تلاميذه اعتقاده بأنّ أكابر أعلام الشيعة مثل المفيد والطوسي والحلي والطوسي والعلامة والشهيدين ومن في طبقتهم لو كانوا حاضرين في عصر الشيخ كانوا يتبادرون إلى حضور درسه والاستفادة من حضرته، وكلهم يعترفون بأعلميّته وتقدمه عليهم ..

يقول الشيخ بزرك الطهراني في ترجمة الشيخ رضا الهمداني: " .. وقد أصرّ علماء عصره على الطعن بالحجة الجليل الشيخ هادي الطهراني حسدا لمكانته، إلا المترجم له ..". كما تعرّض لنكبته السيّد محسن الأمين في ترجمته الشيخ الهمداني أيضا، حيث يقول :" كان في عصره رجل في النجف اسمه الشيخ هادي الطهراني، مشهور بالفضل، له حلقة درس كبيرة ومؤلفات مطبوعة، يُقال: إنّه كان يطيل لسانه على أكابر العلماء، حتّى وصل إلى حد التكفير، فانحل أمره وتناقص عدد حلقة درسه إلى ما يقرب من عدد الأصابع أو يزيد قليلا، وكان ذلك قبل ورودنا النجف، فوردناها والحال على ذلك. وفي بعض أوقات وجودنا فيها ثارت ثائرة جماعة من العلماء عليه، فأصدروا فتاواهم بتكفيره، وأرسلوا إلى شيخنا المترجم ليشاركهم في ذلك فأبى. وقال: التكفير أمر عظيم لا أقدم عليه بمثل هذه النسب، وصارت يومئذ مسألة الشيخ هادي حديث الناس من العلماء والطلاب وغيرهم في مجالسهم ومحافلهم".

وأضاف في موضع آخر : " تصدّى للتدريس، فتهافتت عليه الطلاب وأعجبوا بحسن أسلوبه في الإلقاء والإملاء، وبجودة تحقيقه في ذلك وحسن بيانه، وطار ذكره وكثرت تلاميذه وانتشروا في الأقطار، وكانوا مغالين به يفضّلونه على معظم العلماء من المعاصرين والقدماء. وكان لهذه المزايا، ولما طبع عليه من علو الفطرة لا يعجبه كثير من العلماء، وربمّا أوقع في بعضهم، وجهّلهم، وفنّد آراءهم، وصرّح بمؤاخذتهم، فاغتنم هذا فيه بعض معاصريه أو مفاخريه، فحمل بإغراء أتباعه على إعلان تكفيره، فكان لهذه الواقعة دوي في المحافل الدينية وغيرها في العراق وغيره. وتحزّب الناس حزبين، وانبرى لنصرته وبراءته فريق من العلماء، منهم الشيخ محمد

حسين الكاظمي والملا محمد الإيرواني وغيرهما، فهان أمره، ولولا ذلك لانتظر الإيقاع به. رأيناه في النجف والطلاب والعلماء تتحامى مخالطته خوفا على أنفسهم من النّاس، مع رغبتهم في حضوره، وكانت حادثته هذه في عصر الميرزا الشيرازي والميرزا في سامراء، فلم ينبس فيها ببنت شفة، إلا أنّه قطع السؤال عنه. وكانت هذه الحادثة قبل مجيئنا النجف، ودخلناها وحالته كما ذكرنا من تحامي الناس درسه سوى خاصّته، وكان يدرّس نهارا في بيته وليلا على سطح الكيشوانيّة القبليّة الشرقيّة، ثم جدّد أمر الهياج عليه ونحن بالنجف من أكثر العلماء إلا شيخنا الآغا رضا الهمداني، فلم يدخل في ذلك، ولم يرضَ أن يجري ذكر هذا الأمر في مجلسه بحرف واحد، وإلا شيخنا الشيخ محمد طه نجف. وكان كثير من الناس يغالي في علمه وفضله، لكنّ الذي سمعته من السيّد علي ابن عمّنا السيّد محمود وكان ممن حضر مجلس درسه، أنّه ليس بتلك المنزلة من المغالاة، وإن كان في مرتبة سامية من الفضل، وأنّ النّاس في حقه بين الإفراط والتفريط. ولكن من المحقق أنّه كان يطيل لسانه على العلماء، ويُقال إنّه صنّف حاشية على رسائل الأنصاري سمّاها الحسام المنتضى على الشيخ مرتضى، وكان يقول للشيخ حسن ابن صاحب الجواهر وهو في مجلس درسه: إنّ أباك ليلة كتب هذا المطلب كان عشاؤه طبيخ الماش، ونحو ذلك. ومثل هذا يقع كثيرا من العلماء، خصوصا من ذوي الأفهام الحادّة والأفكار الواسعة".

يقول متمم (روضات الجنّات) في ترجمة الشيخ الطهراني :" ونقل أنّه كان كثير الطعن والتشنيع في مجلس درسه على العلماء والمجتهدين في مقام ردّ كلماتهم، ولذا نقل بل اشتهر أنّ معاصره العلامة الرشتي المتقدم ذكره حكم بكفره، بحيث نقل لنا من أثق بنقله وأعتمد على قوله أنّ شيخنا الهادي صاحب العنوان ورد في تأبين بعض علماء النجف، فلمّا سقوه القهوة حسب ما هو العادة في المأتم والتعازي، صاح من وسط المجلس بعض المغرضين بمحضر الشيخ العلامة الحاج ميرزا حبيب الله الرشتي وملأ من الناس : (اغسلوا فنجان القهوة الذي شرب منه الشيخ هادي)، وكان شيخنا العلامة المحقق الشيخ محمد حسين الكاظمي حاضرا في المجلس، فلما سمع تلك الصيحة النفسانية المنبعثة من الوساوس الشيطانية والدسائس الشخصية، حرّكته الغيرة الإيمانية، فأمر بإتيان كوز من الماء ليشرب، فجيء له بكوز من الماء، فقدّمه لشيخنا الهادي وقال: (اشرب منه حتّى أشرب سؤرك)، ففعل ذلك، فتعجب الحاضرون من صنيع الشيخ، فوثقوا بصاحب العنوان بعد فعل الشيخ المعظم عليه، وتركوا الحركات القبيحة والتكلمات البذيئة الموجبة لفساد عقايد العوام، والمخرّبة لشعائر الإسلام، ولولاه لكان ساقطا عن الأنظار بالكلية. وبالجملة لم نرَ في مؤلفاته ما يوجب ذلك، بل يعبّر في كتبه عن علمائنا رضوان الله عليهم بحسن التعبير. وظنّي أنّ بعض

المغرضين المفسدين الذين غرضهم هتك شعائر الله وحرماته ألبسوا الأمر على العلامة الرشتي، ومع ذلك ما أظنّه تفوّه بذلك، بل نسبوه إليه، كما وقع نظيره لمعاصره العلامة الشيرازي بالنسبة إلى تحريم التنباك".

ويذكر الشيخ صدر الإسلام الخوئي في ترجمة الشيخ حبيب الله الرشتي : "سافر المترجم إلى إيران .. ولما رجع المترجم من سفره إلى النجف الأطهر، زاره جلّ طبقاتها، وزاره أيضا الشيخ محمد هادي الطهراني من أعلام عصره. ولما قام الشيخ المذكور من مجلسه أمر المترجم بتغسيل الفنجان الذي شرب الشيخ المذكور فيه القهوة، على ملأ من الحاضرين ومشهد منهم، وانتشر الخبر من حينه وشاع وفشا شيوعا عظيما، فجاء المترجم جماعة يسألون عن العمل المذكور وسرّه ورأيه فيه، فأجابهم المترجم أولا بأنّ الأمر بالتغسيل إنّما هو على وجه الاحتياط مما بلغه من الشيخ المذكور بوجوه ليس المقام موضع شرحه، فاعترض عليه، ولعلّ هذا الاعتراض كان على الشيخ وإن كان له بصورته بأنّ الاحتياط إنّما هو في خلافه، لاستلزام العمل الحرام القطعي لأمر لم يعلم بوجوبه، فيه توهين المؤمن، بل إيذاؤه وكسر اعتباره وهدم مقامه وهتك حرمته. فلما سمع به المترجم أظهر الجزم بذلك. فلما صدر منه (الأمر) تنجزّ على الطهراني ما كان يتبعه، واستقرّ وشاع أثره، وطار صيته وعلا وامتدّ ذيوله.

ووقتئذ قام بعض معاصريه، مثل العلامة مولى محمد الأيرواني الفاضل من عمد أعلام العصر وزعيمه وغيره، بتبجيل الشيخ المذكور وتعظيمه اعتقادا منهم باشتباه المترجم في نظره، ولكنّ الشيخ لم يستقم صلبا ولم ينبسط وجها بعد ذلك مدّة حياته أبدا، مع الإصرار والاجتهاد (البليغ) في ترويج أمره وتعظيم مقامه ورفع الوصمة عنه من أعلام عصره، وما كان ذلك كله إلا لإساءة اللسان منه بالنسبة إلى السلف الصالح رضوان الله (على) معاشر الماضين أجمعين، والله العالم بحقائق الأحوال وبواطن الأسرار".

وأورد في ترجمة الشيخ محمد هادي الطهراني :" وكان حديد اللسان في المحاورة، قليل الرعاية في الكلام والانتقاد والقدح على أقرانه من السلف والخلف، ولا يبالي مخالفة الشهرة في الفتوى، بل لا يخلو عن حبّ التفرد والاشتهار. وقد تقدّم ذكر معاملة العلامة الميرزا حبيب الله الجيلاني النجفي مع المترجم في مجلسه العام وأمره باغتسال الفنجان الذي شرب فيه المترجم قهوة على رؤوس الأشهاد، وما ورد على المترجم من الكسر والنكبة بعد ذلك، بحيث أنّه لم يبتسم وجها ولم يستقم صلبا ولم يعدل أمرا ولم يبرأ سقما بعد ذلك اليوم إلى آخر عمره وخاتم أمره أبدا.

ويُقال: إنّ كل ذلك مما كان عليه المترجم المغفور له من عدم (المبالاة) في انتقاداته العلمية بالنسبة إلى السلف الصالح من أعلام الدين وخيار رجال العلم والأساتذة المحققين، ولو بالاستخفاف وسوء التعبير في ذلك، ولو على رؤوس الأشهاد، في مجالس درسه ونحوه. ويُقال أيضا : إنّ السبب في سوء اعتقاد العلامة الجيلاني للمترجم ومعاملته معه أنّ العلامة المذكور وقف على مقالة أو كراسة بقلم المترجم، أو سمع بمقالته هذه ممن يثق به، أنّ المترجم ينكر فيه علم الباري تعالى شأنه على الجزئيات، كما نسب ذلك إلى جملة من الفلاسفة أيضا، فجري بينهما ما جرى من الأمر. وقيل في ذلك مقالات أخرى (غيرها) أيضا (مما) لا ينبغي ذكرها، فضلا عن قبولها أو الظن بصدقها في مثل هذا العالم الجليل ..".

٥. هذا إضافة إلى العلاقات المتوترة بين أنصار الآخوند الخراساني وبين أنصار السيّد محمد كاظم اليزدي، فقد أورد السيّد الأمين في ترجمة أستاذه السيّد محمد كاظم اليزدي : " في أيّامه ظهر أمر المشروطة في إيران، وأعقبها خلع السلطان عبد الحميد في تركيا، وكان هو ضدّ المشروطية، وبعض العلماء يؤيدونها، كالشيخ ملا كاظم الخراساني وغيره. وتعصّب لكل منهما فريق من الفرس، وكان عامّة أهل العراق وسوادهم مع اليزدي، خصوصا من لهم فوائد من بلاد إيران، لظنّهم أنّ المشروطية تقطعها. وجرت بسبب ذلك فتن وأمور يطول شرحها، وليس لنا إلا أن نحمل كلا منهما على المحمل الحسن والاختلاف في اجتهاد الرأي". وقد بلغ الأمر أنّ أنصار المشروطة أرادوا قتل السيّد اليزدي لولا دفاع رؤساء عرب النجف وشيوخهم عنه وطوافهم ببيته لحمايته.

ويفصّل الحديث السيّد حسن الأمين، حيث يذكر أنّه بعد امتناع السيّد محمد كاظم اليزدي عن التوقيع على (المشروطة) صار أنصاره يوصفون بالمستبدين، وانقسمت النجف والمدن الأخرى إلى فريقين، وقد استطاع السيّد اليزدي أن يكسب كفة الميزان لصالحه، و "أكثر العامة من دعاة الاستبداد، ويعدّون الملا كاظم الخراساني هو وأتباعه كفارا، ولا يكادون يسمعون عن أحد العلماء أنّه (مشروطة) حتّى ينفضّوا عنه ويلعنوه ويتركوا الصلاة خلفه". وبعد أن انقلب موقف الدولة العثمانية لصالح الشيخ الآخوند الخراساني :" نظم الشيخ علي الشرقي قصيدة يهجو بها اليزدي ويتشفى به، كما نظم السيّد صالح الحلي بعض الأبيات اللاذعة من الشعر، قارن في أحدها بين اليزدي ويزيد"، وهي قوله:

فـــــوالله مـــــا ادري غـــــدا في جهـــــنم
(أيزديهـــــا) أشـــــقى الـــــورى أو يزيـــــدها

٦. ناهيك عن مجريات تاريخية أشدّ قربا إلينا، تختلف شدّة وضعفا .. من قبيل ما حدث بين السيّد حسين البروجردي وبين السيّد محمد حسين الطباطبائي بعد عودة الأخير من تبريز إلى قم وشروعه بتدريس (الأسفار) واجتماع أكثر من مئة طالب في درسه، فقد أمر السيّد البروجردي بقطع رواتب من يحضر هذا الدرس، وأرسل إلى السيّد الطباطبائي (الحاج أحمد الخادمي) يبلغه بأنّه هو بنفسه درس (الأسفار) ولكن بشكل مخفي، وأنّ هذا الدرس ليس من الدروس المتعارفة في الحوزة، فأجاب الطباطبائي بأنّه درس ما هو متعارف في الحوزة من فقه وأصول، وأنّه لا يقل عن الآخرين في هذا الجانب. وقد انقطع الأمر عند هذا الحد ولم يتعرض لهم السيّد البروجردي بعد ذلك، وأرسل إلى السيّد الطباطبائي ذات مرّة نسخة من القرآن الكريم من أصحّ وأجود المطبوع. وكان الشيخ حسين المنتظري يدرّس (المنظومة)، فتعطل درسه، ولكنّ السيّد البروجردي إنّما كان يعارض درس (الأسفار) و(المنظومة)، ولم يعارض تدريس فلسفة ابن سينا وفلسفة المشّائين.

أو الضغوط التي سبّبتها تعليقة السيّد الطباطبائي على كتاب (بحار الأنوار)، والتي أدّت بمتولي طبع الكتاب إلى الاعتذار منه عن متابعة طبع بقية التعليقة، بعد أن توقفت عند الجزء السادس، وكان السيّد الطباطبائي يرفض التخفيف من التعليق باعتبار أنّ منزلة الإمام الصادق (ع) أعظم من منزلة صاحب (البحار)، وكان يردّد :" قد أخطأ المجلسي، قد أخطأ العلامة". وكان السيّد عبد الهادي الشيرازي قد أصدر بيانا من النجف الأشرف نشره في قم إثر تعليق السيّد الطباطبائي على (البحار)، وبحسب المصدر فإنّه : "تقريبا قد كفّره". وقد ذكر لي الشيخ جعفر السبحاني أنّه اطلع ضمن تركة السيّد الطباطبائي على مجموعة من الرسائل التي كانت قد أرسلت إليه، وفيها شتم وكلام من قبيله.

ويشير السيّد الطباطبائي في بعض كتاباته إلى ظاهرة حمل مقولة (مخالفة العلماء) حمل قميص عثمان، ويؤكد على أنّ حسن الظن بالعلماء واحترام شخصيتهم الدينية شيء، واتباع نظرياتهم العلمية وأفكارهم العقلية شيء آخر. ويقول في تفسيره (الميزان) : " فمن شرائط التربية الصالحة أن يكون المعلم المربي نفسه متصفا بما يصفه للمتعلم، متلبسا بما يريد أن يلبسه، فمن المحال العادي أن يربي المربي الجبان شجاعا باسلا، أو يتخرج عالم حر في آرائه وأنظاره من مدرسة التعصب واللجاج، وهكذا".

٧. وفي عام ١٩٤٩م وقعت في المدرسة الفيضية في قم خلافات بين الطلاب الرشتيين وبين الطلاب الأتراك، هجموا خلالها على بعضهم البعض، وقد نشرت ذلك صحيفة (استوار) القمّية، ودخل رجال الأمن على إثرها المدرسة الفيضية. وقد دفعت هذه الحادثة بالإمام الخميني إلى الاجتماع بالسيّد البروجردي والحديث معه حول ضرورة إصلاح الحوزة وتنظيم أمورها، وأنّ الوضع لم يعد يحتمل، وأنّ عليهم الإسراع في ذلك، وكان السيّد البروجردي يسعى بشدّة لإصلاح الوضع، إلا أنّ المقربين منه كانوا يحولون دون ذلك. وكان مدير الفيضية في ذلك الوقت الحاج الميرزا عبد الحسين صاحب الداري البروجردي الذي لم يكن حسب المصدر محبوبا من قبل الطلاب، وكان المقربون من السيّد البروجردي يحمونه ويحرصون على بقائه في منصبه.

وقد نقل الشيخ عبد الله آل آغا الطهراني للشيخ علي الدوّاني أنه - أي آل آغا - ذهب مع الإمام الخميني والسيّد ريحان الله الكلبليكاني والشيخ مرتضى الحائري إلى السيّد البروجردي واجتمعوا به. وبعد المباحثات، تمّ الاتفاق على تعيين الشيخ آل آغا الطهراني مديرا للمدرسة الفيضية، وكتب ذلك في ورقة موقعة ومختومة من السيّد البروجردي. إلا أنّ الشيخ آل آغا يفاجأ بعد صلاة الصبح من اليوم التالي بخادم السيّد البروجردي يأتيه ويبلغه طلب الأخير تسليمه الورقة التي منحه إيّاها، فيعطيه إيّاها ويبلغ الإمام الخميني بذلك، فيقصد الوفد الأخير نفسه السيّد البروجردي للمرّة الثانية مستوضحا الأمر، وقد ذكر لهم السيّد البروجردي أنّهم يسعون إلى سحب الأمور من يديه، ويسأله الإمام :" سيّدنا! إنّ أعضاء هيئة المصلحين أقاموا عدّة جلسات وعملوا، حتى استطعنا الحصول على هذه الورقة، وكان الجميع مسرورين لأنّ العمل قد آتى ثماره. ماذا استجدّ حتى سحبتم الورقة من الشيخ عبد الله ؟!"، فأجاب السيّد البروجردي :" لقد ذكروا لي بعض الأمور التي جعلتني أخشى أن يسوء الوضع مع وجود توقيعي وختمي، ثمّ إنّ من الممكن العمل على هذا النحو"، فقال الإمام :" لا، لابد من وجود الورقة "، فقال السيّد :" ليس ذلك ضروريا "، فقال الإمام :" إنّ الشيخ عبد الله لن يحرك ساكنا طالما أنّ الورقة ليست بحوزته ". عندها تدخّل بعض الأصحاب فقال السيّد البروجردي : " من أين لي أن أعلم بأنّكم ستقومون بإصلاح الوضع ؟!"، فأجابه الشيخ مرتضى الحائري بغضب وهو يرمي عمامته أرضا :" وهل نحن مفسدون؟ إنّ أبي قد أجاد في تأسيس هذه الحوزة، والآن نحن مفسدون ؟!". ومع تدخل بعض الأصحاب يضرب الخميني

بفنجان الشاي الذي كان في يده عرض الحائط فيكسره، ويقوم السيّد البروجردي ويدخل إلى الدار، بينما يقوم الوفد ويخرج.

وبعدها يعتزل الإمام الخميني، بينما يسافر الشيخ مرتضى الحائري إلى مشهد لمدّة ستة أشهر، ويقرر البقاء هناك. وعندما بلغ ذلك السيّد البروجردي، أرسل إليه من يستميله ويرجعه إلى قم، ففعل، ولكنّه خفف من تردّده على منزل السيّد البروجردي، وبقي الاثنان على الاحترام المتبادل، وقيل: إنّ السيّد الخميني لم يذهب إلى بيت السيّد البروجردي سوى في أيّام العزاء، وعند وفاة الأخير. وجاء في كلام آخر أنّه أراد زيارته بعد قطيعة دامت لفترة، وذلك أثناء تواجد السيّد محمد صادق اللواساني في قم وعزمه على زيارة السيّد البروجردي، ولكنّ حاشية الأخير عندما علمت بوجوده لم تطلع السيّد البروجردي على تواجده في البيت، فجلسا لفترة ثم غادرا.

٨. كما أنّ الشيخ مرتضى المطهري كان أحد الكوادر العاملة إلى جانب الإمام الخميني في سبيل إصلاح الحوزة ضمن ما عرضناه في النقطة السابقة. وبعد فشل المشروع، اتّخذ المقرّبون من السيّد البروجردي موقفا سلبيا منه، وكلما أراد توضيح موقفه كان يقابل برفض الاستماع إلى شهادته، فلجأ إلى كتابة رسالة إلى السيّد البروجردي يوضّح فيها الموقف ويعترض بأنّه في أي نظام تتمّ فيه محاكمة المتهم غيابيا دون سماع شهادته ؟! وطلب من الشيخ حسين المنتظري تسليمه إياها شخصيا. ولما التقى به، رفض السيّد البروجردي استلامها، فكان من الشيخ المطهري أن انتقل إلى طهران، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته في الجامعة.

٩. أو ما كان يلقاه الإمام الخميني من الوسط العلمائي، و "كانوا إذا أرادوا أن يمسكوا كتاب (المنظومة) يستعينون بخرقة لئلا يتنجّسوا، أو أنّهم يعتبرون الشخص الذي يدرّس الفلسفة عديم الدين"، حتى أنّ البعض كان يتهمه بأنّه لا يصلي. وفي هذا المجال كان يقول نجله السيّد أحمد :" أعتقد أنّ نضال الإمام ضد المتظاهرين بالقداسة داخل الحوزة كان أصعب بكثير من نضاله في ساحة الصراع السياسي". وبيانات ورسائل الإمام الخميني تشتمل على الكثير من الانتقادات التي يوجهها إلى الحوزة والحوزويّين، ولعلّ آخرها وأشدّها ما يُعرف بالفارسية بـ (منشور روحانيت)، وهو عبارة عن ندائه إلى الحوزات العلمية الذي وجّهه بتاريخ ١٩٨٨/٢/٢٢م قبيل أشهر من وفاته، والذي أثار في حينه - على ما سمعته من بعض

معاصري الأحداث - بلبلة في الوسط الحوزوي، كادت أن تقلب الموازين فيها بسعي من السيّد أحمد الخميني لولا تدخل بعض الشخصيات، ونحن نترجم مقاطع منه :

" ... طبعا هذا لا يعني أن ندافع عن جميع رجال الدين، لأنّ رجال الدين المرتهنين والمتظاهرين بالقداسة والمتحجرين لم يكونوا قلة، وليسوا كذلك. في الحوزات العلمية يوجد من يعمل ضد الثورة والإسلام المحمدي الأصيل، واليوم هناك أشخاص يلجأون إلى مظاهر القداسة من أجل تحقيق مآربهم في ضرب أصل الدين والثورة والنظام، وكأنّ هذا شغلهم الوحيد. إنّ خطر المتحجرين والمتظاهرين بالقداسة الحمقى في الحوزة العلمية ليس بالقليل، وعلى الطلاب الأعزاء أن لا يغفلوا ولو للحظة واحدة عن هذه الأفاعي، إنّ هؤلاء يروجون للإسلام الأمريكي، وهم أعداء رسول الله. ألا يجب في مقابل هذه الأفاعي ذات الملمس المخادع المحافظة على اتّحاد الطلاب الأعزاء ؟!

في بداية المواجهة الإسلامية، كنت إذا قلت: إنّ الشاه خائن، تسمع مباشرة من يقول: إنّ الشاه شيعي! هناك مجموعة من المتظاهرين بالقداسة الرجعيين كانوا يحرّمون كل شيء، ولم يكن بوسع أحد الوقوف بوجههم. إنّ النزف الذي ألحقه هؤلاء المتحجرون بقلب أبيكم العجوز لم تلحقه به أي من الضغوطات والصعوبات الأخرى. عندما راجت مقولة فصل الدين عن السياسة وصار معنى الفقاهة في منطق غير الواعين عبارة عن الغرق في الأحكام الفردية والعبادية، وصار ممنوعا على الفقيه أن يخرج من هذه الدائرة ويكسر طوق هذا الحصار ليتدخّل في أمور السياسة والحكومة، صارت حماقة رجل الدين في طريقة تعامله مع النّاس تُعدّ فضيلة. وبزعم أحدهم، فإنّ مؤسسة رجال الدين كانت تلقى الاحترام والتكريم عندما تتدفق الحماقة من جنبيها، وإلا فإنّ العالم الخبير بأمور السياسة ورجل الدين العاقل والواعي كان يعتبر مكارا.

إنّ هذه المسائل كانت رائجة في الحوزات، حتّى أنّ كل من يتمايل أكثر في مشيه يعدّ أكثر تدينا. كانت دراسة اللغة الأجنبية كفرا، ودراسة الفلسفة والعرفان ذنبا وشركا. في مدرسة الفيضية شرب ابني الحدث المرحوم مصطفى الماء من الإبريق فغسلوه، لأنّني كنت أدرّس الفلسفة. لا يساورني شك في أنّ الوضع السابق لو طال، لوصلت مؤسسة رجال الدين والحوزات إلى ما كانت عليه الكنائس في القرون الوسطى، ولكنّ الله منّ على المسلمين وعلى هذه المؤسسة بحفظ الكيان الحقيقي لهذه الحوزات ...".

١٠. كما أنّ السيّد محسن الحكيم تعرّض لنقد شديد إثر إفتائه بطهارة أهل الكتاب، فقد كتب الشيخ محمد الشيخ مهدي الخالصي- وكان مقيما حينها في كاشان - : " أفتى الحكيم بكذا وثبت كفره"، وقال يومذاك: إنّه في الوقت الذي نواجه فيه اليهود، فإنّ فتوى من هذا القبيل تدل على كفر ونفاق مفتيها.

ونحن هنا لا نريد من خلال هذا الاستعراض المختصر والسريع لبعض أحداث الماضي أن نسجّل انتصارا لطرف على آخر، وإنّما نريد الإشارة إلى أنّ ما سردناه يختزن في طيّاته مدلولين اثنين:

أحدهما: أصل وقوع الخلاف بين علمائنا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بمستويات مختلفة أفقيا وعموديا، الأمر الذي يعني بدوره أنّ ما قد يتعثّر به القارئ في هذا الكتاب ليس في اتجاهه العام بدعا من القول، وإنّما يأتي في سياق أمور متكررة الوقوع. وأنا أعتبر أنّ ما وقع ويقع أمر طبيعي في ظل غياب إمامة فكرية ونفسية معصومة قائمة بالفعل، ولكنّ المهم أن يكون الاختلاف مما يعتقد به كل طرف من أطرافه أنّه في سبيل خط تلك الإمامة.

والثاني: نقلُ علمائنا هذه الأخبار في كتبهم وتعرضهم لها في كلماتهم، وبعضهم من الفقهاء أصحاب الفتوى، الأمر الذي يكشف عن عدم تحرزهم من ذلك.

ولكن حيث يكون الحديث عن الماضين، فإنّ القارئ المعاصر لا يجد مزيد حزازة في التعامل مع مجريات التاريخ، لأنّ طرف المعاملة عندما يكون ميتا، تسري بصمات موته لتخلق شيئا من البرودة في التعامل معه. ولذلك لا يجد المحقق حزازة نفسيّة في تحقيق مسألة تاريخية تتمحور مثلا حول استيلاء ابن عبّاس على أموال البصرة، بينما لا يستطيع تحقيق مسألة من هذا القبيل ترجع إلى إنسان معاصر أو متصل نسبيا من الناحية الزمنية. وفي المقابل تجعل حياته العلاقة به حيّة ملؤها الحرارة والتفاعل العاطفي الواضح، وهو ما يبرر حالات التعاطف أو الاستنفار التي قد يتركها طرح من هذا القبيل، حيث يعتبر تأريخا لمرحلة متصلة بمرحلتنا" (محمد باقر الصدر .. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق، أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مكتبة العارف للمطبوعات/لبنان ، ط١/٢٠٠٧م، ج١،ص ٥٤ –٧٠) . مع بعض الإضافات والتصرف.

١١. حيدر حب الله:

في العدد الأول لمجلة نصوص معاصرة، الصادر في شتاء ٢٠٠٤/٢٠٠٥م، كتب الشيخ حيدر حب الله مقالة بعنوان "لماذا نصوص معاصرة؟"، وفي العدد ٤ الصادر في خريف ٢٠٠٥م كتب مقالة أخرى بعنوان " ورقة عمل"، فيهما شيء من الدعوة للتجديد، والنزوع نحو الإصلاح، والتسامح، وتقبل الآخر، وعدم النزوع نحو التكفير والتسقيط ومجابهة أحرار الفكر والمفكرين الإسلاميين المخلصين بالعنف غير المبرر .. بعد نشر هاتين المقالتين وغيرها من مقالات كثيرة في مجلة نصوص معاصرة، كلها تنبئ عن توجه حيدر حب الله المخالف لكثير من رجال الدين، ما كان من أحد المشايخ إلا أن أصدر كتابا مستقلا كله هجوم وثورة وتحدي للشيخ حيدر، وتسفيه لآرائه وظنون سيئة به وبمجلته وبمجمل ما ينادي به، وقد أسمى كتابه اسما عنيفا جارحا، وهو " انفلونزا التغيير" يدعى الشيخ محمد موسى حيدر. ويلاحظ هنا أنّ الشيخ المصلح والداعي للتغيير أو المجتهد في بعض الآراء التي تخالف المشهور لا يسقطه إلا من هو مثله، ومن أبناء بلده، وهذه ملاحظة جديرة بالتأمل والاهتمام، فأشد العلماء عنفا ممن وقفوا في وجه السيّد فضل الله هم أبناء لبنان، وأشد العلماء محاربة لأفكار ودعوة السيّد محسن الأمين هم أهله من لبنان، وأكثر العلماء غلظة في موقفهم من السيد الشهرستاني هم أهل العراق، ومن حارب علي شريعتي هم أهل إيران ... وهكذا تجد الملاحظة ذاتها تتكرر مع كل المصلحين، فأبناء الجلدة والبلد والأقرباء هم غالبا أشد الناس عنفا مع من يفكر ويخرج على السياق العام.

لا نستطيع أن نقول إنّ كتاب الشيخ محمد موسى كتابا علميا موضوعيا، بل هو معجم من السباب والشتيمة والكلمات البذيئة واللسان الجارح، للأسف أن تصدر من رجل دين تخرج من أرقى الحوزات الدينية، قم والنجف الأشرف، وعليه عمة رسول الله (ص)، ويدعو الناس للفضيلة والخلق، وأن ندعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ،ونجادلهم بالتي هي أحسن، ففي الكتاب تجد العبارات التالية وأشباهها، والمقصود بها بالطبع هو الشيخ حيدر حب الله، وهو يصرح بذلك ولا يكني:

(الفتنة في الدين، وانتشار البدع والضلالات في المجتمع الإسلامي، أفكاره تمس بالصميم كثيرا من المعتقدات الحقة، بل قد تتضمن التشكيك في جملة من الضرورات الفقهية، والأخطر من ذلك تصريح الكاتب بتبنيه لفكرة نشر بعض الأمور الباطلة بغرض تلقيح المجتمع الإيماني، يجتر أفكار العلمانيين العرب الذين يعيشون على فضلات الملحدين الغربيين

وترهاتهم، داعية التغيير، يدعي الفقاهة والفهم، كاتبنا الألمعي على سبيل الاستهزاء والتهكم، صاحب النظر الثاقب، الكاتب المفوّه المنبّئ، ولكنّ الحمار نفسه وأعتذر من القارئ سلفا لا يصدّق بأنّ إفساح المجال للباطل بالانتشار يؤدي على المدى البعيد لاستبعاده. هل يصح منه استغفال القرّاء ولا نريد أن نستعمل تعبيرا آخر إلى هذه الدرجة ؟!، مهندس إعادة صنع العقول، كل هذا طبعا على سبيل الاستهزاء والسخرية بحيدر حب الله، الفكر النازي الهتلري أرأف بهؤلاء الشيعة من فكر كاتبنا المنظر، وقتل المؤمن وتصفيته جسديا أهون بكثير عند الله عزّ وجلّ من قتله معنويا، النابغة فريد الدهر حيدر حب الله، من حقنا أن نسأل الأستاذ حيدر حب الله كيف تأتى له أن يفهم في مدة يسيرة قضاها في الحوزة ما لم يستطع أن يفهمه أعلام المذهب عبر قرون وقرون ؟؟!!، ولكننا لن نسكت وبالتالي فلا نسمح لمثل هذا المدّعي المغرور أن يفتري على مراجع الشيعة ما افتراه عليهم ظلما وعدوانا، ومن ينسب الظلم لجماعة المراجع عن قصد وإصرار، لهو الظالم بل أعظم وأخطر .. إلى غير ذلك من عشرات العبارات التي ملأت صفحات الكتاب، والتي تنم عن انحدار في طريقة تعامل بعض علماء الدين مع من يختلف معهم، وكيف صاروا يضربون أروع الأمثلة في العنف الفكري للأسف الشديد، وأصبحوا قدوة للعوام في ذلك بدلا من أن يكونوا منارات في التسامح والخلق وطريقة التعامل مع الاختلاف في وجهات النظر!!. (انفلونزا التغيير، الشيخ محمد موسى حيدر، ط١/٢٠٠٧م،انتشارات مدين،قم).

وقد تعرض الشيخ حيدر حب الله لمواقف كثيرة من النقد والحدّة والعنف الفكري، واتهامه بصنوف من الاتهامات، وقد ذكر بعضها في واحد من كتبه، إذ كتب يقول متعرضا لظاهرة التسقيط، ومنها ما تعرض له شخصيا:

" وسأذكر بعض الأمثلة القليلة - من باب تلطيف الجو - حصلت معي شخصيا، وهي على بساطتها تحمل تعابير كثيرة، وما يحصل كل يوم مثلها بأحجام مختلفة كثير جدا:

المثال الأول: عاتبني بعض العلماء الأفاضل الذين أحترمهم، كيف آتي على ذكر اسم السيّد محمد الشيرازي أو السيّد صادق الشيرازي في كتبي، فأذكر له رأيا أو أضع كتبه في هامش بحوثي، وأراجع أفكاره وأوثقها فأؤيدها أو أنتقدها! إنّه لشيء مستغرب بالنسبة لي أن يصبح ثقيلا علينا حتى استحضار اسم شخص توفاه الله في بحث علمي، وذكر رأيه، وأحيانا نقد هذا الرأي، وتسجيل اسم كتابه في هوامش البحث! هذا هو التسقيط والحذف. ففي هذه العقيدة يجب أن يموت ذكر هذا الإنسان ويحذف من الوجود، هذه هي عقلية الحروب العقائدية الأيديولوجية التي لا تعرف منطق (لا غالب ولا مغلوب)، حتى أنّ ذكرك لبعض فتاوى شخص يقلده

الملايين أو مئات الآلاف يعدّ مشكلة في بعض الأوساط، إذ يحظر ذكر اسمه وفتاويه.

ومن اللطائف أنّني في أحد أيّام شهر رمضان المبارك الماضي (١٤٣٣هـ) كنت في لبنان، وبجانب محل نزولي مسجد كنت أتردد عليه للصلاة ظهرا كل يوم، وبعد الصلاة وذهاب إمام المسجد، كنّا نجلس مع بعض الأصدقاء من (حملة الشهادات!)، إلى أن سألني يوما شخص عن نظرية الإنسان الكامل، فأخذت بالحديث عنها، وتعرّضت لرأي ابن عربي والملا صدرا الشيرازي، والمضحك أنّه أشيع في اليوم التالي في بعض الأوساط أنّ فلانا شيرازي الهوى، ولما قال لي شخص ذلك، قلت له: لماذا هذه الشائعة؟ وهل مزاج تفكيري العام قريب من هذا الفريق؟ قال: لأنّك تحدثت عن صدر الدين الشيرازي بالأمس، فقلت له وأنا أبتسم: إنّ صدر الدين الشيرازي مات قبل الشيرازي الذي تواجهون مشكلة معه بحوالي أربعمائة عام.

هذه هي الثقافة السطحية المعلبة، حتى أنّك في كثير من الأوساط لو سألت: ما هي مشكلتكم مع فلان؟ فلا يعرفون! لا أريد أن أدافع عن أحد، لكن لا أريد أن أبكي على حالنا في كيفية تعاملنا مع بعضنا، فتتربى الأجيال على شائعات وقصص ولا يعرف أحد شيئا. ولا يهمني الآن مع من هو الحق ومن هو في جانب الباطل، فقد ذهبوا إلى ربهم وهو أعلم بحالهم، وليس لنا إلا أن نسأل لهم جميعا الرحمة والرضوان، ونتخلق بأدب "اذكروا محاسن موتاكم".

المثال الثاني: كتبت لبعض المجلات الموقرة قبل حوالي سبع سنوات بعض المقالات الفقهية البحثية التي لا علاقة لها بالفكر السياسي ولا بغيره، فكلمني مسؤول المجلة التي كانت تنشر لي باستمرار، وقال لي بلغة استحياء - وهو صديق عزيز - : هل يمكن أن نحذف اسم الشيخ المنتظري وكتابه من أحد هوامشك ؟! إنّ كتاب المنتظري كان واحدا من عدد كبير من الكتب التي وثّقت بها في ذلك الهامش. حتّى هذا القدر وفي بحث مرتبط بالحج لم يستطيعوا تحمّل اسم هذا الشخص! أي علاق لي بالسياسة، فهذا بحث علمي، فلماذا إلى هذا الحد يجب حذفه من خارطة الوجود ولوح الواقع وصفحة العالم وهو فقيه متمرس مشهود له بالفقاهة من الجميع!!

المثال الثالث: كتب أحدهم كتابا كبيرا وقدّمه لجامعة المصطفى العالمية في قم، وكان حول الدولة الإسلامية، وعرض الكتاب على اللجنة الفاحصة لكي يتمّ تدارسه لتقديمه لمرحلة الدكتوراه كي يحوز كاتبه على شهادة بهذا الصدد، الأمر المفاجئ كان في أنّ الرجل حفظه الله لم يأت على اسم الإمام الخميني ولا مرّة واحدة في هذا الكتاب!

كيف يعقل أن تكتب عن الفكر السياسي الشيعي والدولة الدينية دون أن يكون للسيّد الخميني ولو هامش واحد أو فصل أو بضع صفحات تتعرض فيها لنظرياته ومنجزاته وطروحاته ؟! هل يمكن ذكر شهادة الحسين دون كربلاء أو ذكر كربلاء دون الحسين ؟! أليس السيّد الخميني ومدرسته هما شمس الدولة الدينية وقمر الفكر السياسي الشيعي في العقود الأخيرة؟! لكنّ هذه هي عقلية الحذف والاجتثاث الكامنة في تفكيرنا.

المثال الرابع: كان أحد طلابي قبل سبع سنوات يحضر عندي درس بحث الخارج، ولما علم بعض الفضلاء بالأمر، حاول أن يثنيه عن الحضور، فقال له بأنّ فلانا هو من جماعة السيّد فضل الله رضوان الله عليه، فنفى الطالب ذلك بشدّة، وقال له: لقد حضرت عنده سنوات، وكان يأتي بآراء السيّد فضل الله، وغالبا ما كان ينتقدها علميا. كنت أتوقع هنا أن يسكت ذلك الشخص الفاضل، لكنّ الغريب أنّه اعتبر ذلك هو الدليل، فقال: إنّ استحضاره لآراء فضل الله هو دليل ترويجه له حتى لو انتقده، إذ المفروض أن يحذف اسم فضل الله من لوح البحث العلمي والدروس الحوزوية، ولا يتردد في الأوساط الحوزوية إطلاقا!! هذه هي العقلية التي تحكمنا اليوم مع الأسف، فلا مانع أن تكتب عن الفكر الغربي وتنتقده وتأتي بآرائهم لكنّه ممنوع أن تأتي برأي شخص في الداخل تختلف معه ولو لنقده، لأنّ النقد احترام، فيما المطلوب هو المسخ والإزالة والتلاشي والتسقيط! فيمكنك أن تقول عن كارل بوبر وكارل ماركس: (الأستاذ كارل بوبر، و ..)، لكن من الحرام عليك أن تقول: الأستاذ أحمد الكاتب! كما حصل معي شخصيا.

ولو أردت سرد الأمثلة لاحتجنا لكتاب أو كتب، فهي سيرة وعادة تهيمن اليوم على كل واقعنا، حتّى أنّك عندما تسمع كلام الساعين لإسقاطك فيما يقولون عنك، تظنّ للوهلة الأولى أنّهم يتحدثون عن مخلوق غريب عجيب، فتلتفت يمينا وشمالا لتعرف عمّن يتكلمون؟ وأين هو هذا الشخص؟ كل هذا لأنّ الحاكم هو منطق التسقيط والمسخ والتشويه!!" (إضاءات في الفكر والدين والاجتماع، حيدر حب الله، مؤسسة البحوث المعاصرة،ج٣، ص٤٧٠، السؤال رقم ٥٩٣).

وقبل هذا الشاهد وبعده تحدث الشيخ حيدر حب الله باستفاضة حول ظاهرة التسقيط والعنف مع الرموز والعلماء والمختلفين مع السائد الفكري، تكلم بشكل صريح وواضح كعادته في كتبه بشكل عام، إذ كتب:

" موضوع التسقيط لا يؤخذ فقط من جانبه الفقهي، بل إنّني أعتقد أنّ المشكلة الأعمق فيه هي مشكلة ثقافة ووعي وأخلاق وأسلوب حياة، فتارة يحاول الإنسان أن يسقط فكرة ما أو مشروعا ما في الحياة، سواء على المستوى الفكري أو الديني أو الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي أو غير ذلك،

وأخرى يعمل على إسقاط الأشخاص الحقيقيين أو المعنويين، فيعمل على إسقاط هذا العالم أو ذاك، وتسقيط هذه الحوزة هنا أو هناك، أو هذا التجمع العلمائي هنا أو هناك، أو هذه الجامعة أو هذه المؤسسة أو هذا المركز وما شابه ذلك.

عندما أعتقد أنّ هذا الفكر أو العقل أو المنهج خاطئ أو مفسد أو ضار بالمجتمع، فمن حقي أن أمارس النقد والتفنيد له، وأسعى لمنافسته في الواقع الميداني، لكي أحذفه لأحلّ مكانه، ويكون حتى في له بلغة العلم أو الفكر أو السياسة أو الأخلاق أو غير ذلك، وهذا الحذف للفكر لا يصح أن يكون قمعيا عبر القتل أو التصفيات أو الإغلاق أو المصادرة أو الحظر أو المنع، بل المفترض بين المسلمين أن يكون الأصل هو المنافسة بالفكر والمنطق والعلم والحجّة والبرهان وتقديم البدائل وبيان الضعف والقوّة ونحو ذلك، دون كذب أو دجل أو تلاعب أو تضليل للرأي العام.

إلا أنّ مشكلتنا في العصر الحاضر تكمن في جانبين: أحدهما في الأسلوب غير الأخلاقي لإسقاط الفكر، وثانيهما في استخدام أسلوب تسقيط الأشخاص بدل محاربة الأفكار:

أ. فعلى الصعيد الأول (النهج غير الأخلاقي في تسقيط التيارات والأفكار)، نحن نجد نماذج كثيرة أذكر منها:

١. الإصرار على نسبة أفكار كذبا وزورا إلى مذهب أو تيّار لتشويه صورته.

٢. ربط فكر بتيارات أخرى قبيحة على مستوى الرأي العام، أو تقع خارج إطار الدين أو المذهب، دون دليل، مثل أن نقول عن الفكر الفلاني بأنّه إلحادي، أو هو غربي، أو هو وهابي (في الوسط الشيعي)، أو هو رجعي متخلف، أو هو شرك، أو هو متحلل أو غير ذلك من التوصيفات المباشرة (لا العامّة) التي تهدف تشويه صورة هذا الفكر أمام الرأي العام.

٣. محاولة الحديث عن ظروف مريبة لولادة تيار فكري معيّن، بحيث يبدو وكأنّه مشبوه أو ابن زنا، كأن نحاول ربطه بالماسونية أو العمالة أو مع ظروف معيّنة ملتبسة، دون حجّة أو دليل، بحيث يصير التحليل السياسي مع الأسف برهانا قضائيا في حق هذا الفكر الآخر!

ب. أما على الصعيد الثاني الذي هو محط نظر سؤالكم كما يبدو لي، فإنّ المشكلة كبيرة جدا، وقد صارت بحق داء عظيما في الأمّة يجب علينا العمل تربويا واجتماعيا ودينيا وأخلاقيا لمعالجته، بل يبدو لي أنّه يكاد لا يسلم منه فريق أو تيار مع تفاوت في المستوى والدرجة. لقد صارت ثقافتنا قائمة على تدمير الرموز لتدمير أفكارهم، وبهذه الطريقة تخرج الأمّة عارية من

الرموز، لأنّ كل رمز شوهت صورته وفضحت سيرته وسريرته صدقا وكذبا، وذهبت هيبة النّاس وحرماتها ومكانتها الاجتماعية الزائفة لكن ذهبت في الوقت عينه حرمتها الحقيقية التي تليق بها. إنّ التسقيط والحذف بلغ بنا حدّاً عظيما لم نعد نتحمل نفسيا اسم شخص أو فكرة معينة تنسب له، ونقرأ له وقلوبنا تزداد دقاتها وكأنّنا في حال توتر، قلقين دوما وخائفين ومتوجسين، ونبحث في كتبه ومقالاته وكلماته عن هفوة أو سقطة لنبعثر ما بناه، ونشوّه ما صنعه.

والغريب أنّ بعضنا يريد أن يصفي حسابه مع الأحياء فيقوم بتدمير حرمات الأموات كي يسقط الأحياء التابعون لهم تبعا لسقوطهم، بل أحيانا يسعون لتدمير بعض الأفكار، لأنّ في وجودها منفعة الخصوم فلا بدّ من تدمير الخصوم، ولهذا ندمّر تلك الأفكار التي تقوم عروشهم عليها، هذه مأساة حقيقية وعظيمة في الأمّة.

ولا يعني التسقيط مطلق النقد، بل قد دعونا وندعو دوما لنقد كل الكبار بلا استثناء، مستخدمين الطرق العلمية والأخلاقية والأصول المهنية للبحث، فليس هناك من هو مصون من النقد حتّى كبار مراجع الدين، وما يريده لنا البعض من تحريم نقد العلماء والحوزات والمرجعيات مرفوض جملة وتفصيلا، ومن يحرّم النقد فعليه أن لا يخطأ، أمّا أن يخطأ وتكثر أخطاؤه ثم يتوقع أن يظل الصمت قائما فهو واهم، بل سيجني ما اكتسبه وسيرى أمامه تقصيره وتهاونه واستخفافه بالناس والنخب وانتقاداتهم، وسيأتي يوم عليه لا ينفع فيه الندم حيث لم تعد النصائح لتؤثر.

لكن النقد شيء والتسقيط شيء آخر، لأنّ التسقيط في دوافعه وأهدافه وأسلوبه ومنهجه وآلياته مختلف عن مطلق النقد، إنّه محاولة اغتيال غير جسدية تسعى لحذف هذا الشخص أو ذاك من الوجود وتبديد قوّته وبقائه وحضوره وجمهوره وغير ذلك، بأسلوب لا يحكي عن إشفاق وحرص بقدر ما يحكي عن تشف وانتقام، إلى حد أنّه لا يجوز ذكره في أي مكان، ذلك كله لنبني عروشنا - مع الأسف - على جماجم غيرنا، بدل أن نبنيها على جهودنا وإمكانياتنا ومنجزاتنا وتجاربنا.

نحن نرفض بشدّة هذا المنطق، وليست المشكلة في حوزة هنا أو أخرى هناك، أو في هذا الشخص أو ذاك، إنّها في الفكر والعقل الذي لابد من إصلاحه، لا أن نقوم بتصفية حساباتنا مع جماعة هنا أو هناك، أو حوزة هنا أو هناك، أو مع تيار هنا أو هناك، مستخدمين أسلوب كشف النواقص دون بيان الإيجابيات، وذلك كله بنفس الدرجة التي ندين فيها ما يريده الآخرون من السكوت المتواصل عن تقصير الكثيرين وعن الأفكار الخاطئة، فلا السكوت والحلول الصامتة هي التي تعطي نتيجة، ولا الغضب الذي يقصف

عشوائيا كل مكان لا يعجبه، بطريقة تحتاج إلى إعادة توازن أخلاقي أو فكري.

والأغرب أحيانا هو منطق أنّ بائي تجرّ وباؤك لا تجرّ، فلو أنت قلت شيئا يخالف المشهور أو الإجماع فهي مفخرة، لكن لو قال ذلك الخصم شيئا مثل هذا فهي المهلكة، ففي هذه الأيّام - على سبيل المثال - تخوض الحوزة العلمية في الوسط الإيراني في مدينة قم جدلا واسعا حول فتوى أصدرها أحد الفقهاء الموالين لتيار معيّن (الشيخ بيات الزنجاني)، وهي تقول بأنّ الصائم لو عطش عطشا شديدا (وهي غير حالة ذو العطاش) يمكنه أن يشرب بمقدار معيّن من الماء لرفع العطش، ثم يكمل صومه ويصحّ ولا يجب القضاء. ويستند هذا الفقيه إلى روايتين معتبرتين سندا عنده، رويتا في المصادر الحديثية، ويراهما حاكمتين على سائر الروايات في باب الصوم.

لا يهمّنا الآن صحّة رأيه، ولا مدى تناسب الموضوع مع إعلانه، بقدر ما يهمّنا ردود الأفعال الصاخبة عليه، بحيث إنّ ما يثير الدهشة هو أنّ أحد كبار المرجعيات المنفتحة القائمة اليوم والمعروفة بآرائها وفتاويها الفقهية المخالفة للمشهور والإجماع شنّ هجوما عنيفا على هذا الفقيه ووصف فتواه بأنّها تلاعب بالدين! فلماذا إذا أصدرت أنا فتوى معيّنة مخالفة للسائد واستهجن منها النّاس وسائر العلماء رميتهم بالجمود وتفاخرت بالتجديد في الفتوى (كفتواه المنسوبة إليه من أنّ القاطنين في البلدان الشمالية طويلة النّهار كاثنين وعشرين ساعة مثلا يجعلون مقدار ساعات الصوم في تلك البلدان هو متوسط ساعات الصوم في البلدان المتوسطة، وهي حوالي خمس عشرة ساعة أو ست عشرة ساعة، ومن ثم فيمكنهم الإفطار قبل غروب الشمس هناك)، أمّا إذا جاء بذلك شخص آخر وفعل الفعل نفسه رمي بالتلاعب بالدين بهدف إسقاطه تماما، والسبب هو الانتماءات والتيارات القائمة!

هذه هي المشكلة اليوم، فنحن ندافع عن حق هذين العالمين معا في الاجتهاد، ولا نقول هذا اجتهاد غريب وهذا اجتهاد مشروع، مادام الاجتهادان يقدّمان تبريرا علميا لهما، سواء قبلنا هذا التبرير أم رفضناه، فما أكثر الاجتهادات التي أثيرت مؤخرا وبدت مضحكة لكثيرين في البداية ثم أخذت بالرواج وتبنّاها بعض الفقهاء فيما بعد، فهذا أحد المراجع اليوم وهو السيّد (...) والذي سبق أن سخر قبل أكثر من عقد من الزمان سخرية شديدة في مجلس درسه من فتوى جواز استمناء المرأة والتي أصدرها مرجع آخر، ها هو اليوم يجيز الاستمناء بتخيّل صورة الزوجة شرط عدم مسّ العضو الذكري ولا اللعب به، فقد فتح بفتواه الجديدة هذه كوّة صغيرة تغاير مشهور الفقهاء، ولا ضير، فكما لا يحقّ للمختلفين اجتهاديا معه أن يسخروا بفتواه هذه، كذلك ما كان ينبغي له السخرية بتلك الفتوى ما دامت قد

قدّمت وجهة نظر في فهم النصوص، وكان الحقّ هو النقاش العلمي في الحالين معا، وبهذا تأخذ الباء حكما واحدا في مختلف الظروف، فتجرّ هنا وهناك.

لكن لماذا نستبدل أسلوب نقد الأفكار بأسلوب تسقيط الأشخاص؟

أحد الأسباب الأساسية هو أنّ مجتمعاتنا ما تزال تقلد وما يزال عقلها يعيش التقليد حتّى في غير الدين، فضلا عمّا هو غير الفقه والشريعة، فعندما تناقشك مجتمعاتنا فهي تقول لك: قال فلان وقال فلان من العلماء، بدل أن تقول: قال الله وقال رسوله، فبدل أن يأتيك بالدليل يأتيك بكلام عالم ليس في كلامه دليل، وإنّما هو بيان لرأيه الشخصي بنحو النتيجة، فنحن كمجتمعات إسلامية وعربية أقرب لأصحاب الفكرة منّا للفكرة نفسها، من هنا يستخدم كل واحد ضدّ الآخر أسلوب تسقيط الأشخاص، لأنّ مجتمعاتنا مرتبطة بالأشخاص أكثر- أحيانا - من ارتباطها بالأفكار، وهذا في تقديري سبب أساسي في الموضوع، ولا أريد أن أدخل في الأسباب غير الأخلاقية التي يقف على رأسها الحسد، وما أدراك ما الحسد.

لكن كيف الحل؟

الحل لا يكون إلا بثورة أخلاقية وتوعوية ثقافية وبفتح باب الاجتهاد حقيقة، بكل ما لكلمة الثورة من معنى، لثورة أخلاقية حقيقية لا مزيّفة، لا لأخلاق تجيز الكذب لمصلحتي وتحرّمه على الآخر، بل لأخلاق تتعالى في وعيها عن الجزئيات والزواريب، ولأخلاق تُعطى الأخلاق فيها قيمة أيضا لا الأهداف فقط، ولأخلاق تحكم الحيل لا الحيل تحكم الأخلاق. إنّني أقبل بالاستثناءات، لكنّني لا أقبل بهيمنة الاستثناءات في مجال الأخلاق، نحن بحاجة لثورة تربوية واجتماعية، تعيد توازن الأمور عبر مفاهيم تصحيحية في العلاقات، والبداية تكون مع جيل الأطفال والناشئة ، لأنّ الأجيال الأكبر سنّا يكاد حالها يدخل دائرة اليأس والقنوط. والحل أيضا بأن يعمل طلاب التعددية والانفتاح بما يقولون، فلقد زاد في إحباط الأمّة أنّ طلاب التعددية والانفتاح أكثر انغلاقا أحيانا من غيرهم، فعندما نطرح الأفكار ونعمل بما نقول، نضع أول المداميك الحقيقية لبناء تجربة ناجحة إن شاء الله، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" (الصف/٢-٣). " (المصدر نفسه، ص٥٩٠، و ص ٥٩٦).

١٢. الشيخ النائيني يكفّر كل من يحارب ويخالف الشاه:

الكلام في هذا الموضوع طويل وشائك، والحديث حول موقف النائيني من معارضي الشاه رضا خان ذو شجون، ولكنا سنكتفي فقط بفتواه في تكفير كل من يخالف الشاه، مع النظر إلى أنّ هناك من الفقهاء من يكفر كل من يشارك في الانتخابات لأنها تدعم الحكومة، ونجد هنا على الخلاف مجموعة من الفقهاء الكبار والمراجع العظام في نظر الأمة والعلماء يكفرون من يحارب أو حتى يفكر في الخروج على الشاه ومحاربته، ويصورون محاربته كأنها محاربة لرسول الله وللإسلام والدين، أليس هذا يعد عنفا وغلظة في قبال العوام والعلماء معا؟ ألا تلاحظ أيها القارئ بأنّ لفظة كافر والكفر والكفار وتكفيره ومشتقاتها هي من أكثر الألفاظ تداولا وسهولة في الفتاوى لدى الكبار من العلماء فضلا عن الصغار ؟!! مع أنّ التكفير يجب أن يحتاط له أشد الاحتياط، ولكن هذا ما نرى خلافه، وأبرز شاهد فتوى النائيني في تكفير كل من يخالف حكومة رضا خان أو حتى يفكر في ذلك، حتى أصبح رضا خان في نظر النائيني كأنّه رسول الله، ومن يحارب الشاه فهو كمن يحارب رسول الله، ويُحكم عليه بالكفر والشرك، هذا تماما ما قاله دون زيادة !!.

" ولم تمض أكثر من سنة على انتشار رسالة النائيني وشيوع قصّة صورة الإمام علي (ع) أو سيفِ العبّاس (ع) حتى صدر بيان مشترك باللغتين العربية والفارسية موقع من قبل النائيني والأصفهاني يتضمن تسمية مخالفي حكومة رضا خان بأعداء الإسلام، وتلاقفته المطبوعات المختلفة، وهذا نص النسخة الفارسية:

لا يخفى على كافّة المسلمين أنّ أي شخص يحارب الحكومة الإيرانية هو كمن حارب رسول الله في يوم بدر وحنين، وهو بمنزلة أولئك الذين قال الله تعالى عنهم في كتابه المجيد :" يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره المشركون" وجزاء المشرك القتل في الدنيا والعذاب في يوم القيامة. وعلى هذا، فاللازم إبلاغ هؤلاء بلزوم عدم التعرّض للساحة المحمدية الرافعة للواء الإسلام. وكل من يتصرف بخلاف ذلك سوف يعدّ من الكفار الساعين إلى محو واضمحلال هذا الدين المبين، ويجب تكفيره طبقا لأحكام وأدلة القرآن" (محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي، عبد الهادي الحائري وآخرون، ط١/٢٠١٢م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ، ص ٨٥).

الشيخ النائيني يكفر ويحكم بالكفر على كل من تسول له نفسه بالخروج على رضا شاه، ويفتي بأنّه في حكم الشرع كمن يحارب رسول الله، هذا في الوقت الذي نكتب عشرات الكتب، ونطعن في عقيدة أهل السنة في حرمة الخروج على الحاكم بأي مبرر، وإن صنع ما صنع، ونستهزئ بهذه الفكرة والعقيدة، ونحن هنا نجد واحدا من كبار مراجع الشيعة يفتي بالفتوى نفسها، ولا يختلف عنها قيد أنملة، لم ؟؟ يبرر بعض الباحثين : "بأنّ مصدر هذه الفتوى والقناعة والعقيدة التي تبناها النائيني اتجاه الخروج على الشاه تتمثل في الفكرة القائلة إنّه ربما توصل إلى نتيجة مفادها أنّ التعاون مع أصحاب السلطة خصوصا أولئك الذين كان لهم دورهم في السلطة الحاكمة في إيران، أكثر فائدة من الصراع معها. وربما كان مقتنعا أيضا أنّه من خلال علاقات الصداقة مع رجال السياسة الأقوياء يمكن أن يتمكن من الوصول إلى الزعامة المطلقة للعالم الشيعي، فيسهل عليه حينذاك من خلال ذلك المقام والموقع المهم اتخاذ خطوات مفيدة ومؤثرة في طريق إسعاد وإصلاح أتباع المذهب الشيعي في إيران وباقي المناطق في العالم الإسلامي" (محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي، عبد الهادي الحائري وآخرون، ط١/٢٠١٢م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ، ص ٨٩).

المأخذ هنا أنّ النائيني لا يقول بأنّ هذه تمثل رأيه، وتوجهه ولا يلزم بها أحدا، ولكنّه يندفع بقوّة نحو العنف والإقصاء والحرب الفكرية ضد كل من يخالفه في توجهه، ويرتئي خلاف رأيه بأن الخروج على الشاه واجب شرعي، ومن المحرم شرعا أن نقارن بين الشاه ورسول الله في حرمة الخروج عليهما وحربهما معا .. وهذا ما نشير له في العنف من الداخل، والحرب الشعواء لكل من يفكر على خلاف ما نفكر به .. ولله المشتكى.

١٣. الشيخ موسى السوداني (١٩١١- ١٩٨٧م):

" الشيخ موسى بن الشيخ جعفر بن الشيخ باقر السوداني .. ولد في النجف ليلة ٢١ رمضان ١٣٢٩هـ/ ١٥ سبتمبر ١٩١١م، ودرس على أبيه، وعلى جملة من الأفاضل في المقدمات، وحضر عند الميرزا فتّاح الشهيدي، والسيّد محسن الحكيم، والسيّد حسين الحمّامي، والسيد باقر الأحسائي. وبعد انتقاله إلى مدينة سامراء بأمر من المرجع السيّد أبو الحسن الأصفهاني حضر بحوث الخارج عند الميرزا محمود الشيرازي، واختصّ به طوال عشر سنوات متواصلة.

وبعد استقلال الإمام السيّد محسن الحكيم بالمرجعية، أرسله إلى مدينة الحرية ببغداد، عالما موجهًا للاستفادة من طاقته العلمية، فبقي فيها ملتزما إمامة الجماعة. واستغلّ القائمون على كلية أصول الدين وجوده بين ظهرانيهم للتدريس في الكلية، فاستجاب، وأصبح من أساتذة هذه الكلية المرموقين.

وكان يمتاز بأدبه الجم وخلقه القويم وحكمته في التعامل مع المجريات. وكانت هذه السنوات (١٩٧٠-١٩٧٤م) من أشدّ سنوات الحيف التي مرّ بها العراق، خصوصا بعد إعدام أحد أساتذة هذه الكلية وهو الشيخ عارف البصري على يد السلطة العراقية البعثية عام ١٩٧٤م، لثبوت انتمائه إلى حزب الدعوة الإسلامي. وكان الشيخ السوداني من الشخصيات التي تحاول الدعوة على طريقة النصح والتقويم وتوجيه الناشئة للالتزام دون التعرض للمساس بالسلطة، لعلمه بعدم جدوى المواجهة بين القوى غير المتكافئة. وكان يتحمّل من جرّاء ذلك نقد الإسلاميين المضمرين عداءهم للسلطة بشكل عنيف.

وكانت السلطة من جانبها تستغل شخصيات دينية من أمثال الشيخ السوداني، وتزجّهم في واجهة الاحتفالات الدينية، وبعض المناسبات الأخرى. وكان السوداني يستجيب لذلك دفعا للضرر، وحماية لمن يحيط به. بيد أنّ ذلك لم يكن مغتفرا له لدى المغايرين لهذا الاتجاه، مما جرّأ عليه الألسنة، وانحسار النّاس عنه.

كان السوداني عالما من كبار العلماء الربانيين متصفا بالحكمة والأدب الجم والخلق القويم، مع تقوى وورع، واجتهاد ومعرفة. وكان يجمع في دراسته بين القديم والحديث، وله منهجية متينة، وأسلوب متميز، وفهم حاد، وطريقة مثلى في التدريس. وبفعل الظروف السياسية المتشنجة، ضاعت مواهبه، وانحسر نفعه، ولم يستفد أحد منه بما يتناسب مع ما يحمل من خزين علمي وثقالي هائل. توفي في يوم ٣٠ ذي القعدة ١٤٠٧هـ/ ٢٧ يوليو ١٩٨٧م" (تاريخ القزويني، ط١/٢٠١٢م،الخزائن لإحياء التراث، بيروت، مجلد ٢٩، ص ٣٣١).



١٤. السيّد محمد صالح العدناني (١٩١٨- ٢٠٠٧م):

تعرّض الخطيب السيّد محمد صالح العدناني لمحنة قاسية، ولفتنة عمياء جعلته مضغا للألسنة، ومحلا للاغتياب ونهش العرض، والتكالب عليه من كل مكان، في بعض قرى

البحرين والإحساء وبعض المناطق الشيعية في الخليج، حتى أصيب بجرح عميق لم يندمل لآخر أيام حياته، وكان كلما تذكر تلك الأيّام أصيب بلوعة وأسى، وشعر بغصة، إذ كيف يتعامل النّاس بهذه الروح مع الشائعات، ويستسيغون لأنفسهم أن يقلبوا له ظهر المجن، بعد أن كان فيهم المقدم، والخطيب البارز، والعالم المحترم، والكاتب الأول، والشاعر البليغ، كل هذه داستها النّاس تحت أقدامها، وأهين السيّد من قبلها شر إهانة، وحاربوه بكل ما يملكون، وصار في نظرهم ضالا بعد أن كان منارا للهداية، وعدوا لأهل البيت (ع) وللشيعة بعد أن كان منبرا للدعوة لهم ولحبهم عن طريق شعره ومنبره.

حدث هذا عام ١٩٧٢م، وله من العمر ٥٤ سنة، وكان في أوج شهرته، وذيوع صيته، وانتشار كتبه، وكانت الشرارة الأولى حين نشر كتابه المعروف " حصائل الفكر في أحوال الإمام المنتظر (ع)"، والذي حارب فيه الغلو في أهل البيت (ع) والذي لمسه في "الشيخية"، وقد نقل رأي الشيخ الخالصي الذي حارب الشيخية بكل قوة. بعد طباعة الكتاب وانتشاره توجه الشيخية في الإحساء إلى السيّد العدناني وحرّضوا عليه، وحاربوه وعملوا على تشويه سمعته، وإلصاق التهم به، وأهمها عدم الولاء والمحبة لأهل البيت (ع) وإنكار فضائلهم .. يقول السيّد في هذا متحدثا لجريدة الوسط البحرينية :

" أنا اعتبرت في هذا الكتاب أنّ الكشفية غير الشيخية في قضية سفراء الإمام المنتظر، فمن المعروف أنّ للإمام أربعة سفراء، ادّعى عدد كبير من الناس أنّهم سفراء الإمام ومنهم السيّد علي الباب (الإيراني) الذي فتح باب السفارة على مصراعيه، وعيّن عددا من الوكلاء في مختلف الأماكن، وهؤلاء ينتمون إلى الشيخ أحمد الإحسائي (مؤسس مذهب الكشفية)، وتفاجأت لاحقا أنّ الشيخية هم الكشفية، وبعد مرور سنة من توزيع الكتاب في المكتبات في محرم العام اللاحق قام بقيادة الحملة ضدّي أحد خطباء الإحساء الذي قال للمستمعين إنّني اتهمتهم بالمغالاة، وبعثنا الكتاب إليهم وكل من اشترى الكتاب قام بسبي وشتمي، ووصلت الرسائل إلى البحرين بهتانا وزورا، وعقدت ندوات لتوضيح الأمر في القرى والمدن، وقلت لهم إنّني لم أتهم أحدا، بل نقلت ذلك عن الشيخ الخالصي، وناقل الكفر ليس بكافر" (الوسط، ع٧٢١، الجمعة ٢٧ أغسطس ٢٠٠٤م، الموافق ١١ رجب ١٤٢٥هـ).

ويلاحظ هنا أنّ السيّد كان له حضور كبير في الإحساء، وله معرفة وعلاقات متينة مع أبناء المنطقة الشرقية، لذا هو ليس غريبا عنهم، وبالتالي صارت محاربته من الأهمية بمكان بالنسبة لهم، وهو خطيب معروف لأبنائها، حيث يحيي عشرة محرم لديهم سنوات طويلة، ومن هنا كانت أزمته، وتألمه عندما توجهت له السهام من أبناء الشرقية، ومن ثم استطاعوا التأثير في أهل البحرين، خصوصا عندما يكون التحريض بعنوان

أنّ هذا يحارب أهل البيت (ع) ومحبتهم، ولا يؤمن بكراماتهم ومعاجزهم، ويكون مكتوبا مثبتا في أوراق مطبوعة على هيئة كتاب، هنا يصبح التأثير كالسحر، قوي الأثر، وهذا ما كان.

فتكالب الجميع عليه، شيعة الإحساء والمنطقة الشرقية، وكثير من أهل البحرين، إلا القليل من أبناء بعض القرى والتي أشار إليها في بعض قصائده المؤرخة لتلك الأزمة التي ألمت به حينها، من بينها: البلاد القديم، سترة، مني، توبلي، سلماباد، المحرق، والمنامة. ومن الواضح أنّ الأزمة كانت مضاعفة، وألم السيّد ممض، ومحرق، حيث كانت الخطابة هي مورد رزقه، وكان معروفا عنه كثرة مجالسه حتى تصل في اليوم إلى ١١ مجلسا في شهر محرم الحرام، وكانت المآتم تتهافت عليه للتعاقد معه، والفوز به خطيبا عندها، وإذا به يفاجأ بأنّه صار موضعا للنبذ والمحاربة وإقصائه بعيدا، هذا بلا شك سيسبب له جرحا غائرا، وسيودي به إلى التهلكة، وسيحتاج إلى جبل من الصبر في مواجهة هذا الطوفان والبلاء النازل. ونحن حين نحارب بعضنا فإنّنا لا نعرف الهوادة ولا الرحمة أو الوسطية في هذه الحرب والعداء، نندفع كالطوفان الجارف .. كل هذا عاشه السيّد في تلك الأزمة، وخلقت في قلبه حفرة عميقة من النيران على مجتمعه، وأدّت به في النهاية إلى العزلة إلى آخر حياته، وإلى أن مات، والانطواء على كتبه، وأقلامه، والابتعاد عن الناس والمجتمع والمنتديات، والتحرز من الكتابة في أي موضوع فيه إثارة أو غضب للعوام، والاحتفاظ بهذه الآراء مع نفسه، والبوح بها إلى الخلص من أقربائه ومحبيه ومن يثق بهم.

وفي يوم الجمعة ١٣ رمضان ١٣٩٢هـ، الموافق ٢٠ أكتوبر ١٩٧٢م كتب قصيدة بمناسبة مولد الإمام الحسن (ع)، وربما ليشارك بها بعد يومين في أحد الاحتفالات التي تقام لمثل هذه المناسبة عادة، وفيها ذكرَ معاناته مع ما تعرض له من إهانة وتجريح، يقول في تلك القصيدة، والتي عنونها بعنوان " وإذا مروا باللغو مروا كراما" :

بـــــني وطـــــني العـــــرب أهـــــل الخلــــيج
أرى بيننــــــا الشــــــر قــــــد أوقبــــــا
فمـــــاذا التجـــــافي ومـــــاذا الخصــــام
مـــــاذا التقـــــاطع مـــــاذا الوبـــــا
أرى الـــــدين قـــــد ضـــــاع حـــــين النفــــا
ق علـــــى الحـــــق والصـــــدق ســـــلّ الشـــــبا
أرى الحســــــد اليــــــوم فينــــــا اعتلــــــى
أرى الـــــورع اليـــــوم عنـــــا تبـــــا
إذا الفــــــرد منــــــا هفــــــا هفــــــوة

وألقـــوه بـــين الـــورى عرضـــة أشــاعوا عليـــه عظـــيم النبـــا
فـــأين التقـــى أيـــن نهـــي الكتـــاب ليهتـــك عرضـــا وأن يثلبـــا
أمـــا الاغتيـــاب مـــن المفطـــرات عـــن الاغتيـــاب ومـــا أوجبـــا
وفي المقـــت كالأكـــل مـــن ميـــت وفي الإثـــم قـــد فـــاق إثـــم الربـــا
ولم أمتنـــع عـــن جـــواب الخصـــوم هـــل الميـــت ســـرك أن تقربـــا
ولكـــن مـــن عـــاب شخصـــا بمـــا لعجـــز ولا خـــوف أن أغلبـــا
إذا الجهـــل بالجهـــل عارضـــته بـــه عيـــب ظلمـــا بمـــا جنبـــا
ولكـــن تمـــر كريمـــا كمـــن حبيـــت بمـــا الخصـــم منـــه احتبـــى
أمـــا ذاك يشـــمت أعـــداءنا عـــن الكلـــب إذ عضّـــه قـــد أبـــى
ألم يـــك مـــن ذاك خـــير لنـــا إذا الـــبعض ظلمـــا لـــبعض صـــبا
لقـــد شمـــت الخصـــم ممـــا رأى علـــى المنكـــرات بـــأن نقضـــبا
ونحـــن بأعراضـــنا مرتمـــون وشـــاء بنـــا الشـــر أن ينشـــبا
فيـــا قـــوم عـــنكم أميطـــوا الكـــرى فكـــل بكـــل قـــد أعصوصـــبا
ونخلـــق مـــن قومنـــا أمّـــة فقـــد حـــان للصـــعب أن تركبـــا
تعيـــد حقـــوق بـــني يعربـــا

وفي يوم الاثنين ٢٣ رمضان ١٣٩٢هـ الموافق ٣٠ أكتوبر ١٩٧٢م كتب قصيدة طويلة، تبلغ من الطول في عد الأبيات ٦٣ بيتا، كلها ألم وتحسر وغصة، وتعبير عما يختلج في داخله من حرقة مما لقيه من أهله، وشيعة البحرين والمنطقة الشرقية، والذين كانوا بالأمس القريب يقدمونه إماما، وعالما

وخطيبا، وكان فيهم علما وسيّدا مبجلا، أما الآن فقد انقلبوا عليه، وصاروا يفترون عليه التهم، ويلصقون به الأباطيل والأكاذيب، ويتهمونه بما يليق وما لا يليق، وما يعقل وما لا يعقل، فمن جهلهم اتهموه بأنّه صاحب قصيدة" لست أدري" ليدللوا على أنّه صار ملحدا وفاسقا، مع أنّ صاحب تلك القصيدة الشهيرة الطافحة بالشكوك والريب هو شاعر المهجر المعروف إيليا أبو ماضي، واتهموه بأنّه صاحب قصيدة "أين حقي"، مع أنّ مؤلفها وصاحبها هو الشاعر العراقي المعروف السيد محمد صالح بحر العلوم .. وصاروا يمشون بين الناس بتلك التهم، ويشيعون بأنّه يكتب قصائد الإلحاد بعد أن كان يكتب القصائد في رثاء أهل البيت (ع)، كل هذا يشير له السيّد صالح في قصيدته تلك.

لم يكتف القوم بذلك، بل ذهبوا للنجف، في محاولة منهم لاستصدار الفتاوى من كبار المراجع، والتي تدين السيّد، وتحكم عليه بالضلال والزيغ والفسوق، كعادة بعض العوام والمعممين، حين يختلفون مع أحدهم، فإنّ أقوى الأسلحة في تسقيطه وتضليله هو سلاح الفتاوى، والتي تصدر من كبار المراجع، ولكنّهم باؤوا بالفشل، ورجعوا حاسرين، ولم يستطيعوا استخراج فتوى تدين السيّد، والذي ساعد على ذلك موقف النجف السلبي وعلمائها ومراجعها إزاء الشيخية، وأفكارها وعقائدها وعلمائها، هذا الموقف، ومشيهم في تضليل ومحاربة السيّد أصابه في مقتل، وجعله يتألم أشد الألم، فتكفير الرجل، ومحاربته في عقيدته من أعظم ما يشجي الإنسان المتدين، وهذا ما آله وأشار إليه في قصيدته .. وفي القصيدة تجد السيّد قد استشاط غضبا وثورة على قومه مما لقي منهم، حتى شبههم بالنعاج، دلالة على جهلهم وقلة وعيهم، وأنّهم ينعقون مع كل ناعق من دون تفكير ولا روية ولا وازع من دين أو خلق، وما آلمه أكثر أنّه وجد بعض المقربين منه، وبعض أصدقائه والمخلصين له قد انقلبوا عليه، وصاروا ينافقونه في وقت المحنة، وهو أحوج ما يكون وقتها لوقوفهم لجانبه، ومساندته ونصرته والدفاع عنه، بل كانوا يظهرون له الود والحب حين يلقونه، ومن ورائه يحاربونه ويشنعون عليه ويعددون عليه المثالب ويطعنونه من خلفه، فكان يعلم بحالهم وموقفهم ويحترق !!.

وقد أسمى قصيدته المطولة تلك باسم "انتقاض الناس على حصايل الفكر"، وقد كتب مقدمة قصيرة كاشفة عن الجو العام للقصيدة، ومناسبتها وما حدث له من بني قومه بسبب ذلك الكتاب، وهي مقدمة مهمة جدا على قصرها، يكتب قبل الشروع في القصيدة :" تناول الشاعر صاحب الديوان في كتابه (حصايل الفكر في أحوال الإمام المنتظر (ع) ذكر البابية وهم الجماعة الذين ادّعوا أنّهم (أبواب المهدي) فكشف الستار عن عقايد بعض من ينتمي إليهم بأنّ فيها نوعا من الغلو والانحراف، فقامت قيامتهم ضدّه عام ١٣٩٢هـ وأرشوا بعض القضاة في البحرين ليقفوا إلى جنبهم، فأشاعوا الغوغاء

في النّاس واختلقوا الأباطيل والأراجيف حول سمعة الكتاب ومؤلفه بما توضحه هذه القصيدة تحت عناوين :

١. ناقل الكفر ليس بكافر:

بـــني وطـــني مـــاذا الجفـــا والتقـــاطع
أفـــيكم لهـــذي الغايـــة الـــدين ضـــايع
أمـــن كلمـــة ممـــن علمـــتم بقلبـــه
علـــى صـــنفه رجـــس الشـــياطين طـــابع
بطـــرتم فطـــرتم تنعقـــون نعيـــق مـــن
بـــلا ثمـــن إيمانـــه هـــو بـــايع
وقمـــتم ســـراعا تثلبـــون بعـــرض مـــن
لكـــم كـــل وقـــت مـــن هـــداه منـــافع
ألم تعرفـــوني عالمـــا ومعلمـــا
أعـــدّ لكـــم مـــالا تعـــد الجوامـــع
فكـــم ســـقتم مـــني معـــارف غضّـــة
وكـــم شـــنّفت مـــنكم بـــوعظي المســـامع
وكـــم بـــي اقتـــديتم في صـــلاة وكـــم بـــي
اســـتجيب الـــدعا مـــنكم ودرّت مراضـــع
فمـــا الوجـــه في أعمـــالكم تحبطونهـــا
فكـــل إلى الـــبطلان مـــن ذاك راجـــع
وهـــل أحـــد مـــني أصـــاب خطيئـــة
أو اجتحـــت ذنبـــا لـــيس لـــي فيـــه شـــافع
فـــإن كـــان ذنـــبي في الحصـــايل مـــا أتـــى
فـــذاك لمـــن عنـــه حكينـــاه ناســـع
وناقـــل قـــول الكفـــر لـــيس بكـــافر
وإلا فمـــا يبقـــى علـــى الأرض طـــايع
فمـــاذا التـــداعي في انتقـــاص وغيبـــة
لمـــن لـــيس يقصـــيه عـــن الفضـــل مـــانع
أهـــان علـــيكم ديـــنكم أم تغلبـــت
علـــيكم مـــن الـــرجس الـــزنيم نـــوازع

٢. أصدقاء بالوداد تصانع:

بـــني وطـــني قـــد فـــاز مـــن فـــاز بالرشـــا
وأنـــتم نعـــاج دون أجـــر توابـــع

أراكـــم جزافـــا تتعبـــون نفوســـكم
وغيركـــم بالمـــال والســـمن راقـــع
أســـائح لكـــم أن تنســـبوا لـــي فريـــة
قصـــايد كفـــر ذكرهـــا قبـــل شـــايع
فهـــذا يرانـــي (لســـت أدري) قـــائلا
وهـــذا بـــأني (أيـــن حقـــي) واضـــع
ألم تعلموهـــا قبـــل خلقـــي أنشـــأت
وذاعـــت ومجتهـــا الـــورى والمطـــابع
فهـــلا نســـبتم لـــي القـــوانين عنـــدما
يشـــرعها حســـب الدســـاتير شـــارع
لقـــد جمعـــت للمســـلمين ومـــا لهـــا
مـــع الـــذكر والإســـلام في الحكـــم جـــامع
ومـــن عجـــب فيمـــا ارتمـــى النـــاس
ترتمـــــــــــــــــــــــــــــــــــي
لنـــا أصـــدقاء بـــالوداد تصـــانع
تظاهرنـــا ودا وتضـــرم خلفنـــا
شـــواظا فمـــا هـــذا النفـــاق المخـــادع
إذا لم تكـــن خلـــي ظهـــورا وخفيـــة
فـــدونك غـــيري مـــا أنـــا لـــك وادع
يوافيـــك ذو الـــوجهين والثغـــر باســـم
وعنـــك يـــولي وهـــو للســـن قـــارع

٣. اخزتهم هناك المراجع:

لمكـــة ســـاروا والمدينـــة مـــالهم
إلى الله إلا باغتيـــابي شـــافع
ومـــنهم مضـــى نحـــو الأئمـــة زائـــرا
ومـــا لهـــم إلا الوقيعـــة دافـــع
تقلـــب صـــفحات الحصـــايل أن تـــرى
بـــه مـــا بهـــم نحـــو الفســـوق يســـارع
وجمـــع مـــن الطـــلاب في النجـــف انـــبروا
بـــدورهم يجنـــون مـــا الظلـــم زارع
تحـــاول أن تـــأتي المراجـــع مثلمـــا

أتـــــوه فـــــأخزتهم هنـــــاك المراجـــــع
إذا نـــــزّهتني المتقـــــون انـــــبرى لهـــــم
مـــــن القـــــوم مـــــن بالاتهـــــام ينـــــازع
بـــــني وطـــــني مـــــاذا التحـــــدي أمـــــا لكـــــم
لمغفـــــرة مـــــن ربكـــــم أن تســـــارعوا
فـــــإن لم يكـــــن ديـــــن لكـــــم أو مـــــروة
فهـــــلا بكـــــم عـــــاد الحيـــــا والتواضـــــع

٤. بعتم ضميركم ودينكم:

ثم توجه لقومه بالهجاء والثورة، مشبهها إياهم بأهل الكوفة الذين غدروا بمسلم بن عقيل رسول الحسين (ع)، فهما سواء ولا فرق بينهما، فهؤلاء لقي منهم الشاعر الغدر والنفاق كما لقي مسلم من أهل الكوفة، والفارق الوحيد أنّ أهل الكوفة حصلوا على المال مقابل هذا الغدر وبنو قومه لم يحصلوا إلا على الخسران والآثام، وغيرهم من ضللهم وقادهم كالنعاج هو من فاز بالربح والمال، ويرى السيّد في الأخير أنّه لا تفسير لما حصل كله إلا الحسد والغيرة، حسدوه لأنه خطيب بارز ومعروف، وكاتب مشهور، فالحسد هو الذي أعماهم وجعلهم كالفراش الذي يحرق نفسه، وكالنعاج الضالة، وهم يموتون غيظا متى ما رأوا له مؤلفا جديدا، أو مجلس وعظ وذكر يثني عليه المستمعون لمجالسه .. ثم يتساءل بحرقة وألم: أين أهل البحرين المعروفون بالورع والتقوى، وبالفضيلة والعقل ؟! لقد كان من دأبهم أنهم لا يشترون العبد إذا لم يكن يحافظ على صلاة الليل، أما الآن فقد ذهب ذلك كله، وحلّ محله الفسق والغيبة والظلم والنهش في الأعراض، ومحاربة المؤمنين .. ثم يعتذر لأسلوبه وثورته، فهو قد انفعل وثار لأنه يريد الدفاع عن عرضه الذي أهين من غير حق، وسمعته التي ديست بالأقدام من غير دين ولا ورع .. يقول :

بـــــني وطـــــني اســـــتكثرتم حســـــناتكم
فأهـــــديتموني مـــــا أنـــــا عنـــــه قـــــانع
أفيقـــــوا فقـــــد والله طحـــــتم بهـــــوّة
مـــــن الجهـــــل واســـــتولت علـــــيكم زوابـــــع
أكلمـــــة هجـــــر أفقـــــدتكم عقـــــولكم
ومـــــنكم عيـــــون أطمســـــت ومســـــامع
وعـــــدتم فراشـــــا قـــــد تـــــداعى علـــــى اللظـــــى
وابـــــلا ســـــواما جزرتهـــــا القواطـــــع
أتيـــــتم كمـــــا في مســـــلم أهـــــل كوفـــــة

أتـــوا وصـــنعتم مثلمـــا الشـــمر صـــانع
وزدتم علـــيهم أنهـــم بيـــع ديـــنهم
بمـــال فـــذلوا لابـــن ســـعد وبـــايعوا
وأنـــتم بغـــير المـــال بعـــتم ضـــميركم
وديـــنكم مـــن لابـــن هنـــد يضـــارع
فتـــى حبـــه أن لا يظـــل أخـــو هـــدى
علـــى الأرض إلا وهـــو للـــذل ضـــارع
وفي ودّه أن لا يكـــون لـــدى الـــورى
خطيـــب ولا للـــوعظ يوجـــد صـــارع
يحـــارب مـــن يحيـــي لآل محمـــد
شـــعرا وحتـــى الله جهـــرا يخـــادع
وكلـــف ديـــن الله ضـــيقا فمـــا بـــه
لـــذي جنـــف عـــذر ولا الشـــرع واســـع
يمـــوت إذا وافـــى لشـــخص مؤلفـــا
ويحيـــى إذا فيـــه رأى مـــن ينـــازع
ينـــازع فيمـــا لـــيس يهضـــم فهمـــه
ويعطـــس إن أدمـــى لـــه الأنـــف جـــاذع
كمـــا قيـــل إن الخيـــل للنعـــل قـــدمت
فقامـــت تجاريهـــا لـــذاك الضـــفادع
بـــني وطـــني هـــل مثـــل ذا الإفـــك يقتـــدى
بـــه أم لـــه شـــرعا يجـــوز الترافـــع
فـــأين التقـــى أيـــن العفـــاف أمـــا لكـــم
عـــن الإثـــم والعـــدوان نـــاه ووازع
لقـــد كانـــت البحـــرين دار التقـــى فمـــا
بهـــا قـــاطن إلا النقـــي المـــوادع
إذا الـــبرق لا يحيـــي بهـــا الليـــل ردّه
بـــذا العيـــب مـــولاه ولم يـــأب بـــايع
وعـــادت بهـــذا العصـــر مـــأوى الفســـوق لا
يلـــم بهـــا إلا خليـــع ومـــايع
خطيئـــاتهم فيهـــا دجـــى الكفـــر قـــاتم
وطاعـــاتهم فيهـــا ســـنا العجـــب لامـــع
فمـــا مـــؤمن إلا وفيهـــا منابـــت
ولا ظـــالم إلا وفيهـــا مشـــايع
وعـــذرا إذا انخلطـــت في القـــول أنـــني
بـــذلك عـــن عرضـــي ومجـــدي أدافـــع

٥. حفظوا المختار في الآل:

ثم يتوجه بالشكر والثناء البالغ لأهالي بعض القرى في البحرين على وقوفهم معه، ونصرته والدفاع عنه، وعدم تصديق ما أشيع عنه، وأنّهم كانوا نبراسا للإيمان القائم على حسن الظن، وعدم الانجراف وراء الإشاعات المغرضة التي تسيء للمؤمنين وتشق الصف، وتفتت الوحدة، وتفرح العدو بنا حين نفترق ونتعادى ونتصارع، وخصّ بالذكر أهل كل من: البلاد وسترة ومني وتوبلي وسلماباد والمحرق وسماهيج، ويلاحظ هنا أنّ هناك صلة نسب وقرابة تجمع بين السيّد وأبناء تلك المناطق، فله بيت في مني وسماهيج وهو أصله من البلاد القديم، وهذه ظاهرة غريبة وشاذة بالنسبة للذين أرّخنا لهم في هذا الكتاب، فمن المعتاد والمألوف أنّ أوّل وأشد من يقف في وجه الرجل هو أبناء بلده أكثر من الأغراب والبعيدين عنه، أما في حالة السيّد فنجد أنّ أقاربه كانوا أمامه سدّا منيعا في الدفاع عنه، وتفهّم شخصيته والإيمان بمبادئه وما كتبه في كتابه المذكور .. ومن حرقته وتألمه لما أصابه نجده في آخر القصيدة يذكر بأنّه سيتوجه إلى الله بخشوع وسيدعو دعاء صابر ومبتلى على بني البحرين، وذلك لما ابتلي منهم وما جازوه به، وقابلوه من أذى وضغينة وتشهير وتسقيط .. يقول شاكرا ومثنيا ومقدرا إيّاهم:

جـــزا الله خـــيرا بــــالبلاد وســـترة
وأرض مـــني قومــا زكـــتهم مراضــع
وتبلـــي وســـلماباد ثـــم محـــرق
غـــدت أهلـــها عـــن آل طـــه تقـــارع
وبـــالحق مـــن أهـــل المنامـــة قـــد نفـــى
فتـــى خلـــف مـــا فيـــه للظلـــم قـــاطع
وأهـــل سمـــاهيج الـــذين إلى الهـــدى
اســـتجابوا فمـــا مـــنهم إلى البغـــي نـــازع
لقـــد حفظـــوا المختـــار في الآل عنـــدما
أضـــيعت لـــدى البحـــرين منـــه الودايـــع
تحـــاول نـــور الله يطفـــأ وضـــدّها
أبـــى الله إلا أنّ ذا النـــور ســـاطع
فيـــا رب جـــاز المحســـنين بحســـن مـــا
أتـــوا واشـــف مـــن أعمـــت حجـــاه المطـــامع
لكـــم يـــا بـــني البحـــرين دعـــوة صـــابر
يرددهـــا مـــا قـــام لله خاشـــع
سيقضـــى علـــيكم وقعهـــا مثلمـــا قضـــى

علــــى آل حــــرب مــــن دعـــا الســـبط واقـــع

(ديوان عرائس الجنان، ط١/١٩٨١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٢، ص ١٠٧).

١٦. جعفر الخليلي:

ينقل لنا الأديب والمؤرخ جعفر الخليلي النجفي شيئا من معاناته، وذلك في معرض حديثه عن اضطهاد الشاعر أحمد الصافي النجفي، إذ يكتب :

" ولحقت النقمة على تمرد الصافي على التقاليد من لدن بعض الجامدين إلى مدينة (بنت جبيل) ومدينة (بنت جبيل) هي أقصى مدن الجنوب من لبنان المجاورة لأرض فلسطين والتي نالها اليوم بسبب معارك الجنوب ما نالها من الخراب وتشرد السكان وهي كالنجف لأنّ معظم علمائها و أدبائها قد تخرجوا في مدارس النجف، فكما تحمل النجف من الأفكار الحرّة، عند أهل العلم والأدب، فإنّ هناك طائفة من المتزمتين الجامدين الذين لا يستسيغون حرية الفكر والذين من السهل عليهم تكفير النابهين والخارجين على التقاليد البالية، حتى وإن بلغ هؤلاء النابهون والمفكرون درجة (الاجتهاد)، فهم كفار في نظر أولئك الجامدين، وطالما سقط علماء فحول في الفقه والأصول من أعلى القمم إلى الحضيض بكلمة واحدة من أولئك الجامدين المتحجري الأدمغة، ومن التابعين لهم من العوام، ولقد لقيت أنا نفسي من العنت والأذى ومحاولة الاغتيال، وحرق مكتبتي، وحرق بيتي، يوم كنت أصدر جريدة (الفجر الصادق) و (الراعي) و (الهاتف) في النجف، تلك الصحف التي حاربت فيها - وأنا ذاك شاب كثير الحماس، جريء إلى حد ما - التقاليد البالية التي كان من بعض نتائجها أن سقطت مضرجا بالدماء أمام بيتي ذات ليلة وأنا أحاول دخول الدار فلم أع إلا وأنا غارق في بحر من الدم وظللت ملازما للسرير أياما بسبب الجروح" (هكذا عرفتهم، ج٦، ص٢٢٠، فصل أحمد الصافي النجفي).

الفهرست :